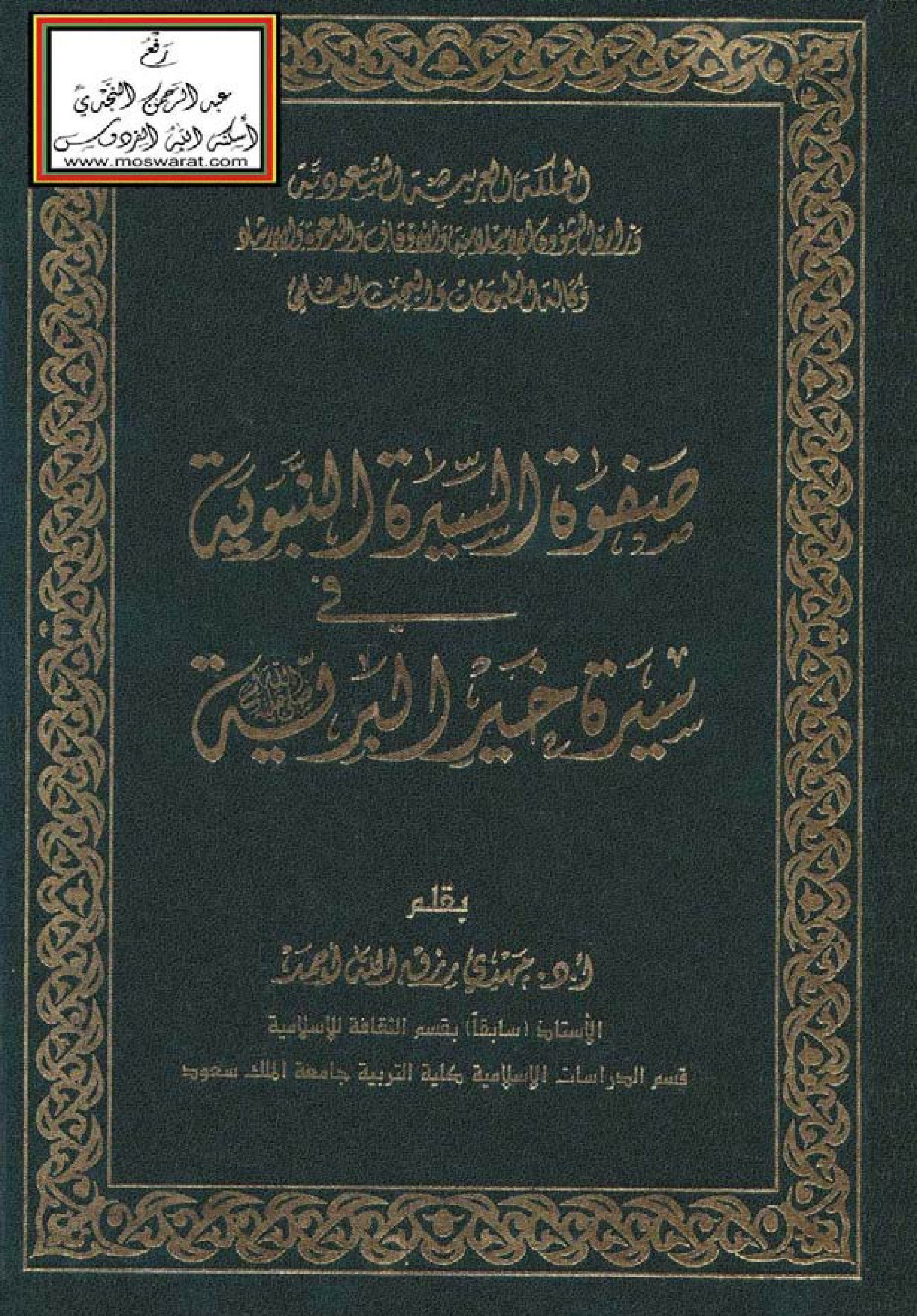

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
المملكة العربية السعودية
وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد
وكالة المطبوعات والبحث العلمي
صفوة السيرة النبوية
في
سيرة خير البرية ﷺ
بقلم
أ. د. مهدي رزق الله أحمد
الأستاذ (سابقاً) بقسم الثقافة الإسلامية
قسم الدراسات الإسلامية كلية التربية جامعة الملك سعود


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

صفوة السيرة النبوية
في
سيرة خير البرية ﷺ

بقلم
أ.د. مهدي رزق الله أحمد
الأستاذ سابقا بقسم الثقافة الإسلامية
قسم الدراسات الإسلامية كلية التربية جامعة الملك سعود

وكالة المطبوعات والبحث العلمي
وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد
المملكة العربية السعودية
١٤٣٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

أحمد ، مهدي رزق الله

صفوة السيرة النبوية في سيرة خير البرية صلى الله عليه وسلم .

/ مهدي رزق الله أحمد - الرياض، ١٤٣٠هـ .

٥٣٢ ص ؛ ٢٤x١٧ سم

ردمك : ٢ - ٦٥٦ - ٢٩ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

١ - السيرة النبوية　　أ - العنوان

ديوي ٢٣٩　　١٤٣٠/٤٠٠٩

رقم الإيداع : ٤٠٠٩ / ١٤٣٠

ردمك : ٢ - ٦٥٦ - ٢٩ - ٩٩٦٠ - ٩٧٨

الطبعة الرابعة

١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢م



بسم الله الرحمن الرحيم



شكر وتقدير

أشكر الله ﷻ أولاً الذي وفقني لتأليف هذا الكتاب وأشكر كل من كان سبباً في جعل هذا الكتاب مقرراً دراسياً في الجامعات والمعاهد العليا، خاصة بالمملكة العربية السعودية، أو جعله مرجعاً معرفياً لحلقاته الإذاعية أو المسجدية في دراسة السيرة النبوية.

وأشكر كل من أشاد بهذا العمل ووصفه بأكثر مما يستحق، وذلك عبر الفضائيات أو مجالس العلم أو الأشرطة التسجيلية وغيرها من الوسائل.

وأشكر القائمين على أمر الندوة العالمية للشباب الإسلامي، مكتب الدمام، خاصة الأستاذ الدكتور محمد الجار الله، الذين بادروا إلى ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية. كما أشكر الذين اتصلوا بي لترجمته إلى لغات عالمية حية أخرى كالفرنسية والإسبانية.

وأشكر كل من أعانني بنصيحة أو بمشورة أو بتشجيع معنوي، أو بإعارته إياي بعض المصادر والمراجع؛ وذلك عملاً بقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ : «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»(١).

وأسأل الله أن يوفق الجميع إلى ما فيه الخير.

---

(١) رواه الترمذي: السنن (٣/ ٢٢٨)، من حديث أبي هريرة ﷺ وصححه. وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٧٠٢، ح٤١٦).



الإهــداء

أهدي هذا الكتاب إلى أساتذة السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي في المؤسسات التعليمية المختلفة، وإلى الدعاة إلى الله وطلبة العلم الباحثين عن الحقيقة، وإلى عامة المسلمين وغير المسلمين الذين يرغبون في معرفة سيرة الرسول ﷺ في ضوء الروايات الموثقة، ووفق مناهج المحدثين رواية ودراية. سائلاً الله ﷻ أن ينفع به ويتقبله.

ونهديه بصفة أخص إلى القائمين على أمر التربية والتعليم بالمعاهد العليا والجامعات، وعلى رأسهم رؤساء الدول والوزراء، آملين أن يجعلوا سيرة الرسول ﷺ متطلباً دراسياً إجبارياً على كل طلاب المؤسسات التعليمية.

وأسأل الله العلي القدير أن يوفّقهم في هذا الاتجاه، وهذا ما نملكه.

ونهديه إلى كل من أشاد بهذا العمل، ودعمنا دعماً معنوياً شجعنا على مواصلة التنقيح والزيادة والاختصار.

ونهديه إلى أفراد أسرتي وعلى رأسهم الزوجة أم تماضر، لصبرها على ضرتها ـ مكتبتي ـ التي تأخذ معظم وقتي، وتترك لهم فضول الوقت، وليس أدل على صبرها من أن زوجها لم يعرف في حياته ما يسمونه الإجازات أو العطل، حتى الجمعة .

ونهديه إلى أهلنا ببلدة الجابرية بمحافظة الدبة بشمالي السودان، الذين تعلمنا منهم أهمية العمل الدؤوب، وغرست حلق ذكرهم لقراءة البرزنجي في السيرة النبوية ومدح الرسول ﷺ خاصة سيرته في المعجزات والشمائل، غرست فينا حب الرسول ﷺ منذ نعومة الأظفار.

ونهديه إلى كل أهل السودان الذين اشتهروا بحب سيرة خير الأنام، وأسهموا في ميلاد هذا العمل الذي بين أيديهم الآن.



المقدمة

منهج البحث:

إن مرويات سيرة الرسول ﷺ كثيرة جداً؛ ولذا يلحظ القارئ لكتابنا هذا أننا قد أهملنا طائفة من الروايات الضعيفة التي لا تنجبر، وإن أكثر من روايتها بعض أهل المغازي والسير والتاريخ والشمائل والخصائص؛ لأن هدف البحث ليس استقصاء جميع مرويات السيرة النبوية، بل الهدف رسم هيكل عام للسيرة العطرة يستوعب معظم الصحيح والحسن لذاته والحسن لغيره. وإذا استأنست بما دون ذلك من الروايات الضعيفة سنداً ولا تنجبر، اخترت منها مالا يتعارض متنه مع الروايات التي يحتج بها.

تمتاز هذه الطبعة بأن الاختصار كان في الحواشي، وبقي أصل المادة العلمية لأهميتها لمعظم المستويات الثقافية.

واختصرت في ذكر عدد مصادر الروايات، واختصرت اسم المصدر، فمثلا: إذا قلت: أحمد، فيعني في المسند، وإذا قلت: ابن إسحاق، فيعني عند ابن هشام في السيرة، وإذا قلت: ابن إسحاق في السير، يعني السير والمغازي، وعلى القارئ - إذا أراد - أن يرجع إلى كتب المصادر والمراجع ليقف على كامل العنوان.

لقد حرصت أن تكون معلوماتي موثقة- أي منسوبة إلى مصادرها- ليتيسر للقارئ التأكد من صحة النقل أو الاستزادة من المعلومات التي وردت مختصرة. علماً بأن المصادر ليست على درجة واحدة من الالتزام بإيراد الروايات الصحيحة أو الحسنة أو المقبولة عند الاحتجاج بها حسبما فصله علماء الحديث، هذا مما لا يخفى على المبتدئين من طلاب هذا العلم الجليل.

ورأيت أن يعتمد هذا الكتاب في معلوماته على مصادر السيرة النبوية المختلفة الدرجات، وعلى رأسها كتاب الله ـ سبحانه عز وجل ـ ثم الروايات الروايات المعتمدة عند المحدثين في كتب التفسير، وكتب الحديث، وعلى رأسها الصحيحان، والروايات المعتمدة في كتب المغازي والسير، وأن أذكر درجة الرواية باختصار؛ ليعرف ما إن كانت مما يحتج بها أو لا، وذلك في ضوء آراء أهل الحديث ونقاده ومحققيه. وما سكت عنه فهو من باب الضعيف الذي لا ينجبر، ورأيت أن استنبط من كثير من أحداث السيرة بعض رؤوس المسائل الفقهية والحكم والعبر.

(٢) أهداف دراسة السيرة النبوية:

(أ) أن يقف الدارس للسيرة النبوية على التطبيق العملي من قبل الرسول ﷺ وأصحابه ﷺ لأحكام الإسلام التي تضمنها القرآن الكريم والسنة النبوية العطرة في مجالات الحياة المختلفة.

(ب) أن الاقتداء برسول الله ﷺ يقتضي معرفة شمائله ودلائل نبوته، يقول الله ﷻ في هذا ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب]، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران].

(ج) أن معرفة ما حلفت به السيرة النبوية من مواقف إيمانية عقدية وقفها الرسول ﷺ وأصحابه لإعلاء كلمة الله تقوي من عزائم المؤمنين السائرين على درب الرسول ﷺ وتثبتهم للدفاع عن الدين والحق، وتقذف في قلوبهم الطمأنينة.

(د) أن السيرة النبوية هي المثل الأعلى للإنسان شبه الكامل - والكمال لله- في جميع الجوانب.

(هـ) أن يجد المرء في السيرة النبوية ما يعينه على فهم كتاب الله ـ عز وجل ـ في جميع الجوانب، ففي السيرة بيان لأسباب نزول القرآن الكريم.

(و) أن يحصل دارس السيرة النبوية على قدر كبير من المعارف الصحيحة

في علوم الإسلام المختلفة: من عقيدة وشريعة وأخلاق وتفسير وحديث وسياسة ودعوة وتربية واجتماع . . . . إلخ.

(ز) أن يتعرف الدارس للسيرة على تطور الدعوة الإسلامية، وما كابده الرسول ﷺ وأصحابه لإعلاء كلمة الله ﷻ وما واجهه هو وأصحابه ﷺ من مشكلات، وكيفية التصرف في تذليل تلك العقبات، وحل تلك المشكلات.

(ح) أن المعجزات التي أجراها الله ـ عز وجل ـ على يدي نبيه محمد ﷺ لا تفهم جيداً إلا في ضوء معرفة وقائع أحداث السيرة النبوية التي حدثت من خلالها تلك المعجزات التي تقوي وتزيد إيمان المسلم.

(ط) أن يقف الدارس المحقق على الروايات الصحيحة التي يمكن الاحتجاج بها في مجالات الدراسات الإسلامية المختلفة، وهو مطلب ملح جداً لطلاب العلم الأصيل.





تمهيد

ـ ١ ـ

مكــة قبل الإسلام

نشأة مكة:

هاجر إبراهيم عليه السلام من العراق إلى الشام، ثم من الشام إلى مصر. وكان يحمل معه في ترحاله هذا رسالة التوحيد، وكانت ترافقه زوجته سارة، وكانت امرأة جميلة، وكان من عادة ملك مصر ـ آنذاك ـ أن يستأثر لنفسه بكل امرأة جميلة. وشاء الله أن يصرفه عن سارة، وتنقلب منه بجارية تخدمها، وهي هاجر أم إسماعيل عليه السلام [البخاري].

ولما كانت سارة عقيماً، وطعن إبراهيم عليه السلام في السن، وابيض شعره، رأت أن تهب له الجارية هاجر؛ ليتزوجها، لعل الله يرزقه منها ذرية صالحة، وشاء الله أن تلد له هاجر ابنها الأول، فسماه إسماعيل. [فتوح مصر؛ الازرقي].

واشتدت الغيرة بسارة عندما ولدت هاجر إسماعيل، فحلفت لتقطعن منها ثلاثة أعضاء. [الفتح]. فاتخذت هاجر منطقاً له ذيل، فشدت به وسطها، وهربت مع زوجها، وهي تجر ذيلها؛ لتخفي أثرها عن سارة. ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل، وهي ترضعه، حتى وضعهما عند مكان البيت الحرام، عند دوحة فوق زمزم، في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذٍ أحد، وليس بها ماء، ووضع عندها جراباً فيه تمر، وسقاءً فيه ماء، ثم قفل راجعاً، فتبعته هاجر، فقالت: «يا إبراهيم، أين تذهب، وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء؟» فقالت له ذلك مراراً، وهو لا يلتفت إليها، فقالت له أخيراً: «آلله الذي أمرك بهذا؟»، قال: «نعم»، قالت: «إذن لا يضيعنا». ثم

رجعت. فانطلق إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرى، استقبل بوجهه مكان البيت، ثم دعا قائلاً: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾، حتى بلغ ﴿يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

لم يلبث أن نفد ما عند هاجر من ماء، فعطشت هي وابنها، فكرهت أن تنظر إلى ابنها، وهو يتلوىٰ من العطش، فانطلقت حتى قامت على أقرب جبل منها، وهو الصفا، ثم استقبلت الوادي لتنظر، هل ترى أحداً. فلما لم تر أحداً هبطت من الصفا، حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت، هل ترى أحداً، فلم تر أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات ـ وذلك سعي الناس بينهما كما قال الرسول ﷺ ـ وفي نهاية المرة السابعة جاءها الملك جبريل، وأخذ يبحث بعقبه أو بجناحه عن موضع زمزم، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه، ثم تغرف منه في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف منه، وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم»، أو قال: «لو لم تغرف من زمزم لكانت زمزم اليوم عيناً معيناً». [البخاري]. فشربت، وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: «لا تخافوا الضيعة؛ فإن هذا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله».

وبينما هي على هذه الحال، مر بهم أهل بيت من قبيلة جرهم اليمانية القحطانية، وعندما وجدوا الماء، استأذنوها في النزول عندها، فأذنت لهم بشرط أن لا يكون لهم حق في الماء، فوافقوا، وأرسلوا إلى بقية أهليهم فنزلوا معهم، وشب الغلام بينهم، وتعلم اللغة العربية منهم، وأعجبهم حين شب، فلما كبر زوجوه امرأة منهم. [وقيل إن زوجته الأولى كانت من العماليق] [البداية].

وعندما ماتت هاجر جاء إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ ولم يجد حينها ولده إسماعيل بالبيت، فأخبرته زوجه أنه خرج في حاجتهم، وعندما سألها عن عيشهم، شكت إليه مر الشكوى مما يلاقيانه من شدة، فأوصاها أن تقرئه السلام، وتقول له: أن يغير عتبة بيته، فعندما عاد إسماعيل أخبرته زوجته بالذي حدث، فعرف من وصفها أنه أبوه، وفهم الوصية، وفهم أن

العتبة تعني زوجته، فطلقها، وتزوج امرأة أخرى. وبعد مدة من الزمان عاد إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ مرة أخرى، فلم يجد إسماعيل بالمنزل، وسأل زوجه عن عيشهم، فحمدت الله، وأثنت عليه بما وسع عليهم في الرزق، فأوصاها بأن تقرئه السلام، وتقول له أن يثبت عتبة بيته. فعندما عاد إسماعيل وأخبر بما حدث، عرف أباه وفهم وصيته، فأمسك عليه زوجه.

ثم غاب إبراهيم ما شاء الله، ثم عاد، ووجد ابنه من وراء زمزم يصلح نبلاً له تحت دوحة عظيمة قريبة من زمزم، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد مع الولد، فطلب إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ من ابنه أن يعينه بما أمره الله به، وهو بناء الكعبة على مكان مرتفع قرب زمزم، فكان إبراهيم يبني، ويأتيه إسماعيل بالحجارة، حتى ارتفع البناء، فجاءه بحجر المقام، فوضعه له، فقام عليه، وكانا يقولان ـ وهما يبنيان ـ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧] [البخاري].

وليست هذه هي المرة الأولى التي يعين فيها إسماعيل أباه على طاعة الله وتنفيذ أمره. فقد ثبت أن إبراهيم عاد إلى مكة عندما شب إسماعيل، وقد أوحى الله إليه مناماً أن يذبحه قرباناً لله ـ تعالى ـ فاستشار إبراهيم ابنه إسماعيل في ذلك قائلاً: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ فأجاب إسماعيل قائلاً: ﴿. . . يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢ ـ ١٠٧].

وخرج به إلى منى لتنفيذ أمر ربه، ولما تله للجبين ـ والسكينُ بيده ـ ناداه ربه: ﴿. . . أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ . . .﴾ وفداه الله بذبح عظيم ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٢ ـ ١٠٧]، أي بكبش أملح كبير، فترك الولد وذبح الكبش، وفاز الوالد والولد برضا الله ـ تعالى ـ [زاد المسير].

وعندما فرغ إسماعيل وإبراهيم من بناء البيت، أمر الله نبيه إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧]، فقيل: صعد عليه السلام جبل أبي قبيس أو الحِجر أو الصفا، ونادى باسم الله ـ تعالى ـ قائلاً: «أيها الناس! إن ربكم بنى لكم بيتاً فحجوه». فأسمع الله نداءه كل مخلوق، ومن كتب الله أنه يحج إلى

يوم القيامة، فلبى قائلاً: «لبيك اللهم لبيك». [تفسير ابن كثير].

ودعا إبراهيم وإسماعيل ربهما بما حكاه عنهما القرآن الكريم: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩] [تفسير الطبري]. قال الطبري [التفسير]: «وهذه دعوة إبراهيم وإسماعيل لنبينا محمد ﷺ خاصة، وهي الدعوة التي كان نبينا محمد ﷺ يقول عنها: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى...»».

وعاش إسماعيل بجوار البيت الحرام مع أصهاره جرهم إلى أن بعثه الله رسولاً إليهم وإلى كافة من بالحجاز من قبيلة العماليق وأهل اليمن [البداية]. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

وأنجب اثني عشر ولداً ذكراً. وقد سماهم محمد بن إسحاق، ونقل ذلك عنه ابن كثير [في البداية]، وأولهم نابت وقيذار. ونابت هو الذي اختير لأن يكون من آباء دعوة إبراهيم وإسماعيل. واختفت حلقات السلسلة الذهبية فيما بين نابت وعدنان لأسباب غامضة غير معروفة. وكان عدد الآباء بين نابت وعدنان يقدر بستة آباء، وقد عاشوا جميعاً بالحرم المكي، ومع هذا لم تضبط أسماء هؤلاء الآباء الستة. وقد جزم الرسول ﷺ بنسبه إلى عدنان، أما أجداده الذين بين عدنان وإسماعيل فمختلف فيهم. [ابن عساكر].

وعندما مات إسماعيل دفن مع أمه في الحجر، وكان عمره مائة وسبعاً وثلاثين سنة. وينتسب كل عرب الحجاز إلى ولديه نابت وقيذار [البداية].

هذا وتجدر الإشارة هنا إلى أن عهد إبراهيم عليه السلام كان في القرن التاسع عشر قبل الميلاد. [أحمد سوسة: العرب واليهود في التاريخ].

تعدد بناء الكعبة:

المرة الأولى: عمارة الملائكة، كما روى الأزرقي.

المرة الثانية: عمارة آدم عليه السلام، كما روى البيهقي في [الدلائل] وغيره [السبل].

المرة الثالثة: عمارة أولاد آدم عليه السلام، كما روى الأزرقي وغيره، عن وهب بن منبه، وذكر السهيلي أن الذي بناها شيث بن آدم عليه السلام.

المرة الرابعة: عمارة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام التي ذكرناها، وجزم ابن كثير في [البداية] بأن هذا كان أول بناء. قال: «ولم يجئ في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام، ومن تمسك في هذا بقوله: ﴿. . مَكَانَ ٱلْبَيْتِ . .﴾ فليس بناهض ولا ظاهر؛ لأن المراد مكانه المقدر في علم الله، المقرر في قدرته، المعظم عند الأنبياء موضعه، من لدن آدم إلى زمان إبراهيم». وقال الشامي معلقاً على كلام ابن كثير هذا: «. . وفيه نظر؛ لما ذكر من الآثار السابقة واللاحقة».

المرة الخامسة والسادسة: عمارة العماليق ثم جرهم، كما نقل الشامي من رواية ابن أبي شيبة، وإسحاق بن راهويه في مسنده، وابن جرير وابن أبي حاتم، والبيهقي في [الدلائل] عن علي رضي الله عنه. قال السهيلي: «وقد قيل: إنه بني في أيام جرهم مرة أو مرتين؛ لأن السيل كان قد صدع حائطه، ولم يكن ذلك بنياناً على نحو ما قدمنا، إنما كان إصلاحاً لما وهى منه، وجداراً بني بينه وبين السيل، بناه عامر الجارود، وقد تقدم هذا الخبر» [وانظر بناء العماليق في دلائل البيهقي (٢/ ٥٦ ـ ٥٧)؛ وأخرج الحاكم الرواية (١/ ٤٥٨) وصححها، وأقره الذهبي].

المرة السابعة: عمارة قصي بن كلاب ـ جد النبي ﷺ ـ قال الشامي: «نقله الزبير بن بكار في كتاب النسب، وجزم به الإمام أبو إسحاق الماوردي في الأحكام السلطانية».

المرة الثامنة: عمارة قريش، حين كان للرسول ﷺ خمسة وثلاثون عاماً، كما سيأتي ذكره في المبحث الخاص بمشاركة الرسول ﷺ في بناء الكعبة.

المرة التاسعة: عمارة عبد الله بن الزبير، كما روى الشيخان وغيرهما، وسيأتي ذكرها.

المرة العاشرة: عمارة الحجاج بن يوسف بأمر عبد الملك بن مروان

الخليفة الأموي، كما روى الإمام مسلم. وعندما شكك عبد الملك في سماع ابن الزبير من خالته عائشة رضي الله عنها حديث الرسول ﷺ: «لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية ـ أو قال: بكفر ـ لهدمتها، وجعلت لها غلقاً، وألصقت بابها بالأرض، وأدخلت فيها الحجر»، أكد له الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة ـ المعروف بالقباع، وأخو عمر بن أبي ربيعة، الشاعر المشهور ـ أنه سمعه منها، فندم على نقضه وإعادته. [مسلم].

وروي أن الرشيد العباسي عزم على نقضها وإعادتها كما بناها ابن الزبير، فقال له مالك بن أنس: أنشدك الله ـ يا أمير المؤمنين ـ أن لا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك بعدك، لا يشاء أحد منهم أن يغيره إلا غيره، فتذهب هيبته من قلوب الناس. فصرفه عن رأيه فيه. [البداية].

المرة الحادية عشرة: بناء السلطان مراد خان العثماني، سنة ١٠٤٠هـ ـ ١٦٣٠م، ذكره محمد علي بن علان في رسالته التي بهذا الشأن، وسببه أن السيل أسقط منها بعض الأجزاء. [إخبار الكرام للمكي].

دلت الآيات القرآنية التي نزلت في شأن بناء الكعبة، والأحاديث الصحيحة التي رواها البخاري وغيره على أن أول من بنى الكعبة هو إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام. وقد كان مكان البيت ربوة عالية مشرفة على ما حولها، معروفة للملائكة، ولمن سبق من الأنبياء، وبقعة مشرفة معظمة من قديم الزمان حتى جاء الخليل، فأسس قواعده، وبناه.

أما الروايات التي تقول ببناء الكعبة قبل هذا فأغلبها موقوفة على بعض الصحابة أو التابعين، ورواها أهل التاريخ والسير كالأزرقي، والفاكهي، وبعض المفسرين والمحدثين الذين لا يلتزمون إخراج الروايات الصحيحة أو الحسنة. وقد مر بك قول ابن كثير: «ولم يجئ في خبر صحيح عن معصوم أن البيت كان مبنياً قبل الخليل عليه السلام».

ويقول أبو شهبة [السيرة] بعد ترجيحه كلام ابن كثير ـ: «ولا ينافي ما رجحناه، وذهبنا إليه ما روي أنه ما من نبي إلا وقد حج البيت»، وما رواه أبو يعلى في مسنده بسنده عن ابن عباس قال: حج رسول الله ﷺ، فلما أتى

وادي «عُسْفَان» قال: «يا أبا بكر، أي وادٍ هذا؟»، قال: هذا وادي عُسْفَان، قال: «لقد مرَّ بهذا نوح، وهود، وإبراهيم، على بَكَرَاتٍ لهم حُمْرٍ، خُطُمُهُمُ اللِّيفُ، وأُزُرُهم العَباء، وأرْدِيَتُهُم النِّمار، يحجون البيت العتيق»، وما رواه الإمام أحمد في مسنده بسنده عن ابن عباس، قال: لما مر النبي ﷺ بوادي عُسْفَان حين حج قال: «يا أبا بكر، أي وادٍ هذا؟»، قال: وادي عُسْفَان، قال: «لقد مَرَّ به هود، وصالح عليهما السلام على بَكَرَاتٍ لهم حُمْرٍ، خُطُمُ اللِّيف، وأُزُرُهم العَباءُ، وأرْدِيَتُهُم النِّمَارُ، يلبون يحجون البيت العتيق»، إسناده حسن. وقد تقدم في قصة نوح (١/ ٢٧٨) عليه السلام، . . . ، وفيه نوح وهود وإبراهيم». يقول أبو شهبة: لأن المقصود الحج إلى محله، وبقعته المعروفة، وإن لم يكن ثم بناء. [البكرات: جمع بكرة، وهي الناقة الفتية القوية؛ وخطم: جمع خطام، وهو الزمام الذي تشد به الناقة؛ والأزر: جمع إزار، وهو ما يستر به أسفل الجسم من الوسط؛ والأردية: جمع رداء، وهو ما يوضع على الكتفين، ويستر به النصف الأعلى. والنمار جمع نمرة، وهو الكساء المخطط].

عمل عبد الله بن الزبير وغيره في عمارة الكعبة:

عندما قرر ابن الزبير تجديد الكعبة، باشر المسلمون نقضها حتى بلغوا بها الأرض، فأقاموا أعمدة من حولها، وأرخوا عليها الستور، ثم باشروا في رفع بنائها، وزادوا عليها الأذرع الستة التي أنقصتها منه قريش، وزادوا في طولها إلى السماء عشرة أذرع، وجعلوا لها بابين من الشرق والغرب، أحدهما يدخل منه، والآخر يخرج منه، وذلك استناداً إلى قول الرسول ﷺ الذي رواه الشيخان: «يا عائشة، لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية لأمرت بالبيت فهدم، فأدخلت فيه ما أخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له باباً شرقياً، وباباً غربياً، فبلغت به أساس إبراهيم»، أو في معنى هذا.

وذكر الأزرقي، أن إبراهيم عليه السلام جعل طول بناء الكعبة في السماء تسعة أذرع، وطولها في الأرض اثنتين وثلاثين ذراعاً، وعرضها في الأرض اثنتين وعشرين ذراعاً، وكانت بغير سقف. وحكى السهيلي أن طولها في السماء

كان تسع أذرع من عهد إسماعيل، فلما بنتها قريش قبل الإسلام، زادوا فيه تسع أذرع، فكانت ثماني عشرة ذراعاً، ورفعوا بابها عن الأرض، فكان لا يُصعد إليها إلا في دَرَج أو سُلَّم، وقد ذكرنا أن أول من عمل لها غَلَقاً هو تُبَّع، ثم لما بناها ابن الزبير زاد فيها تسع أذرع، فكانت سبعاً وعشرين ذراعاً، وعلى ذلك هي الآن».

لم يكن للمسجد الحرام سور، وكانت تحيط به الدور من كل الجهات، وعندما رأى ابن الخطاب أن المسجد قد ضاق بالحجاج والزوار، اشترى الدور التي حوله من أهلها، فوسَّعه، وجعل له سوراً على قامة الرجل، وأناره. [الأزرقي؛ السهيلي]. وعندما رأى عثمان رضي الله عنه أن المسجد ـ أيضاً ـ قد ضاق بالحجاج والمعتمرين اشترى دوراً أخرى، فوسع بها الحرم. [الأزرقي]، وكذلك فعل ابن الزبير [الأزرقي].

ولم يزل الخلفاء والأمراء من ذلك الزمان يتعهدون الحرم بالتوسعة [الأزرقي] إلى زماننا هذا الذي يشهد فيه أضخم توسعة على يد الحكومة السعودية، فجزاهم الله خيراً.

وانظر في هذا بحثنا المشار إليه قبل صفحتين.

مقام إبراهيم عليه السلام:

المقام: هو الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم عليه السلام لما ارتفع البناء عن قامته كما ذكرنا، وقد تركت قدماه أثراً فيه، وظل هذا الأثر إلى أول الإسلام، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم، وفي هذا يقول أبو طالب:

وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة
على قدميه حافياً غير ناعل [البداية]

وقد روي أن المقام كان ملصقاً بحائط الكعبة، على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأخَّره عن البيت قليلاً، توسعة على الطائفين والمصلين عند المقام، ووافق الصحابة على عمل الفاروق. [عبد الرزاق، صحيح؛ البيهقي، صحيح].

وقد سبق أن وافق الله ـ تعالى ـ على قوله لرسول الله ﷺ: «لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى»، فأنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] [البخاري؛ أحمد، صحيح].

وتجدر الإشارة هنا إلى أن إبراهيم عليه السلام بنى ـ أيضاً ـ المسجد الأقصى، وقيل: إن يعقوب عليه السلام هو الذي أسسه. وقد كان بين البناءين أربعون عاماً، كما قال الرسول ﷺ [متفق عليه].

أما الحديث الذي رواه النسائي [السنن، صحيح]، وفيه أن سليمان بن داود عليهما السلام هو الذي بنى المسجد الأقصى، فالمقصود بالبناء هنا هو التجديد كما ذكر السيوطي، وابن القيم، وابن حجر، واستعمال البناء بمعنى التجديد وارد في اللغة العربية، كما قال الدكتور أبو شهبة.

انظر الملحق (١) خريطة «منازل أهم قبائل الجزيرة العربية قبل البعثة النبوية»





ـ ٢ ـ
حالة العالم حين بعث محمد ﷺ

لقد عاشت البشرية في ظلام من الجاهلية في القرنين السادس والسابع الميلاديين، إذ سادت الوثنيات والخرافات والعصبيات والقبليات والطبقيات والمفاسد الاجتماعية والسياسية، وحرفت معظم الأفكار الإصلاحية السليمة، سواء التي جاء بها أنبياء الله المرسلون، أو الحكماء الذين استقامت فطرهم على الحق. وقد عبر الرسول ﷺ عن هذه الحقيقة في قوله: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم جميعاً إلا بقايا من أهل الكتاب» [مسلم].

وفي الصفحات القليلة التالية، نذكر باختصار، ما كانت عليه الجزيرة العربية في تلك الفترة، لبيان ضرورة رسالة النبي ﷺ وما تضمنته من أسس ومعايير كانت ـ وما زالت، وستظل ـ عوامل رئيسة في بناء الحضارة الإنسانية.

١ ـ في الجزيرة العربية

أولاً: الحالة السياسية:

أ ـ الملك باليمن:

إن من أقدم الشعوب التي عرفت باليمن من العرب العاربة قوم سبأ الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم، ويبدأ ازدهار حضارتهم ونفوذ سلطانهم بأحد عشر قرناً. وفي سنة ثلاثمائه للميلاد غلبت على ملكهم قبيلة حمير، ثم بدأت اليمن في طور الانحطاط، وأخذت القبائل القحطانية في الهجرة إلى البلاد المختلفة.

وتوالت عليهم الاضطرابات والحروب الأهلية في المئتين والسبعين سنة التي سبقت دخول الإسلام اليمن، مما أتاح للأجانب القضاء على استقلالهم. فدخلت الرومان عدن، وبمعونتهم احتلت الأحباش اليمن لأول مرة سنة ٣٤٠م، مستغلين التنافس بين قبيلتي همدان وحمير، واستمر احتلالهم إلى سنة ٣٧٨م، ثم نالت اليمن استقلالها، ولكن سلط الله عليهم سيل العرم سنة ٤٥٠م أو ٤٥١م فهدم سد مأرب الذي جعله الله مصدر نعمة ورخاء لهم. [تاريخ اليعقوبي]. وكل ذلك بسبب عتوهم وفسادهم وانحرافهم. وهذه سنة الله في ذلك.

وفي سنة ٥٢٣م قام ملكهم ذو نواس بحملة ضد النصارى لصرفهم عن دينهم، فلما أبوا حفر لهم أخدوداً، وأوقد فيه ناراً، فقذفهم فيها، وهم الذين حكى الله ـ تعالى ـ خبرهم في الآيات: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ . . .﴾ [البروج: ٤، ٨]، وكان سبباً في تحريض الروم الأحباش؛ ليحتلوا اليمن للمرة الثانية بقيادة أرياط سنة ٥٢٥م، وظل حاكماً على اليمن إلى أن اغتاله أبرهة ـ أحد قواد جيشه ـ وحكم مكانه بعد أن نال رضى ملك الحبشة، وقام أبرهة بمحاولة هدم الكعبة بمكة، ولكن الله رده بقوته، كما حكى ذلك القرآن الكريم في سورة الفيل.

واستنجد اليمانيون بالفرس فأعانوهم على إجلاء الأحباش سنة ٥٧٥م، بقيادة معد يكرب بن سيف بن ذي يزن الحميري، وملكوه عليهم. وكان قد أبقى جمعاً من الحبشة لخدمته، فاغتالوه، وبموته انقطع الملك عن بيته، وولى كسرى عاملاً فارسياً على صنعاء، وجعل اليمن ولاية فارسية. وكان آخر ولاتهم باذان، الذي دخل في الإسلام، وبإسلامه انتهى نفوذ الفرس في بلاد اليمن [نفسه]، وكان إسلام باذان في جمادى الأولى سنة سبع من الهجرة ـ ٦٢٨م [ابن سعد].

ب ـ الملك بالحيرة:

حكمت الفرس العراق وما جاورها منذ أن جمع شملهم قوروش الكبير (٥٥٧ ـ ٥٢٩ق.م) ثم فرق شملهم الإسكندر المقدوني سنة ٣٢٦ق.م عندما

هزم ملكهم دارا الأول، ودخلت البلاد في حكم الطوائف إلى سنة ٣٣٠م. وفي عهد هؤلاء الملوك هاجر القحطانيون وسكنوا جزءاً من ريف العراق، ثم لحقهم من هاجر من العدنانيين، فزاحموهم حتى سكنوا جزءاً من الجزيرة الفراتية.

وجمع أردشير الفارسي ـ مؤسس الدولة الساسانية منذ سنة ٢٢٦م ـ شمل الفرس، وسيطر على العرب المقيمين على تخوم مملكته، وكان ذلك سبباً في رحيل قضاعة إلى الشام، ودان له أهل الحيرة والأنبار، ولصعوبة حكم المناطق البعيدة رأى أن ينصب عليهم ملكاً منهم، اسمه جذيمة الوضاح، ويعينه بكتيبة من الفرس، ليقفوا جميعاً في وجه مطامع الروم وعرب الشام الذين اصطنعهم الروم. واشتهر من ملوك الحيرة النعمان بن المنذر، وهو الذي خاض حرباً ضد ملك الفرس، وهزم جيش الفرس في موقعة ذي قار، بعد ميلاد الرسول ﷺ، وهو أول يوم انتصرت فيه العرب على العجم، وقيل: إن الرسول ﷺ قال عنه: «هذا أول يوم انتصف العرب فيه من العجم، وبي نصروا» [الطبري: التاريخ].

جـ ـ الملك بالشام:

في العهد الذي ماجت فيه العرب بهجرات القبائل سارت بطون من قضاعة إلى مشارف الشام وسكنت بها، وكانوا من بني سليح بن حلوان الذين منهم بنو ضجعم بن سليح، المعروفون باسم الضجاعمة، فاصطنعهم الرومان؛ ليمنعوا عرب البرية من العبث، وليكونوا عدة ضد الفرس، وولوا منهم ملكاً، ثم تعاقب الملك فيهم زماناً إلى أن غلبهم عليه الغساسنة. وظل الغساسنة في الملك من قِبَل الروم إلى أن كانت وقعة اليرموك سنة ١٣هـ ـ ٦٣٤م، ودخل في الإسلام آخر ملوكهم جبلة بن الأيهم في عهد عمر رضي الله عنه [تاريخ اليعقوبي].

د ـ مكة:

إن مكة من بلدان الحجاز، ولم يقم بالحجاز كيان سياسي موحد يمكن أن يسمى بالدولة، وإنما قامت بها مدن، لكل منها نظامها السياسي الذي هو

أقرب إلى المشيخة منه إلى نظام الملك. ومن أشهر المدن: مكة، ويثرب، والطائف.

تناولت فيما سبق طرفاً من تاريخ نشأة مكة، وذكرنا أصل سكانها، وهم جرهم، وقيل: كان قبلهم العماليق، الذين كانوا يسكنون خارجها، أي من حولها. [الأزرقي].

لم تحافظ جرهم على حرمة الحرم بعد إسماعيل، فكثر في أيامهم البغي والفساد، واغتصب كثير منهم مال الكعبة الذي كان يهدى إليها. ويقال: إن ماء زمزم نضب في عهدهم، كما أن البئر نفسها زالت معالمها، وعندما تفرق بعض عرب اليمن بعد سيل العرم هاجر ثعلبة بن عمرو بن عامر مع قومه إلى مكة، ولم تقبلهم جرهم، ودارت بينهم حرب انتهت بهزيمة جرهم.

وعندما مرض ثعلبة رحل إلى الشام، وولى أمر مكة وحجابة الكعبة ابن أخيه ربيعة بن حارثة بن عمرو، وهو لحي، وعرف قومه بخزاعة. وقد انحاز إليهم بنو إسماعيل بن إبراهيم، وكانوا قد اعتزلوا الحرب التي دارت بين جرهم وثعلبة. [الأزرقي].

ظلت خزاعة تلي أمر البيت الحرام نحواً من ثلاثمائة سنة، وقيل: خمسمائه سنة، وكانت قريش ـ إذ ذاك ـ متفرقة في بني كنانة حتى تزعمها قُصَيُّ بن كِلَاب، ووحَّد بطونها، وخاض حرباً ضد خزاعة حول ولاية البيت. وأعانته قضاعة في حربه، وتدخلت قبائل العرب، وانتهت الحرب بالتحكيم الذي نتج عنه أحقية قصي بولاية الكعبة. ومنذ ذلك اليوم ارتفعت مكانة قريش بين العرب [نفسه].

قام قصي بتقطيع مكة رِبَاعَاً بين قومه، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة، وكانت له جميع الرئاسات من حِجَابة وسِقَاية وسِدَانة ولِوَاء، وبنى داراً لإزاحة الظلمات وفصل الخصومات، سماها دار النَّدْوَة، وكان يرأس اجتماعاتها، ويدير شؤونها، وفرض على قريش خرجاً سنوياً يؤدونه إليه؛ لينفق منه على إطعام فقراء الحجاج.

وعندما كبر قصي فوض أمر هذه الوظائف والرئاسات إلى أكبر أبنائه عبد الدار، ولما مات عبد الدار وإخوته: عبد مَنَاف، وعبد شَمس،

وعبد العُزَّى، اختلف أبناؤهم في هذه الرئاسات، وافترقوا إلى فرقتين، ففرقة بايعت بني عبد الدار، وفرقة بايعت بني عبد مناف، ووضع حلف بني عبد مناف أيديهم عند الحلف في جَفْنَةٍ فيها طيب، ثم لما قاموا مسحوا أيديهم بأركان الكعبة، فسموا حلف المُطَيَّبين. أما بنو عبد الدار ومن حالفهم، فقد أخرجوا جَفْنَةً مملوءة دماً، وفعلوا ما فعله بنو عبد مناف عند الكعبة، وسموا الأحلاف.

وأخيراً اصطلح الفريقان على أن تكون الرِّفَادَة والسقاية لبني عبد مناف، وأن تستقر الحجابة واللواء والندوة في بني عبد الدار. [ابن إسحاق] وقسمت الرئاسات التي نالها بنو عبد مناف بين هاشم وأخيه عبد شمس، فكانت السقاية والرفادة لهاشم، والقيادة لعبد شمس. [الأزرقي].

وعندما علت مكانة هاشم بين قومه حسده ابن أخيه أمية بن عبد شمس، وحاول أن ينافسه في إطعام الحجاج فعجز، فشمت به بعض قومه، فزاد حسده وحقده على عمه.

وولي السقاية والرِّفَادَة المطلب بعد وفاة أخيه هاشم، وعندما مات المطلب خلفه ابن أخيه عبد المطلب بن هاشم، وعندما مات خلفه ابنه العباس بن عبد المطلب، وقد أبقاهما الرسول ﷺ في يده بعد فتح مكة.

أما بنو عبد الدار فقد توارثوا الحجابة واللواء ورئاسة دار الندوة. وقد أبقى الرسول ﷺ الحجابة بأيديهم عندما فتح مكة، ودفع بمفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة، وهي فيهم إلى اليوم، وقيل: إن الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، قد نزلت بهذا الخصوص [تفسير الطبري]، ولم يستبعد الطبري ذلك، وساق أقوالاً أخرى في ذلك.

هـ - يثرب:

كان أول من سكنها العمالقة، ثم تغلبت عليهم بعض القبائل اليهودية، فأقاموا بها، خاصة في القرنين الأول والثاني الميلاديين، إثر الحروب التي شنها الرومان ضد اليهود بسورية، فتفرقوا في البلاد، فلجأت قبائلهم، وعلى رأسهم بنو النضير وبنو قريظة إلى يثرب، وأقاموا بها حتى نزح إليهم من بلاد

اليمن قبائل الأوس والخزرج عندما تهدم سد مأرب. [المقريزي: إمتاع الأسماع].

عاش اليهود والأوس والخزرج في وئام مدة من الزمان، وتحالفوا ليأمن بعضهم بعضاً، وعندما قويت شوكة الأوس والخزرج تنمَّر اليهود عليهم ونقضوا الحلف الذي بينهم، فاستنجد العرب ببني عمومتهم الغساسنة، فأنجدوهم أنفة من تسلط اليهود عليهم [صبح الأعشى].

وكذلك عاش الأوس والخزرج في وئام في بداية أمرهم، ثم وقعت بينهما حروب طويلة، كان النصر في أغلب الأحيان للخزرج؛ ولهذا حاولت الأوس محالفة قريش ضد الخزرج، فلم تفلح، فلجؤوا إلى الحلف مع بني قريظة وبني النضير. وسمعت الخزرج بهذا فأرسلت تستوضح الموقف، فأفادتهم يهود بأنها لا ترغب في الحرب، فأرادت الخزرج أن تتأكد من هذا، فطلبت منهم أربعين غلاماً، ليتخذوهم رهائن لديهم، وعندما استجابوا لهم، خيروهم بين الجلاء عن يثرب أو قتل الغلمان، فآثروا الخروج من ديارهم، غير أن كعب بن أسد القرظي أقنعهم بالبقاء والتضحية بالرهائن، فقتل الخزرج الغلمان، فغضب يهود، وجاهروا بحلفهم مع الأوس، ووقفوا معهم في موقعة بُعَاث، فانتصر الأوس، بعد أن أوقعوا في الخزرج مقتلة عظيمة، ثم تصالح الفريقان، واتفقا على إقامة حكومة تعمل على استقرار الأمور بيثرب، برئاسة عبد الله بن أُبَيّ بن سَلُول الخزرجي. [الوفا]، وبينما كانوا يستعدون لذلك قدم الرسول ﷺ المدينة مهاجراً، فدان الجميع لسلطان الإسلام، ولم يجد ابن أبي بداً من الدخول في الإسلام ظاهراً بعد موقعة بدر، ودلت مواقفه بعد ذلك على نفاقه كما سيأتي بيانه. وهو ممن اتفق على نفاقه بين أهل الحديث والتفسير والمغازي والسير. أما زعيم الأوس أبو عامر بن صيفي بن النعمان والد أبي حنظلة الغسيل فقد أبى إلا الكفر، فخرج إلى مكة، ثم إلى الطائف، ثم إلى الروم بالشام، محاولاً في كل أطوار حياته القضاء على الإسلام، وكان قد ترهب في الجاهلية، فسموه الراهب، فقال رسول الله ﷺ: «لا تقولوا الراهب، ولكن قولوا الفاسق» [ابن إسحاق]. وله قصة في أحداث غزوة أحد، سيأتي ذكرها في مكانها.

و ـ الطائف:

كانت الطائف تعرف باسم «وَجّ»، نسبة إلى وَجّ بن عبد الحي، أحد العمالقة الذين سكنوها. رحلت إليها قبيلة هوازن من وادي القُرَى، وتزوج زعيمها قسب بن منبه بن بكر بن هوازن بابنة زعيم وج عامر العدواني، واشتهر قسب باسم ثقيف فيما بعد. . .، وعندما تكاثروا بنوا سوراً ليكون حصناً، وأطلقوا عليه الطائف، لإطافته بهم، ومن ثم عرفت هذه المدينة بالطائف بدلاً من وج. [معجم ما استعجم؛ معجم البلدان].

وعندما ظهر الإسلام كانت ثقيف مقسمة إلى فرقتين: الفرقة الأولى هم بنو مالك، والثانية الأحلاف، وكانت بينهم شحناء أدت إلى حرب بينهما، انتصر فيها الأحلاف وأخرجوا بني مالك إلى واد وراء الطائف. ثم رأى بنو مالك أن يعززوا موقفهم العسكري بالتحالف مع بعض القبائل، فحالفوا دوساً وخثعماً وغيرهما على الأحلاف، ولكن لم تقع بينهم بعد ذلك حروب ذات بال. [الكامل في التاريخ].

ثانياً: الحالة الدينية عند العرب في الجزيرة العربية:

استمرت خزاعة على ولاية الكعبة نحواً من ثلاثمائه سنة، وقيل: خمسمائة سنة، وكانوا قوم سوء في ولايتهم؛ وذلك لأنه كان في زمانهم أول عبادة الأوثان بالحجاز، بسبب رئيسهم عمرو بن لحي [يأتي ذكره] الذي زار الشام، ووجد العماليق بمؤاب من أرض البلقاء (مكان بالأردن الآن) يعبدون الأصنام، وقالوا له: إنهم يعبدونها؛ لأنهم يستمطرونها، فتمطرهم، ويستنصرونها فتنصرهم، فطلب صنماً، فأعطوه صنم هُبَل، فجاء به مكة، ونصبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه؛ لأنه كان سيداً مطاعاً فيهم. وعندما بدأ بنو إسماعيل يتفرقون في البلاد أخذوا يحملون معهم من حجارة الحرم تعظيماً للحرم، فحيثما نزلوا وضعوه، فطافوا به كطوافهم بالبيت، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم، وخلفت الخلوف، ونسوا ما كانوا عليه من دين إبراهيم [ابن هشام]، وكثرت فيهم الأصنام، فكان «وَدٌّ» لبني كَلْب بن وَبْرَةَ بدُوْمَةِ الجَنْدَل، و«سُوَاعٌ» لبني هُذَيل

بمكان تسمى رُهَاط، على ثلاث ليال من مكة، و«يَغُوْثُ» لبني أَنْعُم من طيء ولأهل جُرش من مَذْحِج اليمنية، وكان منصوباً بجرشَ، و«يَعُوْقُ» لبني خَيْوَانَ الهمدانيين، و«نَسْرُ» لقبيلة ذي الكُلَاع الحِمْيَرِية. [ابن إسحاق].

وهذه الأصنام هي التي عبدها قوم نوح، وحكى خبرها القرآن الكريم، قائلاً: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا . . .﴾ [نوح: ٢٣، ٢٤]، فعندما فارق ولد إسماعيل وغيرهم دين إبراهيم عبدوا هذه الأصنام. [انظر البخاري].

وكان لخولان صنم يدعى «عَمَّ أَنس»، وقيل: «عُمْيَانِس»، يقسمون له من أنعامهم وحروثهم قسماً بينه وبين الله ـ فيما يزعمون ـ وفيهم أنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦]. وكان لبني مِلْكَانَ بن كِنَانَة صنم يقال له: «سَعْد». وكان لدَوْسٍ صنم لعمرو بن حُمَمَة الدَّوْسِيّ. وكان لقريش مع هبل صنما «إِسَاف» و«نائلة»، على موضع زمزم، ينحرون عندهما، قالت عائشة رضي الله عنها: «ما زلنا نسمع أن إسافاً ونائلة كانا رجلاً وامرأة من جرهم أحدثا في الكعبة، فمسخهما الله عز وجل حجرين» [ابن إسحاق، حسن لذاته].

واتخذ أهل كل دار في دارهم صنماً يعبدونه، وكان آخر ما يفعلونه عند الشروع في السفر وأول ما يفعلونه حين العودة منه التمسح بالصنم، فلما بعث الله محمداً ﷺ بالتوحيد عابوا عليه ذلك، وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

وفي الصحيح عن أبي الرجاء العطاردي، قال: «كنا في الجاهلية إذا لم نجد حجراً جمعنا جُثْوَةً من التراب، وجئنا بالشاة، فحلبناها عليه، ثم طفنا به» [البخاري].

وروى ابن كثير [في البداية] عدة أحاديث صحيحة تدل على ما ابتدعه عمرو بن لحي في الدين، واتبعه العرب في ذلك، فضلُّوا ضلالاً بعيداً؛ من ذلك رواية الشيخين: قال رسول الله ﷺ: «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي [أي عمرو بن لحي] يجر قُصْبَهُ [أي أمعاءه] في النار، كان أول من سيَّب

السوائب. . .»، ورواية ابن إسحاق [السيرة، حسن] الأكثر تفصيلاً وبإسناد صحيح، ولفظها: «. . . إنه كان أول من غير دين إسماعيل، فنصب الأوثان، وبحر البحيرة، وسيَّب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامي». وقد أنكر الله ـ تعالى ـ عليهم ذلك في أكثر من آية، فقال ﷻ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ . . .﴾ [النحل: ١١٦].

قال ابن عباس [كما في تفسير الطبري]: «إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام. . .» ففيها خلاصة عبادة العرب وما نتج عن ذلك من ممارسات اجتماعية ضارة.

ولم يبق من دين إبراهيم إلا القليل، مثل تعظيم البيت، والطواف به، والحج والعمرة، والوقوف بعرفات والمزدلفة، وإهداء البدن مع إدخالهم في هذا ما ليس منه. فكانت كنانة وقريش إذا أهلوا بالحج أو العمرة قالوا: «**لبيك اللهم لبيك لا شريك لك**، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك»، فيوحدونه بالتلبية، ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده» [ابن إسحاق]. وكانوا يطوفون بالبيت عراة، وهم يصرخون.

واتخذت العرب طواغيت مع الكعبة، وهي بيوت تعظمها كتعظيم الكعبة، لها سدنة وحجاب، ويهدى لها، ويطاف بها، وينحر عندها. فكانت لقريش وبني كنانة «العُزَّى» بنَخْلَة، وكان سدنتها وحجابها من بني شَيْبَانَ، من سُلَيْم، حلفاء بني هاشم، وكانت «اللَّاتُ» لثقيف بالطائف، وكان سدنتها وحجَّابها من بني مُعَتِّب، من ثقيف. وكانت «مَنَاةُ» للأوس والخزرج ومن دان بدينهم، بناحية المُشَلَّلِ بقُدَيْدٍ. وهذه الطواغيت هي التي أشار إليها القرآن الكريم في الآية: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]. وكان «ذو الخَلَصَة» لدَوْسٍ وخَثْعَم وبَجِيْلَةَ ومن كان ببلادهم من العرب بِتَبَالَةَ، وكان يقال له: «الكعبة اليمانية»، ويُقَالُ لبيت مكة: «الكعبة الشامية». وكان «فَلْسٌ» لطيء ومن يليها بَجَبَلَيْ طيء، يعني أَجَا وسَلْمَى. وكان «رِئَام» بيتاً لحمير وأهل اليمن. وكانت «رُضَاءُ» بيتاً لبني ربيعة بن كعب. وكان «ذو الكَعَبَات» لِبَكْرٍ وتغلب ابني وائل وإياد، بَسنْدَادَ. [يأتي ذكرها].

وكان للعرب أصنام أخرى غير التي ذكرنا، حفلت بذكرها المصادر المختلفة. [تاريخ اليعقوبي]

وهناك روايات طريفة عن موقف بعض العرب من أصنامهم. من ذلك ما روي من أن السائب بن عبد الله كان له حجر نحته بيده ليعبده، فيجيء باللبن الخاثر الذي ينفسه على نفسه فيصبه عليه، فيجيء الكلب فيلحسه، ثم يَشْغر [يرفع إحدى رجليه] فيبول... الأثر. وما يروى من أن بني حنيفة اتخذوا في الجاهلية إلٰهاً من حيس [الأقط ـ اللبن المجفف ـ يخلط بالتمر والسمن]، فعبدوه دهراً طويلاً، ثم أصابتهم مجاعة، فأكلوه، فقال رجل من بني تميم يعيرهم بذلك:

أكلت ربها حنيفة من جو
ع قديم بها ومن إعواز

وقال فيهم آخر:

أكلت حنيفة ربها
زمن التقحم والمجاعة
لم يحذروا من ربهم
سوء العواقب والتباعة [المعارف]

وهناك قصة الرجل الذي قال شعراً في صنمهم عندما رأى ثعلبين يبولان عليه [ابن سعد]، وقصة عمر بن الخطاب الذي أكل صنمه من العجوة عندما جاع... إلخ، وهي قصص ـ وإن لم يثبت بعضها حديثياً ـ تصور الحالة التي كان عليها العرب في جاهليتهم.

ظهرت في بلاد العرب إلى جانب عبادة الأصنام عبادة النجوم والكواكب، خاصة في حران والبحرين والبادية. ويقال: إنه كان بمكة رجل يدعى «أبو كبشة» عبد نجماً اسمه «الشعرى»، ودعا قريشاً إلى عبادته، وانتشرت هذه العبادة بين بعض قبائل لخم وخزاعة وقريش. وعندما دعا الرسول ﷺ إلى عبادة الله وحده سموه ابن أبي كبشة لمخالفته إياهم في العبادة كما خالفهم في عبادتهم من قبله ابن أبي كبشة. [بلوغ الأرب].

وعبدت الشمس في بلاد اليمن، وفي ذلك قال ـ تعالى ـ في قصة ملكة سبأ: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٣، ٢٤].

وتسربت بعض فرق المجوسية الفارسية إلى بلاد العرب. وفي ذلك يقول ابن قتيبة [في المعارف]: «وكانت المجوسية في تميم منهم زرارة وحاجب بن زرارة. . . وكانت الزندقة في قريش، أخذوها من الحيرة». وكان الأقرع بن حابس وأبو سود ـ جد وكيع بن حسان ـ ممن دان بالمجوسية [نفسه]، وتسربت إلى هجر [البخاري] من البحرين. وكانوا يقولون: إن قتل عدوهم على أرضهم ينجسها عليهم. [الحاكم، صحيح].

ودخلت اليهودية بلاد العرب ـ بصفة عامة ـ والمدينة وخيبر ووادي القرى وفدك وتيماء [يأتي خبرهم] بصفة خاصة عندما نزح إليها اليهود، ووصلت إلى اليمن، ودان بها ذو نواس الملك الحميري، وحاول حمل النصارى على اعتقادها، كما ذكرنا سابقاً، وانتشرت في بني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة، وربما وصلتهم من يهود يثرب وخيبر. [بلوغ الأرب].

وتسربت النصرانية إلى الغساسنة والمناذرة، ومن أشهر الأديرة في الحيرة: «دير هند الأقدم»، و«دير اللج»، و«دير حارة مريم» [معجم ما استعجم]، وتسربت إلى جنوبي الجزيرة العربية، وأنشئت كنيسة بظفار وأخرى بعدن. [بلوغ الأرب]. ولنصارى نجران قصة مع الرسول ﷺ في مكة وأخرى بالمدينة. سيأتي ذكرها.

ودانت بعض قبائل قريش بالنصرانية، منها: بنو أسد بن عبد العزى، كما دان بها بنو امرئ القيس بن تميم، وبنو تغلب بن ربيعة، وبعض قبائل قضاعة، وكأنهم تلقوا ذلك عن الروم. [اليعقوبي]. وممن تنصر بنصرانية محرفة من العرب: عدي بن حاتم الطائي. [البخاري، أحمد، حسن].

ولم تنتشر اليهودية والنصرانية انتشاراً واسعاً في بلاد العرب كما هو واضح من تاريخهما وسيرتهما وسط القبائل والأفراد، ولم تندثر تماماً ديانة

إبراهيم عليه السلام، بل تمسك بها نفر قليل جداً وسط دياجير ظلام الجاهلية وعبادة الأوثان، وعرف هؤلاء النفر بالحنيفيين أو الحنفاء، فقد كانوا يؤمنون بالله ويوحدونه توحيد ألوهية وتوحيد ربوبية، وينتظرون النبوة [بلوغ الأرب].

وكان من هؤلاء الحنفاء: قس بن ساعدة الإيادي، وزيد بن عمرو بن نُفيل، وأُمَيَّة بن أبي الصَّلْت، وأبو قيس بن أبي أنس، وخالد بن سنان، والنابغة الذبياني، وزُهَير بن أبي سُلْمَى، وكعب بن لؤي بن غالب ـ أحد أجداد النبي ﷺ [البداية].

وقد سموا بالحنفاء نسبة إلى ما وصف به دين إبراهيم في القرآن الكريم ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧]، ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٩٥].

ولنقف وقفة قصيرة مع أشهر هؤلاء الحنفاء، لإلقاء بعض الضوء على سيرهم ومعتقداتهم:

١ ـ محمد ﷺ:

من المعلوم بداهة أن الرسول ﷺ **كان على رأس أشهر الحنفاء.**

٢ ـ زيد بن عمرو بن نفيل:

روى ابن إسحاق [كما في البداية، بسند حسن]، عن أسماء بنت أبي بكر، قالت: «لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسنداً ظهره إلى الكعبة، يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري»، ثم يقول: «اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به، ولكني لا أعلم»، ثم يسجد على راحلته، وكان يصلي إلى الكعبة، ويقول: «إلهي إله إبراهيم، وديني دين إبراهيم»، وكان يحيي الموؤودة، ويقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: «لا تقتلها، أنا أكفيك مؤونتها، فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤونتها». [صحيح البخاري]

وروى البخاري عن ابن عمر أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن دين صحيح يتبعه، فلقي عالماً من اليهود، فسأله عن دينهم، لعله يتبعه، فقال له اليهودي: «إنك لا تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله». قال زيد: «وما أفر إلا من غضب الله ـ تعالى ـ ولا أحمل من غضب الله شيئاً ولا أستطيع، فهل تدلني على غيره؟» قال: «ما أعلمه إلا أن تكون حنيفاً». قال زيد: «وما الحنيف؟» قال: «دين إبراهيم عليه السلام لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ولا يعبد إلا الله»، فخرج زيد، فلقي عالماً نصرانياً، فدار بينهما مثل ما دار بينه وبين اليهودي. فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم خرج، فلما برز رفع يديه، فقال: «اللهم إني أشهدك أني على دين إبراهيم».

وكان زيد يرفض الأكل من ذبائح قريش، ويقول: «إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه»، ويعيب على قريش ذبائحهم، ويقول: «الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء الماء، وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله؟»، إنكاراً لذلك وإعظاماً له [البخاري].

ورويت أحاديث أخرى من طرق ضعيفة، لكنها تعتضد، ويتقوى بعضها ببعض وبأحاديث البخاري، فترتفع إلى درجة الحسن لغيره، دلت على أن زيداً كان يبحث عن الدين الصحيح، وأخيراً استقر على دين إبراهيم عليه السلام [البداية؛ ابن سعد].

ولهذا قال عنه الرسول ﷺ: «يحشر ذاك أمة وحده بيني وبين عيسى بن مريم» [البداية؛ جيد حسن]. وقال: «دخلت الجنة فرأيت لزيد بن عمرو دوحتين» [البداية، جيد].

لقد لقي زيد بن نفيل الرسول ﷺ ومات قبل أن يبعث الرسول ﷺ [البخاري].

٣ ـ ورقة بن نوفل:

روي أنه خرج مع زيد بن نفيل يبحث عن دين صحيح يتبعه، وبعد البحث تنصَّر ورقة، ولم يرتض زيد سوى دين إبراهيم عليه السلام [الطيالسي، يتقوى].

قال النبي ﷺ يوماً لخديجة ﵂ إنه يرى ضوءاً، ويخشى أن يكون به جنن، فطمأنته، ثم أتت به ورقة، وذكرت له ما يقع له، فقال ورقة: «إن يك صادقاً فإن هذا ناموس مثل ناموس موسى، فإن بعث وأنا حي فسأعزره، وأنصره، وأؤمن به» [أحمد، مرسل حسن].

وسيأتي خبره والآثار الواردة في إسلامه عند الكلام عن بداية نزول الوحي على الرسول ﷺ والمسلمين الأوائل، وله أبيات شعرية رائعة في التوحيد والبعث [ابن إسحاق في السيرة].

٤ ـ قُسُّ بن سَاعِدة الإيادي:

روي عن عبادة بن الصامت ﵁ وغيره أنه عندما قدم وفد إياد على الرسول ﷺ سألهم عن قس بن ساعدة، فذكروا له أنه هلك، فقال النبي ﷺ: «لقد شهدته يوماً بعكاظ على جمل أحمر يتكلم بكلام مُعْجِبٍ مُؤنِقٍ لا أجدني أحفظه. فذكر أحد أفراد الوفد أنه يحفظه، فهو: «يا معشر الناس اجتمعوا، فكل من مات فات، وكل شيءٍ آت آت، ليلٌ دَاجٍ، وسماءٌ ذاتُ أبراجٍ، وبحرٌ عَجَاجٌ، نُجُوم تَزْهَرُ، وجبالٌ مَرْسِيَّةٌ، وأنهارٌ مَجْرِيَّةٌ، إن في السماء لَخَبَراً، ما لي أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أَرَضُوا بالإقامة فأقاموا، أم تُرِكُوا فناموا، أقسم قُسٌّ بالله قَسَماً لا ريب فيه، إن لله ديناً هو أَرْضَى من دينكم هذا»، وأنشد في ذلك شعراً.

وروى ابن عباس أنه عندما قدم وفد عبد القيس على النبي ﷺ سألهم عن قس، فقالوا: «هلك». قال: «. . .» فذكر كلاماً بنحو ما جاء في رواية ابن الصامت. [البداية].

وروى ابن كثير [البداية، يعتضد] والبيهقي [الدلائل] أحاديث أخرى بهذا المعنى في قصة قس، وتعبده بالحنيفية، وأقواله، وأشعاره في ذلك، دلت على أن لقصته أصلاً تاريخياً، كما ذكر ابن كثير والبيهقي.

٥ ـ أُمَيَّةُ بن أبي الصَّلْت:

هو الذي قال فيه الرسول ﷺ: «كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم» [متفق

عليه]. وفي رواية: «فلقد كاد أن يسلم في شعره» [مسلم]. ويقال: إنه ممن دخل في النصرانية، وأكثر في شعره من ذكر التوحيد والبعث يوم القيامة. [ابن إسحاق، الفتح]. فقد كان من فحول الشعراء [ابن إسحاق، مسلم]، عاش إلى زمان البعثة، ولم يؤمن تكبراً على أن يكون تابعاً للرسول ﷺ [الطبري: التفسير]، وفيه نزل قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥] [ابن مردويه، بسند قوي كما في الفتح].

قيل: إنه مات سنة تسع، وقيل سنة اثنتين [ابن حجر]، وله شعر في رثاء قتلى قريش يوم بدر الكبرى [ابن إسحاق].

٦ ـ لبيد بن ربيعة العامري ثم الكلابي ثم الجعفري:

كان من فحول شعراء الجاهلية، ومن شعراء المعلقات. قال الرسول ﷺ عنه: «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل» [متفق عليه]. وله قصة مع عثمان بن مظعون، سنذكرها في الكلام عن أساليب حرب المشركين للدعوة ـ الأسلوب العاشر.

وقد أسلم لبيد، ومات في خلافة عثمان ﷺ، بعد أن عاش مئة وخمسين عاماً، وقيل أكثر [الفتح].

وممن ذكر من مشاهير الحنفاء غير هؤلاء: أرباب بن رئاب، والشاعر سويد بن عامر المصطلقي، وأسعد أبو كرب الحميري، ووكيع بن سلمة بن زهير الإيادي، وعمير بن حيذب الجهني، وعدي بن زيد العبادي ـ تنصر ـ، وأبو قيس صرة بن أبي أنس، وسيف بن ذي يزن الحميري، وعامر بن الظرب العدواني، والشاعر عبد الطانجة بن ثعلب بن وبرة بن قضاعة، وعلاف بن شهاب التميمي، والملتمس بن أمية الكناني، والشاعر زهير بن أبي سلمى، وخالد بن سنان بن غيث العبسي، وعبد الله القضاعي، وعبيد بن الأبرص الأسدي، وكعب بن لؤي بن غالب القرشي ـ أحد أجداد النبي ﷺ [بلوغ الأرب]، وعثمان بن الحويرث، الذي رحل في طلب الدين، فاستقر به المقام عند قيصر، فتنصر وأقام عنده بأحسن مقام [ابن إسحاق في السيرة]، وعمرو بن عبسة السلمي، الذي أكرمه الله

بالإسلام [تاريخ الطبري، صحيح]، وأكثم بن صيفي بن رباح [البلوغ]، وعبد المطلب ـ جد النبي ﷺ [مروج الذهب، الملل والنحل] ـ.

ثالثاً: الحياة الاجتماعية عند العرب في الجزيرة العربية:

إن الحياة الاجتماعية في أي مجتمع من المجتمعات لا تكاد تنفصل عن الحياة الدينية والاقتصادية، ولأن الوثنية التي سادت بين العرب كانت ضد الفطرة والمنطق، فقد نتج عن ذلك مظاهر اجتماعية ضد الفطرة والمنطق.

ومن بين تلك المظاهر: الانحطاط الأخلاقي الذي تمثل في ممارسة كثير من الرذائل، مثل شرب الخمر، ولعب الميسر، والزواج بغير عدد، وقتل بعضهم الأولاد خشية الفقر أو بسبب الفقر، وقتل بعضهم الإناث بالذات خوف العار، وإثارة الحروب لأتفه الأسباب، وأخذ الثأر، وقد حكى عنهم الله كل هذه الرذائل في القرآن الكريم، وعلى لسان رسوله، وعابها عليهم، وظل الرسول ﷺ يحاربها طول حياته كما هو معروف، ومثال ذلك: ما قاله ابن عباس: «إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة من سورة الأنعام» وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ [التكوير: ٨، ٩]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝١٧﴾ [الزخرف: ١٧]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ...﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١].

وسادت في بعض أوساط غير الأشراف أنواع من الأنكحة التي لا تختلف عن الدعارة. فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فكان منها نكاح الناس اليوم... ونكاح الاستبضاع، وهو أن يصيب الرجل الأجنبي امرأة غيره في طهر لم يجامعها فيه زوجها ولا يقربها زوجها حتى يتبين حملها، ونكاح الرهط، وهو أن

يجتمع الرهط دون العشرة، فيصيب كل منهم امرأة غيره، فعندما تضع حملها ترسل إليهم فيجتمعون عندها، فتلحق المولود بمن تريد منهم، ونكاح رابع، وهو أن يجتمع الرجال الكثير على المرأة التي تنصب راية في بيتها، فإذا حملت فوضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لهم القَافَة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرونه أكثر شَبَهاً به، وقد أبطل الإسلام كل هذه الأنكحة ما عدا نكاح الناس اليوم. ولم يكن يحس بعضهم بعار هذه الممارسات، فقد روى الشيخان أن رجلاً قام فقال: «يا رسول الله: إن فلاناً ابني، عاهرت بأمه في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «لا دعوة في الإسلام. ذهب أمر الجاهلية. الولد للفراش، وللعاهر الحجر».

وسيأتي ذكر قصة اختصام سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة في ابن أمة زمعة ـ وهو عبد الرحمٰن بن زمعة ـ في فقه عمرة القضاء.

وكانوا يجمعون بين الأختين، ويتزوجون بزوجات آبائهم إذا طلقوهن، أو ماتوا عنهن. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣]، ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ . . .﴾ [النساء: ٢٢].

ولم يكن للطلاق عدد معين [أبو داود، صحيح]، فحدده الإسلام بثلاث، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكُۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

ومع وجود هذه الأمراض الخلقية عند عرب الجاهلية إلا أن هناك جوانب مضيئة في حياتهم السياسية والاجتماعية لا يمكن إنكارها، ولعلها كانت سبباً في اختيار الله لهم لحمل رسالته إلى العالمين، ومثال ذلك أن جاهليتهم لم تكن مركبة تقوم على فلسفة معقدة يصعب إزالتها، كما كان الحال في المجتمعات الأخرى المجاورة، وكانوا أصحاب عزيمة قوية يصدقون عندما يؤمنون، وقد وصفهم القرآن بهذا في قوله ـ تعالى ـ: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وكان كثير منهم يتمسك بالفضائل، ويقدِّرون من يتصف بمكارم الأخلاق، كما كان موقفهم من الرسول ﷺ

في هذا الجانب بالذات، وهو موقف عبر عنه أبو سفيان في حديثه المشهور لهرقل، كما سيأتي.

وكانوا من أصفى الناس ذهناً، وتحكى في ذلك الحقائق والغرائب، فقد ذكر ابن عبد البر [جامع بيان العلم]، أن ابن شهاب الزهري كان يقول: «إني لأمر بالبقيع، فأسد آذاني مخافة أن يدخل فيها شيء من الخنا، فوالله ما دخل أذني شيء قط فنسيته»، وقال ابن عبد البر [نفسه] أيضاً: «كان أحدهم يحفظ أشعار بعض في سمعة واحدة. وقد جاء أن ابن عباس ﷺ حفظ قصيدة عمر بن أبي ربيعة:

أمن آل نعم أنت غاد فمبكر
غداة غد أم رائح فمهجر

في سمعة واحدة على ما ذكروا، وليس أحد اليوم على هذا، ولولا الكتاب لضاع كثير من العلم...».

وليس بعد هذا يستغرب عدد الأحاديث التي رواها ابن عباس، وأبو هريرة، وابن مسعود، وعائشة ﷺ. فقد روى أبو هريرة خمسة آلاف حديث وثلاثمائة وأربعة وسبعين حديثاً، وروى عبد الله بن عمر ألفي حديث وستمائة وثلاثين حديثاً... إلخ [ابن حزم: جوامع السيرة].

وكانوا يحبون الحرية، ولم يعرفوا الخضوع إلا لذوي الأسنان منهم، ممن تتوافر فيهم شروط النجدة، والبسالة، والرجولة، والصبر، والحلم، والأناة، وكل خصال الخير.

ومع عبادتهم الأوثان، فقد كانوا لا ينكرون وجود الله، وفي ذلك يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ...﴾ [العنكبوت: ٦١]، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ...﴾ [العنكبوت: ٦٣].

ويعرف هذا بتوحيد الربوبية، وهو الاعتقاد الجازم بأن الله رب كل شيء وخالقه ومليكه.

وكانوا أصحاب لغة واحدة، ذات سحر وبيان، عبرت عن الإسلام أحسن تعبير.

٢ ـ في خارج الجزيرة العربية

أ ـ جوانب من الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية في ظل اليهودية:

أولاً: جوانب من الحياة الدينية:

لقد تعرضت الديانتان السماويتان: اليهودية، والنصرانية إلى تحريف وتبديل، ومن ثم فقدتا الروح، ولم تَعُودا تمثلان دورهما الأساسي في إصلاح الناس الذين جاءتا من أجلهم.

فاليهودية ـ بالإضافة إلى التحريف الذي حدث في أصولها ـ كانت ديانة أراد الله أن تكون لبني إسرائيل خاصة، غير أنها أصيبت في عقيدة التوحيد التي فضل الله بها بني إسرائيل على أهل زمانهم، إذ اقتبس اليهود كثيراً من العقائد والتقاليد الوثنية الجاهلية للأمم التي جاوروها، أو سيطروا عليها، أو عاشوا وسطها. وقد اعترف بهذه الحقيقة مؤرخو اليهود المنصفون، ومثال ذلك أنه جاء في دائرة المعارف اليهودية ما معناه:

«إن سخط الأنبياء وغضبهم على عبادة الأوثان تدل على أن عبادة الأوثان والآلهة كانت قد تسربت إلى نفوس الإسرائيليين، ولم تستأصل شأفتها إلى أيام رجوعهم من الجلاء والنفي في بابل، وقد قبلوا معتقدات خرافية ومشركة، وإن التلمود ـ أيضاً ـ يشهد بأن الوثنية كانت فيها جاذبية خاصة لليهود...».

هذا بالإضافة إلى أن توراتهم وتلمودهم قد طفحا بأوصاف ونعوت لا تليق بذات الله ووحيه وأنبيائه ورسالاتهم.

فتراهم في توراتهم المحرفة وعهدهم القديم ـ مثلاً ـ يذكرون أن الله قد تعب في اليوم السادس، وهو يخلق الكون، واستراح في اليوم السابع، وبارك اليوم السابع وقدسه؛ لأنه استراح فيه من جميع أعماله؛ ولذلك كان تحريم اليهود للعمل يوم السبت.

وجاء في عهدهم القديم في قصة آدم وزوجه حواء عليهما السلام: «وسمعا صوت الرب الإله ماشياً في الجنة، عند هبوب رياح النهار، فاختبأ آدم وامرأته

من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة، فنادى الرب الإله آدم، وقال له: أين أنت؟ فقال: سمعت صوتك في الجنة، فخشيت؛ لأني عريان، فاختبأت، فقال: من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟..».

وهكذا يصورون الله وكأنه بشر لا يعرف ما يحدث في حديقة منزله.

وقد أعقب هذا قولهم: إن آدم عندما أكل من شجرة المعرفة ارتفع بهذا العصيان إلى مراتب الآلهة، وأدرك الخير والشر، على الرغم من أن الرب عندما خلقه كان حريصاً على بقائه جاهلاً بهما. وعندما خشي الرب على ازدياد تمرد آدم واستفحال أمره، أخرجه وزوجه من الجنة حتى لا تمتد أيديهما إلى شجرة الحياة، فيكتب لهما الخلود. ولم ترضه ـ أيضاً ـ سيرة آدم وأبنائه في الأرض؛ لأنه فوجئ بهم يملؤونها بالشرور والآثام، فحزن وتأسف على خلقهم.

والله في كتابهم المقدس يندم على إغراق الأرض بالطوفان، ويقبل ضيافة نبيه إبراهيم، ويأتي إلى منزله بصحبة اثنين من ملائكته، ويأكلون من مائدة إبراهيم الدسمة.

والله في توراتهم المحرفة يدخل في عراك ومصارعة مع عبده ونبيه يعقوب، دامت ليلة كاملة، وعندما أوشك يعقوب أن ينتصر عليه، لجأ إلى خدعة مكّنته من كسب الجولة والغلبة، وهي أنه ضرب حق فخذ يعقوب حتى انخلع. وعلى الرغم من ذلك لم يتركه يعقوب إلا بعد أن باركه، ونال منه لقب إسرائيل.

والله في توراتهم إله خاص بهم لا يحب غيرهم؛ لأنهم شعبه المختار، وأمّا الأمم الأخرى فهي كالأغنام لا يأبه بها الإله، ويبنون كراهيتهم للأجناس الأخرى، وعلى رأسهم العرب، على أساس من دينهم المحرف، فتراهم يذكرون في توراتهم قصة يزعمون فيها أن نوحاً ـ نبي الله ـ سكر حتى استلقى، وانكشفت سوأته، ولما رآه ابنه حام ـ أبو كنعان ـ ضحك منه، وفضحه عند أخويه سام ويافث، اللذين ستراه دون النظر إلى عورته. وعندما أفاق نوح من

سكرته، وعلم بما حدث من ابنه الأصغر حام، استنزل عليه لعنة الله قائلاً:

«ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته. مبارك الرب إلٰه سام، وليكن كنعان عبداً لهم، ليفتح الله ليافث، فيسكن في مساكن سام، وليكن كنعان عبداً لهم..».

وظاهر في هذه القصة إرادة اليهود استعباد الكنعانيين أبناء حام ـ وهم لا ذنب لهم ـ وتزكية الإسرائيليين أبناء سام.

وكما صور اليهود نوحاً سكيراً؛ ليصلوا إلى أهداف معينة، تراهم ـ أيضاً ـ يصورون لوطاً سكيراً وعاهراً يزني بابنتيه في حالة سكر، وتحبلان منه وتلدان، وزعموا أن ابن البنت البكر عرف بـ(مؤاب)، أبو المؤابيين إلى اليوم؛ ليصلوا بذلك إلى هدف واضح ـ أيضاً ـ وهو تجريح أعدائهم المؤابيين، وكل ذلك باسم الوحي.

وصدق الله العظيم الذي قال في القرآن الكريم:

﴿... وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨]. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

وتدّعي توراتهم أن كل النساء غير اليهوديات مومسات، ويستحق القتل كل الجوييم ـ غير اليهود أو العبيد أو الحمير ـ حتى ذوو الفضل منهم، وأن من يقتل غير اليهودي يقدم قرباناً للرب [د. عويس: ثقافة المسلم...].

هل يمكن أن يكون هذا كتاباً إلٰهياً مقدساً لتعريف البشر بالله وهدايتهم إلى طريقه؟!

إن هذا الاعتقاد الباطل هو الذي جعلهم لا يبالون بكل القيم في سبيل الوصول إلى أهدافهم، كما هو واضح من بروتكولات حكماء صهيون، ولا يبالون في وصف أنبياء الله بأوصاف لا تليق بهم، كما قلنا. فها هم ـ مثلاً ـ يصورون إبراهيم عليه السلام ديوثاً في سبيل حرصه على الحياة والمنافع الدنيوية.

فيذكرون في توراتهم أنه أغرى زوجته سارة بالذهاب إلى بيت فرعون بصفتها أخت إبراهيم من أجل الحصول على حظيرة من الغنم والحمير، قال لها: «قولي: إنك أختي؛ ليكون لي خير بسببك، وتحيا نفسي من أجلك. . » [نفسه].

ويصورون يعقوب عليه السلام بأنه محتال، سرق النبوة من أخيه البكر بأسلوب قذر.

ويصورون ابنة يعقوب المسماة «دينة» بأنها زانية، زنى بها ابن رئيس المدينة المجاورة.

ويقولون في تلمودهم: إن عيسى بن مريم عليه السلام ابن غير شرعي، حملته أمه سفاحاً، وهي حائض، من العسكري «باندارا»، وإنه كذاب، ومجنون، ومضلل، وساحر، ومشعوذ، ووثني. ووصف تلمودهم المسيحيين بأنهم ليسوا أكثر من خرق حيض المرأة التي تُرمَى في القاذورات، وأنّهم وثنيون، وقتلة، وفسقة، وحيوانات قذرة، وحمير، وخنازير، وكلاب.

ويصورون نبيهم داود يزني بامرأة أحد ضباطه، وتحبل منه، وذلك عندما رآها على السطوح، فأعجبه جمالها، وأرسل زوجها الضابط إلى ميادين القتال؛ ليهلك، ثم يتزوجها.

أي بشاعة هذه؟ إن هذا الكلام لا يمكن أو يعقل أن يكون من عند الله، وبالتالي لا يمكن أن يكون صالحاً لهداية البشرية.

لقد حكى القرآن الكريم عن جوانب كثيرة من تفكير اليهود الديني وموقفهم من كتابهم ورسلهم، ومن ذلك ما حكاه عن:

ميلهم إلى الوثنية مع وجود نبيهم موسى عليه السلام بينهم، فقد قالوا له: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. وعندما عاد إليهم موسى بعد ملاقاة ربه، وجدهم عاكفين على عبادة عجل، قائلين: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١].

وعدم تخليهم عن شغفهم بالوثنية بعد موسى، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾ إلى أن ـ قال تعالى ـ: ـ ﴿. . . وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ . . .﴾ [البقرة: ٩٢، ٩٣].

وذكر القرآن نوعاً من تعنتهم مع موسى، ويتمثل ذلك في قولهم له: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، وذكر نوعاً من سوء أدبهم مع الله، فقال: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤].

ونسبهم بنوة البشر لله ـ تعالى ـ، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

وألّهوا أحبارهم، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

وعدم تورعهم عن تحريف كلام الله، كما حكى عنهم القرآن في الآية: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]، وفي الآية: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

ومما حكاه القرآن عن موقفهم من رسلهم قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]، وقوله: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١].

ويتضح لك مما سقناه من أدلة من كتب اليهود ومن كتاب الله ـ سبحانه وتعالى ـ أي درك وصلت إليه هذه الديانة على أيدي هؤلاء البشر.

ثانياً: جوانب من الحياة السياسية والاجتماعية في المجتمعات اليهودية:

إن الله ـ تعالى ـ لا يرضى لدينه أن يكون عنصرياً بعيداً عن الإنسانية، ولكن اليهود بدلوا دين الله، وجعلوه عنصرياً لا يحمل للإنسانية رحمة، وافتروا على أنبياء الله ـ تعالى ـ ووصفوهم بكل النقائص والرذائل البشرية كما رأينا؛ ولهذا فلا غرابة أن يعيشوا في صراع وفتن مع الشعوب غير اليهودية إلى يومنا هذا.

ففي القرن السابع الميلادي بالذات أوقعوا بين النصارى في أنطاكية

والقائد الفارسي فوكاس، مما ترتب عليه وقوع مذابح فظيعة في نصارى أنطاكية، وساعدوا جيوش الفرس في محاربة نصارى الشام، وقتلوا بأنفسهم النصارى في الشام مثلما حدث في صور، وكان جزاؤهم أن عاقبهم هرقل ملك الروم عقوبة قاسية عندما علم بما ارتكبوه من مآسٍ في حق النصارى بالشام. [خطط المقريزي].

لقد وصفهم القرآن الكريم وصفاً دقيقاً يصور ما كانوا عليه في القرنين: السادس، والسابع الميلاديين من تدهور خلقي، وانحطاط نفسي، وفساد اجتماعي، جعلهم غير أهل لإمامة الأمم وقيادتها، ومن ذلك قول الله ـ تعالى ـ فيهم: ﴿. . . ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

وقد ذاق العرب في يثرب الويلات نتيجة لحرص اليهود على إثارة الفرقة والحروب بين الأوس والخزرج، واحتكارهم التجارة، وتسخير العرب في مصالحهم الاقتصادية. وعادوا الرسول ﷺ وكادوا له كيداً عظيماً، ومكروا به كثيراً، ولكن الله مكر بهم، وكانت مشيئة الله أن أجلاهم الرسول ﷺ عن المدينة، وأجلاهم عمر رضي الله عنه عن الجزيرة العربية تنظيفاً للمجتمع الإسلامي من شرورهم وآثامهم.

ب ـ جوانب من الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية في ظل النصرانية:

أولاً: الحياة الدينية:

وكذلك النصرانية، فبالإضافة إلى ما لحق بها من تحريف، فقد شابتها ألوان شتى من الوثنية والخرافات اليونانية والرومانية، اضمحلت في جانبها تعاليم المسيح الميسرة، وأصبحت على تعاقب العصور ديانة وثنية تحول بين الإنسان والعلم والفكر والمنطق. ومن الأدلة الواضحة على ذلك ما ذكره باكستر الأوروبي Rev.James Houstom Baxter: History of] Christianity in the Light of Modern Knowledge, Glasgo, 1926, P.407.]، نقلاً عن د. الفرت في بحثه المشار إليه والذي ترجمته:

«لقد انتهت الوثنية، ولكنها لم تلق إبادة كاملة، بل إنها تغلغلت في

النفوس، واستمر كل شيء فيها باسم النصرانية وفي ستارها، فالذين تجردوا عن آلهتهم وأبطالهم، وتخلوا عنهم أخذوا شهيداً من شهدائهم، ولقبوه بأوصاف الآلهة، ثم صنعوا له تمثالاً. وهكذا انتقل هذا الشرك وعبادة الأوثان إلى هؤلاء الشهداء المحليين، ولم ينته هذا القرن حتى عمت فيه عبادة الشهداء والأولياء، وتكونت عقيدة جديدة، وهي أن الأولياء يحملون صفات الألوهية، وصار هؤلاء الأولياء والقديسون خلقاً وسطاً بين الله والإنسان، ويحمل صفة الألوهية على أساس عقائد الأريسيين، وأصبحوا رمزاً لقداسة القرون الوسطى وورعها وطهرها، وغيرت أسماء الأعياد الوثنية بأسماء جديدة، حتى تحول في عام ٤٠٠ ميلادي عيد الشمس القديم إلى عيد ميلاد المسيح».

وما ذكره الدكتور أبو الغيط في كلامه عن الوثنية في المسيحية ختمه بقوله:

«.. وهكذا كانت عبادة الأوثان في عصور الاضطهاد هذه يرتفع سوقها، وينخفض تبعاً لتأييد النصارى للحكام الرومانيين، وإقبالهم على تلبية رغباتهم في الولاء لتمثال القيصر، ومن يتباطأ عن ذلك كان مصيره الحرق والهدم والتدمير، كما يقول بذلك التاريخ المسيحي كله، حتى طأطأت المسيحية رأسها أخيراً للوثنية وغطرستها بعد طول التجاذب والصراع بينهما. فحيثما دخلت المسيحية بلداً ووجدت أهلها مقيمين على الوثنية أقروهم على عبادتهم بالإضافة إلى المعتقدات المسيحية».

وابتدع النصارى الرهبانية، وأدخلوا في أناجيلهم ما لا تستسيغه الأفهام. فابن حزم [الفصل] ـ أحد رواد علم مقارنة الأديان ـ انتهى إلى نتائج خطيرة عندما درس المصادر الأصيلة للمسيحية. ومن مناقشاته للنصارى في عقيدتهم قوله:

«.. وقالت (اليعقوبية): إن المسيح هو الله ـ تعالى ـ نفسه، وإن الله ـ تعالى عن كفرهم ـ مات، وصلب، وقتل، وإن العالم بقي ثلاثة أيام بلا مدبر، والفلك بلا مدبر، ثم قام ورجع كما كان، وإن الله ـ تعالى ـ عاد محدثاً، وإن المحدث عاد قديماً، وإنه ـ تعالى ـ هو كان في بطن مريم محمولاً به..».

«ولولا أن الله ـ تعالى ـ وصف قولهم في كتابه العزيز إذ يقول: ﴿لَّقَدْ

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ . .﴾ [المائدة: ٧٢] وإذ يقول الله - تعالى - حاكياً عنهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] وإذ يقول تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، لولا ذلك لما انطلق لسان مؤمن بحكاية هذا القول العظيم الشنيع السمج السخيف، وتالله لولا أننا شاهدنا النصارى ما صدقنا أن في العالم عقلاً يسع هذا الجنون. ونعوذ بالله من الخذلان. . ».

ويقول في دحض هذا القول:

« . . ويلزم هؤلاء القوم أن يعرفونا من دبر السماوات والأرض، وأدار الفلك هذه الثلاثة الأيام التي كان فيها ميتاً. . . ثم يقال للقائلين بأن البارئ - تعالى - ثلاثة أشياء: أب، وابن، وروح القدس: أخبرونا إذ هذه الأشياء لم تزل كلها، وأنها مع ذلك شيء واحد، إن كان ذلك كما ذكرتم فبأي معنى استحق أن يكون أحدهما يسمى أباً، والثاني ابناً، وأنتم تقولون: إن الثلاثة واحد؟! وإن كان منها هو الآخر فالأب هو الابن، والابن هو الأب، وهذا هو عين التخليط. وإنجيلهم يبطل هذا بقولهم فيه: «سأقعد عن يمين أبي»، وبقولهم: إن القيامة لا يعلمها إلا الأب وحده، وإن الابن لا يعلمها، فهذا يوجب أن الابن ليس هو الأب. . وإن كانت الثلاثة متغايرة - وهم لا يقولون بهذا - فيلزمهم أن يكون في الابن معنى من الضعف أو من الحدوث أو من النقص، به وجب أن ينحط عن درجة الأب. والنقص ليس من صفة الذي لم يزل. . ».

وخلاصة قول ابن حزم في عقيدتهم التي جاءت في أناجيلهم: «فهذه سبعون فصلاً من أناجيلهم من كذب بحت ومناقضة لا حيلة فيها، ومنها فصول يجمع الفصل من ثلاث كذبات فأقل على قلة مقدار أناجيلهم.

وجملة أمرهم في المسيح عليه السلام أنه مرة - بنص أناجيلهم - ابن الله. ومرة هو ابن يوسف، وابن داود، وابن الإنسان. ومرة هو إله يخلق ويرزق. ومرة هو خروف الله. ومرة هو في الله، والله فيه. ومرة هو في تلاميذه، وتلاميذه فيه. ومرة هو علم الله، وقدرته. ومرة لا يحتكم على أحد، ولا ينفذ إرادته. ومرة هو نبي، وغلام الله. ومرة أسلمه الله إلى أعدائه. ومرة قد انعزل الله له عن الملك، وتولاه هو، وصار يولي أصحابه خطة التحريم والتحليل في السموات

والأرض. ومرة يجوع، ويطلب ما يأكل، ويعطش، ويشرب ويعرق من الخوف، ويلعن الشجرة إذا لم يجد فيها تيناً يأكله، ويفشل فيركب حماره، ويأخذ، ويلطم وجهه، ويضرب رأسه بالقصبة، ويبزق في وجهه، ويضرب ظهره بالسياط، ويميته الشرط، ويتهكمون به، ويسقى الخل في الحنظل، ويصلب بين سارقين، ويسمر يداه، ومات الساعة، ودفن، ثم يحيا بعد الموت، ولم يكن له هم إذا حيي بعد الموت واجتمع بأصحابه إلا طلب ما يأكل، فأطعموه الخبز والحوت المشوي، وسقوه العسل، ثم انطلق إلى شغله..».

ثم أخذ ابن حزم في بيان الكذب والكفر والهوس الذي جاء في كتبهم غير الأناجيل.

إن هذا المآل الذي آلت إليه النصرانية واليهودية، اقتضى أن يرسل الله رسولاً آخر، هو محمد بن عبد الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ لإنقاذ البشرية من هذا الضلال، ويكون دينه الدين الخاتم لكل البشرية بعد أن أعدت لتلقيه.

ثانياً: الحياة السياسية والاجتماعية في المجتمعات النصرانية:

حل القرن السادس الميلادي، والحرب قائمة بين نصارى الشام والدولة الرومانية وبين نصارى مصر، أو بين الملكانية ـ التي يمثلها حزب الدولة ـ والمنوفيسية ـ التي يمثلها حزب القبط ـ بعبارة أخرى، وذلك لاختلافهم حول حقيقة وطبيعة المسيح ﷺ، إذ يعتقد الملكانية في ازدواج طبيعة المسيح، بينما يعتقد المنوفيسيون أن للسيد المسيح طبيعة واحدة. وأصبح العالم المسيحي في شغل بنفسه عن محاربة الفساد والإصلاح ودعوة الأمم إلى الخير، وابتلي القبط بمصر لاعتقادهم المخالف لاعتقاد الدولة.

وفي الدولة الرومانية الشرقية ـ بالذات ـ ساءت أحوال الناس حتى فضلوا الحكومات الأجنبية على حكوماتهم، وقامت فتن وثورات، وقد هلك في عام ٥٣٢م ـ مثلاً ـ في اضطراب واحد ثلاثون ألف شخص في القسطنطينية، وأمعنوا في أساليب التسلية التي وصلت إلى حد الوحشية.

وفي مصر البيزنطية ساد الاضطهاد الديني، والاستبداد السياسي، والبؤس والفقر، إذ كانت شاتهم الحلوب التي يحسنون حلبها، ويسيئون علفها. ولم ينقذ المصريين من هذا الحال إلا المسلمون، كما يعترف بذلك من ينتسبون إلى النصرانية، أمثال غوستاف لوبون [في حضارة العرب].

وفي سورية البيزنطية سادت المظالم إلى الحد الذي اضطر كثيراً من السوريين لبيع أبنائهم؛ ليوفوا ديونهم [خطط الشام].

أما الأمم الأوروبية في الغرب والشمال فكانت تعيش حروباً دامية، وجهلاً مطبقاً، وغلواً في الدين. وكانوا يبحثون في قضايا مثل: هل المرأة حيوان أم إنسان، وهل لها روح خالدة أم لا؟ وهل لها حق الملكية والبيع والشراء؟.. إلخ.

جـ - جوانب من الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية في ظل المجوسية:

أولاً: الحياة الدينية:

لقد شاع في إيران قبل ظهور زرادشت - نبي قدماء الإيرانيين - الاعتقاد بألوهية «ميثرا» و«ييما» و«آشاه»، وظل ذلك حتى بعد ظهور الزرادشتية التي تأثرت بهذه الديانة الوثنية القديمة التي تقدس بعض عناصر الطبيعية، مثل: النار والكواكب، ويعبد فيها آلهة متعددة.

أما الزرادشتية في أصلها فقد كانت حرباً على عقيدة ميثرا وييما وآشاه، تلك العقيدة الوثنية [الشهرستاني]، إذ كان من أبرز مبادئ الزرادشتية دعوة الناس إلى عبادة إله واحد، وهجر الوثنية والصابئية التي كانت تتمثل في عبادة بعض الكواكب وغيرها من القوى الطبيعية [نفسه]، والدعوة إلى تقديس عنصري الشمس والنار على أنهما رمزان لتلك القوة الواحدة التي لا تفتأ تفيض رحمة ونوراً وعطفاً وطهوراً، وتعمل على إنقاذ الإنسان من البلاء [نفسه]، وتقديس التراب والماء والهواء لأهميتها في حياة الإنسان.

وبعد موت زرادشت ظهرت فرقة المجوس الذين يعبدون النار، ويرونها إلهاً، ويستعملونها في شعائرهم الدينية، متناسين أنها كانت - فقط - رمزاً

للضعفاء، حتى أصبحوا يعرفون بأنهم عبدة النار، وأحياناً كهنة المجوسية. ومن الطقوس التي كانت موجودة من قبل زرادشت: عبادة الأصنام وتقديم القرابين، وبخاصة للإله (ميثرا) الذي أصبح أبرز الآلهة [آرثر].

ولما غزا الإسكندر المقدوني بلاد إيران في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد اختفت الزرادشتية، ولم تظهر إلا بعد خمسة قرون عندما قامت الدولة الساسانية التي حاولت العودة إلى الزرادشتية باعتبارها جزءاً من تراث إيران، ولكن الزرادشتية الساسانية كانت بعيدة كل البعد عن اتجاهات زرادشت، وكانت تحقق أهداف الملوك وطغيان الكهنة.

وفي القرن الثالث بعد الميلاد ظهر «ماني» بمذهبه الذي كان مزيجاً من الزرادشتية والنصرانية والديصانية، وعده الزرادشتيون ملحداً خارجاً عن الزرادشتية الدين الحق - أي عدوه زنديقاً - لأن ديانته ثنوية صريحة، إذ تقول بوجود كائن ثنائي الطبيعة، وبوجود مبدأين أو كائنين يسيطران على العالم، هما: مبدأ النور. ومبدأ الظلام. الأول مصدر الخير، والثاني مصدر الشر، ولكل منهما قدرة على الإدراك [الملل]. وعند امتزاج هذين الكائنين نشأ الكون بما فيه من ظواهر وحوادث وأجسام كثيفة وكائنات حية [نفسه]. . ويرون أن كل من يساعد على إطالة أمد امتزاج النور بالظلام هو شر كله، وفي مقدمة ذلك: الزواج والتناسل؛ ولذلك رأوا أن من الواجب أن يسلك الإنسان مسلك العزلة والرهبنة، وأن يقطع دابر التناسل حتى يفنى العالم المادي، ويتخلص النور من الظلام.

وفي سنة ٢٧٦م قتله الملك الإيراني (بهرام بن هرمز بن شابور)، وقال عنه: «إن هذا الرجل قد جاء يدعو الناس إلى تدمير الكون، فالواجب أن يبدأ بتدمير نفسه» [الملل].

ومع هذا الاضطهاد استمرت المانوية، وتحولت إلى حركة سرية، وبقيت كذلك في الفترة الإسلامية [نفسه].

وظهر مَزْدَكُ في أواخر القرن الخامس الميلادي (٤٧٨م)، وسار على تعاليم مَاني، معلناً شيوعية المال والنساء [نفسه؛ الغلو].

وأخذ الملك الإيراني قباذ بآراء مزدك، وطبقها في المجتمع في السنوات العشر الأولى من حكمه، وعندما وقف على بطلانها وحقيقتها تحول عنها، وقتل مزدكَ، وأوقع بأنصاره سنة ٥٢٩م، فتحولوا إلى العمل السري أيام الدولة الساسانية، ثم عادت المزدكية إلى الظهور من جديد في العصور الإسلامية [الملل؛ الغلو].

وظهرت في إيران كذلك الديانة المرقونية ـ نسبة إلى واضع أسسها «مرقيون» ـ [الملل، الغلو] وعقيدتها ثنوية، لزعمهم أن النور خالق الخير، والظلمة خالقة الشر [نفساهما]. وتأثرت بالزرادشتية والنصرانية.

وكذلك ظهرت في إيران الديانة الديصانية [نسبة إلى واضع أسسها ابن ديصان]. وهي من الديانات الثنوية، وذهبت إلى ما ذهبت إليه المرقونية من وجود عالم ثالث إضافة إلى النور والظلمة، مهمته أن يفصل بين عالم النور وعالم الظلمة، ولم توضح كيفية وجود هذا العالم الثالث [نفساهما]. وابن ديصان الذي تنسب إليه هذه النحلة أول من مهد لفكرة الحلول، حيث زعم أن نور الله قد حل قلبه [نفساهما].

ثانياً: الحياة السياسية والاجتماعية في ظل المجوسية:

لقد شاع الفساد في إيران في ظل دياناتها الوثنية القديمة التي سبقت الزرادشتية، خاصة سكان البادية، فقد كان بعضهم يعتدي على بعض بالسلب والنهب وإزهاق الأرواح [زرادشت].

وعندما جاءت الزرادشتية حاولت القضاء على هذه المفاسد، ولكن إلى حين، وذلك لظهور عقائد أخرى مثل المانوية، والمزدكية.

وفي ظل المجوسية المنبثقة عن الزرادشتية، وفي ظل بقايا المانوية والمزدكية والديانات الإيرانية القديمة عاشت إيران في فوضى أخلاقية، وتشتت عقدي، وحروب دامية داخلية، وخارجية. فكثيراً ما كان مقدسو النار يهزمون عبدة المسيح، وينهبون أموالهم، ويأسرون منهم. وأحياناً كانت الدائرة تدور على الفرس ـ الإيرانيين ـ فيغلبهم الروم [تفسير ابن كثير].

وكان المجوس من الفرس لا يعبدون الإله الحق، ولم تتمكن الأخلاق

الفاضلة في نفوسهم. وكان الأكاسرة يضطهدون الفرق الدينية المخالفة لهم في العقيدة.

ومن الممارسات الاجتماعية البارزة استحلال الزرادشتيين زواج المحارم، وقالوا: «الابن أحرى بتسكين شهوة أمه، وإذا مات الزوج فابنه أولى بالمرأة» [الغلو]، ولذلك تزوج ملكهم يزدجرد الثاني ـ حكم في أواسط القرن الخامس الميلادي ـ ابنته، ثم قتلها، وتزوج بهرام جوبين ـ الذي ملك في القرن السادس الميلادي ـ بأخته [تاريخ الطبري].

وحظيت الدعوة المزدكية بتأييد الشباب والأغنياء والمترفين والطبقة العامة لما صادفته من هوى في نفوسهم، وحظيت بتأثير الحاكم كما قلنا لفترة، مما كان له أكبر الأثر في نشاطها، وانغمست إيران بتأثيرها في الفوضى الخلقية [الملل].

وكان للإيرانيين اعتقاد في البويتات الروحية والأشراف من قومهم، إذ يرونهم فوق العامة في طينتهم، وفوق مستوى الناس في عقولهم ونفوسهم، ويمنحونهم سلطة روحية لا حدّ لها، ويخضعون لها خضوعاً كاملاً.

وكان العامة ـ كذلك ـ طبقات متميزاً بعضها عن بعض تمييزاً واضحاً، وكان لكل طبقة مركز محدد في المجتمع [ماذا خسر العالم؛ آرثر].

وكانوا يبالغون في تمجيد القومية الفارسية، ويرون أن لها فضلاً على سائر الأجناس والأمم، وأن الله قد خصها بمواهب ومنح لم يشرك فيها أحداً، وكانوا ينظرون إلى الأمم من حولهم نظرة ازدراء وامتهان، ويلقبونها بألقاب تدل على هذه النظرة [تاريخ الطبري].

ولما كانت النار لا توحي إلى عبادها بشريعة، ولا ترسل رسلاً، ولا تتدخل في شؤون حياتهم، ولا تعاقب العصاة المجرمين، فقد أصبحت الديانة عند المجوس ـ الذين حرفوا الزرادشتية الأصلية ـ عبارة عن طقوس وتقاليد تؤدى في أمكنة خاصة وفي ساعات خاصة. أما خارج المعابد، وفي دورهم وأماكن أعمالهم، وفي الشارع، وفي السياسة والاقتصاد والاجتماع وغير ذلك، فقد كانوا أحراراً، يسيرون على هواهم شأن المشركين في كل عصر [الملل].

وهكذا حرمت الأمة الفارسية في حياتها ـ في ظل المجوسية ـ ديناً عميقاً جامعاً يكون مربياً ومهذباً وحاثاً على عمل الخيرات، ويكون نظاماً لكل أنشطة الإنسان والمجتمع والدولة، وحائلاً بين الناس وطغيان الأحكام [ماذا خسر العالم]. وهو ما وجدوه في ظل الإسلام.

وحرمت حكماً رشيداً لقمع الفساد، بل كان ملوكها عنصراً أساسياً من عناصر الإفساد؛ لأنهم تألهوا عندما لم يعبد الناس الإله الحق، وتنافسوا على العرش، حتى إن ستة منهم تولوا العرش في أشهر قليلة، وبذلك تدهورت حتى قيمة العرش، وأصبحت كل موارد البلاد ملكاً لملوكها الذين وصل بهم الترف والبذخ إلى حد خرافي، ومثال ذلك أن يزدجرد ـ آخر ملوكهم ـ عندما فر أمام الفتح الإسلامي، كان معه ألف طاه، وألف مغن، وألف قيم على النمور، وألف قيم على البزاة، وحاشية أخرى، ومع ذلك كان يعتبر نفسه لاجئاً حقيراً في حالة يرثى لها من قلة الحاشية وفقدان أسباب التسلية، وعاش الشعب في بؤس وشقاء تثقل كاهله الضرائب والحروب [آرثر، الطبري في التاريخ].

د ـ جوانب من الحياة الدينية والاجتماعية في ظل الديانات الصينية:

أولاً: الحياة الدينية:

كانت تسود الصين في القرن السادس الميلادي ثلاث ديانات: ديانة لاتسو، وديانة كونفوشيوس، والبوذية. أما الأولى فقد كانت وثنية، تعنى بالنظريات أكثر منها بالعمليات، وعاش أتباعها زاهدين رهباناً، فانفض عنها إلى غيرها الذين جاءوا بعد مؤسسها [ماذا خسر العالم].

وأما كونفوشيوس فقد كان يعنى بالأمور العملية أكثر من النظريات، ولكن انحصرت تعاليمه في شؤون الدنيا، وكان أتباعه لا يعتقدون ـ في بعض الأزمنة ـ بعبادة إله معين، ويعبدون ما يشاؤون من الأشجار والأنهار [نفسه]. واتجهوا إلى كونفوشيوس يبنون له الهياكل، ويعبدونه، ويقدمون أمام تماثيله الذبائح والقرابين، ويركعون لها.

وشاعت في الصين قبيل الإسلام عبادة الأرواح، وبخاصة عبادة أرواح

الآباء والأجداد، إذ كانوا يعتقدون أن هذه الأرواح تعيش معهم بعد وفاة أصحابها [شلبي: الإسلام].

وأما البوذية الصينية فقد فقدت حتى القدر القليل جداً من بساطتها، وابتلعتها البرهمية الثائرة الموتورة، فتحولت وثنية تحمل معها الأصنام حيث سادت، وتبني الهياكل، وتنصب تماثيل بوذا حيث حلت، وغمرت هذه التماثيل الحياة الدينية والمدنية التي ظهرت في عهد ازدهار البوذية [ماذا خسر]. وتسرب إلى مناهج الحياة والعبادة السحر والأوهام، وبدأت تتقهقر وتنحط بعد أن سادت ألف سنة [نفسه].

ثانياً: الحياة الاجتماعية:

ليس في الديانات الصينية ـ الكونفوشيوسية أو التي سبقتها ـ نور من يقين، ولا باعث من إيمان، ولا شرع سماوي يحلون به مشاكل العالم، وإنما هي حكم حكماء، وتجارب خبراء، يستفيد بها الإنسان إذا شاء، ويرفضها إذا شاء [ماذا خسر]. ونتج عن ذلك ـ مثلاً ـ تمجيد الذكور كما كان يفعل العرب في جاهليتهم، فعندما يبشر الصيني بالذكر يعلق القوس والنشاب على الباب، دليل مولد الذكر الذي يحمي العشيرة، أما إذا بشر بالأنثى علق على بابه مغزلاً، دليل الخنوع والضعف [شلبي الإسلام].

وفي ظل البوذية الصينية قامت دول تعنى بمظاهر الآلهة وعبادة التماثيل، وتغير محيط الروابط الأخوية البوذية، وظهرت البدع والخزعبلات، ولم تمنع الفلسفة الكونفوشيوسية وجود نظام طبقي اجتماعي، وإن كان أقل حدة من النظام الطبقي البوذي الذي ساد في الهند، كما سنرى في الصفحات التالية [نفسه].

هـ ـ جوانب من الحياة الدينية والاجتماعية في ظل الديانات الهندية:

أولاً: الحياة الدينية:

سادت في الهند الديانة البرهمية التي عبد أتباعها القوى المؤثرة في الكون، والتي جسدوها، ثم اعتقدوا حلولها في بعض الأجسام، فعبدوا

الأصنام لحلولها فيها، وتعددت آلهتهم، ثم حل بعقائدهم التغيير والتبديل حتى انحصرت الآلهة في ثلاثة أقانيم: براهما، وسيفا أو سيو، ويشنو [الديانات القديمة لأبي زهرة].

ومن بعد البرهمية سادت البوذية في الهند. والبوذية لم تعن بالبحث عما وراء الطبيعة، بل كانت عنايتها تتجه إلى الإصلاح الاجتماعي عن طريق رياضة الإرادة على الحرمان، وتعويدها السيطرة والرغبة في الملاذ؛ لكيلا تشقى بطلبها، ويحز فيها الحرمان [نفسه].

وبمرور الزمن أظلت الأفكار العليلة تعاليم بوذا الخلقية، حتى توارت وراء التخيلات السقيمة بسبب الترقيعات الكلامية والتنطعات، وانحطت البوذية كما انحطت البرهمية، ودخلت فيها العادات الساقطة، وأصبح من العسير التمييز بينهما. لقد اندمجت البوذية في البرهمية، وذابت فيها [ماذا خسر].

وسادت الوثنية المجتمع الهندي بأسره حتى وصل عدد الآلهة حدّاً خرافياً، ووجدت في كل مرفق من كل نوع، فمنها أشخاص تاريخية وأبطال تمثل فيهم الله ـ حسب زعمهم ـ وجبال تجلس عليها بعض آلهتهم، ومنها معادن كالذهب والفضة تجلى فيها إله، ومنها نهر الكنج، وآلات الحرب والكتابة، وآلات التناسل، وحيوانات أعظمها البقرة، والأجرام الفلكية [نفسه].

ثانياً: الحياة الاجتماعية:

اتفقت كلمة المؤرخين على أن أحط أطوارها ديانة وخلقاً واجتماعاً ذلك العهد الذي يبتدئ من مستهل القرن السادس الميلادي، إذ انتشرت فيه المفاسد حتى في المعابد الدينية، وعبد بعض رجال الفرق الدينية النساء العاريات، وعبدت النساء الرجال العراة [نفسه]. ولم تعد للمرأة قيمة أو كرامة، حتى إن الرجل ليخسر امرأته في القمار، ولا تتزوج بعد وفاة زوجها. وانتشرت عادة إحراق الأيامى نفوسهن على وفاة أزواجهن، خاصة في الطبقات العليا [نفسه]، وأنزلت النساء في هذا المجتمع منزلة الإماء [نفسه].

وقامت فلسفتهم الدينية على تقسيم المجتمع إلى أربع طبقات، وهي:

١ ـ البراهمة ـ الكهنة ورجال الدين.

٢ ـ شترى ـ رجال الحرب

٣ ـ ويش ـ رجال الزراعة والتجارة.

٤ ـ شودر ـ رجال الخدمة ـ خدمة الطبقات الثلاث السابقة.

وهذه الطبقة الأخيرة تعد نجسة، لا تخالط، ولا تتعلم حتى الكتب المقدسة. [نفسه]. وكفارة قتل الكلب والقطة والضفدعة والغراب والبومة ورجل الطبقة المنبوذة سواء [نفسه]. أما البراهمة فهم فوق القانون، ويحل لهم إبادة الآخرين [نفسه].

هذا الفساد والضياع الذي عاشه العالم في الجزيرة العربية وخارجها كان يقتضي إرسال رسول، فأرسل الله ـ سبحانه ـ محمداً ﷺ للناس كافة ـ عربهم وعجمهم ـ لينقذهم من هذا الضياع والانحراف، ويخرجهم من الظلمات إلى النور.





الفصل الأول

من المولد إلى المبعث

المبحث الأول: نسب الرسول ﷺ:

هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصَيِّ بن كِلَاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خُزَيمَة بن مُدْرِكة بن إلياس بن مُضَر بن نزار بن معد بن عدنان.

أخرج هذا القدر من نسبه البخاري في صحيحه، وهو المجمع عليه بين العلماء، أما ما بعده إلى آدم عليه السلام فمختلف فيه كثيراً، وليس فيه ما يعتمد عليه، ولكن لا خلاف أن عدنان من نسل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

وأخواله من بني زهرة [نفسه]، لأن أمه آمنة بنت وهب كانت منهم [الفتح]. ويلتقي نسبه بنسبها في كلاب بن مرة [ابن حبان: السيرة، ابن عساكر].

وشاء الله أن يكون من أعلى وأطهر أهل الأرض نسباً، وأشرفهم قوماً وقبيلةً وفخذاً. وفي هذا يقول الرسول ﷺ: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» [مسلم]. ويقول: «إن الله عز وجل يوم خلق الخلق جعلني في خيرهم، ثم حين فرقهم جعلني في خير الفريقين، ثم حين جعل القبائل جعلني في خير قبيلة، ثم حين جعل البيوت جعلني في خير بيوتهم، فأنا خيرهم نسباً، وخيرهم بيتاً» [الترمذي، حسن صحيح].

ولم يستطع أبو سفيان أن ينكر علو وسمو نسب الرسول ﷺ، على ما كان يضمره من عداء شديد للرسول ﷺ قبل إسلامه، فقال لهرقل ـ ملك الروم بالشام ـ : «هو فينا ذو نسب» [البخاري].

ذلكم هو نسب محمد ﷺ، سماه جده عبد المطلب وأمه آمنة بهذا الاسم رغبة منهما عن أسماء أهل بيته، وأرادا أن يحمده الله في السماء وخلقه في الأرض [البيهقي: الدلائل، مرسل].

حكم وفوائد من هذا الاصطفاء:

١ ـ ما دامت العرب لا تسمع إلا لذوي الأنساب العالية فيهم، فقد اقتضت حكمة الله ـ تعالى ـ أن يكون نبيه محمد ﷺ من أعلاهم نسباً، حتى لا يكون لأعداء الإسلام سلاح في أيديهم للصد عن سبيل الله، وحتى لا يتوهم متوهم أن رسالته ما هي إلا وسيلة لغاية، وهي تغيير وضعه الاجتماعي.

٢ ـ أن اختيار الله ـ تعالى ـ لنبيه محمد ﷺ من العرب يقتضي من المسلم أن يحبهم من حيث الجنس، لا من حيث الأفراد؛ لأن الأفراد قد ينحرفون عن الإسلام، فينبغي هنا كره أفعالهم المنحرفة لا كره جنسهم العربي.

المبحث الثاني: الختان والتسمية:

اختلف العلماء في أمر ختانه، فمنهم من قال: إنه ولد مختوناً، ومنهم من قال: «ختنه جده عبد المطلب يوم سابعه، وصنع له مأدبة، وسمَّاه محمداً» [الذهبي: السيرة]، والذي رجحه بعض كبار العلماء القدماء أنه ولد مختوناً [أمثال: أبي نعيم، والطبراني، والبغدادي، وابن عساكر، والحاكم].

وعندما سأله قومه عن سبب رغبته عن أسماء أهل بيته أجابهم بأنه يريد أن يحمده الله في السماء، ويحمده خلقه في الأرض.

وعرف الرسول ﷺ بأسماء أخرى، فقد قال [كما في الصحيحين]: «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب». وقال الراوي ـ الزهري: «والعاقب الذي ليس بعده نبي». وزاد ابن سعد: «. . . والخاتم. . .»، وزاد مسلم أسماء أخرى، وهي «المقفى، ونبي الرحمة» وزاد الترمذي [في الشمائل]«. . نبي الملاحم. . .». وقد وردت أخبار بأن أمه سمته أحمد. فقد روى ابن سعد بإسناد حسن عن علي رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: سميت

أحمد». وثبت الاسمان: أحمد، ومحمد بنصوص القرآن.

ولما كان والده قد توفي ـ وهو في بطن أمه ـ، فيترجح أن يكون القائم بالتسمية هو الأم. ويشهد لذلك ما رواه ابن سعد من طريق الواقدي بسنده إلى أبي جعفر محمد بن علي، قال: «أمرت آمنة ـ وهي حامل برسول الله ﷺ ـ أن تسميه أحمد»، ويشهد له ـ أيضاً ـ ما رواه أبو نعيم عن بريدة وابن عباس قالا: «رأت آمنة في منامها، فقيل لها: إنك قد حملت بخير البرية وسيد العالمين، فإذا ولدته فسميه أحمد ومحمداً . . . إلخ». ويشهد له ما رواه ابن إسحاق، ومن طريقه البيهقي في الدلائل، قال: «وكانت آمنة تحدث أنها أتيت حين حملت بمحمد ﷺ فقيل لها: فإذا وقع فسميه محمداً، فإن اسمه في التوراة والإنجيل أحمد، يحمده أهل السماء وأهل الأرض، واسمه في القرآن محمد. فسمته بذلك. وفي آخر الرواية أنها أخبرت عبد المطلب بما أمرت أن تسميه، فقال شعراً، وفي آخره: أحمد مكتوب على اللسان». وقد رواه ابن عساكر أيضاً.

وكني بأبا القاسم، [كما في البخاري وغيره]، وأمر أن نسمي باسمه، ولا نكني بكنيته [كما في الصحيحين وغيرهما]. وكناه جبريل عليه السلام بأبي إبراهيم، ولكنه كره أن يحول كنيته التي عرف بها، واختلف العلماء في أمر التكني بكنيته، وفي أمر الجمع بين اسمه وكنيته، فقيل: إنما نهى عن التكني بكنيته في حال حياته، وقيل: إنما نهى أن يجمع بين اسمه وكنيته فقط [ابن عساكر].

ولم يعرف اسم أحمد قبله، وسمت بعض العرب باسم محمد لما شاع قبيل مبعثه أن نبياً سيبعث اسمه محمدٌ [السبل].

المبحث الثالث: اليتم ورعاية الجد ثم العم:

اختلف أهل المغازي والسير في تاريخ وفاة والده. والذي قاله ابن إسحاق [في السيرة]، ورجحه ابن سعد، أن ذلك كان وهو في بطن أمه، وهو المشهور الذي رجحه كثير من العلماء [البداية]، وجزمت الآية القرآنية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ [الضحى: ٦]، بأنه كان يتيماً.

وقال السهيلي في الروض عن تحديد تاريخ وفاة والده: «وذكر أنه مات أبوه وهو حمل، وأكثر العلماء على أنه كان في المهد، ذكره الدّوالبي وغيره،

وقيل: ابن شهرين، ذكره ابن أبي خيثمة، وقيل: أكثر من ذلك، . . . ، وقيل: مات أبوه، وهو ابن ثمانية وعشرين شهراً، وأنشدوا رجزاً لعبد المطلب يقول لابنه أبي طالب:

أوصيك يا عبد مناف بعدي
بمؤتم بعد أبيه فرد
فارقه وهو ضجيع المهد

والمشهور أنه ولد بمكة يتيم الأب، في يوم الاثنين، الثاني عشر من شهر ربيع الأول، في العام المشهور بعام الفيل [طرهوني].

وعندما مات والده كفله جده عبد المطلب، وهو تحت رعاية أمه آمنة بنت وهب.

وكانت وفاة والده بالمدينة، عند أخواله ـ أي أخوال أبيه عبد المطلب ـ بني عدي بن النجار، عندما أرسله والده عبد المطلب إليها؛ ليشتري منها تمراً [الاستيعاب؛ ابن سعد]. ودفن في دار النابغة تحت عتبة البيت الثاني على يسار من يدخل دار النابغة. [ابن شبة، ضعيف] وكانت وفاته عن خمس وعشرين سنة [ابن سعد، ضعيف].

ظل الرسول ﷺ في رعاية أمه آمنة، وكفالة جده عبد المطلب بعد أوبته من بادية بني سعد.

وعندما بلغ من العمر ست سنين توفيت والدته آمنة بالأبواء [والأبواء قرية بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً، ومصدر الخؤولة أن هاشم بن عبد مناف تزوج بالمدينة سلمى بنت عمرو النجارية، فولدت له عبد المطلب [شيبة]، وهي راجعة به إلى مكة من زيارة قامت بها معه إلى أخوال جده عبد المطلب بني عدي بن النجار بالمدينة المنورة [ابن إسحاق في السيرة، مرسل صحيح؛ عبد الرزاق، مرسل صحيح].

وحملته مولاته وحاضنته أم أيمن إلى جده عبد المطلب بمكة، فأخذ يحوطه بعنايته إلى أن توفي، وللنبي ﷺ ثمان سنوات من العمر [ابن إسحاق، مرسل صحيح؛ الأزرقي، حسن؛ الذهبي: السيرة]، فأوصى به إلى عمه أبي طالب [ابن هشام؛ ابن سعد؛ الذهبي: السيرة].

وقد رويت أخبار في مدى عناية جده عبد المطلب به. من ذلك ما رواه أبو يعلى، أن عبد المطلب أرسل محمداً ذات مرة في إثر إبل له ضلَّت، فاحتبس عليه حتى حزن حزناً شديداً، وأخذ يطوف بالبيت، وهو يقول مرتجزاً:

رَبِّ رُدَّ إليَّ راكبي محمداً
يا ربِّ رده واصنع عندي يداً

وعندما عاد محمد بالإبل أقسم ألا يبعثه في حاجة له أبداً، ولا يفارقه بعد هذا أبداً.

وكان يقربه، ويدنيه منه، ولا يدع أحداً يدخل عليه، وهو نائم، وكان له مجلس لا يجلس عليه غيره، وكان له فراش في ظل الكعبة، يجلس حوله بنوه، ويجلس النبي ﷺ عليه مع جده.

وتروي كتب السير أن أبا طالب كان شديد الاعتناء ـ أيضاً ـ بابن أخيه محمد ﷺ فكان لا ينام إلا ومحمد إلى جنبه، ولا يخرج إلا معه، ويخصه بالطعام، ولا يأكل إلا عندما يحضر محمد، وظل يحوطه بعنايته إلى أن توفي قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين.

حكمة يُتم الرسول ﷺ:

١ ـ لقد شاء الله ﷻ أن ينشأ الرسول ﷺ يتيماً بعيداً عن تربية أبيه وأمه وجده، إذ إن والده قد توفي وهو في بطن أمه، وقضى معظم فترة طفولته الأولى ببادية بني سعد، بعيداً عن أسرته كلها، ثم ما لبث أن توفيت أمه، ولم يمكث معها سوى مدة يسيرة، وبعدها بمدة يسيرة توفي جده عبد المطلب. كل ذلك لحكم، لعل من أبرزها أن لا يكون للمبطلين سبيل إلى إدخال الريبة في القلوب، أو إيهام الناس بأن محمداً إنما رضع لبان دعوته ورسالته منذ صباه بإرشاد وتوجيه من أبيه وجده؛ ليصل إلى جاه الدنيا باصطناع النبوة. فقد كان لجده مكانة مرموقة في قومه، فلقد كانت إليه الرفادة والسقاية، أي إطعام الحجاج وسقايتهم [ابن إسحاق].

٢ ـ ولعل في يتمه أسوة للأيتام في كل زمان ومكان، ليعرفوا أن اليتم

ليس نقمة، وأنه لا يجب أن يقعد بصاحبه عن بلوغ أسمى المراتب.

المبحث الرابع: من إرهاصات النبوة عند ميلاده:

وصاحبت ولادته بعض الإرهاصات الدالة على نبوته، وما ثبت منها بطرق صحيحة، [عند أحمد وابن إسحاق]، قوله ﷺ: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، رأت أمي حين حملت بي كأن نوراً خرج منها أضاءت له قصور بُصرى من أرض الشام» [والإرهاص: المقدمة للشيء والإيذان به، فالبرق ـ مثلاً ـ يؤذن بنزول المطر].

وجاء في رواية مرضعته حليمة السعدية عند ابن إسحاق [في السيرة] وابن سعد وأحمد [في المسند، بإسناد حسن، والحاكم، بإسناد صحيح]، أن والدته آمنة قالت: «ووقع حين ولدته، وإنه لواضع يديه بالأرض، رافعاً رأسه إلى السماء». وفي رواية: أن أمه عندما ولدته وضع تحت بُرْمةٍ، كعادة أهل الجاهلية، فلما أصبحت نظرت إليه، فإذا البرمة قد انفلقت ثنتين، وإذا هو قد شخص بصره ينظر إلى السماء.

وما لم يثبت بطرق صحيحة ـ ولكنه اشتهر ـ مثل قولهم [كما في دلائل البيهقي]: إنه حين ولد سقطت أربع عشرة شرفة من إيوان كسرى، وخمدت النار التي كان يعبدها المجوس، وغاصت بحيرة «ساوة»، وانهدمت المعابد التي كانت حولها.

المبحث الخامس: رضاعة الرسول ﷺ:

اشتهر عند أهل المغازي والسير أن ممن أرضعنه حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية، حين أخذته معها إلى بادية قومها، فأقام معها نحو أربع سنين، ثم ردته إلى أمه.

لقد تفرد ابن إسحاق برواية خبر إرضاع حليمة الرسول ﷺ وإقامته معها ببادية بني سعد. وحكم محققا سيرة ابن هشام والشيخ الألباني بضعف إسناد هذا الخبر. ونص رواية ابن إسحاق:

«كانت حليمة بنت أبي ذؤيب السعدية أم رسول الله ﷺ التي أرضعته،

تحدث: أنها خرجت به من بلدها مع زوجها، وابن لها صغير ترضعه في نسوة من بني سعد بن بكر، تلتمس الرضعاء، قالت: وذلك في سنة شهباء [فيها قحط] لم تبق لنا شيئاً. فخرجت على أتان [أنثى الحمر] لي قمراء [بيضاء]، معنا شارف [الناقة المسننة] لنا، والله ما تَبِضُّ [تسيل] بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صبيّنا الذي معنا، من بكائه من الجوع، ما في ثدييَّ ما يغنيه، وما في شَارِفنا ما يغذّيه، ولكنّا كنا نرجو الغيث والفرج، فخرجت عن أتاني تلك، فلقد أَدَمْتُ [أطالت السفر] بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعَجَفاً [هزالاً]، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عُرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه إذا قيل لها: إنه يتيم، وذلك أنّا إنما كنا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمه وجده! فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري، فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي: والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه؛ قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة. قالت: فذهبت إليه فأخذته، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره. قالت: فلما أخذته رجعت به إلى رحلي، ولما وضعته في حجري أقبل عليه ثديايَ بما شاء من لبن، فشرب حتى رَوِيَ، وشرب معه أخوه حتى رَوِيَ، ثم ناما، وما كنا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فإذا إنها لحافل [ممتلئة حليباً]، فحلب منها ما شرب، وشربت معه حتى انتهينا رِيًّا وشِبعاً، فبتنا بخير ليلة. قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمي، والله ـ يا حليمة ـ لقد أخذت نَسَمةً مباركة. قالت: فقلت: والله إني لأرجو ذلك. قالت: ثم خرجنا وركبت أتاني، وحملته عليها معي. فوالله لقطعتْ بالركب ما يقدر عليها شيء من حُمُرهم، حتى إن صواحبي ليقلن لي: يا بنت أبي ذؤيب، ويحك! اربعي [انتظرينا] علينا، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله، إنها لهي هي؛ فيقلن: والله إن لها لشأناً. قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمي تروح عليَّ حين قدمنا به معنا شِباعاً لُبّناً [غزيرات الحليب]، فنحلب ونشرب، وما يحلُب إنسان

قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرُعيانهم: ويلكم اسْرَحُوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعاً ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعاً لبناً. فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه، وفصلته [فطمته]، وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جَفْراً [قوياً]. قالت: فقدمنا به على أمه، ونحن أحرصُ على مكثه فينا، لِما كنا نرى من بركته. فكلمنا أمه، وقلت لها: لو تركتِ بُنَيَّ عندي حتى يغلُظ، فإني أخشى عليه وباء مكة، قالت: فلم نزل بها حتى ردته معنا».

ثم ذكرت حليمة قصة شق صدره وما فيها من معجزة.

ومع ما قيل في إسناد هذا الخبر فإن مما لا شك فيه ثبوت استرضاع الرسول ﷺ في بادية بني سعد، وذلك لأن رواية الصحيح [مسلم] تتفق مع رواية ابن إسحاق في أن حادثة شق الصدر قد وقعت للرسول ﷺ وهو صغير مسترضع في بادية بني سعد، وكذلك رواية الحاكم [صحيح]، وأحمد وابن إسحاق [في السيرة، جيد] في حديث: «أنا دعوة أبي إبراهيم.... واسترضعت في بني سعد بن بكر....»، وفي الحديث الذي رواه ابن إسحاق بإسناد حسن، قال وفد هوازن للرسول ﷺ - وهو بالجعرانة حين منصرفه من حنين -: «إنما في الحظائر - أي الأَسْر - عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك...»، وفي هذا الخبر إشارة إلى رضاعة النبي ﷺ في أهل مناطق الطائف، أي في هوازن، التي منها بنو سعد، قوم حليمة بنت أبي ذؤيب [ابن حبان: السيرة؛ ابن هشام].

وروى ابن سعد [برجال ثقات، مرسلاً] أن النبي ﷺ كان مسترضعاً في بني سعد بن بكر. وفي رواية أخرى لابن سعد: أن أم النبي ﷺ دفعته إلى السعدية التي أرضعته.... فالروايات تعتضد.

ويضاف إلى هذا الآثار التي تدل على مجيء أبوَي الرسول ﷺ من الرضاعة إليه وتعرفه على الشيماء - أخته من الرضاعة - التي جيء بها ضمن أسرى غزوة حنين، وسيأتي ذكرها في أحداث حنين.

وخلال حياته في رعاية حليمة السعدية وقعت للنبي ﷺ إرهاصات دلت على بركته، وعناية الله به، وحفظه له. وأشهر ما روي في ذلك حديث حليمة السعدية الطويل المشهور، الذي فيه أنه بحلول محمد ﷺ عليها، در ثديها اللبن، فارتوى منه محمد وابنها الذي كانت تحمله بعد أن كان يبكي من الجوع لجفاف ثدي أمه، ولا ينام هو وأهله، وامتلأ ضرع شارفها باللبن بعد أن كان يابساً، فشبعت منها مع زوجها، وأضحت أتانها نشطة قوية، تسير في مقدمة الركب، بعد أن كانت عاجزة تسير في مؤخرة الركبان. وحيثما حلّت أغنام حليمة تجد مرعى خصباً، فتشبع، ولا تجد أغنام غيرها شيئاً، وكان ينمو نمواً سريعاً، لا يشبه نمو الغلمان [ابن هشام].

حكمة الرضاعة في البادية:

كانت عادة الحضر من العرب أن يسترضعوا أبناءهم في البدو، ابتعاداً بهم عن أمراض المدن، ورغبة في تقوية أجسادهم، وتعويداً وتربية لهم على الاعتماد على النفس منذ الصغر، بعيداً عن تدليل الأمهات والجدات وبقية الأقارب، وتقويماً لألسنتهم منَ اللحن وغيره من مفسِدات اللغة [البداية؛ الذهبي: السيرة، صحيح].

المبحث السادس:
الرضاعة في بادية بني سعد وحادثة شق الصدر:

وقعت للرسول ﷺ وهو في بادية بني سعد حادثة شق الصدر، كما جاء ذلك صريحاً في رواية أبي نعيم عند ابن كثير [في البداية، بإسناد صحيح]، ونصها: قال رسول الله ﷺ: «... كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر، فانطلقت أنا وابن لها في بَهَم [صغار الغنم] لنا، ولم نأخذ معنا زاداً، فقلت: يا أخي اذهب فائتنا بزاد من عنَد أمنا، فانطلق أخي، ومكثت عند البهم، فأقبل طائران أبيضان كأنهما نسران، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ فقال: نعم! فأقبلا يبتدراني، فأخذاني، فبطحاني للقفا، فشقا بطني، ثم استخرجا قلبي فشقاه، فأخرجا منه علقتين سوداوين، فقال أحدهما لصاحبه: ائتني بماء ثلج

فغسلا به جوفي، ثم قال: ائتني بماء بَرَد، فغسلا به قلبي، ثم قال: ائتني بالسكينة، فذرها في قلبي، ثم قال أحدهما لصاحبه: خطه، فخاطه، وختم على قلبي بخاتم النبوة، فقال أحدهما لصاحبه: اجعله في كفة واجعل ألفاً من أمته في كفة، فإذا أنا أنظر إلى الألف فوقي أشفق أن يخر عليَّ بعضهم، فقال: لو أن أمته وزنت به لمال بهم، ثم انطلقا، فتركاني، وفرقت فرقاً شديداً، ثم انطلقت إلى أمي، فأخبرتها بالذي لقيت، فأشفقت أن يكون قد لبس بي، فقالت: أعيذك بالله، فرحَّلت بعيراً لها، وحملتني على الرحل، وركبت خلفي حتى بلغنا إلى أمي، فقالت: أديت أمانتي وذمتي، وحدثتها بالذي لقيت فلم يرعها، وقالت: إني رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاءت منه قصور الشام».

وروى قصة هذا الشق مسلم، باختصار، ولم يصرح بمكان وقوعها، ونصه عن أنس رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه، فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (يعني ظئره ـ مرضعته) فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه، وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره».

لقد سكتت بعض المصادر ـ منها مسلم ـ عن تحديد سنه ﷺ حين وقعت له هذه الحادثة لأول مرة. أما الذين حددوا سنه فلم يتفقوا على سن محددة، فيفهم من رواية ابن إسحاق [في السيرة] أن ذلك كان وعمره ﷺ نحو السنتين، إذ تقول حليمة: «فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفرا. . . فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر مع أخيه لفي بهم لنا خلف بيوتنا. . .» وفي رواية ابن سعد أن القصة وقعت، وللرسول ﷺ أربع سنين، وقال بهذا أبو نعيم من طريق ضعيفة أيضاً، ويذكر آخرون أنه كان في الخامسة [دلائل البيهقي] أو بعدها [المواهب].

ونحن نميل مع الزرقاني [في شرحه على المواهب] ونرجح رواية ابن سعد في أنه كان في الرابعة؛ لأنها السن التي يمكن أن يمارس فيها رعي البهم، ويفهم شيئاً مما يدور حوله.

ولقد تكرر حادث شق صدر الرسول ﷺ مرات أخرى غير هذه التي في بادية بني سعد، فقد روى أحمد وغيره أن شق الصدر قد وقع له، وهو ابن عشر سنين وأشهر. وروى البخاري ومسلم وغيرهما أن شقًّا لصدره قد وقع له، وقد تجاوز الخمسين من العمر، حين أسري به إلى بيت المقدس. وذكر الذهبي [في السيرة]، الروايات الدالة على أن شق صدره كان مرتين: في صغره ووقت الإسراء به. وهناك من ذكر وقوعها مرة رابعة [دلائل البيهقي].

لقد ذهب بعض أصحاب المدرسة العقلية من المستشرقين والمتأثرين بهم من المسلمين إلى تأويل حادث شق الصدر. فمنهم من قال: إنها أسطورة، ومنهم من قال: إنها أمر معنوي، و. . . . و. . . . إلخ.

ومن أوجز ما قيل في حادثة شق الصدر قول ابن حجر [في الفتح]: «إن جميع ما ورد عن شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة مما يجب التسليم له دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك.».

وينبغي للمسلم أن يعلم أن ميزان قبول الخبر إنما هو صحة الرواية، فإذا صحت فلا يجدي البحث بعد هذا عن صرف الكلام إلى غير حقيقته أو تأويله تأويلاً عقلياً ممجوجاً كما يفعل أصحاب المدرسة العقلية.

حكمة شق الصدر:

١ - يبدو أن هذه الحادثة كانت إعلاناً لأمر الرسول ﷺ والتهيئة للعصمة والوحي منذ صغره بوسائل مادية؛ ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس به وتصديقهم برسالته، إنها - إذاً - عملية تطهير معنوي، ولكنها اتخذت هذا الشكل المادي الحسي؛ ليكون فيه ذلك الإعلان الإلهي بين أبصار الناس وأسماعهم - كما قال البوطي.

٢ - فيها بيان إعداد الله - تعالى - عبده ورسوله محمداً ﷺ لتلقي الوحي عنه.

٣ - تشير الحادثة إلى تعهد الله ﷻ نبيه عن مزالق الطبع الإنساني، ووساوس الشيطان، وهي حصانة أضفاها الله ﷻ على نبيه محمدٍ ﷺ.

المبحث السابع: رحلته إلى الشام

روى الترمذي [بسند صحيح] إلى أبي موسى الأشعري، أنه قال: «خرج أبو طالب إلى الشام، ومعه رسول الله ﷺ في أشياخ من قريش. فلما أشرفوا على الراهب ـ يعني بحيرىٰ ـ هبطوا، فحلوا رحالهم، فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك يمرون، به فلا يخرج، ولا يلتفت إليهم، قال: فنزل وهم يحلون رحالهم، فجعل يتخلّلهم حتى جاء، فأخذ بيد النبي ﷺ فقال: هذا سيد العالمين، بعثه الله رحمة للعالمين. فقال له أشياخ من قريش: وما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خرَّ ساجداً، ولا يسجدون إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه. ثم رجع فصنع لهم طعاماً، فلما أتاهم به ـ وكان هو في رعية الإبل ـ قال: أرسلوا إليه، فأقبل وغمامة تظله، فلما دنا من القوم قال: انظروا إليه عليه غمامة، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء ـ ظل ـ شجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، قال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه. قال: فبينما هو قائم عليهم، وهو ينشدهم ألا يذهبوا به إلى الروم، فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فقتلوه، التفت فإذا هو بسبعة من الروم قد أقبلوا، قال: فاستقبلهم فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا؛ لأن هذا النبي خارج في هذا الشهر، فلم يبق طريق إلا بعث إليه ناس، وإنّا أُخبرنا خبره إلى طريقك هذه. قال: فهل خلفكم أحد هو خير منكم؟ قالوا: لا، إنما أُخبرنا خبره إلى طريقك هذه. قال: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه، هل يستطيع أحد من الناس رده؟ فقالوا: لا. قال: فبايعوه وأقاموا معه عنده. قال: فقال الراهب: أنشدكم الله! أيكم وليُّه؟ قالوا: أبو طالب. فلم يزل يناشده حتى رده، وبعث معه أبا بكر وبلالاً، وزوده الراهب من الكعك والزيت».

اختلف العلماء في هذا الأثر، فقد حسنه الترمذي وصححه الحاكم، والألباني [في دفاع]، وابن حجر. وقال ابن حجر: «رجاله ثقات، وليس فيه سوى هذه النقطة ـ أي ذكر أبي بكر وبلال ـ فيحتمل أن تكون مدرجة فيه منقطعة من حديث آخر وهماً من أحد رواته.». وقال ابن القيم [في زاد المعاد]: إن هذه النقطة من الغلط الواضح.

وذكر ابن إسحاق [في السيرة] القصة بنحو سياق الترمذي، وليس فيه ذكر أبي بكر وبلال، ولكنها بدون إسناد، فيستأنس بروايته لإمامته في المغازي، ويكاد يكون لكل رواياته غير المسندة أصل.

وروى الأموي [كما في البداية] أن الرسول ﷺ سافر مع عمه الزبير في تجارته إلى اليمن، عندما كان له من العمر بضع عشرة سنة. وذكروا أنهم رأوا منه آيات في تلك الرحلة، من ذلك: أن فَحْلاً من الإبل كان يقطع الطريق في واد يمرون عليه، فلما رأى الفحل رسول الله ﷺ برك حتى حك بكَلْكَلِهِ [صدره] الأرض، فركبه رسول الله، وأنه اعترضهم سيل عرم، فأيبسه الله ـ تعالى ـ حتى جَاوَزُوا الوادي.

الحكمة من أقوال أهل الكتاب وغيرهم في صفة محمد ﷺ:

إن في قصة الراهب بَحِيْرَىٰ مع الرسول ﷺ دليلا على معرفة أهل الكتاب صفة رسول الله ﷺ وزمانه كما هي عندهم في كتبهم، وهي تفسر لنا قوله ـ تعالى ـ في اليهود: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩].

روى البخاري من حديث عطاء بن يسار، أن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما كان يقول: إن هذه الآية التي في القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، هي في التوراة: (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك: المتوكل. ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن أقبضه حتى نقيم به الملة العوجاء حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح بها أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً).

ولقد كان سبب إسلام سلمان الفارسي وغيره رضي الله عنهم تتبع خبر النبي ﷺ وصفاته من أحبار اليهود ورهبان النصارى.

ومن المعلوم أن أهل الكتاب حاولوا طمس هذه الحقيقة فيما بعد، كما حكى ذلك القرآن في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ

يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩]، وفي قوله - تعالى -: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦]، وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]. ولم يوفقوا في طمس كل الحقيقة كما هو واضح من عبارات وردت في بعض أناجيل النصارى - مثل إنجيل برنابا - خاصة ببيان اسم النبي ﷺ المنتظر وصفته وزمانه ومكانه.

وممن كتب مباشرة في موضوع بشارات التوراة والإنجيل بنبوة ورسالة محمد ﷺ:

(١) الأستاذ إبراهيم خليل أحمد، القس المصري - سابقاً - إبراهيم خليل فيلبس، الذي هداه الله إلى الإسلام، بعد أن قام بدراسة مقارنة لما في الإسلام وما في الديانات السماوية السابقة عليه، ونشرها في كتاب عنوانه: «محمد في التوراة والإنجيل والقرآن»، وقد مكنته معرفته العميقة بالعهد القديم (التوراة) والعهد الجديد (الإنجيل) من إجراء الدراسة الجادة التي قادته في النهاية إلى أن الإسلام هو الحق، فاعتنقه، وأصبح من دعاته.

ومما قاله في دراسته القيمة المذكورة: «نستطيع - بعد هذه الدراسة التحليلية - أن نضع الصورة الكاملة التي نستمدها من نصوص الكُتاب المقدس، والتي لم يطرأ عليها تغيير ولا تبديل ولا تحريف؛ لأن الله شاء فحفظها حرصاً على نبيه محمد ﷺ، ومن ثم إننا نحصل على تصور معين لصورة الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، هذا الرسول بدا شامخاً بشيمه الشماء، وهي من شقين:

(أ) أنه الرسول النبي الخاتم، ولا نبي بعده.

(ب) أنه رسول الله للعالمين كافة للأسباب التالية:

١ ـ لأنه متمكن ورحيم.

٢ ـ لأنه مؤسس لأمة على الحق والبر.

٣ ـ لأنه بفضل الله نور للأمم.

٤ ـ لأنه وثيق الصلة بسلالة قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام.

وهذه الحقائق مؤسسة على سفر أشعياء ٤٢ : ١ ـ ١١ :

٥ ـ لأنه سليل إسماعيل، وإسماعيل أخو إسحاق، فهو عم العبرانيين كافة.

٦ ـ لأن فيه يتحقق وعد الله لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام.

٧ ـ لأن فيه تتبارك كل شعوب الأرض.

٨ ـ لأنه الوارث الحقيقي لإسماعيل، وإسماعيل هو بكر إبراهيم، فله النصيب المضاعف.

٩ ـ لأنه يتلقى الوحي مباشرة من الله.

وهذه الحقائق مؤسسة على سفر التكوين ١٧ : ٢٠ ـ ٢٢ : ١٦ ـ ١٨ : وسفر التثنية ٢١ : ١٥ ـ ١٧ ـ ١٨ : ١٥ ـ ١٩ :

- لأنه يأتي على أثر اختتام رسالة المسيح عيسى بن مريم.
- لأنه يعزي ويرشد جماعة المؤمنين من أتباع المسيح (الباراقليط) Paraclete.
- لأن أفعاله وأقواله وخصاله تُنْبِئ أنه المحمد The Praised one (Pericyte).
- لأنه الصادق الأمين، وشهرته ذائعة في العالمين بالصدق والأمانة.
- لأنه يتلقى الوحي مباشرة من الله.
- لأن رسالته خالدة أبدية.
- لأنه يرشد إلى الحق. . . إلى جميع الحق.
- لأنه يدافع عن المسيح عيسى بن مريم وأمه (ذاك يمجدني) ويدفع عنهما الشبهات.

هذه الحقائق مؤسسة على إنجيل يوحنا ١٤ : ١٦، ١٧ ـ ١٤ : ٤٥ : ٢٦ : إنجيل يوحنا ١٥ : ٢٦، ٢٧ ـ إنجيل يوحنا ١٦ : ١٣، ١٤.

ولتصفية هذه الشواهد في تركيز وإيجاز أوضح أن هذا النبي الخاتم يختلف عن الآخرين من أنبياء العبرانيين في ثلاثة وجوه حيوية ورئيسة على الأقل، وهي:

١ ـ أنه سيكون صاحب رسالة عالمية.

٢ ـ أنه سيصبح خاتم النبيين، ولا نبي بعده، ولا نبوة بعده.

٣ ـ أنه من ذرية إسماعيل عليه السلام، الذي خلعت عليه بنو إسرائيل (العرب)، وأنه سليل قيدار بن إسماعيل.

هذه الحقائق مؤسسة على إنجيل يوحنا ١٦: ١٢ ـ ١٤، وسفر إشعياء ٦٠: ١ ـ ٧».

وذكر الأستاذ إبراهيم في كتابه هذا أمثلة كثيرة لبشارات من التوراة والإنجيل بنبوة ورسالة محمد ﷺ.

والكتاب جدير بالقراءة لأهميته في إجلاء الحقائق الغائبة عن كثير من الناس.

وصدق الله العظيم القائل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، والقائل: ﴿... وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٤].

(٢) الدكتور الشفيع الماحي أحمد، وعنوان كتابه: «محمد ﷺ في بشارات التوراة والإنجيل»، نشر مركز البحوث التربوية، كلية التربية، جامعة الملك سعود، الرياض، ط١، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م، ١٧٠ صفحة. إبتغى ببحثه إلى عرض بشارات أنبياء بني إسرائيل بمقدمه ﷺ، كما وردت في التوراة والإنجيل، وذلك من حيث الزمن الذي سيظهر فيه، والأرض التي يبعث منها، واسمه، وصفاته وأحواله، ومنهج رسالته الخاتمة، وأمته، وأخيراً دوام دولته.

(٣) أحمد ديدات: «ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد ﷺ»، ترجمة إبراهيم خليل أحمد، القاهرة، دار المنار، ١٩٨٩م.

(٤) محمود الشرقاوي: «محمد ﷺ في بشارات الأنبياء»، القاهرة، مؤسسة دار الشعب، ١٩٧٧م.

(٥) رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي: «إظهار الحق»، دراسة وتحقيق وتعليق الدكتور محمد أحمد عبد القادر ملكاوي، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، السعودية، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م في ٤ مجلدات. تناول المسلك السادس من الباب السادس، الجزء الرابع «إخبار الأنبياء المتقدمين عليه عن نبوته ﷺ»، ص١١١٦ ـ ١١٩٨، وعد من البشارات ثماني عشرة بشارة، معتمداً على نصوص من التوراة والإنجيل. وكان تحقيق الدكتور الملكاوي رسالة علمية حصل بها على الدكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، السعودية، وعمل معنا بقسم الثقافة الإسلامية، جامعة الملك سعود.

لم يكن أهل الكتاب ـ وحدهم ـ الذين كانوا يعرفون اسم وصفة النبي العربي الخاتم، بل شاركهم، وسبقهم في هذا غير أهل الكتاب. فقد اطلعت على بحث موثق، باللغة الإنجليزية، ومن مصادر هندية أصيلة، للأستاذين: أنور حسين، ووقار عظيم الندوي، بعنوان: «محمد ﷺ في الكتب الهندية المقدسة» [Mohammad (P.B.U.H.) in Hindu's Sacred Books] وخلاصته:

أولاً: أن الاسم «محمد»، ومعانيه وأشكال رسمه ونطقه المختلفة في اللغة السنسكريتية، ذكر في كتب هندية مقدسة، هي:

(A) Riga Veda, Kand 5, mandal 27, mantra 1.
(B) Atherva Veda, Kand 20, Sukt 127, mantra 3.
(C) Bhavishya Purana, Kand 3, Surg 3/3, mantra 5 and 12.
(D) Srimad Bhagawat, mahtampurana, chapter 2, Shlok 76.
(E) Tulasi's Ramacharitamanas, deriving from Sangrampurana, Kand 12, chapter 6.

ثانياً: ذكر الاسم «أحمد» ومعانيه وأشكال رسمه ونطقه المختلفة في اللغة السنسكريتية، في كتب هندية مقدسة، هي:

(A) Riga Veda, madal 8, mantra 10.
(B) Sama Veda, prapathak 2, dashti 6, mantra 8.
(C) Athara Veda, Kand 20, Sukt 126, mantra 14.
(D) Yajur Veda, Sukt 31, mantra 18.

ثالثاً: ذكرت هذه الكتب الهندية المقدسة السابقة للكتب السماوية أوصافاً للنبي محمد ﷺ وأحداثاً، طابقت سيرة النبي ﷺ، وهي:

(أ) أنه سيركب الجمل. (ب) أنه سيتزوج اثنتي عشرة امرأة، ذكرهن الباحثان، وهن: خديجة، وسودة، وعائشة، وحفصة، وزينب بنت خزيمة، وأم سلمة، وزينب بنت جحش، وأم حبيبة، وصفية، وجويرية، وريحانة، وميمونة. (جـ) سيكون مختوناً وملتحياً. (د) سيلتقي بعدو تعداده الكلي في المواقع الكبرى ٦٠,٠٩٠، ذكر المؤلفان تفاصيل ذلك. (هـ) سيصعد إلى السماء بسرعة خيالية ويعود إلى الأرض ـ يعني المعراج.

رابعاً: ذكرت هذه الكتب بعض فضائل أصحاب النبي ﷺ والعدد الحقيقي لبعض فئاتهم أو أصنافهم.

خامساً: ذكرت هذه الكتب معاني اسم والد ووالدة النبي محمد ﷺ.

وفي ختام البحث ذكر المؤلفان خمسة مراجع باللغة الأردية لمزيد من القراءة في هذا الموضوع، وهي:

(1) Dr. Kamalakant Tiwari, Kali Yuga Ke Antima Rishi.
(2) Pundit Dharam Veda Upadhyay, Antim I Shwer Doot.
(3) Veda Prakash Upadhyay, Kalki Avatara.
(4) Ibn Akbar Azmi, Mohammad Hindu Kitabon men.
(5) Shams Navaid Usmani, Ab Bhi Na Tage to.

ونبّه الباحثان إلى أن المعلومات الأساسية لهذا البحث مأخوذة من كتاب ابن أكبر الأعظمي ـ رقم ٤ ـ «محمد ﷺ في الكتب الهندية المقدسة»، وهو من منشورات دار الصفة، براتي رابطة، رابطة دوكان رقم ١٤، الطابق الأول، مؤسسة پلازه ٤٠، لاهور.

المبحث الثامن:

أ ـ رعيه الغنم في صباه، والحكم والعبر من ذلك:

روى البخاري بسنده إلى أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نبي إلا وقد رعى الغنم، قالوا: وأنت يا رسول الله؟ قال: نعم، كنت أرعاها على قَرَارِيط [والقيراط جزء من الدينار أو الدرهم، أو اسم موضع بمكة المعنى الأول] لأهل مكة».

وروى البخاري ومسلم من حديث جابر أن الرسول ﷺ رعى الغنم.

ومن أبرز الحكم والعبر في هذا الرعي:

١ ـ قال ابن حجر [في الفتح]: «قال العلماء: الحكمة في إلهام الأنبياء من رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة؛ لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها، وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة...» ثم قال:

«وفي ذكر النبي ﷺ لذلك بعد أن علم كونه أكرم الخلق على الله، ما كان عليه من عظيم التواضع لربه، والتصريح بمنته عليه وعلى إخوانه من الأنبياء».

٢ ـ يتجلى لنا في رعيه الغنم الذوق الرفيع والإحساس الدقيق اللذان جمل الله بهما نبيه محمداً ﷺ إذ إن الرسول ﷺ ما أن آنس في نفسه القدرة على الكسب حتى أقبل يكتسب لرفع بعض ما يمكن رفعه من مؤنة الإنفاق على عمه الذي وفر له وسائل العيش الكريم، مع أنه كان ذا عيال كثيرين.

٣ ـ أن الله ﷻ لا يعجزه أن يهيّئ لمحمد ﷺ كل وسائل الرفاهية، ويغنيه عن الكدح سعياً وراء القوت، ولكن اقتضت حكمة الله أن تعلمنا أن خير مال الإنسان ما اكتسبه بجهده، وأن قيمة الإنسان هي فيما يقدمه لمجتمعه من خدمات قدر طاقته.

٤ ـ لن تكون لأصحاب الدعوات قيمة معتبرة عند الناس إذا كان كسبهم من عطايا الناس وصدقاتهم، ولذا فإن صاحب الدعوة أحرى الناس بالاعتماد على نفسه وجهده الشخصي في معيشته، والابتعاد عن الاستجداء، حتى لا يكون لأحد عليه منة أو فضل في دنياه، فيعيقه ذلك عن أن يصدع بكلمة الحق في وجهه [البوطي: فقه السيرة].

المبحث التاسع: عناية الله له وحفظه من بعض أمور الجاهلية، والحكم والعبر من ذلك:

لقد شارك الرسول ﷺ في إعادة بناء الكعبة عندما تهدمت، فكان ينقل معهم الحجارة للبناء، وعليه إزاره، فاقترح عليه عمه العباس أن يجعل إزاره على منكبيه ليقيه الحجارة، وعندما فعل ذلك سقط مغشياً عليه، فما رئي بعد ذلك عرياناً.

وكان يوماً ينقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان، وذلك عندما كان صغيراً يلعب مع أترابه غلمان قريش، فأخذ إزاره فجعله على رقبته؛ ليحمل عليه الحجارة، فتعرى، وحينها لكمه من لم يره لكمة موجعة، وقال له: «شد عليك إزارك»، فشده عليه، وذلك دون غيره من الغلمان الذين كانوا معه.

وروي أن الله عصمه مرتين عندما حاول أن يسمر كما يسمر الشباب. ولكن اختلف العلماء في تصحيح هذا الخبر، فصححه الحاكم والذهبي وغيرهما، ضعفه ابن كثير [في البداية] والألباني [في دفاع]، لعلل ذكروها، وحججهما قوية.

وخالف الرسول ﷺ قومه من أهل الحرم الذين عرفوا بـ «الحُمْس»، إذ كان يفيض مع الناس من عرفات بينما كانت الحمس تفيض من مزدلفة (جُمَع). وقد تعجب جُبَيْرٌ بن مُطْعِم من الرسول ﷺ لهذا الفعل، كما روى الشيخان، وكان ذلك توفيقاً من الله ـ تعالى ـ له، كما قال جبير بن مطعم بعد إسلامه، كما روى ابن إسحاق [في السيرة، بسند حسن] [والحُمْس: هم أهل الحرم ومن ولدوا من العرب من ساكني الحل والحرم ومن دخل معهم من العرب مثل كنانة وجديلة، رأوا أن لهم منزلة فوق منزلة بقية العرب؛ ولذلك ميزوا أنفسهم عنهم بأن تركوا الوقوف بعرفات والإفاضة منها، وقيل: سمّوا حمساً؛ لأنهم اشتدوا في دينهم على زعمهم، مأخوذ من الحماسة، وهي الشدة].

وجاء الإسلام، فوضع الله ـ تعالى ـ أمر الحمس وما كانت قد ابتدعته قريش، قال ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩].

وروى البيهقي [في الدلائل بسند حسن] أنّ الرسول ﷺ ما استلم صنماً قط، وكان ينهى عن ذلك في الجاهلية، ورفض أن يمس صنم إِسَاف أو نَائِلَة عند طوافه، كما كانت عادة أهل الجاهلية.

وروى ابن إسحاق [في السيرة] أن بَحِيْرَىٰ الراهب عندما حلف باللات والعزى، متابعة لقريش في طريقة حلفهم، قال له النبي ﷺ: «لا تسألني باللات والعزى شيئاً، فوالله ما أبغضت بغضها شيئاً قط.».

وحفظه الله ﷻ من كيد الشياطين، في الجاهلية والإسلام.

ورفض الرسول ﷺ أن يعتكف عند صنم بوانة - حيث كان لقريش عيد عنده مرة كل عام - فغضب منه عمه أبو طالب وعماته غضباً شديداً، فعندما هم بمطاوعتهم عصمه الله من مس الأصنام، حيث تمثل له رجل أبيض طويل منعه من مسها، فلم يشارك في عيد لهم في حياته.

وروى البيهقي [في دلائله، بسند حسن، كما قال طرهوني]، أن ملكين منعاه أن يشهد مع المشركين مشاهدهم، فانتهى عَن ذلك.

ومن أبرز الحكم والعبر من أخبار عناية الله وحفظه من أمور الجاهلية:

١ - أن في هذه الأخبار دليلاً على أن الرسول ﷺ كان مصوناً عما يستقبح من أمور الجاهلية قبل البعثة وبعدها، وذلك من حماية الله - تعالى - له عما يسيء إلى شخصه ودعوته.

٢ - أن من الأمور المستقبحة عند الله - تعالى - التعرِّي بحضرة النَاس. وقد حرم الإسلام ذلك إلا للضرورة، مثل العلاج ونحوه، كما قال ابن حجر في [الفتح].

٣ - أن عصمة الله - تعالى - له من ممارسة أفعال الجاهلية دليل على تهيئة الله تعالى له لأمر جليل.

المبحث العاشر: حرب الفِجَار

سميت الحرب التي دارت بين كنانة وقريش من جهة، وقيس عيلان من جهة أخرى بحرب الفِجَار؛ لأنهم استحلوا المحارم بينهم، كما ذكر ابن حجر

[في الفتح]. وكان سببها تافهاً، لم يَعْدُ قتل رجل من قريش، تداعى بعده الأحلاف للقتال، كما ذكر ابن هشام [في السيرة].

ذكر ابن إسحاق [في السيرة] أن هذه الحرب عندما هاجت كان لرسول الله ﷺ عشرون سنة. وقال ابن هشام إنها هاجت، ولرسول الله ﷺ أربع عشرة سنة أو خمس عشرة سنة، وأن رسول الله ﷺ شهد بعض أيامهم مع أعمامه، وقال: «كنت أنبل على أعمامي» ـ أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها.

ولما كانت حرب الفجار قد استمرت زمناً طويلاً فيمكن الجمع بين قولي ابن إسحاق وابن هشام بأن عمر الرسول ﷺ كان في مبتدئها نحو خمس عشرة سنة، ولذا كان ينبل على أعمامه. وعند انتهائها كان عمره عشرين سنة.

ومما يلفت النظر أنه لم يرد ذكر لاشتراك الرسول ﷺ مباشرة في هذه الحرب، وقد كان بلغ سن القتال، كما في رواية ابن إسحاق المذكورة. وعلل السهيلي ذلك بأنها كانت حرب فجار بين كفار، ولم يأذن الله تعالى لمؤمن أن يقاتل إلا لتكون كلمة الله ـ تعالى ـ هي العليا.

قلت: لو صح حديث نبله على أعمامه، فهو دليل على اشتراكه في الحرب اشتراكاً رمزياً غير مباشر، ويمكن تفسيره بأن الرسول ﷺ اشترك بهذه الكيفية في الدفاع عن المقدسات والمحارم، وخاصة أن قيس عيلان هي المعتدية، وهذا من القيم العليا التي اهتم بها الرسل والمصلحون، أي نصرة المظلوم.

المبحث الحادي عشر: شهوده حلف الفضول أو المطيبين

[المطيبون: هاشم، وزهرة، ومخزوم. قاله بعض رواة حديث أبي هريرة عند البيهقي في الدلائل (٢/ ٣٨). وقال البيهقي: «كذا روي هذا التفسير من رجال الحديث، ولا أدري قائله...». وقد سبق القول إن ابن إسحاق [ابن هشام ١/ ١٧٩ ـ ١٨١]، أشار إلى حلف المطيبين، وهو اختلاف قريش بعد قصي: بني عبد مناف ومن حالفهم، وبني عبد الدار ومن حالفهم... فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً عند الكعبة... ثم غمس القوم أيديهم فيها، فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم، ثم

مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم فسموا المطيبين. وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عند الكعبة على أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً لعدو، فسموا الأحلاف...]

روى أحمد [في المسند بسند صحيح] أن الرسول ﷺ قال: «شهدت حلف المُطَيَّبِين مع عمومتي وأنا غلام، وما أحب أنّ لي حمر النعم، وأني أنكثه». وقال في رواية البيهقي [في الدلائل بسند قوي]: «ما شهدت حلفاً لقريش إلا حلف المطيبين، وما أحب أن لي حمر النعم، وأني كنت نقضته».

قال البيهقي [في دلائله] معلقاً على هذا الحديث: «زعم بعض أهل السير أنه أراد حلف الفضول، فإن النبي ﷺ لم يدرك حلف المطيبين».

والبيهقي نفسه يقول في السنن الكبرى: إن الرسول ﷺ لم يدرك حلف المطيبين.

ذكر ابن الأثير [في النهاية] أنه يمكن الجمع بين رواية أحمد والبيهقي ورواية أهل السير أن حلف المطيبين قد تجدد في حياة الرسول ﷺ وعرف باسم آخر هو «حلف الفضول»، والله أعلم.

وروى الحميدي [كما في البداية لابن كثير، بسند صحيح]، أن رسول الله ﷺ قال: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جُدعان [تيمي من قرابة عائشة رضي الله عنها، يكنى بأبي زهير] حلفاً لو دعيت به في الإسلام لأجبت، تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها، وألا يعز ظالم مظلوماً». وروى ابن إسحاق [في السيرة، بسند مرسل صحيح]، أن الرسول ﷺ قال: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أُدعى به في الإسلام لأجبت».

لقد عقد هذا الحلف بنو هاشم وبنو عبد المطلب وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم، على التناصر والأخذ للمظلوم من الظالم، [كما روى ابن إسحاق في السيرة]. وكان ذلك في ذي القعدة قبل المبعث بعشرين سنة، منصرف قريش من حرب الفجار، ولرسول الله ﷺ يومئذ عشرون سنة، وكان أول من دعا إليه الزبير بن عبد المطلب، عم رسول الله ﷺ.

وكان سببه أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة له، فاشتراها منه العاص بن وائل السهمي، وكان ذا شرف، فحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيدي الأحلاف: عبد الدار، ومخزوماً، وجمحاً، وسهماً، فأبوا أن يعينوه على العاص، وزجروه. فلما رأى الزبيدي الشر رقى على جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس، وقريش في أنديتهم حول الكعبة، فقال بأعلى صوته:

«يا آل فهر لمظلوم بضاعته
ببطن مكة نائي الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته
يا للرجال وبين الحجر والحجر
إن الحرام لمن تمت مكارمه
ولا حرام لثوب الفاجر الغدر»

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب، وقال: «ألهذا مترك؟» فاجتمعت قريش وزهرة وتيم في دار عبد الله بن جدعان، فتحالفوا، وتعاهدوا في ذي القعدة الحرام ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه ما بلَّ بحر صوفة، [يعني إلى الأبد، أي ما قام في البحر ماء ولو قطرة] وما رسا ثبير وحراء مكانهما، وعلى التأسي في المعاش. فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضول من الأمر، ثم مشوا إلى العاص بن وائل، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي، فدفعوها إليه [رواه ابن سعد] [وثبير: اسم جبل بمكة].

ومن أبرز الحكم والعبر من خبر شهوده حلف الفضول:

١ - إذا كان أهل الجاهلية يرفضون الظلم بدوافع فطرية فأولى بأهل الإسلام رفضه بدوافع عقدية؛ لأن الإسلام جاء حاثًا على عدم الظلم، ومتمشياً مع الفطرة، ومقوماً لها من أي انحراف. ولا غرابة أن يؤكد الرسول ﷺ على أهمية ذلك الحلف؛ لأن مضمونه هو مضمون ما دعا إليه الإسلام في أمر إحقاق الحق، وإبطال الظلم.

٢ ـ إن العمل الذي قام به الزبير في هذا الحلف دليل على مروءة رجال البيت الهاشمي، وبيان فضلهم على غيرهم في مثل هذه المواطن، وحسبهم فضلاً وشرفاً أن الرسول ﷺ كان منهم.

المبحث الثاني عشر

أ ـ زواجه من خديجة رضي الله عنها:

روى ابن إسحاق أن خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العُزَّىٰ بن قصي بن كلاب كانت امرأة حازمة شريفة لبيبة، من أوسط قريش نسباً، وأعظمهم شرفاً، وأكثرهم مالاً، وكان رجال قومها يحرصون على الزواج منها. وكانت تستأجر الرجال من مالها، وتضاربهم عليه بشيء تجعله لهم، فلما بلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها ـ من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه ـ بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مالها تاجراً إلى الشام، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، فوافق، وخرج مع غلام لها يدعى مَيْسَرَة. ومن خلال معاشرة ميسرة للرسول ﷺ رأى من الآيات والمعجزات ما حكاه لسيدته خديجة، فرغبت في الزواج منه.

ومن تلك الآيات أن الرسول ﷺ عندما قدم بُصرى من أرض الشام، نزل في ظل شجرة، فقال نسطور الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي، ثم قال لميسرة: أفي عينيه حمرة؟ قال: نعم، لا تفارقه، قال: هو نبي، وهو آخر الأنبياء.

وكان ميسرة يرى ملكين يظلانه إذا اشتدت الهاجرة. وتقول الرواية: إن خديجة رأت ذلك عندما دخل محمد ﷺ مكة في ساعة الظهيرة. وفي القصة أنه وقع بين الرسول ﷺ ورجل تلاح في البيع، فقال الرجل للنبي ﷺ: احلِف باللات والعزى، فقال النبي ﷺ: «ما حلفت بهما قط، وإني لأَمُرُّ فأعرض عنهما».

وقال لميسرة: هذا ـ والله ـ نبي تجده أحبارنا منعوتاً في كتبهم. وفي

القصة أيضاً أن تجارة الرسول ﷺ ربحت ضعف ما كانوا يربحون، وأضعفت خديجة للنبي ﷺ ضعف ما سمَّت له من قبل، وهو أصلاً ضعف ما كانت تعطي غيره من قريش.

وذكرت خديجة لابن عمها ورقة بن نوفل قول الراهب نسطور الذي سمعه منه ميسرة، وهو: «ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي»، وما كان يرى ميسرة من إظلال الملكين له، فقال ورقة: «لئن كان هذا حقاً - يا خديجة - إن محمداً لنبي هذه الأمة، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر، هذا زمانه» [رواه الطبراني في الأوسط بسند حسن].

كان هذا الذي سمعته خديجة من ميسرة وورقة تأكيداً لما كانت تعرفه من أخلاقه وعلو شأنه؛ لذا رغبت في الزواج منه، فأرسلت صديقتها نفيسة بنت منية تعرض عليه ذلك، فوافق ﷺ على ذلك، فتم الزواج [رواه المحاملي كما ذكر الذهبي في السيرة].

وقد أخرج البزار والطبراني عن جابر، بسند حسن، أن أختاً لخديجة استكرت [أي استأجرت] رسول الله ﷺ وشريكاً له، فلما قضيا السفر بقي لهما عليها شيء، فجعل شريكه يأتيهم، ويتقاضاهم، وعندما يطلب من محمد ﷺ أن يفعل مثله يعتذر بحجة أنه يستحي من ذلك. فذكرت ذلك لخديجة، فأعجبت به، وطلبت منه أن يخطبها إلى أبيها، فقال: أبوك رجل كثير المال، وهو لا يفعل. قالت: انطلق فالقه وكلمه، ثم أنا أكفيك، وائت عند سكره.

روى ابن إسحاق في السير والمغازي، أن خديجة تزوجت قبل الرسول ﷺ عتيق بن عائذ المخزومي، فولدت له امرأة، ومن بعده تزوجت أبا هالة بن النباش التميمي، وولدت منه ابنها هنداً وامرأة، ومات أبو هالة في الجاهلية. [قاله ابن حجر في الفتح. وعند ابن سعد : ابن عابد].

وذكر ابن سعد أن أول من تزوجها هو أبو هالة، واسمه هند بن النباش بن زرارة، فولدت له رجلاً يقال له: هند، ثم خلف عليها بعده عتيق بن عابد بن عبد الله المخزومي، فولدت له جارية يقال لها: هند، فتزوجها صيفي بن أمية بن عابد بن عبد الله. قلت: ولمحمد بن صيفي ترجمة في

الإصابة والاستيعاب. أما الرسول ﷺ فكان أول من تزوجها هي خديجة، ولم يتزوج عليها حتى ماتت، [كما في صحيح مسلم]. وكان ذلك سنة خمس وعشرين من مولده ﷺ في قول الجمهور، منهم ابن إسحاق.

واختلف العلماء في الذي تولى أمر زواجها، فذكر البيهقي أن الذي زوجه إياها هو أبوها خويلد، وهو سكران، وفي نهاية الخبر يقول الراوي ـ المؤملي ـ عمر بن أبي بكر: «والمجتمع أن عمها عمرو بن أسد الذي زوَّجها»، وقد ضعف الهيثمي هذا الخبر؛ لأن فيه عمر بن أبي بكر المؤملي، وهو متروك. وذكر ابن إسحاق أن الذي زوَّجها هو أبوها خويلد، وقال السهيلي، وابن كثير والشامي: إن ابن إسحاق ذكر في السيرة أن أخاها عمرو بن خويلد هو الذي زوجها، ولكن لم نجد ذلك في المطبوع من سيرة ابن إسحاق. وذكر الواقدي أن عمها عمرو بن أسد هو الذي ولي نكاحها، وخطأ من قال بغير هذا؛ لأن والدها ـ كما ذكر ـ مات قبل حرب الفجار، ووافقه على هذا السهيلي، وابن سيد الناس، وابن عبد البر، والشامي.

قال طرهوني: إنه إذا ثبت هلاك والدها قبل الفجار، فيلزم أن يكون الذي تولى نكاحها هو عمها. والظاهر أن أحاديث ولاية أبيها لنكاحها أقوى؛ لأنها جاءت من عدة طرق تعتضد؛ لترتقي إلى درجة الحسن لغيره، وعلى أقل تقدير تدل على أن للقصة أصلاً، والله أعلم.

وكان الذي ذهب مع الرسول ﷺ لخطبة خديجة هو عمه حمزة.

لقد كان لخديجة رضي الله عنها مكانة عظيمة عند الرسول ﷺ. ورويت في الصحيحين وغيرهما عدة أحاديث في مناقبها الكثيرة، ولا غرابة في ذلك، فهي ذات الخصال الحميدة التي ذكرنا طرفاً منها. وفوق ذلك فهي التي عرفت بين قومها بـ«الطاهرة العفيفة»، كما ذكر ابن عساكر [في تاريخه]. وهي التي رزق منها الرسول ﷺ جميع أبنائه ما عدا إبراهيم، فهو من مارية القبطية، كما ذكر ابن إسحاق وغيره. والمتفق عليه من أولاده منها: القاسم ـ وبه كان يكنى ـ ومات صغيراً قبل المبعث أو بعده، وبناته الأربع: زينب، ثم رقية، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة ـ وقيل كانت أم كلثوم أصغر من فاطمة ـ ثم ولده عبد الله،

الذي ولد بعد المبعث، وكان يقال له الطاهر والطيب، كما ذكر ابن عساكر ويقال: هما أخوان له. ومات الأبناء الذكور صغاراً باتفاق. أما البنات فأدركن البعثة، ودخلن في الإسلام، وهاجرن معه ﷺ، كما روى البيهقي [في الدلائل وابن كثير].

وماتت خديجة عن خمس وستين سنة كما روى الواقدي، كما هو المشهور. وكان عمرها عندما تزوجها الرسول ﷺ أربعين سنة، كما هو المشهور [الواقدي].

ب ـ حكم وفوائد من هذا المقطع:

١ ـ أن في إظلال الملكين له وشهادة الراهب له بالنبوة دليلاً على النبوة.

٢ ـ أن في رغبة خديجة الزواج منه دليلاً على ما كان يتميز به الرسول ﷺ من أخلاق عالية.

٣ ـ أن الأحاديث الصحيحة الواردة في فضل خديجة دليل على شرفها وعلو مكانتها عند الله ورسوله والناس.

٤ ـ لا غضاضة في أن تبدي المرأة الصالحة رغبة الزواج من الرجل الصالح، كما فعلت خديجة عندما خطبت محمداً إلى نفسها، رغبة فيه لصلاحه.

٥ ـ أن أول ما يدركه الإنسان من هذا الزواج هو عدم اهتمام الرسول ﷺ بأسباب المتعة الجسدية ومكملاتها، فلو كان مهتماً بذلك كبقية أقرانه من الشبان لطمع بمن هي أقل منه سناً، أو بمن ليست أكبر منه على أقل تقدير، أو بمن ليست ثيباً. ويتجلى لنا أنه ﷺ إنما رغب فيها لشرفها ونبلها، حتى إنها كانت تلقب بالعفيفة الطاهرة. ولقد ظل هذا الزواج قائماً حتى توفيت خديجة عن خمسة وستين عاماً. وقد ناهز هو الخمسين من العمر، ومعلوم أن في تلك الفترة ـ من فترة الشباب إلى الخمسين ـ تكون رغبة الرجال في النساء والميل إلى التعدد لدوافع الشهوة. ولكن الرسول ﷺ لم يفكر في ذلك، ولو شاء لوجد الكثير من النساء الراغبات أو الإماء، دون أن يخرج عن مألوف.

٦ ـ أن في التقاء العفيفة الطاهرة بالصادق الأمين، وإنجاب الذرية الصالحة من هذا الزواج مكرمة أكرم الله نبيه ﷺ بها، ليظل في مكانة اجتماعية مرموقة لا مطعن فيها.

المبحث الثالث عشر

أ ـ مشاركته في بناء الكعبة، ووضعه الحجر الأسود في مكانه:

روى البيهقي [في الدلائل والحاكم والطبري في التفسير، بسند صحيح]، أن الله أوحى إلى إبراهيم عليه السلام أن ابن لي بيتاً في الأرض، فضاق به ذَرْعاً، فأرسل الله عز وجل إليه السَكِينَة، وهي ريح خَجُوج [شديدة] لها رأس، فاتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت، ثم تطوقت إلى موضع البيت تطوق الحية، فبنى إبراهيم، فكان يبني سَاقاً كل يوم، حتى إذا بلغ مكان الحجر، قال لابنه: ابغني حجراً، فالتمس حجراً حتى أتاه به، فوجد الحجر الأسود قد ركب، فقال له ابنه: من أين لك هذا؟ قال جاء به من لم يتكل على بنائك، جاء به جبريل عليه السلام من السماء فأتمه.

وروى البيهقي [في الدلائل والحاكم، بسند صحيح] من طريق آخر بمعناه، وزاد فيه، أنه عندما انهدم بنته العمالقة، وعندما انهدم للمرة الثانية بنته جرهم، وعندما انهدم للمرة الثالثة بنته قريش ـ ورسول الله ﷺ يومئذ رجل شاب ـ وروى عبد الرزاق والذهبي بسند صحيح أنه عندما أرادوا هدمه إذ هم بحية على سور البيت فروعتهم، فلم يقدروا على هدمه، فاجتمعت قريش عند البيت، وتضرعوا إلى الله ليزيل عنهم هذا البلاء، فأرسل الله طائراً فغرز مخالبه في قَفَا الحية، ثم انطلق بها يجرها حتى انتهى بها نحو أجياد، فتمكنت قريش من هدم الكعبة لإعادة البناء. وروى الحاكم بسند صحيح أنه عندما أرادوا أن يرفعوا الحجر الأسود إلى مكانه، اختصموا فيه، فقالوا نحكم بيننا أول رجل يخرج من هذه السِّكَة، فكان رسول الله ﷺ أول من خرج عليهم، فقضى بينهم أن يجعلوه في مِرْط، ثم ترفعه جميع القبائل.

وروى الإمام أحمد [في المسند بسند حسن]، وأهل السير أن قريشاً عندما اختلفت في وضع الحجر الأسود في مكانه، قالوا: اجعلوا بينكم

حكماً، فقالوا أول رجل يطلع من الفج، فجاء رسول الله ﷺ فقالوا: أتاكم الأمين، فقالوا له، فوضعه في ثوب، ثم دعا بطونهم، فرفعوا نواحيه، فوضعه النبي ﷺ في مكانه المطلوب.

ولولا حكمة الله وهداية رسوله ﷺ إلى هذا الحل، لسفكت الدماء؛ فقد روى ابن إسحاق أن الخلاف في وضع الحجر الأسود قد وصل إلى أن قرَّبت بنو عبد الدار جَفْنَة مملوءة دماً، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم، ومكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً، دون أن يردها إلى الوفاق أي رأي أو تدبير، حتى كان خمود نار الفتنة على يد رسول الله ﷺ.

وروى عبد الرزاق بسند صحيح، أنه عندما أكملوا البناء ساق الله إليهم سفينة من أرض الروم، فانكسرت قريباً من جدة، فخرجت قريش ليأخذوا خشبها، فوجدوا رومياً نجاراً عندها، فأخذوا الخشب بإذنه، وقدموا بالخشب والنجار الرومي، ليبني لهم به عرش الكعبة.

وقد جزم عبد الرزاق ـ وسنده صحيح ـ وابن إسحاق، أن عمر النبي ﷺ إذ ذاك كان خمسة وثلاثين عاماً، وهو المشهور.

ب ـ حكم وعبر من هذا المقطع:

١ ـ أن قبول قريش تحكيم الرسول ﷺ في أمر وضع الحجر الأسود في مكانه من البيت الحرام، ووصفهم له بالأمين، دليل على تربية الله ـ سبحانه ـ لنبيه على مكارم الأخلاق التي كان من بينها الصدق والأمانة.

٢ ـ أن الاقتراح الذي توصل إليه الرسول ﷺ لحل هذه الأزمة كان بتوفيق من الله ـ تعالى ـ ليلفت أنظار الناس إلى ما سيختاره له الله من القيام بأمر أكبر من هذا لتوحيد الناس... وهو الإسلام.

٣ ـ جاء إسهام الرسول ﷺ في القضايا الكبرى التي عاشتها مكة آنذاك متنوعاً شاملاً مغطياً شتى مساحات العمل البشري الجماعي، وكأنه أريد له أن يجرب كل شيء، وأن يسهم عاملاً في كل اتجاه، وأن يبني عبر نشاطاته المتنوعة جميعاً شخصية قادرة على التصدي لكل مشكلة،

والإسهام الإيجابي الفعال في كل ما من شأنه أن يعيد حقاً، أو يقيم عدلاً . . . وكان إسهامه في بناء الكعبة، وحل مشكلة وضع الحجر الأسود التي كادت تؤدي إلى فتنة، اثنين من بين عدة أنشطة متنوعة قام بها الرسول ﷺ فأكسبته خبرة في مجال التعامل مع الأحداث [انظر: د. عماد الدين خليل: دراسة في السيرة، ص ٤٨ ـ ٤٩].

المبحث الرابع عشر

أ ـ من إرهاصات النبوة عند أهل الكتاب وكهان العرب عندما قارب زمن بعثة الرسول ﷺ:

عقد ابن إسحاق [في السيرة] فصلاً عن أخبار الكهان من العرب والأحبار من اليهود والرهبان من النصارى بقرب مبعث النبي ﷺ.

ومما روي في أمر كهان العرب بطرق صحيحة حديث ابن عباس ـ عند مسلم ـ في رمي الجن بالنجوم قطعاً لمصدر كهانة العرب في الجاهلية، وخبر سَوَاد بن قَارِب الأزدي السدوسي الكاهن مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما روى البخاري وابن إسحاق، حيث كان سواد يقول: «إن الشياطين قد سكتت ذليلة مغلوبة قبيل مبعث النبي ﷺ»، وكان سبب إسلامه هو ما رواه من إرهاصات عن طريق ممارسته الكهانة، والاستعانة بالجن في ذلك، كما جاء ذلك في خبره. وفي القصة [عند أحمد في المسند والبيهقي في الدلائل] أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يحدث الناس: «والله إني لعند وثن من أوثان الجاهلية في نفر من قريش قد ذَبَحَ له رجل من العرب عجلاً، فنحن ننتظر قسمه ليقسم لنا منه إذ سَمِعْتُ من جوف العجل صوتاً ما سمعت صوتاً قَطُّ أَنْفَذَ مِنه، وذلك قُبَيلَ الإسلام بشهر أو شَيْعِهِ، يقول: يا ذُرَيْحُ، أَمْرٌ بُجَيحٌ، رجل يَصِيْحُ، يقول: لا إله إلا الله».

روى ابن إسحاق بسند حسن، في إخبار يهود برسول الله ﷺ أن يهودياً كان من جيران بني عبد الأشهل، حدثهم عن البعث والجزاء، فاستنكروا ذلك، وطالبوه بآية ذلك، فقال: نبي مبعوث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده جهة مكة واليمن.

وروى ابن إسحاق أن من أسباب إسلام ثَعْلَبة بن سَعْيَة، وأُسَيْد بن سَعْية، وأسد بن عُبَيْد من يهود بني هدل، إخوة بني قريظة، ما أخبرهم به يهودي يقال له: ابن الهَيَّبان، قدم من الشام إلى المدينة قبيل البعثة بسنين. قال لهم: إن سبب قدومه المدينة توقع خروج نبي فيتبعه، ودعا اليهود إلى اتباعه وألا يسبقهم إليه أحد، وذكر لهم بعض صفاته. فعندما تأكدوا منها يوم حصار قريظة أسلموا.

وفي قصة سلمان الفارسي [عند البخاري وابن إسحاق]، وخروجه من بلاده بحثاً عن الدين الحق، وتقلبه في الرق إلى أن جاء إلى المدينة، وقصة ورقة بن نوفل ـ عند البخاري وأحمد في المسند والحاكم ـ وزيد بن عمرو بن نفيل، وخروجهما من مكة بحثاً عن الدين الحق حتى انتهيا إلى راهب بالموصل، قال الراهب لزيد: إن الذي تلتمس يوشك أن يظهر في أرضهما. في هذه القصص وغيرها دليل على ما كان سائداً عند اليهود والنصارى في ذلك الوقت، من اعتقاد بقرب ظهور النبي ﷺ. وللصفات التي عرفت من الأحبار والرهبان عن الرسول ﷺ أسلم سلمان الفارسي.

وجاء في صحيح الأخبار [مثل الذهبي في السيرة، وابن حبان في الصحيح، والطبراني، والحاكم] أن الله ـ تعالى ـ لما أراد هدي زيد بن سُعْنَة ـ الحبر اليهودي ـ قال: «إنه لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً»، فخالط الرسول ﷺ حتى تأكد من هاتين الخصلتين.

وجاء في الأخبار [كما عند ابن سعد، وأبي نعيم في الدلائل، بسند مقبول عند ابن حجر] أن سبب إسلام عامر بن ربيعة العدوي هو ما كان يقوله زيد بن عمرو بن نفيل من أنه ينتظر نبياً من ولد إسماعيل من بني عبد المطلب، اسمه أحمد، ولا يرى أن يدركه، وكان ينعته للناس، لما عرفه عنه من أهل الكتاب.

وروى أبو نعيم [في دلائله، بإسناد حسن] أن قس بن ساعدة الإيادي كان يقول: «أقسَمَ قس قسماً براً لا إثم فيه، ما لله على الأرض دين هو أحب إليه

من دين أظلكم إبّانه، وأدرككم أوانه، طوبى لمن أدركه فاتَّبعه، وويل لمن أدركه ففارقه...».

وقال المفسرون ـ مثل الطبري ـ وأهل السير ـ مثل ابن إسحاق ـ: إن الآية: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩] نزلت في اليهود الذين كانوا في صراع مع الأوس والخزرج. وإذا نال الأوس والخزرج منهم قالوا لهم: إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما ظهر اتبعه الأوس والخزرج، وكفرت به اليهود.

وقصة هرقل مع أبي سفيان [في الصحيحين] تدل على ذلك، خاصة قول هرقل لأبي سفيان: «فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين».

وجاءت الأحاديث مصرحة بأن محمداً ﷺ قد كتب نبياً منذ القدم. فقد روى الإمام أحمد [في مسنده بسند صحيح]، والترمذي [في سننه بسند صحيح]، قول الرسول ﷺ: إنه كان نبياً «وآدم بين الروح والجسد». وعند أحمد من حديث العرباض بن سارية: «وإن آدم لَمُنْجَدِلٌ في طينته». وعند أبي نعيم [في الدلائل]، قال: قال الرسول ﷺ: «كنت أول النبيين في الخلق، وآخرهم في البعث».

ب ـ بعض الحكم والعبر:

١ ـ وخلاصة القول أن علماء اليهود والنصارى كانوا يعرفون الرسول ﷺ قبل مبعثه مما يجدونه من أوصافه وزمان خروجه في التوراة والإنجيل. وقد أشار القرآن إلى ذلك في عدة آيات [مثل الآية ١٤٦ من سورة البقرة: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾. ولذلك أسلم بعض اليهود، وفي مقدمتهم عبد الله بن سلام، وبعض النصارى، وفي مقدمتهم النجاشي ملك الحبشة. وأما من امتنع عن الدخول في الإسلام فلأسباب مادية أو سياسية كما هو الحال في قصة حيي بن أخطب، وهرقل، ومقوقس مصر.

٢ ـ ويضاف إلى هذا ما سبق أن قلناه عند الكلام عن رحلته ﷺ إلى الشام والحكم المستفادة من ذلك.

المبحث الخامس عشر: التحنث في غار حراء

كان رسول الله ﷺ ينفرد إلى نفسه متقرباً إلى الله ﷻ في غار معروف بغار حراء. وقد حبب الله إليه ذلك، ولم يأمره بذلك أحد. فكان يبقى في هذا الغار الأيام والليالي إلى أن أتاه الوحي فيه [كما في البخاري]، وكانت سنه آنذاك أربعين سنة.

وكان يمكث في حراء شهراً من كل سنة، وكان ذلك مما تتحنث [في رواية ابن هشام: تتحنف، من الحنيفية، دين إبراهيم ﷺ] به قريش في الجاهلية، كما ذكر ابن إسحاق، ويطعم من جاءه من المساكين. وإذا قضى جواره من شهره هذا كان أول ما يبدأ به الطواف بالكعبة، وكان ذلك الشهر رمضان.

وقد اختلف العلماء في تعبده ﷺ قبل البعثة، هل كان على شرع أم لا؟ وما ذلك الشرع؟ فقيل: شرع نوح، وقيل: شرع إبراهيم، وهو الأشبه الأقوى، وقيل موسى، وقيل: عيسى، وقيل: كل ما ثبت أنه شرع عنده اتبعه وعمل به. ولبسط هذه الأقوال ومناسبتها مواضع أخرى، مثل البداية. وذكر ابن حجر ـ في الفتح ـ عن بعض المشايخ أنه كان يتعبد بالتفكر.

وذكر قول ابن أبي جمرة ـ في بهجة النفوس ـ أن الحكمة في تخصيصه بالتخلي في حراء أن المقيم فيه كان يمكنه رؤية الكعبة، فيجتمع لمن يخلو فيه ثلاث عبادات: الخلوة، والتعبد، والنظر إلى البيت.

ولم تنازع قريش النبي ﷺ في غار حراء مع مزيد الفضل فيه على غيره؛ لأن جده عبد المطلب أول من كان يخلو فيه من قريش، وكانوا يعظمونه لجلالته وكبر سنه، فتبعه على ذلك من كان يتأله [الفتح].

المبحث السادس عشر

أ ـ من إرهاصات النبوة قبيل البعثة:

قالت عائشة رضي الله عنها: «إن أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤياً إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء يتحنث ـ يتعبد ـ فيه الليالي ذوات العدد،

قبل أن يرجع إلى أهله. ويتزود لذلك. ثم يرجع إلى خديجة، فيتزود لمثلها، حتى فجأه الحق، وهو في غار حراء. . .» [متفق عليه].

وروى مسلم والترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «إني لأعرف حجراً بمكة، كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن».

وروى ابن عساكر أن ملكين أتياه، وهو ببعض بطحاء مكة، فقال أحدهما للآخر: زنه برجل، فوزنه، فرجح به محمد ﷺ إلى أن وزنه بألف من أمته فرجحهم، ثم قال له: لو وزنته بأمته لرجحها. ثم قال أحدهما للآخر: شق بطنه، فشقه، ثم أخرج منه فَعْمَ ـ حظ ـ الشيطان، وعَلَقَ الدم، فطرحها، فقال أحدهما للآخر: اغسل بطنه غسل الإناء، ففعل، ثم دعا بالسكينة فأدخلت قلبه، ثم قال أحدهما للآخر: خط بطنه، ففعل، وجعلا الخاتم بين كتفيه، ثم وليا عنه، وكأنما يعاين الأمر معاينة.

وروى البيهقي [في دلائله]، أنه خرج من عند خديجة، ثم عاد، فأخبرها أنه رأى بطنه قد شق، ثم طهر، وغسل، ثم أعيد كما كان، فقالت: «هذا ـ والله ـ خير، فأبشر».

وقال النبي ﷺ لخديجة [كما روى أحمد في مسنده بسند حسن]: «إني أرى ضوءاً، وأسمع صوتاً، وإني أخشى أن يكون بي جنن». قالت: «لم يكن الله ليفعل ذلك بك، يا ابن عبد الله»، ثم أتت ورقة بن نوفل، فذكرت ذلك له، فقال: «إن يك صادقاً فإن هذا ناموس مثل ناموس موسى، فإن بعث ـ وأنا حي ـ فسأعزره، وأنصره، وأومن به».

ب ـ العبر والعظات:

١ ـ أن الآيات والمعجزات التي وقعت للرسول ﷺ من قبيل الإرهاصات الدالة على تميزه عن غيره من الحنيفيين الذين عاصروه، وأن الله ﷻ سيختاره هو بالذات لأمر عظيم.

٢ ـ تقرير أن الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، إذ إن فترة الوحي كانت ثلاثاً وعشرين سنة، منها ستة أشهر كانت مناماً.

٣ ـ استحباب العزلة لفترات تعين المسلم على التفكير في أحوال المجتمع

إذا سادت فيه الجاهلية والفساد. أما الاعتزال الدائم للمجتمع الذي ابتدعته جماعة من الجماعات الدينية في زماننا هذا فهو مخالف لسنته ﷺ العملية والقولية. فلم يعرف عن الرسول ﷺ أنه اعتزل المجتمع، وقال في نبذ مثل هذه الاتجاهات:

«المؤمن الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم» [أحمد: المسند، بسند صحيح].

«المؤمن يألف ويُؤلَف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف، وخير الناس أنفعهم للناس» [الدارقطني، بسند صحيح].

المبحث السابع عشر

أ ـ نزول الوحي:

روى الشيخان أن أمين الوحي فجأ الرسول ﷺ لأول مرة في يوم الاثنين، الحادي والعشرين من شهر رمضان، من العام الأربعين لميلاده ﷺ، بينما كان يتحنَّث بغار حراء. وقال له: اقرأ، قال في الحديث: «فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني الثانية فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ إلى قوله: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ ـ ٥]. قالت عائشة رضي الله عنها ـ راوية الحديث ـ: فرجع بها تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ [جمع بادرة وهي اللحمة التي ما بين المنكب والعنق] حتى دخل على خديجة، فقال: زَمِّلُوني، فزمَّلوه حتى ذهب عنه الرَّوْعُ، فقال: يا خديجة، ما لي! وأخبرها الخبر، وقال: قد خشيت على نفسي، فقالت له: كلا فوالله لا يُخْزِيْكَ الله، إنك لَتِصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ الحَديثَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ [الذي لا يستقل بأمره] وَتَكْسِبُ المعدوم، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِيْنُ على نَوَائِبِ الحَقِّ. ثم انطلقت به خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزَّىٰ، وكان امرأً تنصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عَمِيَ. فقالت: اسمع من ابن أخيك،

فقال: يا أخي ما ترى؟ فأخبره. فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، يا ليتني فيها جَذَعاً أكون حياً حين يخرجك قومك، قال: أو مخرجِيّ هم؟ قال: نعم، لم يأت أحد بما جئت به إلا عُوْدِيَ وأوذي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم يلبث ورقة أن توفي».

أما الخبر الذي أورده ابن إسحاق [في السيرة، بسند حسن] عن كيفية بدء الوحي، وفيه: «فجاءني جبريل، وأنا نائم بِنَمَطٍ من دِيْبَاج فيه كتاب، فقال: اقرأ. . .» فهو يخالف في الظاهر حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري ومسلم الذي فيه التصريح بأن مجيء الوحي؛ كان في حالة اليقظة وأن الرؤيا الصادقة كانت قبل نزول الوحي، ولذا قال السهيلي: «وقد يمكن الجمع بين الحديثين بأن النبي ﷺ جاءه جبريل في المنام قبل أن يأتيه في اليقظة، توطئة وتيسيراً عليه ورفقاً به؛ لأن أمر النبوة عظيم، وعبؤها ثقيل، والبشر ضعيف».

وقال ابن كثير [في البداية] بما قاله السهيلي، ثم زاد: «. . . وقد جاء مصرحاً بهذا في مغازي موسى بن عقبة عن الزهري، أنه رأى ذلك في المنام، ثم جاءه الملك في اليقظة»، وقال في مكان آخر: «ويحتمل أن هذا المنام كان بعدما رآه في اليقظة صبيحة ليلتئذ، ويحتمل أنه كان بعده بمدة، والله أعلم».

ب ـ العبر والعظات والدلائل:

١ ـ دل تصرف خديجة إزاء ما وقع للرسول ﷺ في الغار على رجاحة عقلها، وحسن تصرفها، وفضلها، وسلامة فطرتها.

٢ ـ دل تحليل ورقة لظاهرة ما حدث للرسول ﷺ بالغار على صحة علمه وفضله.

٣ ـ يتبين من رؤية الرسول ﷺ جبريل بعينيه ـ يقظة ـ أن ظاهرة الوحي ليست أمراً ذاتياً داخلياً مرده إلى حديث النفس المجرد، أو ما شابه ذلك من التمحلات، وإنما هي استقبال وتلق لحقيقة خارجية لا علاقة لها بالنفس وداخل الذات. وضم الملك إياه، ثم إرساله ثلاثة مرات، قائلاً في كل مرة: «اقرأ. . .» يعد تأكيداً لهذا التلقي الخارجي، ومبالغة في نفي ما قد يتصور من أن الأمر لا يعدو كونه خيالاً داخلياً فقط.

٤ ـ أ ـ يدل خوفه مما حدث له مع جبريل على أنه ﷺ لم يكن متوقعاً الرسالة التي سيدعى إلى حملها وبثها في العالم؛ وبذلك يتضح لكل عاقل مفكر أن ظاهرة الوحي هذه لم تأت منسجمة أو متممة لشيء مما قد يتصوره أن يخطر في باله، وإنما طرأت طروءاً على حياته، وفوجئ بها دون أي توقع سابقَ. ولا شك أن هذا ليس شأن من يتدرج في التأمل والتفكير إلى أن تتكون في نفسه ـ بطريقة الكشف التدريجي المستمر ـ عقيدة يؤمن بالدعوة إليها!، كما يدعي بعض المستشرقين مثل كارادوفو الفرنسي.

ب ـ الله ﷻ قادر على أن يربط على قلب رسول الله ﷺ ويطمئن نفسه بأن هذا الذي كلمه ليس إلا جبريل ـ ملك من ملائكة الله جاء ليخبره أنه رسول الله إلى الناس ـ ولكن الحكمة الإلهٰية الباهرة تريد إظهار الانفصال التام بين شخصية محمد ﷺ قبل البعثة وشخصيته بعدها، وبيان أن شيئاً من أركان العقيدة الإسلامية أو التشريع الإسلامي لم يكن في ذهن الرسول ﷺ مسبقاً ولم يتصور الدعوة إليه سلفاً.

جـ ـ أن فيما ألهم الله به خديجة من الذهاب به عليه السلام إلى ورقة، تأكيداً من جانب آخر بأن هذا الذي فوجئ به عليه السلام إنما هو الوحي الإلهٰي الذي كان قد أنزل على الأنبياء من قبله، وإزالة لغاشية اللبس التي كانت تحوم حول نفسه بالخوف والتصورات المختلفة عن تفسير ما رآه وسمعه [البوطي].

د ـ لو كان الوحي أمراً ذاتياً لما جاءت آيات في القرآن تعتب عليه أو تلومه لبعض التصرفات، مثل عتابه له حين أعرض عن صاحبه عبد الله بن أم مكتوم، لما حضر إليه، ليعلمه مما علمه الله، وفي حضرته بعض كبار كفار قريش، وسميت سورة في القرآن بمضمون هذا الموقف، وهي سورة «عبس»، وعتابه له في أسرى بدر كما سيأتي ذكره، وفي زواجه من زينب بنت جحش رضي الله عنها كما سيأتي ذكره، وعتابه له حين أذن لمن طلب منه التخلف عن غزوة تبوك: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [التوبة: ٤٣]، وعتابه حين أراد أن يعطي كفار قريش ما أرادوا، حين طلبوا عدم الجلوس مع الموالي، فنزل قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الأنعام: ٥٢].

هـ ـ لو كان الوحي أمراً ذاتياً لما خاطب الله ـ تعالى ـ نبيه بقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [يونس: ٩٤].

و ـ لو كان الوحي أمراً ذاتياً لما كان الرسول ﷺ يسكت عن إجابات السائلين لفترة زمنية قد تطول وقد تقصر، ولما عانى من نتائج بعض الأحداث، مثل حادث الإفك الذي استمرت محنته شهرا... إلخ.

٥ ـ اقتضت حكمة الله ـ تعالى ـ أن يكون الرسول ﷺ أميًا لا يعرف القراءة ولا الكتابة، وفي ذلك إبعاد لشبهة الشك في مصدر القرآن، وفي ذلك يقول المولى ﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

المبحث الثامن عشر

ـ فترة انقطاع الوحي ثم تتابعه:

انقطع جبريل عليه السلام عن النبي ﷺ بعد هذا فترة من الزمان، اختلف العلماء في مدتها، قال البوطي: «والراجح ما رواه البيهقي من أنها كانت ستة أشهر»، وقيل: إن الأقرب إلى الصواب هو ما روي عن ابن عباس أن فترة انقطاع الوحي كانت أربعين يوماً، وقيل: إنها كانت أياماً. وجزع الرسول ﷺ من هذا الانقطاع [لم يذكر البوطي مكانه من مؤلفي البيهقي: الدلائل والسنن الكبرى، أو غيرهما. والذي وقفنا عليه في السنن الكبرى (٩/ ٦) أن الوحي انقطع، ولم يذكر أنها ستة أشهر].

بعد فترة الفتور أو الانقطاع المذكورة، نزل عليه الوحي مرة أخرى. وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت، فقلت: زملوني زملوني، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر: ١ ـ ٥]، فحمي الوحي وتواتر» [متفق عليه].

ب ـ الحكمة من هذا الانقطاع:

١ ـ ليحصل للرسول ﷺ التشوق إلى العود بعد أن تثبت لديه الحقيقة أنه أضحى نبياً [ابن حجر: الفتح].

٢ ـ أن في انقطاع الوحي ثم استمراره تأكيداً للحقيقة التي ذكرناها، وهي أن الوحي ظاهرة منفصلة عن ذات الرسول ﷺ.

المبحث التاسع عشر: مراتب الوحي

قال ابن القيم في زاد المعاد: إن الله ـ تعالى ـ قد كمل لنبيه من مراتب الوحي مراتب عديدة:

أحدها: الرؤيا الصادقة، وكانت مبدأ وحي الله إليه، كما في حديث عائشة رضي الله عنها: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح...» [متفق عليه].

الثانية: ما كان يلقيه الملك في رُوعه وقلبه من غير أن يراه، كما قال النبي ﷺ: «إن روح القدس نفث في رُوعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب، ... الحديث» [الحاكم وغيره، صحيح بشواهده].

الثالثة: أنه ﷺ كان يتمثل له الملك رجلاً، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً [مسلم].

الرابعة: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه، فيتلبس به الملك حتى إن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرك به إلى الأرض...». [متفق عليه]

الخامسة: أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين، كما في سورة النجم [مسلم].

السادسة: ما أوحاه الله، وهو فوق السماوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها.

السابعة: كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك، كما كلم الله موسى بن عمران، وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعاً بنص القرآن في قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾ [النساء: ١٦٤] وثبوتها لنبينا ﷺ جاء في حديث الإسراء والمعراج، [من رواية مسلم]، الذي فيه قول الرسول ﷺ: «... ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام»، ويفهم من حديث مراجعة محمدٍ ﷺ ربَّه ﷻ في أمر تخفيف الصلاة من خمسين إلى خمس، أنه كان يكلمه بلا واسطة.

المبحث العشرون: مراتب الدعوة ومراحلها

أ ـ مراتب الدعوة..

ذكر لها ابن القيم [في زاد المعاد] خمس مراتب:

الأولى: النبوة، **الثانية**: إنذار عشيرته الأقربين، **الثالثة**: إنذار قومه، **الرابعة**: إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله، وهم العرب قاطبة، **الخامسة**: إنذار جميع من بَلغته دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر.

ب ـ مراحل الدعوة خلال حياة الرسول ﷺ:

المرحلة الأولى: الدعوة سراً، واستمرت ثلاث سنين.

المرحلة الثانية الدعوة جهراً، والكف عن القتال، واستمرت إلى الهجرة.

المرحلة الثالثة: الدعوة جهراً مع قتال المبتدئين بالقتال، واستمرت إلى صلح الحديبية.

المرحلة الرابعة: الدعوة جهراً، مع قتال كل من يقف في سبيل سير الدعوة [البوطي والمباركفوري].

وقفة عند فقه هذه المراحل:

ربما يتبادر سؤال إلى الذهن، وهو: هل يجب على دعاة قيام الدولة الإسلامية ـ خاصة في العصر الحديث ـ التقيد بهذه المراحل بمداها الزمني كما وقعت للرسول ﷺ؟ والجواب عن هذا السؤال أنه ليس عليهم التقيد بهذه المراحل ولا بالمدى الزمني الذي مرت به في حياة الرسول ﷺ؛ وذلك لأن المدى الزمني لتلك المراحل تقدير رباني، وليس جهداً بشرياً فقط. فالتقيد

بهذه المراحل لا يتمشى مع مرونة الإسلام في معالجة الأمور ومواجهة الأحداث. والسيرة النبوية التي تمثل حركة الإسلام تفتح أمام الدعاة نماذج للخيارات المتعددة التي يقدمها المنهج الإسلامي بحركته الفذة الفريدة... وما السرية، أو طلب النصرة، أو الهجرة إلا وسائل اتخذها رسول الله ﷺ لنشر دعوته، ضمن ظروف ومواصفات معينة... فمثلاً نجد في زماننا هذا أن الدول الغربية الديمقراطية لا تحجر أي نشاط لرجال الأديان المختلفة، فلا ضرورة هنا للتقيد بمرحلة السرية في الدعوة، بينما نجد الدول الشيوعية لا تسمح للمسلم بممارسة أي نشاط دعوي أو سياسي، فيضطر أن يستخفي بدينه حتى يتمكن، وهنا تصبح السرية ضرورة اقتضتها ظروف معينة. وإذا اقتضت حكمة الدعوة أن يكون هناك عمل سريّ وآخر علنيّ فلا بأس، وذلك في مثل البلاد التي تسمح بنشاط المسلمين في حدود ضيقة جداً.

وخلاصة القول: أن السرية تقدر بقدرها، حسب ظروف البيئة التي يعيشها المسلم [زهير سالم: عثرات وسقطات ...].

المبحث الحادي والعشرون

أ ـ المرحلة الأولى: الدعوة السرية:

استجاب الرسول ﷺ للأوامر الإلهية التي صدرت له بالتبليغ، وقد جاءت هذه الأوامر واضحة في الآيات التي نزلت بعد آيات سورة العلق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾ [المدثر: ١ ـ ٧].

لقد لخصت هذه الآيات الكريمات مضمون الدعوة التي نيط به تبليغها إلى الناس، ولا تكاد الآيات القرآنية التي نزلت في مكة تخرج عن إطارها العام.

ففي قوله ـ تعالى ـ له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ إشارة إلى أن زمان التدثر والخلود إلى الراحة في المضجع بين الزوجة والأبناء قد ولى، وجاء زمان المجاهدة بكل أبعادها، المادية والمعنوية.

وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ إشارة إلى تكليفه بأمر دعوة كل الناس إلى الإسلام. وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ إشارة إلى أن ليس في الوجود أكبر من الله ـ تعالى ـ خالق الوجود؛ ولذا عليه أن يُعلم الناس بهذه الحقيقة؛ ليتواضع الناس كلهم لله الكبير المتعال، وهذا هو التوحيد المطلق.

وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ إشارة إلى أن الداعية إلى الله لا بد أن يبدأ بتطهير نفسه ظاهراً وباطناً حتى يكون المثل الأعلى لمن يدعوهم إلى الطهارة بكل معانيها.

وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾ إشارة إلى أن التوحيد الخالص يقتضي عدم تعظيم أو تقديس أي شيء سوى الله الخالق.

وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ إشارة إلى أن ما خص به من منع إعطاء الشيء ابتغاء شيء أكثر منه هو أنه مأمور بأجمل الأخلاق وأشرف الآداب؛ ليكون مثلاً أعلى للبشرية، وهو يدعوها إلى مكارم الأخلاق.

وللقيام بهذه الأمور كان لا بد من ختمها بحقيقة هامة للوصول إلى الأهداف المرجوة من هذه الأوامر، هذه الحقيقة هي أن تَحمُّلَ أمانة الدعوة في عناصرها المذكورة لا بد له من الصبر على كل أصناف أذى المعارضين، والصبر على تربية الأتباع، والصبر على الإبتلاء، فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾.

نهض الرسول ﷺ من فراشه، وأخذ يدعو إلى ما أمر به سراً مدة ثلاث سنين، كما ذكر ابن إسحاق، ولفظه: «وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره، واستتر به إلى أن أمره الله ـ تعالى ـ بإظهار دينه ثلاث سنين ـ فيما بلغني ـ من مبعثه». ومما يدل على السرية في الدعوة ما جاء في خبر إسلام عمرو بن عَبَسَة رضي الله عنه عند مسلم، حيث قال: «أتيت رسول الله ﷺ في أول ما بعث، وهو بمكة، وهو حينئذٍ مُسْتَخفٍ...». بدأ بالدعوة إلى التوحيد، ونبذ كل مظاهر الشرك.

وكان تحركه في هذه الفترة [كما روى ابن هشام] وسط الذين تربطهم به صلات، مثل زوجته وبناته ومولاه زيد بن حارثة وربيبه علي بن أبي طالب وأصدقائه وكل من يطمئن إلى أنه يكتم السر؛ ولهذا يلحظ أن من أوائل الذين دخلوا في الإسلام:

١ ـ زوجه خديجة رضي الله عنها التي كانت أول من آمن بالله وبرسوله ـ كما هو مشهور ـ وهوَّنت عليه أمر الناس، وكانت بذلك أول مَنْ أُمِر الرسول ﷺ بتبشيره بالجنة، قال رسول الله ﷺ [في الحديث المتفق عليه]: «أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب، لا صخب فيه ولا نصب». وقد جاءت الأحاديث الصحيحة كثيرة في فضائلها وأخبارها.

٢ ـ ابن عمه علي بن أبي طالب الذي كان في حجره، وهو يومئذٍ ابن عشر سنين، على أصح الأقوال [ابن إسحاق في السيرة بسند حسن].

٣ ـ مولاه زيد بن حارثة، الذي قال له الرسول ﷺ عندما جاء أبوه يطلبه [كما في صحيح الترمذي]: «إن شئت فأقم عندي، وإن شئت فانطلق مع أبيك، فقال: بل أقيم عندك»، فأقام عنده، وعرف بـ«زيد بن محمد» حتى نزلت آية: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٥]، وبذلك أبطلت عادة التبني.

٤ ـ أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وهو أول من صدق من الرجال، وفيه قال الرسول ﷺ لعمر [من رواية البخاري]: «إن الله بعثني إليكم، فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق...». وقال [من رواية ابن إسحاق في المغازي]: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له عنه كبوة وتردد ونظر إلا أبا بكر، ما عَتَمَ حين ذكرته وما تردد فيه». وقال هو عن نفسه عندما اختير خليفة للمسلمين: «أَلَسْتُ أحق الناس بها؟ ألست أول من أسلم؟...» [صحيح الترمذي].

وفي إطار هذه السرية تحرك أبو بكر وسط أقاربه ومواليه وأصدقائه ومن يثق به من قومه، فاستجاب له نفر كريم، منهم: عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف ـ [ابن إسحاق] ـ ، وعثمان بن مظعون، وأبو عبيدة بن الجراح، وأبو سلمة بن عبد الأسد، والأرقم بن أبي الأرقم [ابن كثير: البداية].

ومن خلال علاقات هؤلاء وغيرهم أخذ الإسلام ينتشر في مكة وخارجها، ودخل فيه أناس من بطون قريش ومواليها كافة. وممن اشتهروا بين السابقين إلى الإسلام من الموالي: بلال بن رباح، وصهيب بن سنان،

وعمار بن ياسر، ووالده، وأمه سمية بنت خباط [أحمد: فضائل الصحابة بسند حسن].

وفي فترة وجيزة وصل عدد الذين سبقوا إلى الإسلام من بطون قريش إلى أكثر من أربعين نفراً، كما عدهم ابن هشام، وأكثر من خمسين، كما عدهم اليعمري ابن سيد الناس.

٥ ـ وثبت من رواية أحمد [في المستند بسند حسن؛ وابن سعد (٣/ ٢٣٣)، مرسلا صحيحا]، أن ورقة بن نوفل كان من المسلمين الأوائل، وذلك بدليل قول الرسول ﷺ: «قد رأيته، فرأيت عليه ثياب بياض فأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بياض». وقال ﷺ في رواية أخرى [عند أبي يعلى، بسند حسن]: «قد رأيته، فرأيت عليه ثياب بياض، أبصرته في بطنان الجنة، وعليه السندس». وقال ﷺ [من رواية البزار بسند جيد، والحاكم بسند صحيح]: «لا تسبوا ورقة؛ فإني رأيت له جنة أو جنتين»، وقال: «يبعث يوم القيامة أمة وحده» [الطبراني، برجال الصحيح].

ويتضح من سجل أسماء السابقين الأولين إلى الإسلام أنهم كانوا من خيرة أقوامهم ولم يكونوا ـ كما يذكر بعض الكتاب المسلمين وغيرهم ـ أنهم كانوا في معظمهم خليطاً من الفقراء والضعفاء والأرقاء الذين أرادوا استعادة حريتهم أو كرامتهم.

والقول السديد في هذا هو أن الذين تحملوا القسط الأكبر من التعذيب هم الأرقاء والموالي، وكانت فتنتهم على ملأ من الناس، ولذا انتشر أمرهم، بينما امتنع الآخرون بأقوامهم، ومن عذب منهم عذب ضمن قبيلته؛ ولذا لم ينتشر أمرهم، ولم يذكروا كثيراً [الشامي: المعين].

وفي هذه المعاني رويت عدة أحاديث، منها ما رواه أحمد [في الفضائل بسند حسن] عن ابن مسعود، قال: «أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، فألبسوهم أدرع الحديد، وصهروهم في الشمس...».

وذكر ابن إسحاق [في السيرة] أن قريشاً عَدَتْ على من أسلم، ووثبت

كل قبيلة على من فيها من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم. وذكر أن رجالاً من بني مخزوم مشوا إلى هشام بن الوليد حين أسلم أخوه الوليد يستأذنونه في اتخاذ ما يرونه من وسائل لصده عن الدين هو ومن أسلم معه من فتية بني مخزوم الذين كان منهم سلمة بن هشام وعياش بن أبي ربيعة، فسمح لهم بما يريدون، وحذرهم من قتله.

وروى ابن إسحاق [بسند حسن] في قصة هجرة عمر وقصة عياش معه أن قريشاً منعت هشام بن العاص بن وائل السهمي من الهجرة مع عمر وعياش وفتنته فافتتن، واحتالوا على عياش، فردوه من المدينة إلى مكة مقيداً.

وروى البخاري أن عمر بن الخطاب كان قبل أن يسلم يوثق سعيد بن زيد ابن عمه، ويكرهه ليرجع عن الإسلام، ولم يستطع الرسول ﷺ أن يفعل لهم شيئاً، وحتى عندما استقر بالمدينة لم يملك لهؤلاء غير الدعاء، حيث كان يقول: «اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين بمكة، اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف» [متفق عليه؛ وأحمد في المسند].

وقد أوضح ابن حجر [في الفتح] معنى كلمتي «الضعفاء» و«الشرفاء» اللتين وردتا في حديث هرقل مع أبي سفيان، فمعنى الأولى عنده أن أتباع الرسل في الغالب أهل الاستكانة لا أهل الاستكبار الذين أصروا على الشقاق بغياً وحسداً، كأبي جهل وأتباعه، ومعنى الثانية أن الشرف يقصد به ما يرادف التكبر، وهذا هو التفسير الذي ينبغي أن نفهم في ضوئه ما يرد من عبارات تتعلق بالشرفاء أو المستضعفين.

هذا ويلحظ أن من مجموع السبعة والستين الذين سبقوا إلى الإسلام ثلاثة عشر فقط ممن هم من الفقراء، والمستضعفين، والموالي، والأرقاء، والأخلاط من مختلف الأعاجم. فهم ـ إذاً ـ الخمس من المجموع، وما كان كذلك لا يقال عنه: «أكثرهم» ولا «معظمهم» ولا «عامتهم» [الشامي: من معين السيرة].

ب ـ العبر والعظات في هذا المقطع:

١ ـ إن في إلهام الله ـ تعالى ـ لرسول الله ﷺ بأن يبدأ الدعوة سراً،

تعليماً للدعاة في كل زمان ومكان، وإرشاداً لهم إلى مشروعية الأخذ بالحيطة والأسباب الظاهرة، وما يقرره التفكير والعقل السليم من الوسائل التي ينبغي أن تتخذ من أجل الوصول إلى غايات الدعوة وأهدافها، على أن لا يتغلب ذلك كله على الاعتماد والاتكال على الله وحده، وعلى أن لا يذهب الإنسان في التمسك بهذه الأسباب مذهباً يعطيها معنى التأثير والفعالية في تصوره وتفكيره؛ فهذا يخدش أصل الإيمان بالله ـ تعالى ـ ، فضلاً عن أنه يتنافى مع طبيعة الدعوة إلى الإسلام.

ومن هنا تدرك أن أسلوب دعوته ﷺ في هذه الفترة كان من قبيل السياسة الشرعية بوصف كونه إماماً، وليس من أعماله التبليغية عن الله ـ تعالى ـ بوصف كونه نبياً [البوطي: فقه السيرة].

٢ ـ أجمع جمهور الفقهاء على أن المسلمين إذا كانوا من قلة العدد أو ضعف العدة بحيث يغلب على الظن أنهم سيقتلون من غير أي نكاية في أعدائهم، إذا ما أجمعوا على حربهم، فينبغي أن تقدم هنا مصلحة حفظ النفس؛ لأن المصلحة المقابلة، ـ وهي مصلحة حفظ الدين، ـ موهومة أو منفية الوقوع، وهذا ما يقرره العز بن عبد السلام [في قواعد الأحكام]. ويقول الدكتور البوطي في تعليقه على هذا القول: إنه من حيث حقيقة الأمر ومرماه البعيد، فإنها في الواقع مصلحة دين، إذ المصلحة الدينية تقتضي ـ في مثل هذه الحال ـ أن تبقى أرواح المسلمين سليمة؛ لكي يتقدموا، ويجاهدوا في الميادين المفتوحة الأخرى، وإلا فإن هلاكهم يعتبر إضراراً بالدين ذاته، وفسحاً للمجال أمام الكافرين؛ ليقتحموا ما كان مسدوداً أمامهم من السبل.

وهو بهذا يعني أن عدم القتال تقديم لمصلحة الدين المتيقنة على مصلحة الدين المرجوحة.

المبحث الثاني والعشرون

أ ـ الجهر بالدعوة:

روى أحمد ـ في المسند، بسند حسن ـ عن علي رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] قال: جمع النبي ﷺ

أهل بيته، فاجتمع ثلاثون، فأكلوا وشربوا، فقال لهم: «من يضمن عني ديني ومواعيدي، ويكون معي في الجنة، ويكون خليفتي في أهلي؟»، فقال رجل: يا رسول الله، أنت كنت بحراً، من يقوم بهذا؟ . . . فعرض ذلك على أهل بيته، فقال علي: أنا.

وفي رواية ابن إسحاق [في السيرة، بسند يتقوى بغيره]: أن الرسول ﷺ قال لهم في ذلك اللقاء: «يا بني عبد المطلب، إني ـ والله ـ ما أعلم شاباً من العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، إني قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة».

ثم خطا الرسول ﷺ خطوة أخرى لتنفيذ أمر الله ـ تعالى ـ فقد روى البخاري ومسلم عن ابن عباس، قال: «لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ورهطك منهم المخلصين [قال النووي: «الظاهر أن هذا كان قرآناً أنزل ثم نسخت تلاوته»، مسلم (٣/ ٨٢ ـ ٨٣)]، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا، فهتف: يا صباحاه، فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقِيّ؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب عظيم. قال أبو لهب: تباً لك ما جمعتنا إلا لهذا؟ ثم قام، فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١].

وروى الشيخان عن أبي هريرة، قال: لما أنزلت هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً، فاجتمعوا، فعمَّ وخص، فقال: «يا بني كعب بن لؤي! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف! أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هشام! . . . يا بني عبد المطلب! . . . يا فاطمة! . . . فإني لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رَحِماً سَأَبُلُّهَا بِبِلالِهَا» [أي سأصلها، شبهت قطيعةُ الرحم بالحرارة، ووصلها بإطفاء الحرارة ببرودة الماء].

كانت هذه الصيحة العالية هي غاية البلاغ. فقد فاصل الرسول ﷺ قومه على دعوته، وأوضح لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلة بينه وبينهم، وأن عصبية القرابة التي يقوم عليها العرب ذابت في حرارة هذا الإنذار الآتي من عند الله [البوطي].

ب - دروس وعبر من هذا المقطع:

١ - أن الموقف السلبي لعشيرة الرسول ﷺ بصفة خاصة والعرب القرشيين بصفة عامة من الدعوة في هذه الفترة، فيه الرد القاطع على من يحاولون تصوير هذا الدين بأنه ثمرة من ثمار القومية، ويدعون أن محمداً ﷺ إنما كان يمثل بدعوته التي دعا إليها آمال العرب، ومطامحهم في ذلك الحين.

٢ - أن في تباطؤ الناس عن الدخول في الإسلام، دليلاً على مدى قوة وتغلغل العادات والتقاليد في المجتمعات التي تعيش ردحاً من الزمان في الجاهلية وفساد الفطرة. وهو وضع يواجهه الدعاة في كثير من المجتمعات قديماً وحديثاً، حتى المجتمعات الإسلامية عندما يخبو فيها صوت الدعوة المهتدية بسنة الرسول ﷺ تجد أثراً كبيراً للعادات والتقاليد في تسيير حركة المجتمع في المجالات المختلفة، وتجد استنكاراً ممن وقعوا في أسر هذه العادات والتقاليد لصوت العقل المهتدي بسنة الرسول ﷺ والسلف الصالح، في فهم الإسلام.

٣ - أن في خصوصية الأمر بإنذار العشيرة إشارة إلى درجات المسؤولية التي تتعلق بكل مسلم عموماً، والدعاة منهم خصوصاً. فقد كان الرسول ﷺ يتحمل المسؤولية تجاه نفسه، بوصف كونه مكلفاً، ويتحملها تجاه أسرته وأهله، بوصف كونه رب أسرة وذا آصرة قربى، ثم كان يتحمل المسؤولية تجاه الناس كلهم، بوصف كونه نبياً ورسولاً من الله ﷻ.

ويشترك مع النبي ﷺ في الأولى كل مكلف، وفي الثانية كل صاحب أسرة، أو كل فرد له عشيرة، وفي الثالثة العلماء والحكام [البوطي].

المبحث الثالث والعشرون

أساليب المشركين في محاربة الدعوة الإسلامية:

لم تزل أصداء تلك الصيحة ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ مدوية في جنبات أم القرى، حتى نزل قوله تعالى: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] فقام الرسول ﷺ مشمراً عن ساعد الجد، صادعاً بالحق، داعياً

إلى هجر الأوثان، مسفهاً عقول المشركين بها، مبيناً حقائق الإسلام، داحضاً الأباطيل العقدية التي تعشعش في عقول أهل الجاهلية.

عندما رأت قريش أن أثر هذه الدعوة لم يكن محدوداً ـ كما كان الحال مع من دعا إلى نبذ الأصنام قبل محمد ﷺ، أمثال زيد بن نفيل وورقة، وابن صيفي،ـ قامت في وجه محمد ﷺ ومن تبعه، وأخذت تمارس شتى أساليب ووسائل الترغيب والترهيب، لصدهم عن هذا الطريق الذي هدد مصالحهم التي يجنونها من وجود الحرم في أرضهم، وحط من تكبرهم على غيرهم، ووقف أمام شهواتهم في السيطرة واقتراف السيئات والموبقات، وقد كان أكثر هؤلاء من أصحاب النفوذ والمصالح.

ومن أبرز تلك الأساليب:

الأسلوب الأول: محاولة التأثير على عمه أبي طالب حتى يكفه عن الدعوة أو تجريده من جواره ـ أي حمايته ـ فقد ذهبت مجموعة من أشرافهم إلى عمه أبي طالب وقالوا له: إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفَّه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه، فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً، وردهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه [ابن إسحاق].

الأسلوب الثاني: التهديد بمنازلة الرسول ﷺ وعمه أبي طالب.

ولما مضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه، يُظهر دين الله، ويدعو إليه، غضبت منه قريش، وعادوه، وحقدوا عليه، وأكثروا من ذكره، وحض بعضهم بعضاً، ومشوا إلى عمه مرة أخرى، فقالوا له: يا أبا طالب، إن لك سناً وشرفاً ومنزلةً فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك، فلم تنهه عنا، وأقسموا بأنهم لن يصبروا على أفعاله حتى يكفه عنهم، أو ينازلوه وإياه في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين. عند هذا عظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله ﷺ لهم ولا خذلانه؛ ولذا أبلغ الرسول ﷺ بالذي قالوه، وطلب منه أن يبقي عليه وعلى نفسه، ولا يحمله من الأمر ما لا يطيق [ابن إسحاق].

وفي رواية لابن إسحاق أن الرسول ﷺ ظن أن عمه قد ضعف عن نصرته؛ ولذا قال له: «يا عَمِّ، والله لو وضعوا الشمسَ في يميني، والقَمرَ في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهِرَهُ الله أو أَهْلِكَ فيه، ما تَرَكْتُهُ»، ثم بكى رسول الله ﷺ وقام من عند عمه، فلما ولَّى ناداه عمه، فقال: «أقبل يا ابن أخي»، فلما أقبل قال له: «اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أُسْلِمُكَ لشيء أبداً». وفي رواية أخرى لابن إسحاق [بسند حسن] من حديث عقيل بن أبي طالب: أن أبا طالب أرسل عَقِيْلاً إلى النبي ﷺ، فلما حضر الرسول ﷺ قال له عمه: «إنَّ بني عمك هؤلاء قد زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فانته عن أذاهم، فحلق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء، فقال: أَتَرَوْنَ هذه الشمس؟ قالوا: نعم، قال: فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة، فقال أبو طالب: والله ما كَذَبَنا ابن أخي فارجعوا». وهذه الرواية هي الصحيحة [أما الرواية الأولى فلا تقبل عند المحدثين لضعفها.].

ومن أبرز الحكم والعبر في هذين الأسلوبين، أن هذا الموقف القوي للرسول ﷺ من قومه ينسجم مع ما أمر به من البلاغ، أما موقف أبي طالب فعجيب حقاً، ولم يجد ابن كثير [في البداية] تفسيراً له سوى قوله: «إن الله تعالى قد امتحن قلبه بحب محمد ﷺ حباً طبيعياً لا شرعياً. وكان استمراره على دين قومه من حكمة الله ـ تعالى ـ، ومما صنعه لرسوله من الحماية، إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة، ولا كانوا يهابونه، ويحترمونه، ولتجرؤوا عليه، ولمدوا أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه، وربك يخلق ما يشاء ويختار.

وقد قسم خلقه أنواعاً وأجناساً، فهذان العمان كافران: أبو طالب وأبو لهب. ولكن هذا يكون يوم القيامة في ضحضاح من نار [إشارة إلى الحديث المتفق عليه عن العباس أنه قال: «يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء؛ فإنه كان يحوطك، ويغضب لك؟ قال: نعم، هو في ضحضاح من النار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار». والتخفيف عنه بسببه، [والضحضاح: ما رَقَّ من الماء على وجه الأرض، ما يبلغ الكعبين]، وذلك في الدرك الأسفل من النار، وأنزل

فيه سورة في كتابه تتلى على المنابر، وتقرأ في المواعظ والخطب تتضمن أنه سيصلى ناراً ذات لهب وامرأته حمالة الحطب».

وظل أبو طالب طوال حياته ينهى الناس عن إيذاء الرسول ﷺ ويحميه، وينأى عن الدخول في الإسلام، وقد روي أن الآية: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦] قد نزلت فيه [تفسير الطبري، وابن الجوزي].

الأسلوب الثالث: الاتهامات الباطلة لصد الناس عنه.

من تلك الاتهامات:

أ ـ اتهموه بالجنون، وفي ذلك نزل قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالُوا يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]. وقد أجابهم الله في آية القلم: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢]. وحكى عنهم في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ [القلم: ٥١].

ب ـ اتهموه بالسحر، وفي ذلك نزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَعَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨].

وقد تحيّر الوليد بن المغيرة فيما يصف به القرآن. فعندما أوشك دخول موسم الحج جمع فريقه من عتاة المعاندين، فقال لهم: «يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فاجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا، فيكذب بعضكم بعضاً...» ومع استبعادهم أنه كاهن أو شاعر أو ساحر فأنهم اتفقوا على أن يقولوا للناس: إنه ساحر؛ لأنه يفرق بين الأقارب، فأنزل الله في الوليد: ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾...﴾ [المدثر: ١١] ثم أخذوا يتلقون الناس يحذرونهم من أمر محمد. وشاء الله أن تصدر العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله ﷺ، فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها [الطبري: التفسير].

وكان مثل هذه المواقف سبباً في إسلام الناس في المواسم، وما روي في قصة إسلام طفيل بن عمرو الدوسي دليل على ذلك [ابن إسحاق].

وخلاصة قصته أنه عندما قدم مكة ـ ورسول الله ﷺ بها ـ مشى إليه رجال من

كفار قريش ـ وكان الطفيل رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً ـ فقالوا له: يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد أعضل [اشتد أمره، ومنه الداء المعضل أو العضال والمعضلة] بنا، وفرق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه، وبين الرجل وبين أخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا، فلا تكلمنه، ولا تسمعن منه شيئاً. فما زالوا به حتى وضع كُرْسُفاً [قطناً] في أذنيه، ولكن أراد الله أن يسمع من النبي عندما كان يصلي عند الكعبة، فيسلم، ويسلم قومه. إلخ.

جـ ـ واتهموه بالكذب، وفي ذلك يقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤] [انظر تفسيرها في مثل: زاد المسير (٦/ ٧٢ ـ ٧٣). قال مجاهد في قوله: (وأعانه عليه قوم آخرون): يعنون اليهود. وقال مقاتل: أشاروا إلى عداس مولى حويطب، ويسار غلام عامر بن الحضرمي، وجبر مولى لعامر أيضاً، وثلاثتهم من أهل الكتاب].

د ـ واتهموه بالإتيان بالأساطير، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥] [قال المفسرون: إن الذي قال هذا هو النَّضرُ بن الحارث، انظر: زاد المسير (٦/ ٦٣)].

هـ ـ وقالوا: إن القرآن ليس من عند الله، وإنما هو من عند البشر ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

و ـ واتهموا المؤمنين بالضلالة... ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢] [من هؤلاء المؤمنين: عمَّار، وبلال، وخبَّاب، كما ذكر ابن الجوزي في زاد المسير (٩/ ٦٠)].

الأسلوب الرابع: السخرية، والاستهزاء، والضحك، والغمز، واللمز، والتعالي على المؤمنين:

يقول الله ـ تعالى ـ عن سخريتهم من الذين آمنوا: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾

[الأنعام: ٥٣]. وروى البخاري: أن امرأة قالت للرسول ﷺ ساخرة مستهزئة: «إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً!»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣﴾ [الضحى: ١ ـ ٣].

وروى البخاري أن أبا جهل قال مستهزئاً: «اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم»، فنزلت: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٢ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [الأنفال: ٣٢ ـ ٣٤].

وذكر ابن إسحاق [في السيرة] حديث الإراشي الذي اشترى منه أبو جهل الإبل، ومطله بأثمانها، ودلالة قريش إياه على رسول الله ﷺ لينصفه من أبي جهل، استهزاء لما يعلمون من العداوة بينهما. وعندما جاء الإراشي إلى الرسول ﷺ شاكياً مشى معه إلى أبي جهل، وأخذ له بحقه. وعندما سألت قريش عن صنيعه هذا قال: (ويحكم والله ما هو إلا أن ضرب عليَّ بابي، وسمعت صوته، ملئت رعباً، ثم خرجت إليه، وإن فوق رأسه لَفَحْلاً من الإبل، ما رأيت مثل هَامَتِهِ [رأسه] ولا قصَرَتِهِ [أصل عنقه] ولا أنيابه لفَحْلٍ قَطُّ، والله لو أبيت لأكلني).

وقال الله تعالى عن ضحكهم وغمزهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ۝٣١﴾ [المطففين: ٢٩ ـ ٣١].

وثبت من طرق صحيحة [في مسند أحمد ومصنف ابن أبي شيبة وسيرة ابن إسحاق] أن أشراف قريش اجتمعوا يوماً في الحجر يتذاكرون أمر الرسول ﷺ وما جاء به. وبينما هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ ليطوف بالبيت، فلما مرَّ بهم غمزوه ببعض القول ثلاث مرات، فقال لهم: «يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح. . .»، وقد فزعوا من هذا الموقف.

ومن منطلق الاستعلاء والسخرية، قال المشركون للنبي ﷺ: «لا نرضى

بمجالسة أمثال هؤلاء ـ يعنون صهيباً، وبلالاً، وخباباً ـ فاطردهم عنك»، فهمَّ النبي ﷺ بذلك طمعاً في إسلامهم وإسلام قومهم، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢] [الطبري: التفسير، أثر ١٣٢٥٨، صحيح].

ومر الرسول ﷺ يوماً بجماعة من زعماء قريش، فهمزوه، واستهزؤوا به، فغاظه ذلك، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأنعام: ١٠] [ابن إسحاق].

ومن كبار المستهزئين والساخرين: الأسود بن عبد المطلب بن أسد، [ابن إسحاق]، والأسود بن عبد يغوث بن وهب الزهري، والوليد بن المغيرة المخزومي، والعاص بن وائل السهمي، [ابن هشام]، والحارث بن الطلاطلة الخزاعي [ابن إسحاق]. وروى أبو نعيم، من حديث ابن إسحاق، أن الله تعالى أنزل فيهم: ﴿إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]. وروي أن جبريل عليه السلام رمى في وجه الأسود بن عبد المطلب ورقة خضراء فعمي، ومر به الأسود بن عبد يغوث، فأشار إلى بطنه، فاستسقى بطنه، فمات من ذلك، ومر به الوليد بن المغيرة، فأشار إلى جرح بِأسفل كعب رجله، وكان أصابه قبل ذلك بسنين، فانتقض به فقتله، ومر به العاص بن وائل، فأشار إلى أخمص رجله فخرج على حمار له يريد الطائف، فربض به حماره على نبات خفيف، فدخلت في أخمص رجله منها شوكة فقتلته، ومر به الحارث بن الطلاطلة، فأشار إلى رأسه، فتحرك القيح فيه، فقتله [ابن إسحاق، مرسل صحيح].

والوليد بن المغيرة هو القائل: أينزل على محمد وأترك، وأنا كبير قريش وسيدها؛ ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف، ونحن عظيما القريتين؟! فأنزل الله تعالى فيه: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وللمفسرين أقوال أخرى في الرجلين المعنيين في الآية. [انظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٢١٢ ـ ٢١٣)].

ومن كبار المستهزئين الساخرين ـ أيضاً ـ: أبو جهل، وأمية بن خلف، والنضر بن الحارث، والأخنس بن شريق، وأبي بن خلف [ابن هشام].

الأسلوب الخامس: التشويش:

كان المشركون يتواصون بينهم بافتعال ضجة عالية وصياح منكر عندما يقرأ القرآن، حتى لا يسمع فيفهم فيترك أثراً في عقل نقي وقلب طيب. وفي ذلك قال المولى ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦].

الأسلوب السادس: طلبهم أن تكون للرسول ﷺ معجزات أو مزايا ليست عند البشر العاديين:

من ذلك قولهم: ﴿... مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الفرقان: ٧، ٨] وقولهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥] ورد عليهم الله تعالى في الآية نفسها: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

وقولهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ﴾، ولـهـذا أمـر الله الرسول ﷺ أن يقول لهم كما جاء في الآية نفسها: ﴿... سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣].

وسألوه أن يسيِّر لهم جبال مكة، ويقطع لهم الأرض ليزرعوها، ويبعث لهم من مضى من الآباء الموتى، أمثال قصي، ليسألوه عن صدق محمد. ورد الله عليهم في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١]، أي لا أصنع من ذلك إلا ما شاء الله [الطبري: التفسير].

لقد كان طلبهم على وجه العناد، لا على وجه طلب الهدى والرشاد؛ فلهذا لم يجابوا إلى كثير مما طلبوا، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ

لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ . . . وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾﴾ [الأنعام: ١٠٩ ـ ١١١]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ . . .﴾ [الإسراء: ٥٩].

وروى أحمد [في المسند، بسند جيد] من حديث ابن عباس قال: سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن ينحي عنهم الجبال، فيزدرعوا ـ أي يزرعوا مكانها ـ فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا هلكوا كما أهلكت من قبلهم الأمم، قال: «لا، بل أستأني بهم»، فأنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وروي أنهم طلبوا منه أن يجعل صخرة معينة ذهباً؛ لينحتوا منها، وتغنيهم عن رحلتي الشتاء والصيف. وروى مسلم أنهم طلبوا أن يريهم آية، فأراهم القمر قد انشق.

الأسلوب السابع: المساومات:

لقد حاولت قريش من خلال هذا الأسلوب أن يلتقي الإسلام والجاهلية في منتصف الطريق، وذلك بأن يترك المشركون بعض ما هم عليه، ويترك النبي ﷺ بعض ما هو عليه، قال تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾﴾ [القلم].

وعندما قالوا له اعبُد آلهتنا يوماً، ونعبد إلٰهك يوماً، أنزل الله تعالى سورة الكافرون: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦]، وحسم هذه المساومة الهزلية.

لقد ساوموا عمَّه فيه، حين اقترحوا على عمه أن يعطوه عمارة بن الوليد بن المغيرة بدلاً عن محمد ﷺ فيأخذوه، ويقتلوه [ابن هشام].

وعندما اشتكى [مرض] أبو طالب، وبلغ قريشًا ثقله [مرضه الشديد] قال بعضها لبعض: إن حمزة وعمر قد أسلما، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب، فليأخذ لنا على ابن أخيه، وليعطه منا؛ فإنا

والله ما نأمن أن يبتزونا أمرنا، وعندما جاء وفدهم إلى أبي طالب، قال لمحمد ﷺ: «يا ابن أخي هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليعطوك وليأخذوا منك. فقال رسول الله ﷺ: نعم كلمة واحدة يعطونيها يملكون بها العرب، وتدين لهم بها العجم ـ وفي رواية: تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها العجم الجزية ـ ففزعوا لكلمته ولقوله، فقال القوم: كلمة واحدة؟ قال: نعم. فقال أبو جهل: نعم ـ وأبيك ـ عشر كلمات، قال: تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه، فصفقوا بأيديهم، ثم قالوا: يا محمد، تريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن أمرك لعجب.

ثم قال بعضهم لبعض: ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون، فانطلقوا، وامضوا على دينكم حتى يحكم الله بينكم وبينه. ثم تفرقوا، فأنزل الله فيهم أول سورة «ص»... [أحمد: المسند، بسند صحيح].

الأسلوب الثامن: سب القرآن ومنزله ومن جاء به

روى البخاري ومسلم وغيرهما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الَسراء: ١١٠] أن ابن عباس قال: «نزلت، ورسول الله ﷺ مختف بمكة، كان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله ـ تعالى ـ لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾، أي بقراءتك، فيسمع المشركون، فيسبوا القرآن، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تسمعهم، ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾» [الَسراء: ١١٠].

وروى ابن إسحاق [في السير]، أن رسول الله ﷺ كان إذا جهر بالقرآن وهو يصلي، تفرقوا عنه، وأبوا أن يسمعوا منه، وكان الرجل، إذا أراد أن يستمع من رسول الله ﷺ بعض ما يتلو، وهو يصلي، يسترق السمع دونهم فَرَقاً منهم، فإن رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع ذهب خشية أذاهم ولم يستمع، وإن خفض رسول الله ﷺ صوته، فظن الذي يستمع أنهم لم يسمعوا شيئاً من قراءته، وسمع من دونهم، التفت إليه يستمع، فأنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ فيتفرقوا عنك، ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾، فلا يسمع من أراد أن يستمعها ممن يسترق ذلك دونهم لعله يرعوي إلى بعض ما يسمع، فيقتنع به ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

وعندما كان المسلمون يسبون أصنام الكفار أخذ المشركون يسبون الله عدواً بغير علم، فأنزل الله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] [الطبري: التفسير].

وهذا النهي عن سب آلهة المشركين، وإن كان فيه مصلحة، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين [ابن كثير: التفسير].

ومن هذا القبيل ـ وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها ـ ما جاء في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «من الكبائر شتم الرجل والديه»، قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «نعم يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه». وقوله ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «لولا حداثة عهد قومك بالكفر، لنقضت الكعبة، ولجعلتها على أساس إبراهيم...». وكان هذا الحديث سنداً لابن الزبير في بناء الكعبة على قواعد إبراهيم [متفق عليه].

الأسلوب التاسع: الاتصال باليهود للإتيان منهم بأسئلة تعجيزية للرسول ﷺ:

أوفدت قريش نفراً منهم إلى المدينة، على رأسهم: النضر بن الحارث وعقبة بن أبي مُعَيْط؛ ليأتوا من اليهود بأسئلة تعجيزية فيطرحونها على الرسول ﷺ. فقالت لهم يهود: سلوه عن أهل الكهف وعن ذي القرنين والروح. ولكن الله أبطل كيدهم عندما أنزل الله قرآناً في شأن الإجابة عن أسئلتهم [أحمد: المسند، بسند صحيح].

الأسلوب العاشر: الترغيب:

أرادت قريش أن تجرب أسلوب الترغيب، فأرسلت عتبة بن ربيعة، الذي قال للرسول ﷺ: «يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من المكان في النسب، وقد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً لعلك تقبل بعضها: إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سوَّدناك علينا فلا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي

يأتيك رِئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ».

وروى ابن إسحاق بسند مرسل حسن أن النبي ﷺ لما فرغ من قوله تلا صدر سورة «فصلت» إلى قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]. وعندها وضع عتبة يده على جنبه، وقام كأن الصواعق ستلاحقه، وعاد إلى قريش مخبراً إياهم بأن ما سمع ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة، واقترح على قريش أن تدع محمداً وشأنه. وفي رواية البيهقي [في الدلائل بمثل رواية ابن أبي شيبة]، وابن أبي شيبة [في مصنفه وفيه الأجلح] وابن حميد [في المنتخب، حسن] من حديث جابر، زادوا: «وإن كان بك الباءة زوجناك عشر نسوة تختار من أي أبيات قريش شئت».

وفي رواية [عند الحاكم والبيهقي في الدلائل، بأسانيد تعتضد]، أن الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله ﷺ فقرأ عليه القرآن، فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه، فقال: «يا عم، إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً»، قال: «لم؟»، قال: «ليعطوك، فإنك أتيت محمداً لتعرض لما قبله. .»، ثم قال عن القرآن الذي سمعه من محمد ﷺ: «ووالله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمرٌ أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ما يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته. . .».

الأسلوب الحادي عشر: الترهيب:

كان أبو جهل، إذا سمع عن رجل قد أسلم، وله شرف ومنعة، أنَّبه وأخزاه، وقال له: «تركت دين أبيك، وهو خير منك! لَنُسَفِهَنَّ حُلُمَكَ، ولَنُضْعِفَنَّ رأيك، ولنضعن شرفك»، وإن كان تاجراً قال له: «لَنُكَسِّدَنَّ تجارتك، ولنهلكن مالك»، وإن كان ضعيفاً ضربه، وأغرى به [ابن إسحاق].

الأسلوب الثاني عشر: الاعتداء الجسدي:

أ ـ الاعتداء الجسدي على الرسول ﷺ:

عندما لم تثمر كل الأساليب السابقة في صد الرسول ﷺ وأصحابه عن دينهم لجأت قريش إلى أسلوب الاعتداء الجسدي، والتصفية الجسدية.

لقد استفحل إيذاؤهم للرسول ﷺ في الفترة العلنية لغضبهم منه حين أضحى يظهر شعائر دينه مثل الصلاة عند الكعبة. فقد روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو جهل: «هل يُعَفِّرُ محمد وجهه بين أَظْهُرِكُم؟ قال: فقيل: نعم. فقال: واللات والعزى! لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرنّ وجهه في التراب. قال فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي ـ زعم ليطأ على رقبته ـ قال: فما فجأهم منه إلا وهو يَنْكُصُ على عَقِبَيْهِ، ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لَخَنْدَقاً من نار وهَوْلاً وأجنحة». فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً»، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ . . . أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ . . . أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ . . . كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ . . . كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾﴾ [العلق: ٦ ـ ١٩]. [ورواه البخاري مختصراً]

وروى البخاري بسنده إلى عروة بن الزبير، قال: «سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ، قال: رأيت عقبة بن أبي معيط، جاء إلى النبي ﷺ، وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه ﷺ، فقال: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟»».

وروى البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود، قال: «بينما رسول الله ﷺ يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نُحِرَتْ جَزَورٌ بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سَلا جَزور بني فلان، فيأخذه، فيضعه في كتفي محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم [هو عقبة بن أبي معيط كما صرح في الرواية الثانية عند مسلم (برقم ١٧٩٤)] فأخذه، فلما سجد النبي ﷺ وضعه بين كتفيه، قال: فَاسْتَضْحَكُوا، وجعل بعضهم يميل على بعض، وأنا قائم أنظر. لو كان لي منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ والنبي ﷺ ساجد ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة، فجاءت، وهي جُوَيْرِيَةٌ، فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم. فلما قضى النبي ﷺ صلاته رفع صوته، ثم دعا عليهم.. فوالذي بعث محمداً ﷺ بالحق لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب، قليب بدر».

قال ابن حجر [في الفتح]: «وقد أخرج أبو يعلى والبزار بإسناد صحيح عن أنس، قال: «لقد ضربوا رسول الله ﷺ مرة حتى غشي عليه، فقام أبو بكر فجعل ينادي: ويلكم، أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟ فتركوه وأقبلوا على أبي بكر. . . » [مسند أبي يعلى، برقم ٣٦٩١].

وتسلط عليه عتيبة بن أبي لهب بالأذى، وشق قميصه، وتفل في وجهه ﷺ إلا أن البزاق لم يقع عليه، وحينئذٍ دعا عليه النبي ﷺ، وقال: «اللهم سلط عليه كلباً من كلابك». واستجيب دعاؤه، فذبحه السبع، وهو بالزرقاء بالشام. وحاولت أم جميل أروى أو العوراء بنت حرب أخت أبي سفيان ـ زوجة أبي لهب ـ أن تعتدي عليه بحجر، فحماه الله منها ـ كما روى البيهقي [في الدلائل]. وكانت تحمل الحطب لتضعه في طريقه ـ كما حكاه القرآن الكريم [المسد: ٤] [وإسناد البيهقي حسن لغيره].

وروى أحمد [في المسند، بسند صحيح] أن الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر فتعاقدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ونائلة وإساف: لو قد رأينا محمداً لقد قمنا إليه قيام رجل واحد فلم نفارقه حتى نقتله. . . وأخبرته ابنته فاطمة بالذي قالوا، فجاءهم، وحصبهم بقبضة من تراب، من أصابته منهم قتل يوم بدر كافراً.

وروى الإمام أحمد [في المسند، بسند صحيح، من حديث أنس] أن جبريل عليه السلام جاء ذات يوم إلى النبي ﷺ وهو جالس حزيناً قد خضب بالدماء، ضربه بعض أهل مكة، فقال له مَالَك؟ قال: «فعل بي هؤلاء وفعلوا، فقال له جبريل: أتحب أن أريك آية؟ قال: نعم. فنظر إلى شجرة من وراء الوادي فقال: ادع بتلك الشجرة، فدعاها، فجاءت حتى قامت بين يديه، فقال: مرها فلترجع، فأمرها فرجعت إلى مكانها. فقال رسول الله ﷺ: حسبي».

يرى ابن كثير [في البداية]، أن غالب ما وقع للرسول ﷺ من اعتداء جسدي وما يشبه ذلك، كان بعد وفاة عمه أبي طالب.

ب ـ الاعتداء الجسدي على الصحابة من قريش بمكة:

ونال أبا بكر رضي الله عنه نَصِيْبُهُ من الأذى، حتى فكر في الهجرة إلى الحبشة فراراً بدينه [البخاري].

وذات يوم قام أبو بكر خطيباً في المسجد الحرام، فضربه المشركون ضرباً شديداً، وممن ضربه عتبة بن ربيعة، حيث جعل يضربه على وجهه بنعلين مخصوفتين حتى ما يعرف وجهه من أنفه. وجاء بنو تيم ـ قومه ـ يتعادون، فأجلت المشركين عن أبي بكر، وحملوه في ثوب إلى منزله، ولا يشكون في موته، وأقسموا لئن مات أبو بكر ليقتلن عتبة بن ربيعة [ابن كثير: البداية].

وكان أول من جهر بالقرآن بعد رسول الله ﷺ بمكة عبد الله بن مسعود، مع تحذير المسلمين له من عدوان المشركين وخشيتهم عليه. فعندما فعل ذلك، ضربوه على وجهه حتى أثروا فيه. وعندما قال له الصحابة: «هذا الذي خشينا عليك، قال: ما كان أعداء الله أهون منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينَّهم بمثلها غداً. قالوا: لا، حسبك، قد أسمعتهم ما يكرهون» [ابن إسحاق].

وكان عمُّ عثمان بن عفان يلفه في حصير من أوراق النخيل، ثم يدخنه من تحته[المنصورفوري: رحمة للعالمين (١/ ٥٢) ولم نقف على مصدر المنصورفوري]. وروي أنه عندما أسلم أخذه عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية فأوثقه رباطاً، وأقسم ألا يحله إلا إذا ترك الإسلام، فأقسم عثمان على عدم تركه الإسلام، فلما رأى عمه صلابته في دينه تركه [ابن سعد].

ولما علمت أم مصعب بن عمير بإسلامه أجاعته وأخرجته من بيته، وكان من أنعم الناس عيشاً، فتخشف جلده تخشف الحية، حتى حمله أصحابه على قِسِيِّهِم؛ لشدة ما به من الجهد [ابن إسحاق: السيرة].

واعتدوا على عمر بن الخطاب عندما أسلم، وحاولوا قتله لولا أن أنقذه الله بالعاص بن وائل [ابن إسحاق].

وممن أوذي عثمان بن مظعون، فقد روي أنه عندما رجع من الهجرة الأولى إلى الحبشة، دخل في جوار الوليد بن المغيرة، فلما رأى المشركين يؤذون المسلمين وهو آمن، رد جوار الوليد. وعندما قدم لبيد بن ربيعة إلى مكة، وكان في مجلس لقريش ينشدهم شعره، قال لبيد: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل»، قال عثمان بن مظعون: «صدقت، وعندما قال: وكل نعيم لا محالة زائل، قال له عثمان: «كذبت. نعيم الجنة لا يزول»، قال لبيد: «يا

معشر قريش، والله ما كان يؤذى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟»، فقال رجل من القوم: «إن هذا ـ أيضاً ـ في سفهاء معه قد فارقوا ديننا، فلا تجدن في نفسك من قوله»، فرد عليه عثمان حتى تفاقم أمرهما، فقام إليه ذلك الرجل، فلطم عينه فَخَضَّرَها، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان، فقال: «أما والله ـ يا ابن أخي ـ إن كانت عينك عما أصابت لغنيَّة، لقد كنت في ذمة منيعة»، قال عثمان: «بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، وإني لفي جوار من هو أعز منك وأقدر، يا أبا عبد شمس»، فقال له الوليد: «هلم يا ابن أخي، إن شئت فعد إلى جوارك»، فقال: «لا» [ابن إسحاق، والبيهقي في الدلائل، والطبراني في الكبير].

وكان عم الزبير بن العوام يعلقه في حصير، ويدخن عليه النار، ويقول: «ارجع إلى الكفر، فيقول الزبير: لا أكفر أبداً» [الحاكم، وأبو نعيم في الحلية].

وكان أبو جهل قد حبس أخاه سلمة بن هشام بن المغيرة عندما عاد من الحبشة، وأجاعه، ولكن تمكن من الانفلات واللحاق بالرسول ﷺ بالمدينة بعد غزوة الخندق [ابن سعد]. وكان ممن دعا لهم الرسول ﷺ في القنوت أن ينجيهم الله من أعدائهم [البخاري].

جـ ـ الاعتداء الجسدي على المسلمين العرب من خارج مكة:

ولم يقتصر التعذيب الجسدي على المسلمين بمكة، بل امتد إلى بعض الأفراد الذين أسلموا من القبائل البعيدة عن مكة. فقد روى ابن سعد أن أم شَرِيْكٍ غَزِيَّة بنت جابر بن حَكِيم عندما أسلمت هي وزوجها، وهاجر زوجها مع أبي هريرة وجماعة من قومها، جاءها أهل زوجها أبي العِكْرِ، فسألوها إن كانت على دينه، فأقرت بإسلامها، فأقسموا على تعذيبها. فعندما ارتحلوا من مكان إلى آخر حملوها على شر ركابهم وأغلظه، ثم أطعموها خبزاً وعسلاً، ومنعوا عنها الماء، وتركوها في الشمس حتى ذهب عقلها وسمعها وبصرها، وكرروا ذلك ثلاثة أيام، وفي اليوم الثالث، طلبوا منها ترك دينها، فلم تفعل غير الإشارة بأصبعها إلى السماء بالتوحيد، ولا تعي ما يقولون من شدة الإعياء والإغماء، وأكرمها الله بدلو من ماء شربت منه، فكان ذلك سبباً في إسلام أهل زوجها وهجرتهم إلى النبي ﷺ.

وعندما سمع أبو ذر الغفاري بخبر النبي ﷺ جاء ودخل مكة، وأخذ يسأل عن الرسول ﷺ، فضربه أهل مكة حتى أغشي عليه، وكاد أن يموت، فخلصه العباس رضي الله عنه منهم [متفق عليه].

وروى قصة إسلامه مطولة مسلم، وأحمد [في المسند]، وأبو نعيم [في الدلائل] والحاكم، وفيها أن أبا ذر أول من حيًّا رسول الله ﷺ بتحية أهل الإسلام: السلام عليك ـ يا رسول الله ـ ورحمة الله وبركاته، فقال الرسول ﷺ في رده عليه: «وعليك السلام ورحمة الله. .» [ابن سعد من طريق الواقدي] ولفظ أحمد: «عليك ورحمة الله»، ولفظ مسلم: «وعليك ورحمة الله» في رواية، وفي أخرى «وعليك السلام»؛ ولفظ أبي نعيم: «وعليك ورحمة الله»

د ـ الاعتداء الجسدي على الموالي:

لقد نفَّس الكفار كل أحقادهم على الإسلام ومعتنقيه في أشخاص الموالي؛ لأنه لم تكن لهم منعة، فكان العذاب أقسى وأفظع.

وقد عذر الله المعذبين فيما يقولون حينما يبلغ الجهد منهم مبلغه. قال سعيد بن جبير لابن عباس: «أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟»، قال: «نعم والله، إن كانوا ليضربون أحدهم، ويجوعونه، ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضرب الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولون له: اللات والعزى إلٰهك من دون الله؟ فيقول: نعم، افتداء منهم مما يبلغون من جهده» [ابن إسحاق]. قال ابن كثير في البداية: «وفي مثل هذا أنزل الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النحل: ١٠٦].

قال ابن مسعود: «أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول الله ﷺ وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية، وصهيب، وبلال، والمقداد، فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه، وأبو بكر منعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون، فألبسوهم أدرع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا، إلا بلالاً فإنه هانت عليه نفسه في الله ـ تعالى ـ وهان

على قومه، فأخذوه، فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة، وهو يقول: أحد أحد [أحمد: المسند، بسند صحيح].

ومن أبرز من نالهم الاعتداء الجسدي من الموالي بمكة:

أ ـ آل ياسر:

كانت هذه الأسرة ممن يضرب بها المثل فيما لاقاه المستضعفون من الابتلاءات في تاريخ الإسلام. فقد كان بنو مخزوم يخرجون بهم إذا حميت الظهيرة، فيعذبونهم برمضاء مكة، وغطوا عمارًا في الماء [ابن إسحاق في السيرة والسير والمغازي].

ومرَّ بهم الرسول ﷺ ذات مرة وهم يعذبون، فقال لهم: «أبشروا ـ آل عمار وآل ياسر ـ فإن موعدكم الجنة» [الحاكم، بسند صحيح].

وكان أول من استشهد في سبيل الله من هذه الأسرة خاصة، وفي الإسلام عامة: أم عمار ـ سمية بنت خباط ـ فقد طعنها أبو جهل بحربة في قبُلها، فماتت من جراء هذا الاعتداء الآثم [البيهقي: الدلائل، مرسل مجاهد].

ومات ياسر في العذاب، ورمي ابنه عبد الله فسقط [ابن حجر: الفتح]. وتفننوا في إيذاء عمار، حتى أجبروه على أن يتلفظ بكلمة الكفر بلسانه. وذكر جمهور المفسرين أن من أسباب نزول الآية الكريمة: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَـٰنِ . . .﴾ [النحل: ١٠٦] هو موقف عمار بن ياسر هذا [ابن الجوزي والطبري] [قال ابن حجر في الفتح (٩/ ٢٨١): «وكان عمار عربياً عنسياً، ما وقع عليه سبي، وإنما سكن أبوه ياسر مكة، وحالف بني مخزوم، فزوَّجوه سمية، وهي من مواليهم، فولدت له عماراً، فيحتمل أن يكون المشركون عاملوا عماراً معاملة السبي لكون أمه من مواليهم»]. وقال ابن إسحاق في السيرة، ص ١٩٢: «إن ياسراً كان عبداً لبني بكر من بني الأشجع، فاشتروه منهم، فزوجوه سمية أم عمار، فولدت عماراً، وكانت سمية أمة لهم، فأعتقوا سمية وعماراً».

ب ـ بلال:

كان بلال مولى لبعض بني جُمَح، وهو بلال بن رَبَاح، وأمه حَمَامَة.

ذكر أنه كان حبشياً، وهو المشهور، وقيل: كان نوبياً [ابن حجر: الفتح].

كان طاهر القلب صادق الإسلام، وكان مولاه أمية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له: «لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، وتعبد اللّات والعزّى»، فيقول ـ وهو في ذلك البلاء ـ: «أحد أحد» [ابن إسحاق].

وروى البلاذري [في أنساب الأشراف]، عن عمرو بن العاص قال: «مررت ببلال، وهو يعذب في الرمضاء، ولو أن بضعة لحم وضعت عليه لنضجت، وهو يقول: أنا كافر باللات والعزى، وأمية مغتاظ عليه، فيزيده عذاباً، فيقبل عليه، فيدغت في حلقه، فيغشى عليه، ثم يفيق».

وروى البلاذري ـ كذلك ـ عن مجاهد، قال: «جعلوا في عنق بلال حبلاً، وأمروا صبيانهم أن يشتدوا به بين أخشبي مكة ـ يعني جبليها ـ ففعلوا ذلك، وهو يقول: أحد أحد».

وقال البلاذري ـ أيضاً ـ: «وروي أن بلالاً قال: أعطشوني يوماً وليلة، ثم أخرجوني، فعذبوني في الرمضاء في يوم حار».

وعندما رآه أبو بكر رضي الله عنه في هذه الحالة، ساوم سادته على شرائه، فاشتراه وأعتقه. فقد روى ابن أبي شيبة [كما قال ابن حجر في الفتح] بإسناد صحيح، والبلاذري بإسناد جيد، وابن عبد البر [في الاستيعاب، بسند قوي]، أن أبا بكر اشترى بلالاً بخمس أواق، وهو مدفون بالحجارة. وروى البخاري أن بلالاً قال لأبي بكر: «إن كنت إنما اشتريتني لنفسك فأمسكني، وإن كنت اشتريتني لله فدعني وعمل الله».

جـ ـ خباب بن الأرَتّ [سمي الأرت للكنة في لسانه العربي ـ البلاذري].

هو خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد بن خزيمة . . . بن تميم التميمي، ويقال الخزاعي [ابن هشام]. . . سُبي في الجاهلية، فبيع بمكة. وكان مولى لأم أنمار الخزاعية، وقيل غير ذلك، ثم حالف بني زهرة. كان يعمل قيناً ـ حداداً ـ في صناعة الأسنَّة، وبخاصة السيوف، وكان من السابقين الأولين إلى الإسلام [متفق عليه].

وعندما أظهر إسلامه لاقى صنوفاً شتى من العذاب في المال والنفس، ضمن سائر المستضعفين [حلية الأولياء، بسند صحيح]. ومما روي في ذلك أنهم كانوا يأخذون بشعر رأسه، فيجذبونه جذباً، ويلوون عنقه بعنف، وأضجعوه مرات عديدة على صخور ملتهبة، ثم وضعوا عليه حجراً حتى لا يستطيع أن يقوم [ابن الجوزي: التلقيح]. وأوقدوا له ناراً، ووضعوه عليها، فما أطفأها إلا ودك ظهره، كما ذكر خباب نفسه، وقد كشف عن ظهره، وأرى أثر ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه [الحلية، بسند حسن بشواهده]، وذكر ـ أيضاً ـ أنهم كانوا يضجعونه على الرَّضَف [الحجارة الممحاة]، ومع ذلك لم ينالوا منه ما أرادوا [الحلية، بسند صحيح].

وله قصة مشهورة مع العاص بن وائل، رواها البخاري ومسلم وغيرهما من حديث خباب نفسه قال: «كنت قيناً بمكة، فعملت للعاص بن وائل السهمي سيفاً، فجئت أتقاضاه، فقال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ﷺ، فقلت: لا أكفر بمحمد ﷺ حتى يميتك الله ثم يحييك، قال: إذا أماتني الله ثم بعثني، ولي مال وولد فسأقضيك، فأنزل الله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٧٧، ٧٨].

وعندما اشتد البلاء بخباب وإخوانه المسلمين المستضعفين، شكوا إلى الرسول ﷺ حالهم. فقد روى البخاري عن خباب قوله: «شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بُردة له في ظل الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ قال: «كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه، فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون».

د ـ عامة الموالي المستضعفين:

منهم حمامة، والدة بلال، وعامر بن فُهَيْرَة، وأم عُبَيْس، وزِنِّيرَة، والنهْدِيَّة، وابنتها، وجارية بني عَدِي، التي كان يعذبها عمر بن الخطاب قبل

أن يسلم [ابن كثير: الفصول]، وجارية بني مُؤَمَّل، وقد أعتقهم أبو بكر جميعاً [ابن إسحاق].

وعندما رأى أبو قحافة ابنه أبا بكر يعتق هؤلاء المستضعفين، قال له: «يا بني، إني أراك تعتق رقاباً ضعافاً، فلو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالاً جُلْدًا يمنعونك، ويقومون دونك؟ فقال أبو بكر: «يا أبت، إني إنما أريد ما أريد لله ﷻ». فأنزلت فيه الآية: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝﴾ إلى قوله ﷻ: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ۝﴾ [الليل: ٥ ـ ٢١]» [الحاكم، من حديث ابن إسحاق].

وقد أصيب بصر زنيرة حين أعتقها أبو بكر، فقالت قريش: «ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى» فقالت: «كذبوا وبيت الله، ما تضران اللات والعزى، وما تنفعان». فرد الله بصرها [ابن إسحاق].

وكان أَفْلَح ـ أبو فُكَيْهَة ـ مولى لبني عبد الدار ـ كانوا يشدونه بالحبل من رجله، ثم يجرونه على الأرض، ليفتنوه عن دينه [الإصابة].

العبر والعظات:

١ ـ ربما يتساءل المرء: فيم هذا العذاب الذي لقيه الرسول ﷺ وأصحابه، وهم على الحق؟ ولماذا لم يعصمهم الله تعالى منه، وهم جنوده، وفيهم رسوله؟ والجواب: أن أول صفة للإنسان في الدنيا أنه مكلف، وأمر بالدعوة إلى الإسلام والجهاد لإعلاء كلمته من أهم متعلقات التكليف، والتكليف من أهم لوازم العبودية لله ـ تعالى ـ وعبودية الإنسان لله ﷻ ضرورة من ضرورات ألوهيته ﷻ، ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فقد استلزمت العبودية ـ إذاً ـ التكليف، واستلزم التكليف تحميل المشاق، ومجاهدة النفس والأهواء، والصمود في وجه الفتن والابتلاءات.

والفتنة والابتلاء هما الميزان الذي يميز الصادق عن الكاذب، وفي ذلك يقول المولى ﷻ: ﴿الم ۝ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝﴾

[العنكبوت: ١ ـ ٣]، ويقول: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وما دام الأمر كذلك فلا ينبغي للمسلم أن يتوهم اليأس إذا ما عانى شيئاً من المشقة والمحنة، بل العكس هو المنسجم مع طبيعة هذا الدين، أي أن على المسلمين أن يستبشروا بالنصر كلما رأوا أنهم يتحملون مزيداً من الضر والنكبات سعياً إلى تحقيق أمر ربهم ﷻ، ويتجلى برهان ذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ ۗ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: ٢١٤] [البوطي: فقه السيرة].

٢ ـ المقرر عند علماء المسلمين أن الأخذ بالعزيمة في ميدان الإكراه أولى من الرخصة، وأن أخذ الأئمة والقادة بالعزيمة هو الأولى والأجمل. ويعتبر الفقهاء الإكراه بمدى قدرة المكره على إيقاع ما هدد به [الموصلي: الاختيار لتعليل المختار].

وإن أخذ عامة المسلمين بالرخصة ليس دليلاً على فساد في العقيدة، بدليل قول الرسول ﷺ لعمار بن ياسر: «إن عادوا فعد»، أي إذا عادوا وطلبوا منك ذكر آلهتهم بخير، فاذكرها، ما دام قلبك مطمئناً بالإيمان [زهير سالم: عثرات].

يقول ابن كثير [في التفسير]، في تعليقه على موقف عمار بن ياسر من التعذيب: «ولهذا اتفق العلماء على أنه يجوز أن يوالي المكره على الكفر، إبقاء لمهجته، ويجوز له أن يستقتل كما كان بلال رضي الله عنه يأبى عليهم ذلك، وهم يفعلون به الأفاعيل، . . . وكذلك حبيب بن زيد الأنصاري، لما قال له مسيلمة الكذاب: «أتشهد أن محمداً رسول؟» فيقول: «نعم» فيقول: «أتشهد أني رسول الله؟» فيقول: «لا أسمع». فلم يزل يقطعه إرباً إرباً، وهو ثابت على ذلك. . . والأفضل والأولى أن يثبت المسلم على دينه، ولو أفضى إلى قتله، كما قال الحافظ ابن عساكر، في ترجمة عبد الله بن حذافة السهمي. . .».

وفي تعليقه على الموقف ذاته قال ابن الجوزي [في تفسيره]: «الإكراه على كلمة الكفر يبيح النطق بها. وفي الإكراه المبيح لذلك عن أحمد روايتان: إحداهما: أنه يخاف على نفسه أو على بعض أعضائه التلف، إن لم

يفعل ما أمر به. والثانية أن التخويف لا يكون إكراهاً حتى ينال بعذاب. وإذا ثبت جواز «التقية»، فالأفضل ألا يفعل...».

ويرى بعض السلف أمثال معاذ بن جبل ﷺ ومجاهد ـ يرحمه الله ـ أن مثل هذه التقية كانت في بدء الإسلام، قبل استحكام الدين وقوة المسلمين، وأما اليوم فقد أعز الله الإسلام، فليس ينبغي لأهل الإسلام أن يتقوا من عدوهم [تفسير البغوي].

إن في مواقف المؤمنين ـ بمختلف قبائلهم ـ وثباتهم على دينهم ورضاهم بجوار ربهم مثلاً عالياً في التوكل على الله ـ تعالى ـ ولن ينسى التاريخ تلك المواقف الإيمانية البطولية لهؤلاء المسلمين الأوائل الذين كانوا قدوة لأصحاب المبادئ في كل زمان ومكان.

إن أعداء الإسلام في كل زمان ومكان لم يكفوا، ولن يكفوا عن استخدام جميع الوسائل والأساليب لإطفاء نور الإسلام، ومحاربة دعاته، وربما تتجدد الأساليب والوسائل، ولكنها لا تخرج في مضمونها عن تلك الأساليب التي مارسها كفار قريش ضد المسلمين المستضعفين بمكة. وسيطول بنا الشرح إذا وقفنا عند كل أسلوب، وذكرنا له أمثلة من واقع حركة الإسلام وسط المجتمعات والشراذم الرافضة لتحكيم شرع الله.

كان من جليل حكمة الله ـ تعالى ـ أن يقوم مشركو قريش بسلسلة من المساومات مع الرسول ﷺ بعد أن صوَّروا في أنفسهم كل ما يمكن أن يظنوه سبباً أو هدفاً وراء دعوته؛ ورفض الرسول ﷺ قبول كل العروض التي قدموها له مقابل أن يتخلى عن دعوته؛ ليثبت للتاريخ أن هدفه شيء واحد، وهو الإسلام، وليقطع الطريق أمام المتشككين في أهداف دعوته ﷺ، أو فهموا فهماً مغايراً لما كشفت عنه تلك اللقاءات بين الرسول ﷺ وبين مساوميه من الكفار، وكانت سيرته ﷺ فيما بعد تأكيداً ودليلاً على أنه لم يكن يطلب شيئاً غير الإسلام [البوطي: السيرة].

الأسلوب الثالث عشر: ملاحقة المسلمين خارج مكة والتحريض عليهم:

عندما هاجر بعض المسلمين إلى النجاشي وأرسلوا خلفهم من حاول اللحاق بهم قبل العبور إلى الحبشة، وعندما استقروا بالحبشة، وكثر عددهم،

أرسلوا في طلبهم، واستخدموا في ذلك الرشوة والحيلة للوقيعة بين المسلمين والنجاشي، ولكنهم فشلوا في ذلك.

وسيأتي بيان ذلك في هجرة المسلمين الأولى والثانية إلى الحبشة وهجرة المدينة.

الأسلوب الرابع عشر: المقاطعة العامة: سيأتي ذكرها في مكانها من هذا الكتاب (مبحث ٢٨).

الأسلوب الخامس عشر: محاولة قتل الرسول ﷺ، والأسلوب السادس عشر: شن الحرب عليه: سيأتي ذكر ذلك من خلال أبحاث وفصول الكتاب.

المبحث الرابع والعشرون
مكان التقاء الرسول ﷺ بالمسلمين

كان الرسول ﷺ يلتقي سراً بالداخلين في الإسلام؛ ليعلمهم ما ينزل به الوحي من تعاليم الدين، وفي السنة الخامسة من ابتداء الدعوة اختار الرسول ﷺ منزل أحد المسلمين، وهو الأرقم بن أبي الأرقم؛ ليلتقي أكبر عدد منهم، وحافظوا على كتمان سرية هذا المكان [البداية]؛ لأن عامة الصحابة كانوا يخفون إسلامهم، ولذا فمن الحكمة اتباع السرية لما فيها من صالح للمسلمين وللإسلام، أما لماذا اختار الرسول ﷺ دار الأرقم بالذات؟ أجاب عن هذا السؤال ـ استنتاجاً ـ المباركفوري، فقال: «لأن الأرقم لم يكن معروفاً بإسلامه، ولأنه من بني مخزوم التي تحمل لواء التنافس والحرب ضد بني هاشم، إذ يستبعد أن يختفي الرسول ﷺ في قلب العدو، ولأنه كان فتى صغيراً عندما أسلم، في حدود الست عشرة سنة، إذ إنه في هذه الحالة تنصرف الأذهان إلى منازل كبار الصحابة».

ويلحظ أن دار الأرقم [هي الدار التي تعرف الآن بدار الخيزران عند الصفا، كما قال الشامي في السبل (٢/ ٤٣٠)] كانت قرب الصفا، وهي منطقة تشتد فيها حركة الناس بصورة طبيعية، مما يصعب معه إدراك وجود حركة خاصة بأناس تجتمع، وتنفض في هذه الدار.

وعندما شك الكفار في وجود مكان يلتقي فيه المسلمون كان كل الذي توصلوا إليه أنه يلتقي بهم في دار عند الصفا [ابن إسحاق].

إن مراعاة السرية والكتمان في حياته ﷺ واضحة في مواقف كثيرة منها هذا الموقف.

المبحث الخامس والعشرون

أ ـ الهجرة الأولى إلى الحبشة:

كانت هجرة المسلمين إلى الحبشة فراراً بدينهم من بلاد الفتنة إلى بلاد الأمان [البخاري].

روى ابن إسحاق [في السير، بسند حسن]، من حديث أم سلمة، قالت: «لما ضاقت علينا مكة، وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ﷺ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه وعمه لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله ﷺ: إن بأرض الحبشة ملكاً لا يظلم عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه، فخرجنا إليها حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، أمنا على ديننا، ولم نخش منه ظلماً...».

روى ابن سعد أنهم خرجوا متسللين سراً، وكانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، حتى انتهوا إلى الشعيبة، منهم الراكب والماشي، ووفق الله تعالى للمسلمين ساعةَ جاؤوا سفينَتين للتجار حملوهم فيها إلى أرض الحبشة بنصف دينار. وكان مخرجهم في رجب من السنة الخامسة من حين نبئ رسول الله ﷺ، وخرجت قريش في آثارهم حتى جاؤوا البحر حيث ركبوا، فلم يدركوا منهم أحداً.

وذكر ابن سعد في رواية ثانية أسماء اثني عشر رجلاً وأربع نسوة، ووافقه في ذلك ابن سيد الناس، وزاد عليه امرأة خامسة، وهي أم كلثوم بنت سهيل بن عمرو، زوجة أبي سبرة. وروى ابن إسحاق [في السيرة والسير] أنهم كانوا عشرة من الرجال وأربع نسوة. إذ إنه لم يذكر فيهم ابن مسعود، وذكر

حاطباً بالشك: «ويقال...». ووافق الذهبي [في السيرة]، ابن إسحاق في عدد الرجال والنساء، ولكنه ذكر أبا سبرة، ولم يذكر أبا حاطب أو حاطباً، ولم يذكر ابن مسعود. وذكر عروة [في مغازيه]، أنهم كانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، وذكر فيهم ابن مسعود، ولم يذكر حاطباً.

وكان ضمن هؤلاء المهاجرين: أبو سلمة بن عبد الأسد، وزوجه أم سلمة بنت أبي أمية، أم المؤمنين فيما بعد، ورواية الحديث الطويل في قصة الهجرة، وعثمان بن مظعون، ومصعب بن عمير، وعثمان بن عفان، وامرأته رقية بنت رسول الله ﷺ.

وقد قال الرسول ﷺ في عثمان ورقية رضي الله عنهما: «إنهما أول بيت هاجر في سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام» [البيهقي: الدلائل].

وعرفت هذه الهجرة بالهجرة الأولى إلى الحبشة، وذكر ابن هشام أنه كان عليهم عثمان بن مظعون.

لم يمكث هؤلاء المهاجرون طويلاً حتى بلغتهم الأخبار بأن أهل مكة قد أسلموا، فلذا قرروا العودة إلى وطنهم مكة في شوال من السنة نفسها.

وعندما اقتربوا من مكة علموا بأن الذي بلغهم كان مجرد إشاعة، وعرفوا أن نار العداوة ما زالت مشتعلة، فرجع منهم من رجع إلى الحبشة، ومن دخل منهم مكة دخلها مستخفياً أو في جوار رجل من قريش [ابن سعد، وابن إسحاق].

ويزعم بعض الناس أن سبب رجوعهم كان لوقوع هدنة حقيقية بين الإسلام والوثنية، أساسها أن محمداً ﷺ تقرب إلى المشركين بمدح أصنامهم والاعتراف بمنزلتها، إذ زعموا أنه قرأ على المشركين سورة النجم حتى وصل قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم ١٩ - ٢٠]، ألقى الشيطان في آذان المشركين قوله: (تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى) فسجد، وسجد كفار مكة. فلما بلغهم ذلك في الحبشة ظنوا أن القوم قد أسلموا لهذه القصة المزعومة.

وممن روى هذه القصة ابن سعد، والطبري [في التفسير]، والبيهقي [في الدلائل]، ولم يروها أحد من أصحاب الكتب الستة، والإمام أحمد، ولا

غيرهم من أصحاب الكتب المعتمدة على التحرير.

وهي باطلة من حيث السند والمتن.

والذي ثبت في الصحيح [البخاري] أن الرسول ﷺ قرأ سورة النجم، في جماعة من المسلمين والمشركين، وخواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب. فلما أخذ صوت الرسول ﷺ يهدر بها، ويرعد بنذرها حتى وصل إلى قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ ﴿٦١﴾﴾، كانت روعة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين، فما تمالكوا أن يخروا لله ساجدين، مع غيرهم من المسلمين، حتى إن الوليد بن المغيرة ـ وكان كبير السن ـ أخذ كفاً من البطحاء، وسجد عليه.

فلما نكسوا على رؤوسهم، وأحسوا أن جلال الإيمان لوى زمامهم، ندموا على ما كان منهم، وأحبوا أن يعتذروا عنه، بأنهم ما سجدوا مع محمد ﷺ إلا لأن محمداً ﷺ عطف على أصنامهم بكلمة تقدير... [الغزالي: فقه السيرة].

ب ـ الهجرة الثانية إلى الحبشة:

عندما عاد بعض من هاجر الهجرة الأولى إلى الحبشة، ووجدوا أن الابتلاء الواقع على المسلمين أصبح أشد مما كان، ولما رأى الرسول ﷺ حالهم، أذن لهم بالهجرة مرة ثانية، وكانوا هذه المرة نيفاً وثمانين رجلاً وتسع عشرة امرأة. [ابن إسحاق] وقيل غير ذلك.

فقد روى الإمام أحمد [في المسند، بسند حسن] أن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي، ونحن نحو من ثمانين رجلاً، فيهم جعفر، وعبد الله بن عرفطة، وعثمان بن مظعون، وأبو موسى،...» ولم يذكر عدد النساء. وذكر ابن سعد أن عدد الرجال ثلاثة وثمانون رجلاً، وعدد النساء إحدى عشرة امرأة قرشية، وسبع غرائب. وذكر ابن إسحاق [في السيرة] أنهم كانوا نيفاً وثمانين رجلاً، وذكر أسماء ست عشرة امرأة، وذكر في السيرة

أنهم كانوا ثلاثة وثمانين رجلاً، وإذا اعتبرنا من ولدت ريطة بنت الحارث، فيكون عدد النساء عنده عشرين امرأة، وقد ذكر ابن القيم [في الزاد، من حديث ابن إسحاق] أنهن تسع عشرة امرأة، والله أعلم. ويبدو أن الاختلاف في عدد النساء يرجع إلى أن البعض يعد فيهن بعض الفتيات الصغيرات.

ويشهد بقبول ما جاء عند أهل المغازي والسير في عدد المهاجرين هذه المرة رواية أحمد المذكورة من حديث ابن مسعود.

جـ ـ قريش تسعى لإعادة المهاجرين:

روى ابن إسحاق [في السيرة والسير، بسند حسن]، من حديث أم سلمة رضي الله عنها في هجرة الحبشة، أنها قالت: «لما نزلنا أرض الحبشة جَاوَرْنا بها خَيْرَ جَارٍ النجاشيّ، أمِنَّا على ديننا، وَعَبْدنا الله ـ تعالى ـ لا نُؤذَى، ولا نسمع شيئاً نكرهه. فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جَلْدَين، وأن يُهْدُوا للنجاشي هدايا مما يُستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب ما يأتيه منها الأَدَمُ [الجلود]، فجمعوا له أَدَماً كثيراً، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أهدوا له هدية. ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة [أحمد: المسند، بسند حسن] وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم. فخرجا حتى قدما على النجاشي... فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلِّما النجاشي، وقالا لكل بطريق منهم: إنه قد ضَوَى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم...».

وفي الحديث أن الوفد اتفق مع البطارقة أن يشيروا على النجاشي بأن يسلمهم إليهم ولا يكلمهم. ولكن النجاشي عندما أشير إليه بذلك رأى أن يدعو المسلمين، ويستمع بنفسه إلى ما يقولونه.

وعندما حضروا أمامه تكلم نيابة عنهم جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، فأوضح للنجاشي حقيقة الدين الذي جاءه به محمد ﷺ، وموقف قومهم منه.

وعندما طلب النجاشي شيئاً مما جاء به ﷺ قرأ عليه جعفر صدر سورة مريم، فبكى النجاشي حتى ابتلت لحيته، وبكى أساقفته حتى ابتلت كتبهم التي يحملونها.

ثم قال النجاشي مخاطباً سفيري قريش: «إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، والله لا أسلمهم إليكما أبداً».

وعندما خرجا، قال عمرو لعبد الله: «والله لآتينه غداً بما يبيد خضراءهم».

فلما كان الغد جاء عمرو إلى النجاشي، وقال له: «إن هؤلاء يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً». فأرسل النجاشي إليهم، وعندما جاؤوه سألهم عن قولهم في المسيح، فقال جعفر: «نقول فيه الذي جاءنا به نبينا، هو عبد الله ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول».

فأخذ النجاشي عوداً من الأرض، وقال لجعفر: «ما عدا عيسى ما قلت قدر هذا العود»، ولم يأبه لامتعاض بطارقته، فأعطى المسلمين الأمان في بلاده، ورد هدية قريش [ابن إسحاق، حديث أم سلمة].

أخفقت سفارة قريش في مهمتها، ولم تجد قريش أمامها غير التشفي ممن هم تحت أيديها.

أما الإسلام فقد كسب إلى جانبه النجاشي، وعمرو بن العاص، كما سيأتي ذكره.

ومكث المسلمون ما شاء الله لهم، فعاد من عاد منهم بعد هجرة المسلمين إلى المدينة قبل وقعة بدر، وهم ثلاثة وثلاثون رجلاً وثماني نسوة [البخاري وغيره]، وعاد الباقون مع جعفر عندما فرغ الرسول ﷺ من فتح خيبر في العام السابع الهجري [البخاري وغيره].

د ـ حكم وعظات وعبر من هذا المقطع:

١ ـ أن في هجرة بعض المسلمين إلى الحبشة دليلاً على مشروعية الهجرة، وهي الانتقال من بلد الكفر حيث يتعذر على العبد أن يعبد الله، إلى

دار يتمكن فيها من عبادة الله بدون فتنة. وسيأتي تفصيل ذلك عند الكلام عن هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة.

٢ ـ أن من أسس ودعامات الدين التضحية بالمال والوطن والنفس في سبيله؛ لأن الدين إذا فقد لم يغن من ورائه المال والوطن والنفس، بل سرعان ما يذهب كل ذلك أيضاً من ورائه، أما إذا قوي شأنه، وقامت في المجتمع دعائمه، ورسخت في الأفئدة عقيدته، فإن كل ما كان قد ذهب في سبيله من مال وأرض ووطن يعود أقوى من ذي قبل، حيث يحرسه سياج من الكرامة والقوة والبصيرة؛ ولذا كانت الهجرة نفسها ضرباً من ضروب العذاب والألم في سبيل الدين وتضحية بالوطن والمال، وتبديل محنة بالمحنة الأقسى أقل قسوة ريثما يأتي الفرج والنصر.

٣ ـ يجوز للمسلمين أن يدخلوا في حماية غير المسلمين، إذا دعت الحاجة إلى ذلك، سواء أكان المجير من أهل الكتاب كالنجاشي النصراني، الذي أسلم بعد ذلك، أم كان مشركاً كأولئك الذين عاد المسلمون إلى مكة في حمايتهم، وكأبي طالب الذي حمى الرسول ﷺ، والمطعم بن عدي الذي حمى النبي ﷺ عندما عاد من الطائف [البوطي].

٤ ـ إن في ارتداد عبيد الله بن جحش عظة لمن يتعظ، وعبرة لمن يعتبر. فقد استكبر على المسلمين؛ لأنه كان أولاً من الحنفاء، ثم أسلم، وهاجر مع زوجه أم حبيبة رضي الله عنها إلى الحبشة، ثم ارتد إلى النصرانية، وكان يقول للمسلمين: «فَتَّحْنَا وَصَأْصَأْتُم»، أي قد أبصرنا، وأنتم تلتمسون البصر، ولم تُبصِروا بعد. وذلك أن ولد الكلب إذا أراد أن يفتح عينيه للنظر صأصأ قبل ذلك، فضرب ذلك له ولهم مثلاً [ابن هشام، بسند ضعيف].

المبحث السادس والعشرون: إسلام النجاشي

ذكر ابن إسحاق [في السيرة بسند صحيح] في رواية له أن النجاشي لما مات كان يتحدث أنه لا يزال يرى على قبره نور. ويفهم من هذه الرواية الصحيحة أنه قد أسلم.

وذكر في رواية أخرى أن قومه خرجوا عليه؛ لأنه أسلم، وقبل أن

يخوض حرباً ضدهم هيأ للمسلمين سفناً ليركبوها إذا انهزم، وكتب كتاباً يشهد فيه بإسلامه. . وبلغ ذلك النبي ﷺ. فلما مات النجاشي استغفر له [البخاري ومسلم].

وهذا الذي ذكره ابن إسحاق موافق في جوهره لما في الصحيحين فيما يتعلق بإسلام النجاشي. فقد روى البخاري ومسلم أن الرسول ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، في العام التاسع الهجري، وصلى بالمسلمين صلاة الغائب عليه. وروى البخاري ومسلم ـ أيضاً ـ أن الرسول ﷺ قال: «قد توفي اليوم رجل صالح من الحبش، فهلُمَّ فصلوا عليه»، وهذا لفظ البخاري.

وهذا النوع من النعي هو الجائز؛ لأنه لمجرد الإخبار ليدعو له إخوته في الله. أما النعي للمفاخرة والمكاثرة فمكروه، والنعي بصفات الميت فحرام (انظر موطأ مالك في تبويب هذه المسألة).

وفي رواية لمسلم، قال الرسول ﷺ: «إن أخاً لكم قد مات فقوموا فصلوا عليه. . .». وهذا الحديث صريح في أنه مات على الإسلام، واسمه أصحمة [مسلم برقم ٩٥٢].

ويفهم من عموم النصوص الواردة عن إسلام النجاشي في المصادر المختلفة أنه جهر بإسلامه أمام الصحابة ﷺ وبمحضر من أساقفته، ولم يقبل البطارقة والأساقفة هذا التحول، فغضبوا منه وألَّبوا عليه الناس، وقامت ضده ثورة، ولكن الله نصره عليهم، ولم تتوقف الحرب إلا بعد أن خدعهم تقية، **«والحرب خدعة»** كما صح عن الرسول ﷺ: «وذلك أنه عمد إلى كتاب كتب فيه إقراره بالتوحيد ونبوة محمد ﷺ ويشهد أن عيسى عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم، ثم جعله في قبائه [ثوب يلبس فوق الثياب أو القميص ويتمنطق عليه] عند المنكب الأيمن، وخرج إلى الحبشة، وصفُّوا له، فقال: يا معشر الحبشة، ألست أحق الناس بكم؟ قالوا: بلى، قال: فكيف رأيتم سيرتي فيكم؟ قالوا: خير سيرة، قال: فما بكم؟ قالوا: فارقت ديننا!!! وزعمت أن عيسى عبده ورسوله، قال: فما تقولون أنتم في عيسى؟ قالوا: نقول هو ابن الله، فقال النجاشي: ووضع يده على صدره على قبائه: وهو

يشهد أن عيسى بن مريم لم يزد على هذا، وإنما يعني على ما كتب، فرضوا، وانصرفوا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فلما مات النجاشي صلى عليه، واستغفر له» [البخاري وغيره].

المبحث السابع والعشرون
إسلام حمزة وعمر بن الخطاب

أ ـ إسلام حمزة:

لم يقف اضطهادُ المشركين للمسلمين دخولَ صناديد قريش في الإسلام. ففي هذا الجو المشحون بالأحقاد على المسلمين عامة، والرسول ﷺ خاصة، شاء الله ـ تعالى ـ أن يكون حقد أبي جهل على الرسول ﷺ سبباً في إسلام حمزة عم الرسول ﷺ وأحد أشداء قريش. فقد روى ابن إسحاق [في السيرة] وابن سعد أن أَمَةً لعبد الله بن جدعان أخبرت حمزة أن أبا جهل قد أساء إلى ابن أخيه محمد ﷺ إساءات بذيئة، فلم يتردد في المجيء إلى أبي جهل، وهو في مجلسه من قومه، فضربه بالقوس على رأسه فشجه شجة منكرة، وقال له: «أتشتمه، وأنا على دينه؟»... فكانت تلك بداية انشراح صدر حمزة للإسلام.

وعندما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع، وأن حمزة سيمنع عنه الأذى، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه [ابن إسحاق: السيرة].

وكان إسلام حمزة بعد دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم في السنة السادسة من النبوة [ابن سعد].

ب ـ إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

لقد كان عمر من ألد خصوم الإسلام، وكان معروفاً بحدة الطبع وقوة الشكيمة، وكثيراً ما لقي بعض المسلمين منه صنوفاً من الأذى والتنكيل.

قال سعيد بن زيد، قريبه وزوج أخته [من رواية أحمد في الفضائل، بسند

صحيح]: «والله لقد رأيتني وإن عمر لموثقي وأخته على الإسلام قبل أن يسلم...». وفي رواية: «لو رأيتني موثقي عمر على الإسلام أنا وأخته وما أسلم...» [البخاري].

وروى ابن إسحاق [في السيرة والسير، بسند حسن] أن ليلى ـ أم عبد الله ـ زوجة عامر بن ربيعة، قالت: «والله إنا لنرتحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر لبعض حاجته، إذ أقبل عمر ـ وهو على شركه ـ حتى وقف عليَّ، وكنا نلقى منه البلاء، فقال: أتنطلقون يا أم عبد الله؟ قالت: نعم، والله لنخرجن في أرض الله، فقد آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا مخرجاً. قالت: لو رأيت عمر ورقته وحزنه علينا... قال: أطمعت في إسلامه؟ قلت: نعم. فقال: لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب»، وذلك لما كان يراه عامر من شدة عمر وغلظته على المسلمين.

وفي هذا الخبر دليل على نوازع الفطرة السليمة التي كانت تصطرع في نفسه مع غشاوات الجاهلية، إلى أن حانت ساعة جلاء هذه الغشاوة عن فطرته السليمة، فدخل في الإسلام، وتحولت شدته من شدة في الباطل إلى شدة في الحق.

وعندما شرح الله صدره للإسلام قال: «أي قريش أَنْقَلُ للحديث؟» فقيل له: جَمِيل بن مَعْمَر الجُمَحِيّ، فجاءه عمر فأخبره بإسلامه. فأسرع جميل إلى الكعبة، وصرخ في القوم بأعلى صوته، قائلاً: «ألا إن عمر صبأ»، وعمر خلفه يقول: «كذب، ولكن قد أسلمت...» ودخلوا معه في عراك طويل حتى أنقذه الله منهم بالعاص بن وائل السهمي [أحمد: الفضائل؛ ابن إسحاق: السيرة والسير، بسند حسن].

أما القصة المشهورة في سبب إسلامه والتي تقول: إنه كان في طريقه إلى محمد ﷺ لينال منه، فلقيه رجل علم منه ما يريد، فتعجب منه؛ لأنه لا يعلم بإسلام أخته وزوجها. فغضب عمر وذهب إلى أخته وزوجها، ووجد معهما خبَّاباً... فضربها حتى سال الدم منها، ثم وجد معهم آيات من سورة طه، فقرأها بعد أن أمرته أخته بالاغتسال إذا أراد مسَّها... ثم أسلم، وذهب إلى الرسول ﷺ ليعلن إسلامه... ورد جوار خاله العاصي؛ ليَضرب ويُضرب

كما هو حال المستضعفين من المسلمين إلى أن أعز الله الإسلام... هذه القصة لم ترد بإسناد صحيح مقبول عند المحدثين، وإن كان بعض أجزائها قد ورد بأسانيد حسنة. فقد ضعَّفها وصي الله [حاشية الفضائل لأحمد]، وهمام، وأبو صعيليك، [حاشية سيرة ابن هشام] وغيرهم.

لقد كان إسلام عمر استجابة من الله ـ تعالى ـ لدعاء النبي ﷺ الذي كان يدعو به، وهو: «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب» [أحمد: المسند، بسند حسن].

فقد أعز الله الإسلام بعمر بن الخطاب. وفي هذا روى البخاري عن ابن مسعود أنه قال: «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر بن الخطاب».

ورويت آثار كثيرة في إعزازه الإسلام، دلت على جهده الكبير في نصرة الإسلام، من ذلك:

روى ابن إسحاق [في السيرة] عن عمر ﷺ، قال: «لما أسلمت تذكرت أي أهل مكة أشد لرسول الله ﷺ عداوة، قال: قلت: أبو جهل، فأتيت حتى ضربت عليه بابه، فخرج إليَّ، وقال: أهلاً وسهلاً، ما جاء بك؟ قال: جئت لأخبرك أني قد آمنت بالله وبرسوله محمد ﷺ، وصدقت بما جاء به. قال: فضرب الباب في وجهي، وقال: قبحك الله، وقبح ما جئت به».

وروى ابن مسعود قال: «إن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه» [ابن إسحاق: السيرة].

وروي عن صهيب الرومي أنه قال: «لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودعا إليه علانية، وجلسنا حول البيت حلقاً، وطفنا بالبيت، وانتصفنا ممن غلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتي به» [ابن سعد].

وروي عن ابن عباس أنه قال: «لما أسلم عمر قال المشركون: قد انتصف القوم منا» [أحمد: فضائل الصحابة].

وروى ابن سعد من حديث محمد بن عبيد: «لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا نصلي».

وروي أن رسول الله ﷺ سماه الفاروق، أي الذي فرق بين الحق والباطل. [الذهبي: السيرة؛ ابن سعد].

ومع أن هذه الآثار لا تقبل بميزان المحدثين فإنه لا بأس من الاستئناس بها فيما لا يترتب عليه حكم شرعي، أو لا يمس العقيدة.

ومما لا خلاف فيه أن إسلام عمر كان إعزازاً للإسلام، لقول الرسول ﷺ: «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك: بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب».

جـ ـ عظات وعبر وحكم من هذا المقطع:

١ ـ أن الرجال ذوي القوة والشكيمة في المجتمع الجاهلي يمكن أن يكونوا سنداً قوياً للدعوة الإسلامية إذا أسلموا. . . ولذا كان الرسول ﷺ حريصاً على إسلام رجال أمثال أبي جهل وعمر بن الخطاب، وقال: إن خيار الناس في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا [البخاري]. . . فليحرص الدعاة دائماً على عدم إهمال دعوة الشخصيات القوية والمؤثرة في مجتمعاتها؛ لأن إسلام هذه الشخصيات سوف يزيل الكثير من التردد الذي يقع فيه من يأتمرون بأمرهم، أو يقتدون بهم، كما هو واقع في كل زمان ومكان، وكما حكى عن ذلك القرآن، في مخاطبة الكفار الذين أضلهم الزعماء والسادة والكبراء: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الأحزاب]. ولا تقتصر الدعوة على زعماء المشركين وآحادهم، بل لا بد أن تتعدى إلى الزعامات المنحرفة عن الإسلام والتي تقود شعوبها أو أحزابها إلى غير طريق الإسلام في مجالات الحياة المختلفة.

٢ ـ أن في نهوض الرسول ﷺ للقاء عمر بن الخطاب عندما جاء إلى المسلمين في دار الأرقم، وأخذه بِحُجْزَتِهِ [أي معقد السراويل والإزار] أو بمجمع ردائه، ثم جبذه جبذة شديدة، ثم تهديده، إن في هذا مثالاً عالياً للشجاعة في موطن الشدة. وهو ما ستلمسه يتكرر في مواطن أخرى كثيرة، مثل موقفه يوم أحد ويوم حنين.

المبحث الثامن والعشرون

أ ـ المقاطعة العامة:

لما رأت قريش أن عدد الداخلين في الإسلام ازداد، وأن وسائلها وأساليبها السابقة في محاربتهم وقمعهم لم تُجد شيئاً، خاصة بعد إسلام حمزة وعمر، أعادت النظر في تلك الأساليب والوسائل، ثم اتخذت أسلوباً آخر، أقسى وأشمل من الأساليب السابقة، وهو أسلوب المقاطعة العامة.

قال ابن إسحاق [في السيرة والسير] وموسى بن عقبة [كما في دلائل البيهقي] وعروة بن الزبير [في مغازيه] وابن سعد وغيرهم من أصحاب المغازي: إنه لما رأت قريش أن الصحابة قد نزلوا أرضاً أصابوا بها أمناً، وأن عمر وحمزة أسلما، وأن الإسلام فشا في القبائل، أجمعوا على أن يقتلوا رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك أبا طالب، فجمع بني هاشم وبني المطلب، فأدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم [الشِّعْب: الطريق في الجبل، ومسيل الماء في بطن الأرض، وكان مكان سكنى بني هاشم، وأصله لعبد المطلب] ومنعوه ممن أراد قتله، فأجابوه إلى ذلك، حتى كفارهم فعلوا ذلك حمية على عادة الجاهلية. فلما رأت قريش ذلك اجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب، على أن لا يعاملوهم، ولا يناكحوهم حتى يسلموا إليهم رسول الله ﷺ. ففعلوا ذلك، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة. فانحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب، فكانوا معه كلهم إلا أبا لهب، فكان مع قريش. وقيل: كان ابتداء حصرهم في المحرم سنة سبع من المبعث، فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً. وجزم موسى بن عقبة [كما نقله عنه الذهبي في السيرة، وابن حجر في الفتح] بأنها كانت ثلاث سنين، حتى جهدوا، ولم يكن يأتيهم شيء من الأقوات إلا خفية، حتى كانوا يؤذون من اطلعوا على أنه أرسل إلى بعض أقاربه شيئاً من الصلات، إلى أن قام في نقض الصحيفة نفر من أشدهم في ذلك ضيقاً، وهم: هشام بن عمرو بن الحارث، وزهير بن أبي أمية، والمُطْعِم بن عَدَي، وزَمْعَة بن الأسود، وأبو البَخْتَرِيّ بن هشام بن الحارث، وكانت تربطهم ببني هاشم والمطلب صلات الأرحام.

روى ابن أبي شيبة [في مغازيه]: «نادى منادي رسول الله ﷺ يوم بدر: ليس لأحد من القوم ـ يعني أماناً ـ إلا أبا البختري، فمن كان أسره فليخل سبيله؛ فإن رسول الله ﷺ قد أمَّنه، فوجدوه قد قتل». قلت: وذلك للمعروف الذي أداه إلى المسلمين حين سعى مع غيره لنقض صحيفة المقاطعة الجائرة.

وذكر ابن هشام أنهم وجدوا الأَرَضة قد أكلت جميع ما فيها إلا اسم الله تعالى. وأما ابن إسحاق [في السيرة] وموسى بن عقبة [كما ذكر ابن حجر في الفتح] وعروة [في مغازيه] فذكروا عكس ذلك، قالوا: إن الأرضة لم تدع اسماً لله إلا أكلته، وبقي ما بها من الظلم والقطيعة. والمعنى المقصود عندهم جميعاً واحد، وهو أنهم أرادوا أن يقولوا: إن اسم الله ـ تعالى ـ لا يجتمع مع عبارات الظلم والقطيعة.

قال السهيلي: «وفي الصحيح: أنهم جهدوا حتى كانوا يأكلون الخَبَط [الخبط: ورق العضاه من شجر الطلح والسلم ونحوه، يخبط بالعصا فيتساقط. وكانت تعلفه الإبل] وورق السَّمُرِ، حتى إن أحدهم ليضع كما تضع الشاة، وكان فيهم سعد بن أبي وقاص، روي أنه قال: لقد جعت حتى إني وطئت ذات ليلة على شيء رطب فوضعته في فمي، وما أدري ما هو إلى الآن».

وفي رواية يونس بن بكير [ابن إسحاق في السير] أن سعداً قال: «لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ بمكة، فخرجت من الليل أبول، فإذا أنا أسمع قعقعة شيء تحت بولي، فنظرت فإذا قطعة جلد بعير، فأخذتها فغسلتها، ثم أحرقتها، فرضضتها بين حجرين، ثم استففتها، فشربت عليها الماء، فقويت عليها ثلاثاً».

وكانوا إذا قدمت العير مكة يأتي أحدهم السوق؛ ليشتري شيئاً من الطعام لعياله، فيقوم أبو لهب ـ عدو الله ـ فيقول: «يا معشر التجار: غالوا على أصحاب محمد، حتى لا يدركوا معكم شيئاً، فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي، فأنا ضامن أن لا خسار عليكم»، فيزيدون عليهم في السلعة أضعافاً حتى يرجع إلى أطفاله، وهم يتضاغون من الجوع، وليس في يديه شيء يطعمهم به، ويغدو التجار على أبي لهب، فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس، حتى جهد المؤمنون ومن معهم جوعاً وعرياً... وهلك من

المحاصرين من هلك، كما قال ابن عباس [أبو نعيم: الدلائل].

ومع هذه المقاطعة وما جرى للمسلمين وراءها من معاناة فإن الرسول ﷺ لم يتوقف عن الدعوة، فقد كان يخرج في المواسم، ويلتقي القادمين على مكة، ويعرض عليهم الإسلام، ويعرض ذلك على كل من يتصل به من قومه [ابن هشام].

ولما أفسد الله الصحيفة خرج رسول الله ﷺ ورهطه وصحابته وخالطوا الناس [عروة: المغازي؛ الذهبي: السيرة، من حديث ابن عقبة].

ب ـ عظات وعبر من هذا المقطع:

إضافة إلى ما ذكرته عند الكلام عن العظات والعبر المستفادة من أساليب المشركين فإنني أضيف إلى ذلك هنا:

١ ـ لا يخلو زمان ولا مكان من أهل المروءة، وعلى الدعاة أن يسعوا دائماً إلى الاهتمام بمن يتوسم فيهم هذه الخصلة للاستفادة منهم في أوقات الشدائد والمحن.

٢ ـ أن أعداء الله في كل زمان ومكان يلجؤون إلى استخدام سلاح محاربة الدعاة في أرزاقهم؛ ليستكينوا ويرجعوا عما يدعون إليه، وهو أسلوب يتفق عليه المشركون والمنافقون. ولو كان المسلمون الأوائل موظفين أو مستخدمين في دولة تخالفهم فيما يدعون إليه للجأت تلك الدولة إلى فصلهم من أعمالهم كوسيلة من وسائل الحرب التي تتخذها ضدهم.

ولكن الوسيلة المتاحة في ذلك الوقت في هذا الميدان كانت المقاطعة بتلك الكيفية التي وقفنا عليها. وعلى الدعاة أن يعوا هذه الحقيقة بأبعادها المختلفة.

٣ ـ أن ما أصاب الرسول ﷺ من ابتلاءات عزاء لكل مؤمن فيما يصيبه في هذه الحياة من بلاء ومصائب.

٤ ـ لا تكاد تخلو جاهلية من الجاهليات القديمة أو الحديثة من قيم يمكن الاستفادة منها، فقد ضحى بنو هاشم تضحيات كبيرة في سبيل قيمهم الجاهلية الخاصة بحماية القريب، واستفاد الإسلام من هذه التضحيات. وإذا

وجدت قيم في مجتمعاتنا المعاصرة، مثل قوانين حقوق الإنسان أو اللجوء السياسي أو الحرية الفكرية، فلا ضير في الاستفادة منها كما استفاد المسلمون الأوائل من مؤازرة بني هاشم لهم في حصار الشعب.

المبحث التاسع والعشرون

أ ـ وفاة أبي طالب:

مات أبو طالب سنة عشر من المبعث، بعد الخروج من الشعب بزمن يسير [كما روي ابن سعد]. وقيل: توفي في رمضان، قبل خديجة رضي الله عنها بثلاثة أيام [كما روى الحاكم، والبلاذري]، وقبل الهجرة بثلاث سنين، [كما روى ابن إسحاق في السيرة، وابن سعد]. وقيل: كان بين وفاته ووفاة خديجة شهر وخمسة أيام، [كما روى ابن سعد].

وقد ثبت في الصحيح أنه مات كافراً مع حمايته للرسول ﷺ طوال حياته. فقد روى البخاري ومسلم عن ابن المسيب أن الرسول ﷺ دخل على أبي طالب عندما حضرته الوفاة، فوجد عنده أبا جهل، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال له النبي ﷺ: «يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله» فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: «يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟». فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه، ويعيد له تلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ: «أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١١٣] الآيتين، ونزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦].

وروى مسلم ـ أيضاً ـ بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ لعمّه: «قل: لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة»، قال: «لولا أن تعيرني قريش، يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك». فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

وروى مسلم وعبد بن حميد [في المنتخب] وأحمد [في المسند]، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أهون أهل النار عذاباً أبو

طالب، وفي رجليه نعلان من نار يغلي منهما دماغه». واللفظ لابن حميد. ومن ألفاظ مسلم: «... وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه»، وفي رواية له: «... وهو منتعل نعلين من نار يغلي منهما دماغه».

أما الروايات التي تدل على أن أبا طالب قد نطق بكلمة الإسلام عند موته فلم يصح منها شيء. وما في الصحيح صريح على وفاته كافراً، فلا يعارض [ابن حجر: الفتح؛ والإصابة؛ والذهبي: السيرة].

ب ـ الحكمة من وفاة أبي طالب قبل قيام الدولة الإسلامية:

١ ـ سبق القول إن موت أبي طالب كافراً كان لحكمة يعلمها الله تعالى.

٢ ـ لقد شاء الله ﷻ أن لا يسلم أبو طالب، ويموت قبل الهجرة بنحو ثلاث سنوات، حتى لا يتوهم أحد أن له مدخلاً في دعوة الرسول ﷺ، أو يظن أن المسألة قبيلة أو أسرة وزعامة ومنصب [البوطي]. وربما هناك حكم يعلمها الله، ولم نتوصل إليها.

فائدة:

يروى أن أبا لهب حمى الرسول ﷺ بعد وفاة عمه أبي طالب، ونال من أبي الغَيْطَلة عندما سب رسول الله ﷺ، واحتالت قريش عليه ليرفع حمايته عن الرسول ﷺ فأرسلت عقبة بن أبي معيط وأبا جهل إلى أبي لهب ليسأل الرسول ﷺ عن عبد المطلب، فقال له الرسول ﷺ: «مع قومه»، فخرج إليهما أبو لهب، وقال: «قد سألته، فقال: مع قومه، فقالا: يزعم أنه في النار، فقال: يا محمد! أيدخل عبد المطلب النار؟ فقال رسول الله ﷺ: «ومن مات على ما مات عليه عبد المطلب دخل النار، فقال أبو لهب: والله لا برحت لك إلا عدواً أبداً، وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار»، واشتد عند ذلك أبو لهب وسائر قريش عليه [البداية].

انظر كيف كان عليه السلام صريحاً لا يجامل، ولا يميّع قضية الإسلام، مهما كانت النتائج.

المبحث الثلاثون: وفاة خديجة

تباينت الروايات حول تاريخ وفاتها، فقيل: بعد وفاة أبي طالب بنحو شهرين، أو شهر وخمسة أيام، أو بثلاثة أيام، وقيل غير ذلك. وقيل: إن ذلك كان في رمضان من السنة العاشرة من المبعث قبل الهجرة بنحو ثلاث سنين، وهو المشهور [قلعهجي: حاشية دلائل البيهقي].

وعندما مات أبو طالب وخديجة في عام واحد، وبينهما مدة يسيرة، تتابعت المصائب. فقد كان أبو طالب درعاً حصيناً للنبي ﷺ، وكانت خديجة وزيرة صدق على الإسلام، يسكن إليها عند الشدائد [كما روى ابن إسحاق في السيرة والسير]. وقد وردت آثار كثيرة تدل على فضلها ومكانتها عند الله ورسوله [أحمد: فضائل الصحابة].

ومما يروى في ذلك أنه لما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ وأصابه من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياته، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه تراباً [ابن إسحاق: السيرة]، ودخل على بيته وعلى رأسه التراب، فغسلته عنه إحدى بناته، وهي تبكي، والرسول ﷺ يقول لها: «لا تبكي يا بنية، فإن الله مانع أباك»، ويقول بين ذلك: «ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب» [ابن هشام بسند مرسل حسن]. وقد سبق القول إلى أنهم تجرؤوا على وضع سلا الجزور بين كتفيه، وهو ساجد.

ولتوالي مثل هذه الآلام في هذا العام، فقد سماه بعض المؤرخين عام الحزن، ولم يرو أن النبي ﷺ سماه بهذا الاسم، كما ذكر السيوطي وغيره [الألباني: دفاع].

ونميل إلى أن سبب حزنه ـ أيضاً ـ هو لشدة ما كابد في هذا العام من الشدائد في سبيل الدعوة، وتضييق قريش الخناق عليه في محاولة منهم لإغلاق أبواب الدعوة في وجهه.

المبحث الحادي والثلاثون: زواجه من سودة رضي الله عنها

ومع المحن والشدائد التي كان يعيشها الرسول ﷺ في هذه الفترة إلا أنه لم يألُ جهداً في مواساة أصحابه في مصائبهم.

ففي شوال من السنة العاشرة لمبعثه تزوج سودة بنت زمعة. لقد كانت سودة من أوائل المسلمين، وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة مع زوجها السكران بن عمرو، فتوفي عنها، وتقديراً لها تزوجها الرسول ﷺ. وسيأتي ذكر حكمة هذا الزواج عند الكلام عن أمهات المؤمنين.

المبحث الثاني والثلاثون

أ ـ هجرته ﷺ إلى الطائف:

لما مات أبو طالب، ونالت قريش من رسول الله ﷺ ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب، خرج رسول الله ﷺ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف، والمنعة بهم من قومه، ورجاء أن يقبلوا منه الإسلام [أحمد: المسند، بسند جيد؛ ابن هشام].

روى ابن حبيب في المحبر أنه خرج إلى الطائف بعد موت خديجة بثلاثة أشهر وثمانية أيام. وعند مغلطاي بثلاثة أشهر، في ليالٍ بقين من شوال سنة عشر من البعثة، ومعه زيد بن حارثة، كما روى ابن سعد.

وروى ابن إسحاق [في السيرة] أن الرسول ﷺ عندما ذهب إلى الطائف التقى سادة ثقيف يومذاك، أبناء عمرو بن عُمَيْر الثلاثة: عَبْدُ يالَيْل ومسعود وحبيب، وعرض عليهم الإسلام، فلم يقبلوه منه، وسخروا منه، وعندما يئس من خير في ثقيف طلب منهم أن يكتموا عنه ما دار بينهم حتى لا يثيروا عليه الناس، ولكنهم لم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، فأخذوا في سبّه والصياح به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجؤوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من كان يتبعه من سفهاء ثقيف، وجلس في ظل شجرة عنب، وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفهاء الطائف.

فلما اطمأن في جلوسه، قال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تَكِلُنِي؟ إلى بعيد يَتَجَهَّمُنِي؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وَصَلَحَ عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن

تُنْزِلَ بِي غَضَبك، أو يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ، لك العُتْبَىٰ حتى ترضى، ولا حول ولا قوةَ إلا بك».

وعندما رآه ابنا ربيعة على هذه الحال تحركت فيهما عاطفة الرحم، فأمرا غلاماً نصرانياً يدعى عَدَّاساً أن يقدم له عنباً. وتعجب عداس من قول الرسول ﷺ: «بسم الله» قبل أن يأكل، وزال عجبه عندما أعلمه الرسول ﷺ بأنه نبي، فأخذ يقبل رأس النبي ﷺ ويديه وقدميه، وحاول ابنا ربيعة أن يصداه عن النبي ﷺ قائلين له: «لا يصرفنك عن دينك؛ فإن دينك خير من دينه».

وفي رواية موسى بن عقبة [في دلائل البيهقي]، أن سفهاء الطائف قعدوا للرسول ﷺ صفَّين على طريقه، فلما مرَّ بين صفَّيهم جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة، وكانوا أعدُّوها، حتى أدموا رجليه. وكان ذلك من أشد ما لقي الرسول ﷺ في جهاده.

وعندما لاقى الرسول ﷺ ما لاقى من الابتلاء والشدة في الطائف عاد إلى مكة مهموماً. وعندما بلغ قرن الثعالب ـ قرن المنازل ـ بعث الله إليه جبريل، ومعه ملك الجبال، وجعله رهن إشارته، إذا أراد أن يطبق الأَخْشَبَيْنِ على أهل الطائف، وكان ذلك دعماً معنوياً كبيراً له. [والأخشبان جبلا مكة: أبو قُبَيْسٍ والذي يقابله، وهو قُعيقعان، وقيل: الأحمر وجبلا منى].

وكانت إقامته بالطائف عشرة أيام، كما روى ابن سعد. وذكر مغلطاي أن إقامته كانت شهراً.

وروى البخاري ومسلم في هذا أن عائشة ﵂ سألت رسول الله ﷺ: «هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد؟» قال: «لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلَال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت ـ وأنا مهموم ـ على وجهي، فلم أَسْتَفِق إلا وأنا بِقَرْنِ الثَّعَالِب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا بجبريل، فناداني، فقال: «إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك. وقد بعث الله إليك مَلَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم». فناداني ملك الجبال، فسلم علي، ثم قال: «يا محمد، إن شئت أن أطبق

عليهم الأخشبين»، فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً».

وجاءه دعم معنوي آخر قبل أن يصل إلى مكة، ألا وهو إيمان بعض الجن برسالته. ففي وادي نخلة، قرب مكة، أقام الرسول ﷺ أياماً. وخلال هذه الإقامة بعث الله إليه نفراً من الجن، استمعوا إلى القرآن، فآمنوا به. وقد ذكر الله ذلك في سورتي الأحقاف والجن: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣١].

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ ...﴾ [الجن: ١، ١٥].

وقد ثبت خبر قدوم الجن على الرسول ﷺ في [الصحيحين] أيضاً. وذكر ابن حجر ـ في الفتح ـ أدلة تؤيد ما ذهب إليه ابن إسحاق ـ في السيرة ـ وابن سعد، من أن ذلك كان عندما رجع الرسول ﷺ من الطائف.

لقد شد الله أزر نبيه بهاتين الحادثتين، فقام نشطاً في الدعوة إلى الله غير آبه بما يواجهه من أساليب الخصوم. فعندما عزم على دخول مكة في عودته من الطائف قال له زيد: «كيف تدخل عليهم ـ يا رسول الله ـ وهم أخرجوك؟» فقال: «يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه».

وأرسل في طلب جوار الأخْنَس بن شَرِيق، فَجَبُنَ، وتعلل بأنه حليف، والحليف لا يجير كما يقول. وطلب جوار سهيل بن عمرو، فرفض بحجة أن بني عمرو لا تجير على بني كعب. وأخيراً أرسل في طلب جوار المطعم بن عدي، فاستجاب لذلك، وتهيأ هو وبنوه لحماية الرسول ﷺ [ابن هشام؛ الفاكهي: أخبار مكة].

ومما قال حسان بن ثابت [ابن هشام] في رثائه له، يشيد بهذا الموقف النبيل:

«أَجَرْتَ رسولَ اللهِ منهم فأصبحوا
عَبِيدَكَ ما لَبّى مُهِلٌّ وأَحْرَمَا
فَلَو سُئِلَتْ عنه مَعَدٌّ بأسْرِهَا
وقحطانُ أو باقي بَقِيَّةِ جُرْهُمَا
لقالوا هو المُوفِي بخُفْرَةِ جارِهِ
وذِمَّتِهِ يوماً إذا ما تَذَمَّمَا»

[والخفرة العهد. وتذمم: أي طلب الذمة والعهد والجوار. وذكر الفاكهي، بإسناد حسن، أن حسان بن ثابت رثى المطعم بن عدي لما مات مجازاة له على ما صنع للنبي ﷺ].

وحفظ رسول الله ﷺ للمطعم بن عدي هذا الصنيع، ومن قبله صنيعه في نقض صحيفة المقاطعة، فقال يوم أسرى بدر: «لو كان المطعم بن عدي حياً، ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له» [البخاري].

[قال ابن حجر: «وأن المراد باليد المذكورة ما وقع منه حين رجع النبي ﷺ من الطائف، ودخل في جوار المطعم بن عدي». والنتنى: العفنين].

لم يقيد هذا الجوار حركة الرسول ﷺ وأصحابه في الدعوة إلى الإسلام. فعندما هاجر بعض المسلمين إلى الحبشة خرج أبو بكر ؓ فيمن خرج مهاجراً إليها، حتى إذا بلغ بَرْكَ الغِمَادِ، لقيه ابنُ الدُّغُنَّة ـ سيد القارة، وعن ابن إسحاق ـ سيد الأحابيش ـ فرده إلى مكة، وأدخله في جِوَارِه، قائلاً له: «مثلك ـ يا أبا بكر ـ لا يَخْرُجُ، ولا يُخْرَجُ...» واشترطت عليه قريش أن يأمر أبا بكر، فيعبد الله في داخل داره، ففعل أبو بكر ما طلب منه. وبنى مسجداً في فناء داره ليصلي فيه، فكان إذا صلى، وقرأ القرآن وقف عليه نساء المشركين وأبناؤهم، يعجبون منه؛ لأنه كان يبكي، وهو يقرأ القرآن، فأفزع ذلك قريشاً خشية إيمان الناس بالقرآن، فطلبوا من ابن الدُّغُنَّة أن يطلب من أبي بكر عبادة ربه في داخل داره من حيث لا يسمعه أحد، وليس في فناء الدار حيث يسمعه الناس. وجاءه ابن الدغنة وقال له: «فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترد ذمتي...» فرد عليه أبو بكر قائلاً: «فإني أرد عليك

جوارك، وأرضى بجوار الله ورسوله» [البخاري؛ والبيهقي في الدلائل؛ وابن إسحاق في السيرة والسير].

وهذا الموقف يشبه موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما رد جوار خاله العاص، رغبة منه أن يكون في جوار الله ورسوله كسائر المستضعفين ممن يترفع الكفار عن إجارتهم.

ب ـ عظات وعبر:

١ ـ أن اختيار الرسول ﷺ الثلاثة الذين كانوا سادة ثقيف يومذاك دليل على أهمية دعوة الزعماء الذين ينساق وراءهم الناس، وعندما رفضوا دعوته علم أن غيرهم سيرفضها، فلذا لم يستغرق مقامه بالطائف وقتاً طويلاً.

٢ ـ أن صبر الرسول ﷺ على معارضيه قد بلغ حداً عظيماً. فمع ما واجهه به أهل الطائف من سوء في المعاملة فإنه لم يطلب من الله ـ تعالى ـ عقابهم، بل دعا الله عز وجل أن يهديهم، فاستجاب الله لدعائه، وذلك بدليل قدوم ثقيف عليه مسلمة بعد حصار الطائف ورجوعه إلى المدينة.

٣ ـ أن لقاء بعض الجن بالرسول ﷺ بنخلة وإيمانهم به فيه عظة وعبرة للبشر الذين لا يؤمنون بالله وبرسالة محمد ﷺ.

٤ ـ لقد كان إيمان الجن برسول الله ﷺ بعد أن ناله ما ناله على أيدي ثقيف تسلية من الله له أنسته آلامه، وأكدت له أن الله ـ تعالى ـ لن يتركه. فإن تخلى عنه أهل الأرض إلى حين ففي العوالم الأخرى من الجن والملائكة من يشد أزره، ويؤمن به، وأن الله الذي حول الجن إلى مؤمنين ودعاة إلى هذا الدين الجديد، قادر على تحويل عتاة كفار قريش وثقيف إلى مؤمنين ودعاة بعد حين. وقد كان ذلك كذلك [قلعه جي ـ رواس: قراءة جديدة للسيرة].

٥ ـ أن من مآثر الجاهلية ذلك العرف الذي كانوا يحترمونه، ألا وهو الجوار، وهو ما يعد من مآثر كثير من الدول الحديثة، ويعرف بـ«حق اللجوء السياسي»، بمصطلح «الدبلوماسية» الحديثة. وهو ما يمكن أن يستفيد منه الدعاة لتبليغ دعوتهم إلى الناس.

٦ ـ أن إسلام عداس دليل على أن الرسول ﷺ لم يرجع من الطائف من دون نتائج إيجابية، بل رجع بما هو خير من حُمُرِ النَّعَم، فقد هدى الله عداساً على يديه، والرسول ﷺ يقول: «لأن يهدَي الله بك رجلاً خير لك من حمر النعم» [مسلم].

٧ ـ أن في قصة هجرته إلى الطائف وما لاقاه من أذى من سفهاء ثقيف عظة وعبرة للدعاة الذين يتأسون بسيرة الرسول ﷺ، فإذا كان الرسول ﷺ لقي ما لقي من المشاق في سبيل إقامة الدين، فمن باب أولى أن يلقى الدعاة أشد من ذلك، فعليهم أن يتهيؤوا لذلك؛ لأنه طريق الأنبياء والصالحين، ولأن حكمة الله اقتضت أن لا ينتصر هذا الدين بدون عمل وجهد البشر.

المبحث الثالث والثلاثون: الإسراء والمعراج

تأتي هذه المعجزة تكريماً وتثبيتاً للرسول ﷺ بعد وفاة عمه الذي كان يحميه وزوجته التي كانت تواسيه، وبعدما أصابه في الطائف ومكة ما أصابه من الأذى. فهي بعد العام العاشر من البعثة كما تدل على ذلك مجريات الأحداث، ولكن اختلف في تحديد زمانها بعد العام العاشر [ابن كثير: البداية (١١٩/٣)].

بعد دراسة الآثار الواردة في تحديد الشهر واليوم الذي حدث فيه الإسراء والمعراج خلص الشيخ طرهوني [صحيح السيرة] إلى أنه يوم الاثنين، الثاني عشر من ربيع الأول.

فقد ذكر موسى بن عقبة عن الزهري [مغازي عروة] وعروة بن الزبير [مغازي عروة] أن الإسراء إلى بيت المقدس كان قبل خروج النبي ﷺ إلى المدينة بسنة. ومما لا جدال فيه أن الإسراء والمعراج ثابت بالقرآن والسنة.

فقد أشار القرآن الكريم إلى الإسراء والمعراج في سورتي الإسراء والنجم. ففي السورة الأولى ذكر قصة الإسراء وحكمته في قوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وذكر في السورة الثانية قصة المعراج وثمرته في قوله: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝١٨﴾ [النجم: ١٣ ـ ١٨].

إن من أكثر أحداث السيرة بمكة مرويات هي هذه الحادثة، فمجموع رواياتها عند البخاري عشرون رواية، عن ستة من الصحابة ﷺ. وعند مسلم نحو من ثماني عشرة رواية، عن سبعة من الصحابة ﷺ [عرجون: محمد رسول الله ﷺ].

ولا توجد رواية واحدة تجمع ما ورد من أحداث خلال هذه الرحلة، وإنما هناك روايات أشارت كل واحدة منها إلى بعض الأحداث.

ومن خلال مجموع الروايات التي وردت عند البخاري ومسلم وغيرهما يمكن تلخيص مضمون تلك الروايات.

شق الصدر:

بعد صلاة العشاء من تلك الليلة المباركة نزل جبريل عليه السلام وفرج عن سقف بيت الرسول ﷺ بمكة، وشق صدره، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً، فأفرغه في صدره، ثم أطبقه، ثم أخذ بيده، فعرج به [البخاري ومسلم وغيرهما].

الإسراء:

عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بالبراق ـ وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه ـ فركبته، فسار بي حتى أتيت بيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التي يربط فيها الأنبياء، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فأتاني جبريل بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: أصبت الفطرة. قال: ثم عرج بي. . .» [متفق عليه] وفي رواية أخرى أنه صلى بالأنبياء قبل المعراج، ثم بعث له آدم فمن دونه من الأنبياء عليهم السلام فأمهم رسول الله ﷺ تلك الليلة [البيهقي: الدلائل].

المعراج:

ثم عرج به إلى السماوات، وفي كل سماء يستفتح جبريل، ثم يسأل، ومن معك؟ فيقول: «محمد» فيرحب به. فرأى في السماء الدنيا آدم، وفي الثانية عيسى ويحيى، وفي الثالثة يوسف، وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون، وفي السادسة، موسى، وفي السابعة إبراهيم مستنداً إلى البيت المعمور، ثم ذهب إلى سدرة المنتهى، وفرض الله عليه وعلى أمته خمسين صلاة في اليوم والليلة، وفي طريق عودته من معراجه انتهى إلى موسى، فسأله موسى: «ما فرض ربك على أمتك؟» فأخبره، فطلب منه موسى أن يرجع إلى ربه فيسأله التخفيف، ففعل وخفف الله عنه خمس صلوات. ثم ما زال صاعداً ونازلاً بين ربه وموسى، وفي كل مرة يطلب منه موسى أن يرجع لربه ليخفف عنه، حتى خففها الله، فأصبحت خمس صلوات بأجر خمسين صلاة. وعندما طلب منه موسى الرجوع بعد هذا، قال: «قد سألت ربي حتى استحيت» فنادى مناد: «قد أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي» [البخاري ومسلم وغيرهما].

وفي رواية أنس عن أبي ذر قال بعد ذكر السماوات: «ثم عرج بي حتى ظهرت في مستوى أسمع فيه صريف الأقلام، ثم ذكر فرض الصلاة، وقال: «ثم انطلق بي حتى انتهى بي إلى سدرة المنتهى، وغشيها ألوان لا أدري ما هي؟ ثم أدخلت الجنة، فإذا فيها حبائل اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك» [متفق عليه].

وتناول النووي [شارح مسلم] قضية رؤية محمد ﷺ الله ﷻ في المعراج واختلاف العلماء في ذلك، ثم رجح أن الرسول ﷺ رأى ربه، استناداً إلى حديث ابن عباس ﵄ في هذا، الذي قال فيه: «رأى محمد ربه بفؤاده مرتين». قلت: وهذا الشاهد يؤيد من يقول بعدم الرؤية.

العودة:

يتبين من الروايات أن طريق العودة كان من السماوات العلا إلى بيت المقدس، ثم إلى مكة. فقد روى الترمذي عن شَداد بن أوس: «. . . ثم

انصرف بي، فمررنا بعير لقريش بمكان كذا وكذا، قد أضلوا بعيراً لهم، قد جَمَعَهُ فلان، فسلمت عليهم، فقال بعضهم: هذا صوت محمد، ثم أتيت أصحابي قبل الصبح بمكة» [دلائل البيهقي بسند صحيح].

كانت وسيلة الإسراء البراق، بينما في المعراج استعملت الروايات الفعل المبني للمجهول «عُرِجَ»، فلم تبين الوسيلة، وفي بعضها: «نصب لي المعراج»، قال ابن كثير [في البداية]: «وهو السُّلَّم، فصعد فيه إلى السماء، ولم يكن الصعود على البراق كما توهمه البعض».

موقف قريش من الإسراء والمعراج:

خشي الرسول ﷺ أن يكذبه قومه، فأصبح في ذلك اليوم مهموماً. فجلس إليه أبو جهل، وهو في هذه الحال، وسأله مستهزئاً، «هل كان من شيء؟» فأخبره النبي ﷺ بالإسراء، فلم يشأ أن يكذبه ساعتئذ خشية أن يكتم ذلك أمام الناس، واكتفى بقوله: «أرأيت إن دعوت قومك إليك، أتحدثهم بما حدثتني؟»، فقال رسول الله ﷺ: «نعم»، فأسرع إلى قومه، فدعاهم، فجاؤوا إليه، وطلب منه أبو جهل أن يحدثهم فحدثهم، فتعجبوا من حديثه، وطلب منه من رأى المسجد الأقصى أن يصفه لهم، فرفعه الله له، فأخذ يصفه لهم، وهو ينظر إليه، فقالوا: «أما النَّعْتُ فقد ـ والله ـ أصاب» [البخاري ومسلم وغيرهما].

وفي رواية أنهم استنكروا أن يذهب الرسول ﷺ إلى الشام، ثم يعود في جزء من ليلة واحدة، وهم يذهبون ويعودون في مدة شهرين؛ ولذا ارتد ناس ممن كان قد أسلم [أحمد في المسند، والحاكم بسند صحيح].

أما أبو بكر فعندما أخبر بالخبر صدقه دون تردد قائلاً: «والله لئن كان قاله لقد صدق، وما يعجبكم من ذلك! فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار، فهذا أبعد مما تعجبون منه»، ثم أقبل على النبي ﷺ يسأله عن وصفه، وكلما ذكر شيئاً قال: صدقت. أشهد أنك رسول الله... فقال النبي ﷺ: «وأنت ـ يا أبا بكر ـ الصدِّيقُ»، فيومئذ سمَّاه الصدِّيقَ [الحاكم بسند صحيح].

الأدلة على أن الإسراء والمعراج كانا بالروح والجسد معاً:

قال القاضي عياض [في الشفا]: «اختلف العلماء في الإسراء والمعراج برسول الله ﷺ، فقيل: إنما كان جميع ذلك في المنام. والحق الذي عليه أكثر الناس ومعظم السلف وعامة المتأخرين من الفقهاء والمحدِّثين والمتكلمين أنه أُسريَ بجسده ﷺ، والآثار تدل عليه لمن طالعها، وبحث عنها، ولا يعدل عن ظاهرها إلا بدليل، ولا استحالة في حملها عليه، فيحتاج إلى تأويل..».

وقال ابن حجر [في الفتح]: «إن الإسراء والمعراج وقعا في ليلة واحدة في اليقظة بجسد النبي ﷺ وروحه بعد البعث، وإلى هذا ذهب الجمهور من علماء المحدثين والفقهاء والمتكلمين، وتواردت عليه ظواهر الأخبار الصحيحة، ولا ينبغي العدول عن ذلك، إذ ليس في العقل ما يحيله حتى يحتاج إلى تأويل..».

ب ـ دلالات وعظات وعبر:

١ ـ أن حديث الإسراء والمعراج متفق عليه بين أهل الحديث والمغازي، وثبت بآيات قرآنية وبأحاديث نبوية، فهو قطعي الثبوت، وهو بإجماع جماهير المسلمين من معجزاته ﷺ، وفي إنكاره إنكار لما هو معلوم من الدين بالضرورة.

٢ ـ جاءت هذه المعجزة بعد المحن التي ابتلي بها الرسول ﷺ لتجدد عزيمة الرسول ﷺ ولتدلل على أن هذا الذي يلاقيه من قومه ليس سببه تخلي الله عنه، وإنما هي سنة الله مع أحبائه في كل عصر ومصر، وبينت للرسول ﷺ أن المستقبل لدينه، وذلك بإقرار إمامته للأنبياء السابقين، وما تمثل له من رموز لهذا المعنى، وبينت له أن الأرض إذا ضاقت في وقت، فإن السماء تفتح أبوابها لتستقبله، ولئن آذاه بعض أهل الأرض في وقت فإن أهل السماء يقفون له مستقبلين ومرحبين.

٣ ـ أن الاقتران الزماني والمكاني بين إسرائه ﷺ إلى بيت المقدس والعروج به إلى السماوات السبع، دلالة باهرة على مدى ما لهذا البيت من مكانة وقدسية عند الله تعالى. وفيه دلالة واضحة ـ أيضاً ـ على

العلاقة الوثيقة بين ما بعث به كل من عيسى بن مريم ومحمد بن عبد الله ﷺ، وعلى ما بين الأنبياء من رابطة الدين الواحد الذي بعثوا به[1]، وفيه دلالة على واجب المسلمين في الحفاظ على هذه الأرض وحمايتها من مطامع أعداء الإسلام.

٤ ـ ولعل الحكمة في مرور هذه الرحلة ببيت المقدس، ولم تكن من المسجد الحرام إلى سدرة المنتهى مباشرة، هي أنه عندما أهدر اليهود كرامة الوحي، وأسقطوا أحكام الله، حلت بهم لعنة الله، وتقرر تحويل النبوة عنهم إلى الأبد، مع أنها ظلت فيهم زماناً طويلاً، ومن ثم كان مجيء الرسالة إلى محمد ﷺ انتقالاً بالقيادة في العالم من أمة إلى أمة، ومن بلد إلى بلد، ومن ذرية إسرائيل إلى ذرية إسماعيل، وهو انتقال فيه احترام للإيمان الذي درج ـ قديماً ـ في رحابه [الغزالي ورواس].

٥ ـ أن في اختيار رسول الله ﷺ اللبن على الخمر حينما قدمهما له جبريل، دلالة على أن الإسلام هو دين الفطرة؛ لأن اللبن مادة لم تتغير طبيعتها، والخمر نتيجة تغيير كيماوي في طبيعة العنب وغيره من مصادر الخمر، إضافة إلى أن الخمر يغيّر فطرة الإنسان؛ لأنه يذهب العقل.

٦ ـ أن في جمع الله المرسلين السابقين من حملة الهداية في هذه الأرض وما حولها؛ ليستقبلوا صاحب الرسالة الخاتمة دليلاً على أن النبوات يصدق بعضها بعضاً، وأن محمداً هو خاتمهم الذي اكتمل به الدين، وبيان لمكانة محمد ﷺ عند ربه.

٧ ـ أن رؤية طرف من آيات الله الكبرى في ملكوت السماوات والأرض له أثره الحاسم في توهين كيد الكافرين، ومعرفة عقباهم، ورفع لمعنويات نبيه ﷺ وأصحابه؛ ليواجهوا قوى الكفار المتألبة عليهم.

---

(١) إشارتي هنا إلى الحديث الصحيح: «. . . والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد» رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

٨ ـ أن وقوع مثل معجزة الإسراء والمعراج للرسول ﷺ بعد مضي اثني عشر عاماً من مبعثه دليل على أن الخوارق والمعجزات تأتي في طريق محمد ﷺ ضرباً من التكريم والإيناس لشخصه، غير معكرة ولا معطلة للمنهج العقلي العادي، وذلك على عكس ما وقع لبعض الأنبياء، مثلما وقع لموسى عليه السلام، حيث إن الخوارق في سير هذا البعض قصد بها قهر الأمم على الاقتناع بصدق النبوة.

وتأكيداً لهذا، فعندما اقترح المشركون على النبي ﷺ أن يرقى في السماء جاء الجواب من الله ﷻ: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣].

فلما رقي في السماء بعد ذلك لم يذكر ـ قط ـ أن ذلك ردٌّ على التحدي أو إجابة على الاقتراح السابق.

٩ ـ أن فرض الصلوات الخمس في ليلة المعراج دليل على أهمية هذا الركن من أركان الإسلام، الذي يجب أن يكون معراجاً يرقى بالناس كلما تدلت بهم شهوات النفوس وأغراض الدنيا [الغزالي].

المبحث الرابع والثلاثون

أ ـ عرض الرسول ﷺ نفسه على القبائل:

كان الرسول ﷺ في حركة دائبة للبحث عن مكان يعبد الله فيه آمناً؛ ولذا كان أمره للصحابة بالهجرة إلى الحبشة، وهجرته هو إلى الطائف، ثم عرض نفسه على القبائل. وكان عرض نفسه على القبائل بأمر من الله ﷻ، ودليل هذا قول ابن حجر [في الفتح]: «وقد أخرج الحاكم، وأبو نعيم، والبيهقي [كلاهما في الدلائل] بإسناد حسن عن ابن عباس: حدثني علي بن أبي طالب قال: لما أمر الله نبيه أن يعرض نفسه على قبائل العرب خرج، وأنا معه وأبو بكر إلى منى، حتى دفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، . . .». وكانت مواسم الحج وأسواق العرب مناسبات هامة للالتقاء بذوي الشأن من رؤساء القبائل وغيرهم من الأفراد العاديين، وكان يطلب من ذوي الشأن أن يحموه، دون أن يكرههم على دعوته.

ومما كان يقوله في هذه المواسم [كما روى أحمد وأبو داود وابن ماجه والذهبي]: «هل من رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي»، و: «يا بني فلان، إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه، وأن تؤمنوا بي وتصدقوني وتمنعوني حتى أبين عن الله ما بعثني به. . .» [أحمد: في المسند، بسند جيد؛ وابن إسحاق: في السيرة].

وتقول الرواية نفسها: إن عمه أبو لهب ـ عبد العزى بن عبد المطلب ـ كان يسير خلفه، فإذا فرغ رسول الله ﷺ من حديثه، قال: «هذا يدعوكم إلى أن تفارقوا دين آبائكم، وأن تسلخوا اللات والعزى وحلفاءكم من بني مالك بن أُقَيْش إلى ما جاء به من البدعة والضلال. . .» وفي رواية عند ابن إسحاق في السير، بسند حسن، أنه كان يتبعه، ويرميه بالحجارة، وقد أدمى قدميه.

ومن القبائل التي عرض رسول الله ﷺ نفسه عليها، ودعاها إلى الإسلام فأبوا: كندة، وفيهم سيدهم مُلَيح ـ أو فُلَيح [ابن إسحاق: السيرة والسير]، وبنو عبد الله من كلب [المصدران نفساهما]، وبنو حنيفة، وكان ردهم عليه قبيحاً [ابن إسحاق: السيرة]، وبنو عامر بن صَعْصَعَة، وقال رجل منهم يدعى بَيْحَرَة بن فِرَاس: «والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، . . . أرأيت إن تابعناك على أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟» قال: «الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء»، قال: «أَفَنُهْدِفُ نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا، لا حاجة لنا بأمرك؛ فأبوا عليه.

فلما صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم، قد كانت أدركته السن، حتى لا يقدر أن يُوَافِيَ معهم المواسم، فكانوا إذا رجعوا إليه حدثوه بما يكون في ذلك الموسم، فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان في موسمهم، فقالوا: جاءنا فتًى من قريش، من أحد بني عبد المطلب، يزعم أنه نبي، يدعونا إلى أن نمنعه ونقومَ معه ونخرج به إلى بلادنا، قال: فوضع الشيخُ يديه على رأسه، ثم قال: يا بني عامر، هل لها من تلافٍ؟ هل لِذُنابَاها

[أي ذنبها] من مطلب؟ والذي نفسُ فلان بيده ما تَقَوَّلَها إسماعيلي قَطّ، وإنها لحق، فأين رأيكم كان عنكم؟» [ابن إسحاق في السيرة. والشيخ هو فراس بن عبد الله بن سلمة كما قال ابن هشام]، ومُحَارِب بن حَصَفَة، وفَزَارة، وغَسَّان، ومُرَّة، وسُلَيم، وعَبْس، وبنو النضر، وبنو البكاء، وعُذرةَ، والحَضَارِمة، [ابن سعد] وربيعة، وبنو شيبان الذين كان فيهم وعلى رأسهم: مفروق بن عمرو وهانئ بن قبيصة والمثنى بن حارثة، وقد تعللوا بحجج، منها : الرغبة في التريث إلى حين أخذ مشورة من وراءهم من قومهم، وفي هذا قال المثنى: «وإنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى، لا نحدث حَدَثاً ونؤوي محدثاً، وإني أرى هذا الأمر الذي تدعو إليه مما تكرهه الملوك، فإن أحببت أن نؤيدك وننصرك مما يلي مياه العرب فعلنا، فقال رسول الله ﷺ: «ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق، وإن دين الله لن ينصره إلا من أحاطه الله من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم ويفرشكم نساءهم، أتسبّحون الله ـ وتقدّسونه؟»، فقال النعمان بن شريك: «اللهم! نعم»، فتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥ - ٤٦]. وقد سر رسول الله ﷺ من أخلاقهم. [ابن حبان: السيرة؛ والبيهقي: الدلائل، بسند حسن؛ والحاكم، وأبو نعيم، بسند حسن]

لقد كان أهل المدينة أكثر الناس تجاوباً مع دعوة الرسول ﷺ عندما عرض عليهم الإسلام. فعندما عرض الرسول ﷺ الإسلام على سُوَيْد بن الصامت، لم يعلن الإسلام ولم يبعد عنه، واستحسن ما سمع من القرآن. اهـ. وعندما عاد إلى بلاده، وقتل في حرب بُعَاث ـ بين الاوس والخزرج ـ، كان رجال من قومه يقولون إنه مات مسلماً [ابن إسحاق: السيرة].

وروى ابن إسحاق [في السيرة بسند حسن] أن وفداً من بني عبد الأَشْهَل على رأسه أبو الحَيْسَر أنس بن رافع، وفيه إياس بن مُعاذ، قدموا مكة يلتمسون الحلف مع قريش ضد قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ فأتاهم، فجلس إليهم، فقال لهم: «هل لكم خير مما جئتم له؟»، فقالوا له: «وما ذاك؟»، قال: «أنا رسول الله، بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله،

ولا يشركوا به شيئاً، وأنزل عليّ الكتاب». ثم ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، فقال إياس بن معاذ، وكان غلاماً حدثاً: «أي قوم، هذا ـ والله ـ خير مما جئتم له»، فزجره أبو الحيسر، فصمت، وسمعه قومه عند موته يهلل الله ـ تعالى ـ ويكبره، ويحمده، ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلماً.

لقد استشعر إياس الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من الرسول ﷺ ما سمع.

وفي السنة الحادية عشرة من البعثة عرض نفسه على نفر ـ قيل ستة وقيل ثمانية ـ من الخزرج، عند العقبة، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الإسلام، وتلا عليهم القرآن [ابن إسحاق: السيرة؛ ابن كثير: البداية: من حديث ابن عقبة].

وكان مما مهد أفئدتهم لقبول الإسلام أن اليهود كانوا معهم في بلادهم، ومعلوم أنهم أهل كتاب وعلم، فكان إذا وقع بينهم وبين اليهود نفرة أو قتال قال لهم اليهود: «إن نبياً مبعوثاً الآن قد أظل زمانه، سنتبعه، ونقتلكم معه قتل عاد وإرم!».

فلما دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام نظر بعضهم لبعض، وقالوا: «تعلمون ـ والله ـ إنه للنبي الذي تدعوكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه». فأجابوه إلى ما دعاهم إليه من الإسلام، وقالوا: «إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك».

ثم انصرفوا، ووعدوه المقابلة في الموسم المقبل.

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ [ابن إسحاق: السيرة، بسند حسن].

وهناك سبب آخر أدى إلى تمهيد أفئدة أهل المدينة لقبول الإسلام، وهو يوم بُعاث. فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان يوم بعاث يوماً قدمه الله لرسوله ﷺ، فَقَدِمَ رسول الله ﷺ وقد افترق مَلَؤُهم، وقُتِلَتْ سَرَوَاتُهُمْ

[خيارهم وأشرافهم] وَجُرِّحُوا ، فَقَدَّمَهُ الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام».

ب ـ عظات وعبر:

١ ـ أن أمثال أبي لهب لا ينعدمون في مجتمعات الكفر والانحراف العقدي الصريح، وهي نماذج من الناس لها مثل سلوك وتفكير أبي لهب، تقف في وجه الدعاة في كل زمان ومكان، مثل موقف أبي لهب من ابن أخيه محمد ﷺ، ويصدون عن سبيل الحق ويبغونها عِوَجاً، بما يتاح لهم من وسائل، فيصفون دعاة الدين الحق بأنهم دعاة بدعة وضلالة، ودعاة دين جديد أو مذهب خامس، أي ليس من بين المذاهب الأربعة المشهورة. ولم يتأثر الرسول ﷺ لموقف عمه أبي لهب، بل استمر في دعوته. فعلى الدعاة أن لا يتأثروا بمواقف المغرضين.

٢ ـ على الدعاة أن يطرقوا جميع الأبواب التي يمكن أن تقود إلى التمكين للدين في الأرض، وعدم اليأس مهما تكررت محاولات الاتصالات الفردية والجماعية، ومهما كانت النتائج القريبة سلبية.

المبحث الخامس والثلاثون

بيعة العقبة الأولى:

في الموسم التالي من العام الثاني عشر للبعثة جاء إلى أداء مناسك الحج اثنا عشر رجلاً من المسلمين من المدينة، بعضهم ممن لقي النبي ﷺ في الموسم السابق وآمن به، فلقوا الرسول ﷺ مع جماعة من أصحابه حتى بايعوه. وقد روى البخاري ومسلم وغيرهما من حديث عبادة بن الصامت الذي كان ضمن حجاج المسلمين من المدينة صيغة هذه البيعة، وهي:

قال عبادة: إن الرسول ﷺ قال لهم: «تعالوا بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب شيئاً، فستره الله فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه»، فبايعوه على ذلك.

قال عبادة بن الصامت في رواية ابن إسحاق [في السيرة بسند حسن] «فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، وذلك قبل أن تفرض الحرب». [أي على غرار بيعة النساء ثاني أيام فتح مكة، وليس فيها الجهاد].

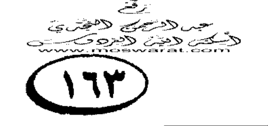
وعندما أرادوا العودة إلى بلادهم بعث رسول الله ﷺ مُصْعَب بن عُمَيْر؛ ليقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان يسمى «مقرئ المدينة». وكان منزله على أَسْعَد بن زُرَارَة [رواه أئمة السيرة، وإسناده في الدلائل (٢/ ٤٣٨) مرسل حسن، ورجاله ثقات].

روى أبو داود وابن إسحاق [في السيرة بسند حسن]، وغيرهما من طريق عبد الرحمن بن كعب بن مالك أن أول من أقام صلاة الجمعة بالمدينة هو أسعد بن زرارة، وكانوا أربعين رجلاً أَمَّهم مصعب بن عمير، فقد كتب إليه الرسول؛ ليجمع بهم [الدارقطني: السنن].

أسلم خلق كثير من الأنصار على يد مصعب بمعاونة أسعد بن زرارة، وممن أسلم من أشرافهم [كما روى ابن إسحاق في السيرة بسند مرسل حسن]: أُسَيْد بن الحُضَيْر، وسعد بن معاذ، وأسلم بإسلامهما يومئذ جميع بني عبد الأشهل الرجال والنساء، إلا أُصَيْرِم عمرو بن ثابت بن وَقْشٍ، فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أحد، وأسلم حينئذ، وقاتل فَقتل قبل أن يسجد لله سجدة واحدة، فأخبر عنه النبي ﷺ، فقال: «عَمِلَ قليلاً، وأُجِرَ كثيراً» [البخاري، وابن إسحاق في السيرة بسند حسن].

ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بني أمية بن زيد، وخطمة، ووائل، وواقف «وتلك أوس الله» وهم الأوس ابن حارثة؛ وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأَسْلَت الشاعر ـ وكانوا يطيعونه ـ فوقف بهم عن الإسلام حتى كان عام الخندق سنة خمس من الهجرة [ابن إسحاق: السيرة، مرسلاً].

وقبل حلول موسم الحج التالي ـ أي حج السنة الثالثة عشرة ـ عاد مصعب بن عمير إلى مكة؛ ليبشر الرسول ﷺ بنجاح مهمته، بتوفيق الله، تعالى. [ابن إسحاق: السيرة].



المبحث السادس والثلاثون

بيعة العقبة الثانية:

وفي موسم الحج التالي من العام الثالث عشر للبعثة قدم مكة لأداء مناسك الحج مجموعة كبيرة من مسلمي المدينة، ضمن حجاج كثيرين من مشركي المدينة، وكان زعيمهم جميعاً البَرَاء بن مَعْرُور [ابن إسحاق: السيرة بسند حسن].

وقد تساءل مسلمو الأنصار فيما بينهم حتى متى يتركون رسول الله ﷺ يطوف، ويطرد في جبال مكة، ويخاف [أحمد: المسند، وسنده صحيح].

وجرت بينهم وبين الرسول ﷺ اتصالات سرية أدت إلى الاتفاق على تحديد زمان ومكان اللقاء؛ لإبرام اتفاق من أعظم وأهم الاتفاقيات في تاريخ الإسلام.

وقد روى ابن إسحاق [في السيرة، بسند حسن] قصة هذا اللقاء عن كعب بن مالك، قال رضي الله عنه: «... ثم خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أوسط أيام التشريق. فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها... فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا في رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القَطَا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشِّعْب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا: نَسِيبَةُ بنت كَعْب ـ أمُّ عُمَارَة ـ وأسماء بنت عمرو بن عدي... وهي أمُّ مَنِيع.

فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا، ومعه عمه العباس ابن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له. فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: «يا معشر الخزرج ـ وكانت العرب إنما يسمون هذا الحي من الأنصار: الخزرج، خزرجها وأوسها ـ إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن رأيهم مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده، وأنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم

ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك. فإنه في عِزٍّ وَمَنَعَةٍ من قومه وبلده». قال: فقلنا له: «قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت».

فتكلم رسول الله ﷺ، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغَّب في الإسلام، ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم»، فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: «والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرَنَا، فَبَايِعْنَا يا رسول الله، فنحن - والله - أبناء الحروب، وأهل الحَلْقَةَ [السلاح]، ورثناها كَابِراً عن كابر». فاعترض القول - والبراء يكلم رسول الله ﷺ - أبو الهَيْثَم بن التَّيِّهان، فقال: «يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حِبَالاً، وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عَسَيْتَ إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتَدَعَنَا؟»، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: «بَلِ الدَّمُ الدَّمُ، والهَدْمُ الهَدْمُ [أي ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم]، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم».

بعد الاتفاق على شروط هذه البيعة، وقبل الشروع في عقدها، أراد اثنان من الأنصار، ممن أسلم في مواسم حج عام إحدى عشرة واثنتي عشرة من المبعث، وهما: العباس بن عُبَادة بن نَضْلَة، وأسعد بن زرارة، أرادا أن يبينا لقومهما حقيقة وخطورة الالتزام بهذه البيعة، حتى يبايعوا على علم ويقين تام، وليعرفا ويتأكدا من مدى استعداد الأنصار للجهاد والاستشهاد.

قال العباس بن نضلة: [كما روى ابن إسحاق في السيرة بسند مرسل] «هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟» قالوا: «نعم»، قال: «إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نَهِكَتْ أموالَكُم مُصِيبَةٌ، وأشرافُكُم قتلاً، أَسْلَمْتُمُوه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نَهْكَةِ الأموال، وقَتْلِ الأشراف، فخذوه، فهو - والله - خير الدنيا والآخرة»، قالوا: «فإنا نأخذه على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف، فمالنا بذلك - يا رسول الله - إنْ نحن وفَّينا بذلك؟»، قال: «الجنة»، قالوا: «ابسط يدك»، فبسط يده فبايعوه».

وقال أسعد بن زرارة عندما قام الناس للبيعة: «رويداً يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله، وإن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإمّا أنتم تصبرون على ذلك فخذوه، وأجركم على الله، وإمّا أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فهو أعذر لكم عند الله»، فقالوا له: «يا أسعد، أمِطْ عنا يدك، فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقيلها» [أحمد: المسند، بسند صحيح].

وعندما تأكد لأسعد موقف قومه، ضرب على يد الرسول ﷺ ـ أي صافحه ـ مبايعاً، ثم تتابع القوم رجلاً رجلاً لمبايعة الرسول ﷺ، مبشراً بالجنة من وفى بها [المصدر نفسه]. وذكر ابن إسحاق [في السيرة بسند حسن] أن أول من ضرب على يد الرسول ﷺ البراء بن معرور.

وأما عن كيفية مبايعة المرأتين فقد قال ابن إسحاق [في السيرة]: «يزعمون أنهما قد بايعتا ـ يعني صافحتا ـ وكان رسول الله ﷺ لا يصافح النساء، إنما كان يأخذ عليهن، فإذا أقررن قال: اذهبن فقد بايعتكن».

وعندما تمت البيعة قال لهم رسول الله ﷺ [كما روى ابن إسحاق في السيرة]: «أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيباً، ليكونوا على قومهم بما فيهم» فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. وهم: عبادة بن الصامت، والبراء بن معرور، وعبد الله بن رواحة، وسعد بن الربيع، وأبو أمامة أسعد بن زرارة، وسعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو، وأسيد بن حضير، وسعد بن خيثمة، وعبد الله بن حَرَام، ورَافع بن مالك، وأبو الهيثم بن التيهان. وذكر ابن إسحاق [في السيرة] جميع من حضر البيعة.

وروى ابن إسحاق [في السيرة بسند مرسل حسن] أن رسول الله ﷺ قال للنقباء: «أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي ـ يعني المسلمين ـ قالوا: نعم».

لقد روى البخاري، ومسلم، وابن إسحاق [في السيرة بسند حسن] بنود هذه البيعة، ولكن رواها أحمد [في المسند، بسند حسن] من حديث جابر، والبيهقي [في الدلائل بسند جيد] من حديث جابر وعبيد بن رفاعة بتفصيل أكثر مما جاء عند البخاري ومسلم وابن إسحاق.

قال جابر: «قلنا: يا رسول الله، علام نبايعك؟» قال:

١ - على السمع والطاعة في النشاط والكسل.

٢ - وعلى النفقة في العسر واليسر.

٣ - وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٤ - وعلى أن تقولوا في الله، ولا تأخذكم في الله لومة لائم.

٥ - وعلى أن تنصروني إذا قدمت إليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة»، وهو لفظ أحمد والبيهقي مع اختلاف يسير.

أما لفظ ابن إسحاق المشار إليه فهو، قال ابن الصامت: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في عسرنا ويسرنا، ومنشطنا ومكرهنا، وَأَثَرة علينا، وأن لا نُنازع الأمر أَهْلَهُ، وأن نقول بالحق أينما كنا، لا نخاف في الله لومة لائم». [وأثرة علينا: يعني أن المرء الصالح ينبغي ألا يكترث لفقدان حظوظ الدنيا؛ لأن السخط على فواتها من شيم المنافقين الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة: ٥٨].

بعد أن تمت البيعة وتعيين النقباء كان القوم على وشك مغادرة مكان اللقاء، فإذا بالشيطان يكتشف هذا اللقاء. وليتمكن زعماء المشركين من المجيء والقبض على المسلمين قبل أن ينفضوا، صرخ الشيطان على العقبة بأنفذ صوت سمع، قائلاً: «يا أهل الجَباجِب [منازل منى]، هل لكم في مُذَمَّم [المذموم] والصُّباة معه، قد اجتمعوا على حربكم؟» فقال رسول الله ﷺ: «هذا أَزَبُّ [اسم شيطان] العقبة، هذا ابن أَزْيَبَ، استمع أي عَدُوَّ الله، أما والله لَأَفْرُغَنَّ لك. ثم قال رسول الله ﷺ: «ارْفَضّوا [تفرقوا]. إلى رحالكم» [ابن إسحاق في السيرة بسند حسن].

وعند سماع صراخ وقول هذا الشيطان قال العباس بن عبادة بن نضلة: «والذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا». فقال لهم رسول الله ﷺ: «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم». فرجعوا، وناموا حتى أصبحوا [المصدر نفسه].

قال كعب بن مالك: «فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاؤونا في منازلنا، فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه ـ والله ـ ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم. قال: فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء، وما علمناه. قال: وقد صدقوا، لم يعلموه. قال: وبعضنا ينظر إلى بعض... قال: ونفر الناس من منى فَتَنَطَّسَ [بالغوا في التحري عنه] القوم الخبر، فوجدوه قد كان».

وتقول الرواية: إنهم خرجوا في طلب القوم، ولم يدركوا غير سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو، فأفلت منهم المنذر، وقبضوا على سعد، وعادوا به، مغلولة يداه إلى عنقه، ويجذبونه من شعره، ويلكزونه، حتى أنقذه الله منهم بجبير بن مطعم، والحارث بن حرب، إذ كان سعد يجير لهما قوافلهما المارة بالمدينة المنورة في طريقها من الشام وإليها [المصدر نفسه].

ب ـ نتائج وعبر من بيعة العقبة الثانية:

لقد كان لهذه البيعة نتائج قريبة وأخرى بعيدة. فمن النتائج القريبة:

١ ـ أن الأنصار قد فهموا أن حماية الرسول ﷺ سوف تعرضهم لعداوة واعتداء أعداء الرسول ﷺ من المشركين واليهود. وهذا يعني الجهاد، وإن كانت بنود البيعة لم تنص صراحة على أبعد من ذلك، أي التصدي لمن يقف في طريق الدعوة الإسلامية.

٢ ـ أن سعي مشركي مكة للقبض على مسلمي المدينة عندما اتضح لهم أن ثمة تدبيراً منهم لحماية رسول الله ﷺ يدل على أن عداء الشرك والكفر للإيمان في كل مكان.

٣ ـ أن السرية التي أحيطت بهذه البيعة وغيرها دليل على مشروعية أخذ الحذر والحيطة عند تدبير الأمور، لا سيما الأمور التي تتعلق بمستقبل الدعوة.

٤ ـ لقد كانت هذه البيعة الأساس الذي هاجر عليه المسلمون ـ بمن فيهم الرسول ﷺ ـ إلى المدينة المنورة.

٥ ـ أضحى الإسلام عزيزاً في المدينة، فاستعلن بإسلامه من كان قد استخفى به.

٦ ـ ضيق كفار مكة الخناق على المسلمين عندما عرفوا خطورة اتصال الرسول ﷺ بمسلمي المدينة، وكان هذا التضييق سبباً في تعجيل الرسول ﷺ بأمر هجرتهم إلى المدينة.

٧ ـ أما على المدى البعيد فقد كانت هذه البيعة الأساس الذي قامت عليه الدولة الإسلامية في المدينة المنورة، وانطلاقها من هناك إلى أنحاء الدنيا [الشامي: المعين؛ والبوطي: السيرة].

٨ ـ ولأهمية هذه البيعة، ولما ترتب عليها من نتائج قريبة وبعيدة فقد كان للمبايعين فيها وفي التي قبلها فضل لا يكاد يقل عما لأهل بدر والهجرتين ـ هجرة الحبشة وهجرة المدينة ـ وبيعة الرضوان، من شرف وفضل.

٩ ـ أن عداوة الشيطان للحق وتألمه من علو نجمه ظاهرة ماضية، فهو دائماً ما يغري أعداء الإسلام بالمؤمنين من أهل المدينة والرسول ﷺ.

١٠ ـ كانت بيعة العقبة الثانية شاملة للمبادئ التي سيتم مشروعيتها بعد الهجرة إلى المدينة، وفي مقدمتها الجهاد والدفاع عن الدعوة، وهو حكم، وإن لم يكن قد أذن الله بشرعيته في مكة إلا أن الله ﷻ قد ألهم نبيه محمداً ﷺ أن ذلك سيشرع في المستقبل القريب، والدليل على ذلك رد الرسول ﷺ على العباس بن عبادة الذي أبدى الاستعداد على حرب أهل منى، فقال له الرسول ﷺ: «لم نؤمر بذلك...».

ومن المتفق عليه أن أول آية نزلت في مشروعية الجهاد قوله ـ تعالى ـ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، حيث نزلت عندما قال أبو بكر ﷺ مستنكراً إخراج قريش الرسول ﷺ من مكة: «أخرجوا نبيهم! إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن». وعندما نزلت الآية، قال أبو بكر: فعرفت أن سيكون قتال [الترمذي وحسنه، وصححه الألباني].

١١ ـ اقتضت رحمة الله بعباده أن لا يحملهم واجب القتال إلى أن توجد لهم دار إسلام، تكون لهم بمثابة معقل يأوون إليه، ولقد كانت المدينة أول دار في الإسلام [البوطي]. هذا من جهة، ومن جهة أخرى حتى يتربوا التربية التي تؤهلهم للجهاد.

١٢ ـ ومن هنا تعلم أن مشروعية القتال في الإسلام لم تكن إلا بعد هجرته على الصحيح، وليس كما يفهم من كلام ابن إسحاق [في السيرة] أنه شرع قبل الهجرة عند بيعة العقبة الثانية [ابن هشام، بسند حسن]، من حديث كعب بن مالك ﷺ.

فائدة:

روى ابن إسحاق [في السيرة، بسند حسن]، أن البراء بن معرور ﷺ، **عندما جاء إلى مكة لمبايعة الرسول ﷺ في العقبة الثانية، كان يصلي ـ في تلك السفرة ـ إلى الكعبة، وعندما التقى بالرسول ﷺ قال: يا نبي الله، إني خرجت في سفري هذا، وقد هداني الله للإسلام، فرأيت أن لا أجعل هذه البَنِيَّة مني بظهر، فصليت إليها، وقد خالفني أصحابي في ذلك، حتى وقع في نفسي من ذلك شيء، فماذا ترى يا رسول الله؟ قال: قد كنت على قبلة لو صبرت عليها. فرجع البراء إلى قبلة رسول الله ﷺ، وصلى ﷺ إلى الشام...».**

وبذلك يكون البراء أول من صلى إلى الكعبة في الإسلام.



الفصل الثاني

الهجرة إلى المدينة

المبحث الأول: أسبابها

أولاً: الابتلاء والاضطهاد:

منذ أن أعلن الرسول ﷺ الدعوة ظل يتعرض لشتى أنواع المضايقات هو ومن أسلم. وقد ذكرنا ذلك في المباحث السابقة، ولذا كان رسول الله ﷺ يفكر دائماً في طلب الحماية خارج مكة، عندما استعصت عليه مكة. فكانت هجرة الحبشة، وهجرة الطائف، وأخيراً هجرة المدينة.

ومما يؤكد أن الابتلاء والاضطهاد كانا سبباً من أسباب الهجرة إلى المدينة قول بلال رضي الله عنه عندما هاجر: «. . . اللهم العن شيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة، وأمية بن خلف، كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباء. . .» [البخاري].

وقول عائشة رضي الله عنها في سبب هجرة أبيها إلى المدينة: «استأذن النبي ﷺ أبو بكر في الخروج حين اشتد عليه الأذى. . .» [البخاري].

وكان ذلك هو السبب نفسه في محاولته الهجرة إلى الحبشة من قبل هو وسائر المسلمين كما قالت عائشة رضي الله عنها: «. . . فلما ابتلي المسلمون خرج أبو بكر مهاجراً نحو أرض الحبشة. . .» [البخاري].

وذكر ابن إسحاق [في السيرة] أن من أسباب الهجرة تعذيب المسلمين.

ثانياً: وجود حماية للدعوة تمكنها من السير في طريقها:

يفهم ذلك من نصوص بيعة العقبة الثانية، كما رواها الإمام أحمد وابن إسحاق، وغيرهما. ثالثاً: التكذيب والإخراج:

ثالثاً: التكذيب والإمراج:

تكذيب كبار زعماء قريش ومعظم عامتهم الرسول ﷺ فأجبروه أن يفكر في قوم آخرين يصدقونه، كما رأينا. وقد عبر سعد بن معاذ عن هذا المعنى في قوله: «اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك ﷺ وأخرجوه». وفي رواية: «... من قوم كذبوا نبيك وأخرجوه من قريش» [البخاري].

وذكر ابن إسحاق [في السيرة] من بين ما ذكر من أسباب، أن تكذيب قريش الرسول ﷺ كان من أسباب الهجرة.

رابعاً: مخافة الفتنة في الدين:

وذلك واضح من قول عائشة رضي الله عنها عندما سئلت عن الهجرة: «كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه إلى الله ـ تعالى ـ وإلى رسوله مخافة أن يفتن عليه...» [البخاري].

ومن قول ابن إسحاق [في السيرة]: «وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم، ونفوهم من بلادهم، فهم من بين مفتون في دينه ومن بين معذب في أيديهم، وبين هارب في البلاد فراراً منهم...».

خامساً: الإذن للمسلمين بالقتال:

ذكر ذلك ابن إسحاق [في السيرة] وقال: إن الآيات ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا..﴾ [الحج: ٣٩] هي أول آيات أنزلت في إذنه له بالحرب لمن بغى عليهم، وتابع في هذا ابن عباس [كما عند أحمد في المسند بسند صحيح].
وفي كل ذلك كان المسلمون يبتغون وجه الله ـ تعالى ـ ويتحملون في سبيله كل ما يقع عليهم من الإيذاء الحسي والمعنوي ومفارقة الأهل والعشيرة والموطن.

وفي هذا يقول خباب رضي الله عنه: «هاجرنا مع رسول الله ﷺ نلتمس وجه الله، فوقع أجرنا على الله...» [البخاري].

وقد أفاضت الأحاديث في فضل الهجرة والمهاجرين [خاصة في الصحيحين]، لأن الإسلام لا تقوم له قائمة إلا بدولة تحميه، ولا يتصور وجود دولة بدون أرض تقوم عليها ورعية تسمع وتطيع لحاكمها.

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «قال النبي ﷺ للمسلمين بمكة: إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين ـ وهما الحَرَّتان ـ فهاجر من هاجر قِبَل المدينة، ورجع عامة من كان هاجر بأرض الحبشة إلى المدينة...».

أول المهاجرين

ذكر البخاري أن أول من هاجر إلى المدينة مصعب بن عمير، وعبد الله بن أم مكتوم. وذكر ابن إسحاق [في السيرة] وابن سعد أن أول من هاجر هو أبو سَلَمَة بن عبد الأسد، وجزم بذلك موسى بن عقبة [كما رواه الذهبي في السيرة]. وذكر ابن حجر [في الفتح] أنه يمكن الجمع بين حديث أهل المغازي والسير وحديث البخاري بحمل الأولوية على صفة خاصة، هي أن أبا سلمة خرج لا لقصد الإقامة بالمدينة، بخلاف مصعب، فكان عليه نية الإقامة بها، ليعلِّم من أسلم من أهلها بأمر النبي ﷺ، فلكل أولوية من جهة.

ما وقع للمسلمين في سبيل الهجرة

ذكرت أم سلمة رضي الله عنها أن زوجها أبا سلمة عندما أراد الهجرة حملها مع ابنه سلمة، فرآه أهلها، فلحقوا به، وقالوا له: «هذه نفسك غلبتنا عليها، أرأيت صاحبتك هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟»، وانتزعوها منه، وغضب عند ذلك رهط أبي سلمة، فقالوا: لا والله، لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا، فتجاذبوا الطفل بينهم حتى خلعوا يده، وذهبوا به، وانطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة، فكانت أم سلمة بعد هجرة زوجها وانتزاع ابنها منها ـ تخرج كل غداة بالأبطح، تبكي حتى تمسي، نحو سنة، فرق لها أحد ذويها، فقال لرهطه: ألا تُحرَجُون من هذه المسكينة؟ فرقتم بينها وبين زوجها وولدها، فقالوا لها: إن شئت الحقي بزوجك، فاسترجعت ابنها

من آل سلمة، وهاجرت إلى المدينة بصحبة عثمان بن أبي طلحة ﷺ [ابن إسحاق: السيرة، بسند حسن].

وعندما أراد صهيب الهجرة قال له المشركون: «أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك»، فقال لهم صهيب: «أرأيتم إن جعلت لكم مالي، أتُخْلُون سبيلي؟» قالوا: «نعم»، قال: «فإني قد جعلت لكم مالي». فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «رَبِحَ صهيب. .» [الحاكم، من حديث ابن إسحاق بسند صحيح] وفي رواية عنه أنه قال لهم عندما لحقوا به: «هل لكم أن أعطيكم أواقي من ذهب، وتخلوا سبيلي؟ ففعلوا، فقلت: احفروا تحت أُسْكُفَّة الباب، فإن تحتها الأواقي. وخرجت حتى قدمت على رسول الله ﷺ قُبَاء، قبل أن يتحول منها، فلما رآني قال: يا أبا يحيى، رَبِحَ البَيْعُ، ثم تلا هذه الآية ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ. . .﴾ الآية [البقرة: ٢٠٧] [الحاكم، وصحح إسنادها]. [الأُسْكُفَة والأُسْكُوفَة: عتبة الباب التي يوطأ عليها].

ورويت عدة روايات مرسلة في أن آية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ. . .﴾، قد نزلت فيه بمناسبة قصة هجرته. وعلق الطبري [في تفسيره] على هذه الروايات بعد أن أوردها، فقال في تعليقه: «وأما ما روي من نزول الآية في أمر صهيب، فإن ذلك غير مستنكر، إذ كان غير مدفوع جواز نزول آية من عند الله على رسول الله ﷺ بسبب من الأسباب، والمعني بها كل من شمله ظاهرها». وقال ابن كثير [في تفسيره] ـ بعد أن أورد الروايات في هذا الشأن ـ: «وأما الأكثرون فحملوا ذلك على أنها نزلت في كل مجاهد في سبيل الله. . .»، ولا تعارض بين ما ذكر الطبري وهذا الذي ذكره ابن كثير؛ لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما يقول الفقهاء.

هجرة عمر بن الخطاب ﷺ ومن معه من المسلمين

روى ابن إسحاق [في السيرة، بسند حسن] عن عمر ﷺ أنه قال: «اتَّعدت ـ لما أردنا الهجرة إلى المدينة ـ أنا وعياش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل السهمي التَنَاضُبَ من أَضَاةِ بني غِفَار، [قال البلاذري:

«التَّناضب وأضاة بني غفار، موضع واحد. الأضاة: أرض تمسك الماء، فيتكون فيها الطين. والتناضب: شجرات في هذه الأضاة، وهي لا زالت مشاهدة على جانب وادي سرف الشمالي إلى جوار قبر أم المؤمنين ميمونة، وقام بجانبها الغربي حي على بعد ثلاثة عشر كيلاً من مكة، نحو الشمال»؛ انظر محمد شراب: المعالم الأثيرة مادة: التناضب] فوق سَرِف، وقلنا: أينا لم يصبح عندها فقد حُبِسَ، فليمض صاحباه. فأصبحت أنا وعياش عند التناضب، وحبس عنا هشام، وفتن فافتتن» [وهذا الأثر أو الخبر الصحيح في قصة هجرة عمر ﷺ يخالف الحديث الضعيف المشهور عند كثير من الناس من أن عمر ﷺ أعلن هجرته، وقال للمشركين: من أراد أن تثكله أمه، وترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي.. الخبر، وأصل الخبر عند ابن الأثير: أسد الغابة (٤/ ٥٨)، وقد خرجه الألباني في دفاع، ص٤٣، وحكم عليه بالضعف. ورواه كذلك ابن عساكر: مختصر تاريخ دمشق (١٨/ ٢٧٨)].

وعندما نزلت الآية: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزمر: ٥٣ ـ ٥٥]، كتبها عمر وأرسل [ابن إسحاق، بسند حسن] بها إلى هشام بن العاص بمكة، فوجد صعوبة في فهمها، فدعا الله أن يفهمه إياها، فألقى الله في قلبه أنها نزلت في أمثاله، فلحق برسول الله ﷺ بالمدينة. وعند ابن عبد البر [في الاستيعاب] أنه هاجر بعد الخندق.

وقد ثبت أن الرسول ﷺ كان يقنت في صلاته بعد الركوع الأخير داعياً: «اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة...» الحديث، وفي رواية بزيادة: «... اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين...» [البخاري].

وقد أنجى الله هؤلاء الثلاثة وغيرهم.

وروى البخاري أن عمر بن الخطاب قدم مهاجراً إلى المدينة في عشرين راكباً من أصحاب النبي ﷺ. وقد سمَّى ابن إسحاق [في السيرة] جماعة منهم،

وصدر الرواية بقوله: «ونزل عمر بن الخطاب حين قدم المدينة ومن لحق به من أهله وقومه...»، وختمها بقوله: «... وقد كان منزل عياش بن أبي ربيعة معه حين قدما المدينة». قلت: فرواية ابن إسحاق تفسر رواية البخاري، وتدل على أن هؤلاء العشرين من أهل عمر، غير عياش، لحقوا به، ولم يرافقوه ابتداء، إذ إن من رافقه عياش. وبهذا يزول التعارض الظاهر بين الروايتين.

أما أبو بكر الصديق ﷺ، فعندما أراد أن يهاجر، استبقاه الرسول ﷺ ليصحبه في هجرته عندما يؤذن له بذلك، وظل يستعد لذلك اليوم، فاشترى راحلتين، وأخذ يعلفهما مدة أربعة أشهر [ابن هشام].

وقد روى الحاكم [وصححه، وقال الذهبي: «صحيح غريب»]، أن الرسول ﷺ قال لجبريل عليه السلام: «من يهاجر معي؟ قال: أبو بكر الصديق».

وتتابعت مواكب المؤمنين إلى دار الهجرة، دار الإسلام، ولم يبق أحد في دار الكفر، دار الحرب، إلا مستضعف مغلوب على أمره، أو صاحب عذر.

وكان آخر من بقي ممن هاجر عبد الله بن جحش ﷺ. وكان قد كف بصره، فلما أجمع على الهجرة كرهت امرأته ذلك، وجعلت تشير عليه أن يهاجر إلى غير المدينة، فهاجر بأهله وماله سراً، حتى قدم المدينة، وسطا أبو سفيان على داره بمكة فباعها. ومر بها بعد ذلك أبو جهل، وعتبة، وشيبة ابنا ربيعة، والعباس بن عبد المطلب، وحويطب بن عبد العزى، وفيها أُهُبٌ [جلود غير مدبوغة] معطوبة، فذرفت عينا عتبة، وتمثل ببيت من شعر، هو:

وكل دار وإن طالت سلامتها
يوماً سيدركها النكباء والحوب

وأقبل أبو جهل على العباس قائلاً: «هذا ما أدخلتم علينا» [الطبراني].

وروى هذه القصة ابن إسحاق [في السيرة] بنحو رواية الطبراني عند الهيثمي، ولكن في روايته أن الكفيف هو عبد بن جحش وكنيته «أبو أحمد» وهو أخو عبد الله بن جحش، وأن زوجته هي الفرعة بنة سفيان بن حرب، وأن

أخاه عبد الله حمله معه عندما هاجر إلى المدينة مع أهله. ويبدو أن رواية ابن إسحاق هي الأقرب إلى الصواب، فقد ذكرها ابن حجر [في الإصابة]، ولم يذكر غيرها.

وفي هذه القصة وغيرها دليل على أن كثيراً من الدور بمكة قد خلت من أصحابها.

المبحث الثاني: هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة

انظر ملحق (٢) الخريطة هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة

أولاً: تآمر قريش:

عندما علم المشركون بما تم بين الرسول ﷺ والأنصار في العقبة الثانية، وعندما رأوا المسلمين يهاجرون إلى المدينة زرافات ووحداناً، خشوا من تجمع المسلمين بالمدينة، وخروج الرسول ﷺ إليهم ليقودهم نحو تحقيق ما يريد، ولذا قرروا التخلص منه ﷺ، فعقد زعماؤهم اجتماعاً خطيراً في دار الندوة، ليتشاوروا في أنجع الوسائل للتخلص من الرسول ﷺ.

وقد ذكر القرآن الكريم مضمون الآراء التي طرحت في ذلك الاجتماع. قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] [أحمد: المسند، وحسن ابن كثير في البداية إسناده]. [ليثبتوك: ليسجنوك].

وجاءت الأحاديث والآثار مفصلة ما أجملته هذه الآية. فإضافة إلى ما جاء في رواية ابن عباس عند أحمد في سبب نزول الآية ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ﴾ هناك رواية أخرى عن ابن عباس عند ابن إسحاق [في السيرة] فيها تفصيل أكثر عن هذه المؤامرة [ورواه الطبري في تاريخه موصولاً من حديث ابن إسحاق، بسند حسن].

ففي هذه الرواية أنهم عندما اجتمعوا في دار الندوة للتشاور في أمر رسول الله ﷺ جاءهم إبليس في صورة رجل شيخ، مدعياً أنه من أهل نجد، قال: إنه سمع بالذي اجتمعوا له، وأراد أن يشاركهم الرأي والنصيحة، فأذنوا له... [يذكر السهيلي في الروض (٢/ ٢٢٩) أنه ادعى ذلك، لأنهم قالوا لا يدخلن معكم في المشاورة أحد من أهل تهامة، لأن هواهم مع محمد].

وعندما دارت المناقشة واقترح أحد المؤتمرين أن يحبسوا الرسول ﷺ، قال الشيخ النجدي: «لا والله، ما هذا لكم برأي، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب هذا الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم...».

ثم اقترح أحدهم أن ينفوه، فدحض النجدي الاقتراح مبيناً أن حسن حديث الرسول ﷺ ومنطقه وأسره القلوب سيجذب الناس إليه، ويغلب بهم قريشاً. وأخيراً اقترح أبو جهل أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شاباً نسيباً وسيطاً فيهم، ويعطى كل واحد منهم سيفاً صارماً، فيضربون جميعاً بأسيافهم محمداً ضربة رجل واحد، ليتفرق دمه بين القبائل، ولا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فيرضوا بالدية.

أيد النجدي هذا الاقتراح، ووافق عليه الجميع، وتفرقوا على ذلك، ولم يبق إلا التنفيذ [لم تحدد الرواية الساعة التي اجتمعوا فيها، هل كانت ليلاً أم نهاراً، ولم نقف على المدة الزمنية بين اتخاذ قرار القتل وبين الشروع في التنفيذ].

ثانياً: الإذن بالهجرة، والتخطيط لها ثم الشروع فيها:

بعد اتخاذ هذا القرار، أتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ وأخبره به، وأمره بعدم المبيت على فراشه هذه الليلة، والهجرة.

روى البخاري والطبري [في التاريخ، بسند حسن]، من حديث ابن إسحاق أنه عندما أذن للرسول ﷺ وأمر بالهجرة جاء متقنعاً إلى منزل أبي بكر رضي الله عنه في وقت لم يعتد أن يزوره فيه، في نحر الظهر ـ أول النهار ـ وهو أشد ما يكون في حرارة النهار. وعندما أخبر أبو بكر بقدومه علم أن قدومه في تلك الساعة وبتلك الكيفية، إنما هو لأمر خطير.

وعندما أذن له أبو بكر بالدخول طلب أن يخرج من عنده حتى لا يعرف ما يقول له، وطمأنه أبو بكر بأن من عنده هم أهل الرسول ﷺ، ثم أخبر أبا بكر بأن الله قد أذن له بالهجرة، وطلب أبو بكر أن يصحبه، فأكد له ما سبق أن ألمح له به من قبل، وأراد أبو بكر من الرسول ﷺ أن يأخذ إحدى الراحلتين، فوافق الرسول ﷺ، ولكن على أن يدفع ثمنها.

إن قول أبي بكر للرسول ﷺ: إن من عنده هم أهل الرسول ﷺ يريد بذلك عائشة وأسماء رضي الله عنهما وهما مسلمتان، وعائشة رضي الله عنها قد عقد عليها الرسول ﷺ، فهي زوجته، فلا خوف منهما. وقد صرح بهذا المعنى موسى بن عقبة في روايته، [عند ابن حجر في الفتح]، فقال: «أخرج من عندك، قال: لا عين عليك، إنما هما ابنتاي»، وفي روايته عن ابن شهاب، قال: «قالت عائشة: وليس عند أبي بكر إلا أنا وأسماء» ـ وفي رواية ابن إسحاق [في السيرة، ووصلها الطبري في تاريخه، بسند حسن]: «إنما هما ابنتاي».

عند لقاء الرسول ﷺ بأبي بكر أخذا في وضع خطة للهجرة وإبطال كيد الكافرين. وكانت الخطة كالآتي، كما ذكرها البخاري وابن إسحاق:

١ ـ أن يخرجا ليلاً إلى غار ثَوْر [البخاري]، في الجهة الجنوبية الغربية من مكة، وفي هذا تمويه على الكفار؛ لأن أنظارهم ستتجه للبحث عن الرسول ﷺ في الجهة الشمالية ـ جهة المدينة.

٢ ـ أن يمكثا في الغار مدة ثلاثة أيام [المصدر نفسه، وغيره]، حتى يخف الطلب عنهما.

٣ ـ استأجرا دليلاً ماهراً عارفاً بمسالك طرق الصحراء، ليقودهما إلى المدينة، وهو عبد الله بن أُرْقُد [كذا في أصل سيرة ابن هشام المخطوط بالأسكوريال (ق٤٦/ب)، بالدال، وفي المطبوع «أريقط»، فلعله تصحف في المطبوع من سيرة ابن هشام، قاله الدكتور سليمان العودة، ص٤٠٧، حاشية، والمشهور عند أهل السير: «أريقط». قلت وفي المطبوع من تاريخ الطبري «أرقد»، فانظره في (٢/ ٣٨٠) من حديث ابن إسحاق بإسناد حسن، وقال محقق السيرة الشامية (٣/ ٣٤٦، الحاشية) إنه في المخطوط «أرقد» وذكره الذهبي في التجريد (١/ ٢٩٩) من الصحابة، وقال ابن حجر في الإصابة (٢/ ٢٧٤): «ولم أجد من ذكره في الصحابة غير الذهبي»، وقال ابن الأثير في «منال الطالب» (ص١٧٧): «نقل عن أبي موسى أنه لا يعرف له إسلاماً»] الدِّيْلي، وكان مشركاً، واستكتماه الخبر، واتفقا معه على أن يلحق بهما في غَار ثور بعد ثلاثة أيام، ودفعا إليه بالراحلتين اللتين اشتراهما أبو بكر، وكان يعلفهما لهذا اليوم [البخاري].

٤ ـ أعدت لهما أسماء زاداً، ووضعته في جراب، وقطعت من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاق، وفي رواية: ذات النطاقين [البخاري؛ ابن إسحاق: السيرة؛ ابن سعد].

٥ ـ أمر أبو بكر ابنه عبد الله أن يتسمع لهما ما يقوله الناس عنهما في النهار، فيأتيهما به بالليل في الغار، ثم يرجع إلى مكة في السَّحَر، ليصبح مع قريش [البخاري وابن إسحاق في السيرة].

٦ ـ أمر مولاه عامر بن فُهَيْرَة أن يرعى غنمه نهاره، ثم يُرِيحَها عليهما في الغار إذا أمسى، ليطعما من ألبانها [البخاري]، ويذبحا منها للأكل، ويزيل بها آثار أقدام عبد الله بن أبي بكر [ابن إسحاق: السيرة].

٧ ـ أمر أسماء أن تأتيهما من الطعام بما يصلحهما في كل مساء [المصدر نفسه].

٨ ـ وانطلق رسول الله ﷺ إلى علي بن أبي طالب، فأمره أن يتخلف بعده بمكة ريثما يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، إذ لم يكن أحد من أهل مكة له شيء يخشى عليه إلا استودعه عند رسول الله ﷺ لما يعلمون من صدقه وأمانته [ابن إسحاق في التاريخ معلقاً، ووصله الطبري في تاريخه بسند حسن].

٩ ـ أمره أن ينام على فراشه، ويتسجى ببرده الحضرمي الأخضر الذي ينام فيه، وطمأنه بأنه لن يصل إليه منهم شيء يكرهه، وذلك للتمويه [أحمد: المسند، بسند حسن؛ والحاكم؛ وابن إسحاق: السيرة، وهو حسن بشواهده].

١٠ ـ أمر أبو بكر عامر بن فُهَيْرَة أن يصحبهما في هجرتهما؛ ليخدمهما، ويعينهما في الطريق [البخاري].

لقد أمر الله الرسول ﷺ بهذه الهجرة بعد أن مكث في مكة ثلاث عشرة سنة يوحىٰ إليه [البخاري]. وعندما أمره بالهجرة أنزل عليه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾ [أحمد: المسند، بسند صحيح] [الإسراء: ٨٠]. وكان ما أراده الله له في هذا الدعاء الموجز المعبر، والذي اختاره له الله؛ ليجعله مفتاحاً للطمأنينة.

أما في الجانب الآخر، فقد اختار زعماء قريش في ندوتهم أحد عشر زعيماً يمثلون قبائل قريش المعادية للإسلام، فقضوا نهار يومهم ذاك في الإعداد لتنفيذ القرار الذي اتخذوه في دار الندوة.

ومع علم الرسول ﷺ بهذا القرار لم ينس أن يقوم بعمل إيماني بطولي، يعد بمفهومنا المادي اليوم «مغامرة»، بل قال عنه الذهبي «منكر»، أي غير منطقي. وهو أنه ذهب في تلك الليلة مع علي إلى الكعبة، وأمره أن يصعد على منكبه إلى فوق الكعبة، ليرمي صنم قريش الذي كان من نحاس وموتد بأوتاد من حديد. وعندما كان علي يعالج الصنم ليفكه، كان الرسول ﷺ يقول: «جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقاً».

وتمكن علي من فكه ورميه وتكسيره، وانطلقا، ولم يرهما أحد، ولم يرفع الصنم بعد ذلك [الحاكم، وصححه ووافقه الذهبي وأنكر متنه].

وهذا التصرف عندنا لمن المعجزات الدالة على عناية الله برسوله ﷺ.

فلما كانت عَتْمَةٌ من الليل اجتمع القوم المنوط بهم تنفيذ الخطة، على باب الرسول ﷺ يترقبون نومه، ليثبوا عليه، وكان معهم أبو جهل، ليطمئن على سير الخطة، ويشجعهم على التنفيذ، ومما كان يفعله بهذا الصدد السخرية من محمد ﷺ والتشكيك في دعوته، فتراه يقول لهم: «إن محمداً يزعم أنكم إذا تابعتموه على أمره كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها» [ابن إسحاق: السيرة، وسنده مرسل حسن].

وبينما هم على هذه الحالة خرج عليهم رسول الله ﷺ، وقد سمع كلام أبي جهل، فأخذ حفنة من تراب، ثم قال: أنا أقول ذلك، أنت أحدهم، فجعل ينثر التراب على رؤوسهم، وهم لا يرونه؛ لأن الله قد أخذ على أبصارهم، وهو يتلو الآيات من سورة «يس»: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ . . .﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩] وتركهم على هذه الحالة، ثم خرج [ابن إسحاق: السيرة].

قال السهيلي: «. . . فذكر بعض أهل التفسير السبب المانع لهم ـ أي الكفار ـ من التقحم عليه في الدار مع قصر الجدار، وأنهم إنما جاءوا لقتله، فذكر في الخبر أنهم هموا بالولوج عليه، فصاحت امرأة من الدار، فقال بعضهم لبعض: والله إنها للسبة في العرب أن يتحدث عنا أنَّا تسورنا الحيطان على بنات العم، وهتكنا ستر حرمتنا، فهذا هو الذي أقامهم بالباب حتى أصبحوا ينتظرون خروجه، ثم طمست أبصارهم عنه حين خرج. .». وعبارة الشامي [في السبل]: «. . أن بعض أهل السير ذكروا السبب المانع من ذلك مع قصر الجدار»، فذكر هنا أن المصدر هو أهل السير، وليس أهل التفسير كما عند السهيلي.

وعندما خرج أبو بكر كان يحمل معه كل ماله، وقدره خمسة آلاف أو ستة آلاف درهم [[ابن إسحاق في السيرة، بسند حسن].

وفي طريقهما إلى الغار، وقبل أن تختفي مكة عن الأنظار، نظر إليها الرسول ﷺ بعاطفة مشحونة بالذكريات، تدل على حبه لها لما بها من رموز في حياته. فكيف لا يحبها، وقد أحبها الله ﷻ وجعل بها بيته المقدس، وفيها أرسله الله إلى العالمين؟! وقف ينظر إليها، وهو يقول: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك لما خرجت» [الألباني: صحيح الترمذي].

وقال عنها في رواية أخرى: «ما أطيبك من، بلد، وأحبك إليّ! ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك».

أما المتآمرون فعندما رآهم أحد الناس أمام الباب، سألهم عن سبب وجودهم أمامه، فأخبروه الخبر، فأعلمهم أن النبي ﷺ قد خرج فلم يصدقوه؛ لأنهم يرون علياً نائماً على فراش النبي ﷺ، فظنوه محمداً ﷺ. ولم يكتشفوا الحقيقة إلا عندما قام علي من الفراش في الصباح [ابن إسحاق: السيرة، مرسلاً، يعتضد بغيره].

وعند هذا أخذوا في وضع الخطط للعثور عليه، ومن ذلك:

١ ـ إلقاء القبض فوراً على علي وضربه وسحبه إلى الكعبة، ثم اعتقاله

بعضاً من الوقت، لحين التحقيق معه، للوصول إلى معلومات تفيدهم في العثور على الرسول ﷺ. ولكنهم فشلوا معه [المباركفوري والمنصفوري، ولم يحددا المصدر].

٢ ـ جاء نفر منهم إلى منزل أبي بكر ﷺ وفيهم أبو جهل، لعلهم يجدونه هناك، ويفعلون به مثلما فعلوا بعلي، فخرجت إليه ابنته أسماء، فسألوها عن والدها، فقالت: إنها لا تدري أين هو؟ فغضب أبو جهل لهذا الجواب، فلطمها لطمة طرح منها قُرْطَها [ابن إسحاق: السيرة].

٣ ـ وضعوا جميع الطرق النافذة من مكة تحت المراقبة الدقيقة.

٤ ـ قرروا منح جائزة مقدارها دية كل من الرسول ﷺ وأبي بكر لمن يعثر عليهما حيين أو ميتين [البخاري، وابن إسحاق: السيرة، وقال: إن الجائزة مئة ناقة لمن يرد الرسول ﷺ إليهم].

٥ ـ استأجروا قصاص الآثار، ليتبعوا آثارهما حيثما حلا [ابن حجر: الفتح] [وقال ابن حجر في الإصابة (٣/ ٢٩٣): «ذكر أبو سعيد في «شرف المصطفى» أن المشركين كانوا استأجروا كُرْز بن علقمة لما خرج النبي ﷺ مهاجراً، فقفا أثره حتى انتهى إلى غار ثور، فرأى نسج العنكبوت على باب الغار فقال: «إلى هنا انتهى أثره، ثم لا أدري أخذ يميناً أو شمالاً، أو صعد الجبل؟»].

الطريق إلى الغار

روى البيهقي [في الدلائل] وغيره [منهم الحاكم، مرسلاً على شرط الشيخين، وابن حجر في الفتح، وابن هشام، وابن كثير في البداية، يتقوى بشواهده] أنهما عندما انطلقا إلى الغار جعل أبو بكر يمشي ساعة بين يدي الرسول ﷺ وساعة خلفه، وعندما فطن له سأله عن السبب، قال يا رسول الله: «أذكر الطَّلَبَ فأمشي خلفك، ثم أذكر الرَّصَدَ فأمشي بين يديك»، فقال له الرسول ﷺ: «يا أبا بكر، لو كان شيء أحببت أن تكون لك دوني؟»، قال: «نعم، والذي بعثك بالحق ما كان لتكون من ملمة إلا أحببت أن تكون لي دونك».

أما الخبر الذي يروى عن عمر، وفيه أن رسول الله ﷺ عندما خرج من مكة ليلاً، ومعه أبو بكر، فجعل يمشي مرة أمامه ومرة خلفه يحرسه، وعندما حفيت قدما الرسول ﷺ حمله على كاهله إلى فم الغار، وسده أحجار الغار بقدمه، والحيات تلسعه، ودموعه تسيل على الرسول ﷺ. . . هذا الخبر قاله عنه الذهبي [في السيرة]: «وهو منكر، سكت عنه البيهقي [في الدلائل]، وساقه من حديث يحيى بن أبي طالب، أخبرنا عبد الرحمٰن بن إبراهيم الراسبي. . . . وآفَتُهُ من هذا الراسبي، فإنه ليس بثقة، مع كونه مجهولاً، ذكره الخطيب في تاريخه فغمزه».

وقال ابن كثير [في البداية] عن هذا الحديث بعد أن ساقه من رواية البيهقي المشار إليها: «وفي هذا السياق غرابة ونكارة». وزاد الدكتور السعود [رسالة الهجرة] بعد قول ابن كثير هذا: «نعم، لأنه في سنده فرات بن السائب ـ ضعفه أبو حاتم وأبو زرعة ـ وقال أبو حاتم: «منكر الحديث» وقال البخاري: «تركوه، منكر الحديث»، فهذا الخبر ضعيف منكر».

في الغار

وعندما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر للرسول ﷺ: «مكانك ـ يا رسول الله ـ حتى أستبرئ [أي يتأكد من سلامته وخلوه من الآفات الضارة] لك الغار»، فدخل فاستبرأه، ثم تذكر أنه لم يستبرئ الجحر الذي فيه، فقال: «مكانك ـ يا رسول الله ـ حتى أستبرئ»، فدخل فاستبرأ، ثم قال: «انزل، يا رسول الله»، فنزل الرسول ﷺ إلى الغار [البيهقي في الدلائل، مرسلاً؛ والحاكم، مرسلاً، وصححه، ووافقه الذهبي].

ركبت قريش في كل وجه يطلبون النبي ﷺ، وبعثوا إلى أهل المياه يأمرونهم، ويجعلون لهم الجعل العظيم، وأتوا على جبل ثور الذي فيه الغار، الذي فيه النبي ﷺ، وطلعوا فوقه، وسمع الرسول ﷺ وأبو بكر أصواتهم، فأشفق أبو بكر، وأقبل عليه الهم والخوف والحزن، وقال: «يا رسول الله ﷺ لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه». فقال النبي ﷺ: «يا أبا بكر، ما ظنك باثنين، الله ثالثهما؟ [متفق عليه]». وفي هذا نزل قول الله

ـ تعالى ـ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] [متفق عليه].

وحمى الله نبيه في الغار من كل سوء. ومن أدلة حماية الله له ولصاحبه: ما روى أحمد [في المسند، بسند حسن] أن قريشاً اقتفوا أثرهما، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا الجبل، فمروا بالغار، فرأوا على بابه نسج العنكبوت. فقالوا: لو دخل هاهنا أحد لم يكن نسج العنكبوت على بابه. وروي مثله عن الحسن البصري، وزاد فيه أن النبي ﷺ كان يصلي في تلك اللحظات، وأبو بكر يرتقب [ابن كثير: البداية، حسن بشواهده].

ومرت أيام الغار بسلام، إلا ما ذكر من أن حجراً أصاب يد رسول الله ﷺ فقال:

«هل أنت إلا أصبع دميت
وفي سبيل الله ما لقيت»

وقد رويت بعض الأخبار الواهية فيما يتعلق بفترة وجود النبي ﷺ وأبي بكر بغار ثور، ومن أشهرها:

١ ـ ما رواه ابن سعد والبزار [في كشف الأستار] من أن الله أمر شجرة فنبتت في وجه النبي ﷺ فسترته، وأمر الله العنكبوت، فنسجت على وجهه فسترته، وأمر الله حمامتين وحشيتين فوقعتا بفم الغار، وأن فتيان قريش عندما وصلوا إلى قدر أربعين ذراعاً من فم الغار، نظر أولهما فرأى الحمامتين، فرجع، فقال له أصحابه: «مالك لم تنظر في الغار؟» قال: «رأيت حمامتين وحشيتين بفم الغار، فعرفت أن ليس فيه أحد»، فسمع النبي ﷺ قوله، فعرف أن الله قد درأ عنه بهما فَسَمَّتَ [أي بارك بالدعاء] عليهن، وفرض جزاءهن، وانحدرتا في حرم الله، فأفرخا، وأن نسل حمام الحرم منهما.

٢ ـ روى بعض أهل السير أن أبا بكر لما قال للرسول ﷺ: «لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا تحت قدميه» [قلت: وإلى هنا ورد بإسناد صحيح كما عند ابن حنبل في الفضائل برقم ١٧٩] قال النبي ﷺ: «لو جاؤونا من

ههنا لذهبنا من هنا» فنظر الصديق إلى الغار قد انفرج من الجانب الآخر، وإذ البحر اتصل به، وسفينة مشدودة إلى جانبه [ابن كثير: البداية].

٣ ـ ما روي من أن أبا بكر قال لابنه: يا بني إن حدث في الناس حدث فأت الغار الذي رأيتني اختبأت فيه أنا ورسول الله ﷺ فكن فيه، فإنه سيأتيك فيه رزقك غدوة وعشية [البزار، كما فيس البداية]».

٤ ـ ما روي من أن رجلاً من المشركين جاء حتى استقبل رسول الله ﷺ بعورته يبول، فقال أبو بكر: «يا رسول الله: أليس الرجل يرانا؟» قال: «لو رآنا لم يستقبلنا بعورته [الهيثمي: المجمع]».

٥ ـ ما روي أن أبا بكر عطش في الغار، فقال له رسول الله ﷺ: «اذهب إلى صدر الغار فاشرب»، فانطلق أبو بكر إلى صدر الغار، فشرب منه ماء أحلى من العسل، وأبيض من اللبن، وأذكى رائحة من المسك، ثم عاد، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله أمر الملك الموكل بأنهار الجنة أن اخرق نهراً من جنة الفردوس إلى صدر الغار لتشرب [السيوطي: الخصائص]».

التوجه إلى المدينة

ولما انقطع الطلب عنهما، جاءهما الدليل ـ ابن أرقد ـ بعد ثلاث ليال من بقائهما في الغار، ومعه الراحلتان، وكان معهما عامر بن فهيرة. انطلق الأربعة إلى المدينة، عن طريق الساحل [البخاري وابن إسحاق في السيرة].

بعد أن اتخذ الرسول ﷺ جميع الأسباب التي في مقدور البشر لينجو من الأعداء كان مطمئناً، ولسانه رطب بذكر الله، بالدعاء، بينما كان أبو بكر يكثر الالتفات؛ حرصاً منه على سلامة الرسول ﷺ [البخاري].

وعندما حانت ساعة المقيل في يومهم ذاك، وخلا الطريق، رفع الله لهم صخرة طويلة لها ظل، لم تأت عليها الشمس، فنزلوا عندها، وسوى أبو بكر بيده مكاناً تحتها، وبسط عليها فروة، وطلب من الرسول ﷺ أن ينام، وخرج هو ليراقب المكان، فإذا هو براع مقبل بغنمه إلى الصخرة، يريد منها مثل ما

أرادوا. وتكلم معه أبو بكر ليعرف أمره، فعرف أنه رجل من أهل مكة، ورضي أن يحلب لهم من شاة له، وطلب منه أبو بكر أنْ ينظف الضرع قبل الحليب، وكره أن يوقظ الرسول ﷺ للشرب، فانتظره حتى استيقظ، فشرب حتى رضي أبو بكر، ثم أمر بالرحيل [البخاري].

وكان الرسول ﷺ يردف أبا بكر معه على راحلته، وكان إذا سأل أحد أبا بكر في الطريق عن الرسول ﷺ، يقول: هذا الرجل يهديني السبيل، فيحسب السائل أنه يعني الطريق، وإنما كان يعني سبيل الخير [البخاري].

وروى البخاري ومسلم من حديث سُرَاقَة بن مالك أنهم مروا في طريقهم بحي بني مُدْلج، فرآهم رجل منهم، فجاء إلى مجلس من مجالس قومه، وفيهم سراقة بن مالك، فقال: «يا سراقة، إني قد رأيت آنفاً أَسْوِدَة بالساحل، أراها محمداً وأصحابه». قال سراقة: «فعرفت أنهم هم: فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنّك رأيت فلاناً وفلاناً، انطلقوا بأعيننا»، ثم لبث في المجلس ساعة، ثم قام فدخل داره، وأمر جاريته أن تخرج بفرسه إلى ما وراء الأَكَمَةِ، ثم تجهز هو، وتسلل إلى مكان فرسه، فركبها، وانطلق بها. وعندما دنا من محمد ﷺ وأصحابه عثرت به فرسه، فنزل عنها وأخرج الأزلام، فاستقسم بها ليعرف: هل يضرهم أم لا؟ فخرج السهم الذي يكره، وهو ألا يضرهم، ولكنه عصى فركب فرسه، وانطلق إلى أن وصل مكاناً يسمع منه دعاء الرسول ﷺ ساخت يدا فرسه في الأرض حتى بلغتا الركبتين، فنزل عنها، ثم زجرها، فنهضت. وعندما انتزع الفرس يديه من الأرض تبعهما دخان كالإعصار، فعرف حين رأى ذلك أن رسول الله ﷺ قد منع منه، وأن أمره سيظهر، فاستقسم بالأزلام، فخرج الذي يكره، فناداهم بالأمان، فوقفوا، فركب فرسه حتى جاءهم، ووقع في نفسه حين لقي ما لقي من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ، فأخبر الرسول ﷺ أن قومه قد جعلوا فيه الدية، وأخبرهم أخبار ما يريد الناس، وعرض عليهم الزاد والمتاع، ولكنهم لم يطلبوا منه شيئاً سوى أن الرسول ﷺ طلب منه أن يخفي عنهم. وسأله سراقة أن يكتب له كتاب أمان، فأمر عامر بن فهيرة، فكتب له ما أراد في رقعة من جلد، ثم مضوا.

روى البخاري بسنده إلى أبي بكر ﷺ: «ارتحلنا، والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا منهم أحد غير سراقة بن مالك بن جُعْشُم على فرس له، فقلت هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله، فقال: لا تحزن، إن الله معنا».

وعندما رجع سراقة إلى قومه، جعل يقول لهم: «قد استبرأت لكم الخبر. قد كُفِيْتُم ما ههنا» [البخاري]. وهكذا كان أول النهار جاهداً عليهما وآخره حارساً لهما [البخاري].

وكان كتاب الأمان مع سراقة إلى أن جاء به الرسول ﷺ، عندما فرغ من حنين والطائف، فوفاه له رسول الله ﷺ وقال: «يوم وفاء وبر» ويومها أسلم سراقة [ابن إسحاق في السيرة بإسناد حسن].

روى ابن حجر [في الإصابة] وابن عبد البر [في الاستيعاب] وغيرهما أن رسول الله ﷺ قال لسراقة بن مالك: «كيف بك إذا لبست سواري كسرى؟» قال: فلما أتي عمر بسواري كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة بن مالك فألبسه إياهما، وكان سراقة رجلاً أزب كثير شعر الساعدين، وقال له: ارفع يديك، فقال: الله أكبر، الحمد لله الذي سلبهما كسرى بن هرمز، الذي كان يقول: أنا رب الناس، وألبسهما سراقة بن مالك بن جُعْشَم، أعرابي من بني مدلج، ورفع بها عمر صوته».

وذكر ابن إسحاق [من رواية ابن بكير كما ذكر البيهقي في الدلائل] أبياتاً من الشعر يحرض فيها أبو جهل قوم سراقة على سراقة، ورد عليه سراقة أيضاً بأبيات من الشعر [ابن كثير: البداية].

ثم مر رسول الله ﷺ وصحبه في مسيره ذلك بخيمتي أم مَعْبَد الخُزَاعِيَّة، فسألوها إن كان عندها طعام، فاعتذرت بالجدب، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة قرب الخيمة، فسألها عنها، فقالت: شاة خلفها الجهد عن الغنم، فقال: «هل بها من لبن؟» قالت: «هي أجهد من ذلك». فاستأذنها في حلبها، فأذنت له قائلة: «إن رأيت بها حلباً فاحلبها». فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها، وسمى الله ودعا، فدرت، فدعا بإناء لها، فحلب فيه، فسقاها حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، ثم شرب، وحلب فيه ثانياً حتى ملأ الإناء، وتركه لها، ثم ارتحلوا.

وعندما جاء زوجها أبو معبد، ورأى اللبن عجب من ذلك، فأخبرته بالذي حدث من محمد ﷺ، فقال: «والله إني لأراه صاحب قريش الذي تطلبه»، وطلب منها أن تصفه له، فوصفته له، وعندما سمع وصفها، قال: «والله هذا صاحب قريش الذي ذكروا من أمره ما ذكروا، لقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إنْ وجدت إلى ذلك سبيلاً»، وأصبح صوت بمكة عالياً، يسمعونه ولا يرون القائل:

سلوا أختكم عن شاتها وإنائها

فإنكم إن تسألوا الشاء تشهد

[الحاكم، بسند حسن لغيره].

ومرَّ الركب في طريقه بعبد يرعى غنماً، فطلبوا منه طعاماً، فاعتذر لهم بأن لا لبن في شياهه، إلا شاة ـ أو عناقاً ـ جف لبنها قريباً، فاستأذنه الرسول ﷺ، فمس ضرعها فحلبت، ورووا منها جميعاً، وعندما رأى الراعي ذلك أسلم، وطلب أن يتابع الرسول ﷺ، ولكن الرسول ﷺ طلب منه أن يأتي عندما يسمع بظهوره، يعني بعد التمكين [الحاكم؛ وابن كثير: البداية].

وروى أحمد [المسند، بسند حسن]، عن ابن مسعود رضي الله عنه والطيالسي [منحة المعبود، بسند صحيح]، قال: كنت غلاماً يافعاً أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط بمكة، فأتى عليَّ رسول الله ﷺ وأبو بكر، وقد فرا من المشركين، فقال: أو فقالا: «عندك ـ يا غلام ـ لبن تسقينا؟» قلت: إني مؤتمن، ولست بساقيكما، فقال: «هل عندك من جذعة لم يَنْزُ عليها الفحل بعد؟ قلت: نعم، فأتيتهما بها، فاعتقلها أبو بكر، وأخذ رسول الله ﷺ الضرع، ودعا، فحفل الضرع، وأتاه أبو بكر بصخرة متقعرة فحلب فيها، ثم شرب هو وأبو بكر، ثم سقياني، ثم قال للضرع: أقلص. فقلص، فلما كان بعد أتيت رسول الله ﷺ فقلت: علمني من هذا القول الطيب، يعني القرآن، فقال: «إنك غلام مُعَلَّم»، فأخذت من فيه سبعين سورة، ما ينازعني فيها أحد [ابن كثير: السيرة].

ولقوا في طريقهم ركباً من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام، فيهم الزبير فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر بثياب بيض [البخاري].

وعندما وصلوا العرج احتاجوا للاستفسار عن الطريق، فدلهم أحد

القاطنين على الطريق، وبين لهم أن الطريق القريب عليه لصان من قبيلة أسلم، يقال لهما: «المهانان»، ولم يبال الرسول ﷺ بهما، وعندما لقيهما عرض عليهما الإسلام، فأسلما، وسماهما «المكرمان»، وطلب منهما القدوم عليه في المدينة [عبد الله بن الإمام أحمد: الزوائد على المسند].

وروى البزار [كشف الأستار] وابن الأثير [أسد الغابة] بسنديهما إلى بُرَيْدَة بن الحُصَيْب الأَسْلَمِي، أن رسول الله ﷺ لما أقبل في مهاجره لقي ركباً، فقال: «يا أبا بكر: سل القوم فممن هم؟» قالوا: من أسلم، قال: «سلمت ـ يا أبا بكر ـ سلهم من أي أسلم؟» قالوا: من بني سهم، قال: «ارم بسهمك، يا أبا بكر».

وروي أنهم عندما وصلوا الجحفة وجدوا إبلاً، فقال رسول الله ﷺ: «لمن هذه الإبل؟» فقالوا: «لرجل من أسلم»، فتفاءل ﷺ: وقال لأبي بكر: «سلمت إن شاء الله»، وسأل الراعي عن اسمه، فقال: «مسعود»، فتفاءل ﷺ وقال لأبي بكر: «سعدت إن شاء الله» [البداية والمعرفة لأبي نعيم].

وقيل: إن إحدى راحلتيهما تخلفت عنهما، فعندما جاء صاحب الإبل، وهو أوس بن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن حُجْر الأسلمي، أعطاهما فحلاً، وطلب من غلامه مسعود أن يصحبهم إلى المكان الذي يريدونه، فوصل معهم إلى قباء [الاستيعاب، بسند حسن].

وروي أن أوس بن عبد الله بن حجر الأسلمي مر برسول الله ﷺ ومعه أبو بكر «بحدوات»، بين الجحفة وهرشى، وهما على جمل واحد متوجهين إلى المدينة، فحملهما على فحل إبله «ابن الرداء»، وبعث معهما غلامه مسعوداً، وطلب منه أن يسلك بهما حيث يعلم من الطريق، ولا يفارقهما حتى يقضيا حاجتهما منه. . . فأوصلهما المدينة ثم عاد، وقد حمله وصية إلى سيده، وهي أن يسم إبله على أعناقها [ابن هشام؛ وابن حجر: الإصابة؛ وابن عبد البر: الدرر، وحسنه].

ولقي ركب الهجرة عند الغميم بريدة بن الحصيب الأسلمي ـ زعيم قومه حينذاك ـ وكان قد خرج في طلب النبي ﷺ وأبي بكر، أملاً في الفوز بالجائزة المعلنة من قبل قريش. وعندما التقى رسول الله ﷺ، وحدثه الرسول ﷺ في

أمر الإسلام أسلم، وأسلم معه زهاء ثمانين بيتاً من قومه، وقيل: سبعين [أهل التراجم]. وبات بريدة مع الرسول ﷺ، وفي الصباح قال بريدة: «يا رسول الله: لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء». فحمل عمامته، ثم شدها في رمح، ثم مشى بين يديه حتى دخل المدينة [الديار بكري].

الوصول إلى المدينة

روى البخاري وابن إسحاق [في السيرة؛ بسند حسن] والحاكم [بسند صحيح] وغيرهم أنه عندما بلغ الأنصار مخرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة، كانوا يخرجون كل يوم إلى الحرة ينتظرونه أول النهار، فإذا اشتد الحر رجعوا إلى منازلهم. فلما كان يوم الاثنين، ١٢/ ٣/ ١هـ، خرجوا على عادتهم، فلما حمي الحر رجعوا. وصعد رجل من اليهود على أطم من آطام المدينة لبعض شأنه، فرأى رسول الله ﷺ وأصحابه، فصرخ بأعلى صوته: «يا معشر العرب [عند ابن إسحاق: «يا بني قيلة»، يعني الأنصار، وهو اسم جدة لهم، ابن هشام (٢/ ١٥٧)]، هذا جدكم الذي تنتظرون»، فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة، وسمعت الرَّجَّة والتكبيرة في بني عمرو بن عوف، وكبَّر المسلمون فرحاً بقدومه، وخرجوا للقائه، فتلقوه، وحيَّوه بتحية النبوة. وكان مَنْ لم ير الرسول ﷺ من قبل يحيي أبا بكر ظناً منهم أنه الرسول ﷺ. وعندما اشتد الحر قام أبو بكر، فأظل النبي بردائه، فعرفوا الرسول ﷺ [إلى هنا تنتهي رواية البخاري] فأحدقوا به مطيفين حوله، والسكينة تغشاه، والوحي ينزل عليه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]، وصاح النساء والخدام والغلمان: جاء محمد، جاء رسول الله، الله أكبر، جاء محمد [الحاكم، بسند صحيح]، وأنشد المستقبلون:

طلع البدر علينا
من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا
ما دعا لله داع

[لقد وقف بعض العلماء عند هذا النشيد، وناقشوه من حيث السند والمتن، لوجود إشكال في روايته، إذ وردت فيه كلمة «ثنيات الوداع» التي اشتهر أنها من جهة الشام، وليس من جهة مكة. ويرى عرجون صحة نسبة النشيد إلى حادثة قدومه إلى داخل المدينة، دار أبي أيوب، ويوفق بين الروايات ويناقشها، ولا يستبعد تكرار إنشاء النشيد في زمن عودته من تبوك، فليراجع عرجون (٢/ ٦٠٢ ـ ٦١١). ونحن نميل مع عرجون إلى تعدد إنشاد النشيد، وإلى أن ثنيات الوداع ليست إلى جهة الشام فقط].

ثم سار حتى نزل قباء في بني عمرو بن عوف ـ من الأوس ـ على كُلْثُوم بن الهِدْم، لمدة أربع عشرة ليلة، فيها أسس مسجد قباء، وهو أول مسجد أسس بعد الهجرة.

وبعد ذلك ركب رسول الله ﷺ بأمر الله، وأبو بكر ردفه، وأرسل إلى بني النجار ـ أخواله ـ فجاؤوا متقلدين سيوفهم، فسار نحو المدينة، فأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فجمع بهم في المسجد الذي في بطن الوادي، وكانوا مئة رجل [ابن سعد، بسند صحيح؛ ابن إسحاق: السيرة]. وكانت أول جمعة للنبي ﷺ داخل المدينة [ابن إسحاق: السيرة، بسند حسن].

دخل رسول الله ﷺ المدينة بعد الجمعة، في جو مشحون بالفرح والبهجة والسرور، وكان لا يمر بدار من دور الأنصار إلا أخذوا خطام راحلته قائلين: هلم إلى العَدَدِ والعُدَّةِ، والسَّلَامِ والمَنَعَةِ، فكان يقول لهم: خلوا سبيلها، فإنها مأمورة. فلم تزل تسير به حتى وصلت إلى موضع المسجد النبوي اليوم، فبركت، فلم ينزل عنها حتى نهضت، وسارت قليلاً، ثم التفتت، ورجعت، وبركت في موضعها الأول، فنزل عنها، وذلك في بني النجار، أمام دار أبي أيوب الأنصاري. وبادر أبو أيوب إلى الرحل فأدخله بيته، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «المرء مع رحله»، وأخذ أسعد بن زرارة الراحلة [ابن إسحاق في السيرة، بسند حسن؛ والبيهقي: الدلائل، وفيه الحديث المرء مع رحله].

نزل رسول الله ﷺ في القسم الأسفل من دار أبي أيوب، وأبو أيوب في القسم العلوي، فانتبه أبو أيوب ذات ليلة، فقال: «نمشي فوق رأس رسول الله ﷺ!» فتنحوا إلى جانب، وفي الصباح طلب من الرسول ﷺ

الانتقال إلى القسم العلوي، فقال النبي ﷺ: «السفل أرفق» ولكن أبا أيوب قال: «لا أعلو سقيفة أنت تحتها»، فتحول الرسول ﷺ إلى القسم العلوي، ونزل أبو أيوب إلى القسم السفلي.

وكان أبو أيوب يصنع للنبي ﷺ طعاماً، فإذا جيء به إليه سأل عن موضع أصابعه، فيتتبع موضع أصابعه، فصنع له طعاماً فيه ثوم، فلما رد إليه سأل موضع أصابع النبي ﷺ فقيل له: لم يأكل، ففزع وصعد إليه، فقال: «أحرام هو؟» فقال النبي ﷺ: «لا، ولكني أكرهه»، قال: «فإني أكره ما تكره...»؛ وذلك لأن الرسول ﷺ كانت تأتيه الملائكة [مسلم].

وعندما انكسرت جَرَّةُ ماء أبي أيوب ذات يوم، عندما كان بالعلوي، نشف هو وأم أيوب ماءها بقطيفتهما الوحيدة التي يلتحفان بها؛ تخوفاً من أن يقطر على رسول الله ﷺ منه شيء، فيؤذيه [ابن إسحاق في السيرة، بسند حسن].

وروي أن أبا أيوب سأل الرسول ﷺ أن ينتقل إلى القسم العلوي من داره، بسبب هذه الحادثة، فاستجاب الرسول ﷺ لطلبه [ابن حجر: الإصابة]. وروى مسلم وأحمد [أحمد: المسند] أن سبب الانتقال هو كراهية أبي أيوب وأم أيوب أن يمشيا فوق رأس رسول الله ﷺ. وما في الصحيح أصح. وكانت مدة إقامته ﷺ في دار أبي أيوب شهراً واحداً [ابن حجر: التهذيب؛ وابن سعد] على الأرجح.

وما كانت تمر ليلة إلَّا على باب رسول الله ﷺ الثلاثة والأربعة من الصحابة الأنصار، يتناوبون في حمل طعامهم إلى رسول الله ﷺ، حتى تحول من منزل أبي أيوب إلى داره [ابن سعد].

ونزل أبو بكر رضي الله عنه على حبيب، ويقال خبيب بن يساف، بالسنح، ويقال: نزل على خارجة بن زيد [ابن إسحاق في السيرة، بسند حسن].

الأحكام والدروس المستفادة من أحداث الهجرة إلى المدينة

١ ـ أوضح الرسول ﷺ في خطبة له أيام فتح مكة: أن لا هجرة بعد فتح مكة، ولكن جهاد ونية [متفق عليه]، فلم تعد الهجرة من مكة إلى المدينة واجباً، وإن بقي حكمها من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام واجباً إلى يوم القيامة

[ابن حجر: الفتح]. فقد شرعت الهجرة إلى المدينة؛ ليعبد المسلمون ربهم بأمان، ويقيموا كيان الدولة الإسلامية ويحموه، ثم يوسعوا رقعة هذه الدولة بالدعوة إلى الله؛ والهجرة بعد فتح مكة لم تعد ضرورة؛ لأن كيان الإسلام قد قوي، وصارت للمسلمين دولة، فأصبح وجود المسلمين في ديارهم أجدى لإقامة شعائر الإسلام ونشر تعاليمه في سائر الأرجاء، أما الجهاد فماض إلى يوم القيامة؛ ولذلك بايع النبي ﷺ المسلمين بعد الفتح على الإسلام والإيمان والجهاد، ولم يبايعهم على الهجرة [البخاري]، وقد بين ابن عمر ﷺ ذلك بقوله: «انقطعت الهجرة بعد الفتح إلى رسول الله ﷺ، ولا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار»، أي ما دام في الدنيا دار كفر، فالهجرة واجبة على من أسلم وخشي أن يفتن في دينه [ابن حجر: الفتح].

ويستدل في ذلك بقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾ [النساء: ٩٧، ٩٨] [الفتح].

وهكذا اقتضت ظروف قيام الدولة الإسلامية في المدينة، وحاجتها إلى جنود يحمونها أن تكون الهجرة إلى المدينة واجبة على كل مسلم قادر. قال الخطابي: كانت الهجرة إلى المدينة إلى حضرته للقتال معه وتعلم شرائع الدين، وقد أكد الله ـ تعالى ـ هذا الأمر في عدة آيات حتى قطع الموالاة بين من هاجر ومن لم يهاجر، فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ [الأنفال: ٧٢] [الطبري: التفسير]، فلما فتحت مكة، ودخل الناس في الإسلام من جميع القبائل، سقطت الهجرة الواجبة، وبقي الاستحباب [ابن حجر: الفتح].

وفي ضوء هذا يمكن القول بأنه إذا كان أي بلد من بلاد الكفر أعون للمسلم على ممارسة دينه والدعوة إليه، فهو أجدر بالإقامة فيه إذا تيسر سبيل ذلك للمسلم، ولا تجب عليه الهجرة؛ لأن هذه البلاد أصبحت مثل دار الإسلام، فالإقامة فيها أفضل من الرحلة منها لما يترجى من دخول غيره في الإسلام [ابن حجر: الفتح].

٢ ـ استخدم الرسول ﷺ كل الأسباب والوسائل المادية التي يهتدي إليها العقل البشري في مثل هذا العمل، وليس ذلك بسبب خوف على نفسه، أو شكّ في إمكان وقوعه في قبضة المشركين؛ وإنما هو تشريع للأمة؛ ليتأسى الناس به، فيأخذوا بالأسباب في كل أعمالهم، وأن سنة الله أن السبب إذا وجد، وجد معه المسبب، ما لم يبطل الله ذلك، كما فعل في جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام، فعندها تكون هذه معجزة للنبي، وإن كانت لغيره فهي كرامة للصالحين واستدراج للطالحين من الناس، والدليل على ذلك أنه بعدما استنفد الأسباب المادية كلها كان مطمئناً، وصاحبه أبو بكر كان خائفاً، وكان من مقتضى اعتماده على تلك الاحتياطات أن يشعر بشيء من الخوف والجزع، لقد كان كل ما فعله من الاحتياطات ـ إذاً ـ وظيفة تشريعية قام بها، فلما انتهى من أدائها، عاد قلبه مرتبطاً بالله عز وجل، معتمداً على حمايته وتوفيقه، ليعلم المسلمون أن الاعتماد في كل أمر لا ينبغي أن يكون إلا على الله عز وجل، وأن ذلك لا ينافي اتخاذ الأسباب والتدبير للوصول إلى الأهداف [البوطي: السيرة].

٣ ـ أن قبول علي بن أبي طالب النوم على فراش الرسول ﷺ ليلة الهجرة منقبة عظيمة لعلي، دلت على إيمانه وشجاعته، وهذا يدل على جواز خداع العدو، والتمويه عليه عملاً بأسباب النجاة.

٤ ـ أن العمل الذي قام به الشباب في تنفيذ خطة الرسول ﷺ للهجرة، مثل عمل علي وأبناء أبي بكر، يعد عملاً نموذجياً رائداً لشباب الإسلام.

٥ ـ أن المعجزات التي أجراها الله ـ تعالى ـ لحماية نبيه ﷺ في هذه الرحلة، جاءت ـ كما جاء غيرها ـ ضرباً من ضروب التكريم للرسول ﷺ وإشارة إلى أن الله ناصره وممكن لدينه في أرضه، طال الزمن أم قصر.

٦ ـ أن العمل الذي قام به أبو بكر رضي الله عنه في الهجرة يعد منقبة كبرى له، ويكفيه تكريماً أن يذكر في القرآن بمناسبة هذا العمل، ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا . . .﴾.

٧ ـ يفهم من إرداف الرسول ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه على راحلته، حين

دخولهما المدينة، مع وجود راحلة أخرى، أن الرسول ﷺ آثر عامر بن فهيرة وعبد الله بن أرقد بركوب الناقة الثانية، وذلك من كمال تواضعه.

٨ ـ إذا تأملنا في قصة تبرك أبي أيوب الأنصاري وزوجه بآثار الرسول ﷺ، وإقرار الرسول ﷺ لذلك، تبين لنا مشروعية التماس البركة من آثار النبي ﷺ، إن وُجِدَتْ، [الألباني: التوسل] وفي وجودها شك كبير جداً.

٩ ـ دل تصرف أبي أيوب وأم أيوب على مدى محبة الصحابة ﷺ للرسول ﷺ، وهي صورة متكررة في كل مقطع من مقاطع هذه السيرة.

١٠ ـ أن في إعراض الرسول ﷺ عن أكل الثوم النيء دليلاً على أن ذلك من خصوصياته ﷺ، وقد أحله للمسلمين بشرط ألا يأكلوه، ثم يرتادوا المساجد قبل أن تزول رائحته، وقد وجه الرسول ﷺ إلى أن من يريد أكل الثوم فليمته طبخاً [مسلم وغيره].

فائدة:

روى ابن أبي شيبة [المغازي، بسند صحيح] من حديث ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ أنزل عليه، وهو ابن أربعين سنة، فأقام بمكة ثلاث عشرة سنة، وبالمدينة عشر سنين، وتوفي، وهو ابن ثلاث وستين.

هذا هو المشهور، وروى كذلك آثاراً أخرى صحيحة تخالف في بعض أجزائها هذه الرواية.





الفصل الثالث

أسس بناء المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية بالمدينة

المبحث الأول: بناء المسجد

كان رجال من المسلمين يصلون في ذلك المكان الذي بركت فيه ناقة الرسول ﷺ، وكان مِرْبَداً للتمر لِسُهَيل وسَهْل، غلامين يتيمين من بني النجار، في حِجْر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: «هذا إن شاء الله المنزل»، ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين، فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً، فقالا: «بل نهبه لك، يا رسول الله». فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجداً [البخاري]. وفي رواية أخرى [للبخاري]، أنه عليه السلام عندما أمر ببناء المسجد، أرسل إلى ملأ بني النجار، وعندما جاؤوه، قال لهم: «يا بني النجار، ثامنوني بحائطكم هذا»، فقالوا: «لا والله، لا نطلب ثمنه إلا إلى الله».

قال ابن حجر [في الفتح]: «واحتج من أجاز بيع غير المالك بهذه القصة؛ لأن المساومة وقعت مع غير الغلامين، وأجيب باحتمال أنهما كانا من بني النجار، فساومهما، وأشرك معهما في المساومة عمهما الذي كانا في حجره، كما تقدم في الحديث...».

وفي الصحيح أن مكان المسجد كانت فيه قبور المشركين، وكانت فيه خِرَبٌ، وكان فيه نخل، فأمر رسول الله ﷺ بقبور المشركين فَنُبِشَتْ، وبالخرب فسويت، وبالنخل فقطع، فصفوا النخل قبلة المسجد، وجعلوا عِضَادَتَيهِ حجارة، وجعلوا ينقلون ذلك الصخر[البخاري]. وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن لبنيانه، ويقول ـ وهو ينقله ـ:

هـذا الحِمـالُ لا حِمـالُ خيبـر
هـذا أَبَـرُّ - رَبَّـنـا - وأَطْـهَـر

[البخاري: والحمال: المحمول من اللبن، وأبر: أبقى ذخراً وأكثر ثواباً وأدوم منفعة وأشد طهارة من حمال خيبر التي يحمل منها التمر والزبيب، ونحو ذلك.]

ويقول:

اللهـم إن الأَجْـرَ أَجْـرُ الآخـرة
فـارحـم الأنـصـارَ والـمُـهـاجِـرَة

وفي رواية أنهم كانوا ينقلون الصخر، ويرتجزون، ورسول الله ﷺ معهم، يقولون:

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة
فانصر الأنصار والمهاجرة [البخاري]

وقال قائل من المسلمين في ذلك:

لـئـن قـعـدنـا والـرسـول يـعـمـلْ
ذَاك إذاً لَلْعَمَلُ المُضَلِّلْ [ابن حجر: الفتح]

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

لا يستوي من يَعْمَرُ المساجدا
يَـدْأَبُ فـيـهـا قَـائِـمَـاً وقـاعِـدا
ومن يُرَى عن التراب حَائِدًا [البخاري]

وكان الرسول ﷺ يقدم في العمل من يجيد جانباً منه. ففي حديث طَلْق بن علي اليمامي الحنفي أن الرسول ﷺ كان يقول للعاملين في بناء المسجد من الصحابة: «قربوا اليمامي من الطين؛ فإنه أحسنكم له مساً، وأشدكم له سَبْكاً». وفي رواية «فأخذت المسحاة، فخلطت الطين فكأنه أعجبه، فقال: دعوا الحنفي والطين؛ فإنه أضبطكم للطين» [ابن حجر: الفتح]، وفي رواية البيهقي[في الدلائل، بسند صحيح]: «قربوا اليمامي من الطين؛ فإنه من أحسنكم له بناء».

وكان عمار بن ياسر من أنشط العاملين في البناء، فبينما كان كل واحد يحمل لبنة، كان عمار يحمل لبنتين: لبنة عنه، ولبنة عن الرسول ﷺ، فمسح رسول الله ﷺ ظهره، وقال: «ابن سمية: للناس أجر، ولك أجران، وآخر زادك شربة من لبن، وتقتلك الفئة الباغية» [مسلم وأحمد].

وهذا الحديث من دلائل النبوة؛ لأن عماراً قتل في الفتنة التي نشبت بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، وكان في جيش علي، فقتله جنود معاوية رضي الله عنه، ومات بالكيفية التي ذكرها الرسول ﷺ، وقد أجاد ابن كثير [في البداية] وابن حجر [في الفتح] في شرح هذا الحديث. وقتله أبو الغادية، كما في الإصابة.

واستغرق البناء اثني عشر يوماً [البيهقي: الدلائل]، وبعد الفراغ منه، بنيت حجر لأزواج النبي ﷺ بنفس كيفية بناء المسجد. وبعد اكتمالها انتقل الرسول ﷺ إليها من بيت أبي أيوب، فكان لسودة بنت زمعة بيت وآخر لعائشة رضي الله عنها [ابن حجر: الفتح، من رواية الطبراني]، وهما أول بيتين بنيا، ثم تتابع بناء حجر نسائه الأخريات كلما تزوج بواحدة منهن، وكانت قصيرة البناء قريبة الفناء [البخاري المفرد، بسند صحيح وغيره] [قال الشامي في سبل الهدى (٣/ ٥٠٨): «روى ابن سعد (١/ ٤٩٩ - ٥٠١) من حديث الواقدي، والبخاري في الأدب (١/ برقم ٤٥٠) بسند صحيح؛ وابن أبي الدنيا (برقم ٢٤٥) والبيهقي في الشعب (١٩/ برقم ١٠٢٤٩)، لا توجد ترجمة لشيخه كما قال محقق الشعب عن الحسن البصري، قال: «كنت - وأنا مراهق - أدخل بيوت أزواج النبي ﷺ في خلافة عثمان، فأتناول سقفها بيدي»]، بعضها مبنية من جريد وطين، وبعضها من حجارة مرصوصة، وسقفها من جريد [ابن أبي الدنيا برقم ٢٤٤ صحيح، المفرد برقم ٤٥١ بسند صحيح، الشعب؛ الحلية]، وقيل: كانت من شعر - شجر - مربوطة بخشب من عرعر - شجر السرو[نفسها] - ولم يكن لأبوابها حلق [نفسها]. وقد أضيفت هذه البيوت إلى المسجد بعد موت أزواج الرسول ﷺ، وذلك في زمن الوليد بن عبد الملك [نفسها، والشامي في السبل].

وفرض الأذان - بالكيفية التي عليها الآن - في السنة الأولى على الأرجح، وذلك عندما رأى عبد الله بن زيد في منامه صيغة الأذان، فأمر الرسول ﷺ بلالاً فأذن بها، وعندما سمعه عمر رضي الله عنه جاء إلى الرسول ﷺ

وقال: إنه رأى ما رأى عبد الله بن زيد [الألباني: صحيح الترمذي].

ظل المسجد على حاله الذي بناه عليه الرسول ﷺ، فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً، وزاد فيه عمر بأن أعاد عمده، وجعلها خشباً، وحمى سقفه من المطر، ثم غيره عثمان رضي الله عنه فزاد فيه زيادة كثيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة، وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه من ساج [البخاري. والساج نوع من الأخشاب الهندية].

وحذر عمر من تحمير وتصفير المسجد حتى لا يفتن الناس، وكره أنس المباهاة في تعمير المساجد بالتزيين، وعاب على الناس عدم تعميرها بالصلاة [البخاري].

ولم يكن في مسجد النبي ﷺ أول ما بُنيَ منبر يخطب الناس عليه، بل كان النبي ﷺ يخطب الناس، وهو مستند إلى جذع عند مصلاه، فلما اتخذ للرسول ﷺ منبر، وعدل إليه ليخطب عليه، خار ذلك الجذع، وحن حنين النوق العِشَار، لما كان يسمع من خطب الرسول ﷺ عنده، فرجع إليه النبي ﷺ فاحتضنه حتى سكن كما يسكن المولود الذي يُسَكَّت [البخاري]. وهذا من دلائل نبوته ﷺ [والعشار: الناقة الحامل لعشرة أشهر].

وروى الدارمي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن المسجد ارتج لخواره، وكثر بكاء الناس حتى وضع النبي ﷺ يده عليه فسكت، وقال: «إن هذا بكى لما فقد من ذكر الله، والذي نفسي بيده، لو لم ألتزمه لم يزل هكذا إلى يوم القيامة، ثم أمر به، فدفن تحت المنبر.

وما أحسن ما قال الحسن البصري بعد رواية هذا الحديث عن أنس، قال باكياً: «يا معشر المسلمين، الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقاً إليه، أفليس الرجال الذين يرجون لقاءه أحق أن يشتاقوا إليه؟» [البيهقي: الدلائل].

وأصبح المسجد منذ بنائه مكاناً للعبادة في المقام الأول، ثم بعد ذلك مكاناً لكل أمر يهم المسلمين، مثل:

١ - إيواء ضعفاء وفقراء المهاجرين الرجال العزاب الذين لم يتمكنوا من الحصول على منازل خاصة بهم، وعرفوا بأهل الصُّفَّة[البخاري].

٢ - إيواء ضعفاء النساء اللائي أسلمن من أحياء العرب، ولم يجدن مأوى غير المسجد حين قدومهن المدينة، مثل الوليدة السوداء التي اتخذت خِبَاءً أو حَفَشاً في المسجد[البخاري].

٣ - كان مكاناً لتعليم المسلمين أمور دينهم.

٤ - كان مكاناً لإنشاد الشعر ذباً عن الدعوة الإسلامية وقائدها محمد ﷺ وأصحابه[البخاري].

٥ - كان مكاناً لاعتقال أسير الحرب المشرك، إذا كان في ذلك عظة لمن يراه من الناس، وعظة له عندما يرى الصلاة، ويسمع القرآن وأحاديث الرسول ﷺ، كما في قصة ثمامة بن أثال [البخاري].

٦ - نصب الخيمة فيه لعلاج جرحى المسلمين في الحرب، كما في قصة خيمة رفيدة، أيام غزوة الأحزاب [البخاري].

٧ - كان مكاناً لاستقبال الرسل - السفراء - الذين يفدون على الرسول ﷺ.

٨ - كان مكاناً لعقد ألوية جيوش وسرايا المجاهدين.

٩ - كان مكاناً لاجتماع المسلمين بقائدهم، وفي هذا فائدة من وجهين:

أ - احتكاك القائد بالرعية عن قرب، ودراسة أحوالهم، وبث الرعية شجونهم لقائدهم.

ب - احتكاك المسلمين بعضهم مع بعض، وتألف قلوبهم، وقد غاب هذا الفهم عن كثير من قادة وأفراد في زماننا هذا، وفهموا أن المسجد مكان عبادة الصلاة فقط.

أحكام وحِكم في قصة بناء المسجد النبوي الشريف

١ - استدل جمهور الفقهاء بحديث شراء الرسول ﷺ المربد من الغلامين بوساطة عمهما الذي كانا في حجره وكفالته، على عدم صحة تصرف غير البالغ سن الرشد، ولهم دليل آخر من القرآن يؤكد صحة استدلالهم وهو الآية الكريمة: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: ١٥٢، الإسراء: ٣٣].

أما الحديث الذي يشير إلى أن الشراء تم مباشرة بين الرسول ﷺ

والغلامين، فيوجه إلى أن للنبي ﷺ ولاية خاصة في مثل هذه الأمور، وأنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ إنما اشترى الأرض منهما بوصف كونه ولياً عاماً لجميع المسلمين، لا بوصفه كونه فرداً منهم، ولا وجه في هذا الحديث لاستدلال الحنفية به على صحة تصرف غير البالغ؛ لأن الآية رجحت حديث ابن عيينة على هذا الحديث [الزركشي: إعلام الساجد؛ البوطي: السيرة].

وللعلماء كلام فوق هذا عن تصرف غير البالغ إذ قالوا:

أ ـ إن تصرفاته النافعة نفعاً محضاً كقبوله الهبة لنفسه جائزة.

ب ـ إن تصرفاته الضارة ضرراً محضاً كهبته لغيره غير جائزة.

ج ـ إن تصرفاته الدائرة بين النفع والضرر كالبيع والشراء موقوفة على إجازة الولي أو الوصي.

٢ ـ قال ابن حجر عند شرح حديث نبش قبور المشركين لبناء مسجده في مكانها: «في الحديث جواز التصرف في المقبرة المملوكة بالهبة والبيع، وجواز نبش القبور الدارسة إذا لم تكن محترمة، وجواز الصلاة في مقابر المشركين بعد نبشها وإخراج ما فيها، وجواز بناء المساجد في أماكنها».

٣ ـ كما أن الحديث يدل على أن الأرض التي دفن فيها الموتى، ودرست، يجوز بيعها، وأنها باقية على ملك صاحبها وورثته من بعده، إذا لم توقف [إعلام الساجد؛ ابن حجر: الفتح؛ السيوطي].

إن في تمثل الرسول ﷺ برجز أو شعر غيره دليلاً على جواز قول الشعر وأنواعه خصوصاً الرجز في الحرب، والتعاون على سائر الأعمال الشاقة، لما فيه من تحريك الهمم، وتشجيع النفوس، وتحركها على معالجة الأمور الصعبة [قاله ابن حجر في شرحه حديث الباب].

٤ ـ استناداً إلى عدم التكلف المظهري في بناء الرسول ﷺ مسجده، واستناداً إلى ما نبه إليه عمر بن الخطاب في قوله: «أَكِنَّ الناس من المطر، وإياك أن تحمِّر أو تصفِّر، فتفتن الناس» [إعلام الساجد]، كره عامة العلماء نقش وزخرفة المساجد، وقال بعضهم بحرمة ذلك [ابن حجر: الفتح].

٥ ـ اختلف العلماء في كتابة آية من القرآن في قبلة المسجد، هل هي داخلة في النقش الممنوع أم لا؟ يقول الزركشي: «ويُكره أن يكتب في قبلة المسجد آية من القرآن أو شيئاً منه، قال مالك: وجوزه بعض العلماء، وقال: لا بأس به؛ لما روي من فعل عثمان ذلك بمسجد رسول الله ﷺ ولم ينكر ذلك عليه».

المبحث الثاني

أ ـ المؤاخاة:

لما قدم المهاجرون من مكة إلى المدينة لم يكن بأيدي معظمهم شيء؛ لأنهم تركوا أموالهم خلفهم، ولهذا، ـ مع أنهم لم يكونوا أهل زراعة، والأنصار أهل زراعة ـ أعطتهم الأنصار كل ما يستطيعونه من فضل، وأعطتهم النخل والأرض؛ ليعملوا فيها بنصف ثمارها، ومنهم من أعطيت له مَنِيْحَة محضة، واستغنوا عنها عندما فتح الله عليهم خيبر[مسلم]. وقد رد النبي ﷺ نفسه ما أعطوه من نخل عندما فتحت عليهم قريظة والنضير [مسلم].

وكان ذلك الفعل من الأنصار دليلاً على مدى حبهم وإيثارهم المهاجرين. وقد شهد الله ـ تعالى ـ لهم بذلك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] [البخاري].

ووصل بهم الإيثار إلى أن قالوا للرسول ﷺ: «إن شئت فخذ منا منازلنا»، فقال لهم خيراً، وابتنى لأصحابه في أرض وهبتها لهم الأنصار، وفي أراضٍ ليست ملكاً لأحد [البخاري؛ البلاذري].

وقالت الأنصار للرسول ﷺ: «أقسم بيننا وبينهم النخل»، قال: «لا. قال: يكفونكم المؤونة، ويشركونكم في الثمر، قالوا: سمعنا وأطعنا» [البخاري].

وقال الرسول ﷺ للأنصار: «إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم، فقالوا: أموالنا بيننا قطائع، فقال رسول الله ﷺ: «أو غير

ذلك؟» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «هم قوم لا يعرفون العمل، فتكلفونهم، وتقاسمونهم الثمر» قالوا: نعم [ابن كثير: البداية].

وروى البخاري عن أنس، قال: «دعا النبي ﷺ الأنصار إلى أن يقطع لهم البحرين، فقالوا: لا، إلا أن تقطع لإخواننا من المهاجرين مثلها، قال: أما لا، فاصبروا حتى تلقوني، إنه سيصيبكم بعدي أَثَرَةٌ».

ولم يتوانوا في استضافة ضيف رسول الله ﷺ. فقد روى البخاري أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ جائعاً، فلم يجد له رسول الله ﷺ شيئاً عند زوجاته، فطلب من أصحابه استضافته، فاستضافه أنصاري لم يكن عنده إلا عشاء أهله وصبيانه، فأنام صبيانه، وقدم طعام أهله إلى ضيفه، وجلس معه، فأطفأت المرأة السراج، وجعلا يريانه كأنهما يأكلان، ولكنهما باتا جائعين، وفيهما نزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

ومع هذا الإيثار، فقد أراد الرسول ﷺ أن يوجد تشريعاً يعالج للمهاجرين أوضاعهم الاقتصادية، ويشعرهم بأنهم ليسوا عالة على إخوانهم الأنصار، فكان أن شرع نظام المؤاخاة في السنة الأولى من الهجرة [ابن حجر: الفتح].

وروى البعض أن إعلان المؤاخاة كان في دار أنس بن مالك [متفق عليه] وذكر البعض أن المؤاخاة كانت في المسجد [ابن حجر في الفتح عن شرف المصطفى] وقيل: إن المؤاخاة كانت مرتين: مرة بين المهاجرين خاصة، وذلك بمكة، ومرة بين المهاجرين والأنصار، وهي المقصودة هنا [ابن عبدالبر: الدرر].

ذكر ابن سعد بأسانيد شيخه الواقدي إلى جماعة من التابعين أنه لما قدم رسول الله ﷺ المدينة آخى بين المهاجرين بعضهم لبعض، وآخى بين المهاجرين والأنصار، وآخى بينهم على الحق والمواساة، ويتوارثون بعد الممات، دون ذوي الأرحام. وكانوا تسعين رجلاً: خمسة وأربعين من المهاجرين، وخمسة وأربعين من الأنصار، ويقال: كانوا مائة، خمسين من كل فريق.

وروى البخاري عن ابن عباس «كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث

المهاجري الأنصاري دون ذوي الرحم؛ للأخوة التي آخى النبي ﷺ بينهم.

وذكر ابن حجر [في الفتح] أن من أغراض المؤاخاة أن بعض المهاجرين كان أقوى من بعض بالمال والعشيرة والقوى، فآخى بين الأعلى والأدنى ايرتفق الأدنى بالأعلى، ويستعين الأعلى بالأدنى، وبهذا تظهر مؤاخاته ﷺ لعلي؛ لأنه هو الذي كان يقوم به من عهد الصبا، من قبل البعثة، واستمر إلى ما بعدها، وكذا مؤاخاة حمزة وزيد بن حارثة؛ لأن زيداً مولاهم، فقد ثبتت أخوتهما، وهما من المهاجرين [ابن إسحاق: السيرة].

لقد آخى الرسول ﷺ بينه وبين علي بن أبي طالب [الحاكم، بسند يعتضد]، وبين الزبير، وابن مسعود [نفسه، وابن حجر في الفتح وحسن سناده]، وبين عبد الرحمن بن عوف، وسعد بن الربيع [البخاري]، وبين سلمان الفارسي وأبي الدرداء [نفسه]، وبين أبي عبيدة وأبي طلحة [مسلم]، وبين عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك [ابن إسحاق في السيرة]، وبين أبي بكر وخارجة بن زيد [ابن إسحاق في السيرة].

وقد ذكر ابن إسحاق [في السيرة] عدداً كبيراً ممن آخى الرسول ﷺ بينهم، ونقل عنه ذلك ابن حجر [في الفتح]، وأجاب عما يمكن أن يكون فيه إشكال [الشامي: السبل].

ومما روي في أمر التطبيقات العملية لهذه المؤاخاة، قصة عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، حين قال سعد لعبد الرحمن: «إني أكثر الأنصار مالاً، فأقسم لك نصف مالي، وانظر أي زَوْجَتَيَّ هويت نزلت لك عنها، فإذا حلت تزوجتها، فقال له عبد الرحمن: «لا حاجة لي في ذلك، هل من سوق فيه تجارة؟» وفي رواية أخرى عند البخاري أيضاً زيادة في قول عبد الرحمن: «... بارك الله لك في أهلك ومالك...». فَدُلَّ على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أَقِطٍ وسمن، ثم أخذ يتردد على السوق، يبيع ويشتري حتى استغنى بماله عن مال أخيه سعد، وتزوج امرأة من الأنصار، أمهرها بنواة من ذهب، وطلب منه الرسول ﷺ أن يولم، ولو بشاة، بهذه المناسبة [البخاري].

آخى الرسول ﷺ بين أصحابه؛ ليذهب عنهم وحشة الغربة، ويستأنسوا من مفارقة الأهل والعشيرة، ويشد بعضهم أزر بعض، فلما عز الإسلام، واجتمع الشمل، وذهبت الوحشة، وانخرطوا في الحياة، وعرفوا وسائل اكتساب الرزق، أبطل الله التوارث بالمؤاخاة، وأبقى أخوة المؤمنين، وأنزل في ذلك: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٥]. ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: ٦] [ابن كثير: التفسير، بسند صحيح]. وكان ذلك حين وقعة بدر [ابن سعد]. وروي أنه كان بعد أحد [ابن سعد؛ والحاكم بسند صحيح].

وذكر ابن عباس [البخاري] أن ما أُلغي من نظام المؤاخاة هو الإرث، أما النصر والرفادة والنصيحة فباقية، ويمكن أن يوصى ببعض الميراث بين المتآخين، وإلى هذا المعنى ذهب النووي [مسلم].

ومما يدل على بقاء واستمرارية المؤاخاة دون الإرث مؤاخاة الرسول ﷺ بين سلمان الفارسي وأبي الدرداء؛ لأن سلمان أسلم بين أحد والخندق [الإصابة والاستيعاب]، ومؤاخاة معاوية بن أبي سفيان والحُتَات التميمي؛ لأن معاوية من مسلمي الفتح [الإصابة]، والحتات أسلم عندما جاء في وفد بني تميم في أوائل السنة التاسعة الهجرية ـ عام الوفود [الإصابة]، ومؤاخاة جعفر بن أبي طالب ومعاذ بن جبل؛ لأن جعفراً قدم من الحبشة والرسول ﷺ قد فرغ من خيبر لتوه، في أول سنة سبع من الهجرة [يأتي في غزوة خيبر].

ب ـ حكم وعبر من المؤاخاة

١ ـ أن أي جماعة تسعى لهدف واحد لا بد من قيام العلاقات بين أفرادها على التآخي الذي يجعلهم يقفون بعضهم إلى جانب بعض في السراء والضراء، وأن هذا التآخي المنطلق من العقيدة هو أساس قوة هذه الجماعة، وهو الأساس الذي يمكنهم من تحقيق أهداف الدين في الحياة؛ ولذا كان حرص الرسول ﷺ على ذلك التآخي الذي كان

مضرب الأمثال في صدقه، والذي كان من ثماره رضا الله عنهم والتمكين لهم في الأرض، وتحقيق النموذج العملي لمبادئ الإسلام في أشخاصهم.

٢ ـ بناء على ما حدث في المؤاخاة، فبوسع المؤمنين في كل عصر أن يتآخوا بينهم على المواساة والارتفاق والنصيحة، ويترتب على مؤاخاتهم حقوق أخص من المؤاخاة بين المؤمنين [العمري: المجتمع المدني].

٣ ـ أن في موقف عبد الرحمن بن عوف من أخيه سعد بن الربيع نموذجاً واضحاً على عفة المهاجرين، واستعدادهم للعمل الذي يقدرون عليه.

المبحث الثالث: صحيفة المدينة

عندما استقر الرسول ﷺ بالمدينة، وأراد أن ينظم العلاقات بين أهل المدينة، كتب كتاباً بهذا الشأن. عرف في المصادر القديمة باسم «الكتاب» و«الصحيفة»، وأسماه الكتاب المحدثون «الدستور» أو «الوثيقة».

ولأهمية هذه الوثيقة واعتماد الباحثين المعاصرين عليها، وجعلها أساساً في دراسة تنظيمات الرسول ﷺ في المدينة المنورة، ونظم الدولة الإسلامية، وعلاقاتها مع الدول والملل الأخرى، والنظام السياسي في الإسلام، فقد تناولناها بالعرض والدراسة باختصار في الطبعة المطولة.

أولاً: مضمون الصحيفة

أ ـ بنود الصحيفة المتعلقة بالمسلمين:

ـ المؤمنون من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أمةٌ واحدة من دون الناس.

ـ كل فريق من المؤمنين (المهاجرين، و بني ساعدة، ومن الأوس. .) على رِبْعَتِهِم يَتَعَاقَلُون بينهم، وهم يَفْدُون عَانِيَهُمْ بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عَقْل. [الربعة: الحال التي جاء الإسلام وهم عليها؛ والعاني: الأسير؛ والمفرحُ: كثير العيال].

ـ المؤمنون المتقون على من بَغَى منهم، وإنّ أيديهم عليه جميعاً، ولو كان ولد أحدهم.

ـ ذمة الله واحدة، يجير على المسلمين أدناهم، والمؤمنون بعضهم موالي بعض دون الناس.

ـ من تبع المؤمنين من يهود، فإن له النصرة والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.

ب ـ بنود الصحيفة المتعلقة بالمشركين:

ـ لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على المؤمنين.

ـ لقريش وحلفائها حق الصلح إذا طلبوه، إلا من حارب منهم الإسلام.

ـ لا تجار قريش ولا من نصرها.

جـ ـ بنود الصحيفة المتعلقة باليهود:

ـ ينفق اليهود مع المؤمنين ما داموا محاربين.

ـ يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، مواليهم وأنفسهم... ولبقية اليهود من بني النجار، يهود بني الحارث... ما ليهود بني عوف. وإن بطانة يهود كأنفسهم.

ـ لا يخرج من يهود أحد إلا بإذن محمد ﷺ.

ـ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح... والنصر للمظلوم.

د ـ بنود الصحيفة المتعلقة بالقواعد العامة:

ـ يثرب حرام جوفها لأهل الصحيفة، وإن الجار كالنفس، غير مُضَار، ولا آثم، وإنه لا تُجَارُ حرمة إلا بإذن أهلها.

ـ ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده، فإن مرده إلى الله ﷻ وإلى محمد رسول الله ﷺ.

ـ وإن بينهم ـ أهل الصحيفة ـ النصر على من دهم يثرب.

ـ من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم أو أثم، وإن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله ﷺ.

ثانياً: إسناد الصحيفة

ذكر هارون شواهد كثيرة على فقرات هذه الصحيفة من كتب السنة والتاريخ والقرآن. . . فمن ناحية الشواهد القرآنية، فقد أورد سبعاً وعشرين آية توافق فقرات جاءت في الصحيفة.

والخلاصة: أن جميع فقرات الصحيفة لها شواهد من صحيح السنة والقرآن الكريم. ولولا خشية الإطالة لذكرنا ولو طرفاً منها. جزى الله خيراً الباحث هارون. ولذا حكم الباحثون على أن إسنادها عند ابن إسحاق يتقوى بالشواهد؛ ليصل إلى درجة الحسن لغيره. [انظر الطبعات المطولة لكتابنا].

أما ما جاء في الصحيفة عن الصلح مع اليهود والمشركين بغير الجزية فهو منسوخ بآية الجزية: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]. وكان ذلك في سنة تسع [ابن كثير: التفسير]، ومن المعروف أن سورة «التوبة» من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ كما قال البخاري.

ثالثاً: دلالات وأحكام وعبر من صحيفة المدينة

١ ـ إن هذه الوثيقة تعد أقدم دستور مكتوب في العالم.

٢ ـ لم يذكر العلماء أن حكماً من أحكامها قد نسخ، ما عدا قولهم: إن المعاهدة مع اليهود، أو مع غير المسلمين بدون الجزية، منسوخة بآية الجزية ـ الآية (٢٩) من سورة التوبة ـ كما ذكرنا قبل عدة أسطر.

٣ ـ وقال بعض العلماء: إن العلاقة مع اليهود التي تضمنتها الوثيقة توافق حكم الآية: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: ٨].

٤ ـ نظمت الوثيقة جوانب مختلفة لحياة الناس.

٥ ـ فيها مبادئ دستورية عديدة على سبيل المثال:

١ ـ تشكيل الأمة من حيث العقيدة والدين تشتمل على كل المسلمين حيثما كانوا.

٢ ـ تشكيل الأمة ـ أي الجماعة ـ من حيث المواطنة تشتمل على غير المسلمين في الدولة.
٣ ـ المساواة في المعاملات العامة.
٤ ـ منع إيواء المجرمين.
٥ ـ منع خروج اليهود من دون إذن محمد ﷺ.
٦ ـ منع الظلم والعدوان في المال والعرض وغيرهما.
٧ ـ منع الصلح المنفرد مع العدو.
٨ ـ منع إجارة قريش ـ أي منع إجارة العدو.
٩ ـ القود من القاتل ـ أي حرمة الحياة.
١٠ ـ الإسهام في نفقة الدفاع عن الدولة والوطن.
١١ ـ فداء الأسرى.
١٢ ـ وفاء الدين عن الغارمين.
١٣ ـ الإبقاء على الأعراف الصالحة.
١٤ ـ حق الحرية في العقيدة والدين.
١٥ ـ حقوق الجار.
١٦ ـ حرمة المسلم ـ أي مبدأ لا يقتل مسلم بكافر.
١٧ ـ تحريم المدينة.
١٨ ـ عدم إعطاء حقوق الحرمة للآخرين في المدينة إلا بإذن أهلها.
١٩ ـ مرجع حسم الخلاف حول بنود هذه الوثيقة الله ﷻ ورسوله محمد ﷺ.

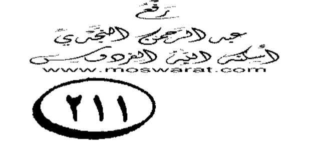
وهناك مبادئ دستورية يمكن استنباطها من الوثيقة، والمبادئ المذكورة ينطوي كل واحد منها على أحكام شرعية، وما عدا المبادئ الخاصة بالمسلمين فإن المبادئ التي انطوت عليها توجد في أي دستور، حتى الدساتير الوضعية [هارون: صحيفة المدنية].

٢٠ ـ أنه مع هذا الموقف المتسامح تجاه اليهود، فإنهم ظلوا يكيدون للإسلام بشتى الوسائل والأساليب، كما سنرى في الأحداث

القادمة، ومن الميادين التي نشطوا فيها ـ ولم يولها المؤرخون المحدثون كبير اهتمام ـ نشاطهم في ميدان الجدال العقيم، رغبة منهم في الصد عن سبيل الله، وليس بغرض الدخول في الإسلام.

وسجل القرآن كثيراً من جدالهم وعنادهم، ومن أظهرهم في ذلك: رَافع بن حُرَيْمِلَة، وسَلَّام بن مِشْكَم، ونعمان بن أوفى، ومحمود بن دِحْيَة، وشَاش بن قيس، ومالك بن الصيف، وجَبَل بن أبي قُشَيْرٍ، وشَمْوِيل، ونعمان بن أحنا، وبجري بن عمرو، وشَاش بن عَدِي، ورافع بن حارثة، والنَّحَام بن زيد، وكردم بن كعب. . .[ابن هشام] إلخ.





الفصل الرابع

القســـــم الأول

متفرقات:

المبحث الأول: تسمية يثرب بطَيْبة، وطابة والمدينة

يلحظ أن المدينة المنورة سميت في الصحيفة بيثرب. ولكن فيما بعد كره الله ورسوله هذا الاسم، فاستبدلت بها أسماء طَيبة وطابة والمدينة.

فقد روى مسلم عن جابر أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله تعالى سمَّى المدينة: طابة».

وروى أن رسول الله ﷺ قال: «إنها طَيْبة ـ يعني المدينة ـ وإنها تنفي الخبث كما تنفي النار خبث الفضة».

وروى الطيالسي [في مسنده] بطريق مسلم نفسها قائلاً: «كانوا يسمون المدينة بيثرب، فسماها رسول الله ﷺ طيبة».

وقال ابن حجر[في الفتح]: إنه ورد من طريق أبي سهل بن مالك عن كعب الأحبار، قال: «نجد في كتاب الله الذي أنزل على موسى أن الله ـ تعالى ـ قال للمدينة: يا طيبة، ويا طابة...».

وردت في بعض أحاديث الرسول ﷺ باسم آخر هو: المدينة. فقد روى البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «على أنقاب المدينة ملائكة لا يدخلها الطاعون ولا الدجال».

وروى أحمد [في المسند، بسند يعتضد] أن الرسول ﷺ قال: «من سمى المدينة يثرب فليستغفر الله ﷻ، هي طابة، هي طابة».

وذكر السيوطي[في الدرر] أن الرسول ﷺ قال: «لا تدعونها يثرب، فإنها طيبة ـ يعني المدينة ـ ومن قال: يثرب فليستغفر الله ثلاث مرات، هي طيبة، هي طيبة، هي طيبة».

وروى البخاري عن أبي حميد أنه قال: أقبلنا مع النبي ﷺ من تبوك حتى أشرفنا على المدينة، فقال: «هذه طابة».

وروى ابن شبة [في تاريخ المدينة، بسند يعتضد] أن رسول الله ﷺ نهى أن يقال للمدينة يثرب.

وروى مسلم عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال: «أمرت بقرية تأكل القُرَىٰ، يقولون: يثرب، وهي المدينة. تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد».

وسماها القرآن الكريم المدينة في مواضع متعددة.

وقال ابن حجر[في الفتح] في سبب كراهة تسمية المدينة بيثرب، لأن يثرب إما من التثريب الذي هو التوبيخ والملامة، أو من الثرب، وهو الفساد، وكلاهما مستقبح. وكان ﷺ يحب الاسم الحسن، ويكره القبيح.

المبحث الثاني: بعض المتاعب الصحية تواجه بعض المهاجرين

لقد واجه المهاجرين حين مقدمهم من مكة إلى المدينة بعضُ المتاعب الصحية، إذ أصابتهم حمى يثرب [أحمد: المسند، بسند جيد]، حتى إنهم كانوا يصلون، وهم قعود [أحمد: المسند، بسند صحيح]، وصرف الله ذلك عن نبيه محمد ﷺ [المصدر نفسه].

لقد وعك أبو بكر وبلال، فكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كُلُّ امْرِئٍ مُصَبَّحٌ فِي أَهْلِهِ
والموتُ أَدْنَى من شِرَاكِ نَعْلِهِ

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته، ويقول:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أبيتن ليلةً
بواد وحولي إِذْخِرٌ وَجَلِيلُ؟

وَهَـلْ أَرِدَنْ يـومـاً مِـيَـاهَ مَـجَـنَّـةٍ؟
وهـل يَـبْـدُوَنْ لـي شَـامَـةٌ وَطَـفِـيـلُ؟

وجاءت عائشة رضي الله عنها إلى النبي ﷺ فأخبرته بما يقولان، فقال: «اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد، وصحِّحها، وبارك في صَاعِهَا وَمُدِّهَا، وانْقُلْ حُمَّاها، فاجعلها في الجُحْفَةِ» [البخاري].

ووعكت عائشة [البخاري] وابن فهيرة [ابن إسحاق: السيرة، بسند حسن]، وغير هؤلاء؛ لأن المدينة كانت مشهورة بالحمى، حتى قال مشركو مكة عن مسلمي المدينة في عمرة القضاء: «إنه يقدم عليكم وفد وهنتهم حمى يثرب»، فأمرهم النبي ﷺ أن يرملوا الأشواط الثلاثة، وأن يمشوا ما بين الركنين؛ ليروا المشركين قوتهم، وأن الحمى لم تنهكهم كما يزعم الكفار.

واستجاب الله دعاء نبيه، فجعلها من أطيب البلاد بعد ذلك.

المبحث الثالث: قريش تهدد المهاجرين والأنصار

كان عبد الله بن أبي بن سلول أكبر زعماء المدينة. وعندما جاءها الرسول ﷺ مهاجراً كان قومه قد نظموا له الخرز؛ ليتوجوه ملكاً عليهم، ولم يتم ذلك؛ لأن الرسول ﷺ أصبح زعيماً بتاج النبوة؛ ولذا تأخر في إسلامه؛ لأنه كان يرى أن الرسول ﷺ قد سلبه ملكه، فأخذ يناصبه العداء. وبعد أن أعلن إسلامه ظل على عدائه للرسول ﷺ، ولكن بأسلوب آخر، وهو أسلوب النفاق. وله مواقف تدل على نفاقه كما سيأتي.

ففي أحد هذه المواقف، روى البخاري ومسلم وأحمد [المسند، بسند صحيح]، ثلاثتهم من حديث الزهري بإسناده إلى أسامة بن زيد أن سعد بن عبادة قال: «يا رسول الله، اعف عنه، واصفح عنه، فوالذي أنزل عليك الكتاب، لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البُحَيْرَةِ على أن يتوجوه، فَيُعَصِّبُوهُ بالعِصَابَة، فلما أبى الله ذلك بالحق الذي أعطاك الله، شَرِقَ بذلك، فذلك فَعَلَ به ما رأيت...».

وفي رواية ابن إسحاق [السيرة، حسن] قال سعد: «يا رسول الله، ارفق

به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإنا لننظم له الخرز لنتوجه، فوالله إنه ليرى أنه قد سلبته ملكاً».

لقد وجد مشركو مكة ضالتهم في ابن سلول هذا؛ لأنه على ملتهم، فكاتبوه ليكيد للمسلمين، ويقوم بالدور الذي كانوا يقومون به ضد الرسول ﷺ وأصحابه في مكة. قالوا له في كتبهم إليه: «إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نقسم بالله لتقاتلنه أو لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم» [أبو داود، بسند صحيح].

وامتثل ابن أبي لأمر الكفار، فجمع كفار المدينة لمحاربة الرسول ﷺ. وعندما بلغ الرسول ﷺ أمره، قال لهم: «لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم»، فلما سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا [نفسه].

وأرسل كفار مكة إلى مسلمي المدينة يقولون لهم: «لا يغرنكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب، سنأتيكم، فنستأصلكم، ونبيد خضراءكم في عقر داركم» [المنصو فوري: رحمة للعالمين، ولم يذكر مصدره].

واحترازاً من مكائد قريش حرص المسلمون على حراسة الرسول ﷺ ليلاً حتى نزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة: ٦٧]، فقال لأصحابه: «يا أيها الناس، انصرفوا عني، فقد عصمني الله ﷻ» [الألباني: صحيح الترمذي، وحسنه]. وقد دعا رسول الله ﷺ لسعد بن أبي وقاص عندما جاء يحرسه ذات ليلة، خوفاً عليه [متفق عليه].

ولم يكن الخطر مقتصراً على الرسول ﷺ فقط، بل تعداه إلى أصحابه. فقد قال أبي بن كعب: «لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة، وآوتهم الأنصار، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه» [الرحيق، ولم يذكر مصدره].

وكجزء من مخططات قريش وأساليبها للصد عن سبيل الله، فقد حاولت صد الأنصار عن المسجد الحرام. وقد ظهر هذا جلياً في قصة سعد بن معاذ وأبي جهل. وخلاصتها ـ عند البخاري ـ أن سعد بن معاذ جاء مكة معتمراً،

وطلب من مضيفه أمية بن خلف أن ينظر له ساعة خلوة ليطوف بالبيت آمناً. فأخذه أمية ليطوف في منتصف النهار حين غفلة الناس، ومع ذلك لقيه أبو جهل، وسأل عنه أمية، فأخبره به، فقال له: «تطوف بالكعبة آمناً، وقد آويتم محمداً وأصحابه؟ وتشاجرا، ومما قاله سعد له: «والله لئن منعتني أن أطوف بالبيت لأقطعن متجرك بالشام...» وهدده بأن الرسول ﷺ سيقتله، وقد كان أن قتله الله ببدر [البخاري].





القسم الثاني من الفصل الرابع

النشاط الجهادي:

العسكري والسياسي قبل غزوة بدر الكبرى

المبحث الأول: الإذن بالقتال

روى الطبري [التفسير] عن ابن عباس أنه قال: «لما أخرج النبي ﷺ من مكة، قال أبو بكر: أخرجوا نبيهم، إنا لله وإنا إليه راجعون، ليهلكن. فأنزل الله ﷻ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]، قال أبو بكر رضي الله عنه: فعرفت أنه سيكون قتال».

وزاد أحمد [التفسير، بسند صحيح] في روايته لهذا الخبر، أن ابن عباس قال: «وهي أول آية في القتال».

وقال العوفي عن ابن عباس: إن الآية نزلت في محمد ﷺ وأصحابه حين أخرجوا من مكة [الطبري وابن كثير في تفسيريهما].

لقد شرع الجهاد في الوقت الأليق به؛ لأن المسلمين بمكة كانوا أقل من معشر المشركين، ولذا لم يأمرهم الله بالقتال. وعندما بغى المشركون، وأخرجوا النبي ﷺ من مكة، وهموا بقتله، وشردوا أصحابه بين الحبشة والمدينة، وعندما استقر المسلمون بالمدينة، وهاجر إليهم الرسول ﷺ وأصبحت المدينة دار إسلام ومعقلاً يلجؤون إليه، شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك [من حديث الزهري بسند صحيح عند النسائي]. ولم يكن القتال هنا فرضاً عليهم، وإنما أذن بالقتال لمن ظلم، ثم فرض عليهم بعد قتال من يقاتلهم عندما نزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩].

ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة عندما نزل قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟

﴿ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦].

وهكذا مر تشريع الجهاد بأربع مراحل رئيسة، وهي:

١ ـ مرحلة الصبر دون القتال ـ بمكة.

٢ ـ مرحلة الإذن بالقتال ـ بعد الهجرة.

٣ ـ مرحلة الأمر بقتال من يبدؤهم بالقتال.

٤ ـ مرحلة الأمر بقتال جميع المشركين [ابن القيم: زاد المعاد].

المبحث الثاني: الغزوات والسرايا(١) والأحلاف والأحداث الهامة قبل غزوة بدر الكبرى

أولاً: أهداف الغزوات والسرايا:

عندما أذن الله لنبيه والمؤمنين بالقتال أخذوا في إعداد القوة لرد عدوان قريش، ومن على شاكلتها. فلما أرادت قريش أن تري المسلمين أن لها يداً في داخل المدينة أراد المسلمون أن يروا قريشاً أن المسلمين ليسوا بذلك الهوان الذي تتصوره قريش، وأنهم قادرون على كسر شوكة قريش، وحصارها سياسياً واقتصادياً، ورد حقوقهم المسلوبة.

وكانت أول خطوة في هذا الميدان أن يبسط المسلمون سيطرتهم على طرق قريش التجارية، شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً، واختار الرسول ﷺ لبسط هذه السيطرة خطتين متلازمتين:

الأولى: إرسال السرايا والبعوث لمهاجمة قوافل قريش التجارية.

الثانية: السعي إلى عزل قريش بالدخول في معاهدات دفاعية، وعدم اعتداء مع القبائل المحيطة بالمدينة، والتي تخترق قوافل قريش أراضيها،

---

(١) أطلق المؤرخون اسم «السرية» على المجموعة أو الجيش من المسلمين الذي يقوده أحد أفراد المسلمين، وأطلقوا اسم «الغزوة» على المجموعة أو الجيش الذي يقوده الرسول ﷺ بنفسه.

وهي في طريقها إلى الشام، فكسب إلى جانبه في السنوات الأولى من الهجرة: بني ضَمْرَة، وجُهَينة، وخُزاعة، وغِفَار، وأَسْلَم. وسيأتي ذكر هذا من خلال الكلام عن السرايا. وكسب غيرها بعدها خلال سني حياته بالمدينة كما سنرى، إن شاء الله.

ولقد نجحت هذه السرايا في كل أهدافها، لا سيما إرباك قريش وحلفائها، وإضعاف معنوياتهم، وضرب نشاطهم التجاري في جميع الاتجاهات، والحصول على مورد للتموين والتسليح. ونجحت في إنذار الأعداء بأن للمسلمين المقدرة على التصدي والردع، واكتسبت القوات الإسلامية مزيد خبرة في مجال التدريب العسكري، والمناورة، وجس نبض الأعداء، ومعرفة دروب الصحراء، وأحوال الأعداء.

ثانياً: الغزوات والسرايا والأحلاف والأحداث الهامة

١ ـ غزوة الأبْوَاء (وَدَّان):

غزاها رسول الله ﷺ في صفر على رأس أحد عشر شهراً من الهجرة، كما عند الواقدي، وفي صفر على رأس اثني عشر شهراً، كما عند ابن سعد، يريد الاعتراض على عير لقريش، ويريد بني ضمرة. فسار حتى بلغ الأبواء من ديار بني ضمرة، فلم يلق حرباً، وكانت فرصة لموادعة بني ضمرة من كنانة، على أن لا يكثروا عليه، ولا يعينوا عليه أحداً، وكتب في ذلك كتاباً لزعيمهم مَخْشِيّ بن عمرو الضمري [ابن سعد]. وكانت أول غزوة غزاها النبي ﷺ بنفسه [ابن إسحاق: السيرة؛ وابن سعد؛ وابن عقبة كما في الفتح؛ والطبراني كما في المجمع وبسند حسن].

وقال ابن حجر في الفتح (١٥/ ١٤٢): «وذكر أبو الأسود في مغازيه عن عروة، ووصله ابن عائذ من حديث ابن عباس: أن النبي ﷺ لما وصل إلى الأبواء بعث عبيدة بن الحارث في ستين رجلاً، فلقوا جمعاً من قريش، فتراموا بالنبل، فرمى سعد بن أبي وقاص بسهم، وكان أول من رمى بسهم في سبيل الله».

٢ ـ غزوة بُوَاط من ناحية رَضْوَى:

خرج الرسول ﷺ في مئتين من أصحابه يعترض عيراً لقريش، فيها أمية بن خلف ومائة رجل من قريش وألفان وخمسمائة بعير، فبلغ بواط، وهي جبال من جبال جهينة من ناحية رضوى، ثم رجع حين لم يعثر على القافلة، ولم يلق حرباً. وكان ذلك في ربيع الأول، على رأس ثلاثة عشر شهراً من الهجرة [ابن إسحاق: السيرة؛ وابن سعد؛ والواقدي].

٣ ـ غزوة سَفَوَان (بدر الأولى ـ بدر الصغرى):

عندما أغار كُرْزُ بن جابر الفهري على سرح المدينة في ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهراً من الهجرة، خرج رسول الله ﷺ في طلبه حتى بلغ وادياً يقال له سفوان، من ناحية بدر، فلم يدركه، فعاد إلى المدينة. وعند ابن إسحاق [في السيرة] أنها بعد غزوة ذي العُشَيْرَة [ابن إسحاق: السيرة؛ وابن سعد؛ والواقدي].

٤ ـ غزوة العُشَيْرَة:

خرج الرسول ﷺ في خمسين ومائة ـ ويقال في مائتين ـ من أصحابه، يعترض قافلة كبيرة لقريش في طريقها إلى الشام، وبلغ العشيرة، وهي لبني مدلج، بناحية ينبع، ففاتته العير. وهي التي خرج يريدها حين عادت، ولكنها ـ أيضاً ـ أفلتت، وكان لقاء بدر الكبرى بسببها.

ووادع في هذه الغزوة بني مدلج، وحلفاءهم من بني ضمرة، ثم عاد إلى المدينة، ولم يلق حرباً.

وكان ذلك في جمادى الآخرة على رأس ستة عشر شهراً من الهجرة [المصادر نفسها].

وقد ثبت في الصحيح وقوع هذه الغزوة، ولكن بدون ذكر لأي تفاصيل عنها [البخاري].

وتفيدنا المصادر أن الرسول ﷺ عقد معاهدات دفاع مشترك وأمان مع غير من ذكرنا، في وقت مبكر من حياته بالمدينة، ولم يرتبط وقوع ذلك بخروج المسلمين في غزوة أو سرية معينة. مثال ذلك:

كتاب الرسول ﷺ إلى بُدَيْل بن ورقاء، وبُسْر، وسَرَوَات بني عمرو الخزاعيين، يفيدهم فيه أنه لم يخنهم منذ أن سالمهم، وأكد لهم الأمان من جانبه [أسد الغابة؛ وابن سعد].

وكتاب الرسول ﷺ إلى أسلم من خزاعة، وفيه الإقرار بالمناصرة [ابن سعد].

وكتاب الرسول ﷺ إلى بني غفار، وفيه اتفاقية دفاع مشترك ضد من يحاربهم، أو يحارب المسلمين في دينهم [نفسه].

وكتاب النبي ﷺ إلى نُعَيْم بن مسعود بن رُخَيْلَة الأشجعي، وفيه المحالفة على النصر والنصيحة [نفسه].

٥ ـ سرية نَخْلَة:

بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش في رجب على رأس سبعة عشر شهراً من الهجرة، ومعه ثمانية رهط [أي دون العشرة] من المهاجرين، وكتب له كتاباً، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، وذلك إمعاناً في السرية، وحتى لا يعلم أحد إلى أين الاتجاه.

وفعل ما أمر به، وعندما فض الكتاب وجد فيه الأمر بأن يمضي حتى ينزل نخلة، بين مكة والطائف، ليرصد بها قريشاً، ويعلم له من أخبارهم، وألا يستكره أحداً من أصحابه. وعندما أخبر أصحابه بأمر الرسول ﷺ مضوا معه جميعاً إلى وجهته.

وعندما نزلوا نخلة مرت عير لقريش، فيها ابن الحضرمي، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نَوْفَل، والحَكَم بن كَيْسَان مولى هشام بن المغيرة.

وتشاور الصحابة في أمر الاستيلاء على هذه العير؛ لأن ذلك كان في آخر يوم من رجب، وهو شهر حرام، فخشوا أن يترتب على هذا القرار نتائج غير مرضية. وعندما وجدوا أنهم لو تركوهم هذه الليلة ليدخلن الحرم، وليمتنعن به منهم، تشجعوا، وأجمعوا أمرهم على قتل من يقدرون عليه منهم وأخذ ما معهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، وأسروا عثمان بن عبد الله بن المغيرة، والحكم بن كيسان، وأفلت نوفل. وأقبل ابن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين إلى رسول الله ﷺ بالمدينة.

وقال لهم الرسول ﷺ: إنه لم يأمرهم بقتال في الشهر الحرام، وأبى أن يأخذ العير والأسيرين، وظن القوم أنهم هلكوا، وعنفهم إخوانهم المسلمون فيما فعلوا.

وقالت قريش: إن محمداً وأصحابه قد استحلوا الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدم، وأخذوا فيه الأموال، وأسروا فيه الرجال.

فلما أكثر الناس في ذلك، أنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾ [البقرة: ٢١٧، ٢١٨].

وبها فرج الله على المسلمين ما كانوا فيه من الهم، وقبض الرسول ﷺ العير والأسيرين.

وعندما أرسلت قريش في فداء الأسيرين اشترط الرسول ﷺ أن يكون ذلك بعد مجيء سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان، خشية منه عليهما من قريش، وكانا قد تخلفا عن القوم قبل وصولهم نخلة، بحثاً عن بعيرهم الذي أضلاه [الطبراني، بإسناد حسن كما قال الهيثمي في المجمع].

أحكام وعبر في قصة سرية نخلة

١ ـ لقد بينت هاتان الآيتان اللتان نزلتا في التعليق على ما حدث في هذه السرية أن الذي فعله المشركون بالمسلمين: من صد عن سبيل الله، وكفر به، وصد عن المسجد الحرام، وإخراج المسلمين من بلدهم، وسلب أموالهم، وفتنتهم عن دينهم، بينت الآية أن كل هذا أكبر عند الله مما فعله المسلمون، أي القتال في الشهر الحرام.

فإذا كان المشركون يرتكبون هذه الجرائم الكبرى كلها في حق المسلمين فلا تثريب على المسلمين من قتالهم في الشهر الحرام، وإنما

التثريب أن لا يقاتل في الشهر الحرام من يرتكب تلك الجرائم، إذا دعت الضرورة.

وفي هذا التعليق بيان لسياسة الإسلام في تقدير القيم الدينية والخلقية، وسموه بالمعاني الروحية والإنسانية، وعدم إغفاله للبواعث النبيلة التي دعت رجال السرية للقتال في الشهر الحرام، دون الوقوف عند الظواهر والرسوم، وما التزمه الناس من تقاليد كريمة مشروعة أو موروثة.

٢ ـ وبينت الآية أن بعض الناس يقدس، ويشيد بالقوانين عندما تكون في مصلحته، فإذا رأى هذه المصلحة مهددة بما ينتقصها هدم القوانين والدساتير جميعاً.

٣ ـ وبينت الآية أن لا هوادة مع المشركين المعتدين، مما كان له أثره البعيد لدى المسلمين وأعدائهم.

٤ ـ أن استخدام الرسول ﷺ أسلوب الرسائل السرية دل على مشروعية الأخذ بالأسباب، ودل على سبق الإسلام في استخدام هذا الأسلوب الذي لم يعرفه الغرب إلا في الحرب العالمية الثانية.

٥ ـ لقد كانت سرية نخلة أول عملية توغل قريباً من مكة، مركز العدو؛ ولذا فهي عملية فدائية، قامت على الطواعية، إذ لم يكره عبد الله أحداً من أفراد السرية على المضي في الخطة المرسومة في رسالة النبي ﷺ السرية [وانظر: أبي شهبة، والغزالي، والشامي في المعين].

وهذه السرية تدل على أن خطة المسلمين في ملاحقة قوافل قريش لم تكن خاصة بالمنطقة الشمالية من الحجاز، بل تعدت ذلك إلى المنطقة الجنوبية من طريق قوافل قريش إلى اليمن.

ـ تحويل القبلة:

قال الجمهور: إنه في النصف من شعبان على رأس ثمانية عشر شهراً من الهجرة أمر الله ﷻ بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام، بعد أن صلى إلى بيت المقدس بالمدينة ستة عشر أو سبعة عشر شهراً. وكان ﷺ يحب أن يصرف قبلته نحو الكعبة، قبلة إبراهيم، وكان يكثر الدعاء والتضرع، فأنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً

تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ . . . ﴾ الآية [البقرة: ١٤٤] فكان أول صلاة صلاها إلى المسجد الحرام صلاة العصر، وبلغ الخبر أهل قباء في اليوم التالي، وهم يصلون الصبح، فتحولوا إلى المسجد الحرام [متفق عليه؛ البداية].

ـ فريضة صيام رمضان:

قال الطبري [في تاريخه] في حوادث السنة الثانية الهجرية: «. . . وفي هذه السنة فرض صيام شهر رمضان، وقد قيل: إنه فرض في شعبان منها . . .».

وثبت في الصحيحين، أن الرسول ﷺ عندما قدم المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فصامه، وأمر بصيامه، فلما نزل الأمر بصيام شهر رمضان، كان رمضان الفريضة، وخَيَّرَ الناس في صيام عاشوراء.



الفصل الخامس

غزوة بدر الكبرى

انظر الملحق (٣) خريطة غزوة بدر الكبرى

عندما سمع الرسول ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشام في تجارة لقريش، ندب المسلمين إليه، وقال لهم: «هذه عير قريش، فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله يَنفِلُكُمُوها» [ابن إسحاق: السيرة، حسن].

وفي رواية عن أبي أيوب الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ ونحن بالمدينة: «إني أخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة، فهل لكم أن نخرج قِبَلَ هذه العير، لعل الله يُغْنِمُنَاها؟ قلنا: نعم. فخرج وخرجنا معه» [الهيثمي: المجمع، المعجم الكبير ٤٠٥٦ ، وسنده حسن].

والمخبر في رواية مسلم (١٩٠١): بُسَبْسَة، وعند أهل السير والمغازي: بَسْبَس بن عمرو، ويقال: ابن بشر.

ولم يستنفر الرسول ﷺ كل الناس، بل طلب أن يخرج معه من كان ظهره [أي راحلته أو دابته] حاضراً، ولم يأذن لمن أراد أن يأتي بظهره من علو المدينة [مسلم]، ولذا لم يعاتب أحداً تخلف عنها [البخاري]. وكان عددهم ما بين الـ٣١٣ والـ٣١٩ رجلاً [متفق عليه]، منهم ما بين الـ٨٢ والـ٨٦ من المهاجرين و٦١ من الأوس و١٧٠ من الخزرج [البخاري؛ ابن إسحاق في السيرة]، معهم سبعون بعيراً، [فاعتقبوها ـ أي تعاقبوا على ركوبها، وفرسان فقط] [أحمد: المسند، حسن؛ ابن إسحاق، حسن].

وكان أبو لُبَابَة وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله ﷺ، فعندما جاءت نوبته في المشي، قالا له: «نحن نمشي عنك». فقال لهما: «ما أنتما بأقوى مني، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما» [نفسه].

وفي الطريق، وعندما بلغوا الرَّوحاء، رد الرسول ﷺ أبا لبابة، وَأَمَّرَهُ

على المدينة، وسبق ذلك أن جعل عبد الله بن أم مكتوم على الصلاة [الحاكم]، وأصبح مكانه في زمالة الرسول ﷺ على البعير مَرْثَد [ابن إسحاق، حسن] بن أبي مرثد؛ ولذلك فلا خلاف بين رواية ابن إسحاق، ورواية أحمد.

وعندما علم أبو سفيان بالخطر المُحْدِق بقافلته أرسل ضَمْضَمَ بن عمرو الغِفَارِيّ إلى مكة يستنجد بقريش.

وجاء ضمضم مسرعاً إلى مكة، وعندما دخلها وقف على بعيره، وقد جدع [قطع] أنفه، وحول رحله، وشق قميصه، وهو يصيح: «يا معشر قريش، اللَّطِيمَة، اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغَوْثَ، الغَوْثَ» [نفسه].

وخرجت قريش مسرعة لإنقاذ عيرها ورجالها، ولتلتقي بالمسلمين في حرب تراها قاضية على قوة المسلمين التي ظلت تهدد تجارتهم، ولم يتخلف من أشرافهم سوى أبي لهب، فإنه أرسل مكانه العاص بن هشام، مقابل دين كان عليه، مقداره أربعة آلاف درهم [نفسه]. ولم يتخلف من بطون قريش سوى بني عدي [نفسه].

وبلغ عددهم في بداية مسيرهم نحو ألف وثلاثمائة محارب، معهم مائة فرس وستمائة درع وجمال كثيرة، بقيادة أبي جهل [البداية، من حديث الأموي بإسناد مرسل، وفيه أنه كان مع المشركين ستون فرساً].

وعندما خشوا أن تغدر بهم بنو بكر لعداوتها معهم كادوا أن يرجعوا عما أرادوا [ابن إسحاق، حسن مرسل] فتبدى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك المدلجي، سيد بني كنانة، وقال لهم: «أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه [نفسه]. فخرجوا من ديارهم كما حكى عنهم القرآن: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [تفسير الطبري، مرسل صحيح] [الأنفال: ٤٧].

رأت عاتكة بنت عبد المطلب فيما يرى النائم قبل مقدم ضمضم بن عمرو بخبر أبي سفيان بثلاث ليال، فقالت: رأيت رجلاً أقبل على بعير له فوقف بالأبطح، فقال: انفروا ـ يا آل غُدَر ـ لمصارعكم في ثلاث، فذكرت المنام، وفيه: ثم أخذ صخرة فأرسلها من رأس الجبل، فأقبلت تهوي حتى

ترضضت فما بقيت دار ولا بنية إلا ودخل فيها بعضها. وفي القصة إنكار العباس على أبي جهل قوله: «حتى حدثت فيكم هذه النبية»، وإرادة العباس أن يشاتمه، واشتغال أبي جهل عنه بمجيء ضمضم يستنفر قريشاً لصد المسلمين عن عيرهم، فتجهزوا وخرجوا إلى بدر، فصدق الله رؤيا عاتكة [ابن إسحاق، حسن لغيره].

لقد كان أبو سفيان متيقظاً للخطر المتكرر من جانب المسلمين؛ ولذا عندما اقترب من بدر لقي مجدي بن عمرو، وسأله عن جيش الرسول ﷺ، فأفاده مجدي بأنه رأى راكبين أناخا إلى تل، ثم استقيا في شن لهما، ثم انطلقا، فبادر أبو سفيان إلى مناخهما، فأخذ من أبعار بعيريهما، ففته، فعرف منه أنه من علائف المدينة، فأسرع تاركاً الطريق الرئيس الذي يمر على يسار بدر، واتجه إلى طريق الساحل غرباً، ونجا من الخطر، ثم أرسل رسالة أخرى إلى جيش قريش، وهم بالجحفة، يخبرهم فيها بنجاته، ويطلب منهم الرجوع إلى مكة [ابن إسحاق، حسن].

وهَمَّ جيش مكة بالرجوع، ولكن أبا جهل رفض ذلك، قائلاً: «والله لا نرجع حتى نرد بدراً، فنقيم بها ثلاثاً، فننحر الجزور، ونطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف لنا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً. فامضوا» [الطبري: التفسير، حسن]. [وبدر: اسم لبئر حفرها بدر بن قريش بن الحارث بن مخلد بن النضر بن كنانة، فنسبت له]

فأطاعه القوم ما عدا الأخنس بن شَرِيق، حيث رجع بقومه بني زهرة، وطالب بن أبي طالب؛ لأن قريشاً في حوارها معه اتهمت بني هاشم بأن هواهم مع محمد ﷺ. وساروا حتى نزلوا قريباً من بدر، وراء كثيب يقع بالعدوة القصوى، على حدود وادي بدر [ابن إسحاق، حسن].

وبلغ خبر ذلك الرسول ﷺ، فاستشار أصحابه [متفق عليه]. وخشي فريق منهم المواجهة في وقت لم يتوقعوا فيه حرباً كبيرة، ولم يستعدوا لها بكامل عدتهم وعتادهم، فجادلوا الرسول ﷺ ليقنعوه بوجهة نظرهم. وفيهم نزل قول الله ـ تعالى ـ: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ۝٦

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٥ - ٧] [المجمع، حسن، والطائفتان: عير أبي سفيان وجيش قريش].

وتكلم قادة المهاجرين، وأيدوا الرأي القائل بالسير لملاقاة العدو، منهم أبو بكر وعمر والمقداد بن عمرو. ومما قاله المقداد: «يا رسول الله، امض لما أراك الله، فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه» [ابن إسحاق، حسن]. وفي رواية قال: «لا نقول كما قال قوم موسى: اذهب أنت وربك فقاتلا، ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك»، وسر النبي ﷺ من قوله [البخاري وأحمد].

وبعد سماعه كلام قادة المهاجرين، قال: «أشيروا علي أيها الناس»، وكان بذلك يريد أن يسمع رأي قادة الأنصار؛ لأنهم غالبية جنده، ولأن نصوص بيعة العقبة الكبرى لم تكن في ظاهرها ملزمة لهم بحماية الرسول ﷺ خارج المدينة [مسلم]، وأدرك سعد بن معاذ - حامل لواء الأنصار - مراد الرسول ﷺ، فنهض قائلاً: «والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل، قال: فقد آمنا بك فصدَّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبُرٌ في الحرب صُدُقٌ في اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله» [ابن إسحاق، حسن].

فسُر رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشَّطه ذلك، ثم قال: سيروا وأبشروا، فإن الله - تعالى - قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم [ابن إسحاق، حسن بشواهده].

ورد الرسول ﷺ عمير بن أبي وقاص لصغر سنه (١٦ سنة)، فبكى، فأجازه، فاستشهد يوم بدر [الطبراني، برجال الصحيح كما قال الهيثمي].

وفي الطريق وعند حَرَّة الوَبَرة [موضع على ٤ ميل من المدينة] أدركه رجل من المشركين، قد كان يذكر منه جرأة ونجدة، أراد أن يحارب معه، فقال له الرسول ﷺ: «ارجع فلن أستعين بمشرك»، ثم عرض له مرة ثانية بالشجرة، ومرة ثالثة بالبَيْدَاء، والرسول ﷺ يقول له ما قاله أول مرة، وأخيراً أقر بالإسلام، فقبله الرسول ﷺ [مسلم].

وعندما وصل قريباً من الصَّفْرَاء، بعث بسبس بن الجهني وعدي بن أبي الزغباء الجهني إلى بدر يتحسسان له الأخبار عن أبي سفيان وعيره [ابن إسحاق، حسن].

ويروى أنه خرج هو وأبو بكر لهذا الغرض، ولقيا شيخاً فسألاه عن جيش قريش، فاشترط عليهما أن يخبراه ممن هما، فوافقا، وطلبا منه أن يخبرهما هو أولاً، فأخبرهما بأنه قد بلغه أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن صدق الذي أخبره فهم اليوم بمكان كذا وكذا ـ للمكان الذي به جيش المسلمين ـ وإن صدق الذي أخبره بجيش قريش فهم اليوم بمكان كذا ـ للمكان الذي به جيش قريش.

ولما فرغ من كلامه قال: ممن أنتما؟ فقال له رسول الله ﷺ: نحن من ماء، ثم انصرفا عنه، وتركاه يقول: من ماء؟ أمن ماء العراق؟ [ابن إسحاق].

وفي مساء ذلك اليوم أرسل علياً والزبير وسعد بن أبي وقاص في نفر من أصحابه لجمع المعلومات عن العدو، فوجدوا على ماء بدر غلامين يستقيان لجيش مكة، فأتوا بهما إلى الرسول ﷺ وهو يصلي، وأخذوا في استجوابهما. فأفادا أنهما سقاة جيش قريش، فلم يصدقوهما، وكرهوا هذا الجواب، ظناً منهم أنهما لأبي سفيان، إذ لا يزال الأمل يحدوهم في الحصول على العير، وضربوهما حتى قالا: إنهما لأبي سفيان.

وعندما فرغ الرسول ﷺ من صلاته عاتب أصحابه؛ لأنهم يضربونهما إذا صدقا، ويتركونهما إذا كذبا. ثم سألهما الرسول ﷺ عن مكان الجيش المكي، فقالا: هم وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى.

وعندما سألهما عن عدد جيش مكة وعدته لم يستطيعا تحديد ذلك، ولكنهما حددا عدد الجزور التي تنحر يومياً بأنها ما بين التسعة والعشرة، فاستنتج الرسول ﷺ بأنهم بين التسعمائة والألف، وذكرا له من بالجيش من أشراف مكة [مسلم وأحمد بسند صحيح]، فقال الرسول ﷺ لأصحابه: «هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها» [ابن إسحاق]. وأشار إلى مكان مصارع جماعة من زعماء قريش، فما ماط أحدهم عن موضع يد رسول الله ﷺ [مسلم].

وأنزل الله ـ تعالى ـ في هذه الليلة مطراً طهر به المؤمنين، وثبت به الأرض تحت أقدامهم، وجعله وبالاً شديداً على المشركين [أحمد: المسند، بسند صحيح؛ ابن إسحاق]. وفي هذا قال ـ تعالى ـ: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

ومن نعمه على المسلمين يوم بدر ـ أيضاً ـ أن غشيهم النُّعَاسُ أمنة منه، كما في صدر آية نعمة إنزال المطر: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً...﴾ [أحمد: المسند، بسند صحيح] الآية.

وروى في ذلك أحمد بسنده إلى أنس بن مالك: أن أبا طلحة قال: غشينا النعاس، ونحن في مصافنا يوم بدر، فكنت فيمن غشيه النعاس يومئذ فجعل سيفي يسقط من يدي، وآخذه، ويسقط، وآخذه.

وزاد الله المؤمنين فضلاً بأن أوقع الخلاف في صفوف عدوهم. فقد روى أحمد أن عُتْبَة بن ربيعة أخذ يثني قومه عن القتال محذراً من مغبته؛ لأنه علم [علم ذلك من عمرو بن وهب الجمحي الذي أرسلته قريش ليعرف خبر المسلمين فعاد إليهم قائلاً: «قد رأيت ـ يا معشر الناس ـ البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس لهم منعة إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟ فَرَوْا رأيكم».] أن المسلمين سوف يستميتون، فاتهمه أبو جهل بالخوف [ابن إسحاق، حسن]. وروى البزار أن عتبة قال لقومه يومذاك: إن الأقارب سوف تقتل بعضهم بعضاً، مما يورث في القلوب مرارة لن تزول.

فاتهمه أبو جهل بالخوف، وليريه شجاعته، دعا أخاه وابنه، وخرج بينهما داعياً إلى المبارزة. [المجمع، ورجاله ثقات؛ والطبري: التاريخ، مرسل حسن؛ البداية، بسند صحيح].

وكان الرسول ﷺ قد رأى عتبة على جمل أحمر، فقال: «إن يكن في أحد من القوم خير فعند صاحب الجمل الأحمر، إن يطيعوه يَرْشُدُوا» [أحمد: المسند، بسند صحيح]. وشاء الله أن يعصوه، وضاع رأيه وسط إثارة أبي جهل الثارات القديمة.

سبق الرسول ﷺ المشركين إلى ماء بدر، ليحول بينهم وبين الماء. وهنا أبدى الحُبَابُ بن المُنْذِر رأيه قائلاً: «يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟»، قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة».

قال الحباب: «يا رسول الله، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم ـ قريش ـ فننزله ونغوِّر ـ نخرب ـ ما وراءه من القُلُب ـ الآبار ـ ثم نبني عليه حوضاً فنملأه، ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون»، فقال رسول الله ﷺ: «لقد أشرت بالرأي». وفعل ما أشار به الحباب بن المنذر رضي الله عنه [ابن إسحاق، حسن لغيره].

وعندما استقروا في المكان، قال سعد بن معاذ مقترحاً: «يا نبي الله، ألا نبني لك عريشاً [والعريش: شبه خيمة، يكون مقراً للقيادة وظلاً للقائد] تكون فيه، ونعد عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله، وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام ـ يا نبي الله ـ ما نحن بأشد لك حباً منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم يناصحونك ويجاهدون معك»، فوافق الرسول ﷺ على هذا الاقتراح [ابن إسحاق، حسن لغيره].

ويفهم من النصوص الواردة في شأن القتال ببدر أن الرسول ﷺ شارك في القتال، ولم يمض كل وقته داخل هذا العريش أو في الدعاء، كما فهم بعض كتاب السيرة.

فقد روى أحمد [في المسند، بسند صحيح] عن علي، قال: «لقد رأيتنا

يوم بدر، ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا من العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً»، وفي موضع آخر بالسند نفسه: «لما حضر البأس يوم بدر، اتقينا برسول الله ﷺ، وكان من أشد الناس، ما كان أو لم يكن أحد أقرب إلى المشركين منه» [أحمد: المسند، بسند صحيح].

وروى مسلم أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم بدر: «لا يتقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه». وقال ابن كثير [في البداية]: «وقد قاتل بنفسه الكريمة قتالاً شديداً ببدنه، وكذلك أبو بكر الصديق، كما كانا في العريش يجاهدان بالدعاء والتضرع، ثم نزلا فحرضا، وحثا على القتال، وقاتلا بالأبدان جمعاً بين المقامين الشريفين».

وبعد أن اتخذ الرسول ﷺ كل الوسائل المادية الممكنة للنصر في حدود الطاقة البشرية بات ليلته تلك يتضرع إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ أن ينصره، [روى أحمد: المسند (٢/ ٢٧١، شاكر) بإسناد صحيح عن علي قال: «لقد رأيتنا يوم بدر، وما منا إلا نائم، إلا رسول الله؛ فإنه كان يصلي إلى شجرة؛ ويدعو حتى أصبح»] ومن دعائه كما جاء في رواية عند مسلم: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض» وتقول الرواية: «فما زال يهتف بربه حتى سقط رداؤه عن منكبيه. فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك؛ فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال: ٩]، فأمَدَّه الله بالملائكة».

ومما رواه البخاري من دعائه في ذلك اليوم: «اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن تشأ لا تُعبد بعد اليوم»، وتقول الرواية: «فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك يا رسول الله، ألححت على ربك، وهو يثب في الدرع، فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٤٥].

وروى ابن أبي حاتم بإسناده إلى عكرمة أنه قال: لما نزلت ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾، قال عمر: أي جمع يهزم؟ أي جمع يغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب في الدرع، وهو يقول:

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾، فعرفت تأويلها يومئذ [البخاري؛ والنسائي؛ وابن كثير: التفسير؛ وأحمد، صحيح].

وفي صباح يوم الجمعة السابع عشر من رمضان ـ السنة الثانية من الهجرة [ابن حجر: التلخيص الحبير، ومتفق عليه عند أئمة المغازي] وعندما تراءى الجمعان دعا رسول الله ﷺ ربه قائلاً: «اللهم هذه قريش قد أقبلت بخُيَلائِها وفَخْرِها تُحادُّك وتكذب رسولك، اللهم فَنَصْرَكَ الذي وعدتني، اللهم أَحِنْهُم الغداةَ» [رواه ابن إسحاق معلقاً كما في (ابن هشام ٢/ ٣١٤)، وقد ثبت أن أبا جهل قال حين التقى القوم: «اللهم أقطعنا للرحم، وأتانا بما لا نعرفه فأحنه ـ أي أهلكه ـ الغداة» فكان هو المستفتح، أي الحاكم على نفسه بهذا الدعاء، والفتاح الحاكم. وفي ذلك نزل قول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنفال]. وقد روى الخبر بإسناد صحيح أحمد: الرباني (٢١/ ٤٤)، والطبري في التفسير (١٣/ ٤٥٤، شاكر) بإسناد صحيح، والحاكم (٢/ ٣٢٨) وصححه. والدعاء إلى قول الراوي: «فكان هو المستفتح»، رواه ابن إسحاق بإسناد مرسل، وابن هشام (٢/ ٣٢٣). والخُيلاء: التكبر والإعجاب، وتحادك: تعاديك؛ أحنهم: أهلكهم الآن].

وعندما وقف المسلمون في صفوف القتال أخذ الرسول ﷺ في تعديل صفوفهم وفي يده قِدْح، فطعن به سَوَّاد بن غَزِيَّة في بطنه؛ لأنه كان مستنتلاً ـ متقدماً ـ من الصف عمداً، وقال له: استو يا سواد، فقال سواد: يا رسول الله أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق، فأقدني [أي أعطني القود من نفسك، أو القصاص]، فكشف عن بطنه، وقال: استقد، فاعتنقه سواد وقبل بطنه، فقال النبي ﷺ: ما حملك على هذا يا سواد؟ قال: يا رسول الله، قد حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدك جلدي»، فدعا له رسول الله ﷺ بخير [ابن إسحاق؛ عبدالرزاق، مرسلاً يتقوى بغيره؛ الهيثمي، برجال ثقات].

وشهد سواد المشاهد كلها بعد هذا، كما ذكر ابن عبد البر في الاستيعاب [من حديث ابن عقبة].

ثم أخذ في توجيههم في أمر الحرب قائلاً: إذا أَكْثَبُوكُم [قربوا منكم] فارموهم، واستبقوا نبلكم [البخاري]، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم [أبوداود]. وحرضهم على القتال، قائلاً: «والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل، فيقتل صابراً محتسباً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة» [ابن إسحاق]، وفي رواية عند مسلم: أنه عندما دنا المشركون قال النبي ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض». وعندما سمع ذلك عمير بن الحُمَام الأنصاري، قال: «يا رسول الله! أجنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: «نعم» قال: بَخٍ بَخٍ [كلمة تقال في مواضع الإعجاب والفخر]. فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملكَ علَى قولك: بَخٍ بَخٍ» قال: لا، والله! يا رسول الله! إلا رجاءه أن أكون من أهلها. قال: «فإنكَ من أهلها، فأخرج تمرات من قَرَنِهِ [جعبة النشاب]، فجعل يأكل منهن. ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه، إنها لحياة طويلة. قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل» [ابن إسحاق]. . .

وقال عوف بن الحارث ـ بن عفراء ـ: «يا رسول الله، ما يضحك الرب من عبده، قال: «غمسه يده في العدو حاسراً»، فنزع درعاً كانت عليه، فقذفها، ثم أخذ سيفه، فقاتل حتى قتل[نفسه].

وطلب الرسول ﷺ من أصحابه، قبل بدء المعركةَ ألا يقتلوا نفراً من بني هاشم وغيرهم؛ لأنهم خرجوا مكرهين، وسمى منهم أبا البختري بن هشام الذي كان ممن سعى لنقض صحيفة المقاطعة، ولم يؤذ النبي ﷺ، والعباس بن عبد المطلب. وعندما سمع أبو حذيفة ذلك قال: «أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك العباس، والله لئن لقيته لألحمنه ـ أو لألجمنه ـ بالسيف»، فبلغت مقالته رسول الله ﷺ، فقال لعمر: «يا أبا حفص؟ أيضرب وجه عم رسول الله ﷺ، بالسيف؟» فقال عمر: «يا رسول الله، دعني فلأضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق». فكان أبو حذيفة يقول: «ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذٍ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عني الشهادة»، فقتل يوم اليمامة شهيداً [ابن إسحاق، حسن].

وقبل ابتداء القتال خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي، فقال:

«أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه، أو لأموتن دونه»، وتصدى له حمزة، وضربه ضربة أطارت قدمه بنصف ساقه، ثم حبا إلى الحوض مضرجاً بدمائه ليبر قسمه، واتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض [نفسه، حسن].

المبارزة

بعد هذا خرج ثلاثة من فرسان قريش يطلبون المبارزة، وهم: عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة، والوليد بن عتبة، فخرج لهم ثلاثة من شباب الأنصار، وهم: عوف، ومعوذ ابنا الحارث ـ وأمهما عفراء ـ وعبد الله بن رواحة، فلم يقبل فرسان قريش بغير بني أعمامهم من المهاجرين، فأمر الرسول ﷺ عبيدة بن الحارث، وحمزة، وعليا أن يبارزوهم. وكان حمزة لعتبة، وعبيدة للوليد، وعلي لشيبة، وقتل علي وحمزة صاحبيهما، وأعانا عبيدة على قتل الوليد، واحتملا عبيدة الذي أثخنه الوليد بالجراح [أبوداود، وقال ابن حجر في الفتح: إنها أصح الروايات].

وفي هؤلاء الستة نزل قول الله ـ تعالى ـ: ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾ [الحج: ١٩].

ثم طلب الرسول ﷺ من علي أن يناوله كفاً من حصى، فناوله ذلك، فرمى به وجه القوم، فما بقي أحد من القوم إلا امتلأت عيناه من الحصباء، فنزلت الآية الكريمة: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] [المجمع، موصولاً، وقال الهيثمي: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح].

الملائكة تشهد بدراً

ونزل المسلمون ساحة المعركة بقوة إيمانية كبيرة، وشدوا على المشركين، وأخذوا في اقتطاف رؤوسهم، وأمدهم الله بالملائكة لينصرهم على عدوهم، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ . . .﴾ [آل عمران: ١٢٣ ـ ١٢٦] الآيات، و﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ [الأنفال: ٩ ـ ١١] و﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى

﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ. . .﴾ الآية [الأنفال: ١٢].

وكما روي من الأحاديث في هذا الشأن. فقد روى مسلم في هذا: «بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في إثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: أَقْدِمْ حَيْزُومُ [اسم فرس الملك كما قال النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٢/ ٨٦)، وفي النهاية في غريب الحديث (١/ ٤٦٧) أنه اسم فرس جبريل]، فنظر إلى المشرك أمامه، فَخَرَّ مُسْتَلْقِياً، فنظر إليه فإذا هو قد خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ، فاخْضَرَّ ذلك أَجْمَعُ. فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله ﷺ، فقال: «صدقت. ذلك من مَدَدِ السماءِ الثالثة». [وخطم: أصيب وتركت الضربة أثراً].

وروى أحمد أن رجلاً من الأنصار قصير القامة جاء بالعباس أسيراً، فقال العباس: «يا رسول الله، إن هذا ـ والله ـ ما أسرني، لقد أسرني رجل أَجْلَحُ من أحسن الناس وجهاً، على فرس أَبْلَق، ما أراه في القوم»، فقال الأنصاري: «أنا أسرته يا رسول الله. فقال: اسكت، فقد أيدك الله ـ تعالى ـ بملك كريم». [المسند، بسند صحيح].

وروى الأموي أن الرسول ﷺ خفق خفقة في العريش، ثم انتبه، فقال: «أبشر أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل معتجر بعمامة، آخذاً بِعَنانِ فرسه يقوده على ثَنَايَاه النَّقْعُ، أتاك نصر الله وعدته». [ابن إسحاق، وحسنه الألباني في حاشية سيرة الغزالي].

ورويت أحاديث في مشاركة الملائكة المسلمين يوم بدر، ولم تصرح بالقتال، فقد روى البخاري أن النبي ﷺ قال يوم بدر: «هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب»، وقال في رواية أخرى: «جاء جبريل النبي ﷺ فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: أفضل المسلمين ـ أو كلمة نحوها ـ قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة» [البخاري].

وروى الحاكم [بسند حسن] أنه كانت على الزبير يوم بدر عمامة صفراء معتجر بها، فنزلت الملائكة عليهم عمائم صفر، على سيماء الزبير. وروى ذلك كذلك ابن سعد [وصححه ابن حجر في الإصابة].

لقد أكرم الله عباده المؤمنين يوم بدر ببعض الكرامات. فقد روي أن عُكَّاشَة بن مِحْصَن قاتل بسيفه يوم بدر حتى انقطع في يده، فأعطاه الرسول ﷺ جذلاً من حطب ليقاتل به، فإذا هو في يده سيفاً طويلاً شديد المتن أبيض الحديدة، فقاتل به يوم ذاك وفي المعارك الأخرى التي شهدها بعد ذلك، وآخرها يوم اليمامة ـ أحد أيام حروب الردة ـ حين قتل شهيداً [ابن إسحاق، والواقدي؛ وابن سعد]

وعندما رأى إبليس ـ وكان في صورة سراقة بن مالك ـ ما تفعل الملائكة والمؤمنون بالمشركين، فر ناكصاً على عَقِبَيْهِ، حتى ألقى بنفسه في البحر [الطبري: التفسير، بطرق تعتضد].

مصرع الطغاة: أبي جهل وأمية بن خلف والعاص بن المغيرة

أ ـ أبو جهل:

روى البخاري ومسلم من حديث عبد الرحمن بن عوف أنه قال: «إني لفي الصف يوم بدر إذ التفت، فإذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السن، فكأني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحدهما سراً من صاحبه: يا عم، أرني أبا جهل، فقلت: يا ابن أخي، فما تصنع به؟ قال: أخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ، قال: والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا، فتعجبت لذلك. قال: وغمزني الآخر فقال لي مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألاني عنه، قال: فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فقال: أيكما قتله؟ فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، قال: هل مسحتما سيفيكما؟ فقالا: لا. فنظر رسول الله ﷺ إلى السيفين، فقال: كلاكما قتله، وقضى رسول الله ﷺ بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجَمُوح [لأن الثاني استشهد]، والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن عَفْرَاء» واستشهد معاذ في المعركة.

وروى ابن إسحاق [بسند حسن] من حديث معاذ بن الجموح أنه قال:

«سمعت القوم، وأبو جهل في مثل الحَرَجَة [الشجرة الكثيرة الأغصان، شبه التفاف المشركين حوله بالشجرة الملتفة]، وهم يقولون: أبو الحكم لا يخلص إليه، قال: فلما سمعتها جعلته من شأني، فصمدت نحوه، فلما أمكنني حملت عليه، فضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه... وضربني ابنه عكرمة على عاتقي، فطرح يدي، فتعلقت بجلدة من جنبي، وأجهضني القتال عنه، فلقد قاتلت عامة يومي، وإني لأسحبها خلفي، فلما آذتني وضعت عليها قدمي، ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها، ثم مر بأبي جهل ـ وهو عقير ـ معوذ بن عفراء ـ فضربه حتى ثبته فتركه وبه رمق، وقاتل معوذ حتى قتل».

وروى البخاري أن النبي ﷺ قال: عندما انجلت المعركة: «من ينظر ما صنع أبو جهل؟ فانطلق ابن مسعود، فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى بَرَدَ، قال: أنت أبو جهل؟ قال: فأخذ بلحيته، قال: وهل فوق رجل قتلتموه، أو رجل قتله قومه؟».

وفي رواية أحمد أن الرسول ﷺ ذهب مع ابن مسعود ليرى جسد أبي جهل، وقال: «كان هذا فرعون هذه الأمة» [المسند].

وفي رواية ابن إسحاق أن أبا جهل قال لابن مسعود عندما جثا عليه: «لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعي الغنم».

ب ـ أمية بن خلف

تمكن عبد الرحمن بن عوف من أسر أمية، وعندما رآه بلال معه، قال: «رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا»، وحاول عبد الرحمن أن يثنيه عن عزمه فلم يستطع، بل استنفر بلال الأنصار، فلحقوا به معه وقتلوه، مع أن ابن عوف ألقى عليه نفسه وأمية بارك، فكان عبد الرحمن يقول: «يرحم الله بلالاً، ذهبت أَدرعي، وفجعني بأسيري» [البخاري؛ وابن إسحاق، بسند حسن].

وعندما طرح قتلى المشركين في القَلِيب لم يطرح معهم؛ لأنه انتفخ في درعه فملأها، وعنما ذهبوا ليحركوه تفرقت أعضاؤه، فتركوه في مكانه، وألقوا عليه ما غيبه من الحجارة والتراب [ابن إسحاق، حسن].

ج ـ العاص بن هشام بن المغيرة

كان العاص بن هشام بن المغيرة خال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ولذا حرص عمر على قتله، فقتله حتى يعلم أن ليس في قلبه ولاء إلا لله وحده [ابن هشام].

لقد انجلت معركة بدر عن نصر كبير للمسلمين، إذ قتلوا سبعين من المشركين، وأسروا سبعين [مسلم؛ وأحمد في المسند بسند صحيح]، ولم يقتل من المسلمين سوى أربعة عشر رجلاً، ستة من قريش، وثمانية من الأنصار [البداية من حديث ابن عقبة].

لقد كان جزاء الله عادلاً في هؤلاء ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾ [إبراهيم] [البخاري].

دفن قتلى المشركين في القليب [البئر التي لم تطوى]

روى البخاري، ومسلم، وأحمد، وابن إسحاق، والطبراني، وغيرهم: أن الرسول ﷺ أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش [كان مجموع قتلى المشركين سبعين كما سبق ذكره، وكما سيأتي ذكره، فلعل الآخرين دفنوا في أماكن أخرى، كما ذكر ابن حجر في الفتح] فقذفوا في طَوِيّ من أَطْوَاءِ بدر خَبِيثٍ مُخْبِثٍ، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعَرْصَة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليومَ الثالثَ أمر براحلته، فشد عليها رحلها، ثم مشى، واتبعه أصحابه، وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شَفَةِ الرَّكيّة، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟»، فقال عمر: «يا رسول الله، ما تُكَلِّمُ من أجسادٍ لا أرواح لها»، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» [وإسناد أحمد وابن إسحاق والطبراني صحيح].

وعندما ألقوا في القليب، وفيهم عتبة بن ربيعة، نظر رسول الله ﷺ إلى

وجه ابنه أبي حذيفة، فإذا هو كئيب قد تغير لونه، فقال له النبي ﷺ: «لعلك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟»، فقال: «لا والله يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكنني كنت أعرف من أبي رأياً وحلماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلما رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر، بعد الذي كنت أرجو له، أحزنني ذلك. فدعا له رسول الله ﷺ بخير، وقال له خيراً [ابن إسحاق، حسن].

وبعد نهاية المعركة وانتصار المسلمين وأخذ الأسرى، قيل للرسول ﷺ: «عليك بالعير، ليس دونها شيء». فناداه العباس أن ذلك لا يصلح له، قال: ولم؟ قال: «لأن الله ﷻ إنما وعدك إحدى الطائفتين، وقد أعطاك ما وعدك» [مسند أحمد، وصححه شاكر، وجوده ابن كثير في التفسير، وحسنه الترمذي].

وكانت وقعة بدر الكبرى يوم الجمعة صبيحة سبع عشر من رمضان، العام التالي للهجرة [ابن إسحاق؛ وابن سعد].

الغنائم

وقع خلاف بين المسلمين حول الغنائم؛ لأن حكمها لم يكن قد شرع يومذاك. وقد حكى عبادة بن الصامت ما حدث قائلاً: «خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدراً. فالتقى الناس، فهزم الله ـ تبارك وتعالى ـ العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم، يهزمون ويقتلون، وأكبت طائفة على المعسكر يحوونه ويجمعونه، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة، حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها وجمعناها، فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا، فنحن نفينا عنها العدو، وهزمناهم، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق بها منا، نحن أحدقنا برسول الله ﷺ وخفنا أن يصيب العدو منه غرة، واشتغلنا به، فنزلت: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١] [تفسير الطبري، بأسانيد بعضها صحيح، وابن إسحاق، حسن]،

فقسمها رسول الله ﷺ على فُوَاق بين المسلمين» ـ أي بالتساوي، أو بسرعة قدر فواق ناقة، والفواق ما بين حلبتي الناقة. وقيل: أراد التفضيل في الغنيمة، كأنه جعل بعضهم أفوق من بعض على قدر غنائمهم وبلائهم [أحمد: المسند، جيد].

ومما يدل على أن الغنائم قد خمست، ووزعت على المشاركين فيها ما رواه البخاري عن علي أن الرسول ﷺ أعطاه مما أفاء الله عليه من الخمس يومئذٍ.

وقد أسهم الرسول ﷺ لتسعة من الصحابة لم يشهدوا بدراً لأعمال كلفوا بها في المدينة أو لأعذار مباحة، منهم عثمان بن عفان؛ لأنه كان يمرض زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ. وقد توفيت، ودفنت يوم عودة الرسول ﷺ وأصحابه من بدر [أحمد: المسند، بسند صحيح].

وكان تقسيم الغنائم في منطقة الصَّفَراء في طريق العودة إلى المدينة [ابن إسحاق]. وأخذت الأسرى إلى المدينة. وقد أُرسل زيد بن حارثة وعبد الله بن رواحة ليزفا البشرى إلى أهل المدينة. وقد تلقوا النبأ بسرور بالغ مشوب بالحذر من أن لا يكون مؤكداً، قال أسامة بن زيد: «فوالله ما صدقت حتى رأينا الأسارى» [البداية، من رواية البيهقي، بسند صحيح؛ والحاكم، صحيح؛ وابن أبي شيبة؛ وابن إسحاق].

ودهشت سودة ﷺ عندما رأت سُهَيل بن عمرو، ويداه معقودتان إلى عنقه بحبل، فقالت: «أبا يزيد، أعطيتم بأيديكم، ألا متم كراماً!!، فقال رسول الله ﷺ: أعلى الله وعلى رسوله؟!! ـ أي تؤلبين ـ فقالت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق ما ملكت حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه بالحبل أن قلت ما قلت» [الحاكم من حديث ابن إسحاق، وصححه هو والذهبي].

الأسرى

استشار الرسول ﷺ الصحابة في أمر الأسرى. فأشار أبو بكر بأخذ الفدية منهم بحجة أن في ذلك قوة للمسلمين على الكفار، وعسى الله أن

يهديهم للإسلام، ورأى عمر قتلهم؛ لأنهم أئمة الكفر. ومال الرسول ﷺ لرأي أبي بكر. فنزل القرآن موافقاً لرأي عمر، وهو قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨] [تفسير الطبري، بسند حسن] إلى قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ﴾ [مسلم].

وكان أخذ الفداء حراماً في أول الإسلام، ثم جعل فيما بعد الخيار للإمام بين القتل أو الفداء أو المن ما عدا الأطفال والنساء، إذ لا يجوز قتلهم، ما داموا غير محاربين [المغني]. قال ـ تعالى ـ: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ﴾ [محمد: ٤].

وقد تباين فداء الأسرى فمن كان ذا مال أخذ فداؤه أربعة آلاف درهم، وممن أخذ منه أربعة آلاف درهم أبو وَدَاعَة [الطبراني في المجمع، وعبدالرزاق؛ وأبوداود؛ وابن هشام، وأسانيدهم تعتضد]. وأخذوا من العباس مائة أوقية. ومن عقيل بن أبي طالب ثمانين أوقية، دفعها عنه العباس، وأخذوا من آخرين أربعين أوقية فقط [دلائل: أبو نعيم، حسن ابن حجر في الفتح].

وأطلق الرسول ﷺ سراح عمرو بن أبي سفيان مقابل أن يطلقوا سراح سعد بن النعمان بن أكال، الذي أسره أبو سفيان، وهو يعتمر [ابن إسحاق].

ومن لم يكن لديهم مقدرة على الفداء، وكانوا يعرفون الكتابة، جعل فداؤهم أن يعلِّموا أولاد الأنصار الكتابة. فقد روى أحمد عن ابن عباس قال: «كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة، فجاء غلام يوماً يبكي إلى أبيه، فقال: ما شأنك؟ قال: ضربني معلمي، قال: الخبيث! يطلب بِذَحْلِ [ثأر] بدر! والله لا تأتيه أبداً» [المسند، بسند صحيح].

وكانوا يقبلون من بعض الأسارى ما عندهم إذا تعذر المفروض، فقد أرسلت زينب بنت رسول الله ﷺ قلادة لها لتفدي زوجها أبا العاص بن الربيع

الذي فرق بينهما الإسلام، فردوها لها، وأطلقوا لها أسيرها لمكانتها عند والدها محمد ﷺ [أحمد: المسند، بسند صحيح؛ وابن إسحاق بسند صحيح]، وبهذا كان ابن الربيع ممن أطلق بدون فداء، وأطلق الرسول ﷺ ممن لم يقدر على الفداء بأي شكل من الأشكال، منهم: المطلب بن حنطب المخزومي، وصيفي بن أبي رفاعة، وأبو عزة الشاعر [ابن إسحاق].

ومما يدل على أنه كان بالإمكان إطلاق سراحهم جميعاً بدون فداء قول الرسول ﷺ: «لو كان المطعم بن عدي حياً، ثم كلمني في هؤلاء النتنى لأطلقتهم له» [البخاري]. وذلك لما قام به من حماية للرسول ﷺ عندما عاد من هجرته إلى الطائف، ودوره في تمزيق صحيفة المقاطعة.

وعندما استأذن رجال من الأنصار النبي ﷺ في ترك فداء العباس قال: «والله لا تذرون منه درهماً» [البخاري]، مع أن العباس ذكر أنه كان مسلماً، وأنه خرج مستكرهاً [تفسير الطبري، بسند حسن].

وأخبر الرسول ﷺ عمه العباس ـ وهو أسير هنا ـ بما دفن هو وزوجته أم الفضل من المال تحت عتبة بابهم، فأقر له العباس بذلك [أحمد: المسند، بسند صحيح].

وفي طريق العودة إلى المدينة قتل النضر بن الحارث بمنطقة الصفراء ـ قتله علي ـ وقتل عقبة بن أبي مُعَيْط بمنطقة عرق الظبية ـ قتله عاصم بن ثابت [ابن إسحاق]، ويقال: قتله علي [ابن هشام (٢/ ٣٤٧) بإسناد منقطع، وروي أن الآية: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾﴾.. [الفرقان: ٢٨]

قد نزلت فيه. أخرج ابن جرير عن ابن عباس (١٩/ ٦): «كان أبي بن خلف يحضر النبي ﷺ فزجره عقبة بن أبي معيط، فنزل: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ...﴾ الآية، إلى قوله: ﴿لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾، قال: ﴿ٱلظَّالِمُ﴾ عقبة، و﴿فُلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٢]. أبي بن خلف». انظر: ابن كثير: التفسير (٦/ ١١٦)، حاشية رقم (٥). وقال ابن كثير هنا: «وسواء كان سبب نزولها في عقبة بن

أبي معيط أو غيره، فإنها عامة في كل ظالم».]، وذلك لعداوتهما الشديدة لدعوة الرسول ﷺ، وتلك نهاية الجبروت والشجاعة الزائفة. فقد رأينا عقبة، لصيق قريش، واليهودي الأصل [انظر: السهيلي: الروض الأنف (٣/ ٥٣) حيث ذكر أنه من أصل يهودي، من صفورية]، يعود إلى حقيقته عندما قال للرسول ﷺ مسترحماً: «من للصبية يا رسول الله؟ فأجابه: النار» [الطبراني: الكبير، والأوسط، برجال الصحيح].

وروى الطبراني [كما في سبل الشامي] بسنده إلى ابن عباس، وابن زنجويه في كتاب الأموال [بسند مرسل صحيح]: أن الرسول ﷺ قتله صبراً، وكذلك طُعَيْمَة بن عَديٍّ.

أما بقية الأسرى فقد استوصى بهم الرسول ﷺ خيراً [الطبراني، كما في المجمع بسند حسن]، فقد حكى أبو عزيز ـ شقيق مصعب بن عمير ـ وهو بين رهط من آسريه الأنصار ـ أن آسريه كانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوه بالخبز، وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ بالأسرى. حتى ما تقع في يد أحدهم خبزة إلا ناوله إياها، فيستحي فيردها على أحدهم، فيردها عليه ما يمسها [ابن إسحاق].

وأسلم كثير من هؤلاء الأسرى على فترات مختلفة قبل فتح مكة وبعدها، منهم: العباس، وعقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وخالد بن هشام، وعبد الله بن السائب، والمطلب بن حنطب بن الحارث، وأبو وَدَاعَة الحارث بن صبيرة، والحجاج بن الحارث بن قيس، وعبد الله بن أبي ابن خلف، ووهب بن عمير، وسهيل بن عمرو، وعبد بن زمعة، وقيس بن السائب، ونَسْطَاس مولى أمية بن خلف، . . . [السهيلي]. ولسهيل بن عمرو هنا قصة، فقد روى ابن أبي شيبة [في المغازي بسند مرسل صحيح] من حديث عطاء قال: «كان سهيل بن عمرو رجلاً أَعْلَم [مشقوق] من شفته السفلى، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرسول الله ﷺ يوم أسر ببدر: يا رسول الله! أنزع ثَنِيَّتَيْهِ السفليين، فَيَدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيباً بموطن أبداً، فقال: «لا أمثِّل فيمثِّل الله بي». [يدلع: يخرج لسانه حين الكلام]

وزاد ابن إسحاق [مرسل متصل ورجاله ثقات] في روايته: «. . . وإن كنت نبياً»، ثم قال ابن إسحاق: وقد بلغني أن رسول الله ﷺ قال لعمر في هذا الحديث: إنه عسى أن يقوم مقاماً لا تَذُمُّهُ. وقال الشامي [في السبل]: «روى الحاكم والبيهقي. . . عن محمد بن الحنفية، قال: قال عمر: . . . فقال رسول الله ﷺ: «دعه، فلعله أن يَسُرَّكَ يوماً»، وقال الراوي ـ سفيان بن عيينة ـ: فلما مات النبي ﷺ نفر منه أهل مكة، فقام سهيل بن عمرو عند الكعبة، فقال: «من كان محمد إلاهه فإن محمداً قد مات، والله حي لا يموت» [المستدرك؛ وابن هشام؛ الخصائص].

وروى ابن سعد ـ كما ذكر الشامي [في السبل] ـ بسنده إلى أبي عمرو بن عدي بن الحمراء الخزاعي، قال: نظرت إلى سهيل بن عمرو يوم جاء نعي النبي ﷺ إلى مكة، وقد خطبنا بخطبة أبي بكر التي خطبت بالمدينة، كأنه سمعها، فلما بلغ ذلك عمر قال: «أشهد أن محمداً رسول الله، وأن ما جاء به حق، هذا هو المقام الذي عَنَى رسول الله ﷺ حين قال لي: «لعله يقوم مقاماً لا تكرهه».

مكانة غزوة بدر في التاريخ

كانت موقعة بدر ذات أثر كبير في إعلاء شأن الإسلام، ولذا سميت في القرآن بيوم الفرقان. وأوضحت الأحاديث فضل البدريين وعلو مقامهم في الجنة، فقد عقد البخاري باباً في فضل من شهدها، وفيه قصة حارثة بن سراقة الذي أصابه سهم طائش يوم بدر، وهو غلام، وجاءت أمه تسأل عن مصيره يوم القيامة، فبشرها الرسول ﷺ بأن له جناناً كثيرة، وأنه في جنة الفردوس.

وفي قصة حَاطِب بن أبي بَلْتَعَة الذي أرسل إلى قريش يخبرهم بنيَّة الرسول ﷺ فتح مكة، فكشفه الوحي، وعفا عنه الرسول ﷺ، وقال لعمر حين طالب بقتله: «لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة، أو فقد غفرت لكم» [مسلم].

ولما قال عبد من عبيد حاطب: «يا رسول الله، ليدخلن حاطب النار». قال رسول الله ﷺ: «كذبت، لا يدخلها، فإنه شهد بدراً والحديبية» [المصدر نفسه].

وكانت لبدر الأثر العميق في المدينة وبقية حواضر وبوادي الجزيرة العربية، فقد استعلى المؤمنون في المدينة على اليهود وبقايا المشركين، فانخذل اليهود، وجاهروا بالعداوة مما كان سبباً في إجلاء بني قينقاع عن المدينة ـ كما سيأتي.

وأسلم من زالت الغشاوة عن عينيه، ونافق من أضله الله حفاظاً على مصالحه الخاصة، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول، الذي قال حينذاك: «هذا أمر قد تَوَجَّه ـ أي استقر ـ فلا مطمع في إزالته [البخاري].

ومن بين من عرف بالنفاق من أحبار اليهود بالمدينة: زيد بن اللّصيت، ورافع بن حريملة، ورفاعة بن زيد بن التابوت، وسويد بن الحارث، وسعد بن حنيف، ونعمان بن أوفى بن عمرو، وأخوه عثمان بن أوفى، وسلسلة بن برهام، وكنانة بن صوريا.

ومن بين من عرفوا بالنفاق من مشركي المدينة، إضافة إلى عبد الله بن أبي بن سلول: زوى بن الحارث، وجلاس بن سويد، وأخوه الحارث بن سويد، ونبتل بن الحارث، ومربع بن قيظي، وأخوه أوس بن قيظي، وحاطب بن أمية بن رافع، وبشير بن أبيرق أبو طعمة، وقُزمان.

وقد أسلم من أسلم منهم وحسن إسلامه، ومات على النفاق من مات منهم، وستأتي أخبار كثير منهم ومواقفهم من الإسلام من خلال أحداث السيرة.

أحكام وحكم من غزوة بدر

لقد تضمنت أحداث غزوة بدر أحكاماً وحِكَماً كثيرة، من أهمها:

١ ـ جواز النكاية بالعدو، بقتل رجالهم، وأخذ أموالهم، وإخافة طرقهم التي يسلكونها، لما في ذلك من إضعافهم معنوياً واقتصادياً.

٢ ـ جواز استخدام العيون لكشف أحوال العدو، وإفشال خططه.

٣ ـ تأكيد الرسول ﷺ على مبدأ الشورى لأهل الحل والعقد وعامة المسلمين، وقد وردت أدلة على حجية الشورى في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وسنة الخلفاء الراشدين.

فالأدلة من القرآن، قول الله ـ تعالى ـ: ﴿... وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، و﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨]، ومن السنة استشارة الرسول ﷺ لأصحابه في الخروج أو البقاء في المدينة يوم أحد، وفي مصالحة بعض الأحزاب يوم الخندق على ثلث ثمار المدينة، وغير ذلك كثير مما ستقف عليه في هذا الكتاب. وقد قال أبو هريرة رضي الله عنه: «ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ» [الترمذي، ومعناه صحيح].

أما أدلة حجيتها من سنة الخلفاء الراشدين قول ابن الخطاب في الشورى عند اختيار الحاكم: «الإمارة شورى»، «من دعا إلى إمارة نفسه أو غيره من غير مشورة من المسلمين فلا يحل لكم إلا أن تقتلوه»، «فمن بايع أميراً عن غير مشورة المسلمين فلا بيعة له ولا الذي بايعه» [البخاري؛ عبدالرزاق، بأسانيد صحيحة].

٤ ـ جواز المبارزة بإذن الأمير، وهذا قول عامة أهل العلم [ابن قدامة].

٥ ـ المساواة بين الجندي وقائده في السلم والحرب، وقد اتضح ذلك من قصة سواد مع الرسول ﷺ، إذ كشف الرسول ﷺ عن بطنه ليقتاد منه سواد، وهو فعل الخلفاء من بعده: أبو بكر، وعمر، وعثمان وعلي رضي الله عنهم.

٦ ـ جواز فداء الأسارى أو المن عليهم.

٧ ـ لا حرج من قتل الأسير قبل أن يصل إلى يد الإمام، كما فعل بلال ومن معه من الأنصار عندما قتلوا أمية بن خلف، وهو في أسر عبد الرحمن بن عوف.

٨ ـ أحلت الغنيمة لهذه الأمة، وقسمتها على المقاتلين بعد تخميسها.

٩ ـ من قتل قتيلاً فله سلبه، على شرط: أن يكون المقتول من المقاتلة، وليس ممن نهى الرسول ﷺ عن قتلهم، وهم النساء والصبيان والشيوخ الفانون... إلخ، وأن يكون في المقتول منفعة وغير مثخن بالجراح، وأن يقتله أو يثخنه بجراح تجعله في حكم المقتول، وأن يقرر بنفسه في قتله، فأما إن رماه بسهم من صف المسلمين فقتله فلا سلب له [ابن قدامة: المغني].

١٠ ـ دلت واقعة قضية الأسرى على أن الرسول ﷺ كان له أن يجتهد، والذين ذهبوا إلى هذا ـ وهم جمهور علماء الأصول ـ استدلوا على ذلك بمسألة أسرى بدر. وإذا صح للرسول ﷺ أن يجتهد صح منه بناء على ذلك أن يخطئ في الاجتهاد ويصيب، غير أن الخطأ لا يستمر، بل لا بد من أن تنزل آية من القرآن تصحح له اجتهاده، فإذا لم تنزل آية فهو دليل على صحة اجتهاده ﷺ.

١١ ـ الأصل أن يبذل المسلمون كافة جهودهم في الإعداد للمعركة وفي مجابهة العدو، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ . . .﴾، ومع ذلك فإن الله يؤيد جنده بخوارق لتعينهم على النصر، إذا كانوا أهلاً له، كما حصل بإمداد الملائكة في بدر، وبأن غشى الله النعاس عيون المؤمنين، وأنزل عليهم المطر.

١٢ ـ نبه الله المؤمنين إلى حقيقة هامة، وهي أن لا يجعلوا حب المال يسيطر عليهم عند النظر في قضاياهم الكبرى التي قامت على أساس النظرة الدينية وحدها، مهما كانت الحال والظروف، ولذا عالج الله تجربة رؤية الغنائم مع الحاجة والفقر واختلافهم فيها، ومسألة الأسرى، بوسائل تربوية دقيقة، كما في قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ . . .﴾ [الأنفال: ١]، و﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧] [البوطي: السيرة].

١٣ ـ أن أهل بدر مغفور لهم يوم القيامة، أما أحكام الدنيا فإنها تؤخذ منهم، ويعاقبون عليها، إن أتوها، كما وقع لقدامة بن مظعون، عندما حد في الخمر.

١٤ ـ أن من سنة الرسول ﷺ بعد انتهاء المعركة أن يقيم في العرصة ـ مكانها ـ ثلاثة أيام.

١٥ ـ السنة في الشهداء أن يدفنوا في مضاجعهم، كما حدث لشهداء بدر وأحد، ولا يصلى عليهم كما ثبت بالنسبة لشهداء أحد، ولم يذكر أنه صلى على شهداء بدر [انظر في هذا كله: مرويات بدر لباوزير].

١٦ ـ لقد تجلت في بدر بطولات إيمانية كثيرة، على سبيل المثال: ما روي من أن أبا عبيدة عامر بن الجراح قتل والده الجراح يوم بدر، فقد جعل والد أبي عبيدة يتصدى لابنه أبي عبيدة يومذاك، فيحيد عنه الابن، فلما أكثر قصده فقتله، فنزلت الآية: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ . . .﴾ [المجادلة: ٢٢] [الطبراني، بسند جيد كما ذكر ابن حجر في الإصابة والحبير].

وروى ابن إسحاق من حديث أبي عزيز بن عمير قال: «مر بي أخي مصعب بن عمير، ورجل من الأنصار يأسرني، فقال: شُدّ يديك به؛ فإن أمَّه ذاتُ متاع، لعلها تفديه منك! . .». [ابن هشام].

وزاد ابن هشام على هذه الرواية فقال: «فلما قال أخوه مصعب بن عمير لأبي اليَسَر ـ وهو الذي أسره ـ ما قال، قال له أبو عزيز: يا أخي، هذه وَصاتُك بي! فقال له مصعب: إنه أخي دونك. .» [نفسه].





الفصل السادس

النشاط الجهادي وأبرز الأحداث ما بين غزوتي بدر وأحد

المبحث الأول: سرية قتل عَصْمَاء بنت مَرْوَان

كانت عَصْمَاء بنت مروان ممن يؤذي النبي ﷺ وتعيب الإسلام، وتحرض على النبي ﷺ، وقالت في ذلك شعراً، فقال رسول الله ﷺ حين بلغه ذلك: ألا آخِذٌ لي من ابنة مروان؟ فسمع ذلك عُمَيْر بن عَدِيّ الخَطْمِي ـ من قوم زوجها ـ فجاءها في جوف الليل حتى دخل عليها بيتها، وحولها نفر من ولدها منهم من ترضعه في صدرها، فجسها بيده؛ لأنه كان أعمى، ونحى الصبي عنها، ثم قتلها، ثم صلى الصبح مع النبي ﷺ، فقال له: أقتلت ابنة مروان؟ قال نعم، فقال له النبي ﷺ: نصرت الله ورسوله يا عمير [ابن إسحاق، بسند حسن لغيره]، فقال عمير: هل علي في ذلك شيء؟ فقال: لا ينتطح فيها عنزان [أبو داود، وصححه ابن حجر في بلوغ المرام، وغيره]. فكانت هذه الكلمة أول ما سمعت من رسول الله ﷺ، وسماه رسول الله ﷺ عميراً البَصِيْر. وكان ذلك في الخامس والعشرين من رمضان، على رأس تسعة عشر شهراً من الهجرة، بعد عودته من بدر مباشرة.

وأسلم يومئذٍ رجال من بني خطمة لما رأوا من عز الإسلام، وجهر بإسلامه من كان يستخفي به [ابن إسحاق، بسند يتقوى بغيره].

المبحث الثاني: مؤامرة لاغتيال الرسول ﷺ

تذاكر عمير بن وهب ـ أُسِرَ ابنه وهب يوم بدر ـ وصفوان بن أمية ـ قتل والده وأخوه ـ مصابهم في بدر، فأسرَّ عمير بن وهب إلى صفوان بأنّ لولا دين

عليه وعيال يخشى عليهم الضيعة لركب إلى محمد حتى يقتله، فاغتنم صفوان الفرصة، فالتزم له بقضاء دينه، وضم عياله إلى عياله، إن هو قتل محمداً، وأصابه شر. واستكتمه الخبر.

وعندما جاء المدينة رآه عمر فتوجس منه خيفة، فاقتاده إلى الرسول ﷺ، ودار بينهما حوار، جاء فيه أن الرسول ﷺ طلب منه أن يصدقه القول في سبب مجيئه، فذكر أنه جاء ليفتدي ابنه وَهْباً، وعندما أصر على الكذب، كشف له الرسول ﷺ عما دار بينه وبين صفوان، وهما بمكة، وهو بالمدينة، فتعجب عمير من هذا، وكان ذلك سبباً في إسلامه. فطلب الرسول ﷺ من أصحابه أن يفقهوه في الدين، ويطلقوا له أسيره.

وأذن له الرسول ﷺ في أن يعود إلى مكة ليدعو إلى الإسلام بالحماسة نفسها التي كان يدعو بها إلى الكفر، فأسلم على يديه خلق كثير. [رواها ابن إسحاق؛ وابن عقبة، والأسودان، وابن منده والطبراني، كما ذك ابن حجر في الفتح].

المبحث الثالث: سرية سالم بن عُمَيْر لقتل أبي عَفَك

لقد نجم نفاق أبي عفك، أحد بني عمرو بن عوف، حين قتل رسول الله ﷺ الحارث بن سويد بن صامت، وقال في ذلك شعراً. فقال رسول الله ﷺ: «من لي بهذا الخبيث؟» فخرج سالم بن عمير، فقتله. وكان ذلك في شوال على رأس عشرين شهراً من الهجرة [ابن إسحاق؛ ابن سعد؛ الواقدي؛ الإصابة].

المبحث الرابع: غزوة بني قَيْنُقَاع

انظر الملحق (٤) ـ خريطة الغزوة

أ ـ تاريخ الغزوة:

ذكر معظم أهل المغازي والسير أنها وقعت بعد بدر، ورجح ذلك ابن حجر [في الفتح]، مستنداً إلى رواية ابن عباس في سنن أبي داود، وحكم عليها بالحسن، وقواه برواية عبادة بن الوليد في مغازي بن إسحاق. وقد حدد

الزهري [في تاريخ الطبري] أنها كانت في شوال من السنة الثانية الهجرية، ويضيف الواقدي وابن سعد: أنها كانت يوم السبت للنصف من شوال. [وأسانيدهم تعتضد].

ب ـ أسبابها:

تذكر كتب السيرة سببين لهذه الغزوة، الأول: أن يهود بني قينقاع أظهروا الغضب والحسد عندما انتصر المسلمون ببدر، ويظهر ذلك في موقفهم من الرسول ﷺ عندما جمعهم في سوقهم بعد بدر، وقال لهم: «يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً، فقالوا: يا محمد لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفراً في قريش كانوا أغماراً لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس، وأنك لم تلق مثلنا»، فأنزل الله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ [آل عمران: ١٢ - ١٣] [أبوداود، وحسنها ابن حجر في الفتح].

والسبب الثاني: هو أن أحدهم عقد طرف ثوب امرأة مسلمة في سوق بني قينقاع، فلما قامت انكشفت، فصاحت مستنجدة، فقام أحد المسلمين فقتل اليهودي، وتواثب عليه اليهود فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، ووقع الشر بينهم وبين بني قينقاع [ابن هشام، برواية يستأنس بها، كما ذكر الألباني في دفاع].

وإذا قبلنا تحسين ابن حجر لرواية ابن إسحاق في السبب الأول، فهذا لا يعني أن سبب إجلائهم يعود إلى رفضهم الدخول في الإسلام؛ لأن الإسلام في هذه المرحلة كان يقبل التعايش السلمي معهم، وأن نصوص صحيفة المدينة تؤكد إعطاء اليهود حريتهم الدينية في المدينة، وإنما يعود سبب الإجلاء إلى ما أظهروه من روح عدائية ضد المسلمين، انتهت إلى الإخلال بالأمن داخل المدينة، ومن ذلك قصة المرأة المسلمة معهم [د. العمري: المجتمع المدني].

وكذلك قصة شاس بن قيس القينقاعي الذي مر على نفر من أصحاب الرسول ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم، فغاظه ما رأى من ألفتهم في الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فأمر أحد شباب اليهود ليجلس معهم، ويذكرهم بحروبهم في الجاهلية، مثل يوم بعاث [ابن إسحاق؛ الطبري: التفسير، وأسانيدهم تعتضد].

ج ـ الحصار والإجلاء:

إن خبر إجلاء بني قينقاع ثابت في الصحيحين، وأما تفاصيل الحصار فقد أوردها ابن إسحاق والواقدي وابن سعد، وتابعهم المؤرخون في ذلك. وإسناد ابن إسحاق يتقوى مع المتابعة.

وقد ورد في تفاصيل خبر حصارهم أنهم كانوا صاغة وحلفاء عبد الله بن أبي بن سلول، وكانوا أشجع اليهود. فلما أظهروا العداوة والبغضاء خشي الرسول ﷺ خيانتهم، فنبذ إليهم على سواء، كما أمره الله ﷻ في مثل هذه الحالات، إذ يقول الله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: ٥٨]. وحاصرهم خمس عشرة ليلة. وعندما اشتد عليهم الحصار نزلوا على حكم الرسول ﷺ على أن لهم أموالهم، وأن لهم النساء والذرية، فأمر بهم فكتفوا، ثم كلمه فيهم حليفهم ابن سلول، وألح في ذلك قائلاً: «أربعمائة حاسر وثلثمائة دارع منعوني من الأحمر والأسود، وتحصدهم في غداة واحدة؟»، فقال رسول الله ﷺ: «هم لك [ابن إسحاق، من مرسل عاصم وعبادة، يعتضدان]، وأمر بهم أن يجلوا عن المدينة. وتولى أمر ذلك عبادة بن الصامت، فلحقوا بأذرعات، وتولى قبض أموالهم محمد بن مسلمة، فقسمت بين الصحابة بعد إخراج الخمس للرسول ﷺ [ابن سعد].

وكان عبادة بن الصامت قد تبرأ من حلفهم عندما حاربوا الرسول ﷺ، وفيه وفي ابن سلول نزل قول الله ـ تعالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة: ٥١ - ٥٢] [ابن إسحاق، مرسلاً، يعتضد].

د ـ أحكام وعبر

١ ـ دلت هذه الحادثة على حقد وعداوة اليهود واتخاذ ما يستطيعون من وسائل للغدر بالمسلمين وإمامهم.

٢ ـ هذه الحادثة وما أعقبها من دفاع عبد الله بن أبي بن سلول عن اليهود بالكيفية التي علمنا، وعمله في كثير من أحداث الفتن، والتخذيل والترويج للإشاعات المغرضة في صفوف المسلمين، دليل قاطع على نفاقه. ومع ذلك عامله الرسول ﷺ على أنه مسلم. وهذا يدل ـ كما أجمع العلماء ـ على أن المنافق إنما يعامل في الدنيا من قبل المسلمين على أنه مسلم، ويتولى الله أمر باطنه يوم القيامة. ومن الأدلة على ذلك قول عمر رضي الله عنه: «إن أناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ وإن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيراً أمناه وقربناه، وليس إلينا من سريرته شيء، والله يحاسبه في سريرته، ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنه، ولم نصدقه، وإن قال: إن سريرته حسنة» [البخاري].

والحكمة من معاملة الناس للمنافقين بحسب الظاهر أن تظل العدالة بين الناس في مأمن من التلاعب، إذ ربما اتخذ بعض الحكام من حجية الأدلة الوجدانية والاستنتاجية وحدها ذريعة إلى الإضرار ببعض الناس بدون وجه حق [البوطي: السيرة].

٣ ـ لا يجوز موالاة غير المسلمين، بل يجب البراءة منهم، إلا إذا كان المسلمون في حالة ضعف يضطرهم إلى الموالاة، وفي ذلك يقول ـ تعالى ـ: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ [آل عمران: ٢٨].

المبحث الخامس: سرية قتل كَعب بن الأشرف اليهودي

ينتسب كعب إلى بني نبهان، وهم عشيرة من طيء، وكان أبوه قد أصاب دماً في الجاهلية، فأتى المدينة، فحالف بني النضير، وتزوج عقيلة بنت أبي الحقيق، فولدت له كعب بن الأشرف [ابن إسحاق، مرسلاً صحيحاً؛ والطبري: التاريخ؛ وابن حجر: الفتح].

كان كعب شاعراً، وقد غاظه انتصار المسلمين ببدر، فسافر إلى مكة ليواسي المشركين في قتلاهم، ويحرضهم على أخذ الثأر، ويهجو الرسول ﷺ. وعندما سأله أبو سفيان قائلاً: «أناشدك الله! أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه؟ وأينا أهدى إلى ربك وأقرب إلى الحق؟ قال كعب: أنتم أهدى منهم سبيلاً»، فأنزل الله على رسوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٥١].

وعندما عاد إلى المدينة أخذ يقرض الشعر متشبباً ـ متغزلاً ـ بنساء المسلمين، فأهدر الرسول ﷺ دمه. وتصدى لمهمة إنزال العقاب الرادع به: محمد بن مَسْلَمَة وأبو نائلة، أخو كعب من الرضاع! ووضع ابن مسلمة خطة محكمة لذلك. فاستأذن الرسول ﷺ أن يقول فيه ما يطمئن اليهودي، أي يبدي تبرمه بمحمد ﷺ. وعندما جاءه طلب منه أن يقرضه تمراً ليدفعه للرسول ﷺ، مبدياً تذمره منه لما يكلفهم به، فطلب كعب رهينة من النساء أو الأبناء، فاعتذر ابن مسلمة، لما يجر عليهم ذلك من عار، واقترح عليه أن يرهن عنده بدل هذا سلاحاً، فرضي كعب، فجاءه ابن مسلمة ليلاً، ومعه أبو نائلة، وسَلْكَان بن سَلَامة بن وَقْش، وعَبَّاد بن بِشْر، والحارث بن بشر، وأبو عبس بن جبر، من الأوس، فنادوه، فنزل، إليهم، مع تحذير امرأته له من مغبة ذلك، ومشى معهم، فاحتالوا لقتله، متظاهرين بشم عطر شعره، فاستمكنوا منه، ثم قتلوه، حتى إن أحدهم أصيب بسيوف أصحابه [البخاري].

وعندما احتجت اليهود على هذا الفعل بين لهم الرسول ﷺ ما صدر من كعب من أفعال. وعندما فزعت يهود وبقايا المشركين مما حدث، وخافوا على أنفسهم، دعاهم الرسول ﷺ إلى كتابة معاهدة بينهم، فكتب صحيفة عامة كما تذكر رواية لأبي داود. والراجح أن كتابة هذه الصحيفة جاء تأكيداً لما في المعاهدة التي كتبت قبل بدر بين المسلمين واليهود، والمشهورة بصحيفة المدينة [د. العمري: المجتمع المدني].

وكان مقتله بعد بدر وقبل غزوة بني النضير، وحدده الواقدي بالسنة الثالثة لأربع عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول على رأس خمسة وعشرين شهراً من الهجرة.

عظات وعبر

١ ـ أن في قتل ابن الأشرف دليلاً على مشروعية الاحتيال على قتل من وجب قتله لغدره وخيانته.

٢ ـ جواز الكذب على الأعداء وخداعهم؛ لأن الحرب خدعة.

٣ ـ أن في قتل الغادر الخائن تخويفاً لمن وراءه حتى لا يسلك مسلكه غيره ممن هم على شاكلته.

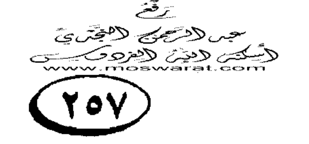
المبحث السادس: غزوة ذي أَمَر

بلغ الرسول ﷺ أن غطفان قد تجمعت في ذي أمر من نجد، فسار إليهم. وعندما علموا بذلك فروا أمامه [ابن إسحاق]. وذكر الواقدي وابن سعد أن المجتمعين على ماء ذي أمر هم من غطفان من بني ثعلبة بن مُحَارِب، وكان عدد جيش المسلمين أربعمائة وخمسين رجلاً، وكان خروج المسلمين إليها لثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول، سنة ثلاث من الهجرة. وحدد الواقدي يوم الخروج بيوم الخميس.

وذكر الواقدي وابن سعد وقوع قصة دَعْثُور المحاربي في هذه الغزوة. وخلاصتها أن المسلمين قد أصابهم مطر في طريق عودتهم، فابتل ثوب الرسول ﷺ، فجعل وادي ذي أمر بينه وبين أصحابه، ثم نزع ثيابه، فنشرها على شجرة لتجف، ثم اضطجع تحت الشجرة، والأعداء ينظرون إلى كل ذلك خلسة، فأغروا سيدهم الفاتك دعثوراً ليفتك بالرسول ﷺ وهو على هذه الحال. وعندما وقف بالسيف على رأس الرسول ﷺ قال: «من يمنعك مني اليوم؟»، قال رسول الله ﷺ: «الله»، ودفعه جبريل عليه السلام عنه حتى وقع السيف من يده، فأخذه الرسول ﷺ ووقف على رأسه قائلاً: من يمنعك مني اليوم؟ قال: «لا أحد». فأسلم، وعاد، وحكى لقومه ما حدث، وأخذ يدعوهم إلى الإسلام، ونزل في ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ [المائدة: ١١] [قصة دعثور المحاربي ثابتة في الصحيحين، ولكن بغير

هذا السياق، وفي غير هذه الغزوة، وبغير هذا الاسم، بل اسمه: غورث بن الحارث، وأنه لم يسلم، والمتفق عليه بين أهل السير والصحيحين هو أن الله عصمه منه، وما في الصحيح أصح. وسيأتي ذكر القصة في غزوة ذات الرقاع من رواية البخاري ومسلم وابن إسحاق، إن شاء الله].





الفصل السابع

غـــزوة أحـــد

انظر الملحق (٥) ـ خريطة الغزوة

تاريخ الغزوة: اتفق كتاب السيرة على أنها كانت في شوال من السنة الثالثة الهجرية، واختلفوا في اليوم الذي وقعت فيه، وأشهر الأقوال أنه السبت [الواقدي؛ وابن سعيد؛ والبلاذري]، للنصف من شوال [الطبري: التفسير، وروايته أصح ما في الباب؛ وابن إسحاق في السير، وابن حبان].

أسبابها: كان السبب المباشر لها ـ كما أجمع على ذلك أهل السير ـ أن قريشاً أرادت أن تنتقم لقتلاها في بدر، وتستعيد مكانتها التي تزعزعت بين العرب بعد هزيمتها في بدر [ابن إسحاق في السيرة والسير، مرسلاً].

أما من بين الأسباب الأخرى الهامة التي يمكن استنتاجها من مجريات الأحداث، فهي أن قريشاً تريد أن تضع حداً لتهديد المسلمين طرق تجارتهم إلى الشام، والقضاء على المسلمين قبل أن يصبحوا قوة تهدد وجودهم.

عدَّة المشركين: خصصت قريش قافلة أبي سفيان التي نجت من المسلمين [ابن اسحاق في السيرة والسير] وأرباحها، لتجهيز جيشهم لغزوة أحد [الواقدي]، وجمعت ثلاثة آلاف مقاتل من قريش ومن أطاعها من كنانة وأهل تهامة، ومعهم مئتا فرس، وسبعمائة دارع، وجعلت على الميمنة خالد بن الوليد، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل، وخرجت معهم مجموعة من النساء لإثارة حماسهم وخوفهم من العار إذا فروا. وذكر ابن إسحاق أنهن كن ثمانياً، وقال الواقدي: إنهن كن أربع عشرة، وقد سمَّاهن. وقال ابن سعد: إنهن كن خمس عشرة امرأة.

وأري الرسول ﷺ في منامه ما سيحدث في أحد، وذكره لأصحابه،

قائلاً: «رأيت في رؤياي أني هززت سيفاً فانقطع صدره، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين، يوم أحد، ثم هززته أخرى فعاد كأحسن ما كان، فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت بقراً ـ والله خير ـ فإذا هم المؤمنون يوم أحد» [متفق عليه]. وفي رواية أخرى: «ورأيت أني في درع حصينة فأوَّلتها المدينة» [أحمد: المسند، بسند صحيح].

وفسر الرسول ﷺ هذه الرؤيا بأن هزيمة وقتلاً سيقعان في أصحابه [المصدر نفسه].

عندما علم الرسول ﷺ بمجيء جيش مكة لحرب المسلمين شاور أصحابه في الأمر هل يبقون في داخل المدينة أو يخرجون لملاقاة العدو خارجها. فقال جماعة من الأنصار: «يا نبي الله، إنا نكره أن نقتل في طريق المدينة، وقد كنا نمتنع من الغزو في الجاهلية، فبالإسلام أحق أن نمتنع منه، فابرز إلى القوم، فانطلق رسول الله ﷺ فلبس لأمته. فتلاوم القوم، فقالوا: عرض نبي الله ﷺ بأمر وعرضتم بغيره، فاذهب ـ يا حمزة ـ فقل للنبي ﷺ: «أمرنا لأمرك تبع»، فأتى حمزة فقال: «يا نبي الله، إن القوم قد تلاوموا، فقالوا: أمرنا لأمرك تَبَع. فقال رسول الله ﷺ: «إنه ليس لنبي إذا لبس لَامَتَهُ أن يضعها حتى يُنَاجِز» [البيهقي: الدلائل، بسند حسن؛ والحاكم، وصححه هو والذهبي]. [اللامة: الدرع الحصينة وسائر أداة الحرب. وقد تترك الهمزة للتخفيف].

إن ما ذكره ابن إسحاق وغيره من أن عبد الله بن أبي كان موافقاً لرأي رسول الله ﷺ في البقاء في داخل المدينة، فقد روى الطبري في التفسير عن السدي خلاف ذلك، وهو أثر إسناده صحيح، ورجاله ثقات، ولكنه مرسل، وفيه من يَهِم ويكثر الخطأ، ولذلك رجح الباكري [مرويات أحد] رواية ابن إسحاق لصحتها ولإجماع أهل السير على ذلك، وأن حجة ابن سلول في الرجوع عن أحد أن الرسول ﷺ لم يطعه.

ومما ذكره أهل السير أن من دوافع الراغبين في الخروج إظهار الشجاعة أمام الأعداء، والرغبة في المشاركة في الجهاد لما فاتهم من فضل الاشتراك في بدر.

أما دوافع الرسول ﷺ ومن كان على رأيه في البقاء في داخل المدينة فهو الاستفادة من حصون المدينة وطاقات كل المواطنين، مما يرجح فرصة دحر المهاجمين [ابن إسحاق، والواقدي؛ وابن سعد].

ـ وبعد أن حسم الرسول ﷺ أمر الخروج رفعت راية سوداء [ابن خياط، من مرسل ابن المسيب، ومراسيله قوية] وثلاثة ألوية: لواء للمهاجرين، حمله مصعب بن عمير، وحمله بعد استشهاده علي بن أبي طالب، ولواء للأوس حمله أسيد بن حضير، ولواء للخزرج، حمله الحباب بن المنذر [الواقدي]. وبلغ عدد من سار تحتها ألفاً من المسلمين ومن ظاهرهم، وكان معهم فرسان ومائة دارع [ابن سعد؛ والطبري في التاريخ]. وكان الرسول ﷺ يرتدي درعين [الحاكم، ووافقه الذهبي على تصحيحه؛ والواقدي].

وعندما تجاوز الرسول ﷺ في مسيره إلى أحد ثنية الوداع رأى كتيبة خَشْنَاء [كثيرة السلاح]، فقال: «من هؤلاء؟ قالوا: هذا عبد الله بن أبي بن سلول في ستمائة من مواليه من اليهود من أهل قينقاع، وهم رهط عبد الله بن سَلَّام. قال: وقد أسلموا؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: قولوا لهم فليرجعوا؛ فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين» [ابن سعد، يعتضد]. وإذا صح هذا الخبر يكون جلاء قينقاع بعد أحد. وعندما وصل جيش المسلمين الشَّوْط [مكان ملعب التعليم الآن]، انسحب المنافق ابن سلول بثلاثمائة من المنافقين، بحجة أنه لن يقع قتال مع المشركين، ومعترضاً على قرار القتال خارج المدينة، قائلاً: «أطاع الوِلْدَان ومن لا رأي له، أطاعهم وعصاني، عَلَامَ نَقْتُلُ أنفسنا؟» [البخاري؛ والبيهقي: الدلائل من مرسل ابن عقبة، ابن إسحاق].

ورأت فرقة من الصحابة قتال هؤلاء المنافقين، ورأت الفرقة الأخرى عدم ذلك، فنزلت الآية الكريمة: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟﴾ [النِّسَاء: ٨٨]. [البخاري، وأركسهم: بددهم]

واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام عند انسحابهم، وأخذ يقول لهم: «أذكركم الله أن تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم، فقالوا: لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم، ولكنا لا نرى أن يكون قتال. فلما استعصوا عليه، قال: أبعدكم الله ـ أعداء الله ـ فسيغني الله عنكم نبيه، وقد أشار القرآن إلى هذا

الحوار في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٦، ١٦٧]. [ابن إسحاق، مرسلاً].

وكادت بنو سَلِمَة ـ من الخزرج ـ وبنو حَارِثة ـ من الأوس ـ أن تنخذل مع المنافقين لولا أن الله ثبتهم مع المؤمنين، وفيهم قال الله ﷻ: ﴿إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ . . .﴾ [آل عمران: ١٢٢] [متفق عليه].

ورد الرسول ﷺ في معسكره بشَّيخَان جماعة من الفتيان لصغر أسنانهم، إذ كانوا في سن الرابعة عشرة أو دون ذلك، منهم: عبد الله بن عمر، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد، والنعمان بن بشير، وزيد بن أرقم، والبراء بن عَازِب، وأُسَيْد بن ظُهَيْر، وعُرَابَة بن أَوْس، وأبو سعيد الخُدْرِيُّ، . . بلغ عددهم أربعة عشر صبياً، وقد ذكرهم ابن سيد الناس. وقد ثبت أن ابن عمر كان منهم [متفق عليه]، وأجاز منهم رافع بن خَديج لما قيل له: إنه رام، وسَمُرَة بن جُنْدُب؛ لأنه احتج بأنه أقوى من رافع، ويصرعه [ابن هشام]. وفي تلك الليلة قام ذكوان بن عبد القيس بحراسة الجيش، ويقال: كان يحرس رسول الله ﷺ لم يفارقه [الواقدي].

وعندما تحرك الجيش في صباح السبت لملاقاة العدو مروا بحائط مِرْبَع بن قَيْظِي، وكان أعمى البصر منافقاً، فأخذ يحثو التراب في وجوه المسلمين، ويقول: «إن كنت رسول الله فإني لا أحل لك أن تدخل حائطي، والله لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك ـ يا محمد ـ لضربت بها وجهك، فابتدره القوم ليقتلوه»، فقال رسول الله ﷺ: «لا تقتلوه، فهذا الأعمى أعمى القلب، أعمى البصر»، وقد شجه سعد بن زيد قبل هذا النهي [ابن إسحاق، الواقدي].

وفي الطريق إلى ميدان المعركة طلب عمر من أخيه زيد أن يأخذ درعه، فقال له زيد: «إني أريد من الشهادة مثل الذي تريد»، فتركه كلاهما [الطبراني، كما في المجمع، وصححه الباكري في مرويات أحد].

وعندما وصل جيش المسلمين إلى جبل أحد جعل الرسول ﷺ ظهورهم إلى الجبل ووجوههم إلى المدينة، وانتقى خمسين من الرماة تحت إمرة

عبد الله بن جُبَيْرٍ، ووضعهم فوق تل عَيْنَيْنِ المقابل جبل أحد، خشية أن يطوق المشركون المسلمين، وأصدر أوامره إليهم قائلاً: «إنْ رَأَيْتُمونا تَخْطَفُنَا الطيرُ فلا تَبْرَحُوا مَكَانَكُمْ هذا، حتى أُرْسِلَ إليكم» [البخاري]. وبذلك سيطر المسلمون على المرتفعات، وتركوا الوادي لجيش مكة ليواجه أُحُداً، وظهره إلى المدينة.

وعند التحام الجيشين نادى أبو عامر ـ عبد عمرو بن صَيفِي ـ قومه من الأوس، لينضموا معه للحرب في صفوف المشركين، الذين انضم إليهم في مكة، وحرضهم على الغزو، ولكنهم أغلظوا له في الرد قائلين له: «فَلا أَنْعَمَ اللهُ بك عَيْناً، يا فاسق»، ولم يملك أن قال: «لقد أصاب قومي بعدي شر». وأخذ في قتالهم بالحجارة [ابن إسحاق؛ وابن سعد؛ والواقدي، عرف بِـ «الراهب»].

وبدأ القتال بمبارزة بين علي وطَلْحَة بن عثمان، حامل لواء المشركين، فقتل علي طلحة [الطبري: التفسير، من مرسل السدي، صحيح]. ثم التحم الجيشان، واشتد القتال، واستبسل المسلمون حتى تمكنوا من دحر المشركين إلى معسكرهم، وأخذ الرسول ﷺ في زيادة رفع روحهم المعنوية بأن أخذ سيفاً، وقال: «من يأخذ مني هذا؟ فَبَسَطُوا أيديهم، كل إنسان منهم يقول: أنا أنا. قال: من يأخذه بحقه؟ فأحجم القوم، فقال أبو دُجَانَة: ـ سِمَاك بن خَرَشَة ـ وما حقه، يا رسول الله؟ قال: أن تضرب به العدو حتى ينحني، قال: أنا آخذه بحقه، فأخذه بحقه. فأخذه فَفَلَقَ به هَامَ المشركين [مسلم وغيره].

وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم أحد: أَمِتْ، أَمِتْ [الحاكم؛ وأبو داود، وأحمد في المسند؛ والدارمي، وابن هشام، والواقدي، وإسناد أحمد وأبي داود والحاكم حسن]، فقد استماتوا تحت هذا الشعار، وسجل التاريخ استماتة حمزة وبسالته في القتال. فقد تصدى في المبارزة لسِبَاع بن عبد العزى، فقتله [البخاري]، ولغيره من عتاة المشركين [الواقدي] أمثال عثمان بن أبي طلحة، أبي شيبة، أحد حملة لواء المشركين يومذاك.

وكان وَحْشِيٌ مولى جُبَيْر بن مُطْعِم قد اشترط عليه مولاه أن يعتقه إن هو قتل حمزة، ثأراً لعمه طُعَيْمَة بن عدي، الذي قتله حمزة يوم بدر. فكمن

لحمزة تحت صخرة، فلما دنا منه رماه بحربته، فقتله غَدْرَاً [البخاري].

روى الواقدي أن وحشياً عندما أيقن بموت حمزة، وتذكر هنداً وما لقيت على أبيها وعمها وأخيها حين مصرعهم يوم بدر، ذهب خلسة إلى جثة حمزة فأخرج كبده، وجاء بها إلى هند ليدلل على قتل حمزة، فمضغتها ثم لفظتها، ونزعت ثيابها وحليها، فأعطتها وحشياً، ووعدته بدنانير حين الرجوع إلى مكة، وأراها جثته، فقطعت مذاكيره، وجدعت أنفه وأذنيه، وجعلت منها أسورة وخَلاخِل.

وقاتل مُصْعَب بن عُمَيْر حتى استشهد، وأخذ الراية بعده علي [ابن خياط، من مرسل ابن المسيب]. وصدق المسلمون في اللقاء، فأوقعوا في المشركين القتل، وقتلوا أصحاب اللواء، حتى تركه المشركون وما يدنو منه أحد منهم [ابن إسحاق، بسند حسن]. وانتصروا عليهم في هذه الجولة الأولى من القتال، وفي ذلك يقول القرآن الكريم ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٥٢] [البخاري، والحس: القتل].

وعندما انهزم المشركون بنسائهم ـ وقد بدت سوقهن وخلاخلهن رافعات ثيابهن ـ قال أصحاب ابن جبير: «الغنيمة، أي قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنأتين الناس، فلنصيبن من الغنيمة» ثم هرعوا إلى جمع الغنائم.

وكانت هذه فرصة مواتية لابن الوليد ليلتف حول المسلمين، فيراه المشركون، فيعودوا إلى ميدان القتال مرة أخرى [الطبر: التفسير، من مرسل السدي؛ وابن إسحاق بسند حسن] محيطين بالمسلمين، وارتبك المسلمون إلى الحد الذي لم يقدر أن يميز بعضهم المسلم من الكافر. وفي هذه اللحظات قتل المسلمون اليمان ـ والد حذيفة ـ وابنه حذيفة يصرخ فيهم: «أي عباد الله، أبي، ثم قال لهم عندما قتلوه: يغفر الله لكم» [البخاري وغيره]. واستشهد من المسلمين جماعة كثيرة، وغاب الرسول ﷺ عن أعينهم، وشاع أنه قد قتل [ابن إسحاق، حسن لغيره].

وفر جمع من المسلمين من الميدان، وجلس بعضهم دون قتال،

وتصدى آخرون للمشركين، وحرضوا المؤمنين على القتال حتى نالوا الشهادة. ومن هؤلاء أنس بن النَّضْر، الذي كان يتشوق لتعويض ما فاته من فضل بدر. فقال عندما رأى بعض المسلمين قُعُوداً: «اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني أصحابه، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء، يعني المشركين، ثم تقدم، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ، الجنة ورب النضر إني أجد ريحها من دون أحد؛ قال سعد: فما استطعت يا رسول الله ما صنع أنس». وعندما انجلت الغمة وجد في جسده بضع وثمانون من بين ضربة ورمية وطعنة، ولم يعرفه أحد إلا أخته الرُّبَيِّع، عرفته ببنانه. ونزلت فيه وفي أمثاله من المجاهدين الصادقين الآية: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣] [متفق عليه].

وكان الفارُّون لا يلوون على شيء مع دعوة الرسول ﷺ لهم بالثبات معه، وفي ذلك نزل قول الله ـ تعالى ـ: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

وقد عفا الله عن الذين فروا. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ [آل عمران: ١٥٥] [أحمد، وأبو يعلى والطبري في التفسير، بسند حسن]. وذكر ابن الجوزي في التفسير أن أحد سببي فرارهم هو سماعهم إشاعة مقتل النبي ﷺ.

وكان أول من علم بأن الرسول ﷺ حي بعد الانتكاسة، هو كعب بن مالك، فنادى مبشراً بذلك، فأسكته الرسول ﷺ حتى لا ينتبه المشركون له [الحاكم، وصححه وأقره الذهبي؛ وأبو نعيم: الدلائل، حسن].

وتمكن بعض المشركين من الوصول إلى الرسول ﷺ وقد أفرد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رَهِقُوه قال: «من يردهم عنا وله الجنةُ، أو هو رفيقي في الجنة؟ فتقدم الواحد تلو الآخر للدفاع عنه حتى استشهد الأنصار السبعة، فقال النبي ﷺ لصاحبيه القرشيين: «ما أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا» [مسلم].

وممن قاتل دون الرسول ﷺ قتالاً عظيماً سجله التاريخ: طلحة بن عُبَيْدِ الله، حتى شلت يده التي وقى بها النبي ﷺ [البخاري، وابن إسحاق، حسن]، وسعد بن أبي وقاص، الذي كان الرسول ﷺ يناوله السهام، ويقول له: «يا سعد، ارْمِ فِدَاكَ أبي وأمي» [البخاري]، ولم يجمع النبي ﷺ أبويه لأحد إلا لسعد بن مالك بن أبي وقاص كما قال علي رضي الله عنه [نفسه]، وكما قال هو عن نفسه [نفسه]، وأبو طلحة الأنصاري، أمهر الرماة، والذي كان الرسول ﷺ إذا مر به أحد بجعبته نبل يقول له: «انثرها لأبي طلحة»، وعندما يُشْرِفُ النبي ﷺ على القوم يقول له أبو طلحة: «بأبي أنت وأمي، لا تشرف يصبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك» [نفسه]، وهو الذي قال عنه الرسول ﷺ معجباً به: «لصوتُ أبي طلحة في الجيش أشد على المشركين من فئة» [أحمد: المسند، حسن]، وأبو دُجَانَة الذي كان يحمي الرسول ﷺ بظهره، حتى كثر النبل فيه، وهو مُنْحِنٍ عليه [ابن إسحاق].

وقد ورد أن رسول الله ﷺ رمى عن قوسه حتى اندقت طرفها، فأخذها قَتَادَة بن النعمان، فكانت عنده.

وأصيبت يومئذٍ عين قتادة حتى وقعت على وجنته، فردها رسول الله ﷺ بيده، فكانت أحسن عينيه وأحدَّهما [ابن إسحاق، حسن لغيره، بأسانيد تعتضد].

وفي هذه الظروف العصيبة اضطرت أم عُمَارَة ـ نَسِيْبَة بنت كعب المَازِنية ـ أن تدافع عن الرسول ﷺ، حتى جرحها ابن قَمِئَة جرحاً أجوف له غور على عاقتها [ابن هشام؛ الواقدي].

وقاوم الرسول ﷺ مقاومة شديدة، فأصيب إصابات كثيرة، فكُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ، وشُجَّ في وجهه، وسال دمه، فجعل يمسحه، ويقول: «كيف يُفلح قوم خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى الإسلام»؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران] [مسلم]. فقال رسول الله ﷺ لما طمع في إسلامهم: «رب اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون» [مسلم]. وفي روايات عند البخاري: أن الرسول ﷺ كسر رباعيته يومئذٍ وجرح وجهه، وكسرت البيضة على رأسه.

وقال ﷺ عندما فعل به المشركون ذلك: «اشتد غضب الله على قوم فعلوا هذا بنبيه، ـ يشير إلى رباعيته ـ اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله ﷺ في سبيل الله»، وفي رواية: «اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله ﷺ في سبيل الله»، وفي رواية: «اشتد غضب الله على من قتله النبي في سبيل الله، اشتد غضب الله على قوم دَمُوا وجه نبي الله ﷺ [ابن إسحاق]. وكانت فاطمة ابنته تغسل دماءه، وعلي يسكب الماء بالمجن، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة أخذت قطعة من حصير، وأحرقتها وألصقتها، فاستمسك الدم [البخاري].

وقد ظهرت بطولات إيمانية كثيرة في هذه الغزوة، ومن ذلك:

قال رجل للنبي ﷺ: «أرأيت إن قتلت فأين أنا؟ قال: في الجنة». فألقى تمرات كن في يده، ثم قاتل حتى نال الشهادة [البخاري].

وقال عبد الله بن جحش، قبل المعركة: «إني أقسم أن نلقى العدو، فإذا لقينا العدو، أن يقتلوني، ثم يبقروا بطني، ثم يمثلوا بي، فإذا لقيتك سألتني: فيم هذا؟ فأقول: فيك»، وعندما لقي العدو، وفعل بهم ما فعل، وجدوه بالحالة التي وصفها [الحاكم، مرسل صحيح].

وشهد عمرو بن الجَمُوح القتال مع أبنائه الأربعة، مع محاولتهم إثناءه عن الخروج بحجة أن الله يعذره لشدة عَرَجِه، وطلب منهم الرسول ﷺ أن يَدَعُوه ما دام راغباً في الشهادة، ومما قاله للرسول ﷺ: «أرأيت إن قتلت اليوم أَأَطأُ بعرجتي هذه الجنة؟ قال نعم. قال: فوالذي بعثك بالحق لَأَطَأَنَّ بها الجنة اليوم إن شاء الله. ثم قاتل حتى نال ما أراد من الشهادة [أحمد: المسند، حسن].

وروى أهل المغازي والسير [الحاكم، من حديث ابن إسحاق بسند حسن، وغيره] أن رسول الله ﷺ قال عن سعد بن الربيع: «من يأتيني بخبر سعد بن الربيع؟ فإني قد رأيته ـ وأشار بيده إلى ناحية من الوادي ـ وقد شُرع فيه اثنا عشر سِناناً، قال: فخرج محمد بن مسلمة ـ ويقال أُبي بن كعب ـ فخرج نحو تلك الناحية، قال: وأنا وسط القتلى أتعرفهم، إذ مررت به صريعاً في الوادي،

فناديته فلم يُجب، ثم قلت: إن رسول الله ﷺ أرسلني إليك! فتنفس كما يتنفس الكير، ثم قال: وإن رسول الله لحيٌّ؟ قال: قلت: نعم، وقد أخبرنا أنه شرع لك اثنا عشر سناناً. قال: طُعنت اثنتي عشرة طعنة، كلها أجافتني - أي وصلت إلى جوفه -؛ أبلغ قومك الأنصار السلام، وقل لهم: الله، الله! وما عاهدتم عليه رسول الله ليلة العقبة! والله ما لكم عذرٌ عند الله، إن خُلِصَ إلى نبيكم، ومنكم عين تطرف! ولم أَرِم من عنده حتى مات. قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ، فأخبرته. قال: فرأيت رسول الله ﷺ استقبل القبلة رافعاً يديه يقول: «اللهم الْقَ سعد بن الربيع، وأنت عنه راض!».

هذا نص رواية الواقدي، أما رواية ابن إسحاق فقد أبهم من أرسله الرسول ﷺ لينظر له ما فعل سعد، ولفظه: «.. من رجل ينظر لي ما فعل سعد بن الربيع؟ أفي الأحياء هو أم في الأموات؟ فقال رجل من الأنصار: أنا أنظر لك - يا رسول الله - ما فعل سعد، فنظر فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق. فقلت له: إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر، أفي الأحياء أنت أم في الأموات؟ قال: أنا في الأموات، أبلغ رسول الله ﷺ عني السلام، وقل له: إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته، وأبلغ قومك عني السلام، وقل لهم: إن سعد بن الربيع يقول لكم: إنه لا عذر لكم عند الله، إن خُلِصَ إلى نبيكم ﷺ ومنكم عين تطرف. قال: ثم لم أبرح حتى مات؛ قال: فجئت رسول الله ﷺ فأخبرته خبره.

مع أن الله قد عذر الشيوخ الضعفاء إلا أن اليَمَان وثابت بن وَقْش أبيا البقاء مع الذرية في الحصون، فلحقا بالميدان طلباً للشهادة، وقد استشهد ثابت على يد الكفار، وقتل المسلمون اليمان خطأً، وَوَدَاهُ الرسول ﷺ، ولكن ابنه حذيفة تصدق بدية أبيه، مما زاده عند الرسول ﷺ خيراً [ابن إسحاق، بإسناد حسن].

وكان حَنْظَلَة بن أبي عامر عَرُوساً ليلة أحد، فعندما سمع النداء عجل بالخروج ولم يغتسل، وقاتل حتى استُشهد. وعندما رآه الرسول ﷺ قال: «إن صاحبكم لتغسله الملائكة»، ولذا عرف بعد ذلك بـ: «غَسِيل الملائكة» أو «الغسيل» [الحاكم، من حديث ابن إسحاق، بسند حسن].

وقاتل مُخَيْرِيق مع رسول الله ﷺ حتى قتل، وكان مثالاً وقدوة حسنة لليهود الذين أسلموا. وحين خرج إلى المعركة قال: «إن أصبت فمالي لمحمد ﷺ، يصنع فيه ما يشاء» [ابن إسحاق]. فقال رسول الله ﷺ: «مخيريق خير يهود» [ابن إسحاق، ابن سعد؛ الواقدي؛ الإصابة].

وكان أُصَيْرِم بني عبد الأشهل ـ عمرو بن أُقَيْش ـ كارهاً للإسلام، حتى كان يوم أحد أسلم، ولحق بالمسلمين في أحد، فقاتل حتى نال الشهادة، وما صلَّى لله صلاة واحدة [ابن إسحاق، بسند حسن].

وإن كان قد فات حسان بن ثابت رضي الله عنه شرف الجهاد بالسيف في هذه الغزوة وغيرها، فإنه لم يفته شرف الكلمة القوية في تخليد ذكرى بطولات المسلمين في هذه الغزوة وغيرها.

لقد كان حسان من أصحاب الأعذار. فقد ذكر الكلبي [كما في تاريخ دمشق] أن الجبن لم يكن من عادة حسان، بل كان شجاعاً لَسِناً، فأصابته علة منعته من شهود القتال. وأوضح الواقدي هذه العلة، وهي: أن أكحله [عرق في اليد] كان قد قطع، فلم يكن يستطيع الضرب بيد. وهذا يفسر لنا الروايات التي وردت في تخلفه عن القتال، مثل رواية الطبراني [في المجمع] التي فيها أنه كان مع الذرية في حصن فَارِع يوم أحد، فجاء يهودي وأخذ يطل على الحصن، فطلبت صفية بنت عبد المطلب من حسان أن يقوم إليه فيقتله، فقال: «ما ذاك فيَّ، ولو كان لكنت مع رسول الله ﷺ»، فقتلته صفية وطلبت من حسان أن يرميَ برأسه إلى اليهود أسفل الحصن، فاعتذر أيضاً، فرمته إليهم، فتفرقوا؛ لأنهم ظنوا أن بالحصن رجالاً محاربين.

وذكر البلاذري [في الأنساب] واليعقوبي [في تاريخه] كذلك أن القصة كانت يوم أحد. والذي ذكره ابن إسحاق وغيره أنها كانت يوم الخندق.

ولم تأت قصة حسان مع صفية من طريق يحتج بها، ومما يجعلنا نقبل رواية الواقدي والكلبي ـ على ما بهما من علل ـ أننا نعلم أن حساناً كان يهاجي الشعراء في الجاهلية والإسلام، ولم يرمه أحد منهم بجبن، ولو كان مثل حديث الطبراني صحيحاً لكان مما يذكر في الشعر، ويذم به، كما ذم هو

غير واحد، وهجاه بالفرار من القتال والجبن، إضافة إلى أن عدم شهود حسان القتال كان لكبر سنه كما ذكر محققا سيرة ابن هشام. وزاد ابن عبد البر [في الدرر] ما قيل في تفسير تخلف حسان عن المواقع، فقال: «. . . وَلَهُجِيَ بذلك ابنه عبد الرحمن، فإنه كان كثيراً ما يهاجي الشعراء العرب مثل النجاشي وغيره».

قلت: ولو كان الجبن من طبع حسان لما عاب الجبن في الرجال، كما في قوله:

وإنا لقوم ما نُسَوِّدُ غادراً
ولا نَاكِلاً عند الحمالة زُمَّلاً
ولا مانعاً للمال فيما يَنُوبُه
ولا عاجزاً في الحرب جِبْسَاً مغفلاً
وأصيد نَهَّاضاً إلى السيف صارماً
إذا ما دعا داعٍ إلى الموت أرقلا

[انظر: شرح ديوان حسان، لعبد الرحمن البرقوقي، والناكل عند الحمالة: الذي ينكص على عقبيه عند تحمل الديات. والزمل: الضعيف الجبان الرذل. والجبس: الثقيل الذي لا يجيب إلى خير. وأصيد: من معانيها اصطياد الأقران في الحرب. وأرقل: أسرع]

ومعظم أبيات هذه القصيدة اللامية في الفخر بالشجاعة، فانظرها. بل لا تخلو قصيدة من قصائده في الفخر والهجاء من هذه المعاني، فانظر ديوانه كله.

وممن قاتل يوم أحد، وليس بنية الجهاد في سبيل الله، ولكن بنية حماية الأحساب، فكان من أهل النار: قُزْمَان، الذي قتل وحده ثمانية أو سبعة من المشركين، وكان الرسول ﷺ إذا ذكر له يقول: «إنه لمن أهل النار»، ولما كان يوم أحد قتل نفسه عندما أثخنته الجراح. وكان هذا من دلائل نبوة محمد ﷺ ودليلا على أن النية في الجهاد هي الأساس. [هذا مضمون رواية الشيخين، وأبي يعلى، كما في المجمع، وأحمد في المسند، والواقدي]

لقد رافقت بعض النسوة جيش المسلمين ليسقين العطشى، ذكر منهن أم عمارة [ابن هشام والواقدي]، وحَمْنَة بنت جَحْش الأَسدية [الطبراني كما في المجمع، وسنده حسن] وأم سُلَيْط [البخاري]، وأم سُلَيْم، وعائشة أم المؤمنين [متفق عليه].

وروى مسلم أن رسول الله ﷺ كان يغزو بأم سليم ونسوة من الأنصار معه إذا غزا، فيسقين الماء، ويداوين الجرحى.

وقد أرسل الله ـ تعالى ـ جبريل وميكائيل ليقاتلا دفاعاً عن الرسول ﷺ [متفق عليه].

وكان الله قد وعد المؤمنين ـ إن هم صبروا واتقوا وأتوا الأعداء من فورهم ـ أن يمدهم بالملائكة، ولما لم يحصل ذلك منهم لم يتحقق الوعد، وفي هذا يقول تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [آل عمران: ١٢٤، ١٢٥] [الطبري: التفسير؛ الطبراني].

وأنزل الله تعالى النعاس على طائفة المؤمنين الذين اغتموا بما وقع للرسول ﷺ وإخوانهم يوم أحد، فناموا يسيراً، ثم أفاقوا، وقد قذف الله في قلوبهم الطمأنينة، التي أعادت لهم بعض نشاطهم؛ ليواصلوا الدفاع عن نبيهم. وكان أبو طلحة الأنصاري فيمن تغشاه النعاس يوم أحد حتى سقط سيفه من يده مراراً، فيأخذه [البخاري]. وفي ذلك نزل قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ . . .﴾، أما طائفة المنافقين، سواء التي انسحبت مع ابن سلول أو فلولهم التي سارت مع المؤمنين فقد قال الله عنهم في الآية نفسها: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ . . .﴾ [آل عمران: ١٥٤] [الطبري: التفسير؛ منها آثار صحيحة].

لقد حاول المشركون جهد طاقتهم قتل الرسول ﷺ ولكن الله عصمه

منهم. فقد روي أن أبي بن خلف كان يتوعد الرسول ﷺ بمكة بأنه سيقتله يوماً ما، فيقول الرسول ﷺ: «بل أنا أقتلك، إن شاء الله» [ابن سعد، من مرسل ابن المسيب، وغيره]، فلما كان يوم أحد لحق بالنبي ﷺ في الشعب، وهو يقول: «أي محمد، لا نجوت إن نجوت، فقال القوم: يا رسول الله، أيعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله ﷺ: دعوه. فلما دنا تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصِّمَة، ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة مال منها على فرسه مراراً [ابن إسحاق]، ورجع إلى قريش وبه خدش غير كبير، فاحتقن الدم، فقال: «قتلني ـ والله ـ محمد!»، وطمأنه قومه بأن ليس به بأس، فقال لهم ما قال له محمد ﷺ بمكة، ثم قال: «فوالله لو بصق علي لقتلني». فمات عدو الله بسَرِف، وهم قافلون به إلى مكة [ابن إسحاق]. وهذا من علامات ودلائل نبوة محمد ﷺ.

وعندما صمد المسلمون واستماتوا دفاعاً عن النبي ﷺ فشل المشركون في محاولات الاختراق إليه، وأعيتهم المجالدة، ولم يملك أبو سفيان إلا أن يتوعد المسلمين بحرب أخرى في العام القادم، فوافق الرسول ﷺ على ذلك [ابن إسحاق، والواقدي]. وقد ثبت أن أبا سفيان أشرف على المسلمين، وقال: «أفي القوم محمد؟ فقال ﷺ: لا تجيبوه، فقال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ قال: لا تجيبوه، قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ فقال: إن هؤلاء قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عمر نفسه، فقال: كذبت يا عدو الله، أبقى الله عليك ما يحزنك، قال أبو سفيان: اعلُ هبل، فقال النبي ﷺ: أجيبوه، قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: الله أعلى وأجل. قال أبو سفيان: لنا العزَّى ولا عُزَّى لكم، فقال النبي ﷺ: أجيبوه، قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم. قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر والحرب سجال. وتجدون مُثلة لم آمر بها، ولم تسؤني» [البخاري]، وفي رواية عند أحمد وابن إسحاق قال عمر: «لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار». [ورواية أحمد في المسند حسنة].

وعندما انصرف المشركون مكتفين بما نالوه من المسلمين بعث رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب، وقال له: «اخرج آثار القوم، فانظر ماذا

يصنعون وما يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها، ثم لأناجزنَّهم»، وفعل علي ما أمر به، فوجدهم قد جنبوا الخيل، وامتطوا الإبل، ووجهوا إلى مكة [البخاري؛ وابن إسحاق؛ والواقدي].

وانجلت المعركة عن سبعين شهيداً من المسلمين [البخاري]، واثنين وعشرين قتيلاً من المشركين [ابن إسحاق، ابن سعد؛ الواقدي].

وخرج رسول الله ﷺ يلتمس حمزة، فوجده ببطن الوادي قد بقر بطنه عن كبده، ومثل به، فجدع أنفه وأذناه [ابن إسحاق]. وقال رسول الله ﷺ حين رأى ما به: «لولا أن تحزن صفية، ويكون سنة من بعدي لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم»، فلما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ وغيظه على من فعل بعمه ما فعل، قالوا: والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لَنُمَثلنَّ بهم مُثْلَة لم يمثلها أحد من العرب [ابن إسحاق، وسنده يعتضد].

ونزل قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ . . .﴾ [النحل: ١٢٦]. فعفا رسول الله ﷺ وصبر ونهى عن المُثْلَةِ [أحمد؛ وابن إسحاق؛ والترمذي؛ والحاكم، وصححه ووافقه الذهبي].

وعن قصة التمثيل بجثة حمزة رضي الله عنه، فقد روى موسى بن عقبة [في البداية] أن وحشياً بقر عن كبد حمزة وحملها إلى هند بنت عقبة فلاكتها فلم تستطع أن تستسيغها.

وروى ابن إسحاق [في السيرة] أن هنداً هي التي بقرت عن كبد حمزة، وزاد أن هنداً اتخذت من آذان الرجال وأنفهم خدماً (أي خلاخل) وقلائد، وأعطت خَدَمَها وقلائدها وقِرَطها وحشياً. [والقرط: حلي الأذن].

وروى الواقدي: أن وحشياً عندما قتل حمزة حمل كبده إلى مكة ليراها سيده جبير بن مطعم.

وذكر الشامي [في السبل] أن الواقدي والمقريزي - في الإمتاع - رويا أن وحشياً شق بطن حمزة وأخرج كبده، وجاء بها إلى هند، فمضغتها، ثم لفظتها، ثم جاءت معه إلى حيث جثة حمزة، فقطعت من كبده، وجَدَعَت أَنْفَهُ، وقطعت أُذُنَيْهِ، ثم جعلت مَسَكَتين ومِعْضَدَيْن وخَدَمَتَيْن، حتى قَدِمَتْ بذلك مكةَ.

وروى ابن أبي شيبة [في المغازي، بسند متصل رجاله ثقات] وأحمد [في المسند، بسند صحيح]: « . . . فنظروا، فإذا حمزة قد بُقر بطنه، وأخذت هند كبده، فلاكتها، فلم تستطع أن تأكلها . . . ».

ولعل رواية الواقدي والمقريزي التي أشار إليها الشامي تفيد الجمع بين روايتي ابن عقبة وابن إسحاق، وتوافقهما في المضمون. أما التمثيل بجثة حمزة فقد ثبت بطرق صحيحة كما ذكرنا، مما يدل على أن قصة بقر كبد حمزة - التي ذكرها بعض أهل المغازي والسير - لها أصل، ويضاف إلى هذا رواية ابن أبي شيبة.

وسجلت لبعض النساء المسلمات مواقف إيمانية رائعة في تقبلهن مصابهن في أهليهن وفرحهن بحياة الرسول ﷺ. ومن أمثلة ذلك أن الرسول ﷺ مرَّ هو وأصحابه بامرأة من بني دينار [الواقدي؛ واسمها عنده: السميراء بنت قيس]، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحد، فلما نُعُوا لها قالت: «فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً يا أم فلان. هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه؟ فأشير إليه حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل» - أي صغيرة [ابن كثير: التاريخ، من حديث ابن إسحاق، بسند حسن].

وعندما أقبلت صفية - أخت حمزة - لتنظر إليه، طلب الرسول ﷺ من ابنها الزبير أن يرجعها حتى لا ترى ما بأخيها من مُثلة، فقالت: «ولم؟ وقد بلغني أن قد مُثِّل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك! لاحتسبنَّ ولأصبرنَّ إن شاء الله». وعندما أخبر الزبير النبي ﷺ بقولها، أمره بأن يخلي سبيلها، فأتته فنظرت إليه، فصلت عليه، واسترجعت، واستغفرت له، ثم أمر به، فدفن [ابن إسحاق؛ وأحمد؛ والبزار؛ وأبو يعلى والبيهقي في الدلائل، وأسانيدهم صحيحة بمجموع طرقها].

وعندما انصرف رسول الله ﷺ راجعاً من أحد إلى المدينة لقيته حَمْنَة بنت جحش، فنعى لها الناس أخاها عبد الله بن جحش، فاسترجعت، واستغفرت له، ثم نُعِيَ لها خالها حمزة بن عبد المطلب، فاسترجعت، واستغفرت له، ثم نعي لها زوجها مصعب بن عمير، فصاحت وولولت. فقال رسول الله ﷺ: «إن زوج المرأة منها لبمكان» لما رأى من صبرها عند ذكر أخيها وخالها وصياحها على زوجها [ابن إسحاق؛ ابن ماجه].

وقد روى البخاري وأبو داود أن رسول الله ﷺ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد، ثم يقول: «أيهم أكثر أخذاً للقرآن؟ فإذا أشير لأحد قدمه في اللحد، وقال: أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة» وأمر بدفنهم بدمائهم، ولم يصل عليهم، ولم يغسلوا. . .، ودفن الاثنان والثلاثة في قبر واحد[الترمذي، صحيح]، وأمر الرسول ﷺ أن يدفنوا حيث صرعوا، فأعيد من أخذ ليدفن داخل المدينة [أحمد: المسند].

وبعد الدفن صف الرسول ﷺ أصحابه، وأثنى على ربه، ثم دعا الله أن يعطيهم نعيم الدنيا والآخرة، وأن يقتل الكفرة المكذبين [الحاكم، وصححه، ووافقه الذهبي].

وكان يتمنى أن يمضي شهيداً مع أصحابه الذين استشهدوا يوم أحد، وقد أثنى عليهم عندما سمع علياً يقول لفاطمة: «هاكِ السيف؛ فإنها قد شفتني»، فقال له: «لئن كنت أجدت الضرب بسيفك، لقد أجاد سَهْل بن حَنِيف، وأبو دجانة، وعاصم بن ثابت الأَقْلَح، والحارث بن الصِّمَة» [الحاكم، وصححه، وأقره الذهبي].

وبشر الرسول ﷺ المسلمين بما نال الشهداء من عظيم الأجر، فقد قال عندما سمع بكاء فاطمة بنت عبد الله بن عمرو والد جابر: «ولم تبكي؟ فما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رُفِعَ [مسلم]، وفي رواية قال عن بكائها: «تبكيه أو لا تبكيه، ما زالت الملائكة تظله بأجنحتها حتى رفعتموه» [متفق عليه].

ونزل في شهداء أحد قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] [الحاكم، وصححه ووافقه

الذهبي]. فقد روى مسلم أن الصحابة ﷺ سألوا ابن مسعود عن هذه الآية، فقال: «أَمَا إِنَّا قد سألنا عن ذلك فقال: أَرْوَاحُهُم في جَوْف طَيْرٍ خُضْرٍ لها قَنادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بالعرش، تسرح من الجنة حيثُ شاءت، ثم تأوِي إلى تلك القناديل...»، ولذا قال العلماء: إن حياة الشهداء حياة محققة حسبما جاء في هذا الحديث [فتح القدير للشوكاني، في ضوء حديث للترمذي].

وعندما عاد الرسول ﷺ من أحد سمع بكاء نساء الأنصار - من بني عبد الأشهل وظَفَر - على من استشهد من أزواجهن، فقال: «ولكن حمزة لا بواكي له»، وعندما استيقظ من نومه سمع بكاءهن ونَدْبِهِنَّ بحمزة [أحمد: المسند، بسند صحيح؛ وغيره]، ونهى يومئذٍ عن النَّوْحِ [ابن هشام؛ وابن سعد].

لقد نزلت في هذه المعركة ثمان وخمسون آية من سورة آل عمران، تبتدئ بذكر أول مرحلة من مراحل المعركة: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١]، وتترك في نهايتها تعليقاً جامعاً على نتائج المعركة وحكمتها: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾ [آل عمران:].

ب - أحكام وحكم وعظات وعبر من غزوة أحد:

عقد ابن القيم [في الزاد] فصلاً فيما اشتملت عليه هذه الغزوة من الأحكام الفقهية، ننقلها هنا باختصار لتعميم الفائدة: [ما بينن المعكوفتين من كلامي]:

١ - أن الجهاد يلزم بالشروع فيه، حتى إن استعد له وتأهب للخروج، ليس له أن يرجع عن ذلك حتى يقاتل عدوه.

٢ - أنه لا يجب على المسلمين إذا طرقهم عدوهم في ديارهم الخروج إليه، بل يجوز لهم أن يلزموا ديارهم، ويقاتلوهم فيها إذا كان ذلك أنصر لهم على عدوهم، كما أشار به رسول الله ﷺ عليهم يوم أحد.

٣ - جواز سلوك الإمام بالعسكر في بعض أملاك رعيته إذا صادف ذلك

طريقه، وإن لم يرض المالك، كما كان حال مربع بن قيظي مع الرسول ﷺ وجيشه.

٤ ـ أنه لا يأذن لمن لا يطيق القتال من الصبيان غير البالغين، بل يردهم إذا خرجوا، كما رد رسول الله ﷺ ابن عمر ومن معه.

٥ ـ جواز الغزو بالنساء والاستعانة بهن، فيما دون القتال، مثل السقي والتطبيب، [إذا أُمِنَتِ الفتنة].

قلت: أخرج ابن أبي شيبة [في المصنف، بسند ضعيف كما حققه د. خالد الدريس]، بسنده إلى سعيد بن عمرو القرشي، أن أم كبشة، امرأة من بني عذرة ـ عذرة قضاعة ـ قالت: يا رسول الله! إني لستُ أُريدُ أن أقاتل، إنما أريد أن أداوي الجريح والمريض، أو أسقي المريض، فقال: «لولا أن تكون سنة، ويقال فلانة خرجت، لأذنت لك، ولكن اجلسي».

ذكرت هذا الحديث لأن بعض طلاب العلم يحتج به على أن الرسول ﷺ نهى في آخر حياته عن خروج النساء في الغزو. وقد علمت درجته، ولكن إذا ترجح احتمال وقوع نساء المسلمين في أسر الكفار وتعرضهن للاغتصاب، فالذي أميل إليه الاحتجاج بحديث أم كبشة مع ضعفه؛ لأن الاحتجاج بالضعيف في فضائل الأعمال قال به بعض العلماء، وعلى رأسهم الإمام أحمد ـ يرحمه الله ـ خاصة أن حديث أم كبشة كان بعد الفتح وحنين، وهما آخر غزوتين خرج فيهما بعض النساء كما علمت من أحداثهما وأحداث ما بعدهما من غزوات.

٦ ـ جواز الانغماس في العدو، كما انغمس أنس بن النضر وغيره. [ولابن تيمية كتاب في هذا].

٧ ـ أن الإمام إذا أصابته جراحة صلى بأصحابه قاعداً، وصلوا وراءه قعوداً كما فعل رسول الله ﷺ واستمرت على ذلك سنته إلى حين وفاته [المغني، والمحلى، ونيل الأوطار].

٨ ـ جواز دعاء الرجل وتمنيه أن يقتل في سبيل الله، وليس ذلك من تمني الموت المنهي عنه، كما فعل عبد الله بن جحش.

٩ ـ أن المسلم، إذا قتل نفسه، فهو من أهل النار، كما في حال قزمان.

١٠ ـ السنة في الشهيد أن لا يغسل، ولا يكفن في غير ثيابه، بل يدفن فيها بدمه، إلا أن يسلبها العدو، فيكفن في غيرها. والحكمة في ذلك كما روى الترمذي: «حتى يلقوا ربهم بكُلُومِهِم ـ جُروحهم ـ ريح دمهم ريح المسك، واستغنوا بإكرام الله لهم». وكما روى ابن إسحاق [بسند حسن] أن الرسول ﷺ قال عن شهداء أحد: «أنا شهيد على هؤلاء، ما من جريح يُجرَح في الله، إلا والله يبعثه يوم القيامة يَدْمَىٰ جرحه، اللون لون دم، والريح ريح مسك...».

١١ ـ أما الصلاة على الشهيد فقد اختلف فيها العلماء، وقد رجح ابن القيم أن الإمام مخير بين الصلاة عليه وتركها لمجيء الآثار بكل واحد من الأمرين.

وقد خَرَّجَ محققا الزاد تلك الآثار وبيَّنا درجتها من الصحة، ثم قالا: «ففي هذه الأحاديث مشروعية الصلاة على الشهداء، لا على سبيل الإيجاب؛ لأن كثيراً من الصحابة استشهد في غزوة بدر وغيرها، ولم ينقل أن النبي ﷺ صلى عليهم، ولو فعل لنقل عنه، وقد جنح المؤلف رحمه الله في «تهذيب السنن: ٤/ ٣٢٩٥» إلى هذا.

١٢ ـ السنة في الشهداء أن يدفنوا في مصارعهم.

١٣ ـ أن من عذره الله في التخلف عن الجهاد، لمرض أو عرج [شديد أو شيخوخة]، يجوز له الخروج إليه، وإن لم يجب عليه، كما خرج عمرو بن الجَمُوح، وهو أعرج، [واليَمَان والد حُذَيْفَة، وثابت بن وَقْش، وهما شيخان كبيران].

١٤ ـ أن المسلمين إذا قتلوا واحداً منهم في الجهاد يظنونه كافراً، فعلى الإمام دفع ديته من بيت المال، كما في واقعة قتل اليمان.

وذكر ابن القيم بعض الحكم والغايات المحمودة التي كانت في غزوة أحد.

وقد أشار الله ـ سبحانه وتعالى ـ إلى أمهاتها وأصولها في سورة آل عمران، حيث افتتح القصة بقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ...﴾ [آل عمران: ١٢١] إلى تمام نحو ستين آية من هذه السورة.

نذكر هنا باختصار ما ذكره ابن القيم:

١ ـ تعريف المؤمنين بسوء عاقبة المعصية والفشل والتنازع، وأن الذي أصابهم هو لذلك السبب، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢]. فلما ذاقوا عاقبة معصيتهم للرسول ﷺ وتنازعهم وفشلهم كانوا بعد ذلك أشد حذراً، ويقظة، وتحرزاً من أسباب الخذلان.

٢ ـ أن حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم جرت بأن يُدَالوا مرة، ويُدَالُ عليهم أخرى، لكن تكون لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائماً لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة، فاقتضت حكمة الله أن جمع لهم بين الأمرين، ليتميز من يتبعهم، ويطيعهم للحق وما جاؤوا به ممن يتبعهم على الظهور والغلبة، خاصة وإن هذا من أعلام الرسل، كما قال هرقل لأبي سفيان: «هل قاتلتموه؟ قال: نعم، قال: كيف الحرب بينكم وبينه؟ قال: سِجَالٌ، يدال علينا المرة، وندال عليه الأخرى، قال: كذلك الرسل تُبتلى، ثم تكون لهم العاقبة» [متفق عليه].

٣ ـ ميزت محنة أُحد بين المؤمن والمنافق الذي دخل الإسلام ظاهراً بعد انتصار المسلمين ببدر، وفي ذلك قال ـ تعالى ـ: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

٤ ـ استخراج عبودية أوليائه وحزبه في السراء والضراء، فإذا ثبتوا على الطاعة والعبودية فيما يحبون وما يكرهون، فهم عبيده حقاً، وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد من السراء والنعمة والعافية.

٥ ـ لا يصلح عباده إلا السراء والضراء، فهو المدبر لأمر عباده كما يليق بحكمته، فهو (سبحانه) إذا أراد أن يعز عبده ويجبره وينصره، كسره أولاً، ويكون جبره له ونصره على مقدار ذله وانكساره، وهذا ما وقع للمسلمين ببدر: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]،

وبحنين: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ﴾ [التوبة: ٢٥].

٦ ـ أنه ـ سبحانه ـ هيَّأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته، لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنة، فقيض لهم الأسباب التي توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها.

٧ ـ أن النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغياناً وركوناً إلى العاجلة، وذلك مرض يعوقها عن جدها في سيرها إلى الله والآخرة، فإذا أراد الله بها الرحمة والكرامة قيض لها من الابتلاء ما فيه دواء وشفاء لذلك المرض.

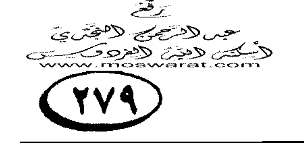
٨ ـ أن الشهادة عند الله من أعلى مراتب أوليائه، ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو وغيره.

٩ ـ أن في الابتلاء من الله تمحيصاً وتكفيراً لذنوب عباده وفرصة لهم لنيل الشهادة، قال ـ تعالى ـ: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [آل عمران: ١٤٠، ١٤١].

١٠ ـ أن الأنبياء عليهم السلام إذا أصيبوا ببعض العوارض الدنيوية من الجراحات والآلام والأسقام ـ تعظيماً لأجرهم ـ تأسى بهم أتباعهم في الصبر على المكاره، والعاقبة للمتقين، وهذه سنة الله فيهم [الباكري].

١١ ـ أن اشتراك الرسول ﷺ في القتال مثله كأي فرد من أفراد جيشه دليل على حرصه ﷺ على عدم تميزه عن جنده ومساواة نفسه بهم. وفيه دليل على شجاعته وصبره وتحمله الأذى في سبيل دعوته.





الفصل الثامن

الغزوات والسرايا والأحداث الأخرى بين غزوتي أحد والمُرَيْسِيع

انظر الملحق (٦) ـ خريطة هذه الأحداث

المبحث الأول

أ ـ غزوة حَمْرَاء الأَسَد:

فكر المشركون في الكرة مرة أخرى على المسلمين ليقضوا عليهم قضاء مبرماً، وعندما علم الرسول ﷺ بنيتهم ندب الناس إلى المسير إلى لقائهم، وقال: «لا يخرج معنا إلا من شهد القتال» فاستجاب له المسلمون على ما بهم من القرح الشديد والخوف، وقالوا سمعاً وطاعة، وأذن لجابر بن عبد الله بالمسير معه؛ لأنه لم يشهد أحداً، إذ كان أبوه قد خلفه على بناته، وساروا حتى بلغوا حمراء الأسد [وحمراء الأسد: موضع على ثمانية أميال من المدينة عن يسار الطريق إذا أردت ذا الحليفة].

وعندما أقبل مَعْبَد بن أبي معبد الخزاعي إلى رسول الله ﷺ أمره أن يلحق بأبي سفيان فيخذله، فلحقه بالروحاء، ولم يعلم بإسلامه، فخذله، وأخبره بخروج المسلمين إلى حمراء الأسد، ونصحهم بالعودة إلى مكة [ابن إسحاق].

وقال الله ـ تعالى ـ في هذه الغزوة: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ [آل عمران] [متفق عليه وفي البخاري أن الزبير وأبا بكر كانا من هؤلاء].

روى ابن إسحاق أنهم في طريق عودتهم من حمراء الأسد أسروا مُعاوية بن المُغِيرة، جد عبد الملك بن مروان لأمه، وأبا عَزَّة الجُمَحِيّ الذي مَنَّ الرسول ﷺ عليه بغير فداء من بين أسرى بدر، فقال: «يا رسول الله! أَقِلْنِيْ»، فقال رسول الله ﷺ: «والله لا تَمْسَحُ عَارِضَيْكَ بمكة بعدها وتقول: خَدَعْتُ محمداً مرتين». وضرب الزبير عنقه بأمر الرسول ﷺ.

وروي أن الرسول ﷺ قال لأبي عزة: «إنَّ المؤمن لا يُلْدَغُ من جحر مرتين»، وأمر عاصم بن ثابت فضرب عنقه [أصله في الصحيحين؛ وابن هشام، بلاغاً عن ابن المسيب].

لقد كانت هذه الغزوة في الثامن من شوال على رأس اثنين وثلاثين شهراً من الهجرة، وقيل غير ذلك [الواقدي، وابن سعد]، إذ قال ابن إسحاق: إنها في يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال.

ب ـ عبر في هذه الغزوة:

١ ـ أن خروج الرسول ﷺ إلى حمراء الأسد، يُعَدُّ مظهراً من مظاهر الكمال المحمدي: من شجاعة، وتحمل، وصبر، وعدم الاستسلام لأي مظهر من مظاهر الهزيمة، وحسن سياسة، وبياناً لفضل أصحاب محمد ﷺ وما كانوا عليه من طاعة وصبر وتحمل واستجابة لله والرسول. وفيهم نزل قول الله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران] [تفسير الطبري، وفيه طرق صحيحة].

المبحث الثاني: سرية الرَّجِيع:

روى البخاري أن الرسول ﷺ بعث بسرية عَيْناً، وأَمَّرَ عليهم عَاصِم بن ثابت، فانطلقوا، حتى إذا كانوا بين عُسْفَان ذكروا لحي من هذيل يقال لهم بنو لِحْيَان، فتبعوهم بقريب من مائة رام، فاقتصوا آثارهم، حتى أتوا منزلاً نزلوه،

فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يثرب، فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم، فلما انتهى عاصم وأصحابه لجؤوا إلى فَرْفَد ـ مرتفع من الأرض ـ وجاء القوم فأحاطوا بهم، فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا لا نقتل منكم رجلاً، فقال عاصم: أما أنا فلا أنزل في ذِمَّةِ كافر، اللهم أخبر عنا نبيك، فقاتلوهم حتى قتلوا عاصماً في سبعة نفر بالنبل، وبقي خُبَيْبٌ، وزيدٌ، ورجل آخر [هو عبد الله بن طارق كما في رواية ابن إسحاق، والواقدي]. فأعطوهم العهد والميثاق، فنزلوا إليهم. فلما استمكنوا منهم حلوا أوتار قِسِيِّهِم، فربطوهم بها، فقال الرجل الثالث الذي معهما: هذا أول الغدر، فأبى أن يصحبهم، فجرروه، وعالجوه على أن يصحبهم، فلم يفعل، فقتلوه، وانطلقوا بخُبَيْب وزيد حتى باعوهما بمكة. فاشترى خبيباً بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب قد قتل الحارث بن عامر يوم بدر، [يذكر بعض أصحاب المغازي أن خبيباً لم يشهد بدراً، وإنما الذي شهدها، وقتل الحارث بن عامر هو خبيب بن إساف، وللتوفيق بين روايات أهل السير ورواية البخاري، قال ابن حجر: إنهم قتلوا خبيباً بالحارث؛ لكون خبيب بن إساف قتل الحارث على عادتهم الجاهلية بقتل بعض القبيلة عن بعض. وانظر مناقشة عرجون لهذه القضية: محمد رسول الله ﷺ (٤/٥٣ ـ ٦٥).] فمكث عندهم أسيراً حتى إذا أجمعوا قتله، استعار مُوسَىٰ من بعض بنات الحارث ليستحد بها، فأعارته، وقالت: «فغفلت عن صبي لي، فَدَرَجَ إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه، فلما رأيته فزعت فزعة عرف ذلك مني، وفي يده الموسى، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك، إن شاء الله تعالى. وكانت تقول: ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، لقد رأيته يأكل من قِطْفِ عنب، وما بمكة يومئذ تمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزقاً رزقه الله» [ابن إسحاق]. فخرجوا به من الحرم ليقتلوه، فقال: «دعوني أُصَلِّ ركعتين»، ثم انصرف إليهم، فقال: «لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدت». فكان أول من سن الركعتين عند القتل هو، ثم قال: «اللهم أَحْصِهِم عَدَداً، واقتلهم بَدَداً، ولا تُبْقِ منهم أحداً، ثم قال:

ما إن أبالي حين أُقْتَلُ مسلماً
على أي شَقٍّ كان في الله مصرعي

[وفي رواية: فلست أبالي..]

وذلك في ذات الإله وإن يَشَأ
يُبارك على أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ

[البخاري، الفتح (١٥/ ٢٥٩ ـ ٢٦٥، ح٤٠٨٦)، وقال ابن حجر في شرحه لحديث الباب (١٥/ ٢٦٥): «وعند أبي الأسود عن عروة زيادة في هذا الشعر، ثم ذكر البيتين الآتيين:

لقد أَجْمَعَ الأحزاب حولي وألَّبوا
قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
إلى الله أشكو غُربتي بعد كُربتي
وما أَرْصَدَ الأحزابُ لي عند مَصْرَعِي

وروى أبو الأسود من حديث عروة: «وقال خبيب حين رفعوه إلى الخشبة:

لقد جَمَعَ الأحزاب حولي وألَّبوا
قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وقد جمعوا أبناءهم ونساءهم
وَقُرِّبْتُ من جِذْعٍ طويل مُمَنَّعِ
إلى الله أشكو غُرْبَتِي ثم كُرْبَتِي
وما أَرْصَدَ الأحزاب لي عندَ مَصْرَعِي
فذا العرش صَبِّرْنِي على ما يُرادُ بي
فقد بَضَّعُوا لَحْمِي وقد يَاسَ مَطْمعِي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ
يبارك على أوصال شِلْو مُمَزَّعِ
لَعَمْرِي ما أَحْفَل إذا مِتُّ مسلماً
على أي حَال كان لله مَضْجَعِي

وقال ابن حجر: إن ابن إسحاق ساقها ثلاثة عشر بيتاً، والذي وقفنا عليه لابن إسحاق في سيرة ابن هشام عشرة أبيات، والأبيات الزيادة على ما ذكرناه هنا عن عروة، وهي:

وكُلُّهُمُ مبدي العداوةِ جاهدٌ
عليَّ لأني في وِثَاقٍ مُضَيَّعِ

وقد خَيَّرُوني الكُفْرَ والموتُ دونه
وقد هَمَلَتْ عَيْنَايَ من غير مَجْزَعِ
وما بي حِذَارُ الموتِ إني لَمَيِّتٌ
ولَكِنْ حِذَارِي جَحْمُ نَارٍ مُلَفَّعِ
فَوَاللهِ ما أرجُو إذا مِتُّ مسلماً
على أي جنب كان في الله مَصْرَعِي
فَلَسْتُ بِمُبْدٍ للعدو تَخَشُّعاً
ولا جَزَعاً إني إلى الله مَرْجِعِي

انظر: مغازي عروة، ص١٧٧، وقال ابن هشام (٣/ ٢٥٠): وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها له، أي لخبيب.]

ثم قام إليه عقبة بن الحارث [وفي رواية ثانية عند البخاري أن الذي قتله هو أبو سَرْوَعَة (الفتح ١٥/ ٢٦٦) وفي رواية ثالثة أنه أبو سروعة عقبة بن الحارث، الفتح (١٥/ ١٧٧) وقال ابن حجر: إن أبا سروعة هو أخو عقبة، وليس أبو سروعة وعقبة اسماً واحداً. وفي رواية لابن إسحاق بإسناد حسن صحيح أن عقبة بن الحارث لم يقتل خبيباً؛ لأنه كان صغيراً، وأن الذي قتله هو أبو ميسرة العبدري، أخذ الحربة فجعلها في يده، ثم أخذ بيده وبالحربة، ثم طعن بها خبيباً حتى قتله]. وبعثت قريش إلى عاصم ليؤتوا بشيء من جسده يعرفونه، وكان عاصم قد قتل عظيماً [هو عقبة بن أبي معيط، الذي أسر ببدر، وقتله عاصم صبراً بأمر الرسول ﷺ كما مر بنا] من عظمائهم يوم بدر، فبعث الله عليه مثل الظلة من الدَّبْر، فحمته من رسلهم، فلم يقدروا منه على شيء [عند ابن إسحاق أن هذيلا أرادت أخذ رأسه ليبيعوه من سُلَافَة بنت سعد بن شُهَيْد، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنيها يوم أحد: لئن قدرت على رأس عاصم لتشربن في قِحْفِهِ الخمر. . . .].

وقال حسان بن ثابت شعراً رائعاً في رثاء خبيب ورفقائه الكرام [انظره عند ابن إسحاق، وعروة: المغازي، ص١٧٧، قال الأعظمي: «رواه الطبراني، وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وفيه ضعف»]، ومثاله قوله:

مَا بَالُ عَيْنَيْكَ لَا تَرْقَا مَدَامِعُهَا
سَحًّا على الصَّدْرِ مِثْلَ اللُّؤلُؤِ القَلِقِ

على خُبَيْبٍ فتى الفتيان قد علموا
لا فَشِلٍ حين تَلْقَاهُ ولا نَزِقِ

[لا ترقأ مدامعها، أي: لا تنقطع. والسَّحُّ: الصَّبُّ والقلق: المتحرك الساقط. الفشل: الجبان، والنزق: السَّيئ الخُلُقِ.]

وقوله:

يَا عَيْنُ جُوْدِيْ بدمعٍ منك مُنْسَكِبِ
وَابْكِي خبيباً مع الفتيانِ لم يَؤُبِ
صقراً توسط في الأنصار منصبه
سَمْحَ السجية محضاً غَيْرَ مُؤْتَسِبِ
قَدْ هَاجَ عيني على عِلَّاتِ عَبْرَتِها
إذا قيل: نُصَّ إلى جِذْعٍ من الخشب

[السَّجِيَّة: الطبيعة، والمحض: الخالص النسب، والمؤتسب: المُخْتَلِط. والعِلَّات: المشقات، والعَبْرَةُ: الدمعة، ونص: رفع.]

وهجا كذلك هذيلاً وبني لحيان ـ بطن من هذيل.

وأما زيد بن الدَّثِنة فابتاعه صَفْوَان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خَلَف. وعندما أخرجوه من الحرم إلى التنعيم ليقتلوه، اجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان، فقال أبو سفيان حين قدم ليقتل: «أَنْشُدُكَ اللهَ ـ يا زيد ـ أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك نَضْرِبُ عنقه، وأَنَّك في أَهْلِكَ؟» قال: «والله ما أُحِبُّ أن محمداً الآن في مكانه الذي هو فيه تُصِيْبُه شَوكةٌ تُؤذيه، وأني جالس في أهلي»، فقال أبو سفيان: «ما رأيت من الناس أحداً يُحِبُّ أحداً كحب أصحاب محمد محمداً». ثم قتله نِسْطَاسُ مولى صَفْوَان» [ابن إسحاق؛ وابن سعد، من طريق ابن إسحاق مرسلاً].

لما قُتل أصحاب الرجيع، قال ناس من المنافقين: «يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا، لا هم أقاموا في أهلهم، ولا هم أدّوا رسالة صاحبهم، فأنزل الله فيهم آية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا

وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾﴾ [البقرة: ٢٠٤] وما بعدها، وأنزل في أصحاب السرية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ [البقرة: ٢٠٧] [ابن إسحاق؛ منقطعاً، ووصله ابن كثير في البداية بسند ضعيف].

بعث الرسول ﷺ عمرو بن أُمَيَّة الضَّمْرِيّ وحده إلى قريش، قال: «فجئت إلى خشبة خبيب، وأنا أتخوف العيون، فرقيت فيها، فحللت خبيباً، فوقع إلى الأرض، فانتبذت غير بعيد، ثم التفت فلم أر خبيباً، ولكأنما ابتلعته الأرض، فلم ير لخبيب أثر حتى الساعة» [أحمد في المسند وابن أبي شيبة].

كانت هذه السرية في صفر على رأس ستة وثلاثين شهراً من الهجرة [الواقدي؛ وابن سعد].

المبحث الثالث: سرية بئر مَعُونَة

وفي الشهر ذاته الذي أرسل فيه الرسول ﷺ سرية الرجيع، أرسل الرسول ﷺ سرية بئر معونة [ابن إسحاق؛ وابن سعد؛ والواقدي].

فقد ثبت في الصحيح أن الرسول ﷺ أرسل إلى نجد سبعين من خيار الصحابة ﷺ عُرِفُوا بالقراء، كانوا يحتطبون بالنهار، ويصلون بالليل [البخاري]، وينفقون ثمن حطبهم على أهل الصُّفَّة [مسلم].

وذكر مسلم: أن سبب إرسالهم هو أن أناساً جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وطلبوا منه أن يبعث معهم رجالاً يعلِّمونهم القرآن والسنة.

وذكر البخاري سبباً آخر لا يختلف عن هذا في جوهره، وهو: أن بطوناً من بني سُلَيم، هم: رِعْل وذَكْوان وعُصَيَّة وبني لِحيان استمدوا رسول الله ﷺ على عدو، فأمدهم بأولئك السبعين، وقد وافق البخاري ابن سعد في هذا السبب.

وذكر بعض أئمة المغازي [ابن هشام؛ وابن سعد؛ والواقدي]: أن أبا براء عامر بن مالك، المدعو «مُلَاعِب الأَسِنَّة» قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدعاه إلى الإسلام، فلم يسلم ولم يبعد، وقال: «يا رسول الله، لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك لرجوت أن يجيبوهم، فقال: إني

أخاف عليهم أهل نجد، فقال أبو براء: أنا جارٌ لهم».

ويمكن الجمع بين هذه الروايات بأن يكون كلا الأمرين قد وقع، أي إرسال الرسول ﷺ هؤلاء السبعين بناء على طلب أبي براء وبني سليم.

وعندما نزلوا ببئر معونة بين أرض عامر وحرة بني سُلَيم بعثوا حرام بن مِلْحَان ـ أخا سليم ـ بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطُّفَيل، فلم ينظر فيه، وأمر رجلاً ـ إيماءً ـ فطعن حراماً بالحربة من خلفه، فلما أنفذها فيه ورأى الدم، قال حرام: «الله أكبر، فُزْتُ، وَرَبِّ الكعبة» [هنا يتفق أهل المغازي مع رواية الصحيحين].

وعندما خرج الدم من حرام رضي الله عنه نَضَحَهُ على وجهه ورأسه [البخاري]، وكأنه يريد أن يلقى ربه وكل جسمه ملطخ بدم الشهادة، فيزيده الله من الأجر.

ثم استنفر ابن الطفيل بني عامر إلى قتال المسلمين، فلم يجيبوه لأجل جوار أبي براء، فاستنفر بني سُلَيم، فأجابته عُصَيَّة ورِعل وذَكْوَان، وخاضوا مع المسلمين معركة ضارية، قتل فيها المسلمون إلا كعب بن زيد بن النجار، الذي ترك، وبه رَمَق، فعاش حتى استشهد في غزوة الخندق، وعمرو بن أمية، الذي كان قد تأخر عنهم هو والمُنْذِر عُقْبَة بن عامر، وعندما وجدا أصحابهما قد صرعوا قاتلا المشركين، فقتلوا المنذر، وأسروا عمرا، ثم أعتقه عامر عن رقبة كانت على أمه.

وعاد عمرو بن أمية بالخبر الأليم إلى الرسول ﷺ بالمدينة، وفي الطريق فتك برجلين من بني كِلَاب، هو يرى أنه قد أصاب ثأر أصحابه، وإذا معهما عهد من رسول الله ﷺ، لم يعلم به، ولذا التزم الرسول ﷺ بأداء ديتهما، فأخذ في تحصيل الدية من المسلمين وأهل الصحيفة من اليهود.

وعندما ذهب إلى اليهود للإعانة في دية الكلابيين حاولوا قتله، مما كان من أسباب غزوة بني النضير ـ كما سنرى.

وقد تألم الرسول ﷺ لهاتين الفاجعتين ـ معونة والرجيع ـ فأخذ يدعو في صلاة الصبح ثلاثين صباحاً على الذين قتلوا أصحابه ببئر معونة والرجيع: رعل وذكوان ولحيان وعصية [خلاصة البخاري ومسلم].

وظهرت لعامر بن فُهَيْرَة كرامة في هذه الموقعة. فقد روى البخاري أنه

لما قتل الذين ببئر معونة، وأسر عمرو الضمري، قال له ابن الطفيل: من هذا؟ فأشار إلى قتيل، فقال له عمرو بن أمية: هذا عامر بن فهيرة، فقال: «لقد رأيته بعد ما قتل رفع إلى السماء حتى إنّي لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض ثم وضع». وكان الذي قتله جَبَّار بن سَلْمَى الكِلابي، وقد أسلم نتيجة ما رأى من حال عامر بن فهيرة رضي الله عنه [الواقدي؛ وابن سعد]. ولم نقف على كيفية نجاة كعب بن زيد رضي الله عنه. تقول المصادر إنه ارْتُثَّ من بين القتلى. وارتُثَّ: أي حُمل رثيثاً ـ أي جريحاً ـ وبه رمق.

المبحث الرابع
حكم وأحكام وعبر ودروس من سريتي الرجيع وبئر معونة

١ ـ تدل هاتان الحادثتان على اشتراك المسلمين كلهم في مسؤولية الدعوة إلى الإسلام وتبصير الناس بحقيقته وأحكامه. فليس أمر الدعوة موكولاً إلى الأنبياء والرسل وحدهم أو خلفائهم والعلماء دون غيرهم.

ومع استشعار الرسول ﷺ الخوف على القراء نتيجة لما وقع لأهل الرجيع، فإنه لم يتوقف عن إرسال بعث القراء، بل أرسل بعوثاً أخرى حتى تاريخ وفاته؛ لأنه كان يرى أن القيام بأعباء تبليغ الدعوة أهم من كل شيء، ليكن ما يريد الله في سبيل القيام بأمره وتبليغ دعوته.

٢ ـ أن معجزة التربية الإسلامية تتجلى في موقف خبيب بن عدي عندما لم يمس طفل آل الحارث بسوء، مع مواتاة فرصة الانتقام لنفسه من المشركين الذين حبسوه ليقتلوه، وتتجلى نذالة الكافرين في الغدر بأصحاب الرجيع وأصحاب بئر معونة، ولم يشفع لخبيب عندهم موقفه النبيل من طفل آل الحارث. والغدر والخيانة وصف لازم في الغالب لأهل الكفر والشرك.

٣ ـ أن للأسير في يد العدو أن يمتنع من قبول الأمان، ولا يمكن نفسه ولو قتل، ترفُّعاً عن أن يجري عليه حكم الكافر، كما فعل عاصم رضي الله عنه، فإن أراد الترخص فله أن يستأمن، مترقباً الفرصة للخلاص، كما فعل زيد وخبيب رضي الله عنهما.

٤ ـ أن ما ظهر من أمر خارق للعادة لخبيب عندما كان أسيراً دل على أن كل ما أمكن أن يكون معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي.

٥ ـ مشروعية الصلاة عند القتل، وأن خبيباً هو الذي سنها، وأقر ذلك الرسول ﷺ.

٦ ـ تتجلى قوة إيمان ابن الدثنة في حبه لرسول الله ﷺ ورضائه بالموت، ولا يصاب رسول الله ﷺ بشوكة تؤذيه، وهو آمن في أهله، وكذا كان حب أصحاب رسول الله ﷺ له، وذلك واجبهم وواجب كل مؤمن ومؤمنة، وهو من دلائل إيمان العبد.

٧ ـ أن أصحاب رسول الله ﷺ هم أحب الخلق إلى الله ورسوله، ممن يضعهم الله ـ تعالى ـ في محك الامتحان.

٨ ـ مشروعية القنوت في الصلاة للدعاء على الظلمة، ولرفع البلاء النازل على المؤمنين.

[ملخصاً من: فقه السيرة للبوطي؛ هذا الحبيب محمد ﷺ يا محب، فقه السيرة للغزالي.]

المبحث الخامس: غزوة بني النَّضِيْر

أولاً: تاريخ غزوة بني النضير:

انظر الملحق (٧) ـ الخريطة

روى عبد الرزاق من حديث الزهري، والحاكم، من حديث عروة، أنها كانت بعد غزوة بدر الكبرى. وذكر البخاري في رواية معلقة من الترجمة عن عروة أنها كانت على رأس ستة أشهر من بدر، قبل وقعة أحد. وذكر ابن حجر [في الفتح]، أن عبد الرزاق قد وصلها في مصنفه عن معمر عن الزهري بأتم مما عند البخاري، وقد رواه البيهقي من هذا الطريق. وروى البيهقي [في الدلائل]، رواية عن الزهري عن عقيل بمثل رواية البخاري وعبد الرزاق.

ثانياً: سبب الغزوة:

تشير المصادر إلى ثلاثة أسباب لهذه الغزوة:

الأول: أرادت بنو النضير قتل الرسول ﷺ بعد بدر الكبرى عندما حرضتهم قريش على ذلك.

الثاني: محاولتهم قتل الرسول ﷺ عندما جاءهم ليستعين بهم في دية الكلابيين اللذين قتلهما الضمري.

الثالث: حضهم قريشاً على قتال الرسول ﷺ، ودلالتهم على العورة.

تقول المصادر عن السبب الأول: إن قريشاً أرسلت إلى اليهود، وهددتهم بالحرب إن لم يقاتلوا الرسول ﷺ، فاستجاب بنو النضير لذلك، ووضعوا خطة يقتلون بها الرسول ﷺ غدراً. فقد طلبوا منه أن يخرج إليهم في ثلاثين رجلاً من أصحابه ليلتقي بثلاثين من أحبارهم في موضع وسط ليحدثهم، فإن صدقوه آمنت يهود. فلما جاؤوا قريباً من المكان اقترحوا على النبي ﷺ أن يجتمع ومعه ثلاثة من أصحابه وثلاثة من أحبارهم، وقد حمل هؤلاء اليهود الثلاثة خناجرهم، ولكن امرأة منهم أفشت سرهم لأخ لها مسلم، فأخبر النبي ﷺ، فرجع عنهم، ثم استعد، وحاصرهم بجنوده حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما حملت الإبل إلا السلاح [عبدالرزاق، بإسناد صحيح].

أما السبب الثاني فتقول عنه المصادر: إن النبي ﷺ عندما ذهب إليهم في دية الكلابيين، لما كان بينه وبينهم من الحلف، جلس إلى جدار لهم في انتظارهم؛ ليأتوا بما وعدوا به من المساهمة في الدية، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه، فاتفقوا على أن يعلو عمرو بن جِحَاش ذلك الجدار، فيلقي صخرة على الرسول ﷺ فيقتله، فأخبر الله رسوله بما أرادوا، فخرج راجعاً إلى المدينة. وعندما تأخر عن أصحابه الذين كانوا معه، سألوا عنه، فعلموا رجوعه إلى المدينة، فأتوه فأخبرهم الخبر، ثم أمر بالتهيؤ لحربهم، والسير إليهم، ومحاصرتهم، فنزلوا على الصلح بعد حصار دام ست ليال، على أن لهم ما حملت الإبل [ابن إسحاق، مرسلاً، يتقوى بغيره].

أما السبب الثالث فقد انفرد به موسى بن عقبة [ابن حجر: الفتح]، حيث قال: «كانت [بنو] النضير قد دسوا إلى قريش، وحضُّوهم على قتال رسول الله ﷺ ودلُّوهم على العورة». وقال: إن ذلك كان عندما نزلوا بأُحد لقتال رسول الله ﷺ [البيهقي: الدلائل، من حديث ابن عقبة مرسلاً].

ولعل الدكتور العمري [في المجتمع المدني] لم يطلع على الرواية التي عند البيهقي وما فيها من الزيادة على رواية موسى بن عقبة عند ابن حجر، وهذه الزيادة هي: «حين نزلوا بأحد. . .»، ولذا قال العمري: إن رواية موسى بن عقبة لم تحدد وقتاً للأعمال التي ارتكبها اليهود ضد المسلمين، ولعله يقصد أعمالاً معينة.

ومن المعروف أنهم حرَّضوا المشركين على قتال المسلمين فكانت أُحد، وأعانوا أبا سفيان في إغارته على أطراف المدينة مما أدى إلى مطاردة المسلمين له فيما عرف بـ«غزوة السويق»، وأنّ كعب بن الأشرف كان يقرض الشعر في هجاء المسلمين وتحريض قريش عليهم. كل هذا يدل على حالهم مع المسلمين إلى أن كانت محاولتهم قتله، وتسبب ذلك في قرار لوضع حد لممارساتهم الإجرامية، فكان القرار طردهم من المدينة [نفسه].

ثالثاً: الإنذار:

عندما صدر منهم ما صدر طلب منهم الرسول ﷺ الخروج من المدينة خلال عشرة أيام، فمن رأوه بعد ذلك ضربت عنقه.

وعندما استعدوا للخروج حرضهم عبد الله بن أُبيّ بن سلول على عدم الخضوع، ومناهم بالوقوف إلى جانبهم، فأعلنوا العصيان، فحاصرهم المسلمون [ابن إسحاق، وابن سعد؛ والواقدي]، وقد أشارت آيات في سورة الحشر إلى هذا، مثل قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ . . .﴾ [الحشر: ١١] [الطبري: التفسير؛ وابن إسحاق؛ بأسانيد تتقوى بالمتابعة].

رابعاً: الجلاء وشروطه:

ثبت في الصحيح [البخاري] أن الرسول ﷺ أجلى بني النضير عندما حاربوا، وفصلت الكتب الأخرى ـ وخاصة كتب المغازي والسير ـ كيفية هذا الجلاء، ونوعية الحرب التي حاربوها.

وصح أن الرسول ﷺ حاصرهم بالكتائب، وقال لهم: «إنكم لا تأمنون عندي إلا بعهد تعاهدوني عليه، فأبوا أن يعطوه عهداً، فقاتلهم يومهم ذلك، هو والمسلمون، ثم غدا الغد على بني قريظة بالخيل والكتائب، وترك بني النضير، ودعاهم إلى أن يعاهدوه، فعاهدوه، فانصرف عنهم، وغدا إلى بني النضير بالكتائب، فقاتلهم حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلت الإبل إلا الحلْقة ـ السلاح ـ فجاءت بنو النضير، واحتملوا ما أقلت الإبل من أمتعتهم، وأبواب بيوتهم، فكانوا يخربون بيوتهم، فيهدمونها، فيحملون ما وافقهم من خشبها» [عبدالرزاق؛ وأبوداود والبيهقي في الدلائل].

وقد ثبت بنص القرآن [﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ...﴾ روى البخاري أنها نزلت عندما حرق، وقطع الرسول ﷺ نخل بني النضير، وهي البويرة.] أن النبي ﷺ حر،ق وقطع بعض نخل بني النضير خلال مدة الحصار، وثبت في الحديث الشريف [أحاديث البخاري في باب بني النضير، المصدر نفسه، وسنن الترمذي، وسنن ابن ماجه] أن النبي ﷺ حرق، وقطع بعض نخل بني النضير خلال مدة الحصار.

وتذكر بعض الروايات أنهم أُجْلُوا إلى الشام [عبدالرزاق، بسند صحيح] والبعض الآخر يذكر أنهم توجهوا إلى خيبر [ابن هشام]. وفي رواية ابن إسحاق ما يجمع بين هذه الروايات، حيث قال: «فخرجوا إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، فكان أشرافهم من سار منهم إلى خيبر: سَلَّام بن أبي الحُقَيْق، وكِنَانَة بن الربيع بن أبي الحُقَيْق، وحُيَيّ بن أَخْطَب. فلما نزلوها دان لهم أهلها». ويؤيده في ذلك الأحداث اللاحقة الثابتة بالمرويات القوية، مثل أخبار قتالهم في غزوة خيبر، وقتل كنانة، وأسر صفية، وخبر سلام بن أبي الحقيق [انظر د. العمري: المجتمع المدني].

وقد أسلم منهم اثنان، هما: يَامِين بن كعب، وأبو سعد بن وهب؛ ولذا أحرزا أموالهما [ابن إسحاق].

أما الأموال والنخيل فكانت لرسول الله ﷺ [وذلك بنص الآية ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ . . .﴾ ونزول سورة الحشر في بني النضير كما روى البخاري]، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنة، ثم يجعل ما بقي في السلاح والكُرَاع عُدَّة في سبيل الله [البخاري].

وقسم الرسول ﷺ أرضهم بين المهاجرين، ولم يعط أحداً من الأنصار سوى سهل بن حَنِيف وأبي دُجَانَة، وذلك لفقرهما [عبدالرزاق؛ وأبو داود؛ وابن إسحاق].

ولم يتوقف زعماء بني النضير عن مكائدهم بعد كل هذا، فقد حرضوا الأحزاب، فكانت غزوة الخندق [يأتي ذكرها].

خامساً: حكم وعبر من غزوة بني النضير:

١ ـ أن في إخبار الله نبيه بما يبيته اليهود للغدر به دليلاً على تكرار الغدر من اليهود، والوفاء من الله ـ تعالى ـ بوعده القاطع لرسوله ﷺ: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾، وفي هذه المعجزة وغيرها ما يجب أن يحمل الناس على الإيمان بنبوة محمد ﷺ.

٢ ـ أن قطع وإحراق الرسول ﷺ لبعض نخيل بني النضير دليل على أن الحكم الشرعي في أشجار العدو وإتلافها منوط بما يراه الإمام أو القائد من مصلحة في النكاية بالأعداء، وأن ذلك من قبيل ما يدخل تحت اسم السياسة الشرعية، وهو مذهب نافع، ومالك، والثوري، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد وإسحاق، وجمهور الفقهاء.
ورُوِيَ عن الليث وأبي ثور والأوزاعي القول بعدم جواز قطع شجر الكفار وإحراقه [شرح النووي على مسلم].

٣ ـ اتفق الأئمة على أن ما غنمه المسلمون من أعدائهم من دون قتال ـ وهو «الفيء» ـ يعود النظر والتصرف فيه إلى ما يراه الإمام من المصلحة، وأنه لا يجب عليه تقسيمه بين الجيش كما تقسم عليهم الغنائم التي

غنموها بعد قتال وحرب، مستدلين على ذلك بسياسته ﷺ في تقسيم فيء بني النضير، ونزول القرآن الكريم مصوباً ذلك [البوطي: فقه السيرة].

٤ ـ في موقف الرسول ﷺ من بني النضير تقرير لمبدأ أن نقض المعاهدة إعلان للحرب.

المبحث السادس: غزوة بدر الموعد

خرج رسول الله ﷺ في شعبان [عند ابن إسحاق] سنة أربع من الهجرة لموعده الذي التزم به لأبي سفيان يوم أحد ـ وكان معه ألف وخمسمائة من الصحابة وعشرة أفراس ـ ووصل إلى بدر، وانتظر بها المشركين ثمانية أيام.

أما المشركون فقد خرج بهم أبو سفيان حتى وصل إلى مر الظهران، ونزل بمياه مجنة على بعد أربعين كيلا من مكة، ثم عاد بهم بحجة أن العام عام جدب، وكان لهذا الموقف منه أثر كبير في استعادة هيبة المسلمين بعد انتكاسة أحد [ابن إسحاق؛ وابن سعد؛ والواقدي].

المبحث السابع: غزوة ذات الرِّقَاع

[اختلف في تسميتها، والراجح ما ذكره أبو موسى الأشعري في الصحيح من أنها سميت بذلك؛ لأنهم لفوا في أرجلهم الخرق بعد أن تنقبت خفافهم، إذ كان لكل ستة بعير يتعاقبون على ركوبه، انظر: البخاري].

اختلف بعض أهل الحدث وأهل المغازي والسير في تاريخ هذه الغزوة، فقد ذكر البخاري إلى أنها كانت بعد خيبر، وذهب ابن إسحاق إلى أنها بعد غزوة بني النضير، وقيل بعد الخندق سنة أربع، وعند الواقدي وابن سعد أنها كانت في المحرم سنة خمس، وجزم أبو معشر [كما ذكر ابن حجر في الفتح] أنها كانت بعد بني قريظة والخندق. والراجح عند ابن حجر ما ذهب إليه البخاري وأبو معشر؛ لأن أبا موسى الأشعري شهدها، وقد قدم من الحبشة بعد فتح خيبر مباشرة، وشهدها أبو هريرة، وقد أسلم حين فتح خيبر،

وصلى فيها رسول الله ﷺ صلاة الخوف، ولم تكن شرعت في الخندق، بل شرعت في عسفان أيام الحديبية، والحديبية كانت سنة ست.

ومال الدكتور الحكمي [مريات الحديبية]، والدكتور العمري [المجتمع المدني]، إلى ما ذهب إليه البخاري وابن حجر، والذي نميل إليه هو ما ذهب إليه الدكتور البوطي أنها قبل الخندق؛ لأن حجته الخاصة بزواج جابر قبل الخندق لا تدفع، وهي في الصحيحين، إضافة إلى أن البخاري قد ذكر رأيه معلقاً، وحجته فقط مجيء أبي موسى من الحبشة بعد خيبر، وهي حجة دفعها البوطي بترجيح تعدد الغزوة.

لم يقع في هذه الغزوة قتال بين المسلمين وغطفان، ولكنهم أخافوا بعضهم بعضاً، فصلى المسلمون صلاة الخوف.

وكانت هذه الصلاة بمنطقة نخل التي تبعد عن المدينة بيومين [البخاري].

لقد وقعت في هذه الغزوة أحداث ذات دلالات ومغزى كبير، منها:

١ ـ قصة الأعرابي:

روى البخاري ومسلم وغيرهما عن جابر أنه عندما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة في واد كثير العِضَاه، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون الشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة علق بها سيفه، قال جابر: «فنمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا، فجئناه فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: إن هذا اخترط سيفي، وأنا نائم، فاستيقظت، وهو في يده صَلْتاً، فقال لي: من يمنعك مني؟ فقلت له: الله، فها هو ذا جالس... لم يعاقبه رسول الله ﷺ. واسم الأعرابي: غَوْرَث بن الحارث».

ويذكر قتادة [في تفسير الطبري بسند صحيح]، وابن إسحاق، أن قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾ قد نزلت في هذا الأعرابي.

وفي رواية مسدد [عند ابن حجر في الفتح] عن جابر أن الأعرابي غورثاً عاهد الرسول ﷺ أن لا يقاتله، ولا يكون مع قوم يقاتلونه، فخلى سبيله، فجاء إلى أصحابه، فقال: «جئتكم من عند خير الناس».

دروس وعبر من هذه القصة:

وفي هذه القصة دليل على نبوة محمد ﷺ، وفرط شجاعته، وقوة يقينه، وصبره على الأذى، وحلمه على الجهال. وفيها جواز تفرق العسكر في النزول، ونومهم إذا لم يكن هناك ما يخافون منه [ابن حجر في الفتح].

٢ ـ قصة الحراسة:

وفي مرجعهم من غزوة ذات الرقاع، سبوا امرأة من المشركين، فنذر زوجها ألا يرجع حتى يَهْرِيقَ دماً في أصحاب محمد ﷺ، فجاء ليلاً، وقد جعل الرسول ﷺ رجلين على الحراسة أثناء نومهم، وهما عَبَّاد بن بِشْر وعمار بن ياسر، فضرب عباداً بسهم وهو قائم يصلي، فنزعه، ولم يقطع صلاته، حتى رشقه بثلاثة سهام، فلم ينصرف منها حتى سلم، فأيقظ صاحبه، فقال: «سبحان الله، هلا نبهتني، فقال كنت في سورة اقرؤها فلم أحب أن أقطعها، فلما تابع عليَّ الرمي ركعت فآذَنْتُكَ، وايْمُ الله، لولا أن أُضَيِّع ثَغْراً أَمَرَنِي رَسُولُ الله ﷺ بحفظه، لَقُطِعَ نفسي قبل أن أقطعها أو أُنْفِذَها» [البخاري معلقاً؛ وابن إسحاق، حسن].

دروس وعبر في هذا المقطع من السيرة:

في قصة هذين الصحابيين الجليلين كشف لطبيعة الجهاد الإسلامي، وكيف كان يمارسه، ويفهمه أصحاب رسول الله ﷺ. فعباد رضي الله عنه أراد أن يشغل شطراً من زمن حراسته الليلية بركعات خاشعة، يقف فيها أمام الله ـ تعالى ـ ولم يقطع صلاته لألم يشعر به، وإنما قطعها استشعاراً بمسؤولية الحراسة التي كلف بها. وهذا درس بليغ في مفهوم العبادة والجهاد عند سلفنا الصالح، ولا وجه للمقارنة بينه وبين ما عليه نحن الآن!! [البوطي: السيرة].

٣ ـ قصة جمل جابر:

روى البخاري ومسلم وغيرهما من أهل الحديث، وابن إسحاق [بسند حسن] وغيره من أهل السير عن جابر أنه عندما أبطأ في السير، وهم في طريق العودة من غزوة ذات الرقاع، سأله الرسول ﷺ عن السبب فقال: إن جمله قد أعياه، فنزل رسول الله ﷺ يحجنه بمحجنه، ثم دعاه فركب، فأصبح الجمل يسابق جمل رسول الله ﷺ وجابر يكفه عن ذلك. ثم سأله عن حالته الاجتماعية، فذكر أنه تزوج ثيباً، فقال له الرسول ﷺ: «أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك؟»، فعلل سبب زواجه من الثيب بأن له أخوات، فأحب أن يتزوج امرأة تجمعهن، وتمشطهن، وتقوم عليهن. وطلب منه الرسول ﷺ إذا قدم المدينة أن يعمل عملاً كَيِّساً، ثم قال له: أتبيع جملك؟ فوافق جابر، فاشتراه منه بأوقية، وعندما أتى بالجمل من الغد إلى الرسول ﷺ أمر الرسول بلالاً أن يعطيه الأوقية. فوزن له بلال، فأرجح له في الميزان، وعندما ولّى دعاه الرسول ﷺ ورد عليه جمله.

وفي رواية ابن إسحاق أن الرسول ﷺ قال لجابر عندما علل سبب زواجه من ثيب: «أصبت إن شاء الله»، وفيها أنه قال له: «. . . أما أنا لو قد جئنا صِرَاراً [موضع على مسافة ثلاثة أميال من المدينة المنورة على طريق العراق] أمرنا بجزور فنحرت، وأقمنا عليها يومنا ذاك، وسمعت بنا، فنفضت نمارقها» [مفردها نمرقة، وهي الوسادة الصغيرة]. فقال جابر: «والله ـ يا رسول الله ـ ما لنا من نمارق، فقال النبي ﷺ: إنها ستكون. . . وفيها قول جابر عن الأوقية التي أعطيت له: فوالله ما زال ينمى عندي، ويرى مكانه من بيتنا. . .».

درس وعبرة في هذه القصة:

في هذه القصة صورة كاملة ودقيقة لخُلق رسول الله ﷺ مع أصحابه من حيث اللطف في المعاشرة، ورقة الحديث، وفكاهة في المحاورة، ومحبة شديدة لأصحابه، والوقوف على أحوالهم، والمواساة في مشكلاتهم الاجتماعية مادياً ومعنوياً. فقد شعر الرسول ﷺ أن سبب تأخر جابر عن الركب هو ضعف جمله الذي لا يملك غيره لبؤس حاله، حيث إن والده مات

شهيداً في أحد وترك له مجموعة من البنات والأولاد ليرعاهم، وهو مقل في الرزق، فأراد الرسول ﷺ أن ينتهز هذه الفرصة ليواسيه، ويقدم له ما يستطيع من مال مبارك [البوطي: السيرة].

المبحث الثامن: غزوة دُوْمَة الجَنْدَل

يتفق جمهور أهل المغازي والسير أنها كانت في ربيع الأول سنة خمس من الهجرة، وبالتحديد لخمس ليال بقين من ربيع الأول على رأس تسعة وأربعين شهراً من الهجرة [ابن إسحاق؛ وابن سعد؛ والواقدي].

لم يذكر ابن إسحاق سببها، وذكره الواقدي وابن سعد، وخلاصته: أن رسول الله ﷺ بلغه أن بدومة الجندل جمعاً كثيراً، وأنهم يظلمون من مر بهم من الضافطة [جمع ضافط، وهو الذي يجلب المِيْرَةِ والمتاع إلى المدن، وكانوا يومئذٍ قوماً من الأنباط يحملون إلى المدينة الدقيق والزيت، النهاية (٣/ ٢٢)]، وكان بها سوق عظيم وتجار، وضَوَى إليهم قوم من العرب كثير، وهم يريدون أن يدنوا من المدينة. فندب رسول الله ﷺ الناس، فخرج في ألف من المسلمين، ومعهم دليل من بني عُذْرَة يسمى مَذْكُوراً، وقبل وصول دومة الجندل بيوم أو ليلة هجم على ماشيتهم ورعائهم، فأصاب من أصاب وهرب من هرب. وعندما وصل الخبر دومة الجندل، تفرقوا. وعندما وصلهم لم يجد أحداً في المكان، فأقام بها أياماً، وبث السرايا التي كانت ترجع بالإبل فقط، إلا سرية محمد بن مسلمة، فقد أخذ رجلاً منهم، وعرض عليه الإسلام، فأسلم. ثم عاد الرسول ﷺ إلى المدينة.

وزاد الواقدي سببا آخر لهذه الغزوة، وهو أن الرسول ﷺ أراد أن يدنو من الشام ليفزع قيصر.





الفصل التاسع

غزوة المُرَيْسِيْع (بني المُصْطَلِق)

انظر ملحق (٨) ـ الخريطة

عندما أصابت قريش ما أصابت من المسلمين في أحد تجرأ فيمن تجرأ من الأعراب على المسلمين بنو المصطلق. فقد أخذ زعيمهم الحارث بن أبي ضِرَار في جمع السلاح والرجال وتأليب القبائل المجاورة للقيام بهجوم على المدينة.

وعندما شعر الرسول ﷺ بهذه الحركة المريبة أرسل بُرَيْدَة بن الحُصَيْب الأسلمي للتأكد من نيتهم، وأظهر لهم بريدة أنه جاء لعونهم، فتأكد من نيتهم، فأخبر الرسول ﷺ بذلك [ابن سعد].

وفي يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر شعبان من السنة الخامسة للهجرة [البداية؛ والبيهقي: السنن الكبرى، من حديث ابن عقبة] خرج الرسول ﷺ من المدينة في سبعمائة مقاتل [الذهبي: المغازي] وثلاثين فرساً [الواقدي] متوجهاً إلى بني المصطلق.

ولما كان بنو المصطلق ممن بلغتهم دعوة الإسلام، واشتركوا مع الكفار في غزوة أحد، وكانوا يجمعون الجموع لحرب المسلمين، فقد روى البخاري ومسلم، أن الرسول ﷺ أغار عليهم، وهم غَارُّون ـ أي غافلون ـ وأنعامهم تُسْقَىٰ على الماء، فقتل مقاتلتهم وسبى ذراريهم، وأصاب يومئذٍ جُوَيْرِيَة بنت الحارث بن أبي ضِرَار.

ويروي ابن إسحاق ـ بإسناد ضعيف ـ أن ثمة قتالاً قد وقع على ماء المريسيع، ثم انهزم بنو المصطلق، وقتل بعضهم، وأخذ المسلمون أبناءهم ونساءهم وأموالهم، فتمت قسمة ذلك بينهم. وما في الصحيح أصح وأولى بالاحتجاج به.

ويذكر الواقدي أن المسلمين قتلوا عشرة من بني المصطلق، وأسروا سائرهم ممن وجدوه على الماء، وهم مائتا أهل بيت، وغنموا ألفي بعير وخمسة آلاف شاة. ويذكر ابن إسحاق أن الأسرى كانوا مائة أهل بيت، وهو الصحيح. ويذكر الزرقاني أنهم أكثر من سبعمائة، ولا تعارض بين القولين كما قال، لأن أهل البيت الواحد يمكن أن يكونوا أكثر من واحد [أسد الغابة].

أصيب رجل من المسلمين من بني كلب بن عوف يدعى هشام بن صُبَابَة، أخو مقيس بن صُبَابَة، وذلك أثناء المعركة، أصابه رجل من الأنصار، من رهط عُبَادَة بن الصامت، وهو يرى أنه من العدو، فقتله خطأ. وقدم مقيس من مكة مظهراً الإسلام، وطالب بدية أخيه، فأعطي الدية، ولكنه لم يكتف بهذا، بل عدا على قاتل أخيه فقتله، وفر إلى مكة مرتداً. وقد أهدر النبي ﷺ دمه يوم فتح مكة، فقتله نُمَيْلَةُ بن عبد الله، وكان من قومه [أسد الغابة؛ الإصابة، وابن إسحاق؛ والواقدي].

وخرج في هذه الغزوة جماعة من المنافقين، وقد سجل لهم التاريخ موقفين آخرين من مواقف الخزي في هذه الغزوة، أولهما: محاولتهم إثارة الفتنة والعصبية بين المهاجرين والأنصار. وثانيهما: السعي لإيذاء الرسول ﷺ بالطعن في عرضه، حين افتروا على عائشة رضي الله عنها فيما يعرف بحديث الإفك.

الموقف الأول:

حكى زيد بن أرقم رضي الله عنه وجابر بن عبد الله هذا الموقف. قال زيد: «كنت في غَزَاةٍ، فسمعت عبد الله بن أبي يقول: لا تنفقوا على من عند رسول الله ﷺ، حتى ينفضوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليخرجن الأعز منها الأذل، فذكرت لعمي ـ أو لعمر ـ فذكره للنبي ﷺ، فدعاني فحدثته، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا. فكذبني رسول الله ﷺ وصدقه، فأصابني هم لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمي: ما أردت إلى أن كذبك رسول الله ﷺ، ومقتك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ . . .﴾ [المنافقون: ١] فبعث إليّ رسول الله ﷺ،

فقال: إن الله قد صَدَّقَكَ يا زيد» [البخاري]، ولهذا قال رسول الله ﷺ عن زيد: «هذا الذي أوفى الله بِأُذُنِهِ» [نفسه]، وفي رواية: «وَفَتْ أُذُنُكَ يا غُلام» [ابن حجر: الفتح، من مرسل البصري].

أما رواية جابر رضي الله عنه فهي أكثر تفصيلاً، وقد أشارت إلى سبب ما قاله ابن أبي. قال جابر: «كنا في غزاة فَكَسَعَ [المشهور فيه: ضرب الدبر باليد أو بالرجل، انظر: القاموس المحيط (٣/ ٧٨) وابن حجر: الفتح (١٨/ ٢٨٩) وقال: إن ذلك كان شديداً عند أهل اليمن. وكذا قاله الطبري في التفسير (٢٨/ ١١٣)] رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار [اسم المهاجري عند ابن إسحاق بإسناد مرسل: جَهْجَاه بن مسعود الغِفَاري، أجير بن الخطاب، والأنصاري: سِنَان بن وَبَر الجُهني، حليف بني عوف بن الخزرج، ابن هشام (٣/ ٤٠٢)، وعند ابن حجر: جهجاه بن قيس ويقال: ابن سعيد الغفاري، الفتح (١٨/ ٢٨٩)]، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: ما بال دعوى الجاهلية؟ قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: دعوها فإنها منتنة. فسمع بذلك عبد الله بن أبي فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقام عمر فقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال النبي ﷺ: دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه. وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قدموا المدينة، ثم إن المهاجرين كثروا بعد» [متفق عليه].

وقد وردت روايات قوية [عند الترمذي والنسائي] أخرى تفيد أن ابن أُبي قال هذا الكلام في غزوة تبوك، وهو وهم، والصحيح أنه لم يشهد تبوك [ابن كثير: التفسير؛ وابن حجر: الفتح].

وأراد الرسول ﷺ أن يعالج هذا الموقف علاجاً عملياً، فلذا أمر بالرحيل فوراً، وسار بهم بقية يومهم ذلك والليل كله، ثم نهار اليوم التالي، حتى آذتهم الشمس، ثم نزلوا، وناموا من فورهم من شدة الإجهاد، وكل ذلك ليشغل الناس عن الخوض في حديث يمكن أن يؤدي إلى فتنة [ابن إسحاق، بسند حسن لغيره].

وعندما بلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول ما قاله والده، أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بد فاعلاً فمرني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر، فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: بل نترفق به، ونحسن صحبته، ما بقي معنا [ابن إسحاق وغيره]، ومنع عبد الله أباه من دخول المدينة حتى يأذن له رسول الله ﷺ بدخولها [الترمذي، بسند صحيح].

وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر حين بلغه ذلك من شأنهم: «كيف ترى يا عمر؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لأَرْعَدَتْ له آنُفٌ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته. قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري» [ابن إسحاق؛ والواقدي].

الموقف الثاني: حديث الإفك:

حاك المنافقون في هذه الغزوة حادثة الإفك، بعد أن رد الله كيدهم في المحاولة الأولى لإثارة النعرة الجاهلية، وخلاصتها:

كان قدر عائشة رضي الله عنها أن تخرج في هذه الغزوة مع الرسول ﷺ [البزار، بسند حسن كما في المجمع]. وفي طريق العودة، وقرب المدينة، نزل المسلمون للراحة، فنزلت من هَوْدَجِهَا لبعض شأنها، فلما عادت افتقدت عقداً لها، فرجعت تبحث عنه. وعندما عادت وجدت الرجال قد حملوا هودجها، ووضعوه على بعيرها، وهم يحسبونها داخله؛ لأنها كانت حينذاك خفيفة الوزن. فانتظرت في مكانها، فمر بها صَفْوَان بن المُعَطَّل السُّلَمِي، وعرفها؛ لأنه كان رآها قبل أن يفرض الحجاب، فحملها على بعيره، وانطلق بها إلى المدينة، ودخلها بعد دخول الرسول ﷺ.

لقد استغل المنافقون هذه الحالة، ونسجوا حولها قصة الإفك، وتولى

كبر ذلك عبد الله بن أبي بن سلول، وأغرى بالخوض فيه مِسْطَح بن أُثَاثَة، وحَمْنة بنت جَحْش، وحسان بن ثابت.

واغتم الرسول ﷺ بهذه الإشاعة، وأعلن على الملأ وفي المسجد ثقته بزوجته وبصاحبه ابن المعطل، وأبدى سعد بن معاذ استعداده لقتل من يخوض في هذا الافتراء إن كان من الأوس، ولم يرض سعد بن عبادة هذا القول من سعد؛ لأن أصابع الاتهام كانت تشير إلى واحد من قوم عبادة، فكادت تقع الفتنة بين الحيين، كما يريدها المنافقون. ولكن الرسول ﷺ فوت عليهم الفرصة مرة أخرى، وأطفأ نيران الفتنة.

واستأذنت عائشة النبي ﷺ لتمرض في بيت أبيها، وهناك علمت بخبر الإفك، ففارقها النوم، وهي تنتظر إعلام الله نبيه ببراءتها برؤيا صادقة، وترى أنها أقل شأناً من أن ينزل في أمرها وحي.

وبعد شهر من معاناتها ومعاناة الرسول ﷺ من هذا الحديث نزل الوحي بآيات في براءتها وموقف الناس من هذه الفرية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ . . .﴾ [النور: ١١].

وكان أبو بكر ينفق على قريبه مِسْطَح بن أُثَاثَة ـ ابن خال أبي بكر ـ فعندما خاض في تلويث سمعة عائشة أقسم ألا ينفق عليه، فنزلت الآية: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ . . .﴾ إلى قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]، فعاد أبو بكر إلى النفقة عليه، رغبة في المغفرة. [متفق عليه].

وعاتب القرآن أولئك النفر الذين وقعوا في حبائل المنافقين: حمنة، ومسطحاً وحساناً، فقال: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢].

وسجل القرآن ذلك الموقف الرائع لأولئك النفر من المؤمنين الذين وقفوا من هذا الإفك موقف المؤمن اليقظ والواثق ثقة كبيرة بآل بيت النبوة الذين طهروا من الدنس والأرجاس، منهم أبو أيوب الأنصاري وأم أيوب، فقد نزل في هؤلاء قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور: ١٦].

روى الواحدي وابن الجوزي [في تفسيريهما] بإسناد متصل إلى عائشة رضي الله عنها في سبب نزول هذه الآية: «كان أبو أيوب الأنصاري حين أخبرته امرأته وقالت: يا أبا أيوب ألم تسمع بما تحدث الناس؟ قال: ما يتحدثون؟ فأخبرته بقول أهل الإفك، فقال: ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم، قالت: فأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾.

وروى البخاري أن رجلاً من الأنصار عندما سمع هذه الفرية، قال: «سبحانك ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك هذا بهتان عظيم».

وقال ابن حجر في الشرح: «وقع عند ابن إسحاق أنه أبو أيوب الأنصاري، وأخرجه الحاكم من طريقه، وأخرجه الطبراني في مسند الشاميين، وأبو بكر الآجري في طرق الإفك من طريق عطاء الخراساني عن الزهري عن عروة عن عائشة... ويلحظ أن الآية التي أشار إليها ابن إسحاق هي التي فيها: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾﴾ [النور: ١٢]، وليست التي فيها: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]. وعموماً فالمعنى واحد، وقد نزلتا في وقت واحد وبمناسبة واحدة، فليس ببعيد أن من بين أسباب نزولها موقف أبي أيوب وأم أيوب. وقد وافق الواقدي ابن إسحاق، وزاد بصيغة التمريض أنها نزلت في أم الطفيل وزوجها أُبَي بن كعب.

وفي تفسير سُنَيد من مرسل سعيد بن جبير أن سعد بن معاذ لما سمع ما قيل في أمر عائشة، قال: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [ابن حجر: الفتح].

وخلاصة الأمر أن رواية الواحدي تتقوى برواية الآجري وابن إسحاق والواقدي، ويكون الخبر على أقل تقدير حسناً لغيره [قريبي: مرويات غزوة بني المصطلق].

وأقام الرسول ﷺ حد القذف على حسان ومسطح وحمنة [رواه البزار بإسناد حسن، كما قال الهيثمي في المجمع (٩/ ٢٣٠)، والبيهقي في السنن الكبرى بإسناد حسن (٨/ ٢٥٠). وللدكتور خالد الدريس بحث غير منشور، خلص فيه إلى أن روايات جلد هؤلاء لم تثبت بطرق يحتج بها]. أما عبد الله بن أبي بن سلول

الذي تولى كبر الإفك فلم يقم عليه الحد؛ لأنه لم يترك دليلاً ضده، إذا كان يستوشيه ـ أي يستخرجه بالبحث والمسألة، ثم يفشيه، ويشيعه، ويحركه، ولا يدعه يخمد [مسلم].

وعندما عاد الرسول ﷺ جاءته جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، وذكرت له مكانتها في قومها، وطلبت منه أن يعينها في قضاء كتابها لعتق رقبتها من ثابت بن قيس بن الشَّمَّاس الذي وقعت في سهمه. فعرض عليها الرسول ﷺ أن يقضي عنها كتابتها، ويتزوجها، فقبلت.

فلما علم الناس بذلك أعتقوا من بأيديهم من السبي، وهم مائة أهل بيت، إكراماً لإصهار الرسول ﷺ فيهم، «فما كانت امرأة أعظم على قومها بركة منها» [ابن إسحاق؛ بسند حسن]. وكان عتقها صداقها، كما هو واضح من الخبر.

وقدم والدها الحارث إلى المدينة، وطلب من الرسول ﷺ أن يخلي سبيلها، فأذن له أن يخيرها، فاختارت البقاء مع رسول الله ﷺ [تاريخ ابن خياط، بسند مرسل رجاله ثقات].

وأسلم الحارث بن أبي ضرار وقومه، وولاه الرسول ﷺ على صدقات قومه [أحمد: المسند، بسند حسن].

أحكام وعبر في غزوة المريسيع:

١ ـ مشروعية تقسيم الغنائم بين المقاتلين بعد استثناء السلب والخمس من الغنيمة.

٢ ـ دلت معالجة الرسول ﷺ للمشكلة التي حاول ابن سلول استغلالها على حسن سياسة الرسول ﷺ في تدبير الأمور، وتجنب المشاكل، وتفويت الفرص على المغرضين المندسِّين بين صفوف المؤمنين. وكان نتيجة ذلك أن جافى ابن سلول قَوْمُهُ، فكانوا هم الذين يعنفونه ويفضحون دسائسه.

٣ ـ كانت قصة الإفك حلقة من سلسلة فنون الإيذاء والمحن التي لقيها رسول الله ﷺ من أعداء الدين. وكان من لطف الله ـ تعالى ـ بنبيه

وبالمؤمنين أن كشف الله زيفها وبطلانها، وسجل التاريخ بروايات صحيحة مواقف المؤمنين من هذه الفرية، لا سيما موقف أبي أيوب وأم أيوب، وهي مواقف يتأسى بها المؤمنون عندما تعرض لهم في حياتهم مثل هذه الفرية. فقد انقطع الوحي، وبقيت الدروس التي تركها لنا؛ لنستفيد منها، ونقوم بها المواقف المماثلة.

٤ ـ جاءت محنة الإفك منطوية على حكمة إلهية استهدفت إبراز شخصية النبي ﷺ وإظهارها صافية مميزة عن كل ما قد يلتبس بها، فلو كان الوحي أمراً ذاتياً غير منفصل عن شخصية الرسول ﷺ لما عاش الرسول ﷺ تلك المحنة بكل أبعادها شهراً كاملاً. ولكن الحقيقة التي تجلت للناس بهذه المحنة أن ظهرت بشرية الرسول ﷺ ونبوته. فعندما حسم الوحي اللغط الذي دار حول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عادت المياه إلى مجاريها بينها وبين الرسول ﷺ، وفرح الجميع بهذه النتيجة بعد تلك المعاناة القاسية، فدل ذلك على حقيقة الوحي، وأن الأمر لو لم يكن من عند الله ـ تعالى ـ لبقيت رواسب المحنة في نفس الرسول ﷺ بصفة خاصة ولانعكس ذلك على تصرفاته مع زوجته عائشة رضي الله عنها. وهكذا شاء الله أن تكون هذه المحنة دليلاً كبيراً على نبوة محمد ﷺ.

٥ ـ بينت هذه القصة مشروعية حد القذف الذي أقيم على من ثبتت إدانته، وبينت حرمة قذف المحصنات المؤمنات، وكذا المحصن المؤمن، وأنه من كبائر الذنوب، وعقوبته ثمانون جلدة.

٦ ـ بيان مشروعية الاقتراع والأخذ بنتائجه بدل التخيير لما فيه من تطييب النفوس، كما في خبر إقراع الرسول ﷺ بين نسائه عند السفر.

٧ ـ مشروعية أخذ المجاهد امرأته للجهاد إذا كانت الظروف مواتية لذلك.

٨ ـ أن نزول ست عشرة آية من سورة النور، تبدأ بقوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ وتنتهي بقوله ـ تعالى ـ: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، في تكذيب من قذف عائشة، من أبرز الأدلة على فضل عائشة رضي الله عنها. ولم يقع في القرآن الكريم التغليظ في معصية مثلما وقع في قصة الإفك ـ انظر ابن حجر: الفتح (١٨/ ٨٦).



الفصل العاشر

غزوة الخندق (الأحزاب)

انظر ملحق (٩) - الخريطة

تاريخ الغزوة:

وقعت هذه الغزوة في شوال سنة خمس كما قال ابن إسحاق ومن تابعه، وهو قول الجمهور وقال الواقدي: إنها وقعت في يوم الثلاثاء الثامن من ذي القعدة في العام الخامس الهجري، وقال ابن سعد: إن الله استجاب لدعاء الرسول ﷺ فهزم الأحزاب يوم أربعاء من شهر ذي القعدة سنة خمس من مهاجره. ونقل عن الزهري ومالك بن أنس وموسى بن عقبة أنها وقعت سنة أربع هجرية [البخاري].

سبب الغزوة:

لم تضع الحرب أوزارها بين مشركي مكة والمسلمين إلا بعد فتح مكة في العام الثامن الهجري، ولذا فمن البدهي أن تحاول قريش في كل مرة القضاء على قوة المسلمين التي ترى فيها تهديداً مستمراً لطرق قوافلها وخطراً على مكانتها بين العرب.

أرادت قريش في هذه المرة أن تحسم هذا الصراع مع المسلمين لصالحها، فحشدت له أكبر قوة ممكنة حيث لجأت إلى التحالف مع كل من له مصلحة في القضاء على المسلمين، ووجدوا أكبر ضالة لهم في يهود بني النضير الذين أجلوا عن المدينة، ووجد اليهود ضالتهم في قريش، فقد التقت أهداف الفريقين، وهو القضاء على المسلمين.

كان أول ما فكر فيه زعماء بني النضير الذين خرجوا إلى خيبر أن يتصلوا بقريش والقبائل الأخرى للثأر لأنفسهم والطمع في العودة إلى ديارهم

وأملاكهم في المدينة. فخرج وفد منهم إلى مكة، منهم: سلام بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، وكنانة بن أبي الحقيق النضريون، وهوذة بن قيس، وأبو عمار الوائليان، في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل، فدعوا قريشاً إلى حرب رسول الله ﷺ ووعدوهم بالقتال معهم، حتى يستأصلوه، وأفتوهم بأن دينهم خير من دين محمد ﷺ، وأنهم أولى بالحق منه، وفيهم أنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء: ٥١] [ابن إسحاق، والبداية، وتفسير الطبري]. ثم اتجهوا بعد هذا إلى قبيلة غطفان النجدية الكبرى، وأغروها بالتحالف معهم ومع قريش على حرب المسلمين [ابن كثير في التفسير من حديث ابن إسحاق بسند حسن]، على أن يكون لهم نصف ثمر خيبر، إذا اشتركت معهم في الحرب، [الواقدي] وكان وافدهم إلى غطفان كِنَانة بن الرَّبِيع بن أبي الحُقَيق، فأجابه عُيَينَة بن حِصْن الفَزَاري إلى ذلك [البيهقي في الدلائل، وابن حجر في الفتح من حديث ابن عقبة].

وكتب المشركون إلى حلفائهم من بني أسد، فأقبل إليهم طلحة بن خويلد فيمن أطاعه، وخرج أبو سفيان بقريش ومن اتبعه من قبائل العرب، فنزلوا بمر الظهران، فجاءهم من أجابهم من بني سليم مدداً لهم بقيادة سفيان بن عبد شمس والد أبي الأعور [المصدران نفساهما]، وبنو مرة بقيادة الحارث ابن عوف، وأشجع بقيادة مِسْعَر بن رُخَيْلَة [ابن إسحاق]. وسارت مع قريش الأحابيش ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة [نفسه]، فصاروا في جمع عظيم، فهم الذين سماهم الله ـ تعالى ـ الأحزاب [ابن هشام]، وذكر ابن إسحاق أن عدتهم عشرة آلاف بينما كان المسلمون ثلاثة آلاف.

تحرك هذا الجيش العرمرم من مر الظهران في طريقه إلى المدينة. فنزلت قريش ومن سار معها بمجتمع الأَسْيَال من رُومة، بين الجُرُف وزُغابة، ونزلت غطفان بذَنب نَقَمَى إلى جانب أحد [ابن إسحاق]، ونزل معهم بنو أسد [البيهقي في الدلائل، وابن حجر في الفتح من حديث ابن عقبة].

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ وما أجمعوا له من الأمر، استشار أصحابه، وأشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق [ابن سعد؛ والواقدي، ابن

حجر: الفتح من حديث أبي معشر] في المنطقة الوحيدة المكشوفة أمام الغزاة، أما الجهات الأخرى فكانت كالحصن تتشابك فيها الأبنية وأشجار النخيل، وتحيطها الحَرَّات التي يصعب على الإبل والمشاة التحرك فيها [البيهقي: الدلائل؛ وابن حجر: الفتح من حديث ابن عقبة مرسلاً].

ووافق الجميع على هذه الفكرة لعلمهم بكثرة الجموع القادمة لحربهم، وشرعوا في حفر الخندق الذي يمتد من أجم الشيخين طرف بن حارثة شرقاً حتى المَذاذ غرباً، وكان طوله خمسة آلاف ذراع، وعرضه تسع أذرع، وعمقه من سبع أذرع إلى عشر. وكان على كل عشرة من المسلمين حفر أربعين ذراعاً [تفسير الطبري؛ والمجمع، وفتح الباري، تعتضد]. حفر المهاجرون من ناحية حِصْن رَاتِج في الشرق إلى حصن ذُباب، والأنصار من حصن ذُباب إلى جبل بني عُبَيْد في الغرب [أحمد: المسند؛ وابن سعد؛ والواقدي].

وكان طعامهم أثناء الحفر القليل من الشعير يخلط بدهن متغير الرائحة لقدمه، ويطبخ فيأكلونه على الرغم من بشاعة طعمه في الحلق ورائحته المُنْتِنَة، وذلك لشدة جوعهم [البخاري]. وحتى هذا لا يجدونه أحياناً، فيأكلون التمر [ابن إسحاق]، وأحياناً لا يجدون هذا ولا ذاك لمدة ثلاثة أيام متتالية، إلى الحد الذي يعصب فيه النبي ﷺ بطنه بحجر من شدة الجوع [البخاري].

وشارك جميع المسلمين في الحفر، لا فرق بين غني وفقير ومولى وأمير، وأسوتهم في ذلك الرسول ﷺ الذي حمل التراب حتى اغبر بطنه، وواری التراب جلده، وكان الصحابة يستعينون به في تفتيت الصخرة التي تعترضهم، ويعجزون عنها، فيفتتها لهم [متفق عليه]. ويردد معهم الأهازيج والأرجاز لتنشيطهم للعمل، فيقول:

«اللهم لولا أنت ما اهتدينا
ولا تصدقنا ولا صلَّينا
فأنزلن سكينة علينا
وثبِّت الأقدام إن لاقينا

إن الألى قد بغوا علينا
وإن أرادوا فتنة أبينا»

وكان يمد بها صوته بآخرها [متفق عليه].

ويرتجز المسلمون وهم يعملون:

«نحن الذين بايعوا محمدا
على الإسلام ما بقينا أبدا»

فيجيبهم بقوله:

«اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة، فبارك في الأنصار والمهاجرة» [متفق عليه]. وربما يبدؤهم بقوله فيردون عليه بقولهم [نفسه].

من دلائل النبوة أثناء حفر الخندق:

أجرى الله ﷻ على يدي نبيه محمد ﷺ عدة معجزات أثناء حفر الخندق، ومن ذلك:

١ ـ عندما لحظ جابر بن عبد الله ﷺ ما يعانيه الرسول ﷺ من الجوع استأذنه، وذهب إلى زوجته، وأخبرها بما رأى من المَخْمَصَة على الرسول ﷺ وطلب منها أن تصنع له طعاماً، فذبح عَنَاقاً له، وطحنت زوجه صاعاً من شعير بقي لهما، وصنعت بُرْمَة، وذهب جابر فدعا النبي ﷺ إلى الطعام وساره بكمية الطعام، وأنه طُعَيم يكفي لرجل أو رجلين، فدعا النبي ﷺ كل من كان حاضراً، وعددهم ألف، وتحير جابر وزوجته، لكن الله ﷻ بارك في البرمة، فأكل منها كل الناس حتى شبعوا، وتركوا فيها الكثير الذي أكل منه أهل جابر، وأهدوا. [متفق عليه].

٢ ـ أخبر عمار بن ياسر ـ وهو يحفر معهم الخندق ـ أن ستقتله الفئة الباغية، فقتل في صفين، وكان في جيش علي [مسلم].

٣ ـ وعندما اعترضت صخرة للصحابة وهم يحفرون، ضربها الرسول ﷺ ثلاث ضربات فتفتت. قال إثر الضربة الأولى: «الله أكبر،

أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمراء الساعة، ثم ضربها الثانية، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض، ثم ضرب الثالثة، وقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذه الساعة» [أحمد: المسند؛ النسائي، بسند حسن].

وفي هذا الحديث بشارة بأن هذه المناطق سيفتحها المسلمون مستقبلاً، وكان موقف المؤمنين من هذه البشارة ما حكاه القرآن الكريم: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾، وموقف المنافقين الذين سخروا من البشارة: ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب: ١٢] [قال الواحدي: «وزعم ابن السائب أن القائل مُعَتِّب بن قُشَيْر].

وصورت الآيات من ١٣ إلى ٢٠ من سورة الأحزاب نفسية المنافقين تصويراً دقيقاً، وحكت أقوالهم في الإرجاف والتخذيل، وأساليبهم في التهرب من العمل في حفر الخندق وجهاد العدو.

و مع تخذيل المنافقين وقلة الطعام وشدة البرد، فقد تم حفر الخندق ليكون خط دفاع متينا؛ ثم جمع النساء والأطفال وأصحاب الأعذار في حصن فَارِع [مسلم]، وهو لبني حارثة؛ لأنه كان أمنع حصون المسلمين آنذاك [ابن إسحاق؛ الطبراني، برجال ثقات كما في المجمع؛ الواقدي].

وكانت خطة المسلمين أن يكون ظهرهم إلى جبل سَلْعٍ في داخل المدينة [ابن إسحاق] ووجوههم إلى الخندق الذي يحجز بينهم وبين المشركين الذين نزلوا رومة بني الجرف والغابة ونقمى [الطبري: التفسير، من مرسل عروة].

وعندما نظر الرسول ﷺ في حال العدو وحال المسلمين، ورأى ضعف المسلمين وقوة المشركين، أراد أن يكسر شوكة المشركين، فبعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة زعيمي الأنصار، فاستشارهما في الصلح الذي عرضته عليه قبيلة غطفان ، وهو أن يعطوا ثلث ثمار المدينة لعام؛ كي ينصرفوا عن قتال المسلمين، ولم يبق إلا التوقيع على صحيفة الصلح، فقالا له: «لا والله

ما أعطينا الدنية من أنفسنا في الجاهلية، فكيف وقد جاء الله بالإسلام». وفي رواية الطبراني أنهما قالا: «يا رسول الله: أوحي من السماء فالتسليم لأمر الله، أو عن رأيك أو هواك؟ فرأينا تبع هواك ورأيك، فإن كنت إنما تريد الإبقاء علينا، فوالله لقد رأيتنا وإياهم على سواء، ما ينالون منا ثمرة إلا شراء أو قرى». فقطع رسول الله ﷺ المفاوضة مع الأعراب الذين كان يمثلهم الحارث الغطفاني، قائد بني مُرَّة [البزار، والطبراني، بإسنادين حسنين؛ وابن إسحاق؛ وابن سعد؛ وابن أبي شيبة في المصنف].

وفي الجانب الآخر أراد يهود بني النضير أن يجروا معهم إخوانهم يهود بني قريظة إلى نقض العهد والغدر بالمسلمين والوقوف مع الأحزاب، فأوفدوا حيي بن أخطب للقيام بهذه المهمة، فجاء حيي إلى كعب بن أسد القرظي. وبعد حوار طويل بينهما أقنعه بنقض العهد مع المسلمين بحجة قوة الأحزاب ومقدرتهم على استئصال المسلمين، وأغراه بأن يدخل معه حصنه عندما ينصرف الأحزاب، بعد أداء مهمتهم [ابن إسحاق، والبيهقي: الدلائل، من حديث ابن عقبة].

وكان يوماً عصيباً من الدهر ذلك اليوم الذي علم فيه المسلمون نقض بني قريظة ما بينهم وبين المسلمين من عهد. وتكمن خطورة ذلك في موقعهم الذي يمكنهم من تسديد ضربة غادرة للمسلمين من الخلف؛ فقد كانت ديارهم في العوالي، إلى الجنوب الشرقي للمدينة على وادي مهزور [الحموي: معجم البلدان].

لقد أتاه الزبير بما يدل على غدرهم، ويومها قال له الرسول ﷺ: «فداك أبي وأمي، إن لكل نبي حوارياً، وحواريِّي الزبير» [متفق عليه]. ولزيادة الحيطة والحذر، والتأكد من مثل هذه الأمور الخطيرة، أرسل الرسول ﷺ سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وخَوَّات بن جُبَيْر، فجاءوا إلى بني قريظة، وتحدثوا معهم، ووجدوهم قد نكثوا العهد، ومزقوا الصحيفة التي بينهم وبين الرسول ﷺ إلا بني سَعْيَة [ابن إسحاق]، فإنهم جاؤوا إلى المسلمين وفاء بالعهد. وعاد رسل المسلمين إلى الرسول ﷺ بالخبر اليقين [ابن إسحاق؛ دلائل البيهقي، من حديث ابن عقبة؛ وابن سعد؛ والواقدي].

وعندما شاع هذا الخبر خاف المسلمون على ذراريهم من بني قريظة [نفسه]، ومروا بوقت عصيب وابتلاء عظيم، ونزل القرآن واصفاً هذه الحالة: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١]. [ابن إسحاق؛ والطبري: التفسير، والأسانيد تعتضد].

فالذين جاؤوهم من فوقهم هم الأحزاب، وبنو قريظة من أسفل منهم، والذين ظنوا بالله الظنونا هم المنافقون. أما المؤمنون فقد صمدوا لهذا الامتحان، واتخذوا كل الوسائل الممكنة لاجتياز الامتحان، فنظموا فرقاً للحراسة، فكان سلمة بن أسلم الأوسي أميراً لمائتي فارس، وزيد بن حارثة أميراً لثلاثمائة فارس، يطوفون المدينة، ويكبرون لإشعار بني قريظة باليقظة حتى لا تحدثهم أنفسهم بأن يغدروا بالذرية التي في الحصون [ابن سعد؛ الواقدي].

وعندما وصلت الأحزاب إلى المدينة فوجئوا بوجود الخندق، فقاموا بعدة محاولات لاقتحامه، ولكنهم أخفقوا؛ لأن المسلمين كانوا يمطرونهم بوابل سهامهم كلما هموا بذلك، ولذا استمر الحصار مدة أربع وعشرين ليلة [ابن سعد، من مرسل ابن المسيب، وهو قوي].

وذكر ابن إسحاق وابن سعد أن بعض المشركين اقتحموا الخندق، وعد ابن إسحاق منهم: عَمْرو بن عبد وُدّ، وعكرمة بن أبي جهل، وهُبَيْرَة بن أبي وهب وضِرَار بن الخَطَّاب الشاعر بن مِرْدَاس، وزاد ابن سعد واحداً على هؤلاء وهو: نَوْفَل بن عبد الله. وذكر أن علياً بارز عمرو بن عبد ود ـ فارس قريش ـ وقتله، وأن الزبير قتل نوفلاً المخزومي، وأن الثلاثة الآخرين فروا إلى معسكرهم.

وظلت مناوشات المشركين للمسلمين وتراشقهم معهم بالنبل دون انقطاع طيلة مدة الحصار، حتى إنهم شغلوا المسلمين يوماً عن أداء صلاة العصر، فصلوها بعد الغروب [البخاري]. وذلك قبل أن تشرع صلاة الخوف، حيث شرعت في غزوة ذات الرقاع [البخاري] على رأي من يرى أن ذات الرقاع كانت بعد غزوة الخندق.

وقتل في هذه المناوشات ثلاثة من المشركين، واستشهد ستة من المسلمين [ابن إسحاق؛ وابن سعد، والواقدي] منهم سعد بن معاذ الذي أصيب في أَكْحَلِهِ ـ عِرْقٌ في وسط الذراع ـ رماه حِبَّان بن العَرِقَة. وقد نصبت له خيمة في المسجد؛ ليعوده الرسول ﷺ من قريب، ثم مات بعد غزوة بني قريظة، حين انتقض جرحه [البخاري]. وكانت تقوم على تمريضه رُفَيدة الأسلمية [ابن إسحاق]. وكان قد دعا الله أن يبقيه لحرب قريش إن كان قد بقي منها شيء ليجاهد فيهم، وأن يفجر جرحه فيموت إن كان الله قد وضع الحرب بين قريش والمسلمين ـ إشارة ـ إلى هذه الحرب، فانفجر جرحه، فكان سبب موته [البخاري] وزاد ابن إسحاق أنه دعا الله قائلاً: «ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة».

وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم الخندق وبني قريظة: «حم، لا ينصرون» [ابن إسحاق؛ وأبو داود؛ والترمذي؛ وأحمد: المسند؛ والحاكم؛ ويصح الخبر بشواهده ومتابعته].

لقد كفى الله المؤمنين القتال، فهزم الأحزاب بوسيلتين: الأولى: تسخير الله نُعَيْم بن مسعود ليخذِّل الأحزاب، والثانية: الرياح الهوجاء الباردة.

١ ـ عمل نُعَيم بن مسعود:

روى ابن إسحاق، والواقدي، وعبد الرزاق، وموسى بن عقبة [البيهقي: الدلائل، مرسلاً عن الزهري] أن نعيم بن مسعود الغطفاني، أتى النبي ﷺ مسلماً، وعرض عليه أن يقوم بتنفيذ أي أمر يريده النبي ﷺ فقال له: «إنما أنت رجل واحد فينا، ولكن خذل عنا إن استطعت؛ فإن الحرب خُدْعَة» [والحرب خدعة، حديث متفق عليه].

وقبل أن يُعرف إسلام نعيم أتى بني قريظة، فأقنعهم بعدم التورط مع قريش في قتال حتى يأخذوا منهم رهائن، لكيلا يولوا الأدبار، ويتركوهم وحدهم يواجهون مصيرهم مع المسلمين بالمدينة، ثم أتى قريشاً، فأخبرهم أن بني قريظة قد ندموا على ما فعلوا، وأنهم قد اتفقوا سراً مع رسول الله ﷺ

على أن يختطفوا عدداً من أشراف قريش وغطفان، فيسلموهم له ليقتلهم دليلاً على ندمهم، وقال لهم: فإن أرسلت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فإياكم أن تسلموهم رجلاً منكم، ثم أتى غطفان، وقال لهم مثل الذي قاله لقريش. وبذلك زرع بذور الشك بينهم، وأخذ كل فريق يتهم الفريق الآخر بالخيانة.

٢ ـ معجزة الرياح والبرد:

هبت ريح هوجاء في ليلة مظلمة باردة، فقلبت قدور المشركين، واقتلعت خيامهم، وأطفأت نيرانهم، ودفنت رحالهم، فما كان من أبي سفيان إلا أن ضاق بها ذرعاً فنادى في الأحزاب بالرحيل [ابن سعد؛ والبيهقي: الدلائل، من مرسل ابن عقبة]. وكانت هذه الريح من جنود الله الذين أرسلهم على المشركين، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾ [الأحزاب].

وروى مسلم بسنده عن حذيفة بن اليمان طرفاً مما حدث في تلك الليلة الحاسمة، قال حذيفة: «لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريح شديدة وَقُرٌّ، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجل يأتيني بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة»، فسكتنا، فلم يجبه منا أحد، . . . (ردد ذلك ثلاثاً) ثم قال: قم ـ يا حذيفة ـ فَأْتِنا بخبر القوم، فلم أجد بُدًّا إذ دعاني باسمي أن أقوم. قال: اذهب فأتني بخبر القوم، ولا تَذْعَرْهُمْ عليَّ. فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حَمَّام، حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يُصْلي ظهره بالنار، فوضعت سهماً في كَبِدِ القوس، فأردت أن أَرْمِيَهُ، فذكرت قول رسول الله ﷺ: «ولا تَذْعَرْهُمْ عليَّ»، ولو رَمَيْتُهُ لأصبته، فرجعت، وأنا أمشي في مثل الحمام. فلما أتيته، فأخبرته بخبر القوم، وفَرَغْتُ، قُرِرْتُ، فألبسني رسول الله ﷺ من فَضْلِ عَبَاءَةٍ كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائماً حتى أصبحت، فلما أصبحت قال: قُمْ يا نَوْمَانُ».

وزاد ابن إسحاق [من مرسل القرظي] في روايته لهذا الخبر: « . . .

فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل لا تُقِرُّ لهم قِدْراً ولا ناراً ولا بناء، فقام أبو سفيان، فقال: يا معشر قريش لينظر امرؤ من جليسه؟ فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جانبي فقلت له: من أنت؟ قال: فلان بن فلان. ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم ـ والله ـ ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون. . . فارتحلوا؛ فإني مرتحل».

وفي رواية الحاكم [صححها ووافقه الذهبي] والبزار [برجال ثقات، كما في المجمع]: «. . . فانطلقت إلى عسكرهم فوجدت أبا سفيان يوقد النار في عُصْبَة حوله، قد تفرق الأحزاب عنه، حتى إذا جلست فيهم، فحسب أبو سفيان أنه دخل فيهم من غيرهم، قال: ليأخذ كل رجل منكم بيد جليسه، فضربت بيدي على الذي يميني وأخذت بيده، ثم ضربت بيدي على الذي عن يساري فأخذت بيده، فلبثت هُنَيهة، ثم قمت، فأتيت رسول الله ﷺ. . . قلت: يا رسول الله، تفرق الناس عن أبي سفيان، فلم يبق إلا عصبة توقد النار، قد صب الله عليه من البرد مثل الذي صب علينا، ولكنا نرجو من الله ما لا يرجون».

وختم الله هذا الامتحان الرهيب بهذه النهاية السعيدة، وجنَّب المسلمين شر القتال، قال ـ تعالى ـ معلقاً على هذه الخاتمة: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأحزاب].

وكانت هذه الخاتمة استجابة لضراعة النبي ﷺ إلى الله أثناء محنة الحصار: «اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم» [مسلم].

لقد بذلت الأحزاب أقصى ما يمكنهم لاستئصال المسلمين، ولكن الله ردهم خائبين، وهذا يعني أنهم لن يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً في المستقبل، ولذا قال الرسول ﷺ: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم» [البخاري] وهذا عَلَمٌ من أعلام النبوة؛ لأن الذي حدث بعد هذا هو ما ذكره الرسول ﷺ.

حكم وعبر في غزوة الخندق:

١ ـ أن حفر الخندق يدخل في مفهوم المسلمين لقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، فينبغي للمسلمين اتخاذ وسائل القوة المتاحة مهما كان مصدرها؛ لأن الحكمة ضالة المؤمن، فحيثما وجدها التقطها.

٢ ـ لقد ضرب الرسول ﷺ المثل الأعلى للحكام والمحكومين في العدالة والمساواة وعدم الاستئثار بالراحة يوم وقف جنباً إلى جنب مع أفراد جيشه؛ ليعمل بيده في حفر الخندق. وهذه هي صفة العبودية الحقة التي تجلت في شخصية الرسول ﷺ.

٣ ـ أعطى الرسول ﷺ مثلاً آخر على رأفته بالمؤمنين، يوم شاركهم في حفر الخندق ويوم أشركهم معه في طُعَيم جابر، ولم يستأثر به مع قلة من الصحابة. وفي ضوء هذه المعاني يفهم قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

٤ ـ أن مجموعة المعجزات التي أجراها الله على يد نبيه محمد ﷺ أيام الخندق، سواء التي كانت في حفر الخندق أو تكثير طعيم جابر أو الرياح التي كانت نقمة على المشركين، تعد مجموعة أخرى في سلسلة المعجزات الكثيرة التي أيد الله بها نبيه، ليقطع الحجة لدى المعاندين من المنافقين والمشركين وكل صنف من أصناف أعداء الدين. وقد أفردنا فصلاً لها.

٥ ـ أن الحكمة في استشارته ﷺ لبعض أصحابه في الصلح الذي اقترحته غطفان على الرسول ﷺ، هو أن الرسول ﷺ كان يريد أن يطمئن إلى مدى ما يتمتع به أصحابه من القوة المعنوية والاعتماد على نصر الله وتوفيقه بعد الذي فوجئوا به من اجتماع أشتات المشركين عليهم في كثرة ساحقة، إلى جانب خذلان بني قريظة للمسلمين، ونقض مواثيقهم معهم.

٦ ـ وأما الدلالة التشريعية في هذه الاستشارة، فهي محصورة في مجرد

مشروعية مبدأ الشورى في كل ما لا نص فيه. وهي بعد ذلك لا تحمل أي دلالة على جواز صرف المسلمين أعداءهم عن ديارهم إذا ما اقتحموها، باقتطاع شيء من أرضهم أو خيراتهم لهم؛ إذ إن مما هو متفق عليه في أصول الشريعة الإسلامية أن الذي يحتج به من تصرفاته ﷺ إنما هو أقواله، وأفعاله التي قام بها، ثم لم يرد اعتراض عليها من الله في كتابه العزيز.

وليس في هذه الاستشارة دليل على جواز دفع المسلمين الجزية إلى أعدائهم. أما إذا ألجئوا إلى اقتطاع جزء من أموالهم فعليهم التربص بأعدائهم لاسترداد حقهم المسلوب [انظر: البوطي: السيرة].

٧ ـ عندما شغل المشركون الرسول ﷺ وأصحابه عن صلاة العصر، صلوها قضاء بعد المغرب، وفي هذا دليل على مشروعية قضاء الفائتة.





الفصل الحادي عشر

غزوة بني قُرَيْظَة

انظر ملحق (١٠) الخريطة

وقعت هذه الغزوة بعد غزوة الأحزاب مباشرة، في آخر ذي القعدة وأول ذي الحجة من السنة الخامسة الهجرية [ابن سعد؛ وابن إسحاق].

وواضح من سير الأحداث أن سبب الغزوة كان نقض بني قريظة العهد الذي بينهم وبين النبي ﷺ بتحريض من حُيَيٍّ بن أَخْطَب النَضْرِي [عبد الرزاق]. وقد سبق أن ذكرنا من رواية الصحيحين أن الرسول ﷺ أرسل الزبير لمعرفة نيتهم، ثم أتبعه بالسعدين، وابن رواحة وخوات لذات الهدف؛ ليتأكد من غدرهم.

ولأن هذا النقض وهذه الخيانة قد جاءت في وقت عصيب، فقد أمر الله تعالى نبيه بقتالهم بعد عودته من الخندق، ووضعه السلاح [البخاري]. وامتثالاً لأمر الله أمر الرسول ﷺ أصحابه أن يتوجهوا إلى بني قريظة، وتوكيداً لطلب السرعة أوصاهم قائلاً: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»، كما في رواية البخاري، أو ـ الظهر ـ كما في رواية مسلم.

وعندما أدركهم الوقت في الطريق قال بعضهم: لا نصلي حتى نأتي قريظة، وقال البعض الآخر: بل نصلي، لم يُرِدْ منا ذلك، فَذُكِرَ ذلك للنبي ﷺ، فلم يُعَنِّفْ واحداً منهم [متفق عليه]. وهذا اجتهاد منهم في مراد الرسول ﷺ [ابن إسحاق، مرسلاً].

قال ابن حجر [في الفتح]: «... وقد جمع بعض العلماء بين الروايتين ـ البخاري ومسلم ـ باحتمال أن يكون بعضهم قبل الأمر كان صلى الظهر، وبعضهم لم يصلها، فقيل لمن لم يصلها: لا يصلين أحد الظهر، ولمن صلاها: لا يصلين أحد العصر. وجمع بعضهم باحتمال أن تكون طائفة منهم

راحت بعد طائفة فقيل للطائفة الأولى: الظهر، وقيل للطائفة التي بعدها: العصر، وكلاهما جمع لا بأس به...».

خرج الرسول ﷺ في ثلاثة آلاف مقاتل، معهم ستة وثلاثون فرساً [ابن سعد]، وضرب الحصار على بني قريظة مدة خمس وعشرين ليلة على الأرجح [أحمد: المسند، بسند جيد]، وضيق عليهم الخناق حتى عظم عليهم البلاء، فرغبوا أخيراً في الاستسلام، وقبول حكم الرسول ﷺ فيهم. واستشاروا في ذلك حليفهم أبا لبابة بن عبد المنذر رضي الله عنه، فأشار إلى أن ذلك يعني الذبح. وندم على هذه الإشارة، فربط نفسه إلى إحدى سواري المسجد النبوي، حتى قبل الله توبته [نفسه].

وعندما نزلوا على حكم الرسول ﷺ أحب أن يكل الحكم عليهم إلى واحد من رؤساء الأوس؛ لأنهم كانوا حلفاء بني قريظة، فجعل الحكم فيهم إلى سعد بن معاذ، فلما دنا من المسلمين قال الرسول ﷺ للأنصار: «قوموا إلى سيدكم أو خيركم، ثم قال: إن هؤلاء نزلوا على حكمك. قال: تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذراريهم، وتقسم أموالهم. فقال له النبي ﷺ: قضيت بحكم الله تعالى» [متفق عليه].

ونفذ الرسول ﷺ حكم الله فيهم. وكانوا أربعمائة على الأرجح. ولم ينج إلا بعضهم [متفق عليه]، وهم ثلاثة؛ لأنهم أسلموا، فأحرزوا أموالهم [ابن إسحاق، حسن لغيره]، وربما نجا اثنان آخران منهم بحصولهم على الأمان من بعض الصحابة، أو لما أبدوه من التزام بالعهد أثناء الحصار [ابن إسحاق]. وربما نجا آخرون لا يتجاوزون عدد أفراد أسرة واحدة، إذ يفهم من رواية عند ابن إسحاق وغيره [مثل أبي عبيد في الأموال] أن الرسول ﷺ وهب لثابت بن قيس بن الشَّمَّاس ولد الزُّبَيْر بن بَاطَا القُرَظِي، فاستحياهم، منهم عبد الرحمن بن الزبير، الذي أسلم، وله صحبة.

وجمعت الأسرى في دار بنت الحارث النجارية [ابن إسحاق، الواقدي]، ودار أسامة بن زيد [مغازي عروة؛ والواقدي]، وحفرت لهم الأخاديد في سوق المدينة، فسيقوا إليها المجموعة تلو الأخرى لتضرب أعناقهم فيها [أحمد: المسند، حسن؛ والترمذي صحيح]. وقتلت امرأة واحدة

منهم [ابن إسحاق، حسن لذاته]، لقتلها خَلَّاد بن سُوَيد ﷺ حيث ألقت عليه برحى [أحمد: المسند، من حديث ابن إسحاق بسند حسن]. ولم يقتل الغلمان ممن لم يبلغوا سن البلوغ [ابن إسحاق، بسند حسن].

ثم قسم الرسول ﷺ أموالهم وذراريهم بين المسلمين.

مصير بعض سبي بني قريظة:

ذكر ابن إسحاق وغيره [مثل الواقدي] أن رسول الله ﷺ بعث سعد بن زيد الأنصاري بسبايا من سبايا بني قريظة إلى نجد، فابتاع لهم بها خيلاً وسلاحاً.

وذكر الواقدي في شأن بيع سبايا بني قريظة قولين آخرين إضافة إلى ما ذكره ابن إسحاق، والقولان هما:

١ - بعث رسول الله ﷺ سعد بن عبادة إلى الشام بسبايا؛ ليبيعهم، ويشتري بهم سلاحاً وخيلاً.

٢ - اشترى عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف ﷺ جملة من السبايا... إلخ. ويمكن الجمع بين هذه الأقوال الثلاثة بأن ذلك كله قد حدث.

واصطفى رسول الله ﷺ لنفسه من نسائهم رَيْحَانَة بنت عمرو بن خُنَافَة، وأسلمت. وقد توفي عنها رسول الله ﷺ وهي في ملك يمينه، وكان ذلك باختيارها [ابن إسحاق، بسند مرسل يعتضد].

أحكام وحكم ودروس وعبر من غزوة بني قريظة:

١ - جواز قتل من نقض العهد. ولا زالت الدول تحكم بقتل الخونة الذين يتواطؤون مع الأعداء حتى زماننا هذا، وهو ما يسمى بالخيانة العظمى.

٢ - جواز التحكيم في أمور المسلمين ومهامهم، كما في تحكيم ابن معاذ.

٣ - مشروعية الاجتهاد في الفروع، ورفع الحرج إذا وقع الخلاف فيها؛ فقد اجتهد الصحابة في تفسير قول الرسول ﷺ: «ألا لا يصلين أحد

العصر ـ أو الظهر ـ إلا في بني قريظة»، ولم يخطئ الرسول ﷺ أحداً منهم.

٤ ـ ذكر النووي [في شرحه على صحيح مسلم] أن جماهير العلماء احتجوا بقول الرسول ﷺ: «قوموا إلى سيدكم أو خيركم. . .» وغيره على استحباب القيام لأهل الفضل، وليس هذا من القيام المنهي عنه، وإنما ذلك فيمن يقومون عليه، وهو جالس، ويمثلون قياماً طوال جلوسه، وقد وافق النووي جماهير العلماء في هذا، ثم قال: «القيام للقادم من أهل الفضل مستحب، وقد جاء فيه أحاديث، ولم يصح في النهي عنه شيء صريح. وقد جمعت كل ذلك مع كلام العلماء عليه في جزء [مطبوع] وأجبت فيه عما توهم النهي عنه. . .».

٥ ـ قال الدكتور البوطي [في فقه السيرة]: واعلم أن هذا كله لا يتنافى مع ما صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أحب أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار»، لأن مشروعية إكرام الفضلاء لا تستدعي السعي منهم إلى ذلك أو تعلق قلوبهم بمحبته، بل إن من أبرز صفات الصالحين أن يكونوا متواضعين لإخوانهم زهاداً في طلب هذا الشيء. . . غير أن من أهم ما ينبغي أن تعلمه في هذا الصدد أن لهذا الإكرام المشروع حدوداً، إذا تجاوزها انقلب الأمر محرماً، واشترك في الإثم كل من مقترفه والساكت عليه.

فمن ذلك ما قد تجده في مجالس بعض المتصوفة من وقوف المريدين عليهم وهم جلوس، يقف الواحد منهم أمام شيخه في انكسار وذل. . . ومنه ما يفعله بعضهم من السجود على ركبة الشيخ أو يده عند قدومه عليه، أو ما يفعله من الحَبْوِ إليه عندما يغشى المجلس. . . فالإسلام قد شرح مناهج للتربية، وحظر على المسلمين الخروج عليها، وليس بعد الأسلوب النبوي في التربية من أسلوب يقر».



الفصل الثاني عشر

أبرز الغزوات والسرايا والبعوث والأحداث التي وقعت بين غزوة بني قريظة وغزوة الحديبية

المبحث الأول: سرية عبد الله بن عَتِيْك لقتل سَلَّام بن أبي الحُقَيْق (أبي رافع)

لقد قدمنا أن أبا رافع كان ممن ألب الأحزاب على رسول الله ﷺ وكان يؤذي رسول الله ﷺ ويعين عليه [البخاري]. فقد أعان غطفان وغيرهم من مشركي العرب بالمال الكثير على رسول الله ﷺ [ابن حجر: الفتح، عن أبي الأسود].

رغبت الخزرج في قتل أبي رافع مساواة للأوس في قتل كعب بن الأشرف، وذلك بعد الفراغ من بني قريظة. وكان الله ﷻ قد جعل هذين الحيين يتصاولان بين يدي رسول الله ﷺ في الخيرات، فاستأذنوه في قتله، فأذن لهم، ونهاهم أن يقتلوا وليداً أو امرأة [ابن إسحاق، مرسلاً].

فخرج من المدينة خمسة من الخزرج إلى حصن أبي رافع بخيبر من أرض الحجاز للقضاء عليه. وقد أمر الرسول ﷺ عليهم عبد الله بن عتيك.

فلما دنوا، وقد غربت الشمس، وراح الناس بِسَرْحِهِمْ، قال عبد الله لأصحابه: «اجلسوا مكانكم؛ فإني منطلق فَمُتَلَطِّفٌ للبواب لعلي أدخل».

«فأقبل حتى دنا من الباب، ثم تقنع بثوبه كأنه يقضي حاجته. وقد دخل الناس، فهتف به البواب: يا عبد الله، إن كنت تريد أن تدخل فادخل لأغلق،

فدخل، فكمن، فأغلق البواب الباب، وعلق الأَقَالِيد على وَتَد، فقام ابن عتيك ففتح الباب، ثم توجه إلى بيت أبي رافع، وأخذ في فتح الأبواب التي توصل إليه، وكلما فتح باباً أغلقه من داخل حتى انتهى إليه، فإذا هو في بيت مظلم وسط عياله. فلم يمكنه تمييزه، فنادى: يا أبا رافع، فقال: من؟ فأهوى بالسيف نحو الصوت، فلم يغن شيئاً، فعاد عبد الله يناديه، وفي كل مرة يغير صوته، حتى استمكن منه، وقتله دون أن يؤذي أحداً من ولده أو زوجته.

ثم خرج من البيت، وكان بصره ضعيفاً، فوقع من فوق السلم، فانخلعت رجله، فعصبها بعمامته، وتحامل على نفسه حتى جاء إخوانه، فأخبرهم، فعادوا إلى الرسول ﷺ، فلما رآهم قال: «أفلحت الوجوه»، وحدثوه بما حدث، ثم قال لعبد الله: «أبسط رجلك»، فمسحها ﷺ فكأنه لم يشتكها قط [البخاري].

وقد اختلف أهل السير في تاريخ هذه السرية: فعند الواقدي أنهم خرجوا ليلة الاثنين في السحر لأربع خلون من ذي الحجة، على رأس ستة وأربعين شهراً من الهجرة وغابوا عشرة أيام، وعند ابن سعد أنها في رمضان سنة ست من الهجرة، وعند الطبري أنها في النصف من جمادى الآخرة من السنة الثالثة الهجرية، وقيل في ذي الحجة سنة خمس، وقيل في سنة أربع، وقيل في رجب سنة ثلاث [ابن حجر: الفتح].

والراجح أنه بعد الخندق وقريظة؛ لأنه ممن ألب الأحزاب على المسلمين. فإذا كان الرسول ﷺ قد فرغ من بني قريظة في منتصف ذي القعدة، فتكون هذه السرية بعد هذا التاريخ بقليل. وعموماً فإن كل ذلك لم ترد فيه روايات صحيحة من الناحية الحديثية، حسب علمي المحدود.

المبحث الثاني: سرية محمد بن مَسْلَمَة إلى القُرْطَاء

أرسل النبي ﷺ محمد بن مسلمة في ثلاثين راكباً لشن الغارة على القرطاء، وهم بطن من بني بكر بن كلاب، وذلك في العاشر من المحرم من السنة السادسة، على رأس تسعة وخمسين شهراً من الهجرة [ابن سعد؛ الواقدي]. فسار إليهم يكمن النهار، ويسير الليل حتى دهمهم على غِرَّة،

فقتلوا منهم عشرة، وفر الباقون، واستاقوا الإبل والشاء.

ولقيهم ثُمَامَة بن أُثَال الحنفي، سيد بني حنيفة، وهم في طريق عودتهم إلى المدينة، فأسروه، وهم لا يعرفونه. فقدموا به المدينة، وربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه رسول الله ﷺ، فقال: ما عندك؟ قال: عندي يا محمد، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت. فتركه رسول الله ﷺ حتى كان من الغد قال له ما قال بالأمس، فأجابه ثمامة بمثل ما أجاب، فأمر رسول الله ﷺ بإطلاقه، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد، فاغتسل، ثم دخل المسجد، وتلفظ بالشهادتين، وذكر للرسول ﷺ أن وجهه أصبح أحب الوجوه إليه، وأن دينه أصبح أحب الدين كله إليه، وأن بلده أصبحت أحب البلاد كلها إليه، بعد أن كان ذلك كله أبغض الأشياء إليه. وقال: إنه كان في طريقه إلى العمرة عندما أسر، فبشره رسول الله ﷺ وأذن له بالعمرة. فلما قدم مكة قال له قائل: صبوت يا ثمامة. قال: لا، ولكن أسلمت، وأقسم ألا يأتيهم من اليمامة حبة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ [البخاري]. وأبر بقسمه. فكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة ليخلي لهم حمل الطعام، فأذن النبي ﷺ في ذلك [ابن هشام].

وكان له موقف حسن في حركة الردة حين ثبت على الإسلام مع قومه بني سُحَيم، وكانوا ثلاثمائة رجل كما ذكر السهيلي.

فوائد من قصة ثمامة:

١ ـ قال ابن حجر [في الفتح]: «وفي قصة ثمامة من الفوائد: ربط الكافر في المسجد، والمن على الأسير الكافر، وتعظيم أمر العفو عن المسيء؛ لأن ثمامة أقسم أن بغضه انقلب حباً في ساعة واحدة لما أسداه النبي ﷺ إليه من العفو والمن بغير مقابل. وفيه الاغتسال عند الإسلام، وأن الإحسان يزيل البغض، ويثبت الحب، وأن الكافر إذا أراد عمل خير ثم أسلم شرع له أن يستمر في عمل ذلك الخير. وفيه الملاطفة بمن يرجى إسلامه من الأسارى، إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام، ولا سيما من يتبعه على إسلامه العدد

الكثير من قومه. وفيه بعث السرايا إلى بلاد الكفار، وأسر من وجد منهم، والتخيير بعد ذلك في قتله أو الإبقاء عليه».

المبحث الثالث: سرية كُرْز بن جابر الفِهْرِيّ إلى العُرَنِيِّين

قدم على رسول الله ﷺ جماعة من عُكْل وعُرَيْنَة، في شوال من العام السادس الهجري [ابن سعد؛ الواقدي]، وتكلموا بالإسلام، فقالوا: يا نبي الله، إنا كنا أهل ضرع، ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة، فأمر لهم رسول الله ﷺ بِذَوْدٍ [الذود: الإبل إذا كانت ما بين الثلاثة إلى العشرة، وقيل ما بين الثنتين إلى التسعة، وهي من الإناث دون الذكور] وراع، وأمرهم أن يخرجوا فيه، فيشربوا من ألبانها، ويتمسَّحوا بأبوالها، فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحَرَّة كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعي النبي ﷺ، واستاقوا الذَّوْد. فبلغ النبي ﷺ خبرهم، فبعث الطَّلَبَ في آثارهم، فقبضوا عليهم، فأمر بهم فسمروا أعينهم، وقطعوا أيديهم وأرجلهم، وتركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم. قال قتادة راوي الحديث ـ: بلغنا أن النبي ﷺ بعد ذلك كان يحث على الصدقة، وينهى عن المُثْلَة [البخاري]، وقال في رواية أخرى: إن ذلك كان قبل أن تنزل الحدود [نفسه]. وقال أبو قلابة في حديثه: «هؤلاء قوم سرقوا، وقتلوا، وكفروا بعد إيمانهم، وحاربوا الله ورسوله» [متفق عليه].

قال الجمهور: إن آية الحرابة: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٣]، قد نزلت في هؤلاء العرنيين [فقه السنة]. وقيلت أسباب أخرى في نزولها [الطبري: التفسير].

ومما يستفاد من أحداث هذه السرية أيضاً، أن العلم الحديث قد كشف عن الفائدة الطبية العلاجية لأبوال الإبل وألبانها، مثلما قاله الرسول ﷺ، وفي ذلك لأولي الألباب دليل آخر من بين مئات الأدلة على نبوة محمد ﷺ. وسنذكر هذا الكشف في مكانه من فصل المعجزات النبوية.

الفصل الثالث عشر

عمرة وصلح الحُدَيْبِيَة

انظر ملحق (١١) ـ الخريطة

[الحديبية: اسم بئر تقع على بعد اثنين وعشرين كيلاً شمالي غربي مكة، وتعرف اليوم بالشميسي، وبها حدائق الحديبية ومسجد الرضوان، انظر: نسب حرب، ص٣٥٠]

المبحث الأول: أحداث الحُدَيْبِيَة

خرج الرسول ﷺ وأصحابه لأداء العمرة [البخاري] في يوم الاثنين هلال ذي القعدة من السنة السادسة الهجرية [البخاري؛ والواقدي؛ وابن سعد؛ والبيهقي: الدلائل، من مرسل ابن عقبة].

وكان الرسول ﷺ يخشى أن تعرض له قريش بحرب، أو يصدوه عن البيت الحرام؛ لذلك استنفر العرب المسلمين ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب؛ ليخرجوا معه، فأبطؤوا عليه، فخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار وبمن لحق به من العرب [ابن إسحاق]. وقد كشف القرآن عن حقيقة نوايا الأعراب، فقال: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢاۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الفتح: ١١، ١٢].

وقد ذكر مجاهد [تفسير الطبري، مرسل حسن] أن الأعراب الذين عنتهم الآية هم أعراب جهينة ومزينة، وذكر الواقدي أن الأعراب الذين تشاغلوا بأموالهم وأولادهم وذراريهم هم بنو بكر ومزينة وجهينة.

ويفهم من رواية البخاري أن المسلمين كانوا يحملون أسلحتهم استعداداً للدفاع عن أنفسهم في حالة الاعتداء عليهم.

لقد اتفق خمسة من الذين كانوا في هذه الغزوة على أن عدد من خرج فيها كانوا ألفاً وأربعمائة رجل [متفق عليه].

صلى المسلمون، وأحرموا بالعمرة عندما وصلوا إلى ذي الحليفة [البخاري]، وقلد رسول الله ﷺ الهدي وأشعره، وعدده سبعون بدنة [أحمد: المسند، حسن، وابن إسحاق، حسن]، وبعثها مع نَاجِية بن جُنْدُب بن عمير الخزاعي الأسلمي [أحمد: المسند، حسن؛ وابن إسحاق]. وبعث بين يديه بشر بن سفيان الخزاعي الكعبي عيناً له إلى قريش ليأتيه بخبرهم [البخاري؛ وابن إسحاق، حسن].

وعندما وصل المسلمون الرَّوحاء [على بعد ٧٣ كيلاً من المدينة] جاءه نبأ عدو بغَيْقَة، [موقع بين مكة والمدينة] فأرسل إليهم طائفة من أصحابه، فيهم أبو قتادة الأنصاري، ولم يكن محرماً، فرأى حماراً وحشياً، فحمل عليه فطعنه، ورفض أصحابه أن يعينوه عليه، ولكنهم أكلوا منه وهم حرم، ثم شكوا في حل ذلك، فعندما التقوا الرسول ﷺ في السقيا [على بعد ٨٠ كيلاً من المدينة]، استفتوه في الأمر، فأذن لأصحابه بأكل ما جاؤوه به من بقية اللحم ما داموا لم يعينوا على صيده [البخاري].

وعندما وصلوا عسفان [على بعد ٨٠ كيلاً من المدينة] جاءهم بسر بن سفيان الكعبي بخبر قريش فقال: «يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العُوذُ المطافيل [العوذ: جمع عائذ، وهو من الإبل، الحديثة النتاج. والمطافيل: جمع مطفل: التي معها أولادها، والمراد أنهم خرجوا ومعهم النساء والأولاد لئلا يفروا عنهم، وهو على الاستعارة] قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذي طُوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قدموا كُرَاع الغَمِيم». فاستشار النبي ﷺ أصحابه في أن يغيروا على ديار الذين ناصروا قريشاً، واجتمعوا معها ليدعوا قريشاً ويعودوا للدفاع عن ديارهم، فقال أبو بكر رضي الله عنه: «يا رسول الله، خرجت

عامداً لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه». فقال رسول الله ﷺ: «امضوا على اسم الله» [البخاري].

وعندما علم الرسول ﷺ بقرب خيل المشركين منهم صلى بأصحابه صلاة الخوف بعُسْفَان [أبو داود، حسن؛ الحاكم، صحيح].

ولتفادي الاشتباك مع المشركين سلك الرسول ﷺ طريقاً وعرة عبر ثَنيّة المِرَار، وهي مهبط الحديبية، وقال عندما وصلها: «من يصعد الثنية ثنية المرار فإنه يحط عنه ما حط عن بني إسرائيل»، فكان أول من صعدها خيل بني الخزرج، ثم تتام الناس [مسلم].

وخرجت قريش للقاء المسلمين، فعسكرت ببَلْدَح [واد بمكة من جهة المغرب، أعلاه في وادي العشر، وأوسطه منطقة الزاهر اليوم، ومصبه في مر الظهران شمالي الحديبية، (البلادي: ص٤٩، ومعجم البلدان (١/ ٤٨٠)]، وسبقوا المسلمين إلى الماء هنا [دلائل البيهقي، من مرسل عروة؛ وابن سعد؛ والواقدي].

وعندما اقترب الرسول ﷺ من الحديبية بركت ناقته القصواء، فقال الصحابة ﷺ: «خَلأَتِ [بركت وحرنت بغير علة ظاهرة] القصواء»، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بِخُلُقٍ، ولكن حبسها حابس الفيل». ثم قال: والذي نفسي بيده لا يسألونني خُطَّةً يُعَظِّمُون فيها حُرُماتِ الله إلا أعطيتهم إياها»، ثم زَجَرَهَا فوثبت، ثم عدل عن دخول مكة، وسار حتى نزل بأقصى الحديبية على ثَمَدٍ - بئر - قليلِ الماء، ما لبثوا أن نزحوه ثم اشتكوا إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كَنَانِتِهِ ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فَجَاش لهم بِالرِّيِّ فارتووا جميعاً [البخاري]، وفي رواية أنه جلس على شفة البئر، فدعا بماء، فمضمض، ومج في البئر [نفسه]. ويمكن الجمع بأن يكون الأمران معاً وقعا، كما ذكر ابن حجر [نفسه]. ويؤيده ما ذكره الواقدي وعروة [في الفتح من رواية أبي الأسود] من أن الرسول ﷺ تمضمض في دلو وصبه في البئر، ونزع سهماً من كنانته فألقاه فيها ودعا، ففارت.

ولخصائص قريش ومكانتها بين العرب حرص الرسول ﷺ على إسلامهم، وتحسر على عنادهم وخسارة أرواحهم في الحروب مع المسلمين،

فها هو يعبر عن هذه الحسرة بقوله: «يا ويح قريش، أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس، فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام، وهم وافِرُون، وإن لم يفعلوا قاتلوا، وبهم قوة، فماذا تظن قريش؟ والله إني لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله له حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السَّالِفَة [صفحة العنق]. . .» [أحمد: المسند، حسن؛ وابن إسحاق، حسن].

بذل الرسول ﷺ ما في وسعه لإفهام قريش أنه لا يريد حرباً معهم، وإنما يريد زيارة البيت الحرام وتعظيمه، وهو حق للمسلمين، كما هو حق لغيرهم، وعندما تأكدت قريش من ذلك أرسلت إليه من يفاوضه، ويتعرف على قوة المسلمين ومدى عزمهم على القتال إذا ألجئوا إليه، وطمعاً في صد المسلمين عن البيت بالطرق السلمية من جهة ثالثة.

فأتاه بُدَيْل بن وَرْقَاء في رجال من خزاعة، وكانت خزاعة عَيْبَة [أي خاصته وأصحاب سره، كأنه شبه الصدر الذي هو مستودع السر بالعيبة التي هي مستودع الثياب] نصح رسول الله ﷺ من أهل تِهامة، وبينوا أن قريشاً تعتزم صد المسلمين عن دخول مكة، فأوضح لهم الرسول ﷺ سبب مجيئه، وذكر لهم الضرر الذي وقع على قريش من استمرار الحرب، واقترح عليهم أن تكون بينه، وبينهم هدنة إلى وقت معلوم حتى يتضح لهم الأمر، وإن أَبَوْا فلا مناص من الحرب، ولو كان في ذلك هلاكه، فنقلوا ذلك إلى قريش [البخاري]، وقالوا لهم: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، إن محمداً لم يأت لقتال، وإنما جاء زائراً هذا البيت، فاتهموهم وخاطبوهم بما يكرهون، وقالوا: وإن كان إنما جاء لذلك فلا والله لا يدخلها علينا عنوة أبداً، ولا تتحدث بذلك العرب» [أحمد: حسن؛ وابن إسحاق، حسن].

وأراد الرسول ﷺ أن يؤكد هدفه من هذه الزيارة، ويشهد على ذلك كل العرب، ولذا أرسل إلى قريش خِرَاش بن أُمَيَّة الخُزَاعي على جمله «الثَّعْلَب»، ولكنهم عقروا به جمل رسول الله ﷺ، وأرادوا قتله، فمنعته الأَحَابِيش [ابن إسحاق، حسن]، لأنهم من قومه [ابن سعد].

ثم دعا الرسول ﷺ عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة، فيبلغ عنه أشراف

قريش ما جاء له، فقال عمر: «يا رسول الله، إني أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكن أدلك على رجل أعز بها مني، عثمان بن عفان». فدعا رسول الله ﷺ عثمان، فبعثه إليهم، فنزل عثمان في حماية وجوار أَبَان بن سعيد بن العاص الأموي، حتى أدى رسالته، وأذنوا له بالطواف بالبيت، فقال: «ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ». واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ أن عثمان قد قتل [أحمد، حسن؛ وابن إسحاق، حسن]. ولذلك دعا رسول الله ﷺ أصحابه للبيعة تحت شجر سَمُرة، فبايعوه جميعاً على الموت [البخاري]، سوى الجَدّ بن قَيْس، وذلك لنفاقه. وفي رواية أن البيعة كانت على الصبر [البخاري]، وفي رواية على عدم الفرار [مسلم]، ولا تعارض في ذلك؛ لأن المبايعة على الموت تعني الصبر عند اللقاء وعدم الفرار [ابن حجر: الفتح].

وكان أول من بايعه على ذلك أبو سِنَان عبد الله بن وهب الأسدي [ابن هشام، من مرسل الشعبي؛ وابن حجر: الإصابة، من مرسلين حسنين]، فخرج الناس بعده يبايعون على بيعته، فأثنى عليهم الرسول ﷺ فقال: «أنتم خير أهل الأرض» [البخاري]، وقال: «لا يدخل النار ـ إن شاء الله ـ من أصحاب الشجرة أحد من الذين بايعوا تحتها» [مسلم].

وأشار رسول الله ﷺ إلى يده اليمنى، وقال: «هذه يد عثمان»، فضرب بها على يده اليسرى، وقال: «هذه لعثمان» [البخاري]. فنال عثمان بذلك فضل البيعة.

وقبل أن تتطور الأمور عاد عثمان رضي الله عنه بعد البيعة مباشرة.

وعرفت هذه البيعة بـ«بيعة الرضوان»؛ لأن الله تعالى أخبر بأنه رضي عن أصحابها، في قوله: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨]. [الطبري: التفسير، يعتضد؛ والترمذي، حسن لغيره، وأصله عند مسلم].

أرسلت قريش عدداً من السفراء للتفاوض مع المسلمين، بعد سفارة بُدَيْل بن وَرْقَاء. فقد أرسلوا عُرْوَة بن مسعود الثقفي، وقبل أن يتحرك خشي

أن يناله من التعنيف وسوء المقالة ما نالَ من سبقه، فبين لهم موقفه منهم، وأقروا له بأنه غير متهم عندهم، وذكر لهم أن الذي عرضه عليهم محمد هو خطة رشد. ودعاهم إلى قبولها، فوافقوا على رأيه.

وعندما جاء إلى الرسول ﷺ قال له ما قال لبديل، فقال عروة عند ذلك: «أيْ محمد، أَرَأَيْتَ إنْ استأصلت أَمْرَ قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فإني والله لا أرى وجُوهاً، وإني لأَرَى أَشْوَاباً من الناس خَلِيْقاً أَنْ يَفِرُّوا وَيَدعُوكَ». فقال له أبو بكر: «امْصصْ بَظْرَ اللَّاتِ، أَنَحْنُ نَفرُّ عنه وَنَدَعُه؟...»، وكان كلما تكلم كلمة أخذ بلحية الرسول ﷺ، والمُغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف، فيضربه بِنَعْلِ السيف، ويقول: «أخِّرْ عن لحية رسول الله ﷺ...»، ولحظ عروة تعظيم الصحابة للرسول ﷺ وحبهم له وتفانيهم في طاعته، فلما رجع إلى قريش قال لهم: «أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه مثل ما يعظم أصحاب محمدٍ محمداً» [البخاري].

ثم بعثوا الحُلَيْس بن عَلْقَمَة الكِنَاني سيد الأَحَابِيش، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «إن هذا من قوم يتألهون فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه»، فلما رأى الحليس الهدي يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده، رجع إلى قريش قبل أن يصل إلى رسول الله ﷺ، وذلك إعظاماً لما رأى، وقال لقريش: «رأيت البُدْنَ قد قُلِّدَتْ وأُشْعِرَت، فما أرى أن يصدوا عن البيت» [البخاري]، فقالوا: «اجلس، إنما أنت أعرابي لا علم لك». فغضب وقال: «يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، أَيُصَدُّ عن بيت الله من جاءه معظماً له؟! والذي نفس الحليس بيده لَتُخَلُّنَّ بين محمد وبين ما جاء له، أو لَأَنْفِرَنَّ بالأحابيش نَفْرَةَ رجل واحد»، قالوا: «مَهْ، كُفَّ عنا حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به».

ثم بعثوا إليه مِكْرَز بن حفص، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هذا مِكْرَزُ وهو رجل فاجر»... فجعل يكلم الرسول ﷺ، فبينما هو يكلمه إذ جاء سُهَيْل بن عمرو رسولاً من قبل قريش، فقال النبي ﷺ متفائلاً: «لقد سهل لكم

أمركم» [أحمد، حسن]. وقال: «قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل» [ابن إسحاق، حسن]، وكانت قريش قد قالت لسهيل بن عمرو: «ائت محمداً فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عَنْوَة أبداً». فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ تكلم فأطال الكلام، وتراجعا، ثم جرى بينهما الصلح [نفسه].

وعندما بدأ الرسول ﷺ في إملاء شروط الصلح على علي بن أبي طالب، كاتب الصحيفة [متفق عليه]، اعترض سهيل على كتابة كلمة «الرحمن» في البسملة، وأراد بدلاً عنها أن يكتب «باسمك اللهم»؛ لأنها عبارة الجاهليين، ورفض المسلمون ذلك، ولكن الرسول ﷺ وافق على اعتراض سهيل. ثم اعترض سهيل على عبارة «محمد رسول الله»، وأراد بدلاً عنها عبارة: «محمد بن عبد الله»، فوافقه ـ أيضاً ـ على هذا الاعتراض.

وحجه سهيل هنا في قوله: (والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا نَاتَلْنَاكَ [أي تقدمنا لخصومتك]..).

وعندما قال الرسول ﷺ: «على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به» اعترض سُهَيْل قائلاً: «لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضَغْطَةً ـ قهراً ـ ولكن ذلك في العام المقبل، فنخرج عنك، فتدخلها بأصحابك، فأقمت فيها ثلاثاً معك سلاح الراكب لا تدخلها بغير السيوف في القُرُبِ» [العبارة من: «فنخرج... إلى القرب» من رواية ابن إسحاق بإسناد حسن، وابن هشام (٣/ ٤٤١)، وفي رواية أخرى عند البخاري: الفتح (١١/ ١٣٠، ح٢٦٩٩) مختصرة: «لا يدخل مكة سلاح إلا في القراب»]، فوافق الرسول ﷺ على هذا الشرط. ثم قال سُهيل: (وعلى أن لا يأتيك منا رجل ـ وإن كان على دينك ـ إلا رددته إلينا)، قال المسلمون: «سبحان الله! كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟!» فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جَنْدَل بن سُهَيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين. فقال سهيل: هذا ـ يا محمد ـ أول من أقاضيك عليه أن ترده إليَّ، فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد»، فقال سهيل: «والله ـ إذاً ـ لم أصالحك على شيء أبداً».

وألح الرسول ﷺ على سهيل أن يستثني أبا جندل، فرفض مع موافقة مكرز على طلب الرسول ﷺ، ولم يجد الرسول ﷺ بُدًّا من إمضاء ذلك لسهيل [البخاري].

ثم بعد هذا تم الاتفاق على بقية الشروط، وهي:

«على وضع الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس، ويكف بعضهم عن بعض، وأن بينهم عَيْبَة [أي صدر صاف خال من الغل والخداع، مطوي على نية الوفاء بالصلح، ابن الأثير: النهاية (٣/ ٣٢٧)]، مَكْفُوفة، فلا إسْلَال ـ سرقة ـ ولا إغْلَال ـ خِيَانَة ـ وأن من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه.

فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن مع عقد رسول الله ﷺ وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم [ابن إسحاق، حسن].

لقد تبرم كثير من الصحابة من معظم هذه الشروط. ومن الأدلة على ذلك أن علياً اعتذر عن محو كلمة «رسول الله» التي اعترض عليها سهيل بن عمرو، فقال له رسول الله ﷺ: «أرني مكانها»، فأراه مكانها، فمحاها رسول الله ﷺ، وكتب (علي مكانها) «ابن عبد الله» [متفق عليه]. وغضبوا لشرط رد المسلمين الفارِّين من قريش إلى المشركين، فقالوا: «يا رسول الله، نكتب هذا؟»، قال: «نعم. إنه من ذهب إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً» [مسلم].

ويحكي عمر بن الخطاب مجيئه إلى رسول الله ﷺ غاضباً عند كتابة ذلك الصلح، قال: «فأتيت نبي الله، فقلت: ألستَ نبي الله حقاً؟ قال: بلى. قلت: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى. قلت: فلم نعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال: إني رسول الله، ولست أعصيه، وهو ناصري. قلت: أوليس كنت تحدثنا أنا سنأتي البيت فنطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرتك أنك تأتيه العام؟ قال: قلت: لا. قال: فإنك آتيه ومطوف به». وأتى عمر أبا بكر وقال له مثل ما قال للرسول ﷺ، فقال له أبو بكر: «إنه لرسول الله ﷺ وليس يعصي ربه، وهو ناصره، فاستمسك بِغَرْزِهِ، فَوَاللهِ إنه على الحق» [مسلم]. وقال عمر: «ما زلت أصوم، وأتصدق، وأعتق من الذي صنعت مخافة كلامي

الذي تكلمت به يومئذ حتى رجوت أن يكون خيراً» [ابن إسحاق، حسن]. ولم تطب نفس عمر إلا عندما نزل القرآن مبشراً بالفتح [مسلم].

وعندما كان أبو جَنْدَل يستنجد بالمسلمين قائلاً: «يا معشر المسلمين، أتردونني إلى أهل الشرك، فيفتنوني في ديني؟» والرسول ﷺ يقول: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب فإن الله ﷻ جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً» [أحمد وابن إسحاق، حسن] كان عمر يمشي بجنب أبي جندل يغريه بأبيه ويقرب إليه سيفه، لكن أبا جندل لم يفعل، فأعيد إلى المشركين [نفسه]. وذلك لحكمة تجلت للناس فيما بعد، يوم كان أبو جندل وأصحابه سبباً في إلغاء شرط رد المسلمين إلى الكفار، وفي إسلام سهيل وموقفه يوم كاد أهل مكة أن يرتدوا عندما مات الرسول ﷺ فثبتهم على الإسلام بكلام بليغ [ابن حجر: الإصابة - ترجمته].

وقال سَهْل بن حَنِيف يوم صفين: «اتهموا رأيكم، رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله ﷺ لرددته» [البخاري].

وعندما أمرهم الرسول ﷺ بأن ينحروا الهدي، ويحلقوا رؤوسهم، لم يقم منهم أحد إلى ذلك، فكرر الأمر ثلاث مرات، فدخل على أم سلمة ﵂، وحكى لها ما حدث من المسلمين، فأشارت إليه بأن يبدأ هو بما يريد، ففعل، فقاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً [البخاري].

فدعا الرسول ﷺ لمن حلق منهم ثلاثاً ولمن قصر مرة واحدة [أحمد، حسن].

وكان عدد ما نحروه سبعين بدنة [أحمد، حسن]، كل بدنة عن سبعة أشخاص [مسلم].

وكان هدي رسول الله ﷺ يومئذ جملاً لأبي جهل من غنائم بدر، نحره ليغيظ بذلك المشركين [أحمد، حسن]. ونحروا بعض الهدي في الحديبية في الحل [البخاري]، والبعض الآخر نحره نَاجِية بن جُنْدُب داخل منطقة الحرم [الطحاوي: شرح معاني الآثار، صحيح].

ولا شك أن هذا التصرف من عمر وغيره من المسلمين ما هو إلا اجتهاد منهم ورغبة في إذلال المشركين [أحمد، حسن].

ولم تتوقف قريش عن التحرش بالمسلمين واستفزازهم خلال مفاوضات كتابة الصلح وبعد كتابته، وقد تصرف الرسول ﷺ والصحابة بانضباط شديد إزاء هذه الأفعال. فعندما حاول ثمانون من رجال مكة مهاجمة معسكر المسلمين على غِرَّة، أسرهم المسلمون، وعفا عنهم الرسول ﷺ [مسلم، أحمد]. وكرر المحاولة ثلاثون آخرون من قريش أثناء إبرام الصلح، فأسروا، وأطلق الرسول ﷺ أيضاً سراحهم [أحمد، صحيح؛ الحاكم صحيح].

وبعد إبرام الصلح حاول سبعون من المشركين استفزاز المسلمين، فأسروهم.

وقبض سَلَمَة بن الأكْوَع على أربعة من المشركين أساؤوا إلى الرسول ﷺ، بعد إبرام الصلح، فعفا عنهم الرسول ﷺ. وقد نزلت في ذلك الآية: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح: ٢٤]. [مسلم].

ثم رجع المسلمون إلى المدينة بعد أن غابوا عنها شهراً ونصف الشهر [عيون الأثر، من حديث ابن عائذ]، منها بضعة عشر يوماً، ويقال عشرون يوماً، مكثوها بالحديبية [ابن سعد، الواقدي].

وفي طريق العودة تكررت معجزة النبي ﷺ في تكثير الطعام والماء، مثلما حدث في طعام جابر يوم الخندق، وتكثير ماء بئر الحديبية، فقد ذكر سلمة بن الأكوع أنهم عندما أصابهم الجوع، وكادوا أن يذبحوا رواحلهم دعا الرسول ﷺ بأزواد الجيش، فلم يتجاوز رَبْضَةَ العَنْزِ، وهم أربع عشرة مائة، فأكلوا حتى شبعوا جميعاً، وحشوا جربهم، ثم جيء له بإِدَاوَةِ وضوء فيها نطفة ماء، فأفرغها في قَدَحٍ، فتوضأ منها كل الجيش» [متفق عليه - وربضة العنز: قدرها، وهي رابضة].

ونزلت سورة الفتح، وهم في طريق العودة: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾ [الفتح: ١]. وقال عنها الرسول ﷺ: «لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب

إليَّ مما طلعت عليه الشمس» [البخاري]. وقال عمر متعجباً: «أو فتح هو؟» فقال له الرسول ﷺ: «نعم»، فطابت نفسه، ورجع [مسلم]، وفي رواية: «نعم، والذي نفسي بيده إنه لفتح» [البخاري؛ والحاكم، صحيح]. وفرح المسلمون بذلك فرحاً غامراً، وانجلت تلك السحابة من الغم، وأدركوا قصورهم عن إدراك كل الأسباب والنتائج، وأن الخير في التسليم لأمر الله ورسوله.

وعندما جاءته أم كُلْثُوم بنت عقبة بن أبي معيط مهاجرة لم يردها إلى أهلها عندما طلبوها لما أنزل الله في النساء ﴿إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ . . . وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠]. [البخاري] فكان الرسول ﷺ لهذا يختبرهن، فإن كن خرجن بسبب الإسلام استبقاهن مع دفع مهورهن لأزواجهن، وكان قبل الصلح لا يعيد إليهم مهور الزوجات [البيهقي: السنن الكبرى؛ وابن إسحاق].

وهذه الآية الواردة في عدم رد المهاجرات المسلمات إلى الكفار هي التي استثنت من شرط الرد، وحَرَّمَتِ المسلمات على المشركين ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠]. [البخاري].

المبحث الثاني: فقه وحكم ودروس في صلح الحديبية

١ ـ عندما وجد سبب مانع من أداء المسلمين لعمرتهم التي أحرموا لها تحللوا، وبذلك شرع التحلل للمعتمر، وأنه لا يلزمه القضاء [كتب فقه: أبواب الإحصار].

٢ ـ أذن الرسول ﷺ لكعب بن عُجْرَة أن يحلق رأسه، وهو محرم، لأذى أصابه، على أن يذبح شاة فدية، أو يصوم ثلاثة أيام، أو يطعم ستة مساكين. ونزلت الآية: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ٩٦]. [متفق عليه].

٣ ـ أذن النبي ﷺ للصحابة بالصلاة في منازلهم عندما نزل المطر [ابن ماجه، صحيح].

٤ ـ وقعت تطبيقات عملية لمبدأ الشورى في الإسلام، فقد استشارهم في

الإغارة على ذراري المشركين الذين يساندون قريشاً، كما ذكرنا، واستشار أم سلمة في أمر الناس عندما أبطؤوا في التحلل، وأخذ برأيها، كما ذكرنا.

٥ ـ ويستنتج من مدة الصلح أن الحد الأعلى لمهادنة الكفار عشر سنين؛ لأن أصل العلاقة معهم الحرب، وليس الهدنة.

٦ ـ جواز مصالحة الكفار على رد من جاء من قبلهم مسلماً.

٧ ـ استحباب التفاؤل لقوله ﷺ: «سهل أمركم» وذلك عندما قدم عليهم سهيل بن عمرو مفاوضاً.

٨ ـ كفر من يقول: «مطرنا بنَوْءِ كذا وكذا» والصواب أن يقول: «مطرنا بفضل الله ورحمته. قال ذلك الرسول ﷺ للصحابة عندما صلى بهم الصبح إثر مطر هطل ليلاً [البخاري]. [والأنواء: هي ثمان وعشرون منزلة، ينزل القمر كل ليلة في منزلة منها، وإنما سميت نوءاً؛ لأنه إذا سقط الساقط منها بالمغرب ناء الطالع بالمشرق].

٩ ـ جواز التبرك بآثار النبي ﷺ مثل التوضؤ بماء وضوئه ﷺ [نفسه]، وهو خاص به، خلافاً لآثار الصالحين من أمته [الشاطبي: الاعتصام].

١٠ ـ السنة لمن نام عن صلاته أو نسيها أن يصليها، وإن خرج وقتها، وذلك لأن المسلمين ناموا عن صلاة الصبح، وهم في طريق عودتهم من الحديبية، ولم يوقظهم إلا حر الشمس، ونام حارسهم بلال، فصلوها حين استيقظوا [النسائي: الكبرى، صحيح].

١١ ـ في الصلح اعتراف من قريش بكيان المسلمين لأول مرة، فعاملتهم معاملة الند للند.

١٢ ـ ذهاب هيبة قريش، بدليل مبادرة خزاعة الانضمام إلى حلف المسلمين دون خشية من قريش كما كان في السابق.

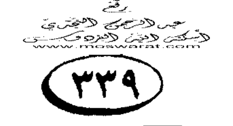
١٣ ـ أتاح الصلح للمسلمين التفرغ ليهود خيبر خاصة، ويهود تيماء وفدك بصفة عامة.

١٤ ـ أتيح للمسلمين مضاعفة جهودهم لنشر الإسلام، وفي ذلك قال الزهري: «فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة، ووضعت الحرب، وآمن

الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك» [ابن إسحاق، حسن]. وعلق ابن هشام على هذا قائلاً: «والدليل على قول الزهري أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة في قول جابر، ثم خرج في عام الفتح بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف» [نفسه].

١٥ - جاءت نتائج بعض الشروط في صالح المسلمين من ذلك أن أبا بَصِير عندما فر من المشركين، ولجأ إلى المسلمين رده الرسول ﷺ إليهم عندما طلبوه، فعدا على حَارِسِيْهِ فقتل أحدهما، وفر الآخر، وعاد أبو بصير إلى المدينة، وقال للرسول ﷺ: «قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم، ثم نجاني الله منهم» فقال النبي ﷺ: «وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ لو كان له أحد»، ففهم أبو بصير نية الرسول ﷺ في رده إلى المشركين، فلجأ إلى سيف البحر. . . » [البخاري] وفهم المستضعفون المسلمون في مكة إشارة الرسول ﷺ: «مِسْعَرَ حَرْبٍ لو كان له أحد»، ففروا من مكة، ولحقوا بأبي بصير، وعلى رأسهم أبو جندل. وتكونت منهم عصابة، أخذت تتعرض لقوافل قريش، فأرسلت قريش إلى الرسول ﷺ تناشده أن يعطيهم الأمان بالمدينة، فأرسل إليهم [نفسه]، وهم بناحية العِيص، فجاؤوا، وكانوا قريباً من الستين أو السبعين رجلاً [ابن إسحاق، حسن]. [وساقه البيهقي في الدلائل من رواية الزهري مرسلاً، وعنده أنهم صاروا بالعيص ثلاثمائة، وأن كتاب الرسول ﷺ قد جاء إلى أبي بصير وهو يحتضر، فمات والكتاب في يده، فدفنه أبو جندل وعاد ببقية الرجال، وروى نحوه من مرسل عروة]

١٦ - في قصة أبي بصير وأبي جندل ورفقائهم في العِيص نموذج يقتدى به في الثبات على العقيدة، وبذل الجهد في نصرتها، وعدم الاستكانة للطغاة.



الفصل الرابع عشر

غزوة خيبر

انظر ملحق (١٢) ـ الخريطة

لم يبد يهود خيبر عداء سافراً للمسلمين حتى لحق بهم زعماء بني النضير عندما أُجْلُوا عن المدينة. وسبق أن أبرز زعماء بني النضير الذين غادروا المدينة ونزلوا خيبر: سلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، فلما نزلوها دان لهم أهلها [ابن إسحاق].

لقد نزلوها بأحقادهم ضد المسلمين؛ ولذا كانوا كلما وجدوا فرصة للانتقام من المسلمين انتهزوها، ووجدوا في قوة قريش وبعض قبائل العرب الوسيلة التي سيدخلون بها المدينة مرة أخرى، فألبوهم على المسلمين، ثم جروهم إلى غزوة الخندق [ابن إسحاق، مرسلاً]، وسعوا في إقناع بني قريظة للانضمام إليهم والغدر بالمسلمين [ابن إسحاق]. ولذا كانت تلك العقوبة الرادعة التي أنزلها المسلمون بهم عندما صرف الله الأحزاب، وأرسل الرسول ﷺ سرية عبد الله بن عتيك للقضاء على رأس من رؤوسهم أفلت من العقاب يوم قريظة، وهو سلام بن أبي الحقيق، فقتلوه.

وكانت هدنة الحديبية فرصة أمام المسلمين لتصفية هذا الجيب الذي يشكل خطورة على أمن المسلمين، وقد وعد الله المسلمين بمغانم كثيرة يأخذونها إذا هزموا يهود خيبر، وإلى ذلك أشارت سورة الفتح التي نزلت في طريق العودة من الحديبية ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الفتح: ١٨ ـ ٢١] [ابن كثير: التفسير؛ وابن حجر: الفتح، من حديث بن إسحاق في المغازي من حديث المسور ومروان].

تاريخ الغزوة:

ذكر ابن إسحاق أنها كانت في المحرم من السنة السابعة الهجرية، وذكر الواقدي أنها كانت في صفر أو ربيع الأول من السنة السابعة بعد العودة من غزوة الحديبية، وذهب ابن سعد إلى أنها في جمادى الأولى سنة سبع، وقال الإمامان الزهري ومالك: إنها في المحرم من السنة السادسة [ابن عساكر: تارخ دمشق]. وظاهر أن الخلاف بين ابن إسحاق والواقدي يسير، وهو نحو الشهرين، وكذلك فإن الخلاف بينهما وبين الإمامين الزهري ومالك مرجعه إلى الاختلاف في ابتداء السنة الهجرية الأولى كما سبق الإشارة إلى ذلك. وقد رجح ابن حجر [الفتح] قول ابن إسحاق على قول الواقدي.

سار الجيش إلى خيبر بروح إيمانية عالية مع علمهم بمنعة حصون خيبر، وشدة بأس رجالها، وعتادهم الحربي. وكانوا يكبرون ويهللون بأصوات مرتفعة، فطلب منهم النبي ﷺ أن يرفقوا بأنفسهم قائلاً: «إنكم تدعون سميعاً قريباً، وهو معكم» [البخاري]. وسلكوا طريقاً بين خيبر وغطفان؛ ليحولوا بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر؛ لأنهم كانوا أعداء للمسلمين [ابن إسحاق].

ونزل المسلمون بساحة اليهود قبل بزوغ الفجر، وقد صلى المسلمون الفجر قرب خيبر، ثم هجموا عليها بعد بزوغ الشمس، وفوجئ أهلها بهم، وهم في طريقهم إلى أعمالهم، فقالوا: «محمد والخميس!!» فقال الرسول ﷺ: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صَبَاحُ الْمُنْذَرِين» [متفق عليه].

وهرب اليهود إلى حصونهم وحاصرهم المسلمون. وقد حاولت غطفان نجدة حلفائهم يهود خيبر، حتى إذا ساروا مرحلة سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حسّاً، فظنوا أن المسلمين قد خالفوا إليهم فرجعوا، وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر [ابن إسحاق؛ والواقدي]، فأخذ المسلمون في افتتاح

حصونهم واحداً تلو الآخر. وكان أول ما سقط من حصونهم نَاعِم، والصَّعْب بمنطقة النَّطَاة، وأبو النِّزَار بمنطقة الشِّقِّ، وكانت هاتان المنطقتان في الشمال الشرقي من خيبر، ثم حصن القَمُوص المنيع في منطقة الكتيبة، وهو حصن ابن أبي الحقيق، ثم أسقطوا حصني منطقة الوَطِيح والسُّلالِم [ابن إسحاق، والواقدي].

وقد واجه المسلمون مقاومة شديدة وصعوبة كبيرة عند فتح بعض هذه الحصون، منها حصن ناعم الذي استشهد تحته محمود بن مَسْلَمَة الأنصاري، حيث ألقى عليه مَرْحَب رحى من أعلى الحصن [ابن إسحاق، حسن]، واستغرق فتحه عشرة أيام [الواقدي]؛ وحمل راية المسلمين عند حصاره أبو بكر الصديق، ولم يفتح الله عليه، وعندما جهد الناس قال رسول الله ﷺ: إنه سيدفع اللواء غداً إلى رجل يحبه الله ورسوله، ويحب الله ورسوله، لا يرجع حتى يُفتح له، فطابت نفوس المسلمين، فلما صلى الفجر في اليوم التالي دفع اللواء إلى علي، ففتح الله على يديه [أحمد، صحيح؛ والحاكم، صحيح وأصل الرواية عند مسلم].

وكان علي يشتكي من رمد في عينيه عندما دعاه الرسول ﷺ، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له، فبرئ [مسلم].

وأوصى الرسول ﷺ علياً بأن يدعو اليهود إلى الإسلام قبل أن يداهمهم، وقال له: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النعم» [مسلم]. وعندما سأله عليّ: «يا رسول الله، على ماذا أقاتل الناس؟» قال: «قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله» [نفسه].

وعند حصار المسلمين لهذا الحصن برز لهم سيده وبطلهم مَرْحَب، وكان سبباً في استشهاد عامر بن الأكوع، ثم بارزه علي فقتله [ابن هشام]، مما أثر سلبياً في معنويات اليهود ومن ثم هزيمتهم.

وقد أبلى عليّ بلاء حسناً في هذه الحرب. ومن دلائل ذلك: روى ابن

إسحاق من حديث أبي رافع - مولى رسول الله ﷺ - أن علياً عندما دنا من الحصن خرج إليه أهله، فقاتلهم، فضربه رجل من يهود فطرح ترسه من يده، فتناول علي باباً كان عند الحصن فترس به عن نفسه، فلم يزل في يده، وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ. قال الراوي - أبو رافع: فلقد رأيتني في نفر سبعة معي، أنا ثامنهم، نجهد على أن نقلب ذلك الباب، فما نقلبه.

وروى البيهقي [في الدلائل] من طريقين مرفوعين إلى جابر رضي الله عنه قصة علي والباب ويوم خيبر. ففي الطريق الأولى: أن علياً رضي الله عنه حمل الباب حتى صعد عليه المسلمون فافتتحوها، ولم يستطع أربعون رجلاً أن يحملوا هذا الباب [تتقوى بالمتابعة]. وفي الطريق الثانية: أنه اجتمع عليه سبعون رجلاً، فأعادوه إلى مكانه بعد أن أجهدهم [ضعفها السخاوي في المقاصد الحسنة].

توجه المسلمون إلى حصن الصَّعْب بن مُعاذ بعد فتح حصن ناعم، وأبلى حامل رايتهم الحُبَاب بن المنذر بلاءً حسناً حتى افتتحوه بعد ثلاثة أيام، ووجدوا فيه الكثير من الطعام والمتاع، يوم كانوا في ضائقة من قلة الطعام، ثم توجهوا بعده إلى حصن قلعة الزبير الذي اجتمع فيه الفارون من حصن ناعم والصعب وبقية ما فتح من حصون يهود - فحاصروه، وقطعوا عنه مجرى الماء الذي يغذيه، فاضطروهم إلى النزول للقتال، فهزموهم بعد ثلاثة أيام، وبذلك تمت السيطرة على آخر حصون منطقة النَّطَاة التي كان فيها أشد اليهود.

ثم توجهوا إلى حصون منطقة الشِّق، وبدؤوا بحصن أُبَيّ، فاقتحموه، وأفلت بعض مقاتلته إلى حصن نزَار، وتوجه إليهم المسلمون فحاصروهم، ثم افتتحوا الحصن، وفر بقية أهل الشق من حصونهم، وتجمعوا في حصن القَمُوص المنيع وحصن الوَطِيح وحصن السُّلَالِم، فحاصرهم المسلمون مدة أربعة عشر يوماً حتى طلبوا الصلح [الواقدي].

وهكذا فتحت خيبر عنوة، استناداً إلى النظر في مجريات الأحداث التي سقناها، وما روى البخاري، ومسلم، وأبو داود من أن رسول الله ﷺ غزا خيبر وافتتحها عنوة.

وقتل من اليهود في معارك خيبر ثلاثة وتسعون رجلاً [الواقدي]. وسبيت النساء والذراري، منهن صفية بنت حيي بن أخطب التي اشتراها الرسول ﷺ من دحية، حيث وقعت في سهمه، فأعتقها وتزوجها [متفق عليه]. وقد دخل عليها في طريق العودة إلى المدينة، وتطوع لحراسته في تلك الليلة أبو أيوب الأنصاري [الحاكم، صحيح].

واستشهد من المسلمين عشرون رجلاً فيما ذكر ابن إسحاق، وخمسة عشر فيما ذكر الواقدي.

وممن استشهد من المسلمين راعي غنم أسود كان أجيراً لرجل من يهود. وخلاصة قصته أنه أتى رسول الله ﷺ وهو محاصر لبعض حصون خيبر، ومعه غنم يرعاها لبعض يهود خيبر، فطلب من الرسول ﷺ أن يعرض عليه الإسلام، فعرضه عليه، فأسلم، ثم استفتاه في أمر الغنم، فطلب منه الرسول ﷺ أن يضرب وجوهها، فسترجع إلى أصحابها، فأخذ الراعي حفنة من الحصى فرمى بها في وجوهها، فرجعت إلى أصحابها، وتقدم ليقاتل فأصابه حجر فقتله، وما صلى لله صلاة قط، فجيء به إلى رسول الله ﷺ فسُجِّي بشمله، فالتفت إليه الرسول ﷺ ثم أعرض عنه، وعندما سئل عن إعراضه قال: «إن معه الآن زوجتيه من الحور العين» [ابن إسحاق؛ والحاكم؛ والبيهقي: الدلائل من مرسل ابن عقبة وعروة].

واستُشهد أعرابي له قصة دلت على وجود نماذج فريدة من المجاهدين. وخلاصة قصته أنه جاء إلى النبي ﷺ فأسلم، وطلب أن يهاجر مع الرسول ﷺ. فلما كانت غزوة خيبر ـ وقيل حنين ـ غنم رسول الله، وأخرج له سهمه، وكان غائباً حين القسمة، ويرعى ظهرهم، فلما جاء دفعوا إليه سهمه، فأخذه، وجاء به إلى النبي ﷺ وقال: «ما هذا، يا محمد؟»، قال النبي ﷺ: «قسم قسمته لك»، قال: «ما على هذا اتبعتك، ولكن اتبعتك على أن أُرْمَىٰ هاهنا، وأشار إلى حلقه بسهم، فأدخل الجنة»، قال: «إن تصدق الله يصدقك»، ولم يلبث قليلاً حتى جيء به، وقد أصابه سهم حيث أشار، فقال الرسول ﷺ: «صدق الله فصدقه»، فكفنه الرسول ﷺ في جبة للنبي ﷺ ودفنه [عبدالرزاق، صحيح].

وبعد الفراغ من هذه الغزوة حاول اليهود قتل الرسول ﷺ بالسم. فقد أهدته امرأة منهم - زينب بنت الحارث، امرأة سلام بن مشكم، ابنة أخ مرحب - شاة مشوية مسمومة، وأكثرت السم في ذراع الشاة عندما عرفت أنه يحبها، فلما أكل من الذراع، أخبرته الذراع أنها مسمومة، فلفظ اللقمة، واستجوب المرأة، فاعترفت بجريمتها، فلم يعاقبها [متفق عليه] في حينها، ولكنه قتلها عندما مات بِشْر بن البَراء بن مَعْرور من أثر السم الذي ابتلعه مع الطعام عندما أكل مع الرسول ﷺ [الحاكم، وعبدالرزاق؛ والبيهقي: الدلائل]. واختلف العلماء في هذا.

وتم الصلح في النهاية بين الطرفين وفق الأمور الآتية:

- بالنسبة للأراضي والنخيل - أي الأموال الثابتة: دفعها لهم الرسول ﷺ على أن يعملوا عليها، ولهم شطر ما يخرج منها [متفق عليه].

- أن ينفقوا من أموالهم على خدمة الأرض [مسلم].

- أما بالنسبة لوضعهم القانوني، فقد تم الاتفاق على أن بقاءهم بخيبر مرهون بمشيئة المسلمين، فمتى شاؤوا أخرجوهم منها.

وقد أخرجهم عمر بن الخطاب إلى تيماء وأريحاء [متفق عليه]، استناداً إلى قول الرسول ﷺ في مرض موته: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب» [أحمد، صحيح؛ وابن سعد، صحيح؛ وابن إسحاق مرسلاً؛ وعبدالرزاق، صحيح] وتكرر منهم الاعتداء على المسلمين. ففي المرة الأولى اتهمهم الرسول ﷺ في قتل عبد الله بن سهل، فأنكروا فلم يعاقبهم، فوداه رسول الله ﷺ من عنده [متفق عليه]. وفي هذه المرة الثانية التي أكدت الأولى - كما أشار عمر - أنهم اعتدوا على عبد الله بن عمر، وفدعوا يديه [أحمد: صحيح؛ وابن إسحاق، حسن].

- واتفقوا على إيفاد مبعوث من قبل النبي ﷺ إلى أهل خيبر ليخرص [يخمن أو يقدر] ويقبض حصة المسلمين [أحمد، صحيح].

أما بالنسبة للأموال المنقولة، فقد صالحوه على أن له الذهب والفضة والسلاح والدروع، ولهم ما حملت ركائبهم على ألا يكتموا، ولا يغيبوا شيئاً، فإن فعلوه فلا ذمة لهم ولا عهد. فغيبوا مسكاً لحيي بن أخطب، وقد

كان قتل قبل غزوة خيبر، وكان قد احتمله معه يوم بني النضير حين أجليت. وعندما سأل الرسول ﷺ سعية ـ عم حيي ـ عن المسك، قال: «أذهبته الحروب والنفقات»، فقال النبي ﷺ: «العهد قريب، والمال أكثر من ذلك»، فدفعه النبي ﷺ إلى الزبير فمسه بعذاب، فاعترف بأنه رأى حيياً يطوف في خربة هاهنا، فوجدوا المسك فيها، فقتل لذلك ابني أبي الحقيق، وسبى نساءهم وذراريهم، وقتل محمد بن مسلمة ابن عم كنانة هذا الذي دل على المال، قتله بأخيه محمود بن مسلمة [أبوداود، صحيح].

وبالنسبة للطعام فقد كان الرجل يأخذ حاجته منه دون أن يقسم بين المسلمين أو يخرج منه الخمس ما دام قليلاً [متفق عليه] وكانت غنائم خيبر خاصة بمن شهد الحديبية من المسلمين، كما في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾﴾ [الفتح: ١٥]. [الطبري: التفسير].

ولم يغب عن فتح خيبر من أصحاب بيعة الرضوان أحد سوى جابر بن عبد الله، ومع ذلك أعطي سهماً مثل من حضر الغزوة ـ غزوة الحديبية [البخاري؛ معلقاً؛ وابن إسحاق؛ وأبو داود].

وأعطى أهل السفينة من مهاجرة الحبشة الذين عادوا منها إلى المدينة، ووصلوا خيبر بعد الفتح، أعطاهم من الغنائم، وكانوا ثلاثة وخمسين رجلاً وامرأة، بقيادة جعفر بن أبي طالب. وتقول الرواية إنه لم يقسم لأحد لم يشهد الفتح سواهم [متفق عليه]. وهم الذين فرح الرسول ﷺ بقدومهم، وقبل جعفراً بين عينيه، والتزمه، وقال: «ما أدري بأيهما أنا أسر، بفتح خيبر أو بقدوم جعفر؟» [الحاكم، مرسلاً حسناً؛ وأبو داود، مرسلاً حسناً؛ والطبراني: الكبير، حسن بشواهده كسابقيه].

وربما يرجع سبب استثنائهم إلى أنهم حبسهم العذر عن شهود بيعة الحديبية، ولعله استرضى أصحاب الحق من الغانمين في الإسهام لهم، ولعله رأى ما كانوا عليه من الصدق وما عانوه في الغربة، وهم أصحاب الهجرتين [عوض الشهري: مرويان غزوة خيبر].

وأعطى الرسول ﷺ أبا هريرة وبعض الدوسيين من الغنائم برضاء الغانمين، حيث قدموا عليه بعد فتح خيبر [عبدالرزاق].

وشهد خيبر مع رسول الله ﷺ نساء مسلمات فأعطاهن من الفيء، ولم يضرب لهن بسهم [ابن إسحاق؛ والترمذي، صحيح مقطوع].

وكذلك أعطى من شهدها من العبيد، فقد أعطى عُمَيراً، مولى أبي اللحم، شيئاً من الأثاث [أبو داود].

وأوصى ﷺ من مال خيبر لنفر من الداريين، سماهم ابن إسحاق [ابن هشام].

وكان كفار قريش يتحسسون أخبار الرسول ﷺ مع يهود خيبر، ويسألون الركبان عن نتيجة المعركة، وقد فرحوا عندما خدعهم الحجاج بن عِلَاط السُّلَمِي، وقال لهم: إن المسلمين قد هزموا شر هزيمة، وإن اليهود أسرت محمداً، وستأتي به ليقتل بين ظهراني أهل مكة ثأراً لمن كان أصيب من رجالهم، وما لبثوا قليلاً حتى علموا أن الأمر خدعة من الحجاج بن علاط ليحرز ماله الذي بمكة، ويهاجر مسلماً. فحزنوا لتلك النتيجة التي كانوا يرجون عكسها [عبد الرزاق، صحيح].

فلما فرغ رسول الله من خيبر قذف الله الرعب في قلوب أهل فدك، حين بلغهم ما اوقع الله - تعالى - بأهل خيبر، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ ليصالحوه على النصف من فدك، فقدمت عليه بخيبر، أو بعدما قدم المدينة، فقبل ذلك منهم. فكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة؛ لأنه لم يوجف عليها بخيل ولا ركاب. [ابن إسحاق: السيرة معلقاً؛ وأبو داود برقم (٣٠١٦)، مرسلاً ضعيفاً، وغيرهما بأسانيد لم تثبت].

وبعد الفراغ من أمر خيبر توجه رسول الله ﷺ نحو وادي القرى، وحاصرهم، ثم دعاهم إلى الإسلام، وأخبرهم أنهم إذا أسلموا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم، وحسابهم على الله، فبرز رجل منهم، فبرز له الزبير فقتله، ثم برز آخر فبرز إليه علي فقتله، ثم برز آخر فبرز إليه أبو دجانة فقتله،

حتى قتل منهم أحد عشر رجلاً، ثم قاتلهم حتى أمسوا، وفي الصباح استسلموا، ففتحت عنوة. وأقام فيها ثلاثة أيام، وقسم ما أصاب على أصحابه، وترك الأرض والنخل بأيدي يهود، وعاملهم عليها.

فلما بلغ يهود تيماء ما حدث لأهل فدك ووادي القرى، صالحوا رسول الله ﷺ على الجزية، وأقاموا بأيديهم أموالهم. فلما كان عهد عمر أخرج يهود خيبر وفدك، ولم يخرج أهل تيماء ووادي القرى؛ لأنهما داخلتان في أرض الشام، ويرى أن ما دون وادي القرى إلى المدينة حجاز، وأن ما وراء ذلك من الشام [الواقدي].

وثبت في الصحيح أن مِدْعَماً ـ مولى رسول الله ﷺ ـ أصابه سهم فقتله، وذلك حين كان يحط رحل رسول الله ﷺ عندما وصلوا وادي القرى. فقال الناس: «هنيئاً له بالجنة»، فقال رسول الله ﷺ: «كلا، والذي نفسي بيده إن الشَّمْلَة التي أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم لتشتعل عليه ناراً». فجاء رجل حين سمع ذلك من النبي ﷺ بشرَاك أو بِشِرَاكَين، فقال: «هذا شيء كنت أصبته»، فقال رسول الله ﷺ: «شراك أو شراكان من نار» [متفق عليه].

بعض الحكم والعبر والدروس من غزوة خيبر:

١ ـ نهى رسول الله ﷺ عن الغَلُول، وأن من يموت ـ وهو غالّ ـ يدخل النار.

وقد جاء ذلك في خبر الرجل الذي قال عنه الصحابة: إنه شهيد، فقال لهم الرسول ﷺ: «كلا! إني رأيته في النار في بُرْدَةٍ غَلَّهَا أو عِبَاءَة...» [مسلم] ولعلماء العقيدة تفصيل في خبر مدعم مع الشملة.

٢ ـ نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الحُمُر الإِنْسِيَّة [البخاري].

٣ ـ نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم البِغَال [أحمد].

٤ ـ النهي عن أكل كل ذي نَابٍ من السباع، وعن أكل كل ذي مِخْلَب من الطير [مسلم؛ وأبو داود، حسن؛ وابن ماجه، حسن].

٥ ـ النهي عن وطء الحُبَالَى من السبايا حتى يضعن [ابن الجارود: المنتقى، صحيح].

٦ ـ النهي عن ركوب الجلَّالة [الجلالة: حيوان يأكل العَذِرَة، [وهي الغائط]، من الإبل والغنم والدجاج وغيرها حتى يتغير ريحها] والنهي عن أكل لحمها [أبو داود، حسن] [قال سيد سابق في فقه السنة (٣/ ٢٨٥): «فإن حبست بعيدة عن العذرة زمناً وعلفت طاهراً فطاب لحمها وذهب اسم الجلالة عنها حلت؛ لأن علة النهي التغيير، وقد زالت»] وشرب لبنها.

٧ ـ النهي عن النهبة من الغنيمة قبل قسمتها [أحمد، صحيح].

٨ ـ وأجرى الله على نبيه بعض المعجزات دليلاً على نبوته وعبرة لمن يعتبر، فإضافة إلى ما ذكرنا من قصة بصقه على عيني علي فصحَّتا، وإخبار ذراع الشاة المسمومة إياه بأنها مسمومة، فقد ثبت أنه نفث ثلاث نفثات في موضع ضربة أصابت ركبة سلمة بن الأكوع يوم خيبر، فما اشتكى بعدها [البخاري].

٩ ـ وفي خبر الإسهام لأهل السفينة أنه إذا لحق مدد بالجيش بعد انقضاء الحرب، فلا سهم لهم إلا بإذن الجيش ورضاه [ابن حجر: الفتح؛ وابن القيم: الزاد].

١٠ ـ جواز المساقاة والمزارعة بجزء مما يخرج من الأرض من تمر أو زرع، كما عامل رسول الله ﷺ أهل خيبر على ذلك، وهو من باب المشاركة، وهو نظير المضاربة، فمن أباح المضاربة، وحرم ذلك، فقد فرق بين متماثلين [ابن القيم: الزاد].

١١ ـ عدم اشتراط كون البذر من رب الأرض؛ لأن الرسول ﷺ دفع إليهم الأرض على أن يعملوها من مالهم.

١٢ ـ خَرْصُ الثمار على رؤوس النخيل وقسمتها كذلك، وأن القسمة ليست بيعاً، والاكتفاء بخارص واحد وقاسم واحد.

١٣ ـ جواز عقد المهادنة عقداً جائزاً للإمام فسخه متى شاء.

١٤ ـ جواز تعليق عقد الصلح والأمان بالشرط، كما عقد لهم رسول الله ﷺ بشرط ألا يغيِّبوا ولا يكتموا، كما في قصة مسك حيي.

١٥ ـ الأخذ في الأحكام بالقرائن والأمارات كما قال النبي ﷺ لكنانة: «المال كثير، والعهد قريب»، فاستدل بذلك على كذبه في قوله: «أذهبته الحروب والنفقة». وفي المسألة تفصيل واختلاف، مكانه كتب الفقه.

١٦ ـ جواز إجلاء أهل الذمة من دار الإسلام إذا استغنى عنهم، وقد أجلاهم عمر رضي الله عنه بعد موت النبي ﷺ.

١٧ ـ لم يكن عدم أخذ الجزية من يهود خيبر؛ لأنهم ليسوا أهل ذمة، بل لأنها لم يكن نزل فرضها بعد [نفسه].

١٨ ـ سريان نقض العهد في حق النساء والذرية، وجعل حكم الساكت والمقر حكم الناقض والمحارب، كما في حالة كنانة وابني ابن الحقيق، على أن يكون الناقضون طائفة لهم شوكة ومنعة، أما إذا كان الناقض واحداً من طائفة لم يوافقه بقيتهم، فهذا لا يسري النقض إلى زوجته وأولاده [نفسه].

١٩ ـ جواز عتق الرجل أمته، وجعل عتقها صداقها، ويجعلها زوجته بغير إذنها ولا شهود ولا ولي غيره، ولا لفظ نكاح ولا تزويج، وجواز البناء بالأهل في السفر، كما فعل ﷺ بصفية.

٢٠ ـ جواز كذب الإنسان على نفسه وعلى غيره، إذا لم يتضمن ضرر ذلك الغير، إذا كان يتوصل بالكذب إلى حقه، كما كذب الحجاج بن علاط على المسلمين والمشركين حتى أخذ ماله من مكة من غير مضرة لحقت بالمسلمين من ذلك الكذب.

٢١ ـ أن من قتل غيره بسُم يقتل مثله قصاصاً، كما قُتِلت اليهودية ببشر بن البراء.

٢٢ ـ جواز الأكل من ذبائح أهل الكتاب، وحل طعامهم، وقبول هديتهم، كما في حادثة الشاة المسمومة.

٢٣ ـ الإمام مخير في الأرض التي تفتح عنوة، إن شاء قسمها، وإن شاء وقفها، وإن شاء قسم البعض، ووقف البعض الآخر، وقد فعل رسول الله ﷺ الأنواع الثلاثة، فقسم قريظة والنضير، ولم يقسم مكة، وقسم شطراً من خيبر، وترك شطرها الآخر [الشهري: مرويات خيبر؛ وابن القيم: الزاد؛ وابن حجر: الفتح].

٢٤ ـ جواز قتل الكفار في الأشهر الحرم، والإغارة على من بلغته الدعوة بغير إنذار.

٢٥ ـ قسمة الغنيمة على السهام.

٢٦ ـ أكل الطعام الذي يصاب من المشركين قبل القسمة لمن يحتاج إليه بشرط أن لا يدخره، ولا يحوله.



الفصل الخامس عشر

رسائل النبي ﷺ
إلى الملوك والأمراء والزعماء

انظر ملحق (١٣) ـ الخريطة

تمهيد:

أتيحت الفرصة للرسول ﷺ بعد صلح الحديبية لتوسيع نطاق الدعوة إلى الإسلام في داخل الجزيرة العربية وخارجها؛ لأن الإسلام رسالة عالمية غير محدودة المكان، كما جاء التصريح بذلك في بعض الآيات القرآنية الكريمة، مثل:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]، و﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَـٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ولذا كان من البدهي أن يقوم الرسول ﷺ بإرسال الرسائل إلى زعماء العالم المعاصرين له.

المبحث الأول: كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي

روى مسلم ـ كما سبق ذكره ـ أن رسول الله ﷺ كتب إلى النجاشي ـ أصحمة ـ ملك الحبشة، الذي أسلم.

وروي أن رسول الله ﷺ كتب إلى النجاشي غير الذي أسلم، وصلى عليه النبي ﷺ صلاة الغائب، قائلاً: «تعال إلى كلمة سواء بيننا وبينك أن لا نعبد إلا الله، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون». فآمن ومن كان عنده، وأرسل إلى رسول الله ﷺ بهدية

حُلَّة، فقال رسول الله ﷺ: «اتركوه ما ترككم» [ممن رواه النسائي بسند حسن؛ وأبو داود؛ وأحمد].

وكان الذي حمل الرسالة إلى النجاشي عمرو بن أمية الضمري [أسد الغابة؛ وابن هشام؛ وابن سعد].

وذكر الزيلعي [نصب الراية] وغيره عن الواقدي أن الذي كتبه النبي ﷺ إلى النجاشي مع عمرو بن أمية الضمري صورته:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى النجاشي ملك الحبشة، أسلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، الملك القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت به، فخلقه من روحه، ونفخه كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته، وأن تتبعني، وتؤمن بالذي جاءني؛ فإني رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله ﷻ، وقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى».

وذكر البيهقي [الدلائل] رواية أتم من هذه، من حديث ابن إسحاق ـ معلقاً ـ ومن زياداته قوله: «إلى النجاشي الأصحم...»، و: «وقد بعثت إليك ابن عمي جعفراً، ومعه نفر من المسلمين...»، وهي رواية فيها نظر. وانظر ما قلناه في معرض الحديث عن إسلام النجاشي.

وذكر أبو موسى المديني في التتمة لكتاب ابن منده في الصحابة، بإسناد معلق، أن النجاشي كتب مع ولده كتاباً جواباً لكتاب النبي ﷺ وأورد نصه، وفيه إقراره بالإسلام، وإن شاء الرسول ﷺ أن يأتيه بالمدينة المنورة أتاه، وأنه بعث إليه بابنه أرها بن الأصْحَم، وأن ابنه خرج في ستين نفساً من الحبشة، فغرقت بهم سفينتهم في البحر [ابن طولون - إعلام السائلين؛ والزيلعي؛ وتاريخ الطبري].

وقد ثبت أن الرسول ﷺ صلى صلاة الغائب عندما أخبره جبريل بوفاة النجاشي، وذلك في العام التاسع الهجري [نصب الراية؛ وتاريخ الطبري].

المبحث الثاني: كتاب النبي ﷺ إلى كسرى

روى البخاري بسنده إلى ابن عباس: «بعث رسول الله ﷺ بكتابه إلى كسرى مع عبد الله بن حُذَافَة السَّهْمِي، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين [هو المنذر بن ساوى، كما ذكر الزرقاني في شرح المواهب اللدنية (٣/ ٣٤١)، وابن حجر في الفتح (١٦/ ٢٥٧)]، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى. فلما قرأه مزقه، قال الراوي ـ الزهري: فحسبت أن ابن المسيب قال: «فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزقوا كل ممزق».

وكتب كسرى إلى بَاذَان عامله باليمن أن ابعث من عندك رجلين جلدين إلى هذا الرجل الذي بالحجاز، فليأتياني بخبره، فبعث باذان قهرمانه [اسمه «بابويه»، وهو الكاتب الحاسب، واسم الرجل الآخر: خُرّ خُسْرَة كما في رواية الطبري في تاريخه (٢/ ٦٥٥)]. ورجلاً آخر، وكتب معهما كتاباً، فقدما المدينة، فدفعا كتاب باذان إلى النبي ﷺ، فتبسم رسول الله ﷺ ودعاهما إلى الإسلام، وفرائصهما ترعد، وقال: «ارجعا عني يومكما هذا حتى تأتياني الغد فأخبركما بما أريد». فجاءاه من الغد، فقال لهما: «أبلغا صاحبكما أن ربي قتل ربه كسرى في هذه الليلة»، لسبع ساعات مضت منها، وهي ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الأولى سنة سبع، وأن الله تبارك وتعالى سلط عليه ابنه شِيرَوَيه، فقتله، فرجعا إلى باذان بذلك، فأسلم هو والأبناء [اصطلاح يطلق على الفرس الذين كانوا يحكمون اليمن في تلك الفترة] الذين باليمن [ابن سعد؛ والطبري؛ مرسلا].

ويذكر أن كسرى المعني هو إِبْرويز بن هُرْمز [الزرقاني]، ويؤكد بتلر [فتح مصر] أن موت كسرى إِبْرويز حدث في مارس عام ٦٢٨م، مما يجعل وصول الرسالة قبل موته بشهور توكيداً لرواية الواقدي.

وروى الطبري نص رسالة النبي ﷺ إلى كسرى، وكذلك رواها ابن طولون، وغيرهما، وهو:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأدعوك بدعاء الله، فإني أنا

رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حياً، ويحق القول على الكافرين، فأسلم تسلم، فإن أبيت فإن إثم المجوس عليك».

المبحث الثالث: كتاب النبي ﷺ إلى قيصر

ثبت في الصحيحين أن الرسول ﷺ قد كتب إلى هرقل مع دِحْيَة بن خَلِيفَة الكَلْبِي يدعوه إلى الإسلام. وذلك في مدة هدنة الحديبية، وهو النص الثاني الذي ثبتت صحته وفق شروط المحدثين من بين سائر نصوص الكتب التي وجهت إلى الزعماء، ونصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فعليك إثم الأرِيسيين [اختلفوا في المراد بهم على أقوال: أصحها وأشهرها أنهم الأكارون، أي الفلاحون... انظر: الفتح (١٧/ ٨٠ ـ ٨١، ح٤٥٥٣)]. ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

ولعل في إيراد البخاري ومسلم لنص خطاب الرسول ﷺ إلى قيصر ما يشير إلى ترجيحهما للروايات القائلة بتقدم نزول الآية المذكورة، أي قبل تاريخ إرسال هذه الرسالة، وليس في العام التاسع كما ورد في روايات ضعيفة [دبلوماسية محمد؛ المجتمع المدني].

وعندما قرأ قيصر رسالة النبي ﷺ أرسل يبحث عن بعض المتصلين بالنبي ﷺ، وفضل أن يكونوا من قومه وعشيرته، فعلم بوجود جماعة من التجار فيهم أبو سفيان، فدعاهم لمجلسه مع الترجمان، فقال: «أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟»، فقال أبو سفيان: «أنا أقربهم نسباً»، فأدناه منه، وقرب أصحابه منه؛ لئلا يستحيوا أن يواجهوه بالتكذيب إن كذب، فأخذ يسأله عن جميع أحوال النبي ﷺ كما في الحديث الطويل المشهور، حديث هرقل مع أبي سفيان، المروي في الصحيحين، واستنتج من أجوبة أبي سفيان أن محمداً ﷺ نبي، وقال في ختام كلامه مع أبي سفيان: «فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين. وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن

أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أَخْلُصُ إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلتُ عن قدميه».

ثم قال للرسول (دحية الكلبي): «إني لأعلم أن صاحبك نبي مرسل، والذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا، ولكني أخاف الروم على نفسي، ولولا ذلك لاتبعته»، ثم صرفه إلى ضَغَاطِرَ، الأُسْقُف صاحب الفتوى عندهم بحجة أنه أعلم الروم بهذا الشأن.

وروى ابن حبان [في صحيحه: موارد الظمآن، بسند صحيح] أن دحية عندما جاء وافى قيصر ببيت المقدس، فرمى بالكتاب على بساطه وتنحى، فلما انتهى قيصر من الكتاب، أخذه، وأمَّن من جاء به، فظهر له دحية، فطلب من دحية أن يأتيه في عاصمته، فلما جاءه أمر بأبواب قصره فغلِّقت، ثم أمر منادياً ينادي: ألا إن قيصر قد اتبع محمداً، وترك النصرانية، فأقبل جنده، وقد تسلَّحوا حتى أطافوا به، فقال لرسول رسول الله ﷺ: «قد ترى أني خائف على مملكتي»، ثم أمر مناديه فنادى: «ألا إن قيصر قد رضي عنكم، وإنما اختبركم؛ لينظر كيف صبركم على دينكم، فارجعوا»، فانصرفوا، وكتب إلى رسول الله ﷺ: إني مسلم، وبعث إليه بدنانير، فقال رسول الله ﷺ: «كذب عدو الله، وهو على دين النصرانية»، وقسم الدنانير.

وفي عدم إسلام قيصر دليل على أنه قد شح بالملك وطلب الرئاسة وآثرهما على الإسلام، ولو أراد الله هدايته لوفقه كما وفق النجاشي، فإنه لما أسلم ما زالت عنه الرياسة [النووي بشرح مسلم].

المبحث الرابع: كتاب النبي ﷺ
إلى الحارث بن أبي شَمِرٍ الغساني

روى الواقدي أن رسول الله ﷺ كتب كتاباً إلى المنذر بن الحارث بن أبي شَمِرٍ الغساني [من أمراء غسان في أطراف الشام، وكانت إقامته بغوطة دمشق]، مع شُجاع بن وَهْب، وأورد نصه. وقد امتعض الحارث، ولم يوافق على الإسلام، وحشد قواته للزحف على المدينة، ولكن هرقل تدخل، ودعاه إلى إيلياء ـ بيت المقدس.

وقد بعث رسول الله ﷺ شجاعاً إليه حين مرجعه من الحديبية، ومن خلال رواية شجاع في قصته معه يظهر أنه كتب إليه في نفس الوقت الذي كتب فيه إلى هرقل مع دحية؛ لأن شجاعاً عندما جاء إلى الحارث وجد دحية مع القيصر في إيلياء [ابن سعد؛ وابن هشام].

وتقول رواية شجاع: إن حاجب الحارث ـ وهو رومي اسمه مُرِي ـ أسلم عندما أخبره شجاع بالرسول ﷺ والإسلام.

المبحث الخامس: كتاب النبي ﷺ إلى هَوْذَة بن عليّ الحنفي صاحب اليمامة

كتب إليه مع سَلِيط بن عمرو العامري، أحد النفر الستة الذين تحركوا في وقت واحد حين مقدم الرسول ﷺ من الحديبية، وعندما قرأ هوذة الرسالة اشترط على النبي ﷺ أن يجعل له بعض الأمر معه، فلم يقبل الرسول ﷺ بذلك، ومات حين منصرف الرسول ﷺ من فتح مكة [ابن سعد].

المبحث السادس: كتاب النبي ﷺ إلى المُقَوْقِس

بعث الرسول ﷺ كتابه إلى المقوقس ـ جُرَيج بن مينَا ـ ملك الإسكندرية وعظيم القبط، مع حاطب بن أبي بلتعة، فقال خيراً، وقارب الأمر ولم يُسلم، وأهدى إلى النبي ﷺ مارية وأختها سِيرين وقَيسرَى، فتسرى بمارية القبطية، وهي أم ولده إبراهيم، ووهب سيرين لحسان بن ثابت، فهي أم ولده عبد الرحمن، وأهداه ألف مثقال ذهب، وبغلة، اسمها دُلْدُل، وجارية أخرى سوداء اسمها بَرِيرَة، وغلاماً خصياً اسمه مَأبُور، وحماراً أشهب يقال له يَعْفُور، وفرساً هو اللزاز، وعسلاً وأشياء أخرى.

وعندما جاءت رسالة المقوقس إلى الرسول ﷺ قال: «ضن الخبيث بملكه، ولا بقاء لملكه» [ابن سعد؛ وابن هشام].

المبحث السابع: كتاب النبي ﷺ إلى المنذر بن سَاوَى العَبْدِي

روى ابن سيد الناس أن النبي ﷺ كتب إلى المنذر بن ساوى العبدي، أمير البحرين، مع أبي العلاء الحضرمي، بعد انصرافه من غزوة الحديبية، ثم قال: ذكر الواقدي بإسناده عن عكرمة، قال: «وجدت هذا الكتاب في كتب ابن عباس، بعد موته، فنسخته، فإذا فيه...».

وخلاصة ما ذكره ابن سيد الناس عن كتاب الرسول ﷺ إلى المنذر رداً على كتابه الأول إليه، أن المنذر قبل الإسلام، ومعه آخرون من أهل البحرين، ولم يورد نص رسالة الرسول ﷺ الأولى إلى المنذر.

وهناك روايات أخرى تشير إلى رسالة الرسول ﷺ الأولى إلى المنذر، ولكنها في رجب سنة تسع هجرية، منصرفه من تبوك [ابن طولون؛ والزيلعي؛ والأموال].

المبحث الثامن: كتاب النبي ﷺ إلى جَيْفَر وعبد ابني الجُلَنْدَىٰ

بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص في ذي القعدة سنة ثمان بكتابه إلى جيفر وعبد ابني الجلندى الأزديين بعُمان، فأسلما، وصدَّقا، وخلَّيا بين عمرو بن العاص والصدقة، وترك أمر الحكم لهما [عيون الأثر؛ ونصب الراية؛ وابن طولون].

المبحث التاسع: رسائل أخرى متفرقة

٩ ـ وكتب النبي ﷺ كتاباً إلى أهل دَمَا، وهي قرية من قرى عُمان، وكان عليها رجل من أساورة كسرى، يقال له: بستجان. وروى الكتاب ابن طولون بسنده إلى أبي شداد، رجل من أهل دما، ونصه:

«من محمد رسول الله، إلى أهل عُمان، سلام، أما بعد: فأقروا بشهادة أن لا إلٰه إلا الله، وأني رسول الله، وأدُّوا الزكاة، وخُطُّوا المساجد، كذا وكذا، وإلا غزوتكم».

١٠ ـ وكتب رسول الله ﷺ إلى رَعِيَّة السُّحَيمي اليمامي الحنفي، فأخذ الكتاب ورقع به دلوه، فبعث إليه الرسول ﷺ سرية، فأخذت ماله وأهله. فجاء المدينة نادماً، فبايع على الإسلام، وأحرز أهله [الإصابة، ومغازي ابن أبي شيبة، من مرسل الشعبي؛ وأحمد].

١١ ـ وكتب إلى مسيلمة الكذاب ـ زعيم اليمامة ـ يدعوه إلى الإسلام مع عمرو بن أمية الضمري [ابن سعد]. فكتب إليه مسيلمة جواباً على كتابه، ونصه «من مسيلمة رسول الله، إلى محمد رسول الله: سلام عليك. أما بعد: فإني أُشْرِكْتُ معك في الأمر، وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشاً قوم يعتدون [ابن هشام].

فقدم عليه رسولان بهذا الكتاب، فعندما قرئ عليه قال لهما: «فما تقولان أنتما؟» قالا: «نقول كما قال»، فقال عليه السلام: «أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما» [أحمد؛ وأبو داود، بسند صحيح].

ثم كتب إليه الرسول ﷺ:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى مسيلمة الكذاب: السلام على من اتبع الهدى، أما بعد: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] [ابن إسحاق].

ثم كان ما كان من أمر مسيلمة، وفتنته في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقضاء أبي بكر عليهما بعد خسارة فادحة في الأرواح بين الطرفين.

١٢ ـ وكتب الرسول ﷺ كتاباً إلى عظيم بُصْرَى، وأرسله مع الحارث بن عُمَير الأزدي، فعرض له شُرَحْبيل بن عمرو الغساني بمؤتة، فأوثقه رباطاً، ثم قدمه فضرب عنقه، ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره [الواقدي].

١٣ ـ وكتب النبي ﷺ إلى بَكْر بن وائل [ابن حبان في صحيحه].

١٤ ـ وكتب إلى بني عمرو من حِمْيَر، يدعوهم إلى الإسلام [ابن سعد].

١٥ ـ وكتب إلى جَبَلة بن الأَيْهَم، ملك غسان، يدعوه إلى الإسلام [نفسه].

١٦ ـ وبعث رسول الله ﷺ جَرِير بن عبد الله البَجَلِيّ بكتابه إلى ذي الكُلاع ابن نَاكُور، وإلى ذي عمرو يدعوهما إلى الإسلام فأسلما، وأسلمت امرأة ذي الكلاع [نفسه، وأصله في البخاري].

١٧ ـ وكتب إلى معدي كرب بن أبرهة، وأن له ما أسلم عليه من أرض خولان [نفسه].

١٨ ـ وكتب إلى أسقف بني الحارث بن كعب وأساقفه نجران وكهنتهم ومن تبعهم ورهبانهم [نفسه].

١٩ ـ وكتب إلى يحنة بن روبة صاحب أيلة [نفسه].

٢٠ ـ وإلى أبي ظبيان الأزدي من غامد، فأجابه في نفر من قومه بمكة [نفسه].

٢١ ـ وإلى الحارث ومسروح ونعيم بن عبد كُلال من حمير. وبعث الكتاب مع عَيَّاش بن أبي ربيعة المخزومي [نفسه].

٢٢ ـ وإلى نُفَاثَة بن فَروة الدئلي ملك السَّمَاوَة [نفسه].

وكتب إلى غير هؤلاء ممن ذكرهم ابن سعد في طبقاته وغيره من المؤرخين.

المبحث العاشر: فوائد وحكم وعبر في هذا المقطع من السيرة

١ ـ تؤكد هذه الرسائل على حقيقة معلومة ذكرناها في أول هذا الفصل، وهي أن الإسلام دين عالمي، لذا كان واجب الرسول ﷺ إبلاغ الدعوة إلى كل من يعرف من الناس وبكل الوسائل المتاحة في ذلك الزمان.

٢ ـ أن رفض بعض الحكام لدعوة الإسلام نابع من حبهم لسلطتهم وتكبرهم وتجبرهم، وليس لعدم قناعتهم بالإسلام.

٣ ـ دل اتخاذ الرسول ﷺ خاتماً من فضة يختم به رسائله على مشروعية اتخاذ الخاتم، كما دل على مشروعية نقش اسم صاحبه عليه. وقد

استدل كثير من العلماء بذلك على استحباب وضع خاتم من فضة في الأصبع التي كان الرسول ﷺ يضع خاتمه فيها، وهي أصبع الخنصر.

٤ ـ أن جعله ﷺ اسم الله أعلى في الخاتم واسمه الأدنى، فيه تعظيم كبير لله ﷻ واسمه تعالى.

٥ ـ أن إقراره ﷺ لمن كتب إليهم بأن يبقوا على ملكهم نابع من سياسته الرشيدة وتدبيره الحسن للأمور.





الفصل السادس عشر

عمرة القضاء

خرج رسول الله ﷺ والمسلمون إلى مكة في ذي القعدة من العام السابع الهجري، لأداء العمرة، حسب الشروط التي تمت في صلح الحديبية [ابن إسحاق، دلائل البيهقي من حديث ابن عقبة وعروة؛ والفسوى، بسند حسن، كما ذكر ابن حجر في الفتح].

فقد روى البيهقي [الدلائل، من حديث ابن عقبة عن الزهري]، وابن سعد، أن المسلمين صحبوا معهم أسلحتهم، ووضعوها بِيأْجِج، خارج الحرم، ودخلوا بسلاح الراكب، السيوف، كما هو الشرط.

لقد بلغ عدد من شهد عمرة القضاء ألفين سوى النساء والصبيان، منهم الذين شهدوا الحديبية [ابن حجر: الفتح، عن الحاكم في الإكليل].

وعندما دخل الرسول ﷺ مكة، كان عبد الله بن رَوَاحَة ينشد بين يديه:

خَلُّوا بني الكفار عن سبيله
اليوم نضربكم على تنزيله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله
ويذهل الخليل عن خليله

[الترمذي، حسن غريب]

وعندما أشاعت قريش أن المسلمين ضعفاء بسبب حمى يثرب أمر الرسول ﷺ أصحابه أن يرملوا ويسارعوا بالعدو في الأشواط الثلاثة الأولى من طوافهم، وأن يسعوا بين الصفا والمروة مهرولين؛ ليرى المشركون قوتهم [متفق عليه]. ففعلوا ما أمروا به، فرأتهم قريش، وهي مُصْطَفَّة على جبل قُعيقُعان، في مواجهة ما بين الركنين، فتعجبوا من قوتهم [البخاري، وأحمد

بسند صحيح]، وقالوا: هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم، هؤلاء أَجْلَد من كذا وكذا [مسلم].

وعندما فرغ رسول الله ﷺ من أداء مناسك العمرة أمر جماعة من الصحابة أن يذهبوا إلى أصحابهم ببطن يَأْجِج، فيقيموا على السلاح، ويأتي الآخرون الذين كانوا في حراسة السلاح ليقضوا نسكهم، ففعلوا، ثم دخل ﷺ الكعبة، ومكث بها إلى الظهر، ثم أمر بلالاً، فأذن على ظهر الكعبة [ابن سعد].

وعندما انقضت الأيام الثلاثة جاءت قريش في صباح اليوم الرابع إلى علي ﷺ، فقالوا: «قل لصاحبك: اخرج عنا فقد مضى الأجل». فخرج النبي ﷺ [البخاري] ونزل بِسَرف، فأقام بها إلى أن تتامَّ الناس، ثم انصرف إلى المدينة المنورة في ذي الحجة [نفسه].

وفي هذه العمرة تزوج ﷺ بميمونة بنت الحارث العامرية ـ أخت أم الفضل زوج عمه العباس ـ فبنى بها ﷺ بسرف [نفسه]. والراجح أن هذا الزواج كان بعد أن تحلل الرسول ﷺ من إحرامه [مسلم وغيره].

وكانت ميمونة تحت أبي رِهْم بن عبد العزى، وقيل: تحت أخيه حُوَيطِب، وقيل: سَخْبُرة بن رِهْم [نفسه].

ولما أراد الرسول ﷺ الخروج من مكة تبعتهم الطفلة عمارة ابنة حمزة تنادي: يا عم يا عم، فأخذها علي ودفعها لفاطمة، وهي ابنة عمه، فاختصم فيها علي، وزيد، وجعفر. فقال علي: أنا أخذتها، وهي ابنة عمي. وقال جعفر: ابنة عمي، وخالتها تحتي. وقال زيد: ابنة أخي، فقضى بها رسول الله ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم»، وقال لعلي: «أنت مني وأنا منك»، وقال لجعفر: «أشبهتَ خَلقي وخُلقي»، وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا» [البخاري؛ وأبو داود]، وكان هذا القضاء؛ لأن جعفراً محرم لها، إذ لا يجمع الرجل بين المرأة وخالتها في الزواج [الفتح].

وفي هذه القصة من الفقه: أن الخالة مقدمة في الحضانة على سائر الأقارب بعد الأبوين. . . . وفيها حجة لمن قدم الخالة على العمة، وقرابة

الأم على قرابة الأب؛ لأن الرسول ﷺ عندما قضى بعمارة لخالتها فقد كانت صفية عمتها موجودة إذ ذاك، وهذا قول الشافعي ومالك وأبي حنيفة، وأحمد في إحدى الروايتين عنه، وفي الرواية الثانية: أن العمة مقدمة على الخالة، وهو اختيار الشيخ ابن القيم [الزاد].

عرفت هذه العمرة بعدة أسماء، كل واحد منها يشير إلى جزء من أحداثها، فعرفت بعمرة القَضَاء أو القَضِيَّة نسبة للمقاضاة التي وقعت بين المسلمين وكفار قريش بنص كتاب صلح الحديبية، أو بعمرة القضاء؛ لأنها كانت قضاء عن العمرة التي تحللوا منها لِما حبسهم من حابس في صلح الحديبية، **وعرفت بعمرة** القصاص. انظر في هذا كله: سيرة مغلطاي.



الفصل السابع عشر

السرايا والأحداث
بين عمرة القضاء وسرية مُؤْتة

المبحث الأول:
سرية الأَخْرَم بن أبي العَوْجَاء السُّلَمِي

عندما رجع رسول الله ﷺ من عمرة القضاء، بعث ابن أبي العوجاء السلمي في خمسين فارساً، وكان معهم عين لبني سليم، فلما فصل من المدينة خرج العين إلى قومه فأخبرهم، فجمعوا جمعاً غفيراً، واستعدوا للقاء المسلمين. وعندما جاءهم المسلمون دعوهم إلى الإسلام فرفضوا، وَأَحْدَقُوا بالمسلمين، فقتلوا عامتهم، وأصابوا ابن أبي العوجاء، وتركوه جريحاً بين القتلى، ثم تحامل حتى بلغ المدينة في أول يوم من صفر سنة ثمان من الهجرة [البيهقي: الدلائل، من مرسل ابن عقبة عن الزهري؛ الواقدي، ابن سعد].

المبحث الثاني:
إسلام عمرو بن العاص وخالد بن الوليد رضي الله عنهما

روى أحمد [المسند، حسن] وابن إسحاق [السيرة، حسن]، أن عمرو بن العاص عندما رأى علو شأن الرسول ﷺ تحدث مع من يسمعون له من رجال قريش في أمر محمد ﷺ وأقنعهم بالخروج معه إلى النجاشي، فهو أحب إليهم أن يكونوا عنده من أن يكونوا تحت يدي محمد إذا ظهر، وإن ظهر قومهم فلن يأتيهم منهم إلا الخير لمعرفتهم بهم. وجمعوا جلوداً ليهدوها إلى النجاشي؛ لأن ذلك أحب ما يهدى إليه من أرض الحجاز. واتفق أن جاؤوا النجاشي، وعنده عمرو بن أمية الضمري رسولاً من النبي ﷺ، فعندما خرج من عند

النجاشي دخل عليه عمرو، وطلب منه أن يعطيه إياه ليقتله؛ لأنه من عدوه، فغضب منه النجاشي، وضربه على أنفه، فخاف واعتذر، ثم قذف الله في قلبه الإسلام لما رأى حماسة الناس حتى العجم في الإيمان بمحمد والدفاع عنه. ولم يتردد عمرو في مبايعة النجاشي على الإسلام عندما اقترح عليه النجاشي ذلك، ثم خرج، وكتم إسلامه عن أصحابه، وعاد إلى بلاده.

وخرج عمرو بن العاص قُبيل الفتح [الواقدي] عامداً إلى رسول الله ﷺ بالمدينة ليسلم، فلقيه خالد بن الوليد يريد ما يريد عمرو، فقدما معاً على الرسول ﷺ، فبايعا على الإسلام.

ومما يؤكد أن إسلام عمرو وخالد كان في التاريخ الذي ذكره ابن إسحاق والواقدي أن اسم خالد ظهر في سرية مؤتة في جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة، وأن اسم عمرو بن العاص ظهر في سرية ذات السلاسل في جمادى الثانية سنة ثمان من الهجرة، كما سيأتي بيان ذلك في المبحث الخاص بهما.

أما قصة إسلام خالد فقد رواها الواقدي، وخلاصتها أن خالداً عندما أراد الله به ما أراد من الخير، وقذف في قلبه الإيمان، كان ينصرف بعد كل موطن شهده ضد رسول الله ﷺ ويفكر، فيرى في نفسه أنه في موضع غير موضعه، وأن محمداً سيظهر، وفي غزوة الحديبية بالذات، تأكد له أن الرسول ﷺ ممنوع؛ لأنه عندما هم أن يغير بخيله على رسول الله ﷺ بعسفان، أطلع الله رسوله ﷺ على ما في أنفسهم، فصلى بأصحابه صلاة الخوف، ولم يترك لهم فرصة. وعندما تم الصلح بالحديبية رأى أنه لم يبق شيء، ففكر في الذهاب إلى النجاشي وهرقل، وبينما هو يقلِّب هذا الأمر في ذهنه، دخل رسول الله في عمرة القضاء، فتغيب، ودخل أخوه الوليد في الإسلام في هذه العمرة، وطلبه فلم يجده، فكتب إليه كتاباً فيه تعجبه من مثله في ذهاب عقله عن الإسلام، وذكر له سؤال الرسول ﷺ عنه وقوله عنه: «ما مثله جهل الإسلام، ولو كان جعل نكايته وجده مع المسلمين على المشركين كان خيراً له، ولقدَّمناه على غيره. . .». فلما جاءه كتاب أخيه نشط للهجرة، وزاده رغبة في الإسلام أنه رأى في المنام كأنه في بلاد ضيقة جدبة، فخرج منها إلى بلاد

خضراء واسعة، فقال: إن هذه لرؤيا، ذكرها لأبي بكر عندما قدم المدينة، فقال: هو مَخْرَجُكَ الذي هداك الله للإسلام، والضيق هو الشرك.

وعندما أجمع الهجرة أراد أن يرافقه رجال في مكانته، فاتصل بصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، فرفضا، فتركهما وخرج، وعند خروجه التقى صديقه عثمان بن طلحة، فذكر له ما يريد، فعلم منه أنه يريد ما يريد، فاتَّعدا بيأجج، وخرجا سَحَراً، والتقيا عند الفجر بيأجج، وسارا حتى انتهيا إلى الهَدَّة، فوجدا عمرو بن العاص بها، فتعارفوا، ثم جميعا إلى المدينة فأسلموا، وكان ذلك في صفر سنة ثمان من الهجرة.

المبحث الثالث: سرية غالب بن عبد الله إلى الكَدِيد

أمره رسول الله ﷺ أن يشن الغارة على بني المُلَوِّح، وهم بالكديد [واد أو مكان قريب من مكة]، وفي طريقه إليهم، وفي منطقة قُدَيْد، لقوا الحارث بن مالك، وهو ابن البَرْصَاء الليثي، فأخذوه، فأخبرهم أنه في طريقه إلى الرسول ﷺ ليسلم، فلم يطمئنوا إليه، فأوثقوه، واعتذروا إليه بأن رباط ليلة لن يُضِيْرَهُ، وتركوه مع رجل أسود من أصحابهم، وأوصوه أن يقتله إذا غالبه. وأتوا الكديد عند الغروب، فكمنوا وأرسلوا جُنْدُبَ بن مَكِيث الجهني طَلِيعَةً لهم، فأتى تلًّا مشرفاً على الحاضر، فرأى رجل من الأعداء أن هناك شيئاً مريباً، فأصابه بسهم فلم يتحرك، حتى لا يكشف أمر أصحابه، ونزع السهم من جسده ووضعه، وفي السحر شنوا الغارة على الأعداء، واستاقوا النعم، ومضوا بها، ومروا بابن البرصاء وصاحبه، فاحتملوهما معهم، وفي هذا الأثناء استغاث القوم، فجاءهم جمع غفير لا قِبل للمسلمين به، فساروا في إثرهم حتى قربوا منهم، ولم يكن بينهم وبين المسلمين إلا وادي قديد، فأرسل الله الوادي بالسيل من غير سحاب ولا مطر، فلم يستطيعوا تجاوزه، ونجا المسلمون منهم [ابن إسحاق، في السيرة، بسند جيد].

وكانت هذه السرية في صفر سنة ثمان من الهجرة، وكانوا بضعة عشر رجلاً [الواقدي].

المبحث الرابع: دروس وعبر من أحداث هذه السرية:

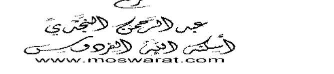
١ ـ أن إرسال الله ـ تعالى ـ الوادي بالسيل ليمنع الأعداء من الإيقاع بالمسلمين كرامة لهم.

٢ ـ وفي خبر إصابة جندب بسهم في جسده، ومع ذلك لم يتحرك، دليل على إخلاص المسلمين الأوائل وتحملهم أشد أنواع الأذى في سبيل هذه الدعوة.

٣ ـ أن في خبر ربط المسلمين ابن البرصاء دليلاً على أهمية أخذ الحذر من الأعداء.

٤ ـ وفي إرسال الطلائع للتجسس على أخبار الأعداء دليل على أهمية اتخاذ العيون أخذاً بالأسباب في المحافظة على أرواحهم، والإيقاع بالعدو، وأخذه على حين غرة ما دامت قد بلغته الدعوة، وأخذ في تهديد أمن المسلمين.







الفصل الثامن عشر

سرية مُؤْتَة

انظر ملحق (١٤) ـ الخريطة

[ومؤتة الآن قرية عامرة بالسكان، شرقي الأردن، على بعد أحد عشر ميلاً جنوب الكرك]

إن من أسباب هذه السرية أن رسول الله ﷺ بعث بكتاب مع الحارث بن عمير إلى ملك بُصْرَى، فلما نزل مؤتة عرض له شُرَحْبيل بن عمرو الغساني فقتله صبراً، وكانت الرسل لا تقتل. فغضب رسول الله ﷺ وأرسل هذه السرية إلى مؤتة [الواقدي، وابن سعد]، في جمادى الأولى من سنة ثمان الهجرية [متفق عليه بين أئمة المغازي: ابن إسحاق بإسناد مرسل حسن، وابن سعد، وعروة، وابن هشام].

وكان عدة هذه السرية ثلاثة آلاف مقاتل [ابن إسحاق، مرسلاً حسناً؛ ومغازي ابن أبي شيبة؛ وابن سعد؛ والواقدي] وأمر عليها زيد بن حارثة، ثم قال: إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة [البخاري]، وزاد الواقدي وابن سعد: «فإن أصيب عبد الله بن رواحة فليرتض المسلمون بينهم رجلاً، فيجعلوه عليهم».

وعندما تهيأ الجيش وتجهزوا للخروج ودَّع الناس أمراء رسول الله ﷺ وحينها بكى ابن رواحة، فسألوه عن السبب، فقال: «أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة بكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله ﷻ يذكر فيها النار: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]، فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود»، فقال المسلمون: «صحبكم الله ودفع عنكم، وردكم صالحين، فقال ابن رواحة:

«لكنني أسألُ الرحمنَ مغفرةً
وضربةً ذاتَ فَرْغ تقذفُ الزَّبَدا

[ذات فرغ: ذات سعة؛ الزبد: رغوة الدم]

أو طعنةً بيدي حَرَّان مجهزة
برحبة تنفذ الأحشاء والكَبِدَا
حتى يقال إذا مروا على جَدَثي
أرشده اللهُ من غازٍ وقد رَشِدا»

[ابن إسحاق، مرسلاً حسناً]

ثم مضوا حتى نزلوا مَعَان من أرض الشام، فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب، من أرض البلقاء، في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من لَخْم وجُذَام وبَلْقَيْن وبَهْرَاء وبَلِّي مائة ألف، عليهم رجل من بلِّي، يقال له: مالك بن رَافِلة. فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين يفكرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره، فنمضي له. فشجع ابن رواحة الناس، وقال: «يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون: الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور وإما شهادة». فقال الناس: «قد ـ والله ـ صدق ابن رواحة». فمضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء، لقيهم جموع هرقل، من الروم والعرب، بقرية مَشَارِف من قرى البلقاء، ثم دنا العدو، وانحاز المسلمون إلى قرية مؤتة، وعبؤوا أنفسهم فيها، فجعلوا على الميمنة قُطْبَة بن قتادة العذري، وعلى الميسرة عبادة بن مالك الأنصاري. ثم التقى الناس واقتتلوا، فاستشهد زيد، وأخذ الراية جعفر، فاقتحم عن فرس له شقراء، ثم عقرها، ثم قاتل حتى أكرمه الله بالشهادة، وهو ينشد:

«يا حَبَّذَا الجنَّةُ واقترابها
طيبةٌ وبارداً شرابُها

والـرومُ روم قـد دنـا عَـذابُـهـا
كـافـرةٌ بـعـيـدةٌ أنـسـابُـهَـا
عـلـيَّ إذ لاقـيـتـهـا ضِـرابُـهـا»

[ابن إسحاق، مرة مرسلاً حسناً، ومرة متصلاً حسنًا]

وروى ابن هشام أن جعفراً أخذ اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه حتى قتل، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله بذلك جناحين في الجنة يطير بهما حيث شاء [المجمع، من حديث ابن إسحاق، حسن].

ثم قال ابن هشام: «ويقال: إن رجلاً من الروم ضربه يومئذ ضربة فقطعه نصفين. وقد ذكر الواقدي وابن سعد عدة روايات في الحالة التي وجد عليها جعفر بعد استشهاده. ففي رواية أنه وجد في أحد نصفيه ثلاثون أو بضعة وثلاثون جرحاً، وفي رواية ثالثة أنه وجد في بدنه أكثر من ستين جرحاً وطعنة، قد أنفذته. وثبت في الصحيح [البخاري]، أنه قد وجد في جسده بضع وتسعون من طعنة ورمية.

روى ابن إسحاق [في السيرة، بسند حسن] وغيره أنه لما قتل جعفر أخذ ابن رواحة الراية، ثم تقدم بها، وهو على فرسه، ثم تردد بعض التردد، ثم قال مرتجزاً:

«أقـسـمـتُ يـا نـفـسُ لـتـنـزلـنَّـه
لـتـنـزلـن أو لـتـكـرهـنَّـه
إن أجـلـبَ الـنـاسُ وشـدوا الـرَّنَّـة
مـا لـي أراك تـكـرهـيـن الـجـنـة
قـد طـال مـا قـد كـنـت مـطـمـئـنـة
هـل أنـت إلا نـطـفـةٌ فـي شَـنَّـة

[أجلب: أي صاحوا واجتمعوا؛ والرنة: صوت فيه ترجيع شبه البكاء؛ النطفة: الماء القليل الصافي؛ شنة: القربة القديمة].

وقال أيضاً:

يا نفسُ إلّا تُقْتَلِي تموتي
هذا حِمام الموت قد صُلِيْتِ
وما تمنيت فقد أعطيت
إن تفعلي فعلهما هُديتِ

[يعني زيداً وجعفراً]

ثم نزل ساحة الوغى. فلما نَزل أتاه ابن عم له بعظم عليه بعض اللحم، وطلب منه أن يشد به صلبه لما لاقاه من أيامه تلك من الشدة، فلما أخذ من هذا العظم شيئاً يسيراً، سمع الكسرة من ناحية الناس فقال: وأنت في الدنيا! ثم ألقاه وأخذ سيفه فقاتل حتى قتل، فنال الشهادة التي كان يتمناها. وقد ظهر ذلك في موقفه عندما حث الناس على لقاء العدو، مع كثرته، وعندما ترجم مشاعره في أشعاره التي ذكرنا، وفي قوله لربيبه الذي كان في حجره ورديفه إلى مؤتة، زيد بن أرقم، الذي سمعه يترنم بأبيات من الشعر، يشتهي فيها الشهادة، فبكى زيد، فخفقه ابن رواحة بالدرة، وقال له: «ما عليك ـ يا لُكَع ـ أن يرزقني الله شهادة، وترجع بين شُعْبَتي الرحل» [ابن إسحاق، ولُكَع: الصغير].

ثم أخذ الراية بعده ثابت بن أَقْرَم، وطلب من المسلمين أن يصطلحوا على رجل منهم، فرشحوه، فرفض، فاصطلحوا على ابن الوليد. فأخذ الراية، وتمكن من الانسحاب [ابن إسحاق، حسن].

روي أنه لما قتل ابن رواحة مساء بات خالد، فلما أصبح غداً، وقد جعل مقدمته ساقته، وساقته مقدمته، وميمنته ميسرته، وميسرته ميمنته، أنكر الأعداء ما كانوا يعرفون من رايات وهيئة المسلمين، وقالوا: قد جاءهم مدد، فرعبوا، فانكشفوا منهزمين، فقتلوا مقتلة لم يقتلها قوم [الواقدي]. وانكسرت يومئذ في يد خالد بن الوليد تسعة أسياف [البخاري]، مما يدل على شدة القتال قبل أن ينسحب من ميدان القتال.

ومما يؤكد مباشرة المسلمين القتال قبل الانسحاب، ما رواه مسلم وغيره من حديث عَوْف بن مالك أن رجلاً من أهل اليمن رافقه في هذه السرية، فقتل رومياً وأخذ سَلَبَه، فاستكثره خالد، فشكاه اليمني إلى رسول الله ﷺ.

ومما ظهر من معجزات الرسول ﷺ في أمر هذه السرية أنه ﷺ نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة قبل أن يأتيه خبرهم، وعيناه تذرفان الدموع، وأخبرهم بأخذ خالد للراية، وبشرهم بالفتح على يديه، وسماه يومئذ سيف الله [البخاري]. وحزن رسول الله ﷺ لما وقع لهم [نفسه]. وبعد ذلك قدم بخبرهم يَعْلَى بن أمية، ولم يزد ما جاء به عما قاله الرسول ﷺ لأصحابه [البداية، من حديث ابن عقبة]. وفي رواية أن عامراً الأشعري هو الذي أخبر النبي ﷺ بمصابهم [الطبراني].

ومع ضراوة هذه المعركة، وكثرة أعداد جيش العدو، فإنه لم يستشهد من المسلمين سوى اثني عشر رجلاً [ابن إسحاق، وابن هشام الواقدي] كحد أقصى، أما الأعداء، فلم يعرف عدد قتلاهم، غير أن وصف المعركة يدل على كثرتهم.

وكان لشهداء مؤتة مكانة عظيمة عند الله تعالى، ولذا قال الرسول ﷺ: «ما يسرني أو قال ما يسرهم أنهم عندنا» [البخاري].

أما ما روى ابن إسحاق [من مرسل عروة] من أن الناس قالوا لجيش مؤتة: «يا فرار، فررتم في سبيل الله...»، فقد قال ابن كثير [البداية] عن هذه الرواية: «وعندي أن ابن إسحاق قد وهم في هذا السياق، فظن أن هذا الجمهور الجيش، وإنما كان للذين فروا حين التقى الجمعان، وأما بقيتهم فلم يفروا، بل نصروا كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ المسلمين، وهو على المنبر في قوله: «ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله، ففتح الله على يديه»، فما كان المسلمون ليسموهم فراراً بعد ذلك، وإنما تلقوهم إكراماً وإعظاماً، وإنما كان التأنيب وحثي التراب للذين فروا وتركوهم هناك، وكان فيهم عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وساق ابن كثير أدلة على أن جمهور المسلمين لم يفروا، بل فرت مجموعة من المسلمين، من ذلك حديث عبد الله بن عمر عند أحمد [المسند، حسن]، الذي فيه أنه كان ممن فر وخشوا القتل، إن هم دخلوا المدينة، فهموا أن يركبوا البحر، ثم أخيراً قرروا عرض أنفسهم على الرسول ﷺ، واعترفوا بفرارهم، فقال لهم: «لا بل أنتم العكارون، أنا فئتكم، وأنا فئة المسلمين»، وفي رواية قال لهم: «لا بل أنتم الكرارون».



وجيء بأبناء جعفر رضي الله عنه، فداعبهم رسول الله ﷺ، وأمر بحلق رؤوسهم، ودعا لهم، وقال لأمهم عندما جاءته تذكر يتمهم: «العَيْلَةَ تخافين عليهم، وأنا وليهم في الدنيا والآخرة؟» [أحمد: المسند، صحيح؛ وابن ماجه، حسن].

ولما جاء نعي جعفر قال رسول الله ﷺ: «اصنعوا لآل جعفر طعاماً، فقد أتاهم أمر يشغلهم، أو أتاهم ما يشغلهم» [أحمد: المسند، صحيح].

أحكام وحكم ودروس وعبر من أحداث هذه السرية:

١ - أن في تعيين الرسول ﷺ لثلاثة أمراء على جيش سرية مؤتة، دليلاً على جواز تعليق الإمارة بشرط، وتولية عدة أمراء بالترتيب [ابن حجر: الفتح].

٢ - في نعي الرسول ﷺ الأمراء الثلاثة قبل مجيء خبرهم، فيه جواز الإعلام بموت الميت، ولا يكون ذلك من النعي المنهي عنه، وفيه علم ظاهر من أعلام النبوة [نفسه].

٣ - في تأمير المسلمين لخالد بعد استشهاد الأمراء الثلاثة دليل على جواز الاجتهاد في حياة الرسول ﷺ [نفسه].

٤ - أن ظهور الحزن على رسول الله ﷺ عندما جاءه خبر استشهاد الأمراء الثلاثة دليل على ما جعله الله فيه من الرحمة، ولا ينافي ذلك الرضا بالقضاء. ويؤخذ منه أن ظهور الحزن على الإنسان إذا أصيب بمصيبة لا يخرجه عن كونه صابراً راضياً إذا كان قلبه مطمئناً، بل قد يقال: إن من كان ينزعج بالمصيبة، ويعالج نفسه على الرضا والصبر أرفع رتبة ممن لا يبالي بوقوع المصيبة أصلاً [نفسه].

٥ - أفاد المسلمون دروساً وخبرات عظيمة من هذا اللقاء الأول مع الروم في مستقبل جهادهم معهم، حيث تعرفوا على عددهم وعدتهم وخططهم العسكرية وطبيعة أرضهم التي وقع فيها القتال [العمري: المجتمع].

٦ - أن في مواقف الأمراء الثلاثة دليلاً على مدى قوة الإيمان الذي يحرك الصحابة رضي الله عنهم نحو ميادين الجهاد.



الفصل التاسع عشر

أبرز السرايا بين سرية مؤتة وغزوة فتح مكة

المبحث الأول: سرية ذات السلاسل

بعد عودة سرية مؤتة إلى المدينة بأيام قليلة، وبالتحديد في جمادى الثانية من سنة ثمان هجرية كما ذكر ابن سعد، بلغ الرسول ﷺ أن قضاعة بدأت تتجمع مرة أخرى تريد الدنو من المدينة، فأرسل إلى عمرو بن العاص، فلما جاءه قال له: «. . . إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلِّمك الله ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة»، فقال له عمرو: «يا رسول الله، ما أسلمت من أجل المال، ولكن أسلمت رغبة في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله ﷺ»، فقال: «يا عمرو نِعم المال الصالح للمرء الصالح» [أحمد: المسند؛ صحيح؛ والبخاري: الأدب، صحيح]. ثم بعثه في ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار؛ ليقضي عليهم في ديارهم، وأمره أن يستعين ببعض فروع قضاعة من بَلِّي وعذرة وبَلْقَيْن على ذلك العدو؛ لأن أم عمرو كانت من بلي، وفي ذلك استئلاف لهم. وعندما وصل في مسيره إلى ماء بأرض جذام، يقال له السَّلاسَل ـ وبه سميت السرية ـ بلغه كبر جمعهم، فأرسل رافع بن مَكِيث الجُهَنِي إلى الرسول ﷺ، فأمده بمائتين من المهاجرين والأنصار، عليهم أبو عبيدة عامر بن الجراح، وفيهم أبو بكر وعمر، وطلب من عمرو وأبي عبيدة أن يتطاوعا. وعندما أصر عمرو على تولي الإمامة في الصلاة، لم يرد أبو عبيدة أن يخالفه في هذا، امتثالاً لوصية الرسول ﷺ [ابن إسحاق؛ وعروة؛ وابن سعد؛ والواقدي].

في حديث أحمد [المسند، من مرسل الشعبي] أن النبي ﷺ استعمل أبا عبيدة على المهاجرين وعمرو بن العاص على الأعراب، وأمرهم بالإغارة

على بكر، فانطلق عمرو فأغار على قضاعة؛ لأن بكراً أخواله، فأطاعه أبو عبيدة، ولم يخالفه في ذلك؛ لأنه لم يرد الخلاف. ويستبعد هذا التعليل الذي ساقه الشعبي.

وسار عمرو بالناس حتى وطئ بلاد بَلِّي ودوخها، حتى أتى أقصى بلادهم وبلاد عُذْرَة وبَلْقِين، ولقي في آخر ذلك جمعاً، فحمل عليهم المسلمون، فهربوا، فعاد بعد هذا إلى المدينة [ابن سعد، والواقدي].

وفي طريق العودة احتلم عمرو في ليلة باردة فتيمم، ولم يغتسل غسله للجنابة، خشية البرد، مستنداً إلى قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]. ثم صلى بالناس، وقد أقر الرسول ﷺ هذا الاجتهاد منه [أبو داود، صحيح؛ والبيهقي: الدلائل والسنن، بسند قوي؛ البخاري، معلقاً].

وعندما أصابهم برد أمرهم عمرو بألَّا يوقدوا ناراً ولا يتبعوا العدو، واعترض بعض المسلمين على ذلك، وعندما شكوه إلى رسول الله ﷺ [ابن عساكر؛ وابن حبان في صحيحه] قال عمرو: «كان في أصحابي قلة فخشيت أن يرى العدو قلَّتهم عندما يوقدون النار، ونهيتهم أن يتبعوا العدو مخافة أن يكون لهم كمين»، فأعجب ذلك رسول الله ﷺ.

فوائد فقهية في أحداث هذه السرية:

١ ـ أن في خبر تأمير عمرو بن العاص على جيش فيه أبو بكر الصديق رضي الله عنه دليلاً على جواز تأمير المفضول على الفاضل، إذا امتاز المفضول على الفاضل بصفة تتعلق بتلك الإمارة أو الولاية [ابن حجر: الفتح]. فعمرو خبير حرب.

٢ ـ وفي حديث تيمم عمرو جواز التيمم لمن يتوقع الهلاك من استعمال الماء البارد.

٣ ـ وفيه جواز صلاة المتيمم بالمتوضئين.

٤ ـ جواز الاجتهاد في زمن الرسول ﷺ كما في خبر تيمم عمرو وصلاته وهو جنب [زاد المعاد].

المبحث الثاني: سرية أبي قتادة إلى بَطْن إضَم

[بين ذي خشب وذي المروة، وبينها وبين المدينة ثلاثة برد]

بعث رسول الله ﷺ سرية إلى إضم، فيها أبو قتادة، ومُحَلِّم بن جَثَّامَة بن قيس، حتى إذا كانوا ببطن إضم مر بهم عامر بن الأَضْبَط الأشجعي، فسلم عليهم بتحية الإسلام، فأمسكوا عنه، ومع ذلك حمل عليه محلم، فقتله لشيء كان بينهما، وأخذ بعيره ومتاعه، وفي ذلك نزل قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [النساء: ٩٤] [ابن إسحاق، حسن]. وقيل: إن رسول الله ﷺ قد رفض أن يستغفر لمحلم عندما طلب منه ذلك، وهم بحنين [ابن إسحاق، حسن].

وقالوا: إنه عندما مات بعد سبعة أيام من هذا دفنوه، فلفظته الأرض مرتين، فما كان من قومه إلا إن وضعوه بين جبلين، ثم رصوا فوقه الحجارة حتى واروه، فقال الرسول ﷺ عندما بلغه ذلك: «والله إن الأرض لتطابق على من هو شر منه، ولكن الله أراد أن يعظكم في حُرْم ما بينكم بما أراكم منه» [الطبري: التفسير، حسن لغيره].

وقد ذكر المحدثون أكثر من سبب في نزول هذه الآية. فقد روى البخاري أنها نزلت في مسلمين مر بهم رجل في غُنَيْمَتِه، وألقى إليهم السلام، فقتلوه، وأخذوا غنيمته، ورواه بنحو مثل رواية البخاري: أحمد [المسند، صحيح] والترمذي [حسن] والحاكم [حسن].

وروى البزار [في البداية] بسنده إلى ابن عباس أنها نزلت في المقداد بن الأسود، عندما بعث في سرية، وتفرق العدو، وبقي رجل معه مال كثير، وشهد أن لا إله إلا الله، فقتله المقداد، فقال رسول الله ﷺ للمقداد: «كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار، فأظهر إيمانه فقتلته، وكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة قبل».

ويبدو من هذه التفاسير أن الحادثة قد تكررت، وأن الآية نزلت في غير واحد [تفسير ابن كثير].

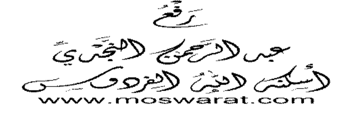
وكانت هذه السرية في أول شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة [ابن إسحاق؛ حسن؛ وابن سعد، والواقدي].

وذكر الواقدي في سبب بعث هذه السرية أن رسول الله ﷺ عندما أراد غزو مكة بعث أبا قتادة في ثمانية إلى بطن إضم، ليظن الظان أن رسول الله ﷺ متوجه إلى تلك الناحية، ولتذهب بذلك الأخبار.

فائدة ودروس في هذه السرية:

إن في قول الرسول ﷺ للمقداد: «كذلك كنت تخفي إيمانك قبل» لفتة كريمة إلى أنه لا ينبغي للإنسان إذا اجتمعت له أسباب القوة أن ينسى أيام ضعفه، فإنه إن فعل استبد به الغرور، وملكه الأشر والبطر [حاشية محققي تفسير ابن كثير].







الفصل العشرون

غزوة فتح مكة

انظر ملحق (١٥) ـ الخريطة

كان من ضمن شروط صلح الحديبية أنه من شاء أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل، ومن شاء أن يدخل في عهد قريش وعقدهم دخل، فدخلت خزاعة في عقد محمد ﷺ وعهده، ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم. فمكثوا في تلك الهدنة نحو السبعة عشر أو الثمانية عشر شهراً، ثم إن بني بكر وثبوا على خزاعة ليلاً بماء يقال له «الوَتير»، وهو قريب من مكة، وقالت قريش: «ما يعلم بنا محمد، وهذا الليل وما يرانا أحد»، فأعانوهم على خزاعة بالكُراع والسلاح، وقاتلوهم معهم للضغن على رسول الله ﷺ. فاستنجدت خزاعة بالمسلمين، وقدم عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة، فأنشد أبياتاً من الشعر أمام رسول الله ﷺ يستنصره، فقال رسول الله ﷺ: «نصرت يا عمرو بن سالم». فما برح حتى مرت بهم سحابة، فقال رسول الله ﷺ: «إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب» [ابن إسحاق، حسن لذاته].

ويذكر ابن إسحاق أن بني بكر لم يتركوا مطاردة خزاعة وقتلهم حتى داخل الحرم، وبلغ عدد قتلى خزاعة عشرين رجلاً [الواقدي].

وذكر موسى بن عقبة [في البداية] أن الذين أعانوا بني بكر على خزاعة من أشراف قريش: صفوان بن أمية، وشيبة بن عثمان، وسهيل بن عمرو، وأن الإغاثة كانت بالسلاح والرقيق.

وفي رواية لابن حجر في المطالب العالية وأخرى في الفتح إشارة إلى أن رسول الله ﷺ أرسل إلى قريش يخيرهم بين دفع دية قتلى خزاعة أو البراءة من حلف بني بكر أو الحرب، فاختارت قريش الحرب.

ولأن هذا التصرف من قريش يعد نقضاً لمعاهدة وصلح الحديبية، فقد ندمت قريش على فعلتها، ولذا عندما انصرف ضمرة أرسلت أبا سفيان إلى المدينة لتجديد المعاهدة [ابن حجر: الفتح، من حديث ابن عائذ]. والمشهور أن قريشاً عندما خافت من نتائج فعلتها كانت هي التي بادرت بإرسال أبي سفيان إلى المدينة قبل أن يبلغ المسلمين الخبر، وعندما جاء إلى المدينة لم يتصل بالرسول ﷺ مباشرة، بل ذهب إلى أبي بكر، ثم عمر، ثم فاطمة، ثم علي، فردوه جميعاً، وأغلظ عليه عمر، فعاد إلى مكة خائباً [ابن إسحاق، حسن]. ونص قول عمر رضي الله عنه: «أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به» [البيهقي، الدلائل، حسن]. وفي رواية الواقدي: «والله لو وجدت الذر تقاتلكم لأعنتها عليكم، قال أبو سفيان: جزيت من ذي رحم شراً».

وكان أبو سفيان عندما قدم إلى المدينة دخل على ابنته أم حبيبة، زوج النبي ﷺ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: «يا بُنَيَّة، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني؟ قالت: «بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ». قال: «والله لقد أصابك ـ يا بنية ـ بعدي شر». ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ فكلمه، فلم يرد عليه شيئاً [ابن إسحاق، حسن]. . .

وأمر رسول الله ﷺ أهله بالجهاز، ولم يسم لهم الجهة التي يقصدها، ثم أعلمهم بعد ذلك أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والتهيؤ، وقال: «اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها»، فتجهز الناس، وقال حسان في ذلك شعراً يحرض الناس، ويذكر مصاب خزاعة [ابن إسحاق، حسن].

واستنفر الرسول ﷺ القبائل التي حول المدينة: سُلَيماً، وأشجع، ومزينة، وأسلم، وغفاراً. فمنهم من جاءه وهو بالمدينة، ومنهم من لحقه بالطريق إلى مكة، حتى بلغ جيش المسلمين عشرة آلاف مقاتل [البخاري، ابن وإسحاق حسن]، ولم يتخلف أحد من المهاجرين والأنصار [ابن إسحاق، حسن].

وبلغ ما حشدته مزينة من رجالها ألف مقاتل، وسليم كذلك ألفاً أو سبعمائة [نفسه].

ولما تهيأ الرسول ﷺ إلى الخروج أرسل حاطبُ بن أبي بلتعة البدري كتاباً مع امرأة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ. فبعث النبي ﷺ علياً والزبير والمقداد في أثرها، وقال لهم: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خَاخ، فإن بها ظَعِيْنَة معها كتاب، فخذوه منها». وعندما أدركوها في المكان المشار إليه، طلبوا منها إخراج الكتاب، فأنكرت وجوده معها، فقالوا لها: «لَتُخْرِجِنَّ الكتاب، أو لنلقين بالثياب»، فأخرجته من عِقَاصِها [ضفائر شعرها]. فأرسل الرسول ﷺ إلى حاطب، فقال له: «يا حاطب، ما هذا؟»، قال: «يا رسول الله، لا تعجل عليَّ، إني كنت امرءاً مُلْصَقاً في قريش حليفاً، ولم أكن من أنفسها. وكان من معك من المهاجرين ممن لهم قرابات يحمون أهليهم، وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قَرَابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام». فقال رسول الله ﷺ: «أما إنه قد صَدَقَكُم»، فقال عمر: «يا رسول الله، دعني أضرب عنق هذا المنافق»، فقال النبي ﷺ: «إنه قد شهد بدراً، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدراً، وقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، فأنزل الله الآيات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١] [متفق عليه]، وفي رواية: فدمعت عينا عمر، وقال: «الله ورسوله أعلم» [البخاري].

خرج رسول الله ﷺ وأصحابه من المدينة في طريقهم إلى مكة، في رمضان سنة ثمان من الهجرة، وكانوا صياماً، حتى بلغوا كُدَيْداً، فأفطر، وأفطر الناس [متفق عليه].

والذي اتفق عليه أهل السير والمغازي أنه خرج في عاشر رمضان،

ودخل مكة لتسع عشرة ليلة خلت منه [ابن إسحاق، حسن]. واختلفوا في تاريخ الفتح ما بين ثنتي عشرة، وثلاث عشرة، وست عشرة، وسبع عشرة، وثمان عشرة، وتسع عشرة، من رمضان، واتفقوا على أنه في رمضان سنة ثمان، كما جاءت بذلك الروايات عند مسلم [مسلم؛ وابن سعد].

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة أبا رُهْم، كُلثوم بن حصين بن عتبة بن خلف الغفاري [ابن إسحاق، حسن].

وقبل دخول الرسول ﷺ مكة جاءه بعض زعماء قريش، فأعلنوا إسلامهم، منهم ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، أخو الرسول ﷺ من الرضاعة، وقد جاءه بالأبواء، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، وقد جاءه بين السقيا والعَرْج. وكانا من ألد خصوم الإسلام خاصة أبو سفيان الذي ظل على مدى عشرين سنة يهجو المسلمين، ويقاتلهم في كافة الحروب، ولكنه عندما أسلم كانت له مواقف بطولية في الدفاع عن الرسول ﷺ، لا سيما موقفه يوم حنين، حين فر الناس، فصمد مع الرسول ﷺ صموداً مشهوداً [ابن إسحاق، حسن]، وسيأتي خبر ذلك في مكانه. أما عبد الله بن أمية، أخو أم المؤمنين أم سلمة ﵂ لأبيها، فقد دافع عن الإسلام بقوة، واستشهد في حصار الطائف [الاستيعاب].

ولقيه ببعض الطريق عمه العباس [ابن إسحاق، حسن]، وذكر ابن هشام أن ذلك كان بالجُحْفَة، وهو مهاجر بعياله إلى المدينة.

وقيل: إن العباس أسلم قبل بدر [ابن سعد]، بل قيل قبل الهجرة إلى المدينة [نفسه]. قال ابن حجر [في الفتح]: «وكان إسلامه على المشهور قبل فتح مكة ـ يعني حين سار الرسول ﷺ إلى مكة فاتحاً ـ، وقيل قبل ذلك، وليس ببعيد، فإن حديث أنس في قصة الحجاج بن علاط ما يؤيد ذلك». ففي القصة أن العباس عندما سمع برواية الحجاج عن انهزام المسلمين يوم خيبر، واستباحتهم، وأسر الرسول ﷺ، قعد ولم يستطع القيام من هول الخبر على نفسه، وأخذ ابناً له يشبه الرسول ﷺ يقال له قَثَم، فاستلقى، ووضعه على صدره، وهو يقول: «حبي قثم، شبيه ذي الأنف الأشم، نبي رب ذي النعم، برغم أنف من رغم». وأرسل غلاماً له إلى الحجاج بن علاط يستعلمه الخبر،

فطمأن الحجاج الغلام. وعندما جاء الغلام، وبشر العباس، وثب فرحاً، حتى قبل بين عينيه، وعندما أخبره بما قال الحجاج أعتقه. ولما جاء المسلمون أخبرهم الخبر، وسروا بذلك سروراً عظيماً، وزالت عنهم الكآبة [عبدالرزاق؛ وأحمد؛ وابن حبان؛ والبزار؛ والنسائي، وأسانيدهم صحيحة].

وقد جزم ابن عبد البر [في الاستيعاب] بإسلامه قبل خيبر، استناداً إلى حديث الحجاج بن علاط هذا.

ويقول ابن حجر [في الفتح] في ترجيحه إسلام العباس قبل فتح مكة: «. . . . وأما قول أبي رافع في قصة بدر: كان الإسلام دخل علينا أهل البيت، فلا يدل على إسلام العباس حينئذ، فإنه كان ممن أسر يوم بدر ففدى نفسه وعقيلاً ابن أخيه أبي طالب، ولأجل أنه لم يهاجر قبل الفتح لم يدخله عمر في أهل الشورى مع معرفته بفضله واستسقائه به. . . ».

والذي أرجحه هو ما ذهب إليه ابن عبد البر أن العباس أسلم قبل فتح خيبر، وكان يكتم إسلامه بأمر الرسول ﷺ لمصلحة الدعوة وخاصة تزويد الرسول ﷺ بأخبار قريش.

تجمعت جيوش المسلمين بمَر الظَهران ـ مكان بين مكة والمدينة ـ ولم تكن الأنباء قد وصلت قريشاً بعد، ولكنهم كانوا يتوقعون أمراً بسبب إخفاق سفارة أبي سفيان إلى المدينة حين أعانوا بني بكر على خزاعة، فأرسلوا أبا سفيان وحَكيم بن حِزام وبُدَيل بن وَرْقَاء؛ ليتحسسوا الأخبار عن الرسول ﷺ، فالتقاهم العباس راكباً بغلة الرسول ﷺ وكان يريد أن يرسل إلى قريش رسولاً يطلب منهم أن يخرجوا لمصالحة الرسول ﷺ قبل أن يدخل عليهم مكة، وكانوا ثلاثتهم يتحدثون في أمر الجيش المعكسر بمر الظهران وكثرة نيرانه، وقد ظن بديل أنها خزاعة، وعارضه أبو سفيان في هذا، فأخبرهم العباس بأنه جيش المسلمين، فوافقه، وأردفه على البغلة، ولما رآه عمر أراد قتله، ولكن الرسول ﷺ صرفه عن هذا، وعندما أدخل العباس أبا سفيان على الرسول ﷺ أخذ يدعوه إلى الإسلام شطراً كبيراً من تلك الليلة، فألان القول وتردد، فطلب الرسول ﷺ من العباس أن يأخذه معه إلى خيمته، ويأتي به في صباح اليوم التالي.

وفي الصباح قبل أبو سفيان الإسلام بعد تردد، وطلب العباس من الرسول ﷺ أن يجعل لأبي سفيان شيئاً؛ لأنه يحب الفخر، فوافق، وقال في إعلانه لأهل مكة: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن. . . . .».

وأمر الرسول ﷺ العباس أن يحبس أبا سفيان عند مضيق الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها، ففعل، حيث أوقفه على عدة وعدد المسلمين عندما كانت تمر بهما كتائب المسلمين بمر الظهران، حتى إذا مرت به كتيبة المهاجرين والأنصار، وفيهم رسول الله ﷺ، قال أبو سفيان للعباس: «والله لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيماً»، فقال العباس: «ويحك يا أبا سفيان، إنها النبوة»، قال أبو سفيان: «فنعم إذاً».

وعندما رأى أبو سفيان ما رأى جاء إلى قومه، وصرخ فيهم محذراً لهم بأن لا قبل لهم بما جاء به محمد، وقال لهم ما قاله الرسول ﷺ: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه داره فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد [ابن راهويه: المطالب العالية، صحيح؛ وابن إسحاق، حسن].

أما بديل وحكيم، رفيقا أبي سفيان، فقد أسلما بمجرد دخولهما على رسول الله ﷺ [ابن سعد؛ والواقدي].

وعندما مرت كتيبة الأنصار بأبي سفيان قال سعد بن عبادة، حامل رايتهم: «اليوم يوم الملحمة اليوم تُستحل الكعبة» [البخاري]، فاحتج أبو سفيان على هذا القول، فقال له الرسول ﷺ: «كذب سعد ـ أي أخطأ ـ ولكن هذا يوم يعظم فيه الله الكعبة، ويوم تُكسى فيه الكعبة. وأخذ الراية من سعد، ودفعها إلى ابنه قيس، ولكن سعداً طلب منه أن يصرف ابنه عن الموضع الذي هو فيه، مخافة أن يُقدم على شيء يكرهه، فصرفه عن ذلك [ابن حجر في الفتح ومختصر روائد البزار، بسند صحيح]، وقيل: إنه دفع الراية إلى الزبير بن العوام، فدخل الزبير مكة بلوائين [ابن حجر: المطالب؛ المجمع]، وجزم موسى بن عقبة في المغازي عن الزهري بأنه دفعها إلى الزبير [ابن حجر: الفتح، البداية].

لقد ذكر الواقدي تفصيلاً دقيقاً لتوزيع الرايات والألوية على قادة الجيش الإسلامي، وأسماء الرسل الذين أوفدهم النبي ﷺ لاستنفار القبائل، وعدد أفراد الجيش الإسلامي وعدة كل قبيلة. وقد ثبت أن الرسول ﷺ عندما وصل مر الظهران عين القادة، وقسم الجيش إلى ميمنة وميسرة وقلب، فكان ابن الوليد على المجنبة اليمنى، والزبير على المجنبة اليسرى، وأبو عبيدة على الرجالة [مسلم]. وكانت راية الرسول ﷺ سوداء، ولواؤه أبيض [ابن ماجه، حسن، وأبوداود، حسن].

وقد جمعت قريش جموعاً من قبائل شتى ومن أتباعها لحرب المسلمين، وقالوا: نقدم هؤلاء، فإن كان لهم شيء كنا معهم، وإن أصيبوا أعطينا الذي سئلنا. فأمر رسول الله ﷺ بقتالهم، وسارت جيوشه حتى انتهت إلى الصفا، ما يعرض لهم أحد إلا قتلوه [مسلم]. وقاد هذا الجمع صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، واختاروا الخَنْدَمَة؛ ليقاتلوا فيها [ابن إسحاق، مرسلاً حسناً؛ والخندمة: اسم جبل بمكة].

ودخل الرسول ﷺ مكة من أعلاها من جهة كَدَاءٍ [البخاري] خاشعاً شاكراً يقرأ سورة الفتح، ويرجع في قراءتها، وهو على راحلته [البخاري]، ودخل ابن الوليد من أسفلها [الفتح]. والتحم خالد عند الخَنْدَمَة مع بعض المشركين، فاستشهد اثنان من فرسان المسلمين [البخاري]، وقيل: ثلاثة [ابن إسحاق، مرسلاً حسناً]، وقيل: قتل من المشركين اثنا عشر رجلاً أو ثلاثة عشر رجلاً - بالشك [مسلم]، وقيل قريب من عشرين رجلاً، ومن هذيل ثلاثة أو أربعة [البيهقي: السنن الكبرى، من مرسل ابن عقبة]، وقيل: أربعة وعشرون من قريش وأربعة من هذيل [الواقدي؛ ابن سعد]، وقيل سبعون قتيلاً [الطبراني، حسن لغيره]. ومن القرائن التي ترجح رواية موسى بن عقبة - باعتبار أنه من رجال الجماعة، وأوثق من ابن إسحاق وابن سعد والواقدي - قول أبي سفيان: «يا رسول الله، أبيحت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم» [مسلم].

والظاهر من الأحاديث أن هذا القتل الذي حدث لم يكن ليحدث لو احترم كل المشركين الأمان الذي أعلنه الرسول ﷺ لأهل مكة، ذلك الأمان الذي فسره بعض الأنصار، بأنه رغبة النبي ﷺ في قريته ورأفة بعشيرته،

فأخبره الوحي بما قالوا، فخاطبهم قائلاً: «كلَّا، إني عبد الله ورسوله. هاجرت إلى الله وإليكم، والمحيا محياكم، والممات مماتكم»، فأقبلوا إليه يبكون، ويقولون: «والله! ما قلنا الذي قلنا إلا الضَنَّ بالله وبرسوله، فقال لهم: «إن اللهَ ورسولَه يُصَدِّقَانِكُم ويَعْذِرَانِكُم»، فأقبل بعض الناس إلى دار أبي سفيان وبعضهم الآخر أغلقوا عليهم أبوابهم [مسلم].

لقد استثنى الرسول ﷺ من ذلك الإعلان أربعة رجال وامرأتين إذ أعلن إهدار دمائهم، ولو كانوا متعلقين بأستار الكعبة، والرجال هم: عكرمة بن أبي جهل [الواقدي]، وعبد الله بن خَطَل [كان مسلماً، فأرسله الرسول ﷺ مع أحد الأنصار مصدقاً، وكان معهما مولى له مسلم يخدمه، فعدا على مولاه فقتله، لأنه لم يصنع له طعاماً، ثم ارتد مشركاً، ابن إسحاق، معلقاً. وكان يهجو رسول الله ﷺ بالشعر، ابن حجر: الفتح]، ومِقْيَس بن صُبَابَة [قَتَلَ أنصاريٌّ أخاه خطأ يوم المريسيع، فَأُعْطِيَ الدية، ثم عدا على الأنصاري، فقتله، وهرب إلى مكة مرتداً، ابن إسحاق، معلقاً، والبزار في الكشف، والطبراني في الأوسط، وعبد الرزاق، وابن أبي شيبة في المصنف؛ والنسائي والحديث حسن لغيره]، وعبد الله بن سعد بن أبي سَرْح [كان قد أسلم وكتب الوحي، ثم ارتد: ابن سعد؛ والطبراني في الأوسط، وعبد الرزاق في المصنف، والنسائي: انظر: الحاشية السابقة، وفيها بقية المعلومات، وابن إسحاق، معلقاً، وأبو داود، والحديث حسن لغيره]، وقد قتل ابن خطل، وهو متعلق بأستار الكعبة [متفق عليه]، وقتل مقيس في سوق مكة، واختفى عكرمة، وعبد الله بن سعد بن أبي السرح، حتى ضمنا الأمان من الرسول ﷺ، فجاءا مسلمين، وحقنا دمهما [النسائي؛ حسن لغيره]. والمرأتان هما: فَرْتَنَى وسارة، وقيل فَرْتَنَى وأخرى كانتا جارتين لابن خطل [ابن إسحاق، حسن لغيره]، وأن سارة كانت لعكرمة بن أبي جهل [ابن إسحاق]. وأما قينتا ابن خطل فقتلت إحداهما وهربت الأخرى حتى استؤمن لها، فأمَّنها رسول الله ﷺ. وأما سارة فكذلك هربت حتى استؤمن لها، وعاشت إلى زمان عمر فوطئها رجل بفرس فقتلها [الفتح؛ وابن إسحاق، وابن هشام].

ويذكر ابن حجر أن عدد الذين أهدر الرسول ﷺ دماءهم تسعة من الرجال، وست أو ثمانٍ من النساء، وذلك للاختلاف في القينتين، إذ يحتمل

أن تكون أرنب وأم سعد هما القينتان. وممن ذكرهم من غير من ذكرنا: الحُويْرِث بن نُقَيْذ، نخس بعير ابنتي رسول الله ﷺ فاطمة وأم كلثوم، يوم هجرتهما، فرمى بهما إلى الأرض فقتله علي، وهَبَّار بن الأسود الذي عَرَضَ لزينب بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت، فنخس بعيرها حتى سقطت على صخرة، وأسقطت جنينها، ففر يوم فتح مكة، ثم أسلم وحسن إسلامه، والحارث بن طَلاطِل الخزاعي، فقتله علي، وكعب بن زهير، وقد جاء بعد ذلك وأسلم، ووحشي بن حرب، قاتل حمزة، هرب إلى الطائف، ثم جاء في وفد ثقيف، وأسلم وحسن إسلامه، وهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان، وقد أسلمت.

وذكر الواقدي أن الرسول ﷺ أمر بقتل ستة نفر وأربع نسوة: عكرمة، وهبار، وابن سعد، ومقيس، والحويرث، وابن خطل، وهند بنت عتبة، وسارة مولاة عمرو بن هشام، وقينتين لابن خطل.

وسبب إهدار النبي ﷺ دم هؤلاء ـ كما هو واضح من سيرتهم ـ ما ألحقوه من أذى شديد وتنكيل بالمسلمين، وكان في إهدار دمهم عبرة للطغاة والمستهترين بأرواح الأبرياء في كل زمان ومكان.

أحل الرسول ﷺ لخزاعة أن تثأر من بني بكر في اليوم الأول من الفتح حتى العصر، وذلك لما كان منهم بالوتير. وعندما دخل العصر أمر بكف السلاح عن بني بكر، وبَيَّنَ حرمة مكة، وعندما قتلت خزاعة رجلاً من بني بكر في اليوم التالي بمزدلفة غضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً، ودفع دية البكري، وقال: إن من يقتل بعد ذلك قتيلاً فأهل القتيل بالخيار بين القصاص والدية [أحمد، حسن؛ وابن إسحاق، حسن].

وذكر ابن إسحاق تفاصيل مقتل هذا البكري، واسمه ابن الأشوع الهذلي، قتله خِراش بن أمية، لقتله أحد فرسان خزاعة، واسمه أحمر.

وأعلن الرسول ﷺ العفو عن عامة أهل مكة، عندما اجتمعوا إليه قرب الكعبة ينتظرون حكمه فيهم، فقال لهم: «ما تظنون أني فاعل بكم؟» فقالوا: «خيراً، أخ كريم، وابن أخ كريم». فقال: «لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله

لكم» [الأموال، مرسلاً حسناً؛ وابن إسحاق، يتقوى بغيره]. وفي رواية، أنه قال لهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» [ابن إسحاق]، ولذا عرفوا في التاريخ بـ«الطلقاء».

وكان هذا الموقف من الرسول ﷺ لما نزل من القرآن: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقال: «نصبر ولا نعاقب»، مختاراً العفو والصبر، تَفَضُّلاً واحتساباً [أحمد، حسن؛ والترمذي، حسن صحيح؛ والحاكم، صحيح].

وبيّن الرسول ﷺ للناس حرمة مكة، وأنها لا تُغْزَى بعد الفتح، وأعلى من مكانة قريش، وأمر ألا يقتل قرشي صبراً بعد يوم الفتح إلى يوم القيامة [مسلم؛ أحمد، حسن].

واستثنى الرسول ﷺ مكة من معاملة البلاد التي تفتح عَنْوَة، وذلك لقدسيتها، فحرم القتل أو السبي فيها، وأبقى الأموال الثابتة والمنقولة في أيدي أصحابها، ولم يفرض عليها خراجاً، ولهذا ذهب جمهور الأئمة من السلف والخلف إلى أنه لا يجوز بيع أراضي مكة ولا إجارة بيوتها، يسكن أهلها فيما يحتاجون إليه من دورها، وما زاد عن حاجتهم فهو لسكنى الحجاج والمعتمرين والقاصدين المسجد الحرام، وذهب آخرون إلى جواز بيع أراضيها وإجارة منازلها، واستدلوا في ذلك بآثار قوية، بينما أدلة المانعين لذلك آثار مرسلة وموقوفة [الزاد].

ونزل رسول الله ﷺ بقبة ضربت له بِالحَجُون، في المكان الذي تعاقدت فيه قريش على مقاطعة بني هاشم والمسلمين، وهو خَيْف بني كِنَانَة، ويعرف بالمُحَصَّب؛ لأن داره قد أخذها عقيل بن أبي طالب، وهو لا يرثه؛ لأنه كافر [متفق عليه]، ولم يرث علي وجعفر شيئاً من الدور؛ لأنهما مسلمان، وقد مات أبوهما كافراً. إضافة إلى أن عقيلاً وطالباً باعا كل الدور [البخاري].

وأمر الرسول ﷺ بتطهير البيت الحرام بإزالة الأصنام عنه، وشارك بيده في تكسيرها، وهو يقرأ: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ]، و﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] [متفق عليه]، وكان عددها ستين وثلاثمائة [متفق عليه]. وكان بداخل الكعبة صُوَرٌ لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وهم يستقسمون بالأزلام، فلطخت بالزعفران، ولم

يدخل الكعبة إلا بعد إخراجها منها، وقال: «قاتلهم الله، ما كان إبراهيم يستقسم بالأزلام» [البخاري، أحمد، صحيح]، وفي رواية قال: «هذا إبراهيم مصور، فما له يستقسم؟» [البخاري]، وفي رواية أن صورة مريم ـ أيضاً ـ كانت داخل الكعبة [نفسه]. ووجد حمامة من عيدان فكسرها، ورمى بها خارج الكعبة [ابن إسحاق، حسن]. وعندما طهرت الكعبة دخلها، وصلى بها ركعتين [البخاري]، ثم خرج، فأعطى مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة، وأبقى الحجابة في أيدي بني شيبة كما كانت في الجاهلية [عبدالرزاق، والفتح، والأسانيد تعتضد]. ثم استلم الحجر الأسود، وطاف بالبيت من غير إحرام، وكان على رأسه المغفر يوم دخل مكة، ثم لبس عمامة سوداء [متفق عليه]. وكان يستلم الركن بمحجنه [متفق عليه]، كراهة أن يزاحم الناس في طوافهم، وتعليماً للأمة الإسلامية.

وأمر بلالاً أن يؤذن، فعلا بلال على ظهر الكعبة فأذن عليها، فقال بعض بني سعيد بن العاص: «لقد أكرم الله سعيداً إذ قبضه قبل أن يرى هذا الأسود على ظهر الكعبة» [الذهبي: المغازي؛ والبيهقي: الدلائل، صحيح]. وقال بعض زعماء قريش بنحو هذا [الواقدي؛ وابن هشام].

وعندما تم تطهير البيت الحرام من الأصنام أرسل الرسول ﷺ بعوثاً إلى مناطق مختلفة لإزالة أكبر الأصنام التي بها. فقد أرسل خالد بن الوليد في ثلاثين رجلاً إلى بطن نخلة من ديار ثقيف لهدم العزى، صنم مضر وقريش وكنانة، فهدمها [ابن إسحاق، وابن سعد، والواقدي]. وكان ذلك لخمس ليال بقين من رمضان [ابن سعد، والواقدي]. وأرسل سعد بن زيد الأشهلي في عشرين فارساً إلى صنم مناة بالمُشَلَّل من ناحية قديد ـ وهو القديدية الآن ـ وهو صنم يعظمه العرب، وخاصة الأوس والخزرج قبل إسلامهم، فهدمها [ابن سعد]، وذلك لست بقين من رمضان [نفسه]. وأرسل عمرو بن العاص إلى سُوَاع، صنم هُذَيل، فهدمها [نفسه]. وهذه الأصنام هي التي أشار إليها القرآن الكريم في الآية: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠﴾ [النجم].

واجتمع الناس لمبايعة الرسول ﷺ على السمع والطاعة لله ورسوله،

فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء. واجتمع إليه نساء قريش فيهن هند بنت عتبة، زوج أبي سفيان، متنقبة متنكرة لما كان من صنيعها بحمزة ﷺ يوم أحد، فلما دنون منه ليبايعنه، قال رسول الله ﷺ: «تبايعنني على أن لا تشركن بالله شيئاً، فقالت هند: والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما أخذته على الرجال سنؤتيكه، قال: ولا تسرقن، قالت: والله إن كنت لأصيب من مال أبي سفيان الهنة والهنة، وما أدري أكان ذلك حلًّا لي أم لا؟ فقال أبو سفيان، وكان شاهداً لما تقول: أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل، فقال عليه السلام: «وإنك لهند بنت عتبة؟»، فقالت: أنا هند بنت عتبة، فاعف عما سلف عفا الله عنك. قال: ولا تزنين، قالت: وهل تزني الحرة؟ قال: ولا تقتلن أولادكن، قالت: قد ربيناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً، فأنت وهم أعلم، فضحك عمر من قولها حتى اسْتَغْرَب [استلقى على قفاه - السبل]، قال: ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن، فقالت: والله إن إتيان البهتان لقبيح، ولبعض التجاوز أمثل. قال: ولا تعصينني في معروف، فقال رسول الله ﷺ لعمر: بايعهن، واستغفر لهن رسول الله ﷺ، فبايعهن عمر. وكان رسول الله ﷺ لا يصافح النساء ولا يمس امرأة ولا تمسه، إلا امرأة أحلها الله له [الطبري: التاريخ من بلاغات قتادة السدوسي؛ ابن سعد، بسند صحيح من مرسل الشعبي وميمون بن مهران ـ كما قال ابن حجر في الإصابة، ترجمة هند بنت عتبة ـ وقالت بالمعنى أختها فاطمة بنت عتبة، كما روى ذلك الحاكم (٢/ ٤٨٦) بسند صححه ووافقه الذهبي].

وقد ثبت في الصحيح أن الرسول ﷺ كان يبايع النساء بالكلام، بالآية: ﴿...يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا...﴾ [الممتحنة: ١٢]، وما مست يده يد امرأة أجنبية [متفق عليه].

ذكرنا في فصل الشمائل مبحث: «تواضعه ﷺ» حديث البخاري الذي فيه: «وكانت الأمة من إماء أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت»، قول ابن حجر في شرحه لهذا الحديث: «والتعبير بالأخذ باليد إشارة إلى غاية التصرف»، وقوله: والمقصود من الأخذ باليد هو الرفق والانقياد».

وروي في غير الصحيحين قوله ﷺ: «إني لا أصافح النساء، إنما قولي لمائة امرأة كقولي لامرأة واحدة أو مثل قولي لامرأة واحدة» [أحمد؛ والترمذي؛ والنسائي؛ وابن ماجه، والموطأ، صحيح].

وكان من أبرز نتائج هذا الفتح أن أخذت قبائل العرب وأفرادها يبادرون بإسلامهم؛ لأنهم كانوا ينتظرون نتيجة الصراع بين المسلمين وقريش. فقد روى البخاري، من حديث عمرو بن سَلَمَة الجَرْمي، قوله: «وكانت العرب تَلَوَّمُ بإسلامِهِمْ الفَتْحَ، فيقولون: اتركوه وَقَوْمَهُ؛ فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق، فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم...». وكانت هذه النظرة لقريش؛ لأنها كانت زعيمة العرب، وحامية البيت، وصريح ولد إسماعيل، وناصبة الحرب لرسول ﷺ، فلما افتتحت مكة، ودانت قريش لرسول ﷺ ودوخها الإسلام، عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ وعداوته، فدخلوا في دين الله أفواجاً، كما قال ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النصر: ١ ـ ٣] [ابن إسحاق].

وخطب الرسول ﷺ أثناء إقامته بمكة عدة خطب، بيّن فيها أموراً وأحكاماً مختلفة، ففي الخطبة الأولى، التي كانت على باب الكعبة، بيّن دية الخطأ شبه العمد، وألغى مآثر الجاهلية وثاراتها، واستثنى من أمور الجاهلية سقاية الحاج وسدانة البيت [أحمد، حسن؛ أبوداود، صحيح].

وأعلن في الخطبة الثانية: «ألا إنه لا حلف في الإسلام، وما كان من حلف في الجاهلية فإن الإسلام لا يزيده إلا شدة. والمؤمنون يد على من سواهم، يجير عليهم أدناهم، ويرد عليهم أقصاهم، يرد سراياهم على قعيدتهم. لا يقتل مؤمن بكافر. دية الكافر نصف دية المسلم. لا جلب ولا خبب، ولا تؤخذ صدقاتهم إلا في دورهم» [مسلم؛ وأحمد صحيح والترمذي، صحيح] [والجلب أن يأتي الرجل بمن يصيح على فرسه ويزجره حثاً له على الجري حتى يسبق، والخبب: أن يسابق الرجل على فرسين يركب الأول، فإذا فتر تحول إلى الثاني].

وأعلن في الخطبة الثالثة تحريم مكة، وتحريم صيدها وخلاها وشجرها ولُقَطَتُها، وتحريم القتال فيها، وقال إن الله ـ تعالى ـ أحلها له ساعة من نهار،

وهو وقت الفتح [متفق عليه]. وقال: لا هجرة بعد الفتح، ويبقى الجهاد والنية، ولذلك بايع النبي ﷺ المسلمين بعد الفتح على الإسلام والإيمان والجهاد، ولم يبايعهم على الهجرة [متفق عليه].

وبين في الخطبة الرابعة أن من قتل له قتيل فهو بخير النظيرين، إما أن يودى وإما أن يقاد [متفق عليه].

ومما يروى من أحداث الفتح أن أبا بكر جاء بأبيه إلى رسول الله ﷺ، ورأسُه ولحيته كالثَّغَامة [شجرة بيضاء الثمر والزهر، ينبت غالباً بالجبال] بياضاً، فقال رسول الله ﷺ: «غيروهما، وجنبوه السواد» [مسلم؛ وأحمد، وغيرهما].

الأحكام والدروس والعظات والعبر المستفادة من أحداث غزوة الفتح:

١ - جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية، فقد أفطر الرسول ﷺ عندما بلغ كديداً، كما ذكرنا.

٢ - صلى النبي ﷺ صلاة الضحى ثمان ركعات خفيفات [متفق عليه]، فاستدل قوم بهذا على أنها سنة مؤكدة [البخاري].

٣ - أن أحق المصلين بالإمامة أكثرهم حفظاً للقرآن، كما في حديث عمرو بن سلمة [البخاري].

٤ - قصر الصلاة الرباعية للمسافر، فقد أقام النبي ﷺ بمكة تسعة عشر يوماً يقصر الصلاة [متفق عليه].

٥ - إقرار أمان وجواز النساء، حيث أمضى الرسول ﷺ جوار أم هانئ لرجلين من أحمائها [متفق عليه].

٦ - تحريم نكاح المتعة إلى الأبد بعد إباحته لمدة ثلاثة أيام [مسلم]. ويرى النووي أنه وقع تحريمه وإباحته مرتين، إذ كان حلالاً قبل غزوة خيبر، فحرم يومها، ثم أبيح يوم الفتح، ثم حرم للمرة الثانية إلى الأبد. ويرى ابن القيم [في الزاد] أن المتعة لم تحرم يوم خيبر، وإنما كان تحريمها فقط يوم الفتح، وله في هذا مناقشة طويلة عند كلامه عن الأحكام الفقهية المستنبطة من أحداث غزوة خيبر وغزوة الفتح. والمتفق عليه أنها حرمت إلى الأبد بعد الفتح.

٧ ـ قرر الرسول ﷺ أن الولد للفراش، وللعاهر الحجر، كما جاء ذلك في حديث ابن وليدة زمعة بن زمعة. فقد تنازع فيه سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة، فقضى فيه رسول الله ﷺ لعبد بن زمعة؛ لأنه ولد على فراش أبيه [البخاري].

٨ ـ اعتبار عقد النكاح قائماً بين الزوج المشرك والزوجة المسلمة، إذا أسلم الزوج قبل انقضاء عدة الزوجة، وذلك من خلال قصة صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، إذ أسلمت زوجتاهما قبلهما، ثم أسلما قبل انقضاء عدتيهما [الموطأ؛ وابن عساكر؛ وابن إسحاق، من مرسل الزهري، مشهور].

٩ ـ عدم جواز الوصية بأكثر من ثلث المال، كما في قصة سعد بن أبي وقاص حين مرضه مكة واستشارته الرسول ﷺ في أن يوصي بأكثر من الثلث [البخاري؛ والترمذي، صحيح].

١٠ـ يجوز للمرأة أن تأخذ من مال زوجها لنفقتها ونفقة عياله بالمعروف دون علمه، إذا امتنع عن النفقة، كما في خبر هند بنت عتبة [متفق عليه].

١١ ـ تحريم بيع الخمر والميتة والأصنام [البخاري].

١٢ ـ جواز خضاب الشيب بالحناء أو الصفرة، وتحريم خضابه بالسواد كما في قصة أبي قُحَافَة ـ والد أبي بكر الصديق رضي الله عنه ـ حين أمر الرسول ﷺ بتغيير شيبه [مسلم؛ وأحمد، وابن إسحاق، بأسانيد صحيحة]. ومن حكمة ذلك أنه مخالفة لليهود والنصارى.

١٣ ـ النهي عن الشفاعة في حدود الله بعد رفعها للإمام كما في قصة المرأة المخزومية التي سرقت، فتشفع فيها أسامة بن زيد، فغضب الرسول ﷺ منه، ثم قال: «إنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» [متفق عليه].

١٤ ـ نهي رسول الله ﷺ عن قتل المرأة ما دامت لا تقاتل كما جاء مبيناً في قصة مروره بامرأة مقتولة يوم الفتح، فقال: «ما كانت هذه تقاتل...» [أحمد، يعتضد؛ والطبراني: الأوسط]، وجاء النهي عن قتل النساء والصبيان مطلقاً غير مقيد بغزوة أو سرية معينة [متفق عليه].

١٥ ـ إبداء الرسول ﷺ تقديره لأبي بكر ﷺ وذلك عندما أتى أبو بكر بأبيه يقوده، وهو كفيف، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هلا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟» فقال أبو بكر ﷺ: «يا رسول الله، هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت»، ثم أجلسه بين يديه، ثم مسح صدره، ثم قال له: أسلم، فأسلم [ابن إسحاق، حسن]. ويروى أن رسول الله ﷺ هنأ أبا بكر بإسلام أبيه [الذهبي: المغازي، مرسلاً].

١٦ ـ جواز دخول مكة بغير إحرام لمن لا يريد العمرة أو الحج؛ لأن الرسول ﷺ دخل مكة يوم الفتح محارباً، وعليه عمامة سوداء بغير إحرام [متفق عليه].

١٧ ـ أن أهل العهد إذا حاربوا ـ بعضهم أو جميعهم ـ من هم في ذمة الإمام وجواره وعهده صاروا حرباً له بذلك، ولم يبق بينهم وبينه عهد، فله أن يبيتهم في ديارهم، ولا يحتاج أن يعلمهم على سواء، وإنما يكون الإعلام إذا خاف منهم الخيانة، فإذا تحققها، صاروا نابذين لعهده [الزاد].

١٨ ـ أن قتل الجاسوس راجع إلى رأي الإمام، فإن رأى في قتله مصلحة للمسلمين قتله، وإن كان استبقاؤه أصلح، أو وجدت علة مانعة، استبقاه كما في قصة حاطب [نفسه].

١٩ ـ جواز تجريد المرأة كلها وتكشيفها للحاجة والمصلحة العامة كما في قصة المرأة التي كانت تحمل رسالة حاطب، وموقف علي والمقداد منها [متفق عليه].

٢٠ ـ أن الرجل إذا نسب المسلم إلى النفاق والكفر متأولاً وغضباً لله ورسوله ﷺ ودينه لا لهواه وحظه، فإنه لا يكفر بذلك، بل لا يأثم به، بل يثاب على نيته وقصده [نفسه].

٢١ ـ جواز قتل المرتد الذي تغلظت ردته، ومن غير استتابة، كما في قصة عبد الله بن أبي السرح.

٢٢ ـ أما ما يتعلق بأحكام الهجرة، فقد سبق ذكرها في فصل هجرة الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة، وفي فصل هجرة المسلمين إلى الحبشة.

الفصل الحادي والعشرون

غزوتا حُنَين والطائف

المبحث الأول: غزوة حُنين

أقام النبي ﷺ بمكة عام الفتح (تسعة عشر يوماً) [البخاري]، حتى جاءت هوازن وثقيف، فنزلوا بحنين يريدون قتال النبي ﷺ، وكانوا قد جمعوا له قبل ذلك حين سمعوا بمخرج رسول الله ﷺ من المدينة، وهم يظنون أنه إنما يريدهم، فلما أتاهم أنه قد نزل مكة أخذوا في الاستعداد وحشد القوات لمواجهته [تاريخ الطبري، من مرسل عروة، والذهبي: المغازي، حسن]، وقبل أن يهاجمهم أرادوها موقعة حاسمة؛ ولذا حشدوا الأموال والنساء والأبناء حتى لا يفر أحدهم، ويترك أهله وماله. وكان يقودهم مالك بن عَوف النصري، واستنفروا معهم غطفان وغيرها [متفق عليه]. وممن جمعهم ابن عوف: بنو نصر ـ قومه ـ وبنو جُشَم، وبنو سعد بن بكر، وجماعات متفرقة من بني هلال، وهم قليل، وناس من بني عمرو بن عامر، وعوف بن عامر، وثقيف كلها في أحلافها، وبنو مالك [الذهبي، حسن؛ والحاكم، صحيح]، وتخلف عنهم من هوازن كعب وكلاب [الذهبي، حسن؛ وابن إسحاق].

وخرج على رأس بني جُشَم يومذاك دُرَيْد بن الصِّمَّة، وكان شيخاً كبيراً، ليس فيه شيء إلا التيمن برأيه؛ لأنه كان شيخاً مجرباً عارفاً بالحرب، فأنكر على مالك النصري الخروج بالنساء والأطفال والأموال، إذ يرى أن المنهزم لا يرده شيء، فلم يعمل مالك برأي دريد. وقال دريد في شأن غياب كعب وكلاب: «غَابَ الحَدُّ والجد، ولو كان يَوْمَ عَلاءٍ ورِفْعَة لم تغب عنه كعب ولا كلاب، وَلَوَدِدْتُ أنكم فعلتم ما فعلت كعب وكلاب. . .» وذكرت له أقوال أخرى تدل على تجربته في الحروب وتوقعه الهزيمة لقومه؛ لأن الرأي كان

لمالك، وهو صغير السن ـ ٣٠ سنة ـ غير مجرب، بل اتهم مالك دريداً بأنه كبر وقل علمه، وأقسم على هوازن بأن تطيعه هو وإلا انتحر، فأطاعوه، فأمرهم أن يكسروا جفون سيوفهم إذا رأوا المسلمين، ثم يشدوا شدة رجل واحد [نفسه].

وكانت خطة مالك في الحرب أن رتب جيشه في صفوف حسنة، وقدم الخيل، ثم الرجالة، ثم النساء، ثم الأغنام، ثم الإِبل [مسلم]، وقد بلغ جيشه عشرين ألفاً [الواقدي]، فسار بهم إلى الرسول ﷺ.

فلما سمع بهم رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن أبي حَدْرَد الأسلمي ليأتيهم، ويدخل فيهم، ويعلمه خبرهم، فجاءهم ومكث فيهم يوماً أو اثنين، ونقل خبرهم إلى الرسول ﷺ [مغازي الذهبي، حسن؛ والحاكم، صحيح].

ولعل هذا الخبر الذي نقله ابن أبي حدرد إلى الرسول ﷺ هو الذي تبسم له الرسول ﷺ وعلق عليه بقوله: «تلك غنيمة المسلمين غداً ـ إن شاء الله». وذلك عندما اقتربوا من العدو [أبو داود، حسن].

وبعد جمع المعلومات العسكرية المطلوبة استعد الرسول ﷺ لمواجهتهم، فاستعار من يَعْلَى بن أمية ثلاثين بعيراً وثلاثين درعاً، واستعار مائة درع من صَفْوَان بن أمية، وأعادها إليه بعد غزوة حنين، وشكره على ذلك [الذهبي: المغازي، حسن؛ والحاكم، صحيح]. ويروى أنه استقرض من حُوَيْطِب عبد العُزَّى أربعين ألف درهم [الاستيعاب]، وتقبل معونة قدرها ثلاثة آلاف رمح من نَوْفَل بن الحارث بن عبد المطلب [نفسه].

وبعد أن أقام الرسول ﷺ بمكة تسعة عشر يوماً [البخاري]، خرج إلى حنين لستٍّ خلت من شوال، وقيل لليلتين بقيتا من رمضان، وجمع بعضهم بأنه بدأ بالخروج في أواخر رمضان وسار سادس شوال، وكان وصوله إليها في عاشره [البيهقي السنن الكبرى، والنسائي، وابن حجر: الفتح] واستعمل عَتَّاب بن أَسِيْد بن أبي العِيْص أميراً على مكة [البخاري: التاريخ الكبير، حسن؛ وابن هشام، يعتضد؛ والإصابة].

وقد ثبت في الصحيحين أن الطلقاء قد خرجوا معه إلى حنين، دون تحديد لعددهم، وقال أهل المغازي: إنه خرج معه ألفان من أهل مكة

ـ الطلقاء ـ مع عشرة آلاف، من أصحابه الذين خرجوا معه لفتح مكة، فأصبحوا اثني عشر ألفاً [الذهبي: المغازي، حسن]، وهو أكبر جيش إسلامي يخرج في حياة الرسول ﷺ إلى ذلك الحين؛ ولهذا ساد شعور عند بعض الناس أنهم لن يغلبوا من قلة، وعبر أحدهم [الواقدي، وابن إسحاق؛ ودلائل البيهقي] عن هذا الشعور جهرة، وشق ذلك على رسول الله ﷺ، فعاتبهم القرآن، وذكرهم بعدم الاتكال إلا على الله وحده، وإلا وكلهم إلى أنفسهم، ولقنهم درساً بليغاً في هذا الشأن، فقال ـ تعالى ـ: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم﴾ [التوبة: ٩] [دلائل البيهقي؛ له أصل] وحكى لهم الرسول ﷺ قصة نبي أعجبته كثرة أمته، فسلَّط الله عليهم الموت [الدارمي؛ وأحمد].

وعندما اقترب الرسول ﷺ من حُنين، وحضرتهم صلاة العشاء، أمر أحد الصحابة بمراقبة العدو من فوق أحد الجبال المطلة على وادي حنين، فأدى الصحابي المهمة، ونقل إلى الرسول ﷺ خبرهم، وأنهم قد خرجوا بظعنهم ونعمهم وشائهم، واجتمعوا إلى حنين، فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «تلك غنيمة المسلمين غداً ـ إن شاء الله تعالى»، وعندما حانت ساعة النوم تطوع أنس بن أبي مَرْثَد الغَنَوي بحراستهم إلى الفجر، فأثنى عليه النبي ﷺ ووعده بالجنة [أبوداود، صحيح].

وفي الطريق إلى حنين رأى بعض الطلقاء شجرة يعلق عليها المشركون أسلحتهم تعرف بذات أنْوَاط، فقالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط؟ فقال: «سبحان الله، هذا كما قال قوم موسى: ﴿... اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ...﴾ [الأعراف: ١٣٨]، والذي نفسي بيده لتركبن سَنَنَ من كان قبلكم» [ابن إسحاق، حسن؛ وأحمد، وابن حبان] وفي هذا دليل على أن قلوب هؤلاء لم تتشرب الإسلام بعد، لحداثة عهدهم به، بل روي أن ثمانين من الطلقاء قد خرجوا، وهم على الكفر [مواهب القسطلاني، وشرحه للزرقاني]، وإذا كان الحال كذلك فلا غرابة من أن يعبر كَلَدة بن الحَنْبَل، أخو صفوان بن أمية لأمه، وهو أحد الطلقاء، عن فرحته بإدبار المسلمين في الجولة الأولى، قائلاً: ألا بطل السحر اليوم!! فقال له أخوه

صفوان ـ وهو على شركه آنذاك ـ: اسكت، فض الله فاك، فوالله لأن يَرُبَّني [أي: يكون رباً لي أو ملكاً] رجل من قريش أحب إليَّ من أن يَرُبَّني رجل من هوازن [أبو يعلى، حسن؛ وابن حبان]، وكان يقف زعماء مكة خلف الجيش ينظرون لمن تكون الدائرة، منهم: أبو سفيان، وصفوان بن أمية، وحكيم بن حزام [البداية، من حديث ابن عطية وعروة]. وكان صفوان في المؤخرة، ويرسل غلاماً له ليأتيه بالأخبار من المقدمة [نفسه، من حديث عروة].

وعندما انهزم المسلمون في الجولة الأولى، كان أبو سفيان ينظر إليهم، وهو يحمل الأزلام، ويقول: «لا تنتهي هزيمتهم دون البحر» [ابن إسحاق، والواقدي].

بادرت هوازن إلى حنين، فأدخلوا جيشهم بالليل في الوادي، وفرقوا كُمَنَاءَهم في الطرق والمداخل والشعاب والأخباء والمضايق، وأصدر إليهم قائدهم أمره بأن يرشقوا المسلمين بالسهام عند دخولهم وادي حنين المنحدر، ثم يشدوا عليهم شدة رجل واحد [ابن إسحاق، حسن]، وشجعهم زاعماً بأن المسلمين لم يلقوا من قبل مثلهم في الشجاعة والعدة والعدد والدراية بالحرب [الواقدي].

وعبأ رسول الله ﷺ جيشه بالسحر، وعقد الألوية والرايات، ورتب الجند في هيئة صفوف منتظمة [الواقدي]، واستقبل بجيشه وادي حنين في عَمَايَةِ الصبح، أو غَلَسِهِ، وانحدروا فيه [ابن إسحاق، حسن]، تتقدمهم على المجنبة الخيالة بقيادة خالد بن الوليد [مسلم] وفي طليعتها بنو سليم منذ خروجه من مكة [الواقدي].

وعند دخول المسلمين الوادي حملوا على هَوَازِن فانكشفوا، فأكب المسلمون على ما تركوه من غنائم، وبينما هم على هذه الحال، استقبلتهم هوازن وأمطرتهم بوابل من السهام التي لا تكاد تخطئُ أحداً [متفق عليه].

ولم يكن المسلمون يتوقعون هذا، فضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَتْ، فولوا مدبرين، لا يلوي أحد على أحد [متفق عليه، وابن إسحاق، حسن]. وانحاز الرسول ﷺ ذات اليمين، وهو يقول: «أين الناس؟ هلموا إليَّ، أنا رسول الله، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله» [ابن إسحاق، حسن]. ومما

يدل على عدم توقع المسلمين لمثل هذه الخدعة، أن بعضهم قد خرجوا خِفَافاً عَجِلِين دون استعداد حربي كامل، لا سيما بعض الشباب الذين خرجوا حاسري الرؤوس، وليس معهم السلاح الكافي [متفق عليه].

وكان أول من أدبر خيالة المسلمين، ثم المشاة، وفر معهم الطلقاء والأعراب، ثم بقية الجيش، حتى إنه لم يثبت مع الرسول ﷺ أحد سوى أبي سفيان بن الحارث [متفق عليه] وجماعة قليلة [ابن إسحاق، حسن].

ومما يدل على الأثر الكبير للطلقاء في هذه الهزيمة أن أم سُلَيم بنت مِلْحَان طلبت من الرسول ﷺ أن يقتلهم، بحجة أنهم انهزموا عنه، فقال لها رسول الله ﷺ: «يا أم سليم. إن الله قد كفى وأحسن» [مسلم].

كان الرسول ﷺ يمتطي بغلة له بيضاء ـ أو شهباء ـ تسمى دلدل، وهو يركضها وأبو سفيان بن الحارث آخذ بركاب رسول الله ﷺ وعمه العباس آخذ بلجام البغلة، يكفانها عن الإسراع نحو العدو [مسلم]. وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، أنه في مثل هذا اليوم في حومة الوغى، وقد انكشف عنه جيشه، وهو على بغلة، وليست سريعة الجري، ولا تصلح للكرِّ ولا للفرِّ ولا للهرب، وهو مع هذا ـ أيضاً ـ يركضها إلى وجوههم، وينوه باسمه ليعرفه من يعرفه، وما هذا إلا ثقة بالله، وتوكلٌ عليه، وعلم منه بأنه سينتصر، ويظهر دينه على سائر الأديان [تفسير ابن كثير].

وأمر الرسول ﷺ عمه العباس ـ وكان قوي الصوت ـ أن ينادي الناس بالثبات، وخص منهم أصحاب بيعة الرضوان، فأسرعوا إليه كما تسرع الأمهات إلى أولادها، ثم خص الأنصار بالنداء، ثم بني الحارث بن الخزرج، فطاروا إليه قائلين: لبيك لبيك، ودارت المعركة قوية ضد هوازن [مسلم؛ وابن إسحاق، حسن، وعبدالرزاق، صحيح]]، ونزل الرسول ﷺ عن بغلته وهو يدعو [أحمد، حسن] الله أن ينصرهم، وقال: «أنا النبي لا كذب. . . أنا ابن عبد المطلب» [متفق عليه]، وأخذ يقاتل، والصحابة يقاتلون معه ويتقون به لشجاعته وثباته كعادتهم في مثل هذه المواقف العصيبة [مسلم؛ وابن إسحاق، حسن]. وعندما رأى الفارون موقفه وثباته، وسمعوا صوت العباس يناديهم، جاؤوا مسرعين ملبين الدعوة قائلين: لبيك لبيك، حتى إن

من لم يستطع أن يثني بعيره يتركه، ويأخذ درعه وسيفه ورمحه حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ ويجالد الأعداء. قال الرسول ﷺ عندما رأى المعركة تشتد: «هذا حين حَمِيَ الوَطِيسُ» [مسلم؛ وابن إسحاق، حسن]، ثم أخذ حَصَيَات، أو تراباً، فرمى به وجوه الكفار، وهو يقول: «شاهت الوجوه»، فما خلق الله منهم إنساناً إلا ملأ عينه تراباً بتلك القبضة، فولوا مدبرين، والرسول ﷺ يقول: «انْهَزَمُوا وَرَبِّ محمد»، وفي رواية أخرى: «انهزموا ورب الكعبة ـ مرتين» [مسلم].

وفي ضوء هذه الكيفية التي انهزم بها المشركون والمعجزة التي أجراها الله على يد نبيه محمد ﷺ يفهم قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [التوبة: ١٥] [الطبري وابن كثير في التفسير]. فقد حكى أحد أفراد جيش هوازن أنهم عندما أرادوا الوصول إلى الرسول حال بينهم وبينه رجال حسان الوجوه، فقالوا: شاهت الوجوه، فارجعوا، فهزموا من ذلك الكلام [الذهبي: المغازي، جيد].

وحكى شيبة بن عثمان أنه عندما أراد قتل الرسول ﷺ ثأراً لأبيه وعمه اللذين قتلهما علي يوم بدر، رفع له شواظ من نار حال بينه وبين الرسول ﷺ، كأنه البرق، فخاف أن يحرقه، فوضع يده على بصره وتقهقر، والتفت إليه الرسول ﷺ وطلب منه أن يدنو منه، فدنا منه، فقال: اللهم أذهب عنه الشيطان، فقذف الله الإيمان في قلبه، وطلب منه الرسول ﷺ أن يقاتل الكفار [مغازي الذهبي، له أصل]. وفي رواية أخرى: أن شيبة قال للرسول ﷺ: يا رسول الله، إني أرى خيلاً بُلْقاً، فقال له الرسول: «يا شيبة، إنه لا يراها إلا كافر»، فضرب على صدره، ثم قال: «اللهم اهد شيبة ـ ثلاثاً، فانقلب بغض الرسول حباً عظيماً» [الذهبي: المغازي].

وروى ابن إسحاق من حديث جُبير بن مُطْعِم أنه رأى قبل هزيمة القوم ـ والناس يقتتلون ـ مثل الكِسَاءِ الأسود، أقبل من السماء حتى سقط بينهم وبين القوم، فنظر فإذا نمل أسود مبثوث قد ملأ الوادي، لم يشك أنها الملائكة، ثم لم يكن إلا هزيمة القوم.

سَرِيَّةُ أَوْطَاس:

لم يثبت المشركون طويلاً في هذه الجولة الثانية من القتال، ففروا في نهاية اليوم مخلفين وراءهم كثيراً من القتلى والأموال [ابن إسحاق، حسن]، وكان الرسول ﷺ قد أمر بتعقب الفارين وجزِّهم [البزار، برجال ثقات] لكسر شوكتهم حتى لا يجتمعوا للحرب مرة أخرى، ولذا عندما فرغ من حنين بعث أبا عامر - عُبَيْد بن سليم بن حضار الأسلمي - على جيش إلى أَوْطَاس [واد في بلاد هوازن] لقتال الكفار الذين عليهم دريد بن الصمة، فجالدهم أبو عامر الأشعري حتى استُشهد، وطلب من أبي موسى الأشعري الذي خلفه في القيادة أن يبلغ الرسول ﷺ سلامه، وأن يطلب منه أن يستغفر له، فأكمل الأشعري المهمة، وهزم الله على يديه الأعداء، وبلغ رسالة أبي عامر، فدعا الرسول ﷺ لأبي عامر [متفق عليه].

وفي رواية أنه عندما انهزم المشركون انحاز دريد بن الصمة في ستمائة نفس إلى جبيل أو أكمة، فلحق بهم الزبير بن العوام وجماعة من المسلمين، فقضوا على ثلاثمائة منهم، منهم دريد بن الصمة نفسه [البزار، حسن].

والذي نرجِّحه أن الزبير بن العوام كان في جماعة أبي عامر، فباشر قتل ابن الصمة؛ لأن رواية البخاري لم تبين القاتل، وقيل: إن الذي قتله رَبِيْعَة بن رُفَيْع [ابن إسحاق]، وقيل: عبد الله بن قُنَيْع بن أُهْبَان بن ثَعْلَبَة بن رَبِيعَة [نفسه].

لقد انجلت المعركة عن نصر مبين للمسلمين، ومقتل وجرح عدد كبير من هوازن وثقيف. فقد روي أن قتلى بني مالك من ثقيف وحدها قد بلغ سبعين قتيلاً [البيهقي، الدلائل]، ولم يقتل من الأحلاف سوى رجلين، أحدهما من بني غِيَرَة، والآخر من بني كُبَّة [ابن إسحاق]. وقتل بأوطاس من بني مالك ثلاثمئة، ومعهم دريد بن الصمة، كما ذكرنا، وقتل خلق كثير من بني نصر بن معاوية ثم من بني رِئاب، حيث استحر فيهم القتل، حتى قال عبد الله بن قيس - وكان مسلماً -: «يا رسول الله، هَلَكَتْ بنو رِئَاب، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم اجبر مُصِيْبَتَهُم» [ابن إسحاق، وابن سعد].

وعندما لجأ المشركون إلى أوطاس ولحق بهم المسلمون، قتل أبو عامر وحده تسعة إخوة منهم قبل أن يستشهد، وقتل أبو موسى الأشعري أخوين من

بني جُشَم بن معاوية [ابن هشام]. وقتل أبو طلحة وحده يوم حنين عشرين رجلاً من المشركين وأخذ سلبهم؛ لأن رسول الله ﷺ قد أباح سلب المشرك لقاتله [أبو داود، حسن].

ونهى رسول الله ﷺ يومذاك عن قتل النساء والأطفال والأجراء وكل من لا يحمل السلاح، وذلك عندما مرَّ بامرأة قتلها خالد بن الوليد [ابن إسحاق] والناس متزاحمون عليها، وقال: «ما كانت هذه تقاتل» [الحاكم صحيح، وأحمد، صحيح، وأبو داود، صحيح].

أما بالنسبة للسبي والغنائم فقد روي أن سبي حنين قد بلغ ستة آلاف من النساء والأبناء [عبدالرزاق؛ وابن سعد؛ والطبري: والتاريخ]، وأن الأموال كانت أربعة آلاف أوقية فضة، وأن الإبل كانت أربعة وعشرين ألفاً، وأن الشياه أكثر من أربعين ألف شاة [ابن إسحاق، وابن سعد].

وحبس الرسول ﷺ هذا السبي والغنائم بالجِعْرَانَة ليتصرف فيها بعد الفراغ من أمر الطائف، كما سنرى.

وروي أن الشَّيماء بنت الحارث كان ممن وقع في الأسر، فادعت أنها أخت الرسول ﷺ من الرضاعة، فقال لها الرسول ﷺ: «وما علامة ذلك؟»، قالت: عَضَّة عَضِضْتَنيها في ظهري وأنا مُتَوَرِّكَتُك، فعرف الرسول ﷺ العلامة، فمتعها، وردها إلى أهلها كما طلبت» [ابن إسحاق، والذهبي: المغازي، من مرسل قتادة - حسن].

وروي أن أمه من الرضاعة ـ حليمة السعدية ـ جاءته، فأكرمها وبسط لها ثوبه لتجلس عليه [الطبري: التفسير، من مرسل قتادة - حسن، من مرسل عطاء].

وكانت خسارة المسلمين طفيفة جداً. فقد استشهد أربعة منهم، هم: أبو عامر الأسلمي، وأيمن بن عُبَيد، ويزيد بن زَمْعَة بن الأسود، وسُرَاقَة بن الحارث [ابن إسحاق]. وجرح عدد منهم، منهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي [البزار، حسن]، وعبد الله بن أبي أوفى [البخاري]، وخالد بن الوليد [الحميدي: المسند، حسن].

عندما انهزمت هوازن وثقيف وأحلافهم تفرقوا في الأودية والجبال،

فلجأت ثقيف بقيادة مالك بن عوف إلى حصونها بالطائف، ولجأ آخرون إلى وادي أوطاس، وانحاز بنو غيرة إلى نخلة. وقد تبعت خيل المسلمين من سلك إلى نخلة، ولم تتبع من سلك إلى الثنايا [ابن إسحاق].

غزوة الطائف

بعد أن تعقب المسلمون فلول الهاربين من هوازن في أوطاس ونخلة توجهوا للقضاء على ثقيف التي فرت من حنين وأوطاس، وتحصنت بحصونها المنيعة في الطائف، وأغلقت أبوابها بعد أن جمعت ما يكفيها من المؤن الغذائية للصمود مدة عام، واتخذت وسائل دفاعية تمكنها من الصمود مدة طويلة، ورممت حصونها، وأوفدت عُرْوَة بن مسعود وغَيْلان بن سَلَمَة إلى جُرَش؛ ليتعلما صنعة الدَّبَّابَات، والمَجانيق، والضُّبُور، ولذا لم يحضرا حنيناً مع قومهما [ابن إسحاق، وابن سعد] [والدبابات: آلات تصنع من خشب، وتغشى بجلود، ويدخل فيها الرجال، ويتصلون بحائط فينقبون عن أهله؛ والصنبور: شيء يتقى به عند الانصراف].

ووصل المسلمون إلى حصون الطائف في نحو نهاية الأسبوع من شوال كما يستنتج من وقائع الأحداث، ونزلوا قريباً من حصونهم، ثم تحولوا إلى منطقة أكثر بعداً من مدى سهام ثقيف، التي تسببت في استشهاد اثنى عشر مسلماً وجرح عدد منهم [ابن إسحاق، ابن سعد]، وبنوا فيها مسجداً، يعرف اليوم بمسجد عبد الله بن عباس، وكانت الطائف آنذاك جنوبي غربي المسجد.

ولما كان القتال تراشقاً بالسهام على بُعد استخدم المسلمون «الدبابة» ليحتموا بها من السهام، حتى يصلوا إلى الحصن فيثقبوه، وعندما رأتهم ثقيف، ألقت عليهم قطعاً من حديد محماة فأحرقت «الدبابة»، فخرج أصحابها من تحتها فأصابوهم بالسهام، فقتلوا منهم رجالاً [ابن إسحاق].

واستخدم المسلمون المجانيق في رمي أهل الطائف، وهم أول من رمى في الإِسلام المجانيق [ابن إسحاق، وأبوداود: المراسيل، حسن]. وقد بذلوا الوسع في الرمي به، لا سيما وقد وعدهم الرسول ﷺ درجة في الجنة عندما

قال لهم: «مَنْ بَلَغَ بِسَهْم في سبيل الله فَلَهُ درجةٌ في الجنة، ومن رَمَى بِسهم في سبيل الله ـ عز وجل ـ فَهُوَ له عَدْلُ مُحَرَّر [أي مثل ثواب تحرير رقبة]، ومن أصابه شيب في سبيل الله ـ عز وجل ـ فهو له نور يوم القيامة» [أحمد، صحيح؛ والترمذي، صحيح؛ والنسائي].

وقد تباينت الروايات الضعيفة فيمن جلب المجانيق أو صنعها، فهناك من يذكر أنه خالد بن سعيد، ومن يذكر أنه سلمان الفارسي، ومن يذكر أنه الطفيل بن عمرو [الواقدي].

وفي محاولة لإضعاف معنويات ثقيف شرع المسلمون في حرق بساتين نخيلهم وعنبهم، فناشدوه أن يدعها لله وَلِلرَّحِمِ، فاستجاب لهم، بعد أن حققت المحاولة أهدافها [البيهقي: السنن من مرسل ابن عقبة وعروة، وابن إسحاق، من مرسل عمرو بن شعيب].

ونادى منادي رسول الله ﷺ: «أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر، فنزل إليهم ثلاثة وعشرون، منهم أبو بَكْرَة ـ نُفَيع بن مَسْرُوح ـ الثقفي، فأسلموا، فأعتقهم النبي ﷺ ولم يعدهم إلى ثقيف بعد إسلامهم [البخاري؛ وعبدالرزاق؛ والطبراني برجال الصحيح، وسمي بأبي بكرة لنزوله من الحصن ببكرة].

وعندما استعصى الحصن على المسلمين، واستشهد اثنا عشر رجلاً [ابن إسحاق، أحمد]، بينما لم يقتل من المشركين سوى ثلاثة [ابن إسحاق]، دعا رسول الله ﷺ إلى فك الحصار، فثقل ذلك على المسلمين واستنكروه، وعندما كثرت فيهم الجراحات، ودعاهم الرسول ﷺ إلى فك الحصار مرة أخرى، أعجبهم ذلك، فتبسم الرسول ﷺ، فارتحلوا [متفق عليه]، والرسول ﷺ يطمع في هدايتهم، ويرفض طلب بعض المسلمين الدعاء عليهم ويدعو لهم قائلاً: «اللهم اهد ثقيفاً» [الترمذي؛ صحيح؛ وابن إسحاق؛ وابن سعد]، ويروى أن الله لم يأذن له في أهل الطائف [الذهبي: المغازي، من مرسل عروة وابن عقبة؛ وابن سعد، من مرسل البقري؛ وابن إسحاق].

تباينت الروايات حول المدة التي قضاها الرسول ﷺ في حصار

الطائف. فيرى عروة وابن عقبة أنها كانت بضع عشرة ليلة، وفي رواية عن عروة أنها كانت نصف شهر [الطبري: التاريخ، مرسل حسن]. ويذكر ابن إسحاق [السيرة مرسلاً] مرة أنها بضع وعشرون ليلة، ومرة أنها ثلاثون ليلة أو قريب من ذلك [دلائل البيهقي؛ مرسل حسن]. ويذكر ابن هشام أنها سبع عشرة ليلة، ويروي مسلم وأحمد [المسند] أنها أربعون يوماً.

والذي يكاد يتفق مع مجريات الأحداث هو ما ذكره موسى بن عقبة وعروة بن الزبير وابن هشام، وما في الصحيح أصح.

عاد الرسول ﷺ مرة أخرى إلى الجعرانة حيث ترك غنائم حنين قبل أن يتحرك لحصار الطائف. وعندما عاد لم يقسم هذه الغنائم سوى بعض الفضة [الحاكم، وصححه]، واستأنى بها بضع عشرة ليلة، آملاً في قدوم هوازن عليه ودخولها في الإسلام [البخاري]، ثم وزعها بعد ذلك بين المهاجرين والطلقاء، ولم يعط الأنصار شيئاً. فقد أعطى مائة من الإبل كُلاً من عُيَينة بن حِصْن ـ من زعماء غطفان ـ والأقرع بن حَابس ـ من زعماء تميم ـ وعَلْقَمَة بن عُلَاثَة والعباس بن أمية ـ من زعماء قريش [متفق عليه]. وقد أحصى ابن إسحاق اثنى عشر رجلاً ممن نال مائة من الإبل، ستة منهم ذكرهم البخاري ومسلم. وممن زادهم على ما في البخاري ومسلم: معاوية بن أبي سفيان، والحارث بن الحارث، ومالك بن عوف، والعلاء بن جَارِيَة، والحارث بن هشام، وحُويطِب بن عبد العزى، ولم يذكر من قائمة البخاري ومسلم: عَلْقَمة بن عُلَاثَة، والعباس بن مِرْدَاس، وذكر خمسة من أعطوا أقل من مائة.

وأورد ابن هشام قائمة بأسماء تسعة وعشرين رجلاً من المؤلفة قلوبهم ممن أعطوا من غنائم حنين، ولم يحدد عدد الإبل التي نالها كل واحد منهم. وهناك من أوصل عددهم إلى سبعة وخمسين رجلاً [قريبي: مرويات حنين].

وكان هذا الموقف تجاه المؤلفة قلوبهم لحكمة وضحها الرسول ﷺ للأنصار عندما غضبوا من هذا التوزيع وحرمانهم من الغنيمة، وبلغ الرسول ﷺ قول بعض أحداثهم: «إذا كانت الشدة نُدْعَى، وتُعطى الغنائمُ غَيْرَنا»، أو «يغفر الله لرسول الله، يعطي قريشاً ويتركنا، وسيوفنا تقطر من

دمائهم!» [متفق عليه]، فجمعهم، وقال لهم: «أما ترضون أن يذهب الناس بالدنيا وتذهبوا برسول الله ﷺ تَحُوزُنَه إلى بيوتكم؟» قالوا: بلى، يا رسول الله رضينا. فقال: «لو سلك الناس وادياً، وسلكت الأنصار شِعْباً، لأخذت شِعْب الأنصار» [متفق عليه؛ وابن إسحاق، حسن]، وقال في رواية: «ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاء والإبل، وتذهبون برسول الله ﷺ إلى رحالكم؟ الأنصار شِعَار والناس دِثَار، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار...» [مسلم] [والشعار الثوب الذي يلي الجسد، والدثار ثوب فوقه، يعني أن الأنصار هم الخاصة والبطانة والأصفياء، وألصق الناس به من سائرهم]، وقال: «إني أعطي قوماً أخاف ظلعهم وجزعهم، وأَكِلُ أقواماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغناء، منهم عمرو بن تَغْلِب، فقال عمرو بن تغلب: ما أحب أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حُمُرُ النَّعَم» [البخاري]، وقال: «إني لأعطي رجالاً حَدِيثٌ عهدهم بكفر» [متفق عليه]، وفي رواية: «إن قريشاً حديثو عهد بجاهلية وشر، وإني أردت أن أجبرهم وأتألفهم» [متفق عليه]، وقال: «أَوَجدْتُم يا معشر الأنصار أنفسكم في لُعَاعَة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم،... اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار» [متفق عليه؛ وابن إسحاق، حسن، وأحمد، حسن]، وقال: «إني لأعطي، الرجل، وغيره أحب إليَّ منه، خشية أن يُكَبَّ في النار على وجهه» [مسلم].

وعندما سمع الأنصار ما قاله لهم الرسول ﷺ، عرفوا الحكمة من ذلك التقسيم، وبكوا حتى ابتلت لحاهم بدموعهم، وقالوا: «رضينا برسول الله قَسْماً وحَظًّا» [مسلم؛ وابن إسحاق، حسن، وأصله في البخاري ومسلم].

واتضحت لهم الحكمة عملياً عندما رغب هؤلاء المؤلفة قلوبهم في الإسلام، وحسن إسلامهم، وانخرطوا في الجهاد، إلا القليل جداً منهم، مثل عيينة بن حصن الفزاري والأقرع بن حابس. وقد عبر عن هذه الظاهرة الإمام مالك بن أنس [مسلم] قائلاً: «إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها». وعبر صفوان بن أمية عن التحول الذي حدث نتيجة لهذا الموقف الكريم من الرسول ﷺ

فقال: «والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني، وإنه لَأَبْغَضُ الناسِ إليّ، ما بَرِحَ يُعْطِينِي حتى إنه لَأَحَبُّ الناس إليّ» [مسلم]. وكان حَكِيم بن حِزَام كلما أعطاه سأله المزيد، فوعظه الرسول ﷺ قائلاً: «يا حكيم، إن هذا المال خَضِرٌ حُلْوٌ، فمن أخذه بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ له فيه، ومن أخذه بِإِشْرَافِ نفس لم يُبَارَكْ له فيه، وكان كالذي يأكل وَلَا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى»، فقال حكيم: «والذي بعثك بالحق لا أَرْزَأُ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا»، فلم يأخذ عطاءه من بيت المال حتى توفي [متفق عليه].

وعندما لم تتضح حكمة هذا التقسيم لدى بعض جُفَاةِ الأعراب ـ أيضاً ـ قال أحدهم للرسول ﷺ: «يا محمد! اعدل»، فقال له الرسول: «ويلك! ومن يعدل إذا لم أكن أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل». فاستأذن عمر النبي ﷺ في ضرب عنقه، فقال له النبي ﷺ: معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي! إن هذا وأصحابه يقرؤون القرآن لا يُجَاوِزُ حناجرهم، يَمْرُقُون منه كما يمرق السهم من الرَّمِيَّة»، واللفظ لمسلم. وفي رواية ثانية له زاد: «. . . إن من ضِئْضِئِ [أصل] هذا قوماً يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان. . . لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد». وجاء وصف هيئته في هذه الرواية: كث اللحية، مشرف [غليظها]، غائر العَينَين، ناتئ [بارز] الجبين، محلوق الرأس. وزاد مسلم في رواية ثالثة: «. . . مُشَمَّرُ الإزار». وازدحموا على الرسول ﷺ وهو يقسم الغنائم، حتى علق رداؤه بغصن شجرة، فقال: «أعطوني ردائي، فلو كان عدد هذه العِضَاه ـ شجر الشوك ـ نعماً لقسمته بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً» [البخاري]. وجبذه أحدهم جبذة شديدة أثرت في عاتقه لخشونة البرد الذي كان عليه، وقال: «مر لي من مال الله الذي عندك»، فالتفت إليه الرسول ﷺ فضحك، ثم أمر له بعطاء [نفسه]. ودل هذا الموقف من الأعراب على أن معظمهم إنما خرج للمغنم، ودل موقف الرسول ﷺ من تصرفاتهم على صبره وحكمته في تربية أمثال هؤلاء الأعراب.

بعدما فرغ الرسول من توزيع الغنائم قدم عليه وفد هوازن يعلن إسلامهم، ويطلب رد الأموال والسبي إليهم، فخيرهم بين المال والسبي،

فاختاروا السبي. فاستشار الرسول ﷺ أصحابه في الأمر، ومما قال لهم: «من أحب أن يُطَيِّبَ فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حَظِّهِ حتى نُعْطِيَهُ إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل، فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله لهم. فقال: «إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يَرْفَعَ إلينا عُرَفَاؤُكم أمركم»، فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه أنهم قد طيبوا فأذنوا[نفسه]، سوى الأقرع بن حابس، الذي تكلم باسم قبيلته تميم، وعيينة بن حصن الذي تكلم باسم قبيلته فزارة، فوعدهم الرسول ﷺ بتعويضهم عنها [ابن إسحاق، حسن].

وسأل الرسول ﷺ وفد هوازن عن مالك بن عوف، وطلب منهم أن يخبروه: إن أتاه مسلماً رد عليه أهله وماله، ومنحه مائة من الإبل، وعندما أخبروه بذلك احتال في الخروج من الطائف، خشية أن يقتله قومه ثقيف، ولحق بالرسول ﷺ بالجِعْرَانة أو بمكة، فأعطاه الرسول ﷺ ما وعد به، وأسلم، وحسن إسلامه، فاستعمله الرسول ﷺ على من أسلم من قومه، فكان يقاتل بهم ثقيفاً [ابن إسحاق، يعتضد].

ومال بعض زعماء ثقيف للإسلام، منهم عُروة بن مسعود الثقفي، فلحق بالرسول ﷺ وهو في طريقه إلى المدينة بعد أداء العمرة، فأعلن إسلامه، وعاد داعياً إلى الإسلام في قومه، فقتلوه، ودفن مع شهداء المسلمين في حصار الطائف حسب وصيته [ابن إسحاق].

وبعد عودة الرسول ﷺ من تبوك في رمضان من العام التاسع جاء وفد ثقيف معلناً إسلامهم، كما سنرى في خبر الوفود.

المبحث الثالث: أهم الأحكام المستنبطة من غزوتي حنين والطائف

١ ـ جواز وطء المسبية بعد الاستبراء، جاء ذلك عندما سأل الصحابة الرسول ﷺ في سبي أوطاس، فنزلت الآية: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤] [مسلم؛ وتفسيرا الطبري وابن كثير].

٢ ـ النهي عن قصد قتل النساء والأطفال والشيوخ والأجراء ممن لا يشتركون في القتال ضد المسلمين [أحمد، حسن؛ والحاكم، صحيح؛ وأبوداود]. وقد تكرر هذا النهي في عدة مناسبات.

٣ ـ إقامة الحد في دار الحرب، فقد فعل ذلك النبي ﷺ بشارب الخمر في حنين [أحمد؛ وأبوداود؛ والدارقطني: السنن، حسن لغيره].

٤ ـ منع المخنثين من الدخول على النساء الأجنبيات، وذلك عندما سمع الرسول ﷺ أحد المخنثين ـ في بيت أم سلمة ـ يصف بَادِيَة بنت غَيْلان الثقفي لأخيها عبد الله، ويطلب منه أن يحصل عليها، وذلك قبيل حصار الطائف، فقال ﷺ: «لا يدخلن هؤلاء عليكن» [متفق عليه].

٥ ـ جواز إعطاء المؤلفة قلوبهم من الغنائم، إذا رأى الإمام أن في ذلك سبباً لدخولهم في الإسلام، أو كف أذاهم، أو فيه مصلحة للمسلمين.

٦ ـ تشريع العمرة من الجعرانة للداخل إلى مكة، كما فعل الرسول ﷺ بعد الفراغ من توزيع غنائم حنين [متفق عليه]. أما الخروج من مكة إلى الجعرانة للإحرام منها فهو ما يفعله العوام، وليس بسنة [الزاد].

٧ ـ التأكيد على إباحة سَلَب المشرك لقاتله.

٨ ـ جواز الاستفادة من أدوات الحرب التي يمتلكها المشركون، كما فعل الرسول ﷺ عندما استعار دروعاً من صفوان بن أمية مع ضمانه لها، على أن لا يكون في ذلك أي تأثير في صبغة الحرب.

٩ ـ جواز نصب المنجنيق على الكفار، ورميهم به، وإن أفضى إلى قتل من لم يقاتل من النساء والذرية [نفسه].

١٠ ـ جواز قطع شجر الكفار إذا كان ذلك يضعفهم ويغيظهم، وهو أنكى لهم.

١١ ـ من كمال رأفته ورحمته ﷺ أن يدعو بالهداية لمن حاربوه، وقتلوا جماعة من أصحابه، كما فعل الرسول ﷺ مع أهل الطائف ـ ثقيف [نفسه].

١٢ ـ لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً بعد يوم، فإنها شعائر الكفر، وهي أعظم المنكرات

[نفسه]، كما فعل الرسول ﷺ مع ذي الكَفَّين، وإرسال أبي موسى الأشعري لهدمه ـ سيأتي ذكره في أول الفصل التالي.

١٣ ـ أن وادي وَجّ ـ هو واد بالطائف ـ ليس بحرم، وأن الأحاديث الواردة في أنه حرم ضعيفة [د. العمري: المجتمع المدني].

١٤ ـ جواز خروج بعض النساء مع أزواجهن في الغزو، لعلاج الجرحى وسقيهم، بدليل خروج أم سُلَيم بنت ملحان مع زوجها أبي طلحة إلى غزوتي فتح مكة وحنين، كما ثبت في صحيح مسلم (٣/ ١٤٤٢/ ح١٠٨٩).

ولا يعارضه حديث أم كَبْشَة العُذْرية القُضَاعية التي روى ابن أبي شيبة وغيره أنها قالت: يا رسول الله، إني لست أريد أن أقاتل، إنما أريد أن أداوي الجريح والمريض، أو أسقي المريض.

فقال رسول الله ﷺ: «لولا أن تكون سنة ويقال فلانة خرجت لأذنت لك ولكن اجلسي».

فالحديث كما حققه الدكتور خالد الدريس، فيه انقطاع، لعدم ثبوت اللقاء بين سعيد بن عمرو وأم كبشة، ورجاله ثقات.



الفصل الثاني والعشرون

السرايا والأحداث التي وقعت بين غزوتي الطائف وتبوك

المبحث الأول: سرية الطُّفَيل بن عمرو إلى ذِي الكَفَّين

عندما أراد الرسول ﷺ المسير إلى الطائف بعث الطفيل بن عمرو إلى ذي الكفين: صنم عمرو بن حُمَمَة الدوسي؛ ليهدمه، وأمره أن يستمد قومه، ويوافيه بالطائف. فخرج سريعاً إلى قومه، فهدم ذا الكفين، وحرقه، وانحدر معه من قومه أربعمائة، فوافوا النبي ﷺ بالطائف بعد مقدمه إليها بأربعة أيام، ومعه دبابة ومنجنيق [ابن سعد؛ والواقدي].

المبحث الثاني: إسلام كَعب بن زُهير عند منصرف الرسول ﷺ من الطائف

كان كعب بن زهير بن أبي سُلْمَى المُزَنيّ من الشعراء المخضرمين المرموقين، وأبوه زهير بن أبي سلمى صاحب إحدى المعلقات السبع المعروفة، وكان ممن يهجو النبي ﷺ ويؤذيه. وروى قصته وقصّة أخيه بُجَير ابن إسحاق والبيهقي [في الدلائل]، بإسناد متصل إليه، وفيها أنه خرج مع أخيه بُجَير، ولما أتيا أَبْرَقَ العَزَّافِ [مكان قريب من المدينة ـ الذهبي: في المغازي]، طلب بجير من أخيه كعب أن يبقى في هذا المكان حتى يأتي محمداً ﷺ ويسمع ما يقول، فعندما جاء عرض عليه النبي ﷺ الإسلام فأسلم، فبلغ ذلك كعباً، فأنشد قائلاً:

ألا إبلِغَا عني بجيراً رسالة
على أي شيء غير ذلك دَلَّكَا

عـلـى خُـلُـقٍ لـم أُلْـفِ أُمَّـا ولا أَبـاً
عـلـيـه ولـم تـدرك عـلـيـه أخـاً لَـكـا
سـقـاك أبـو بـكـرٍ بـكـأس رَوِيَّـةٍ
وأنـهـلـك الـمـأمـون مـنـهـا وعَـلَّـكَـا

فلما بلغت الأبيات رسول الله ﷺ أهدر دمه، فكتب إليه أخوه بجير يخبره بذلك، وينصحه بالنجاء، ثم كتب إليه بعد ذلك، وأعلمه أن رسول الله ﷺ لا يأتيه أحد مسلماً إلا قبل ذلك منه، وطلب منه أن يُسلم، ويُقبل على النبي ﷺ، فأسلم، ونظم قصيدته التي يمتدح فيها رسول الله ﷺ وقدم على الرسول ﷺ فأمّنه، فأنشده قصيدته التي مطلعها:

بَـانَـتْ سُـعـاد فـقـلـبـي الـيـوم مَـتْـبُـولُ
مُـتَـيَّـمٌ عـنـدهـا لـم يُـفـد مَـكْـبُـول

[نيل الأوطار؛ وابن إسحاق]

وذكر موسى بن عقبة في مغازية [البيهقي الدلائل] أن كعب بن زهير أنشد النبي ﷺ قصيدته «بانت سعاد» في المسجد، فلما بلغ قوله:

إن الـرسـولَ لَـنُـورٌ يُـسْـتَـضَـاءُ بـه
مُـهَـنَّـدٌ مـن سـيـوف الله مـسـلـول
فـي فـتـيـة مـن قـريـش قـال قـائـلـهـم
بـبـطـن مـكـة لـمـا أسـلـمـوا زُولـوا

أشار رسول الله ﷺ بكمه إلى الخلق ليأتوا، فيسمعوا منه.

قال الساعاتي: «وفي المواهب اللدنية، قال أبو بكر بن الأنباري: إنه لما وصل إلى قوله:

إن الـرسـول لـنـور يـسـتـضـاء بـه
مـهـنَّـد مـن سـيـوف الله مـسـلـول

رمى عليه النبي بردة كانت عليه، وأن معاوية رضي الله عنه بذل فيها عشرة آلاف، فقال كعب: «ما كنت لأوثر بثوب رسول الله ﷺ أحداً». فلما مات

كعب بعث معاوية إلى ورثته عشرين ألفاً، فأخذها منهم، قال: «وهي البردة التي عند السلاطين إلى اليوم». [انظر: القصة عند الحاكم؛ وابن إسحاق؛ والذهبي: المغازي]

المبحث الثالث: المصدقون

شرع رسول الله ﷺ في بعث المصَدِّقين إلى المناطق المختلفة في مطلع المحرم من العام التاسع الهجري. فبعث بُرَيْدَة بن الحُصَيْب إلى أسلم وَغِفَار، ويقال كعب بن مالك، وعَبَّاد بن بِشر الأشهلي إلى سُلَيم ومُزَيْنَة، ورافع بن مَكِيْث إلى جُهَيْنَة، وعمرو بن العاص إلى فَزارة، والضَّحَّاك بن سُفيان الكِلابي إلى بني كِلاب، وبُسْر بن سفيان الكَعْبي إلى بني كعب، ويقال: نُعَيم بن عبد الله النَّحام العَدَوي، وابن اللُّتْبِيَّة الأزْدي إلى بني ذُبيان، ورجلاً من بني سعد بن هُذَيْم إليهم [الواقدي؛ ابن سعد]، والمهاجر بن أبي أمية إلى صنعاء، وزياد بن لَبِيد إلى حَضْرَمَوت، وعَدِيّ بن حاتم الطائي إلى طيء وأسد، ومالك بن نُوَيرة إلى بني حَنْظَلة، والزِّبرِقَان بن بدر وقيس بن عاصم إلى بني سعد، كل منهما على ناحية، والعلاء بن الحضرمي إلى البحرين، وعلي بن أبي طالب إلى نجران ليجمع صدقتهم، ويقدم عليه بجزيتهم [ابن إسحاق].

المبحث الرابع: سرية عبد الله بن حُذَافَة السَهْمِيّ

روى البخاري ومسلم أن الرسول ﷺ استعمل رجلاً من الأنصار على سرية، وأمرهم أن يطيعوه، فأغضبوه في شيء، فقال: اجمعوا لي حطباً، فجمعوه، وأمرهم فأوقدوه، ثم قال: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لي وتطيعوا؟ قالوا: بلى، قال: فادخلوها، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار، فسكن غضبه، وطفئت النار. فلما قدموا على رسول الله ﷺ ذكروا له ذلك فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف».

والراجح عندي أن أمير هذه السرية هو عبد الله بن حذافة السهمي. فقد روى الشيخان وبقية الجماعة أن الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩]، نزلت فيه عندما أرسله الرسول ﷺ في

سرية. وصرح به في رواية أحمد وابن ماجه [صحيح]. وذكر القصة بمثل مضمون ذلك البخاري في كتاب الأحكام، ومسلم في كتاب الإمارة.

أما الرواية المرجوحة فهي التي رواها ابن كثير [التفسير] والطبري [التفسير]، وفيها أنها نزلت في خالد بن الوليد عندما بعثه الرسول ﷺ في سرية فيها عمار بن ياسر، فعندما سمع بهم العدو هرب إلا رجلاً واحداً، جاء إلى معسكر المسلمين في جنح الليل، وسأل عن عمار بن ياسر، فدلوه عليه، فأخبره أنه مسلم، واستفتاه إن كان ذلك ينفع وإلا هرب مع قومه، فطلب منه عمار البقاء، وفي الصباح أغار خالد على مكان العدو فلم يجد إلا هذا الرجل، فأخذه وماله، فاعترض عمار على هذا الإجراء، فتلاحا واستبَّا، ولام الرسول ﷺ خالداً، فاعتذر إلى عمار، فأنزل الله ـ تعالى ـ الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ . . .﴾ الآية.

وخلاصة رأيهما أن الآية عامة في جميع أولي الأمر من الأمراء والعلماء. وقد استشكل العلماء وصف أمير هذه السرية بأنه أنصاري؛ لأن ابن حذافة مهاجري، ولذا قال ابن حجر [في الفتح]: «ويحتمل الحمل على المعنى الأعم: أي أنه نصر رسول الله ﷺ في الجملة». وجنح إلى تعدد القصة لاختلاف سياقي القصة واسم أميرها. وأما ابن الجوزي [كما ذكر ابن حجر] فقال: «قوله: من الأنصار، وهم من بعض الرواة، وإنما هو سهمي». ولعلي أرجح تعليل ابن الجوزي.

وذكر الواقدي وابن سعد في سببها أنه بلغ رسول الله ﷺ أن ناساً من الحبشة تراءاهم أهل جُدَّة فبعث إليهم عَلْقَمَة بن مُجَزِّر، في ربيع الآخر من سنة تسع، في ثلاثمائة، فانتهى إلى جزيرة في البحر، فلما خاض البحر إليهم هربوا، فلما رجع تعجل بعض القوم إلى أهلهم، فأمَّر عبد الله بن حذافة على من تعجل.

وذكر ابن إسحاق في سببها أن وقاص بن مجزز كان قد قتل يوم ذي قرد، فأراد علقمة بن مجزز أن يأخذ بثأره، فأرسله رسول الله ﷺ في هذه السرية.

ويمكن الجمع بين الأمرين [ابن حجر: الفتح].

المبحث الخامس: من فوائد هذا المقطع

أن الحكم في حالة الغضب يُنَفَّذ منه ما لا يخالف الشرع، وأن الأمر المطلق لا يعم بالأحوال؛ لأنه ﷺ أمرهم أن يطيعوا الأمير، فحملوا ذلك على عموم الأحوال حتى في حال الغضب، وفي حال الأمر بمعصية، فبين لهم ﷺ أن الأمر بطاعته مقصور على ما كان منه في غير معصية.

المبحث السادس: سرية علي بن أبي طالب إلى الفِلس، وإسلام عَدِيّ بن حاتم الطائي

في ربيع الآخر من العام التاسع الهجري أرسل الرسول ﷺ علي بن أبي طالب في خمسين ومائة رجل إلى الفِلس - صنم طيء ليهدمه -، فشنوا الغارة على محلة آل حاتم الطائي مع الفجر، فهدموا الفلس، وخربوه، وأخذوا ما به، وملؤوا أيديهم من السبي والنعم والشاء. وهرب عدي إلى الشام [ابن سعد؛ والواقدي].

روى أحمد [المسند، حسن] والترمذي [حسن] من حديث سماك بن حرب بإسناده إلى عدي بن حاتم أنه عندما جاءت خيل رسول الله ﷺ كان هو بعَقْرُب [ويقال العقرباء، منزل باليمامة. مكان موقعة بين المسلمين ومسيلمة]، فأخذوا عمته [وقيل أخته] وناساً، فلما أتوا بهم رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله نأى الوافد، وانقطع الوالد، وأنا عجوز كبيرة ما بي من خدمة، فمُنَّ عليَّ مَنَّ الله عليك، فسألها عن وافدها، فقالت: عدي بن حاتم، فقال: «الذي فر من الله ورسوله؟»، فمَنَّ عليها رسول الله ﷺ وجهزها فأتت ابن أخيها عديًا، وهو هارب بالشام، وأخبرته خبر الرسول ﷺ وطلبت منه أن يأتي الرسول ﷺ راغباً أو راهباً، فأتاه فأسلم، فسُرَّ بذلك النبي ﷺ [وروى القصة مفصلاً ابن إسحاق، معلقاً].

الفصل الثالث والعشرون

غزوة تَبُوك (أو العُسْرَة)

انظر الملحق (١٦) ـ الخريطة

أصل التسمية «تبوك»:

روى مسلم بسنده إلى معاذ أن رسول الله ﷺ قال: «ستأتون غداً ـ إن شاء الله ـ عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي». فهذا رسول الله ﷺ سماها تبوكاً قبل أن يأتيها أحد، فلا وجه لقول غير هذا، كما قال أكرم السندي: الذهب المسبوك في تحقيق روايات غزوة تبوك.

التسمية بغزوة العسرة:

جاءت تسميتها بغزوة جيش العسرة من الحديث الذي رواه البخاري بسنده إلى أبي موسى الأشعري قال: «أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله الحُمْلَان لهم إذ هم معه في جيش العسرة، وهي غزوة تبوك...»، وعنون البخاري لهذه الغزوة بقوله: (باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة). وحديث الأشعري واضح الدلالة على ما كان عليه الصحابة ﷺ من العسر الشديد في المال والزاد والركائب.

وروى مسلم بسنده إلى أبي هريرة ما وقع للمسلمين في طريق هذه الغزوة من نقص في الزاد حتى مصوا النوى، وشربوا عليه الماء. وفي رواية أخرى له أنهم استأذنوا الرسول ﷺ في نحر مطاياهم ليأكلوا.

ودل على هذه الضائقة الاقتصادية الآية الكريمة: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧] [انظر: تفسيرها عند الطبري].

تاريخ الغزوة:

خرج الرسول ﷺ لهذه الغزوة في رجب من العام التاسع الهجري [ابن إسحاق، وابن سعد]، بعد العودة من حصار الطائف بنحو ستة أشهر [الفتح].

سبب الغزوة:

ذكر الواقدي وابن سعد أن هرقل جمع جموعاً من الروم وقبائل العرب الموالية لها، فعلم بهم الرسول ﷺ فخرج إليهم. وذكر اليعقوبي أن سببها أخذ الثأر لجعفر بن أبي طالب.

وروى ابن عساكر في سبب الخروج إلى تبوك أن اليهود أتوا الرسول ﷺ وقالوا له: إن كنت صادقاً بأنك نبي فالحق بالشام؛ فإنها أرض المحشر والأنبياء، تغريراً بالمسلمين ليخرجوهم من المدينة، ويعرضوهم لخطر المواجهة مع الروم، وعندما وصل تبوكاً نزلت عليه آيات من سورة بني إسرائيل، منها ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإسراء: ٧٦]، تفضح موقف اليهود، وأمره الله بالرجوع إلى المدينة حيث الممات والمحشر.

وقال ابن كثير [البداية]: فعزم رسول الله ﷺ على قتال الروم؛ لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله، وقد قال الله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [التوبة: ١٢٣].

والذي قاله ابن كثير هو الأقرب إلى الصواب، إضافة إلى أن الأمر الذي استقر عليه حكم الجهاد هو قتال المشركين كافة، بما فيهم أهل الكتاب الذين وقفوا في طريق الدعوة، وظهر تحرشهم بالمسلمين، كما روى أهل السير.

الإنفاق في هذه الغزوة:

حث الرسول ﷺ الصحابة على الإنفاق في هذه الغزوة لبعدها وكثرة

المشتركين فيها، ووعد المنفقين بالأجر العظيم من الله، فأنفق كل حسب مقدرته، وكان عثمان بن عفان أكثر المنفقين، ووردت في ذلك عدة أحاديث وآثار، منها:

روى البخاري: وقال النبي ﷺ: «. . . من جهز جيش العسرة فله الجنة»، فجهزه عثمان. وروى من حديث أبي عبد الرحمن السُّلَمِيّ أن عثمان رضي الله عنه قال لمحاصريه أيام الدار: «ألستم تعلمون أنه قال: من جهز العسرة فله الجنة فجهزته؟»، فصدَّقوه بما قال، ورواه من هذا الطريق وبنحوه الترمذي، ولفظه: «أذكركم بالله، هل تعلمون أن رسول الله ﷺ قال في جيش العسرة: من ينفق نفقة متقبلة؟ والناس مجهدون معسرون، فجهزت ذلك الجيش؟ قالوا: نعم. . .». ومن طريق آخر له من حديث ثُمامة بن حَزْنٍ: «. . . أنشدكم الله وبالإسلام، هل تعلمون أني جهزت جيش العسرة من مالي؟ قالوا: اللهم نعم».

وبلغت هذه المشاركة من عثمان ألف دينار. وعندما نثرها في حجر النبي ﷺ أخذ يقلبها ويقول مراراً: «ما ضرَّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم» [نفسه].

وقيل: إن عثمان رضي الله عنه قدم أشياء عينية كالإبل وعدتها، وأنه تصدق بثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها [الحاكم]، وليس هناك ما يمنع ذلك، ما دام قد ثبت أن الصحابة قد أقروا له بتجهيز جيش العسرة، كما هو ظاهر الأحاديث والآثار التي ذكرناها.

وروي أن عبد الرحمن بن عوف أنفق ألفي درهم، وهي نصف أمواله، لتجهيز جيش العسرة [تسير الطبري]، وفي أنه تصدق بأربعة آلاف دينار، وهي أيضاً نصف ماله [نفسه]. وأن عمر تصدق بمائة أوقية [ابن عساكر].

وتصدق العباس، وطلحة، وسعد بن عبادة، ومحمد بن مسلمة، وعاصم بن عدي، كما ذكر الواقدي.

وتصدقت النساء بكل ما قدرن عليه من الأسورة والخلاخل والختم والأقراط، وكنّ يضعنه على ثوب مبسوط بين يدي رسول الله ﷺ في بيت عائشة رضي الله عنها [الواقدي].

وقدم فقراء المسلمين جهدهم من النفقة على استحياء؛ ولذلك تعرضوا لسخرية وغمز ولمز المنافقين. فقد جاء أبو عُقَيل بنصف صاع من تمر وجاء آخر بأكثر منه، فلمزوهما قائلين: «إن الله لغني عن صدقة هذا!! وما فعل هذا الآخر إلا رياء»، فنزلت الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ﴾ [البخاري].

وجاء أبو خَيثَمَة الأنصاري بصاع تمر، فلمزوه، أيضاً [مسلم]، ولعله هو المعني ـ أيضاً ـ في حديث الطبري [التفسير] في إنفاق ابن عوف، وفيه أن رجلاً من الأنصار قال: «... وإن عندي صاعين من تمر: صاعاً لربي وصاعاً لعيالي»، فلمزه المنافقون، وقالوا: «ما أعطى ابن عوف هذا إلا رياء»، وقالوا: «أو لم يكن الله غنياً عن صاع هذا؟» فأنزل الله الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ...﴾.

وواضح من هذا أنهم يتهمون الأغنياء بالرياء، ويسخرون من صدقة الفقراء.

وروي أن عُلْبَة بن زيد بن حارثة عندما لم يجد ما يتصدق به جاء إلى الرسول ﷺ فقال: «اللهم إنه ليس عندي ما أتصدق به، اللهم إني أتصدق بِعِرْضِي على من ناله من خلقك»، فأمر رسول الله ﷺ منادياً فنادى أين المتصدق بعرضه البارحة، فقام علبة، فقال الرسول ﷺ: «قد قُبِلَتْ صَدَقَتُكَ» [الإصابة - وعلبة المذكور ليس من ولد زيد مولى النبي ﷺ].

لقد كان علبة بن زيد [الحارثي الأنصاري] واحداً من سبعة رجال من المؤمنين عرفوا بـ«البَكَّائِيْن»، أتوا رسول الله ﷺ يطلبون منه ما يخرجون عليه معه في هذه الغزوة، فلم يجد ما يحملهم عليه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون [ابن إسحاق].

وأرسل جماعة من الأشعريين أبا موسى الأشعري إلى الرسول ﷺ يطلبون منه ما يركبونه، فكان في لحظة غضب، فلم يحصل لهم منه على شيء، فعاد إليهم حزيناً. وبعد قليل أرسل الرسول ﷺ بلالاً إلى أبي موسى، فجاءه، فأعطاه ستة أبعرة ابتاعهن من سعد؛ ليركبها مع أصحابه الأشعريين

[البخاري]، وفي رواية أنه أعطاهم خمس ذَوْد عندما أُتيَ بِنَهْبِ إبل [نفسه].

وذكرت بعض الروايات أنه نزل في البكائين والأشْعَرِيِّين قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩١ ـ ٩٢] [تفسير الطبري].

إنها صورة مؤثرة للرغبة الصحيحة في الجهاد على عهد الرسول ﷺ، وما كان يحسه صادقو الإيمان من ألم إذا ما حالت ظروفهم المادية بينهم وبين القيام بواجباته، وكان هؤلاء المعوزون وغيرهم ممن عذر الله لمرض أو كبر سن أو غيره يسيرون بقلوبهم مع المجاهدين، وهم الذين عناهم الرسول ﷺ عندما قال: «إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم. قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟! قال: وهم بالمدينة، حبسهم العذر» [البخاري].

موقف المنافقين من غزوة تبوك:

عندما أعلم الرسول ﷺ النفير، ودعا إلى الإنفاق في تجهيز هذه الغزوة، أخذ المنافقون في تثبيط همم الناس، قائلين لهم: لا تنفروا في الحر، فأنزل الله ـ تعالى ـ فيهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١] [ابن إسحاق، وتفسير الطبري، والشوكاني؛ والدر المنثور].

وقال رسول الله ﷺ ذات يوم ـ وهو في جهازه لتبوك ـ لِلجَدِّ بن قَيْس: «يا جَدُّ! هل لك العام في جِلَادِ بني الأَصْفَر؟» فقال: «يا رسول الله أَوَ تَأْذَنُ لي، ولا تفتني؟ فوالله لقد عَرَفَ قومي أنه ما من رجل بأشد عُجْبَاً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر»، فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وقال: «قد أذنت لك»، ففيه نزلت الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة: ٤٩] [ابن إسحاق، والطبري في التفسير؛ والإصابة بأسانيد ضعيفة].

وذهب بعضهم إلى النبي ﷺ مبدين أعذاراً كاذبة؛ ليأذن لهم بالتخلف، فأذن لهم، فعاتبه الله بقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة: ٤٣] [الطبري: التفسير، من مرسل مجاهد بسند صحيح].

وبلغ رسول الله ﷺ أن ناساً منهم يجتمعون في بيت سُوَيْلِم اليهودي يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ، فأرسل إليهم من أحرق عليهم بيت سويلم [ابن هشام].

ووصلت بهم الجرأة على الله ورسوله أن يبنوا مسجداً قُبيل غزوة تبوك؛ ليجتمعوا فيه، ويديروا حلقات تآمرهم على المسلمين، ويأملوا في مجيء أبي عامر الفاسق من عند الروم بجيش يغزو المدينة. وزعموا أنهم بنوه للمنفعة والتوسعة على أهل الضعف والعلة ومن عجز عن المسير إلى مسجد الرسول ﷺ للصلاة فيه، وطلبوا من الرسول ﷺ أن يصلي فيه خداعاً للناس، ولكن الله فضح حقيقة نواياهم عندما أنزل في هذه الآيات: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة: ١٠٧ - ١٠٨] [الطبري: التفسير، صحيح]. فامتنع الرسول ﷺ عن الصلاة فيه، ثم أحرقه عندما عاد من تبوك، ومنعه الله من الصلاة على أمواتهم بعد أن صلى على عبد الله بن أبي بن سلول عقب عودته من تبوك، وذلك في قوله: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ﴾ [التوبة: ٨٤] [متفق عليه].

وقد تخلف عنه جماعة كما ثبت في حديث كعب بن مالك في قوله: «فكنت إذا خرجت في الناس... أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموساً بنفاق، أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء...» [متفق عليه].

وخرج بعضهم مع الرسول ﷺ لعلهم يتحينون الفرص للتخذيل، كما سترى.

لقد استنفر الرسول ﷺ المسلمين للخروج في هذه الغزوة، وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨]، وكان تثاقلهم بسبب مجيء وقت جني التمر، وطيب ثمره، واشتهاء الظل لشدة الحر [الطبري: التفسير، من مرسل مجاهد]، وبعد المسافة، ومشقة السفر، كما ذكرت الآية: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢] [الطبري: التفسير، مرسل قتادة، حسن].

وتخلف عن الغزوة كثير من الأعراب والمنافقين، وعدد قليل من الصحابة من أهل الأعذار، وثلاثة ممن لم يكن لهم عذر عن الجهاد، وسيأتي ذكرهم.

موقف المؤمنين من الخروج إلى تبوك:

عندما كشف الرسول ﷺ للمسلمين عن وجهته ـ خلافاً لما كان يفعل في مثل هذه الغزوات الكبيرة؛ ليتهيأ المسلمون إلى الجهاد [البخاري] ـ سارع المؤمنون إلى مرافقة الرسول ﷺ ولم ينظروا إلى ما سيلاقونه من مشقة، ولم تفتنهم طيبات الحياة الدنيا بالمدينة، فها هو علي بن أبي طالب لا يرضى أن يخلفه الرسول ﷺ في أهله، فيلحق بالرسول، وهو نَازِلٌ بالجُرْفِ ويقول: «يا رسول الله، تخلفني في النساء والصبيان؟» فقال له الرسول ﷺ: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبي بعدي؟» [متفق عليه].

وها هو أبو خيثمة الأنصاري يسارع إلى حسم الصراع الدائر في نفسه بين البقاء والخروج، ثم يؤثر الخروج رغبة في ما عند الله، وفي ذلك يقول: «تخلَّفت عن رسول الله ﷺ، فدخلت حائطاً لي ـ بستاناً ـ فرأيت عَرِيْشاً قد رُشَّ بالماء، ورأيت زَوْجَتَيَّ فقلت: ما هذا بإنصاف، رسول الله ﷺ في السَّموم والحرور وأنا في الظل والنعيم، فقمت إلى ناضح لي وتمرات فخرجت، فلما طلعت على العسكر فرآني الناس، قال النبي ﷺ: «كن أبا

خيثمة»، فجئت فدعا لي [ابن حجر: الفتح، من رواية الطبراني؛ وابن إسحاق، مرسلاً؛ والواقدي].

ويروى أن أبا ذر عندما أبطأ عليه بعيره أخذ متاعه، فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً، وعندما نزل رسول الله ﷺ في بعض منازله، رأى أحد المسلمين رجلاً يمشي وحده، فأخبر الرسول ﷺ فقال: «كُنْ أبا ذر»، فعندما وصل كان هو أبا ذر، فقال رسول الله ﷺ: «رَحِمَ الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، وَيُبْعَثُ وَحْدَهُ» [الحاكم، وصححه ووافقه الذهبي؛ والبيهقي: الدلائل؛ وابن كثير: البداية، وحسنه].

وعندما أقام أبو ذر بالرَّبَذَة في عهد عثمان ﷺ لم يكن معه أحد إلا امرأته وغلامه، فأوصاهما بأن يغسلاه ويكفناه إذا مات، ثم يضعاه على قارعة الطريق، ويطلبا الإعانة على دفنه من أول ركب يمر بهما، ففعلا، ويومها أقبل ابن مسعود ﷺ في رهط من أهل العراق عُمَّاراً، وكادت إبلهم أن تطأ الجنازة، وقام إليهم الغلام، فقال: هذا أبو ذر، صاحب رسول الله ﷺ فأعينونا على دفنه، فبكى ابن مسعود، وقال: «صدق رسول الله ﷺ: تمشي وحدك وتموت وحدك، وتبعث وحدك»، ثم نزل هو وأصحابه فدفنوه، ثم حدثهم حديثه، وما قال له رسول الله ﷺ في مسيره إلى تبوك [الحاشية نفسها، حسن بطرقه].

وهذه معجزة من معجزات الرسول ﷺ الكثيرة في هذه الغزوة وغيرها، كما هو معلوم. وأفردنا لذلك فصلاً فيما بعد.

عدد الصحابة في جيش تبوك:

تباينت الروايات في ذلك. ففي رواية معقل عن كعب بن مالك، عند مسلم قال: «وغزا رسول الله ﷺ بناس كثير يزيدون على عشرة آلاف، ولا يجمعهم ديوان حافظ»، وفي رواية أخرى له عنه: «المسلمون مع رسول الله كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريد بذلك الديوان». وقال ابن حجر [في الفتح]: وللحاكم في الإكليل من حديث معاذ: «خرجنا مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك زيادة على ثلاثين ألفاً، وبهذا العدد جزم ابن إسحاق». وروى

الواقدي عن زيد بن ثابت أنهم كانوا ثلاثين ألفاً، وفي رواية أخرى له: «وكان الناس مع رسول الله ﷺ ثلاثين ألفاً، ومن الخيل عشرة آلاف فرس»، وقد نقل عن أبي زُرعة الرازي أنهم كانوا أربعين ألفاً[الفتح]، وقال ابن حجر [الفتح] في تعليقه على بعض هذه الروايات: «فتحمل رواية معقل عن كعب على إرادة عدد الفرسان». وقال أبو زرعة الرازي: «وكانوا سبعين ألفاً». وجمع بعض الأئمة بين قوله وقول ابن إسحاق بأن أبا زرعة عد التابع والمتبوع، وابن إسحاق عد المتبوع فقط [تايخ ابن أبي خيثمة].

والمشهور والراجح أن جيش تبوك كان ثلاثين ألفاً، وهو ما اتفق عليه أئمة المغازي والسير: ابن إسحاق، والواقدي، وابن سعد، وليس هناك تعارض مع ما جاء في الصحيح، والله أعلم.

المتخلفون عن غزوة تبوك:

لقد تخلف عن غزوة تبوك - من غير ذوي الأعذار والمنافقين - ثلاثة من خيار الصحابة، وهم: كَعْبُ بن مالك، ومُرَارَة بن الربيع العَمْرِي، وهِلَال بن أُمَيَّة الواقِفِيّ، فقد غلبهم التسويف والميل إلى الراحة. وروى كعب رضي الله عنه قصته في هذا التخلف في حديث طويل، رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وجاء فيه:

«كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر منه حين تخلفت عنه في تلك الغزاة... وطفقت أغدو لكي أتجهز مع المسلمين، فأرجع ولم أقض شيئاً، فأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد، ولم أقض من جهازي شيئاً. ولم يزل بي حتى أسرعوا، وتفارط الغزو - أي فاتوا - وهممت أن أرتحل فأدركهم - فيا ليتني فعلت - فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم، أحزنني أني لا أرى إلا رجلاً مغموساً بنفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء.. ولما بلغني أنه توجه قافلاً حتى حضرني همي، فطفقت أتذكر الكذب، وأقول بماذا سأخرج من سخطه غداً؟!... واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، ولما قيل: إن رسول الله ﷺ قد

أقبل زاح عني الباطل، وأجمعت أن أَصْدُقَهُ، فجئته، فلما سلَّمت عليه تبسَّم تبسُّم المُغْضَبِ، ثم قال: تعال، فجئت أمشي حتى جسلت بين يديه، فقال لي: ما خَلَّفَكَ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ فقلت: بلى، إني ـ والله ـ لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعْطِيْتُ جَدَلاً، ولكني ـ والله ـ لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك عليَّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليَّ فيه إني لأرجو فيه عفو الله. والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك! فقال رسول الله ﷺ: أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك. فقمت، وثار رجال من بني سلمة، فاتبعوني يؤنبونني (أي يعتبون عليه أنه لم يعتذر كالآخرين) فقلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ فقالوا: نعم، رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت من هما؟ فقالوا: مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية. فذكروا لي رجلين صالحين شهدا بدرا، لي فيهما أسوة... ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا ـ أي الثلاثة ـ فَاجْتَنَبَنَا الناسُ، وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي الأرض، فما هي بالتي أعرفها. فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا، وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج، فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله فأسلم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه أسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني. وبينما أنا أمشي بسوق المدينة، إذا نَبَطِيٌّ من أَنْبَاط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يَدُلُّنِي على كعب بن مالك؟ فَطَفِقَ الناس يشيرون له حتى إذا جاءني دفع إلي كتاباً من ملك غَسَّان، فإذا فيه: «أما بعد فإنه قد بَلَغَنِي أن صاحبك قد جفاك، ولم يَجْعَلْكَ الله في دار هوان ولا مَضْيَعَة، فالحق بنا نُوَاسِك»، فقلت لما قرأتها: وهذا أيضاً من البلاء، فتيممت بها التَّنُّور، فسجرته بها. حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني، فقال: إن

رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبيّ بمثل ذلك. فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك، فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر.. فلبثت بعد ذلك عشر ليالٍ حتى كملت لي خمسون ليلة، من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا. فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله قد ضاقت علي نفسي، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سَلْع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، فخررت ساجداً، وعرفت أنه قد جاء فرج، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَلَ صاحِبَيَّ مبشرون... ولما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني نزعت له ثوبيَّ، فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ، فتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنئوني بالتوبة. فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال ـ وهو يبرق وجهه من السرور ـ: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك. قلت: أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: لا، بل من عند الله. فقلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله ورسوله. قال رسول الله ﷺ: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك. فقلت: يا رسول الله، إنما نجَّاني الصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقاً ما بقيت. وأنزل الله تعالى على رسوله: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾... وكنا تَخَلَّفْنا ـ نحن الثلاثة ـ عن أمر أولئك الذين قَبِلَ منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم، واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه. فبذلك قال الله ـ تعالى ـ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾، وليس الذي ذَكَرَ الله مما خُلِّفْنا عن الغزو، إنما هو تَخْلِيفُهُ إيانا وإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عمن حَلَفَ له واعتذر إليه، فَقَبِلَ منه».

وجاء في حديث كعب هذا أن الذين تخلفوا عن هذه الغزوة كانوا بضعة وثمانين رجلاً، اعتذروا للرسول ﷺ عن تخلفهم، فقبل منهم علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله. ويتطابق هذا العدد مع ما ذكره الواقدي، وقد زاد الواقدي، أن المُعَذِّرِيْنَ من الأَعْرَابِ كانوا أيضاً اثنين

وثمانين رجلاً من بني غِفار وغيرهم، وأن عبد الله بن أبي بن سلول ومن تابعه من قومه كانوا من غير هؤلاء، وكانوا عدداً كثيراً، وروى هو وابن سعد وابن إسحاق أن ابن أبي خرج حتى وصل جبل ذُبَاب - وفي رواية عند ثنية الوداع - بالمدينة، ومعه حلفاؤه من اليهود والمنافقين، فكان يقال: ليس عسكر ابن أبي بأقل العسكرين، فلما سار الرسول ﷺ تخلف عنه فيمن تخلف من المنافقين، وكل هذا لم يثبت بطرق صحيحة.

وكان من يتخلف يظن أن لا أحد يتفقده لكثرة أفراد الجيش، ولكن الرسول ﷺ تفقد - وهو في طريقه إلى تبوك - بعض من تخلف، فقد سأل أبا رِهْم كلثوم بن حصين الغفاري عمن تخلف من بني غفار وأسلم[ابن إسحاق، حسن لغيره]، وعندما وصل إلى تبوك سأل عن كعب بن مالك [البخاري].

المسلمون في تبوك:

قيل: إن الرسول ﷺ خطب الناس خطبة طويلة في تبوك، قال فيها: «أيها الناس، أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العرى كلمة التقوى، وخير الملل ملة إبراهيم، وخير السنن سنة محمد، وأشرف الحديث ذكر الله، وأحسن القصص هذا القرآن، وخير الأمور عوازمها، وشر الأمور محدثاتها، وأحسن الهدى هدي الأنبياء، وأشرف الموت قتل الشهداء، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى، وخير الأعمال ما نفع، وخير الهُدَى ما اتبع، وشر العمى عمى القلب. . .» [أحمد؛ الأموال؛ البداية].

وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أُكَيْدِر دُوْمَة الجندل فأخذوه، فأتوا به النبي ﷺ فحقن له دمه، وصالحه على الجزية [ابن إسحاق، يعتضد].

وعندما أخذوه كان يصيد البقر خارج حصنه، وهي الهيئة التي ذكرها الرسول ﷺ لخالد - أنهم سيجدونه عليها [ابن إسحاق، حسن]. وقد تعجب المسلمون من قَبَاء كان يلبسه أكيدر، واستلبه منه خالد، وأرسله إلى النبي ﷺ، فقال لهم النبي ﷺ: أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا» [متفق عليه، وابن إسحاق؛ وعروة؛ والترمذي؛ والنسائي].

وفي الصحيح أن أكيدر أهدى رسول الله ﷺ حلة من حرير [متفق عليه]، فعجب الناس منها، فقال: «والذي نفس محمد بيده. . .» الحديث بمثل ما عند ابن إسحاق. والراجح أن حصول الرسول ﷺ على الحلة كان عن طريق الإهداء كما في الصحيح، وليس عن طريق الاستلاب كما ذكر ابن إسحاق. ويؤيد ذلك ما رواه أبو يعلى بإسناد قوي أنه لما قدم أكيدر أخرج قباء من ديباج منسوجاً بالذهب، فرده النبي ﷺ عليه، ثم إنه وجد في نفسه من رد هديته فرجع به، فقال له النبي ﷺ: «ادفعه إلى عمر»، الحديث [ابن حجر: الفتح؛ والذهبي: المغازي]. وفي رواية عند البخاري أن الرسول ﷺ لم يعطها عمر ليلبسها، ولذا كساها عمر أخا له كان بمكة مشركاً [البخاري]. وفي رواية عن علي أنه أهدى إليه النبي ﷺ حُلَّةً سِيراءَ فلبسها، فرأى الغضب في وجه النبي ﷺ، فشقها بين نسائه [البخاري].

ويفهم من مجموع هذه الأحاديث أن الحلة التي أهديت إلى الرسول ﷺ ليست واحدة [البخاري]، وأن الرسول ﷺ والصحابة لم يكونوا يلبسون الحرير؛ لأن ذلك محرم بالأحاديث الصحيحة كما هو معروف.

وقيل: إن الرسول ﷺ أرسل خالداً إلى أكيدر في أربعمائة وعشرين فارساً، وأن غنائمه كانت ثمانمائة من السبي، وألف بعير، وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح [عروة، مرسلاً].

روى البخاري أن الرسول ﷺ عندما كان بتبوك جاءته هدية ملك أَيْلَة، وهي بغلة بيضاء، وكساه برداً، وصالحه على الجزية.

وأتاه أهل جَرْبَاء وأَذْرُح، فأعطوه الجزية، فكتب لهم كتاباً، فهو عندهم [ابن إسحاق].

وفي ذات يوم من أيام تبوك تخلف رسول الله ﷺ عن صلاة الفجر لحاجة، وعندما انتهى إلى مكان المسلمين، كانوا قد قدموا عبد الرحمن بن عوف إماماً لهم، وشرعوا في الصلاة، فصلى رسول الله ﷺ خلف ابن عوف، ثم أكمل صلاته [مسلم؛ أحمد، وأبوداود].

ويروى أن الرسول ﷺ أرسل دِحْيَة بن خَليفة الكَلبي إلى هرقل، وهو

بتبوك، وأن هرقل أرسل التَّنُوخِي؛ ليتعرف له على بعض علامات نبوة محمد ﷺ. ولو ثبت هذا فيكون إرسال دحية للمرة الثانية.

وتوفي حين مقام الرسول ﷺ بتبوك ذو البِجَادَيْنِ [البجادان: مفردها البجاد، وهو الكساء الغليظ الجافي أو المِسْح ـ كساء من شعر أسود. وذكر ابن هشام (٤/ ٢٣٤) سبب هذه التسمية، فقال: «لأنه كان ينازع إلى الإسلام، فيمنعه قومه من ذلك، ويضيقون عليه حتى تركوه في بجاد واحد ليس عليه غيره، فهرب منهم إلى رسول الله ﷺ، فلما كان قريباً منه شق بجاده باثنتين، فاتزر بواحد، واشتمل بالآخر، ثم أتى رسول الله ﷺ، فقيل له: ذو البجادين لذلك»] ـ عبد الله بن عبد نهم بن عفيف المزني، فنزل رسول الله ﷺ في حفرته وأبو بكر وعمر يدليانه إليه. فلما هيأه لشقه قال: «اللهم إني أمسيت راضياً عنه، فارض عنه». وقال الراوي ـ عبد الله بن مسعود: «يا ليتني كنت صاحب الحفرة» [ابن هشام، بسند مرسل جيد].

الرجوع إلى المدينة:

لم يلق الرسول ﷺ حرباً من الأعداء، فرجع إلى المدينة منتصراً، بعد أن أقام بتبوك عشرين ليلة [ابن حبان: الموارد، صحيح]. وفي الطريق أتوا على الحِجْر من ديار ثَمُود الذين غضب الله عليهم لعصيانهم أمره بعدم ذبح ناقة نبي الله صالح [متفق عليه]، وعندما سارع الناس إلى دخول مساكن أهل الحجر نهاهم الرسول ﷺ [أحمد، حسن]، وقال لهم: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين»، ثم قنع رأسه، وأسرع السير حتى أجاز الوادي [متفق عليه]، وعندما نزلوا الحجر استقوا من آبارها، وعجنوا من مائها العجين، فنهاهم عن ذلك، وأمرهم بطرح ذلك العجين للإبل، وَيُهْرِيقوا ذلك الماء، وأن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة [متفق عليه].

وعندما اشتكى المسلمون إلى النبي ﷺ ما أصاب إبلهم من الإِجهاد دعا الله أن ينشطها، فنشطت بهم حتى بلغوا المدينة [أحمد، حسن، والموارد].

وحاول جماعة من المنافقين الملثمين أن يطرحوا الرسول ﷺ عن

راحلته من رأس عَقَبة بالطريق، في عَتَمَةٍ من الليل، فشعر بمؤامرتهم، فأمر بإبعادهم عنه [أحمد، حسن].

فلما دنا رسول الله ﷺ من المدينة، خرج الصبيان إلى ثنية الوداع لتلقيه [البخاري]، ومعهم النساء والولائد يقلن:

طلع البدر علينا
من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا
ما دعا لله داع

وكان أول ما فعله الرسول ﷺ عند دخوله المدينة أن صلى في مسجده ركعتين، ثم جلس للناس، فجاءه المنافقون المتخلفون عن الغزوة، فاعتذروا بشتى الأعذار، فقبل منهم علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم لله [متفق عليه]، وجاء الثلاثة المخلفون، وكان من خبرهم ما سبق ذكره.

وقفة مع بعض الآيات التي نزلت بمناسبة غزوة تبوك:

نزلت آيات كثيرة من سورة براءة ـ التوبة ـ في شأن هذه الغزوة، نزل بعضها قبل الخروج، وبعضها بعد الخروج، وهو مسافر، وبعض آخر منها بعد الرجوع إلى المدينة. وقد اشتملت على ذكر ظروف الغزوة، وفضح المنافقين، وفضل المجاهدين المخلصين، وقبول التوبة من المؤمنين الصادقين الخارجين منهم في الغزوة والمتخلفين.

١ ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة: ١٠٢].

قال الطبري [التفسير]: «وقد اختلف أهل التأويل في المعني بهذه الآية، والسبب الذي من أجله أنزلت فيه. فقال بعضهم: نزلت في عشرة أنفس كانوا تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، منهم أبو لبابة، فربط سبعة منهم أنفسهم إلى سواري المسجد عند مقدم النبي ﷺ من تبوك، توبة منهم من ذنبهم... وقال آخرون: الذين ربطوا أنفسهم كانوا ثمانية... وقال آخرون:

كانوا سبعة. . . وقال آخرون: بل نزلت في أبي لبابة بسبب تخلفه عن تبوك. وقال بعضهم: عنى بهذه الآية الأعراب. . .»، وذكر الطبري المرويات عمن قال بكل قول من الأقوال المذكورة. . . وكلها روايات لا تقوم بها الحجة حسب دراسة الدكتور السندي لها [الذهب]، ولذا قال الطبري [في التفسير]: «وأولى هذه الأقوال بالصواب في ذلك قول من قال: نزلت هذه الآية في المعترفين بخطأ فعلهم في تخلفهم عن رسول الله ﷺ، وتركهم الجهاد معه، والخروج لغزو الروم، حين شخص إلى تبوك، وأن الذين نزل فيهم جماعة، أحدهم أبو لبابة. . . فقد تبين أن هذه الصفة لم تكن إلا لجماعة فعلت ذلك، فيما نقله أهل السير والأخبار، وأجمع عليه أهل التأويل، إلا جماعة من المتخلفين عن غزوة تبوك. . . منهم أبو لبابة، لإجماع الحجة من أهل التأويل على ذلك».

٢ ـ قال الله ـ تعالى ـ:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٥].

روى الطبري [بسند صحيح] عدة آثار في سبب نزول هذه الآية، منها أثر صحيح عن ابن عمر، مضمونه أن رجلاً قال في مجلس في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء. فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ. فبلغ ذلك النبي ﷺ، ونزل القرآن، قال ابن عمر: فأنا رأيته متعلقاً بِحَقَبِ [الحبل الذي يشد به الرحل على بطن البعير] ناقة رسول الله ﷺ تَنْكُبُهُ [تصيبه] الحجارة، وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: «أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون، لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم». واستدل بعضهم بهذه الآية على أن الجد واللعب في إظهار كلمة الكفر سواء، ولا خلاف بين الأئمة في ذلك [زاد المسير].

ويقول الله ـ تعالى ـ تعقيباً على ما صدر من هذا الرجل: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٦].

إن أصح ما روي في تفسير هذه الآية أن الذي عُفِيَ عنه هو وحشي بن حمير الأشجعي، وذلك أنه أنكر منهم بعض ما سمع [الدر المنثور، من حديث ابن إسحاق، وابن المنذر سند حسن].

معجزات وقعت للرسول ﷺ في أحداث تبوك:

شكا الصحابة رضي الله عنهم إلى النبي ﷺ ما برواحلهم من جهد، فأمر أن يمروا بها عليه عند مكان ضيق، فأخذ ينفخها، ويقول: «اللهم احمل عليها في سبيلك، إنك تحمل على القوي والضعيف، وعلى الرطب واليابس في البر والبحر»، فما بلغوا المدينة حتى جعلت تنازعهم أزمتها، فقال الرواي - فُضَالة بن عُبيد الأنصاري: «هذه دعوة النبي ﷺ على القوي والضعيف، فما بال الرطب واليابس، فلما قدمنا الشام غزونا غزوة قبرص في البحر، فلما رأينا السفن في البحر وما يدخل فيها عرفت دعوة النبي ﷺ» [أحمد، بسند حسن].

روى الواقدي عدة آثار عن معجزات وقعت للرسول ﷺ ضمن أحداث غزوة تبوك، ولكن كلها ضعيفة، مثل الحية التي اعترضت سبيل المسلمين في غزوة تبوك، ومعجزة نبع الماء من أصابعه، ومعجزة تكثير الطعام.

وكذلك روى السيوطي [في الخصائص الكبرى] آثاراً عن معجزات وقعت للرسول ﷺ وكلها ضعيفة، مثل نزول المطر بدعاء الرسول ﷺ في غزوة تبوك، ولقاء إلياس عليه السلام بالرسول ﷺ في هذه الغزوة، وكل هذه المعجزات التي وردت عند الواقدي والسيوطي بأسانيد ضعيفة، وقع مثلها بأسانيد صحيحة، جاء ذكرها في ثنايا هذا الكتاب، اللهم إلا قصة إلياس عليه السلام، فهي لم ترد من قبل بإسناد صحيح أو سقيم. وقد أفردنا فصلاً خاصاً للكلام عن معجزات النبي ﷺ.

الأحكام والفوائد والدروس المستنبطة من أحداث غزوة تبوك:

١ - أن في صلاة النبي ﷺ خلف عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه تكريماً لأحد أصحابه، ودليلاً على جواز إمامه المفضول وصلاة الأفضل خلفه.

٢ ـ سأل معاذ بن جبل رضي الله عنه الرسول ﷺ عن عمل يدخله الجنة، وهم في طريق العودة من تبوك، فأجابه الرسول ﷺ بأن رأس هذا الأمر الشهادة، وقوامه الصلاة والزكاة، وذروة سَنَامِه الجهاد [أحمد، حسن].

٣ ـ كان الرسول ﷺ يجمع بين صلاتي الظهر والعصر، وبين صلاتي المغرب والعشاء [الزرقاني: شرح الموطأ]. وأصبحت سنة لأصحاب الأعذار.

٤ ـ سئل النبي ﷺ عن سترة المصلي، فأجاب بأنها مثل مُؤْخرة الرحل [النسائي، صحيح].

٥ ـ أقام ﷺ بتبوك عشرين ليلة يقصر الصلاة [ابن حبان: الموارد، صحيح]. وبهذا استدل بعض العلماء على جواز القصر ما دام المرء في حالة سفر، ولم ينو الإقامة، وانظر الفقرة ١٧ بعد قليل.

٦ ـ قال ﷺ عن جِلْدِ الميتة: «دِبَاغُها طهورها»، وذلك عندما طلب ماء من بيت بتبوك، فأُتي له به في قربة من جلد فشرب [أبوداود، حسن].

٧ ـ أهدر الرسول ﷺ ثنية رجل عض يد رجل آخر فانتزعها بقوة، ومعها الثنية [متفق عليه].

٨ ـ جواز الهجر أكثر من ثلاث ليالٍ لسبب شرعي، كما في أمر الرسول ﷺ بمقاطعة الذين خلفوا لمدة خمسين ليلة.

٩ ـ أن من يمر بديار المغضوب عليهم والمعذبين لا ينبغي له أن يدخلها، [إلا لضرورة]، ولا أن يقيم بها، بل عليه أن يسرع، ويتقنع بثوبه حتى يجاوزها، ولا يدخل عليهم إلا باكياً معتبراً، كما فعل الرسول ﷺ وأمر به عندما مر بديار ثمود بالحجر، وكما فعل في وادي محسر بين منى وعرفة، فإنه المكان الذي أهلك الله فيه الفيل وأصحابه [الزاد].

١٠ ـ تصريح الإمام للرعية، وإعلامهم بالأمر الذي يضرهم ستره وإخفاؤه ليتأهبوا له، وجواز ستر غيره عنهم والكناية عنه للمصلحة، كما فعل الرسول ﷺ في أمر الإِعلام بوجهته حين عزم على غزوة تبوك [نفسه].

١١ ـ إذا استنفر الإِمام الناس للجهاد لزمهم النفير جميعاً، ولا يشترط في وجوب ذلك تعيين كل واحد منهم بعينه، وهو أحد المواضع الثلاثة

التي يصبح فيها الجهاد فرض عين، والثاني: إذا حضر العدو البلد، والثالث إذا حضر بين الصفين، [أي حين لقاء العدو].

١٢ ـ وجوب الجهاد بالمال كما يجب بالنفس، وهذه إحدى روايتي أحمد، قال ابن القيم [الزاد]: «وهو الصواب الذي لا ريب فيه».

١٣ ـ أن في قول الرسول ﷺ لعثمان رضي الله عنه عندما رأى سخاء بذله: «ما ضرَّ عثمان ما فعل بعد اليوم»، منقبة كبرى لعثمان رضي الله عنه، تضاف إلى مناقبه الأخرى الكثيرة، والتي أعظمها البشرى له بالجنة.

١٤ ـ أن العاجز عن الجهاد والذي لا حرج عليه في التخلف عنه هو الذي يبذل جهده ويتحقق عجزه، كما في حالة الذين جاءوا يسألون الحملان فلم يجد الرسول ﷺ ما يحملهم عليه، فرجعوا يبكون لما فاتهم من شرف وأجر الجهاد.

١٥ ـ مشروعية استخلاف الإمام ـ إذا سافر ـ رجلاً من الرعية على الضعفاء والنساء والذرية، كما في حالة علي رضي الله عنه، ويكون نائبه من المجاهدين، وهي خلافة خاصة، أما الاستخلاف العام والخاص بالشؤون الأخرى فكان لمحمد بن مسلمة [نفسه].

١٦ ـ لا يجوز شرب ماء آبار ثمود، ولا الطبخ منه، ولا العجن به، ولا الطهارة به، ويجوز أن يسقى منه البهائم، إلا ما كان من بئر الناقة، فيجوز الاستفادة من مائها في كل شيء[نفسه].

١٧ ـ أقام النبي ﷺ عشرين يوماً يقصر الصلاة، ولم يقل للأمة: لا يقصر الرجل الصلاة إذا أقام أكثر من ذلك، وهذه الإقامة في حال السفر لا تخرج عن حكم السفر، سواء طالت أم قصرت، إذا كان غير مستوطن ولا عازم على الإقامة بذلك الموضع، وكان ذلك عمل بعض أئمة السلف، مثل سعد بن أبي وقاص، وابن عمر، وأنس بن مالك، وعبد الرحمن بن سَمُرة، وهو الصواب كما قال ابن القيم [في الزاد].

١٨ ـ أن من مراتب الجهاد الأربعة: الجهاد بالقلب، كما في حال الذين حبسهم العذر، وقال عنهم الرسول ﷺ: «إن بالمدينة أقواماً. . . الحديث» والمراتب الأخرى: اللسان، والمال، والبدن، كما في

الحديث: «جاهدوا المشركين بألسنتكم وقلوبكم وأموالكم» [أبو داود؛ وأحمد، والنسائي؛ والدارمي؛ والحاكم (صحيح)؛ وابن حبان].

١٩ ـ جواز إحراق وهدم أمكنة المعصية، كما فعل الرسول ﷺ بمسجد الضِّرَار.

٢٠ ـ جواز إخبار الرجل عن تفريطه وتقصيره في طاعة الله ورسوله، كما في رواية كعب لقصة تخلفه عن غزوة تبوك.

٢١ ـ جواز مدح الإنسان نفسه بما فيه من الخير، إذا لم يكن ذلك على سبيل الفخر والترفع، كما فعل كعب رضي الله عنه.

٢٢ ـ أن بيعة العقبة الكبرى كانت من أفضل مشاهد الصحابة، حتى إن كعباً كان لا يراها دون مشهد بدر.

٢٣ ـ لا ينبغي للإمام أو المطاع أن يهمل من تخلف عنه في بعض الأمور، بل يذكره ليراجع الطاعة ويتوب، كما فعل الرسول ﷺ عندما سأل عن كعب وغيره بتبوك.

٢٤ ـ أن رسول الله ﷺ كان يقبل علانية من أظهر الإسلام من المنافقين، ويكل سريرته إلى الله، ويجري عليه حكم الظاهر، ولا يعاقبه بما لم يعلم من سره، كما فعل الرسول ﷺ مع الذين جاؤوه يعتذرون له عن تخلفهم.

٢٥ ـ أن في سجود كعب حين سمع صوت المبشر دليلاً ظاهراً على أن تلك كانت عادة الصحابة، وهو سجود الشكر عند حدوث النعم المتجددة، والنقم المندفعة، وقد سجد أبو بكر رضي الله عنه لما جاءه خبر مقتل مسيلمة الكذاب [البيهقي: السنن]، وسجد علي عندما وجد ذا الثُّدَيَّةِ أو المُخْدَجُ [ذكر مسلم (٢/٧٤٦ ـ ٧٤٩، ح١٠٦٦) قصته مع علي رضي الله عنه أيام حربه مع الخوارج وإخبار النبي ﷺ عن صفته وما في هذا من أدلة على نبوة محمد ﷺ] مقتولاً في الخوارج [أحمد، صحيح] وهم في هذا يقتدون بالرسول ﷺ. فقد سجد رسول الله ﷺ عدة مرات لأحداث سارة، وقال أبو بكْرَة: «كان رسول الله ﷺ إذا أتاه أمر يسره خرَّ لله ساجداً» [أبوداود، صحيح؛ والترمذي، حسن؛ وابن ماجه، حسن]، ومن أمثلة

ذلك سجوده عندما أتاه خبر إسلام همدان على يد علي بن أبي طالب [البخاري].

٢٦ ـ استحباب الصدقة عند التوبة بما قدر عليه من المال، كما جاء في موقف كعب وحواره مع الرسول ﷺ عندما أراد التصدق بكل ماله، ولكن الرسول ﷺ استحب له الثلث، فأمسك فقط سهمه الذي بخيبر [أبوداود، صحيح].

٢٧ ـ مشروعية أخذ الجزية من أهل الكتاب، وأنهم يحرزون بذلك دماءهم وأموالهم، فقد رأيت أن الروم اختفوا، وتفرقوا عن مواجهة رسول الله ﷺ حينما وصل إلى تبوك، وجاءه نصارى العرب، فصالحوه على الجزية.

٢٨ ـ أن موقف كعب من رسالة ملك غسان وتعليقه على طلبه، فيه صورة رائعة لما ينبغي أن يكون عليه إيمان المسلم بربه ـ تعالى ـ وأن الابتلاء لا بد أن يكشف عن المزيد من الإيمان وشدة الإخلاص.

٢٩ ـ لقد وطدت هذه الغزوة سلطان الإسلام في شمالي شبه الجزيرة العربية، ومهدت لفتوح الشام التي استعد لها الرسول ﷺ بإعداد جيش أسامة قبيل وفاته، فأنفذه أبو بكر ﷺ، ثم أتبعه أبو بكر بجيوش الفتح الأخرى التي انساحت في بلاد الشام والعراق، وكانت بداية تحرير شعوب تلك المناطق من عبودية القيصرية والكسروية.





الفصل الرابع والعشرون

الوفود

عندما افتتح رسول الله ﷺ مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، قدمت إليه وفود العرب من كل وجه [ابن إسحاق]، حتى إن سنة تسع كانت تسمى سنة الوفود [ابن هشام]، وقد سبق القول أن أبرز نتائج فتح مكة أن أخذت قبائل العرب وأفرادها يبادرون بإسلامهم؛ لأنهم كانوا ينتظرون نتيجة الصراع بين المسلمين وقريش [انظر: نتائج فتح مكة].

وذكر البخاري، وابن إسحاق، والواقدي، وابن سعد، والبيهقي وفوداً تقدم تاريخ قدومهم على سنة تسع، بل وعلى فتح مكة [البداية]، وهو أمر ستراه ظاهراً عند الوقوف على أخبار الوفود في المصادر المختلفة، ومن خلال تناولي لها في هذا الكتاب، على أن هؤلاء الأئمة الذين اعتنوا بإيراد الوفود لم يستقصوها جميعها، ولذا استدرك عليهم ابن كثير، وذكر ما أهملوه [نفسه]، مستفيداً في هذا من المصادر الأخرى التي ضاع معظمها، ولكن وجدت منها روايات مبثوثة في كتب الذين جاؤوا من بعدهم. وقد تكلمنا عن هذا في المباحث الخاصة بمصادر السيرة.

وبلغ مجموع ما ذكره هؤلاء الأئمة ما يزيد على الستين وفداً، وقد سردهم الشامي في سيرته، فزادوا على مائة، فلعل هؤلاء الأئمة اقتصروا على ذكر المشهور منهم أو الذين أتوا لترتيب مصالحهم [الظاهري: وفود الإسلام]. وكان ابن سعد صاحب أكبر إسهام في إيراد أخبار تلك الوفود، ويعاب عليه وعلى شيخه الواقدي وابن إسحاق إهمال الإِسناد إلا نادراً، وحتى معظم هذه الأسانيد النادرة لا يخلو معظمها من مطعن من حيث ضعف الرجال أو الإِرسال.

وسأشير في كتابي هذا إلى أسماء معظم الوفود التي قدمت على

الرسول ﷺ، دون الدخول في تفاصيل أخبارها؛ لأن ذلك مما يطول الكلام فيه. وقد أفرد له أبو تراب الظاهري كتاباً مفيداً [نفسه]. وهاكها:

١ ـ **وفد مُزَينة**: قدموا على رسول الله ﷺ في رجب سنة خمس [ابن سعد] وكان عددهم أربعمائة. وانظر خبرهم في المسند [حسن]، ففيه معجزة تكثير التمر.

٢ ـ **وفد بني تميم**: ذكر البخاري قدوم هذا الوفد، كما حكت سورة الحجرات عنهم تصرفات مجافية لآداب الاستئذان والمخاطبة، حيث آذوا الرسول ﷺ بصياحهم له من وراء حجراته، طالبين منه أن يخرج إليهم ليفاخروه، ولم يستأذنوا عليه [البخاري].

وكان قدومهم على الرسول ﷺ في أول السنة التاسعة الهجرية [الدياربكري].

٣ ـ **وفد عبد القيس**: ممن ذكر خبرهم البخاري ومسلم وغيرهما. وفيه خبر أشج عبد القيس، وثناء الرسول ﷺ على حلمه.

٤ ـ **وفد بني حنيفة**: روى البخاري من حديث ابن عباس أن مسيلمة الكذاب قدم على النبي ﷺ في بشر كثير من قومه بني حنيفة، فجعل يقول: «إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته»، فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس، وفي يد رسول الله ﷺ قطعة جريد حتى وقف على مُسَيْلِمَة في أصحابه، فقال: «لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي أريت في ما رأيت، وهذا ثابت بن قيس يجيبك عني»، ثم انصرف عنه.

وقد سأل ابن عباس أبا هريرة عن قوله ﷺ: «وإني لأراك الذي أُرِيْتُ في ما أريت»، فأخبره أن رسول الله ﷺ قال: «بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب، فأهمني شأنهما، فأوحي أليَّ في المنام، أن أنفخهما فنفختهما فطارا، فأولتهما كذابين يخرجان بعدي، أحدهما العنسي، والآخر مسيلمة.

واسمه عَبْهَلَة أو عَيهَلَة بن كعب، والعَنْسِيّ نسبة إلى قبيلة عنس ـ بطن من مذحج ـ ادعى النبوة في عهد النبي ﷺ، باليمن، وحاربه الذين ثبتوا على

الإسلام باليمن، وقتلوه هو وزوجته، وقضوا على فتنته قبل وصول جيوش الخليفة أبي بكر رضي الله عنه. وقد فصلنا القول في فتنته في كتابنا: الثابتون على الإسلام.

٥ ـ **وفد نجران**: ثبت في الصحيح أن العاقب والسيد صاحبي نجران جاءا إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه ـ أي يباهلانه ـ، [جاء ذكر المباهلة، وهي الدعاء باللعنة، في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]] فقال أحدهما لصاحبه: «لا تفعل، فوالله لئن كان نبياً فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا». وقالا: «إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً». فقال: «لأبعثن رجلاً أميناً حق أمين»، فاستشرف له أصحاب رسول الله ﷺ، فقال: «قم يا أبا عبيدة بن الجراح». فلما قام قال رسول الله ﷺ: «هذا أمين هذه الأمة» [متفق عليه]، فخرج معهم أبو عبيدة ليقضي بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه [ابن إسحاق].

٦ ـ **وفد الأشعريين**: ثبت في الصحيح من حديث أبي موسى الأشعري أنه عندما بلغهم مخرج النبي ﷺ وهم باليمن خرجوا مهاجرين إليه، ومعهم أخوان له، هو أصغرهم، أحدهما أبو بُردة والآخر أبو رِهم، وهم في بضعة أو في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومه، فركبوا سفينة، فألقتهم إلى النجاشي بالحبشة، ووافقوا جعفر بن أبي طالب وأصحابه عنده، فطلب منهم جعفر أن يقيموا معهم؛ لأن رسول الله ﷺ بعثهم إلى هاهنا، وأمرهم بالإقامة، فأقاموا معه، حتى قدموا جميعاً، فوافقوا النبي ﷺ حين افتتح خيبر، فأسهم لهم [متفق عليه].

٧ ـ **وفد الحِمْيَريين من أهل اليمن**: وهؤلاء الحميريون هم الذين جاء ذكرهم في الصحيح، وذلك عندما جاءت بنو تميم إلى الرسول ﷺ فقال: «أبشروا يا بني تميم»، فقالوا: «أما إذا بشرتنا فأعطنا». فتغير وجه رسول الله ﷺ، فجاء ناس من أهل اليمن، فقال النبي ﷺ: «اقبلوا البشرى إذ لم يقبلها بنو تميم»، قالوا: «قد قبلنا يا رسول الله» [البخاري].

وكان ذلك في العام التاسع، عام الوفود [ابن حجر: الفتح].

٨ ـ **وفد طيّء**: قدموا على رسول الله ﷺ، وفيهم زيد الخيل، الذي سمَّاه الرسول ﷺ زيد الخير، وهو سيدهم، فأسلموا، وحسن إسلامهم، وأقطع الرسول ﷺ زيداً أرضاً، وكتب له كتاباً بذلك، ومات بالحمى في طريق عودته. ولما مات أحرقت زوجته ما كان معه من كتب لجهلها [ابن إسحاق، وابن سعد].

٩ ـ **وفد بني عامر**: ثبت في الصحيح أن عامر بن الطفيل أتى النبي ﷺ فقال: أخيِّرك بين خصال ثلاث: «يكون لك أَهْلُ السَّهْلِ وَلِيَ أهل المَدَرِ، أو أكون خليفتك من بعدك، أو أغزوك بغطفان، بألف أشقر وألف شقراء»، فَطُعِنَ في بيت امرأة، فقال: «أَغُدَّةٌ كغدة البعير، في بيت امرأة من آل بني فلان، ائتوني بفرسي»، فركب، فمات على فرسه [البخاري].

وروى الطبراني في الكبير [كما في تاريخ وتفسير ابن كثير] تآمر ابن الطفيل وإِرْبِد على قتل النبي ﷺ، وكانت خطتهما أن يشغل ابن الطفيل الرسول ﷺ بالحديث، فيضربه إربد فيقتله، فلا تكون إلا الدية؛ لأن الناس ستكره الحرب، ولكن الله عصمه منهما، إذ لم يستطع إربد أن يفعل شيئاً، وأهلك الله عامراً بالغدة، وإربداً بالصاعقة، فأنزل الله فيهما: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ [الرعد: ٨] ـ إلى قوله ـ ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ [الرعد: ١١] يعني محمداً، و﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾[الرعد: ١٣] .

١٠ ـ **وفد جُذَام**: قدم رفاعة بن زيد الجذامي في عشرة من قومه على رسول الله ﷺ في زمن هدنة الحديبية وقبل خيبر، فأسلم، وحسن إسلامه، وأهدى لرسول الله ﷺ غلاماً، وكتب له رسول الله ﷺ كتاباً، وبعثه إلى قومه، فدعاهم إلى الإسلام، فأسلموا [ابن إسحاق، يتقوى بغيره].

١١ ـ **وافد دوس ـ الطفيل بن عمرو ـ وقصته**: روى ابن إسحاق من حديث الطفيل بن عمرو الدوسي أنه قدم مكة، ورسول الله ﷺ بها، فمشى إليه رجال من قريش؛ لأنه كان رجلاً شريفاً شاعراً لبيباً، وأرادوا أن يصرفوه عن الاستماع إلى الرسول ﷺ وحاولوا إقناعه بشتى الحجج حتى أجمع ألا يسمع من الرسول ﷺ، وحشا أذنيه قطناً، ثم أتى المسجد، وأقام قريباً من

الرسول ﷺ وأبى الله إلا أن يسمع منه بعض قوله، فسمع كلاماً حسناً، ثم قال في نفسه: إنه ما دام رجلاً لبيباً شاعراً ما يخفى عليه الحسن من القبيح، فلماذا لا يسمع من الرسول ﷺ؟ فمكث حتى انصرف الرسول ﷺ إلى بيته، فجاءه، وحكى له ما حدث من قريش، وسمع منه، فأعجبه ما قال فأسلم، وطلب أن يدعو الرسول ﷺ الله؛ ليجعل له آية تكون عوناً له على دعوة قومه، فكان أن جعل الله له نوراً في رأس سوطه. وعندما عاد كان أول من أسلم على يديه والده وأمه، وأبطأت عليه دوس، فعاد إلى الرسول ﷺ وطلب منه أن يدعو الله عليهم، ولكن الرسول ﷺ قال: «اللهم اهد دوساً، ارجع إلى قومك، فادعهم، وارفق بهم». فرجع، وأخذ يدعو إلى الإسلام إلى ما بعد غزوة الخندق، ثم قدم بمن أسلم من قومه على رسول الله ﷺ وهو بخيبر، وهم نحو سبعين أو ثمانين بيتاً من دوس، ثم لحقوا برسول الله ﷺ بخيبر، فأسهم لهم مع المسلمين [سبق ذكر القصة]، فلم يزل مع الرسول ﷺ حتى إذا فتح مكة طلب أن يبعثه إلى ذي الكفين، صنم عمرو بن حممة، فأحرقه [سبق ذكرها].

أما حديث الرسول ﷺ: «اللهم اهد دوساً. . .» فأصله في الصحيح من رواية البخاري ومسلم. ومما يثبت أن الطفيل قد قدم على الرسول ﷺ وهو بمكة ما رواه مسلم من حديث جابر أن الطفيل أتى النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله! هل لك في حصن حصين ومنعة؟ حصن كان لدوس في الجاهلية ـ فأبى ذلك النبي ﷺ للذي ذخر الله للأنصار. فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، هاجر إليه الطفيل، وهاجر معه رجل من قومه. . .» الحديث.

١٢ ـ قدوم جَرِير بن عبد الله البَجَلِيّ: كان رسول الله ﷺ يخطب في المسجد عندما دخل جرير المدينة، وذكره الرسول ﷺ في خطبته قبل أن يدخل عليهم المسجد، فقال: «يدخل عليكم من هذا الباب ـ أو من هذا الفج ـ من خير ذي يمن، إلا أن على وجهه مسحة ملك» [أحمد والطبراني برجال ثقات؛ والطيالسي، صحيح]. فأسلم على يدي الرسول ﷺ وبايعه [متفق عليه]. وأكرمه الرسول ﷺ بأن ألبسه حلته، وقال: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه» [البيهقي، الدلائل].

والظاهر أن إسلامه كان متأخراً عن الفتح، فإن الإمام أحمد روى عنه

قوله: «أسلمت بعدما أنزلت المائدة، وأنا رأيت رسول الله ﷺ يمسح بعدما أسلمت» [البداية، من رواية أحمد].

وذكر ابن سعد أن إسلامه وإسلام من كان معه في الوفد ـ وعددهم مائة وخمسون رجلاً [البخاري] ـ كان في العام العاشر، في رمضان.

١٣ ـ وفد ثقيف: أرسلت ثقيف وفداً إلى رسول الله ﷺ في رمضان من العام التاسع بعد عودة الرسول ﷺ من تبوك، برئاسة عَبْد يَالَيل بن عمرو، ومعه ثلاثة من بني مالك واثنان من الأحلاف، فأعلنوا إسلامهم وإسلام قومهم، وطلبوا من الرسول ﷺ تأخير هدم صنمهم اللَّات لمدة ثلاثة سنين، مخافة غضب قومهم، فرفض ذلك الطلب، وما زالوا يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم، حتى سألوا شهراً واحداً، فأبى أن يدعها شيئاً مسمى كما يروي ابن إسحاق، ولكنه أعفاهم من القيام بذلك، وأوكل أمر ذلك إلى أبي سفيان والمغيرة بن شعبة، وطلبوا إعفاءهم من الصلاة بحجة عدم استساغتهم الركوع والسجود، فأبى عليهم ذلك قائلاً: «لا خير في دين لا صلاة فيه» [ابن إسحاق]، واشترطوا إعفاءهم من الزكاة والجهاد، فوافقهم على ذلك، وهو يقول: «سيتصدقون، ويجاهدون إذا أسلموا» [أبوداود، حسن]. وسألوه أن يعفيهم من الوضوء بحجة أن بلادهم باردة، وأن ينتبذوا في القرع، وأن يعيد إليهم أبا بكرة الثقفي، فأبى عليهم هذا كله [أحمد، صحيح].

وأمّر عليهم عثمان بن أبي العاص، وكان أصغرهم، لكنه كان أحرصهم على تعلم القرآن، والتفقه في الدين [مسلم؛ وأحمد؛ وابن ماجه].

١٤ ـ وافد فَرْوَة بن عمرو الجُذَامي ـ صاحب بلاد مُعَان: قدم على رسول الله ﷺ مسعود بن سعد وافداً من قبل فروة بن عمرو الجذامي، عامل الروم على معان. وبعث معه فروة هدايا، منها بغلة بيضاء وفرس وحمار، وكتب إليه الرسول ﷺ يبلغه وصول رسوله بخبر إسلامه، وأهدى إليه هدايا. وعندما بلغ ملك الروم خبر إسلام فروة أرسل إليه، وأمره بالرجوع عن الإِسلام، فرفض فروة، فحبسه، ثم صلبه، وضرب عنقه [ابن إسحاق، وابن سعد].

١٥ ـ وفد بني أسد: ذكر ابن سعد أنهم قدموا في أول السنة التاسعة، وكانوا عشرة، منهم: ضِرَار بن الأزور، ووابِصَة بن معبد، وطُلَيحة بن خويلد

الأسدي، وقال رئيسهم - حَضْرَمِيَ بن عامر - : «يا رسول الله! أتيناك نتدرع الليل البهيم في سنة شهباء، ولم تبعث إلينا بعثاً»، فنزل فيهم قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات: ١٧].

وروى البزار [ابن كثير: التفسير، صحيح] بإسناده إلى ابن عباس، قال: «جاءت بنو أسد إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، أسلمنا، وقاتلتك العرب، ولم نقاتلك». فقال رسول الله ﷺ: «إن فقههم قليل، وإن الشيطان ينطلق على ألسنتهم، ونزلت هذه الآية: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ . . .﴾ الآية.

ومن بين الوفود التي قدمت على رسول الله ﷺ غير التي ذكرنا:

جُعْفِيّ، وزُبَيْد، والصَّدِف، وخشبين، وسَعْد هُذَيْم، وبَلِّيّ، وعذرة، وسَلَامان، وبَهْراء، وجهينة، وكلب، وجرم، وغسان، وسعد العشيرة، وعنس، والرهاويين من مذحج، وغامد، والنخع، وأزد عمان، وخثعم، وغافق، وبارق، وثمالة والحدان، وأسلم، وجذام، ومهرة، وجيشان، وجماعة جبل تهامة، وكانوا جماعة من العبيد من كنانة، ومزينة، والحكم، والقارة ومن اتبعهم، غصبوا المارة، وكتب إليهم الرسول ﷺ كتاباً أمنهم فيه، وقال فيه: «فعبدهم حر ومولاهم محمد، ومن كان منهم من قبيلة لم يرد إليها . . .»، ومذحج، وبنو نهدى من غور تهامة، وبنو نمير، والسباع، والجن، الذين قدموا عليه بمكة، وهوازن، الذين قدموا على الرسول ﷺ بالجعرانة حين منصرفه عن الطائف وثعلبة، وأسيد بن أبي أناس، وقد جاء إلى النبي ﷺ تائباً بعد أن أهدر النبي ﷺ دمه، وبنو سحيم، وبنو سدوس، وأبو صفرة، وعَنَزَة، وفيهم سلمة بن سعد، وقال عنهم رسول الله ﷺ ذات يوم: « . . . حي ههنا مبغي عليهم منصورون»، وربيعة بن رواء العنسي، ووفادة قيس بن عاصم، ونصارى الحبشة، وقد قدموا إليه - وهو بمكة - وكانوا عشرين رجلاً أو قريباً من ذلك: وبنو سعد بن بكر، ووفادة فروة بن مسيك المزدي، وكندة، وزبيد، والأزد، ووافد ملوك حمير، ووافد حضرموت، وبنو المنتفف، صاء، ووافد بكر، ووفادة تميم الداري، وبنو قشير، وبنو الحارث بن كعب، ووفادتا همدان، ووفادة الحكم بن حزن الكلفي التميمي،

وعبس، وبنو فزارة، وبنو مرة، وبنو ثعلبة، وبنو كلاب، وبنو عقيل بن كعب، وجعدة، وبنو البكاء، ووافد كنانة، وبنو عبد بن عدي، وأشجع ، وبنو سليم، وبنو هلال بن عامر، وبنو بكر بن وائل، وتغلب، وبنو العنر، وتجيب، وخولان.

وهكذا يصل عدد هذه الوفود قرابة المائة، ذكر معظمهم ابن سعد في الطبقات . وقد حذفنا الإشارة إلى المصادر والحكم على الأسانيد من باب الاختصار، ولمن يريد ما اختصرناه فليرجع إلى الكتاب المطول.

أحكام وعبر وفوائد من أخبار الوفود:

١ ـ أن في أخبار وفود هذه القبائل على الرسول ﷺ دليلاً واضحاً على مدى انتشار الإسلام في الجزيرة العربية في حياة الرسول ﷺ، وتوحيد الجزيرة العربية تحت راية واحدة، هي راية الإسلام، والدولة الإسلامية بالمدينة المنورة.

٢ ـ أن في تدفق هذه الوفود على المدينة دليلاً على وفاء الله بوعده النصر الذي وعده نبيه.

٣ ـ أن من حسن السياسة وأدب الإسلام وأخلاقه احترام ممثلي الشعوب أو القبائل وإكرامهم، وذلك بدليل ما كان يفعله الرسول ﷺ مع الوفود من الضيافة، وحسن الاستقبال، وإجزال العطاء.

٤ ـ جواز إنزال المشرك في المسجد إذا كان يرجى إسلامه وهدايته، فقد علمنا أن النبي ﷺ كان يستقبل وفد ثقيف في مسجده لمحادثتهم وتعليمهم، وإذا كان هذا جائزاً للمشرك، فجوازه للكتابي أولى. وقد استقبل النبي ﷺ وفد نصارى نجران بالمسجد. قال الزركشي: واعلم أن الرافعي والنووي (رحمهما الله) أطلقا أنه يجوز للكافر أن يدخل المساجد غير الحرم بإذن المسلم، بقيود:

أولها: أن لا يكون قد شرط عليه في عقد الذمة عدم الدخول.

ثانيها: أن يكون المسلم الذي أذن له مكلفاً، كامل الأهلية.

ثالثها: أن يكون دخوله لسماع القرآن أو علم، ورجي إسلامه، أو دخل لإصلاح بنيان ونحوه.

الفصل الخامس والعشرون

الأحداث والسرايا والبعوث بين غزوة تبوك والوفاة

المبحث الأول: حجة أبي بكر رضي الله عنه

أَمَّرَ الرسول ﷺ أبا بكر على الحج في العام التاسع الهجري، فخرج في ذي الحجة إلى مكة [متفق عليه]، ومعه ثلاثمائة من الصحابة [ابن سعد].

وعندما فَصَلَ رَكْبُ الحجاج عن المدينة نزلت سورة براءة، فبعث النبي ﷺ علي بن أبي طالب بصدرها؛ ليعلنها على الناس في يوم النحر بمنى، وقال: «لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي» [ابن إسحاق، مرسل حسن].

وعندما رأى أبو بكر علياً قال له: «أأمير أم مأمور؟ فقال: بل مأمور»، ثم مضيا [ابن إسحاق، حسن مرسل]. وكان رهط من الصحابة، منهم أبو هريرة، يساعد علياً في النداء بآيات براءة المطلوب تبليغها للناس، ويعلنون في الناس أمر الرسول ﷺ: «أن لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله أو أمده إلى أربعة أشهر، فإذا مضت الأربعة أشهر فإن الله بريء من المشركين ورسوله، ولا يحج البيت بعد العام مشرك» [متفق عليه].

وقد ذكر الإمام البغوي [في التفسير] قول العلماء في سبب بعث النبي ﷺ عليًّا؛ ليقرأ صدر سورة براءة على الناس في الحج، ويعلمهم بأمر الرسول ﷺ في ذلك، وهو أن العرب تعارفوا فيما بينهم في عقد العهود ونقضها أن لا يتولى ذلك إلا سيدهم أو رجل من رهطه، فبعث علياً دفعاً للعلة؛ ولئلا يقولوا: هذا خلاف ما نعرفه فينا في إلغاء العهد.

المبحث الثاني: بعث أبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن

بعث رسول الله ﷺ أبا موسى الأشعري، ومعاذ بن جبل إلى اليمن، كل منهما على جهة، وأوصاهما قائلاً: «يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا، وتطاوعا» [متفق عليه]، وقال لمعاذ: «إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينه وبين الله حجاب» [البخاري وبقية الجماعة].

وعندما خرج معاذ خرج معه رسول الله ﷺ يوصيه، ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته، فلما فرغ قال: «يا معاذ، عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا أو قبري»، فبكى معاذ جزعاً لفراق رسول الله ﷺ، وفي لفظ، فقال النبي ﷺ: «لا تبك يا معاذ، للبكاء أوان، إن البكاء من الشيطان»، ثم التفت فأقبل بوجهه نحو المدينة، فقال: «إن أولى الناس بي المتقون من كانوا وحيث كانوا» [أحمد، جيد]، وبين له أنصبة الزكاة [الترمذي، حسن؛ وغيره].

وقال الرسول ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: «كيف تصنع إذا عرض لك قضاء؟»، قال: «أقضي بما في كتاب الله»، قال: «فإن لم يكن في كتاب الله؟»، قال: «فبسنة رسول الله ﷺ»، قال: «فإن لم يكن في سنة رسول الله ﷺ؟»، قال: «اجتهد وإني لا آلو»، فضرب رسول الله ﷺ صدره، ثم قال: «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله ﷺ» [أبو داود؛ والترمذي، والراجح صحته].

المبحث الثالث: بعث علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد إلى اليمن

بعث الرسول ﷺ خالدَ بن الوليد إلى اليمن، ثم بعث علياً بعد ذلك مكانه. وكان من ضمن مهامه أن يقبض الخمس. وعندما أخبر النبي ﷺ علياً بما يريد قال علي: «يا رسول الله، إنك تبعثني إلى قوم هم أسن مني لأقضي بينهم»، فقال النبي ﷺ: «اذهب، فإن الله ـ تعالى ـ سيثبت لسانك، ويهدي قلبك» [أبو داود، وأحمد، صحيح]، ثم أوصاه قائلاً: «إذا تقدم إليك خصمان فلا تسمع كلام الأول حتى تسمع كلام الآخر، فسوف ترى كيف تقضي، فقال علي: فما زلت بعد ذلك قاضياً» [أحمد، صحيح].

ثم قال النبي ﷺ لعلي: «مر أصحاب خالد من شاء منهم أن يُعَقِّبَ معك فَلْيُعَقِّبْ، ومن شاء فَلْيُقْبِلْ [البخاري]، ومكث علي ومن معه باليمن إلى أن قدم حاجاً إلى مكة، فوافى النبي ﷺ في حجة الوداع [متفق عليه].

وقد ضرب علي رضي الله عنه أروع الأمثلة في أداء الأمانة التي نيطت به، ومن أمثلة ذلك أن أصحابه عندما طلبوا منه أن يركبوا من إبل الصدقة، ويُرِيْحُوا إبلهم، بحجة أن بإبلهم خللاً وضعفاً، أبى عليهم ذلك، وقال: «إنما لكم منها سهم كما للمسلمين». وعندما ذهب إلى الحج سأل أصحابه خليفته ما كان علي منعهم إياه، فوافق على ذلك، فلما جاء علي عرف أن الإبل قد ركبت، فذم خليفته ولامه، وعد بعض أصحاب علي ذلك منه غلظة وتضييقاً، فشكاه أبو سعيد الخدري إلى النبي ﷺ، فوافق الرسول ﷺ على هذا المسلك من علي، فندم الخدري على شكواه، وقال: «. . . والله لا أذكره بسوء أبداً سراً ولا علانية» [البيهقي: الدلائل، جيد]، وعندما اشتكى الجند علياً بحجة اشتداده في معاملتهم، قال: «أيها الناس، لا تشكوا علياً؛ فوالله إنه لأخشن في ذات الله، أو في سبيل الله، من أن يشكى» [ابن إسحاق، حسن]، وقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه» [أحمد، جيد]، وفي رواية «فمن كنت مولاه فإن علياً مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» [النسائي، صحيح]، وكان ذلك عندما استرجع عليّ حللاً وزعها بينهم نائبه، فاشتكوه، فقام الرسول ﷺ

خطيباً في الناس في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة بغدير خُم حين منصرفه من الحج، وقال كلاماً فيه ثناء عليه.

[وللعلماء وقفات عند هذه الخطبة، بينوا ما ألحق بها من زيادات أراد واضعوها أن يثبتوا الوصية لعلي ﷺ في الخلافة بعد النبي ﷺ].

لقد نجح علي ﷺ في المهمة التي لم ينجح فيها خالد ﷺ. فقد أقام خالد ستة أشهر يدعو الناس إلى الإسلام فلم يجيبوه، وعندما قدم علي اليمن ودعا همدان إلى الإسلام أجابوه جميعاً، فكتب علي إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم، فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خر ساجداً، ثم رفع رأسه، فقال: «السلام على همدان، السلام على همدان» [البيهقي: الدلائل، وأصله في البخاري].

المبحث الرابع
سرية جرير بن عبد الله البَجَلي إلى ذي الخَلَصَة

كان لخثعم وبجيلة بيت في الجاهلية يقال له: «ذو الخلصة» و«الكعبة اليمانية» و«الكعبة الشامية». فعندما قدم جرير بن عبد الله البجلي في وفد قومه إلى الرسول ﷺ بالمدينة قال له الرسول: «ألا تريحني من ذي الخلصة؟» فشكا إليه جرير أنه لا يثبت على الخيل، فضرب ﷺ بيده على صدره، وقال: «اللهم ثبته، واجعله هادياً مهدياً». فنفر جرير في مائة وخمسين راكباً، فكسروه، وقتلوا من عنده، وأرسل جرير أبا أَرطاة حصين بن ربيعة الأَحْمَسِي بالخبر إلى النبي ﷺ، فدعا لهم عامة ولأحمس، إخوة بجيلة ـ رهط جرير ـ بصفة خاصة [متفق عليه].

فوائد من هذه السرية:

١ ـ أن في خبر هذه السرية ما يدل على مشروعية إزالة ما يفتن الناس من بناء وغيره [ابن حجر: الفتح].

٢ ـ ينبغي لأهل الخير أن يدعوا بالثبات لمن لا يثبت على الخيل [نفسه]، أو غيرها من وسائل الجهاد، مثل استخدام الصواريخ وما يشبهها من أدوات الحرب في زماننا هذا وغيره.

٣ ـ وفيه إشارة إلى فضيلة ركوب الخيل والثبات عليها [نفسه]. ويمكن أن يقاس على ذلك فضيلة ركوب الدبابة والطائرة وغيرهما من وسائل الحرب في زماننا هذا.

٤ ـ استمالة نفوس القوم بتأمير من هو منهم، وقد فعل الرسول ﷺ ذلك كثيراً، وكذلك الاستمالة بالدعاء والثناء والبشارة في الفتوح [البداية].

المبحث الخامس: حجة الوداع

انظر الملاحق ١٧، ١٨، ١٩ ـ الخريطة

ذكروا أن الله ـ تعالى ـ فرض الحج في العام العاشر أو التاسع أو السادس، وقبل الهجرة، وهو غريب. وجزم ابن القيم بأن فرضه كان في العام العاشر لقوة الأدلة على ذلك، وهو اللائق بهديه في عدم تأخير ما هو فرض، لأن الله يقول: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ﴾ [آل عمران: ٩٧]. وقد نزلت عام الوفود، أواخر سنة تسع.

ولم يحج الرسول ﷺ من المدينة غير حجته التي كانت في العام العاشر، وعرفت هذه الحجة بحجة البلاغ، وحجة الإسلام، وحجة الوداع، لأنه عليه الصلاة والسلام ودع الناس فيها، ولم يحج بعدها، وحجة البلاغ، لأنه عليه السلام بلغ الناس شرع الله في الحج قولاً وعملاً، ولم يكن بقي من دعائم الإسلام وقواعده شيء إلا وقد بينه، فلما بين لهم شريعة الحج، ووضحه، وشرحه، أنزل الله عليه وهو واقف بعرفة: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ [المائدة: ٣]. [البخاري؛البداية]

وعندما أعلن الرسول ﷺ عزمه على الحج في العام العاشر قدم المدينة بشر كثير، كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله [مسلم].

وخرج من المدينة لخمس بقين من ذي القعدة [ابن إسحاق، حسن]، ووقعت له في مسيره هذا ورجوعه أحداث كثيرة [البداية]، مكانها أبواب الحج من كتب فقه العبادات، وقد أفرد لها العلماء قديماً وحديثاً كتباً خاصة، تناولوا ما جاء فيها من مناسك الحج وأحكامه، ووصايا الرسول ﷺ للأمة.

ومن أشهر خطبه في هذه الحجة تلك الخطبة التي ألقاها في وسط أيام التشريق، ومما قاله فيها: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي هاتين موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث - (كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل) - وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربانا، ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء؛ فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، وإن لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وإني قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله، وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت، وأديت، ونصحت، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس اللهم اشهد» - ثلاث مرات [مسلم].

وقال ﷺ في خطبة خلال تلك الحجة: «. . . ويلكم أو ويحكم انظروا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض» [متفق عليه]، وقال: «. . . إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه، ولكنه رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحاقرون من أعمالكم، فاحذروا أيها الناس، إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً: كتاب الله، وسنة نبيه، إن كل مسلم أخو المسلم، المسلمون إخوة، ولا يحل لامرئ من مال أخيه إلا ما أعطاه من طيب نفس. . .» [الترمذي، حسن؛ وابن ماجه، وأحمد، صحح؛ والحاكم، صحيح؛ ودلائل البيهقي].

فائدة: روي أن النبي ﷺ قال في حجة الوداع: «ذهبت لقبر أمي، فسألت الله أن يحييها لي، فأحياها، فآمنت بي». ضعف العلماء هذا الحديث كما جاء في تحقيق «حدائق الأنوار» [لمحمد بن بحرق].

قلت: وصح أنه زار قبر أمه، وقال: «استأذنت ربي أن أزور قبرها فأذن لي، فاستأذنته أن استغفر لها فلم يأذن لي» [مسلم].

المبحث السادس: أحكام ومبادئ وعبر من حجة الوداع

١ ـ أراد الرسول ﷺ أن يتعلم الناس منه كيفية أداء الركن الخامس من أركان الإسلام، الحج، بعد أن حرم التقاليد الجاهلية المتوارثة أيام الحج من تصدية، وصفير، وعري أثناء الطواف، وقضى على الأوثان، وطهر البيت الحرام منها.

٢ ـ أراد أن يلتقي في هذه الحجة المسلمين الذين تقاطروا إليه من كل حدب وصوب، ويلخص لهم تعاليم الإسلام ونظامه في كلمات جامعة مختصرة، ويحملهم أمانة تبليغها إلى من لم تبلغه من البشر في كل أصقاع الدنيا في الحاضر والمستقبل، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. ويؤدي فريضة الحج ليبين للناس عملياً هذا الركن الخامس من أركان الإسلام. ولذا فقد تضمنت خطبه ﷺ في هذه الحجة كل أحكام الحج، وأوصى الأمة بأهم مبادئ الإسلام وأسسه.

وأهم حديث وردت فيه أحكام حجة النبي ﷺ ووصاياه فيها، هو حديث جابر، الذي رواه مسلم، وقال عنه النووي [مسلم]: «وهو حديث عظيم ومشتمل على جمل من الفوائد، ونفائس من مهمات القواعد، وهو من أفراد مسلم، لم يروه البخاري في صحيحه، ورواه أبو داود كرواية مسلم. قال القاضي (عياض) وقد تكلم الناس على ما فيه من الفقه وأكثروا، وصنف فيه أبو بكر بن المنذر جزءاً كبيراً، وخرج فيه من الفقه مائة ونيفاً وخمسين نوعاً، ولو تقصى لزيد على هذا القدر قريب منه. . .».

أما أهم وأبرز المبادئ التي أكدها الرسول ﷺ وأوصى أمته بها، فهي:

١ ـ الإعلان عن حقوق المسلم، وأنه محرم الدم والمال والعرض [مسلم].

٢ ـ الإعلان عن تحريم الظلم والربا، وكل عادات الجاهلية الضارة [نفسه].

٣ ـ الإعلان عن حقوق النساء، والأمر بالاعتراف بها وأدائها، وكذا حقوق الزوج على زوجته [نفسه؛ والترمذي، حسن].

٤ ـ تحريم الوصية للوارث، وتقرير قانون التوارث كما في القرآن الكريم [عبدالرزاق؛ وأحمد].

٥ - حرمة التبني والانتساب لغير الأب أو تولي غير الموالي، رغبة عنهم [نفسه؛ وأبوداود؛ وابن ماجه].

٦ - تقرير أن الولد ينسب إلى من ولد على فراشه، وأن العاهر لا حق له فيه وإنما له الرجم بالحجارة إذا اعترف بالزنى [نفسها].

٧ - أخبرهم أن المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله تعالى [ابن حبان]. وطلب ممن كانت عنده أمانة أن يؤديها إلى من ائتمنه عليها [أحمد؛ البزار].

٨ - حذر من الكذب عليه، فقال: «من كذب علي فليتبوأ مقعده من النار [ابن ماجه، صحيح؛ وأحمد].

٩ - وأوصاهم بالاعتصام بالكتاب والسنة، فقال: وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده، إن اعتصمتم به: كتاب الله، وسنة نبيه [مسلم].

١٠ - وأوصاهم بأن المؤمنين إخوة، وأنه لا يحل لامرئ مسلم مال أخيه إلا عن طيب نفس منه [مسلم].

١١ - أمر بالسمع والطاعة لولاة الأمر مهما كان جنسهم أو لونهم أو وضعهم الاجتماعي، ما داموا يقيمون فيهم كتاب الله ﷻ [الترمذي، حسن].

١٢ - قرر أن التفاضل بين الناس يكون بالتقوى، وليس بأي اعتبار آخر [الطبراني، المجمع].

١٣ - الوصية بالأرقاء [أحمد، صحيح؛ والبغوي، صحيح].

١٤ - وأوصاهم بأن ثلاثاً لا يغل عليهن قلب المسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين.

المبحث السابع: سرية أسامة بن زيد إلى الشام

رجع النبي ﷺ من حجة الوداع في أواخر ذي الحجة من العام العاشر، وفي أواخر صفر من العام الحادي عشر ندب الناس لغزو الروم بالبلقاء وفلسطين، وفيهم كبار المهاجرين والأنصار [ابن حجر: الفتح، والواقدي]، ودعا ﷺ أسامة بن زيد، فأمره على هذا الجيش. فطعن بعض الناس في

إمارته، فقام ﷺ فقال: «إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبل، وايْمُ الله إن كان لَخَلِيْقَاً للإمارة، وإنْ كان لَمِنْ أَحَبِّ الناس إليَّ بَعْدَهُ» [البخاري].

وكان سبب طعن بعض الناس في إمارة أسامة كونه صغير السن، إذ كان ابن ثمان عشرة سنة [ابن إسحاق، حسن].

ومرض رسول الله ﷺ بعد البدء بتجهيز هذا الجيش بيومين؛ ولذا لم يتحرك هذا الجيش، وظل معسكراً بالجُرف، ورجع إلى المدينة بعد وفاة الرسول ﷺ، ثم أنفذه أبو بكر رضي الله عنه عندما استخلف، وكانت عدته ثلاثة آلاف [ابن إسحاق، مرسل حسن].

عظات وعبر:

١ ـ بيان فضل أسامة بن زيد وأبيه زيد، ومكانتهما عند الرسول ﷺ فلا صغر السن ولا الرق القديم الذي وقع على أبيه زيد منع رسول الله ﷺ من أن يجعله أميراً على جيش فيه عامة الصحابة في غزوة كبرى. وهكذا حطمت شريعة الإسلام قيم الجاهلية ومقاييسها التي كانوا يتفاضلون بها.





الفصل السادس والعشرون

المرض والوفاة

اشتكى رسول الله ﷺ بعد عودته من حجة الوداع في ليال بقين من صفر، أو في أول شهر ربيع الأول من العام الحادي عشر الهجري [ابن إسحاق].

وطلب يومئذ من مولاه أبي مُوَيهِبَة أن يصحبه في جوف الليل إلى البقيع؛ لأنه أمر أن يستغفر لأهل البقيع، وعندما وقف بين أظهرهم قال: «السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنى لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى»، ثم أقبل على أبي مويهبة قائلاً: «يا أبا مويهبة إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة». فقال أبو مويهبة: «بأبي أنت وأمي، خذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة»، فقال رسول الله ﷺ: «لا ـ والله ـ يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة»، ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف [ابن إسحاق، حسن] إلى بيت عائشة، وتتام به وجعه، وهو يدور على نسائه حتى اشتد به وجعه في بيت ميمونة [ابن إسحاق، حسن]، فدعا نساءه فاستأذنهن في أن يمرض في بيت عائشة رضي الله عنها [البخاري؛ وابن إسحاق، حسن]، واستغرق مرضه عشرة أيام [الفتح: دلائل البيهقي صحيح]، ثم توفاه الله يوم الاثنين في الثاني عشر من ربيع الأول [نفسه]. وقد تم له من العمر ثلاثة وستون عاماً [البخاري؛ أحمد، صحيح].

وكانت عائشة رضي الله عنها تقرأ بالمعوذتين والأدعية الكثيرة التي حفظتها من رسول الله ﷺ، وتنفث بذلك على نفسه، وتمسحه بيده رجاء البركة [متفق عليه].

ويوم زادت درجة حرارة جسمه طلب أن يصبوا عليه سبع قرب من ماء حتى يخرج للناس، فيعهد إليهم، ففعلوا، حتى طفق يقول: «حسبكم حسبكم»، وعند ذلك أحس بخفة، فعصب رأسه، ثم قام، فدخل المسجد، وجلس على المنبر، وخطب الناس قائلاً: «لعنة الله على اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». وفي رواية: «قاتل الله اليهود والنصارى. . .» [متفق عليه]، وقال: «لا تتخذوا قبري وثناً يعبد» [الموطأ]. وكانت هذه الوصية الخاصة بعدم اتخاذ القبور مساجد قبل أن يموت بخمس.

وعرض نفسه للقصاص قائلاً: «من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد منه»، ثم نزل فصلى الظهر، ثم عاد لمنبره لمواصلة حديثه في الحقوق وغيرها، فقال رجل: «إن لي عندك ثلاثة دراهم»، فقال: «أعطه يا فضل». وقال آخر: إنه غل ثلاثة دراهم، فقال: «خذها يا فضل» [البيهقي: الدلائل].

ثم أوصى الناس بالأنصار، قائلاً: «أوصيكم بالأنصار، فإنهم كَرْشِي وعَيبَتي، وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من مُحسنهم، وتجاوَزوا عن مسيئهم». وقال في رواية أخرى: «إن الناس يكثرون، وتقل الأنصار، حتى يكونوا كالملح في الطعام، فمن ولي منكم أمراً يضر فيه أحداً أو ينفعه فليقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم» [متفق عليه].

ثم قال في آخر خطبة له: «إن عبداً خيَّره الله بين الدنيا وبين ما عند الله، فاختار ما عند الله»، قال الراوي: «فبكى أبو بكر رضي الله عنه فعجبوا لبكائه، فكان المخير رسول الله ﷺ وكان أبو بكر أعلمهم بذلك»، فقال النبي ﷺ: «لا تبك يا أبا بكر، إن أَمَنَّ الناس علي في صحبته وماله أبو بكر، لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سُدَّ، إلا باب أبي بكر» [متفق عليه].

وعندما حضرته الوفاة، واشتد به الوجع ـ وذلك يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام ـ قال للصحابة الذين كانوا حوله بالمنزل، وفيهم عمر: «هلموا أكتب إليكم كتاباً لن تضلوا بعده»، فقال عمر: «قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبكم كتاب الله»، فاختلفوا، فمنهم من يقول: قربوا يكتب لكم رسول الله ﷺ، ومنهم من يقول ما قال عمر. فلما أكثروا اللغط

والاختلاف، قال رسول الله ﷺ: «قوموا عني» [البخاري].

وأوصى في ذلك اليوم بإخراج اليهود والنصارى والمشركين من جزيرة العرب، وإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم، ونسي الراوي الوصية الثالثة، ولعلها عامة وصيته حين حضره الموت وهي: «الصلاة وما ملكت أيمانكم» [أحمد، صحيح]، وفي لفظ: «الله الله، الصلاة وما ملكت أيمانكم»، كان يتكلم به وما يكاد يفيض [ابن ماجه، صحيح؛ والذهبي: السيرة، صحيح]، وفي رواية أحمد: حتى جعل يُغَرْغِرُ بها صدره، وما يكاد يفيض بها لِسَانُه.

وقبل الوفاة بثلاث أوصى قائلاً: «أحسنوا الظن بالله ﷻ» [الذهبي: السيرة، صحيح]، ثم أخذ يثقله المرض، ويمنعه من الخروج للصلاة بالناس فقال: «مروا أبا بكر أن يصلي بالناس»، فقالت عائشة: «يا رسول الله، إن أبا بكر رجل أسيف - أي رقيق - وإنه متى ما يقم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر»، فقال: «مروا أبا بكر أن يصلي»، فقالت عائشة لحفصة: «قولي له: إن أبا بكر رجل أسيف، وإنه متى... فقال ﷺ: «إنكن لأنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر أن يصلي بالناس...» ولما لم يكن أبو بكر موجوداً في تلك اللحظات دعا عبد الله بن زمعة عمر ليصلي بالناس، فعندما سمع الرسول ﷺ صوته، قال: «يأبى الله ذلك والمسلمون - مرتين -» فبعث إلى أبي بكر، فجاء فصلى بالناس [أحمد، صحيح؛ والحاكم، صحيح].

وظل أبو بكر يصلي بالناس تلك الأيام، وفي أحدها وجد رسول الله ﷺ من نفسه خفة فخرج بين رجلين لصلاة الظهر، وأبو بكر يصلي بالناس، وعندما رآه أراد أن يتأخر، فأومأ إليه أن لا يتأخر، فأجلسه بجانبه، فجعل أبو بكر يصلي - وهو قائم - بصلاة رسول الله ﷺ والناس يصلون بصلاة أبي بكر [متفق عليه].

وقبل يوم من وفاته أعتق غلمانه [ابن سعد، يعتضد، شاهده البخاري]، وتصدق بدنانير - ما بين التسعة والسبعة - كانت عنده [ابن سعد، يتقوى]، وقال: «لا نورث ما تركنا صدقة...» [البخاري]، وفي رواية: «لا يقتسم ورثتي ديناراً، ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤنة عاملي فهو صدقة» [نفسه]، ولذا لم يترك رسول الله ﷺ عند موته ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة إلا بغلته

البيضاء التي كان يركبها وسلاحه وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة [البخاري].

واستعارت عائشة رضي الله عنها في الليل الزيت للمصباح من جارتها [ابن رجب: مجالس من سيرة النبي ﷺ]، وكانت درعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً من الشعير. ولعل باقي هذه الثلاثين صاعاً هو ما ذكرته عائشة رضي الله عنها في قولها: «لقد توفي النبي ﷺ وما في رفي من شيء يأكله ذو كبد، إلا شطر شعير في رف لي، فأكلت منه حتى طال علي، فأكلته ففني» [متفق عليه]. ولم تشر الروايات إلى ما تبقى من الثلاثين صاعاً في بيوت زوجاته الأخريات.

وكانت الأشياء مثل البغلة والحربة والكسوة والسلاح والسرير وقفاً يتجمل به الأئمة المسلمون بعده، ويتبركون به كما كان يتجمل به، وكان ذلك في أيدي الأئمة واحداً بعد واحد [حماد بن إسحاق: تركة النبي ﷺ].

وفي اليوم الذي مات فيه فاجأ الرسول ﷺ المسلمين بكشف ستر حجرة عائشة، فنظر إليهم، وهم يصلون الصبح، ثم تبسم، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، ظناً منه أن الرسول ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، وهم المسلمون أن يفتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله ﷺ، فأشار إليهم بيده أن أتموا صلاتكم، ثم دخل الحجرة، وأرخى الستر [البخاري].

وعند الضحى دعا إليه ابنته فاطمة، فسارها بشيء فبكت، ثم دعاها فسارها بشيء فضحكت، فسئلت عن ذلك بعد وفاته ﷺ، فقالت: «سارني النبي ﷺ أنه يقبض في وجعه الذي توفي فيه فبكيت، ثم سارني فأخبرني أني أول أهله يتبعه ـ يلحقه ـ فضحكت» [متفق عليه]، وفي رواية أن سبب ضحكها كان لقول الرسول ﷺ لها: «يا فاطمة، أما تَرْضَيْنَ أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة. . . ؟» [متفق عليه].

والحديث دليل من دلائل نبوته ﷺ لأن فاطمة رضي الله عنها كانت أول الناس لحوقاً به عليه السلام من أهله.

ولما رأت فاطمة ما بأبيها من الوجع الشديد، قالت: «واكرب أباه»، فقال لها الرسول ﷺ: «ليس على أبيك كرب بعد اليوم» [البخاري].

وكان بين يدي رسول الله ﷺ ركوة أو علبة ماء، يدخل يديه في الماء، فيمسح بهما وجهه، ويقول: «لا إله إلا الله، إن للموت سكرات» [البخاري].

وبعد هذا ثقل عليه المرض، فأصبح لا يتكلم؛ ولذا فعندما دخل عليه أسامة بن زيد رضي الله عنه دعا له بالإشارة [ابن إسحاق، حسن].

ويبدو أن ذلك كان الوقت الذي لَدُّوه فيه، أي جعلوا في جانب فمه دواء بغير اختياره، وهو يشير إليهم بألا يفعلوا ذلك، وهم يظنون أن ذلك كان منه كراهية المريض للدواء [البخاري]، ولكنه كان ينفي عنه تهمة الإصابة بمرض ذات الجنب الذي ظنوه به [عبدالرزاق؛ صحيح، وابن سعد، يتقوى]، وهو نوعان: أحدهما ورم حار يعرض في الغشاء المستبطن، وهو المنفي عنه هنا، وثانيهما: ريح محتقن بين الأضلاع [الفتح].

وقد روى أبو يعلى بسند فيه ابن لهيعة من وجه آخر عن عائشة أن النبي ﷺ مات من ذات الجنب. ويمكن الجمع بين الحديثين بأن الجنب المعنية هنا هي الريح المحتقنة بين الأضلاع [الفتح لابن حجر].

ثم بدأت اللحظات الأخيرة من حياته ﷺ. فبينما كان في حجر عائشة دخل عليه عبد الرحمن بن أبي بكر، وفي يده سواك، فنظر إليه الرسول ﷺ، فعلمت عائشة أنه يريد السواك، فتناولته ولينته له فاستاك به، وعندما فرغ منه رفع يده وأصبعه، وشخص ببصره نحو السقف، وتحركت شفتاه، فأصغت إليه عائشة، وهو يقول: «مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى، اللهم الرفيق الأعلى»، كررها ثلاثاً [متفق عليه] وكان هذا آخر ما تكلم به، ثم مالت يده، ولحق بالرفيق الأعلى [البخاري].

وكان ذلك حين اشتد الضحى [ابن إسحاق] أو في منتصف النهار [الطبري: التاريخ]، فقالت فاطمة: «يا أبتاه، أجاب رباً دعاه، يا أبتاه، مَنْ جَنَّةُ الفردوس مأواه، يا أبتاه، إلى جبريل ننعاه» [البخاري].

وأصح ما جاء في مدة مرضه الأخير عشرة أيام [البيهقي: الدلائل، صحيح].

ولم يصدق عمر بن الخطاب رضي الله عنه نبأ وفاة الرسول ﷺ، فأخذ يقول: «إن رسول الله ﷺ لم يمت، ولكن ربه أرسل إليه كما أرسل إلى موسى، فمكث عن قومه أربعين ليلة. والله إني لأرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يقطع أيدي رجال من المنافقين وألسنتهم يزعمون ـ أو قال: يقولون ـ إن رسول الله ﷺ قد مات» [أحمد؛ وعبدالرزاق؛ وابن إسحاق، وأسانيدهم صحيحة].

وجاء أبو بكر من السُّنح، فكشف عن وجه النبي ﷺ، ثم قبله، وبكى، وقال: «بأبي أنت وأمي لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتب عليك فقد متها»، ثم خرج إلى الناس، وهم بين منكر ومصدق، لهول الأمر، فرأى عمر، وهو يكلم الناس منكراً موت الرسول ﷺ، فطلب منه أن يجلس، فأبى، فأقبل الناس إلى أبي بكر، وتركوا عمر، فحدثهم أبو بكر قائلاً: «أما بعد: من كان منكم يعبد محمداً؛ فإن محمداً قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت»، ثم تلا قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤]. فهدأ الناس وكأنهم لم يسمعوا الآية من قبل، وقعد عمر على الأرض لا تحمله رجلاه لما علم بموت الرسول ﷺ [البخاري].

وفي يوم الثلاثاء ـ وهو اليوم التالي لوفاته ﷺ ـ غسلوا رسول الله ﷺ في ثيابه [ابن إسحاق، حسن]، غسله العباس، وعلي، والفضل، وقُثَم ابنا العباس، وشُقْران مولى رسول الله، وأسامة، وأوس بن خولي [ابن إسحاق، حسن].

وكان ماء غسله من بئر يقال له: الغَرْسُ، لسعد ابن خيثمة، كان يستعذب للرسول ﷺ منها [ابن شبة، يعتضد].

وقالت عائشة رضي الله عنها عن كيفية غسله: لما أرادوا غسل رسول الله ﷺ اختلفوا فيه، فقالوا: والله ما ندري كيف نصنع؟ أَنُجَرِّدُ رسول الله ﷺ كما نجرد موتانا أم نغسله وعليه ثيابه؟ قالت: فلما اختلفوا أرسل الله عليهم السِّنَةَ حتى والله ما من القوم من رجل إلا ذَقَنُهُ في صدره نائماً، قالت: ثم كلمهم من ناحية البيت، لا يدرون من هو؟ فقال: اغسلوا النبي ﷺ وعليه ثيابه، قالت:

فثاروا إليه، فغسلوا رسول الله ﷺ وهو في قميصه يفاض عليه الماء والسدر، ويدلكه الرجال بالقميص، وكانت تقول: لو استقبلت من الأمر ما استدبرت ما غسل رسول الله ﷺ إلا نساؤه [ابن إسحاق، حسن].

ثم كفنوه في ثلاثة أثواب بيض سَحُولِيَّة [نقية، أو من سحول اليمنية] من كُرْسُفٍ، (قطن) ليس فيها قَمِيْصٌ ولا عمَامَة [متفق عليه؛ وابن إسحاق، حسن].

ثم حفروا له قبراً في حجرة عائشة [الطيالسي، صحيح؛ وابن إسحاق، حسن لغيره؛ وابن ماجه، يتقوى].

وصلى عليه الناس أرسالاً أرسالاً، يدخلون من باب فيصلون عليه، ثم يخرجون من الباب الآخر، لا يؤمهم أحد [أحمد، برجال الصحيح؛ وابن سعد، البداية]. وقيل: صلى عليه أولاً بنو هاشم، ثم المهاجرون، ثم الأنصار، ثم الناس حتى فرغوا، ثم النساء، ثم الصبيان [ابن سعد]، ثم العبيد [الطبري: التاريخ].

ثم دفنوه في ليلة الأربعاء [ابن إسحاق، حسن].

إنا لله وإنا إليه راجعون! إنا لله وإنا إليه راجعون!!.

ولا يملك المرء المسلم إلا أن يبكي مع حسان [ابن هشام؛ ديوان حسان]، وهو ينشد:

فَبكِّيْ رسول الله يا عينُ عبرةً
ولا أَعْرِفَنْكِ الدَّهْرَ دَمْعُكِ يَجْمُدُ
وَمَا لَكِ لا تَبْكِينَ ذا النِّعْمَةِ التي
على الناس منها سَابِغٌ يَتَغَمَّدُ
فَجُودِي عليه بالدُّمُوع وَأَعْوِلِي
لِفَقْدِ الذي لا مِثْلُهُ الدَّهْرَ يُوجَدُ
وما فَقَدَ المَاضُونَ مِثْلَ محمد
ولا مِثْلُهُ حتى القِيَامَةِ يُفْقَدُ

ونبكي مع أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب حين بكى منشداً :

أَرِقْتُ فبات ليلي لا يزول
وليل أخي المصيبة فيه طولُ
وأسعدني البكاء وذاك فيما
أصيبَ المسلمون به قليلُ
لقد عظُمتْ مصيبتنا وجلت
عَشِية قيل قد قُبض الرسولُ
وأضحت أرضنا مما عراها
تكاد بنا جوانبها تميل
فقدنا الوحيَ والتنزيل فينا
يروحُ به ويغدو جبرئيل
وذاك أحق ما سالت عليه
نفوس الناس أو كادت تسيلُ
نبيٌ كان يجلو الشك عنا
بما يوحى إليه وما يقول
ويهدينا فما نخشى ضلالاً
علينا والرسول لنا دليلُ
أفاطم إن جزعت فذاك عذر
وإن لم تجزعي ذاك السبيل
فقبر أبيك سيد كل قبر
وفيه سيد الناس الرسول [السهيلي]

ونقول باكين كما قالت ابنته وحبيبته فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا :

اغبر آفاق السماء وكورت
شمس النهار وأظلم العصران

فالأرض من بعد النبي كئيبة
أسفاً عليه كثيرة الرجفان
فليبكه شرق البلاد وغربها
ولتبكه مضر وكل يمان
وليبكه الطور المعظم جوه
والبيت ذو الأستار والأركان
يا خاتم الرسل المبارك ضوؤه
صلى عليك منزل القرآن [السهيلي]

عظات وعبر وأحكام ووصايا:

١ ـ كفى بالموت عظة وعبرة. . . لقد شاء الله ـ تعالى ـ أن يكون الموت نهاية كل إنسان مهما طال عمره، ومهما كان موقعه من الحياة، وتلك سنة الحياة كما عبر عنها القرآن الكريم في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الأنبياء: ٣٤، ٣٥]، وفي قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٠]. فها هو محمد بن عبد الله خير البشر يموت بعد أن عانى من سكرات الموت وآلام المرض. . . وإذا وعى الناس هذه الحقيقة استشعروا معنى العبودية والتوحيد، وخضعوا لله الواحد القهار، واستعدوا للموت بالإكثار من العمل الصالح وطاعة الله، وإخلاص العبادة له في كل مجال من مجالات الحياة، لا سيما عبادة الله في تحكيم شرعه، والجهاد في سبيل ذلك؛ لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، ولأن الله ـ تعالى ـ الذي خلق البشر خبير بما يصلحهم في الدنيا والآخرة. . . ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

٢ ـ مشروعية الرقية ـ التعويذ ـ ما ثبت في ذلك في الصحيحين. وقد نقل النووي [شرح مسلم] وابن حجر [الفتح] وغيرهما الإجماع على مشروعية الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط: «أن يكون بكلام الله ـ تعالى ـ أو بأسمائه وصفاته، وأن يكون باللسان العربي أو بما يعرف معناه من

غيره، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها، بل بذات الله تعالى...». واللفظ لابن حجر.

٣ ـ بيان فضل أبي بكر الصديق عندما أصر الرسول ﷺ على أن يؤم الناس.

٤ ـ النهي عن اتخاذ القبور مساجد.

قال العلماء عن تكراره ﷺ عبارة «إلى الرفيق الأعلى»: «لأن التخيير لم يزل يُعادُ عليه، وهي كلمة تتضمن لقاء الله، الذي هو لُبَابُ التوحيد وسر الذكر باللسان والقلب، ومنه يستفاد أنه لا يشترط في نجاة المحتضر أن يتلفظ بـ«لا إله إلا الله»، إذا مات، وقلبه مطمئن بالإيمان. والله أعلم» [الأنوار: بحرق].

٥ ـ لقد تضمن ما سقناه من أحاديث في خبر مرض وفاته ﷺ دروساً وعظات وعبراً وأحكاماً يستطيع المرء أن يستنبطها بيسر.

انظر الملحق (٢٠) ـ الخريطة ـ عن منازل أهم القبائل المدينة المنورة ومساجدها





الفصل السابع والعشرون

أمهات المؤمنين

المشهور أن الرسول ﷺ تزوج خمس عشرة امرأة [البيهقي: الدلائل، من مرسل قتادة]، دخل بثلاث عشرة منهن، واجتمع عنده منهن إحدى عشرة، وقبض عن تسع [ابن المثنى: تسمية أزواج النبي ﷺ]، فأما اثنتان منهن فأفسدتهما النساء فطلقهما، وذاك أن النساء قلن لإحداهما: إذا دنا منك فتمنعي، فتمنعت فطلقها، وأما الأخرى فلما مات إبراهيم قالت: لو كان نبياً ما مات ابنه، فطلقها، منهن خمس من قريش: عائشة، وحفصة، وأم سَلَمة وسَوْدَة، وأم حبيبة، ومن غير قريش: ميمونة الهلالية، وجُويرية الخزاعية، وزينب بنت جحش الأسدية، وصفية الخيبرية. وهؤلاء التسع هن اللاتي قبض عنهن [البيهقي: الدلائل]. وقد سبق الكلام عن زواجه من خديجة رضي الله عنها، وقد ماتت قبله بمكة كما ذكرنا وسأتناول هنا بإيجاز قصة زواجه من الثماني الباقيات، ومن تسرى بهن.

٢ ـ سودة بنت زمعة بن قيس:

كانت من المؤمنات المهاجرات في سبيل الله. فقد هاجرت إلى الحبشة مع زوجها السَّكْرَان بن عمرو، ابن عم أبيها، فأغضب ذلك أهلها. وعندما عادت مع زوجها من هجرتها توفي زوجها السكران، وقيل: توفي عنها في الحبشة [الاستيعاب]. وتركها من غير عائل، فخشي الرسول ﷺ أن يبطش بها قومها، وكانوا أشداء وأعداء ألداء للإسلام، وأراد أن يجزيها على إسلامها ومصابها خيراً، فلم يجد غير أن يتزوجها في رمضان سنة عشر من النبوة [ابن سعد]، بعد وفاة خديجة رضي الله عنها بلا خلاف، والراجح زواجه بها في شوال بعد عائشة [البداية].

وعندما طعنت في السن، وذهبت حاجتها في الرجال، خشيت أن

يطلقها الرسول ﷺ، وحرصت على أن تحشر في أزواجه، ولذا وهبت ليلتها لعائشة رضي الله عنها [متفق عليه]. ولذا كانت عائشة رضي الله عنها تقول: «ما من امرأة أَحَبَّ إليَّ من أن أكونَ في مِسْلَاخِها من سودة بنت زمعة، إلا أنها امرأة فيها حِدَّة، فلما كَبِرَتْ قالت: يا رسول الله! قد جعلت يومي منك لعائشة». فكان رسول الله ﷺ يقسم لعائشة يومين: يومها، ويوم سودة [مسلم - والمسلاخ: الجلد].

وروي أن الآية الكريمة: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨] نزلت في هذا السبب [تفسير الطبري، صحيح؛ وأبو داود، والترمذي، صحيح].

والروايات التي تذكر أن النبي ﷺ طلقها، ثم ردها عندما وقفت في طريقه تطلب منه ردها؛ فهذه الروايات التي فيها مسألة وقوع طلاق، ضعيفة الإسناد، لا يحتج بها، وما في الصحيح أصح.

وكانت بدينة الجسم ثقيلة الحركة، قالت ذات يوم للرسول ﷺ: «صليت خلفك البارحة فركعت بي حتى أمسكت بأنفي مخافة أن يقطر الدم»، فضحك رسول الله ﷺ من قولها [ابن سعد، مرسل برجال الصحيح؛ والإصابة]. ولثقلها وكبرها أذن لها الرسول ﷺ ولمن في حالها أن يدفعوا ليلة مزدلفة قبل الناس [البخاري].

وأصح ما روي في تاريخ وفاتها أنها توفيت في خلافة عمر رضي الله عنه [البخاري: التاريخ الأوسط، صحيح].

ولم نقف على رواية يحتج بها تحدد عمرها حين تزوجها النبي ﷺ. ومن تلك الروايات الضعيفة عن عمرها حين وفاتها، قول البلاذري [أنساب الأشراف]: «ويقال: إنها توفيت في خلافة عثمان رضي الله عنه ولها نحو من ثمانين سنة».

٣ ـ عائشة بنت أبي بكر:

كانت لأبي بكر رضي الله عنه مكانة عظيمة في قلب النبي ﷺ، لما كان له من مواقف في سبيل الله في أدق اللحظات وأحرجها من مسيرة الدعوة، فلعل الرسول ﷺ أراد أن يكرم صاحبه الوفي الأمين، ويوثق عرى المحبة بينه وبين

أخيه في الإسلام أبي بكر، وذلك برباط المصاهرة، فتزوج من ابنته عائشة.

وكانت عائشة ﵂ صغيرة السن عندما عقد عليها الرسول ﷺ، في شوال من السنة العاشرة للبعثة النبوية[مسلم]، ولم يدخل بها إلا في شوال من السنة الثانية للهجرة [مسلم؛ وابن سعد].

قالت عائشة ﵂: «تزوجني رسول الله ﷺ متوفى خديجة، قبل الهجرة وأنا بنت ست، وأدخلت عليه، وأنا ابنة تسع سنين...» [متفق عليه] وفي رواية أنه تزوجها وهي ابنة سبع [مسلم].

ولقد رأى رسول الله ﷺ في المنام - ورؤيا الأنبياء حق - أن رجلاً يحملها إليه في سَرَقَةٍ [شقق بيضاء] من حرير، فيقول: «هذه امرأتك، فيكشف فيراها، فيقول: إن كان هذا من عند الله يمضه» [متفق عليه]. وهذا من فضائلها الكثيرة.

ولم يتزوج رسول الله ﷺ بكراً غيرها [البخاري].

ومن يقف على سيرة هذه السيدة العظمى تأخذه الدهشة لذكائها وفطنتها وغزارة علمها وفقهها وسمو أخلاقها، وسيعلم حينها، لماذا كانت بتلك المكانة الكبيرة عند رسول الله ﷺ [الإصابة؛ وكتب الحديث].

٤ - حفصة بنت عمر بن الخطاب:

لقد توفي عنها زوجها خُنَيس بن حُذَافَة السَّهمي المهاجري البدري، صاحب الهجرتين - الحبشة والمدينة [البخاري؛ والإصابة] -، إذ أصابته جراحة يوم أحد، فمات منها [الإصابة؛ الاستيعاب]. وروي أنه توفي بعد بدر [ابن سعد].

وتزوجها رسول الله ﷺ للحكمة ذاتها التي تزوج من أجلها عائشة وسودة ﵄، إضافة إلى حزنها الشديد على زوجها المجاهد، وحزن عمر لحزنها، فعرض زواجها على حبيبيه أبي بكر وعثمان، لعل في الاقتران بأحدهما مواساة لها وإخراجها من أحزانها. فاعتذر عثمان بحجة عدم حاجته في النساء، وسكت أبو بكر، ولذا وجد عمر في نفسه عليه أكثر مما وجد على عثمان. وما لبث ليالي حتى خطبها رسول الله ﷺ، ولقيه أبو بكر، وأوضح له

سبب سكوته، وهو أن الرسول ﷺ كان قد ذكرها، فكره إفشاء سر رسول الله ﷺ وقال: «لو تركها رسول الله ﷺ قبلتها» [البخاري؛ وأحمد، صحيح]. وفي هذا دليل على أن الرسول ﷺ كان يشعر بما تعانيه حفصة من تأيم، فأراد أن يواسيها، ويواسي أباها لمكانته عنده.

وروي أن الرسول ﷺ طلقها، ثم راجعها[أبوداود، صحيح؛ وابن ماجه؛ والدارمي]. ودخل عليها عمر وهي تبكي، فقال: «ما يبكيك؟ لعل رسول الله ﷺ طلقك؟ إن النبي ﷺ طلقك وراجعك من أجلي، والله لئن كان طلقك مرة أخرى لا كلمتك كلمة أبداً» [الطبراني، برجال الصحيح؛ وابن إسحاق: والسير، حسن؛ وابن حبان، صحيح].

وعندما طلقها الرسول ﷺ أتاه جبريل عليه السلام فقال له: «راجع حفصة، فإنها صوامة قوامة، وإنها زوجتك في الجنة» [الطبراني، برجال الصحيح].

وفي هذه الأحاديث ما يكفي للدلالة على حكمة زواج الرسول ﷺ من حفصة.

٥ ـ زينب بنت خُزَيمة الهِلالية:

كانت زوجة للطفيل بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف، فطلقها [ابن سعد]، وقيل: كانت عند جَهم بن عمرو بن الحارث [ابن إسحاق]، فتزوجها بعده عُبيدة بن الحارث، فقتل ببدر شهيداً [ابن سعد]، وقيل: كانت تحت عبد الله بن جحش، وقتل عنها يوم أحد شهيداً [الاستيعاب، والإصابة]، وكانت تدعى أم المساكين في الجاهلية لرحمتها إياهم ورقتها عليهم [ابن إسحاق، وابن سعد]. فقد روى الزبير بن بكار [المنتخب] أن الرسول ﷺ عندما تزوجها أَوْلَمَ عليها جزوراً، فكثر المساكين، فتركهم الناس والطعام..

وهي أخت أم المؤمنين مَيْمُونة بنت الحارث رضي الله عنها لأمها [الاستيعاب، الإصابة]، هند بنت عوف بن الحارث بن حماطة الحميرية [المحبر].

إن امرأة تزوجت شهيدان، وما عرف عنها من الصلاح والرأفة على المساكين، لجديرة بأن تحظى بعطف الرسول ﷺ وتقديره لظروفها، ولم يكن هناك أفضل من تكريمه لها بالزواج منها، فتزوجها الرسول ﷺ في رمضان،

على رأس واحد وثلاثين شهراً من الهجرة، فمكثت عنده ثمانية أشهر، وتوفيت في آخر شهر ربيع الأول، على رأس تسعة وثلاثين شهراً من الهجرة [ابن سعد]. ولم يمت من أزواجه في حياته ﷺ غيرها وغير خديجة بنت خويلد.

وقيل: إن عمرها كان نحو ثلاثين عاماً عندما توفيت [ابن سعد]، ويستبعد ذلك؛ لأن امرأة كانت تدعى في الجاهلية بأم المساكين، ثم عاشت في الإسلام خمس عشرة سنة، لا بد أن يكون عمرها عندما ماتت أكثر من ذلك بكثير. وقد ذكر الصواف [زوجات النبي ﷺ] أنها بلغت الستين من العمر عندما تزوج بها النبي ﷺ، ولكنه لم يبين لنا مصدره، ولو ثبت ذلك لكان هو الأقرب إلى الصواب، والله أعلم.

ولم تهتم المصادر بسيرتها في بيت الرسول ﷺ، لا سيما علاقاتها بزوجاته: سودة، وعائشة، وحفصة، ولعل قصر مدة إقامتها في بيت النبوة كان سبباً في ذلك.

٦ ـ أم سلمة ـ هند بنت أبي أمية ـ المخزومية:

لقد حفظ التاريخ لهذه السيدة ذكراً مجيداً، إذ كانت من شهيرات المؤمنات العاملات وراء صفوف المجاهدين في غزوة أحد، كما ذكرنا، وكان لها رأي سديد كما ذكرنا في قصتها مع النبي ﷺ يوم الحديبية. ومن أبرز مجاهداتها أنها هاجرت إلى الحبشة مع زوجها أبي سلمة، عبد الله بن عبد الأسد، ابن عمة النبي ﷺ وأخيه من الرضاعة.

وكان لزوجها بلاء حسن يوم أحد، حتى جرح جرحاً كبيراً، اندمل بعد فترة، ثم عاوده، واشتد عليه ألمه، وكان سبباً في وفاته كما ذكرنا.

لقد مات رضي الله عنه وخلف وراءه أربعة من الأولاد، هم: زينب، وسلمة، وعمر، ودرة [ابن سعد]. وقد حرص الرسول ﷺ على مواساتها عملياً بأن يكرمها بضمها إلى نسائه والقيام بأمرها؛ لأنها من المهاجرات، ولم يكن لها أهل بالمدينة، غير أبنائها.

وروي عنها أنها قالت: «أتاني أبو سلمة يوماً من عند رسول الله ﷺ قولاً فسررت به، قال: «لا تصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع [أي يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون] عند مصيبته، ثم يقول: اللهم اؤجرني في مصيبتي، واخلف لي خيراً منها إلا فعل ذلك به، قالت أم سلمة: فحفظت ذلك منه، فلما توفي أبو سلمة استرجعت، وقلت: اللهم اؤجرني في مصيبتي، واخلف لي خيراً منه، ثم رجعت إلى نفسي، قلت: من أين لي خير من أبي سلمة؟ فلما انقضت عدتي استأذن علي رسول الله ﷺ... وأذنت له... فخطبني إلى نفسي، فلما فرغ من مقالته قلت: يا رسول الله ما بي أن لا تكون بك الرغبة في، ولكني امرأة فيَّ غيرة شديدة، فأخاف أن ترى مني شيئاً يعذبني الله به، وأنا امرأة دخلت في السن، وأنا ذات عيال، فقال: أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله ﷻ منك، وأما ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالي، قالت: فقد سلمت لرسول الله ﷺ، فتزوجها رسول الله ﷺ، فقالت: فقد أبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه، رسول الله ﷺ» [مسلم؛ وأحمد، صحيح؛ و الترمذي، صحيح؛ وابن ماجه، صحيح؛ وابن سعد، صحيح].

وفي رواية أنه لما انقضت عدتها من أبي سلمة خطبها أبو بكر فردته، ثم خطبها عمر فردته، فبعث إليها رسول الله ﷺ فقالت: «مرحباً برسول الله ﷺ إني امرأة غيرىٰ، وإني مُصْبِيَة [ذات الصبيان]، وليس أحد من أوليائي حاضراً» فبعث إليها رسول الله ﷺ: «أما قولك: إني مصبية فإن الله يكفيك صبيانك، وأما قولك: إني غيرىٰ فسأدعو الله أن يذهب غيرتك، وأما الأولياء فليس أحد منهم شاهد ولا غائب إلا سيرضاني» فقالت: «يا عمر: قم فزوج رسول الله ﷺ [أحمد، صحيح]...».

وكان زواج الرسول ﷺ بها في شوال سنة أربع [ابن سعد].

وكانت آخر من توفي من زوجات النبي ﷺ، كما في الإصابة وغيرها.

٧ ـ جُوَيْرية بنت الحارث:

لقد سبق الكلام عن قصة زواجها في غزوة بني المصطلق.

أراد الرسول ﷺ إكرام هذا الصنف من النساء الأسيرات، فسوى بينهن وبين الحرائر، وضرب للناس أصدق الأمثال على سماحة الإسلام. فأزال من الأذهان ما كان قد علق بها من احتقار للإماء، واتخاذهن فقط للبيع أو للخدمة، وحرمن من نعمة العتق إلا بالمكاتبة وشراء أنفسهن من مالكهن. فتعلم المسلمون من هذه الزيجة كيفية صيانة سيدات الأسر الكريمة بين قومهن ورحمة عزيز قوم ذل، وغني قوم افتقر. وقد زخر التاريخ الإسلامي بعد هذا بالسبايا اللائي تزوجهن أسيادهن من الخلفاء والأمراء والسادة والكبراء، وأنجبن الخلفاء والأمراء والقادة العظماء والعلماء، وتأمل في ذلك تاريخ خلفاء بني العباس [زكريا كتابجي: الترك في مؤلفات الجاحظ].

٨ ـ زينب بنت جحش:

هي ابنة عمة الرسول ﷺ أُمَيمَة. وقد زوجها الرسول ﷺ لمولاه زيد بن حارثة، الذي أعتقه، وتبناه إلى أن أبطل الله عادة التبني. ونزل في قصة زواجها من زيد رضي الله عنه ثم الرسول ﷺ قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الأحزاب: ٣٧]. [البخاري]

فقد روى البخاري أن زيداً جاء يشكو زوجته، فجعل النبي ﷺ يقول: «اتق الله، وأمسك عليك زوجك»، قالت عائشة: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً لكتم هذه، فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ، تقول: زوجكن أهاليكن، وزوجني الله من فوق سبع سماوات.

لقد كان زواج الرسول ﷺ منها لهلال ذي القعدة من العام الخامس الهجري، وهي بنت خمس وثلاثين [ابن سعد] لحكمة، وهي إبطال عادة التبني كما هو واضح من آية سورة الأحزاب المذكورة.

وخلاصة ما ورد في تفسير هذه الآية أن الذي كان يخفيه النبي ﷺ هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته، والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشية

قول الناس: تزوج امرأة ابنه [الترمذي، صحيح]، وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبني، وليس أبلغ في إبطاله من تزوج امرأة الذي يُدْعَى ابناً، ووقوع ذلك أمام المسلمين؛ ليكون أدعى لقبولهم [عبدالرزاق؛ والترمذي؛ وتفسير ابن كثير؛ وابن حجر].

هذا الذي ذكرناه من الصحيح يغنينا عن مناقشة الروايات الكثيرة الساقطة التي نسجت حول قصة زواج الرسول ﷺ من زينب بنت جحش، لا سيما روايات الواقدي، التي كانت مرتعاً خصباً لأهل الأهواء في القديم والحديث، من زنادقة ومستشرقين ومن على شاكلتهم.

٩ ـ رَيحانة بنت زيد بن عمرو بن خُنَافة:

قيل: ومن أزواجه ريحانة بنت عمرو النضرية [الإصابة؛ والاستيعاب]، وقيل: القرظية [نفسه]، سبيت يوم غزوة بني قريظة، فاصطفاها رسول الله ﷺ لنفسه، فأعتقها، وتزوجها [الواقدي؛ وابن بكار]، ثم طلقها تطليقة، ثم راجعها [ابن سعد].

وقالت طائفة: بل كانت أمته، وكان يطؤها بملك اليمين، فهي معدودة عندهم في السراري [ابن إسحاق]، واختلفوا في تاريخ وفاتها، هل كان قبل الرسول ﷺ أم بعده؟ ولم يرجحوا قولاً على آخر [الواقدي]، والذي نميل إليه أنها ماتت في حياة الرسول ﷺ لقوة أسانيد القائلين بهذا، وهو ما جزم به ابن عبد البر [الاستيعاب؛ وابن سعد].

١٠ ـ أم حبيبة ـ رَمْلَة بنت أبي سفيان بن حرب:

هاجرت أم حبيبة مع زوجها عبيد الله بن جحش الأسدي إلى الحبشة، ومات هناك.

وعندما علم الرسول ﷺ بوفاة زوجها وثباتها على الإسلام أرسل عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ليخطبها له، فزوجها إياه بصفته وكيلاً عن النبي ﷺ، فوكلت هي خالد بن سعيد بن العاص، ابن عم أبيها. وبعث بها النجاشي إلى المدينة مع شُرَحْبيل بن حَسَنَة، وكان مهرها وجهازها من عند

النجاشي [أحمد، جيد؛ وأبوداود؛ والنسائي؛ وابن هشام، حسن؛ وابن سعد].

وكان ذلك سنة سبع، وكان لها بضع وثلاثون سنة. وولدت لابن جحش ابنته حبيبة، قيل بالحبشة، وقيل بمكة [ابن سعد].

للأستاذ محمد بن عبد الله العوشن بحث بعنوان: «تحقيق دعوى ردة عبيد الله بن جحش»، نشر بمجلة «البيان»، العدد ١٨٢، السنة ١٧، شوال/ ١٤٢٣هـ، ديسمبر/ ٢٠٠٢م، ص ٢٢ ـ ٢٤، خلص فيه إلى عدم ثبوت قصة ردة عبيد الله بن جحش رواية ودراية، ومما قاله في هذا:

« ١ ـ أنها لم ترو بسند صحيح متصل، فالموصول من طريق الواقدي ـ وهو متروك ـ والمرسل جاء عن عروة بن الزبير، ولا يمكن أن نحتج بالمرسل (عند من يرى الاحتجاج به) في مسألة كهذه؛ فيها الحكم على أحد السابقين الأولين ـ رضي الله عنهم ـ بالردة.»

« ٢ ـ أن الروايات الصحيحة في زواجه ﷺ بأم حبيبة لم تذكر ردة زوجها السابق، كما في رواية أحمد، وأبي داود، والنسائي...».

وحكمة هذا الزواج لا تخفى على أحد فالرسول ﷺ يعلم ثبات أم حبيبة رضي الله عنها على دينها عندما توفي زوجها بالحبشة، وموقف والدها من الدعوة الإسلامية وقيادته لكل حروب قريش ضد المسلمين ما عدا غزوة بدر؛ لأنه كان صاحب القافلة التي جعلها الله سبباً في تلك الغزوة. ففي زواجه منها مواساة لها في مصيبتها في زوجها وغربتها، وقطع الطريق أمام شماته الأعداء، وفيه تخفيف من غلواء عداوة قومها بني أمية للإسلام ونبي الإسلام، وقد حرص الرسول ﷺ على ذلك، كما هو واضح من موقفه من أبي سفيان يوم فتح مكة، وعند تقسيم غنائم حنين، وغيرها من المواقف، إلى أن هداهم الله إلى الإسلام، فأصبحوا قوة وعزة ونصرة للإسلام في مستقبل أيامه.

١١ ـ صفية بنت حيي بن أخطب النضيرية:

عندما افتتح المسلمون خيبر سبيت النساء، منهن صفية، فاشتراها الرسول ﷺ من دِحْيَة، حيث وقعت في سهمه، فأعتقها رسول الله ﷺ وتزوجها [متفق عليه]. ودخل عليها في طريق العودة إلى المدينة، وتطوع

لحراسته في تلك الليلة أبو أيوب الأنصاري، خوفاً منه على الرسول ﷺ أن تغدر به [ابن سعد]، ولكن اتضح أنه لم يكن في قلبها يومذاك أي حقد على الرسول ﷺ؛ لأنها آمنت بالرسول ﷺ من أول وهلة، يوم اصطفاها له أصحابه يوم خيبر، أو يوم اشتراها من دحية. ومن أدلة ذلك أن الرسول ﷺ عندما أراد أن يدخل عليها وهم على بعد ستة أميال من خيبر، أبت عليه، وعندما وصل إلى الصَّهْبَاء، على بعد بريد من خيبر، وافقت، فسألها عن سبب الامتناع في المرة الأولى، فقالت: خشيت عليك من قرب اليهود، فزادها ذلك عنده محبة [نفسه]. وقال لها الرسول ﷺ: «لم يزل أبوك من أشد يهود لي عداوة حتى قتله الله»، فقالت: «يا رسول الله، إن الله يقول في كتابه العزيز: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾»، فقال لها رسول الله ﷺ: «اختاري، فإن اخترت الإسلام أمسكتك لنفسي، وإن اخترت اليهودية فعسى أن أعتقك فتلحقي بقومك»، فقالت: «يا رسول الله، لقد هويت الإسلام، وصدقت بك قبل أن تدعوني، حيث صرت إلى رحلك، وما لي في اليهودية أَرَبٌ، وما لي فيها والد ولا أخ، وخيرتني الكفر والإسلام، فالله ورسوله أحب إلي من العتق، وأن أرجع إلى قومي». فأمسكها رسول الله ﷺ لنفسه.

كانت أمها إحدى نساء بني قينقاع، فتزوجها سَلَّام بن مِشْكَم النضيري، ثم فارقها فتزوجها كِنانة بن أبي الحقيق، فقتل يوم خيبر. ولم يسمع النبي ﷺ ذاكراً أباها بحرف مما تكره.

لقد كان في زواج الرسول ﷺ منها ذات الحكمة من زواجه من جويرية. فهي ابنة زعيم من زعماء اليهود، مات هو وزوجها وأخوها في صراعهم ضد الرسول ﷺ، فكان لا بد من إكرامها لمكانها عند اليهود.

ودل هذا الزواج على أن تهمة العنصرية ضد اليهود لم تكن واردة في قاموس الرسول ﷺ السياسي والاجتماعي، وليفهم اليهود أن قضيتهم مع الرسول ﷺ والمسلمين ليست قضية عنصرية كما أشاعوا.

عاشت صفية رضي الله عنها في بيت النبوة معززة مكرمة. وكان الرسول ﷺ يلقنها الحجج عندما يقع بينها وبين بعض بقية نسائه ما يقع بين الضرائر. فقد أخرج الترمذي [صحيح] من طريق أنس، قال: «بلغ صفية أن حفصة قالت: بنت

يهودي، فبكت، فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي» فقال: «ما يبكيك؟» قالت: «قالت لي حفصة إني ابنة يهودي» فقال النبي ﷺ: «وإنك لابنة نبي، وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، ففيم تفخر عليك»، ثم قال: «اتقي الله يا حفصة».

وهجر الرسول ﷺ زينب بنت جحش ثلاثة شهور؛ لأنها عيرت صفية باليهودية. ولما رفع الرسول ﷺ عنها الهجران أهدته جارية لها فرحاً بهذا العفو وندماً على تلك الزلة [أحمد، جيد]. وكان ذلك في حجة الوداع كما يفهم من سياق القصة في هذا الحديث الصحيح وفي غيره من الأحاديث.

١٢ ـ ميمونة بنت الحارث الهلالية:

تكلمنا عن قصة زواجها عند الحديث عن عمرة القضاء. وما يمكن إضافته هنا هو أن مما رغب الرسول ﷺ في الزواج منها ما عرفه عنها من الصلاح والتقوى، فقد قالت عائشة عنها: «... أما إنها كانت من أتقانا لله وأوصلنا للرحم» [ابن سعد، صحيح]. وقال رسول الله ﷺ عنها وعن أخواتها: «الأخوات مؤمنات: ميمونة، وأم الفضل، وأسماء» [الإصابة؛ وابن سعد، صحيح].

وكان عمه العباس حريصاً على أن يقترن الرسول ﷺ بها، فقد قال له: «يا رسول الله، تأيمت ميمونة بنت الحارث.. هل لك في أن تتزوجها؟» [الاستيعاب، مرسلاً] ولا شك أن العباس رضي الله عنه كان من أعرف الناس بها، لأنها أخت زوجه أم الفضل.

وامرأة هذا شأنها جديرة بأن يضمها الرسول ﷺ إلى بيت النبوة مواساة لها في فقدها زوجها، واعترافاً منه بفضلها، وتحبيباً لقومها في الإسلام.

١٣ ـ السراري:

لم يتسر رسول الله ﷺ بغير مارية القبطية، أم ولده إبراهيم، وجارية أخرى أصابها في بعض السبي[البداية؛ وأحمد؛ والزاد]، وجارية وهبتها له زينب بنت جحش[أحمد، جيد]، وريحانة بنت زيد التي اختلف في أمرها،

والراجح أنه كان يطؤها بملك اليمين، وروي أن الرسول ﷺ قال عن مارية عندما ولدت له إبراهيم: «أعتقها ولدها» [البداية، يعتضد].

ولو أراد الرسول ﷺ أن تكون له عشرات الجواري والسراري لما انتقص ذلك من حقه في مجتمع كان لا يرى بأساً من التعدد في الزوجات واتخاذ السراري متى ما تيسر له ذلك مادياً وجسدياً، وما سمعنا أن اليهود والنصارى قد جعلوا من كثرة زوجات وسراري سليمان عليه السلام [البخاري، ومسلم] قضية كما فعلوا مع تعدد الزوجات عند الرسول ﷺ. ولا شك أن الغرض الباطل هو المحرك لهذه القضية في زماننا هذا...

حكمة هذا التعدد:

وخلاصة القول أن أمهات المؤمنين اللائي توفي عنهن رسول الله ﷺ كن معلمات ومفتيات لنساء الأمة الإسلامية ورجالها في القضايا النسائية والأحكام الشرعية والآداب الزوجية والحكم النبوية، وكن قدوة صالحة في الخير والبر والإحسان، كما كان الرسول ﷺ المثل الأعلى في حسن الخلق وطيب العشرة مع نسائه. فقد عاشرهن بالمعروف، وعدل بينهن، وعلمهن الأحكام الشرعية الخاصة بالنساء. وسياسة النبي ﷺ في تعدد الزوجات هي السياسة الرشيدة التي اقتضتها ظروف الدعوة الإسلامية في ذلك الوقت، ومن الصعب أن تقوم زوجة واحدة بمهام تبليغ تلك الأحكام إلى الناس [الصواف: زوجات النبي ﷺ].

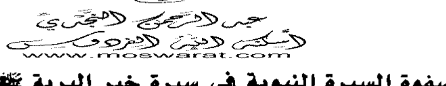
ولم يكن هناك ما يغريهن بالبقاء في بيت الرسول ﷺ سوى هذه المهمة الجليلة؛ لأن الأخبار قد تواترت لتقطع بأن زوجات الرسول ﷺ كن يعشن في شظف من العيش إلى الحد الذي طالبنه فيه بزيادة النفقة عليهن، فخيرهن الرسول ﷺ بين الطلاق وبين قبول هذه المعيشة الصعبة معه [متفق عليه]، وذلك في قصة طويلة وثابتة بنص القرآن، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

ويلحظ أن من بين زوجات الرسول ﷺ الصغيرة التي ما تزال تلعب مع أترابها بلعب الأطفال، والمسنة، وابنة عدو لدود، وابنة صديق حميم، ومنهن من كانت تشغل نفسها بتربية الأيتام، ومنهن من تميزت على غيرها بكثرة الصيام والقيام. . . إنهن نماذج لأفراد الإنسانية، ومن خلالهن قدم رسول الله ﷺ للمسلمين تشريعاً فريداً في كيفية التعامل السليم مع كل نموذج من هذه النماذج البشرية.

وعندما انتقل الرسول ﷺ إلى المدينة لم يكن أمر العداء قاصراً على قريش، بل تعداها إلى غيرها من قبائل العرب، فاقتضت الحكمة أن يجمد الرسول ﷺ بعض أطراف هذا العداء، وذلك بالإصهار إلى قبائل شتى؛ لأن أعراف العرب كانت تقضي بأن يحمي أهل المرأة زوج امرأتهم، كما تفيد ذلك لغتهم، إذ يسمون أنفسهم بالأحماء ـ من الحماية ـ.

ولما كانت هذه المصلحة يمكن أن تستغل استغلالاً سيئاً ـ نظراً إلى أن الأمور الجنسية ـ تتبعها النفوس اللاهثة، فقد جعل الله ـ تعالى ـ ذلك التعدد بتلك الكيفية خاصاً برسول الله ﷺ، وحدد عدد الزوجات لغيره بأربع زوجات كحد أقصى [رواس: قراءة جديد، للسيرة].

وتجدر الإشارة هنا ـ أيضاً ـ إلى أن من دلائل سمو أهداف تعدد زوجات الرسول ﷺ ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ خطب امرأة من قومه يقال لها: سودة، فاعتذرت [وهي غير سودة بنت زمعة أم المؤمنين، لم يعرف نسبها، ولذلك ترجمها الحافظ في الإصابة (٤/ ٣٣٩) باسم سودة القرشية]، وكانت مُصْبِيَة، لها خمسة صبية أو ستة، من بعل لها مات، فقال رسول الله ﷺ عندما اعتذرت: «ما يمنعك مني؟»، قالت: والله يا نبي الله، ما يمنعني منك أن لا تكون أحبَّ البَرِيَّة إليَّ، ولكني أكرمك أن يَضْغُوَ هؤلاء الصبية عند رأسك بكرة وعشية، قال: «فهل منعك مني غير ذلك؟»، قالت: لا والله، قال لها رسول الله ﷺ: «يَرْحَمُكِ الله، إن خير نساء ركبن أعجاز الإبل صَالِحُ نساء قريش، أحناه على ولد في صِغَرٍ، وأرعاه على بَعْلٍ بذات يد» [أحمد، حسن]. وقال ابن حجر [الفتح] بعد سياقه هذا الحديث: «وأصله في البخاري من وجه آخر، لكن لم يسمها». وأشار كذلك إلى أصله عند مسلم.



الفصل الثامن والعشرون

بعض شمائل الرسول ﷺ

لقد تميز الرسول ﷺ بصفات خُلُقية وأخلاقية كثيرة، وأريد هنا أن أقف عند بعض صفاته الأخلاقية لحاجة الناس الماسة في كل زمان ومكان لمعرفة هذه الصفات والاقتداء بها. ولما كانت صفات الرسول ﷺ الأخلاقية انعكاساً لما في قلب الرسول ﷺ من قيم ومبادئ، كان لابد لكل مسلم أن يعلم بها، ويتحلّى بمحاسنه. ومن أبرز هذه الصفات أو الشمائل.

١ - التقشف في الطعام:

قال أنس رضي الله عنه: «إن النبي ﷺ لم يجتمع عنده غداء ولا عشاء من خبز ولحم إلا على ضفف» ،أي عندما ينزل عليه الضيوف لضرورة الإيناس والمجاملة [الترمذي: الشمائل، صحيح] وفي رواية عن مالك بن دينار، قال «ما شبع رسول الله ﷺ من خبز قط ولا لحم إلا على ضفف» ، وقالت عائشة رضي الله عنها: «ما شبع آل محمد من خبز شعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ». وفي رواية أخرى عنها: «ما شبع آل محمد ـ منذ قدم المدينة ـ من طعام بر، ثلاث ليال تباعا حتى قبض» [متفق عليه بخ ٥٤١٦، ٢٩٧٠] وهناك روايات أخرى عند مسلم وأبي الشيخ» [أخلاق النبي] بهذا المعنى.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة طاوياً هو وأهله، لا يجدون عشاء، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير» [الترمذي: الشمائل، صحيح] . وذكرت عائشة أنه كان يأتيها فيقول: «أعندك غداء؟» فتقول «لا» فيقول: «إني صائم. . .» ، [مسلم ١١٤٥] .

٢ - التقشف في الفراش:

قالت عائشة رضي الله عنها: «إنما كان فراش الرسول ﷺ الذي ينام عليه، أدما حشوه ليف»، [متفق عليه: بخ ٤٦٥٦، م ٢٠٨٢].

٣ - تواضعه:

قال رسول الله ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله»، [بخ ٣٤٤٥].

وعن أنس رضي الله عنه أن امرأة كان في عقلها شيء: فقالت: «يا رسول الله إن لي إليك حاجة» فقال: «يا أم فلان، انظري أي السكك شئت، حتى أقضي لك حاجتك»، فخلا معها في بعض الطرق، حتى فرغت من حاجتها، [بخ ٢٣٢٦].

وكانت الأمة من إماء أهل المدينة تأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت. [بخ ٦٠٧٢].

وكان يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السخنة - الدهن الجامد المتغير الرائحة من طوال المكث - فيجيب [بخ ٢٥٠٨] وقال: «لو دعيت إلى ذراع أو كراع لأجبت، ولو أهدي إليَّ ذراع أو كراع لقبلت»، [بخ ٢٥٦٨].

وكان يشرب من القربة البالية. قالت أم المؤمنين سودة رضي الله عنها: «ماتت لنا شاة فدبغنا مَسْكَهَا - أي جلدها - ثم ما زلنا ننبذ فيه حتى صار شنّاً - أي بالبا -» - [البخاري ٦٦٨٦].

ومع أنه لم يكن شخص أحب إلى الصحابة رضي الله عنهم من رسول الله ﷺ فإنهم كانوا إذا رأوه لم يقوموا له؛ لما يعلمون من كراهته لذلك [بخ: المفرد، والترمذي: الشمائل، صحيح].

وقال ﷺ في الثناء على التواضع وذم الاستكبار: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضاعف، لو أقسم على الله لأبره. ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جَوّاظ مستكبر» [٦٠٧١بخ] وقال: «... وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» [م ٢٥٨٨]، والكبرياء من صفات الله ﷻ، لذا حرم الله ذلك

على المؤمنين، وفي ذلك قال الرسول ﷺ : «... العز إزاره، والكبرياء رداؤه - أي الله ﷻ - فمن ينازعني عذبته» ، [م٢٦٢٠] .

وكان ﷺ لا يستكبر عن خدمة أهله، [بخ ٦٠٣٩] .

٤ - **خلقه:**

كان رسول الله ﷺ يقبل بوجهه وحديثه على أشر القوم، يتألفهم بذلك، [الترمذي: الشمائل، حسن] .خدمه أنس رضي الله عنه عشر سنين، فما قال له: أف قط، وما قال له لشيء صنعه: لم صنعته؟ ولا لشيء تركه: لم تركته؟ .[بخ ٦٠٣٨، م ٢٣٠٩] . وما كان فاحشا ولا متفحشا، ولا صخابا في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح .[الترمذي: صحيح] . ويقول: «خياركم أحسنكم أخلاقا» [بخ ٦٠٣٥] .

وقال لعائشة رضي الله عنها: «إن شر الناس من تركه الناس- أو ودعه الناس- اتقاء فحشه» [بخ ٦٠٤٥، م ٢٥٩١] .

ونهى عن اللعن، فقال: «لا ينبغي لصديق أن يكون لعانا» [م ٢٥٩٧] . وقال: «لا يكون اللعانون شفعاء ولا شهداء يوم القيامة» [م ٢٥٩٨] . وعندما قيل له: ادع على المشركين قال: «إني لم أبعث لعانا، وإنما بعثت رحمة» . [م ٢٥٩٩] .

أما من لعنه الرسول ﷺ أو سبه أو دعا عليه، وليس هو أهلا لذلك، كان ذلك له زكاة وأجرا ورحمة؛ لأن الرسول ﷺ شارط ربه على ذلك كما في الحديث: «... اللهم إنما أنا بشر، فأي المسلمين لعنته أو سببته فاجعله له زكاة وأجراً» [م: ٢٦٢٠٠- ٢٦٠٤] .

وما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يأثم، فإذا كان الإثم كان أبعدهما منه، والله ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قط، حتى تنتهك حرمات الله، فينتقم لله. [بخ ٦٧٨٦] .

وما ضرب رسول الله ﷺ شيئا قط بيده ولا امرأة، ولا خادما، إلا أن يجاهد في سبيل الله .[م ٢٣٢٨] .

وما سئل رسول الله ﷺ قط فقال: «لا» ، [٢٣١١] .

قال أنس ﷺ: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقا، وكان لي أخ يقال له عُمَير، وكان إذا جاء قال: «يا أبا عمير، ما فعل النغير؟ نغر كان يلعب به. [بخ ٦٢٠٣ [والنغر: طائر يشبه العصفور، أحمر المنقار] .فمات فدخل عليه النبي ﷺ يوما، فوجده حزينا لموته، فقال ما قال، [البيهقي: السنن الكبرى] .

٥ - شجاعته:

قال أنس بن مالك ﷺ: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس، وكان أشجع الناس، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق ناس قبل الصوت فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعا، وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرس لأبي طلحة عري، في عنقه السيف، وهو يقول: «لم تراعوا لم تراعوا» وقال عن الفرس: «وجدناه بحرا، أو: إنه لبحر» ، قال الراوي: وكان فرسا يبطأ. [بخ ٢٨٦٦، ٢٨٦٧، ومسلم، ٢٣٠٧] .

وقال علي ﷺ: «لما حضر البأس يوم بدر اتقينا برسول الله ﷺ وكان من أشد الناس ما كان، أو لم يكن أحد أقرب إلى المشركين منه» ، وعنه من طريق ثان، قال: «رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس بأسا» [أحمد: المسند، صحيح] .

وقد رأيت موقفه يوم بدر وأحد وحنين حين امتحن الله المسلمين.

٦ - حياؤه:

قال أبو سعيد الخدري ﷺ: «كان ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئا يكرهه عرفناه في وجهه» [بخ ٦١٠٢] وقال ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير» [بخ ٦١١٧] وروى ابن عمر أن النبي ﷺ مر على رجل، وهو يعاتب أخاه في الحياء، يقول: «إنك لتستحي حتى كأنه يقول قد اضرَّ بك» ، فقال رسول الله ﷺ : «دعه؛ فإن الحياء من الإيمان» [بخ ٦١١٨] وقال ﷺ : «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت» [بخ ٦١٢٠] .

أما الحق فلم يكن الرسول ﷺ يستحي منه؛ لأن ذلك من ا لتفقه في الدين. فقد روت أم سلمة أن أم سليم جاءت إلى رسول الله ﷺ فقالت: «يا رسول الله، إن الله لا يستحي من الحق، فهل على المرأة غسل إذا احتلمت؟» فقال: «نعم، إذا رأت الماء» [بخ ٦١٢١].

٧ - التيسير والرفق:

قال رسول الله ﷺ: «يسروا، وسكنوا، ولا تنفروا» [بخ ٦١٢٥]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن أعرابيا بال في المسجد، فثار إليه الناس ليقعوا به، فقال لهم رسول الله ﷺ: «دعوه، وأهرقوا على بوله ذنوبا من ماء - أو سجلا من ماء - فإنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين» [بخ ٦١٢٨].

وقال في الرفق: «من يحرم الرفق يحرم الخير» [م ٢٥٩٢]، وقال: «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على سواه» [م ٢٥٩٢]، وقال: «وإن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه» [م ٢٥٩٤].

٨ - الحذر من الغضب:

إن من أوصاف المؤمنين وسجاياهم الصفح والعفو عن الناس وعدم الانتقام عند الغضب، وفي ذلك يقول الله - تعالى -: ﴿... وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾ [الشورى: ٣٧] ويقول الرسول ﷺ «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» [بخ ٦١١٤، م ٢٦٠٩]. وعندما قال رجل للنبي ﷺ: «أوصني» قال: «لا تغضب»، ورددها مرارا [بخ ٦١١٦].

٩ - الحلم والأناة:

كان مما يحبه ﷺ هاتان الصفتان، وقد قال لأشج عبد القيس: «إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم، والأناة» [م ١٧-١٨].

١٠ - الوصية بالجار:

قال ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» [بخ ٦٠١٤، ٢٦٢٤-٢٦٢٥].

وقال لأبي ذر رضي الله عنه: «يا أبا ذر، إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها، وتعاهد

جيرانك» [م٢٦٢٥] . وفي رواية: «. . . ثم انظر أهل بيت من جيرانك فأصبهم منها بمعروف» [م٢٦٢٥] . وقال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره» [بخ ٦٠١٨] ، وفي رواية: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره. . . » [ابن ماجه. . . صحيح] .

١١ - رحمته:

عن أنس رضي الله عنه «أن النبي ﷺ أخذ ولده إبراهيم، فقبله، وشمه» . وذلك عندما زاره، وهو مسترضع عند ظئره أبي سيف [بخ ١٣٠٣]. وأخبر الرسول ﷺ «أن الله جعل الجنة لمن يموت له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث، بفضل رحمته إياهم» [بخ ١٣٨١] .

وكانت تفيض عيناه لموتهم، وقد سأله مرة سعد بن عبادة: «يا رسول الله: ما هذا ؟»، فقال ﷺ: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء» [بخ ١٢٨٤]. وعندما درفتَ عيناه لوفاة ابنه إبراهيم قال له ابن عوف: «وأنت، يا رسول الله ؟» فقال: «يا ابن عوف، إنها رحمة لمن اتبعها بأخرى» ، وقال: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك ـ يا إبراهيم ـ لمحزونون» [بخ ١٣٠٣] .

وخرج على الصحابة رضي الله عنهم وأمامة بنت ابن الربيع، ابنة زينب على عاتقه، فصلى، فإذا ركع وضعها، وإذا رفع رفعها. [بخ ٥٩٩٦] .

وقبل الحسن بن علي، وعنده الأقرع بن حابس، فقال الأقرع: «إن لي عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا» ، فنظر إليه رسول الله ﷺ ، ثم قال: «من لا يرحم لا يرحم» [بخ ٥٩٩٧] .

وجاءه أعرابي فقال: «تقبلون الصبيان ؟ فما نقبلهم» ، فقال النبي ﷺ : «أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟» [بخ ٥٩٩٨] .

١٢ - رحمته بالمرضى:

عندما اشتكى سعد بن عبادة مرة عاده، فوجده في غشاية أهله، فقال: «قد قضى ؟» قالوا: «لا يا رسول الله» ، فبكى النبي ﷺ ، فلما رأى القوم

بكاء رسول الله ﷺ بكوا، فقال: «إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا - وأشار إلى لسانه - أو يرحم» [بخ ١٣٠٤].

١٣ - رحمته ﷺ بالإناث:

شبه الرسول ﷺ النساء بالقوارير، إشارة إلى ما فيهن من الصفاء والنعومة والرقة، وإلى ضعفهن وقلة تحملهن، ولذا فإنهن يحتجن إلى الرفق. وله توجيهات كثيرة ومواقف عملية في هذا المجال. ومن أبرز الأمثلة على ذلك:

١- كان رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، وكانت معه نساء منهن أم سليم، وغلام أسود يقال له أنجشة يحدو، فقال له النبي ﷺ: «يا أنجشة رويدك، سوقاً بالقوارير» [بخ ٦١٤٩، ٦١٦١، ٦٢٠٩، ٦٢١١].

٢- وقد عثرت ناقته ذات مرة ـ ومعه عليها زوجته صفية ـ فطرحا على الأرض، فلحق بهما أبو طلحة رضي الله عنه فقال له النبي ﷺ: «عليك بالمرأة» [بخ ٦١٨٥].

٣- روى أنس أن النبي ﷺ قال: «من عال جاريتين حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو»، وضم أصابعه [بخ ٥٩٩٥، م ٢٦٣١].

٤- وقال ﷺ: «من ابتلي من البنات بشيء فأحسن إليهن، كن له ستراً من النار» [بخ ٥٩٩٥، ٢٦٣١].

٥- وكان ـ عليه السلام ـ يحب بناته حباً جما. فقد روي «أن ابنته فاطمة كانت عندما تأتيه يقوم لها، ويأخذ بيدها، ويقبلها، ويجلسها في مكانه الذي كان يجلس فيه» [أبو داود ٥٢١٧].

٦- وقال ﷺ: «إني لأدخل في الصلاة، وأنا أريد إطالتها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمة من بكائه» [بخ ٧٠٧، م ٤٧٠].

١٤ - رحمته بزوجاته:

كان ﷺ : كثيراً ما يوصي بالزوجات خيراً، ويقول: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي، وما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم» [أبو عسكر، والترمذي، وابن ماجه، على شرط الشيخين] . وأوصى بهن خيراً في حجة الوداع، كما ذكرنا ذلك في مكانه. وقال: «حبب إليَّ من الدنيا الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة» [الحاكم، صحيح، وأحمد، حسن] . دلائل شدة احترامه وحبه لزوجته خديجة رضي الله عنها، إن كان ليذبح الشاة، ثم يهديها إلى خلائلها [صديقاتها] وذلك بعد مماتها. وقد أقرت عائشة رضي الله عنها بأنها كانت تغار من هذا المسلك منه [بخ ٣٨٢١] .

وقد روى أنه وضع ركبته لتضع عليها زوجه صفية رضي الله عنها رجلها حتى تركب على بعيرها . [بخ ٤٢١١] .

وأوصى ﷺ بالمرأة الزوجة، فقال: «استوصوا بالنساء خيراً؛ فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً» [بخ ٥١٨٦، م ١٤٦٨] . وقال « ألا واستوصوا بالنساء خيراً؛ فإنما هن عوان عندكم. . . » [م ٨٨٩، أحمد، صحيح لغيره مقطعاً، والترمذي، ١١٦٣، حسن صحيح، وأبو داود ١٩٠٥] . وقال: «بم يضرب أحكم امرأته ضرب الفحل ثم لعله يعانقها؟» ، وفي رواية: « . . . جلد العبد. . . » [بخ ٦٠٤٢] .

وقال ﷺ : «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم لنسائهم» .[أحمد، حسن، والترمذي ١١٦٢، حسن صحيح] ، وفي رواية: «إن من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله» [تر، حسن صحيح، وأحمد، صحيح لغيره] .

وقال: «إن من أعظم الأمور أجراً النفقة على الأهل» [م ٩٩٤، ٩٩٥] .

١٥ - رحمته بالضعفاء عموماً:

لقد بعث الرسول ﷺ رحمة [م ٢٥٩٩، بخ: المفرد ٣٢١]. للعالمين: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ [الأنبياء ١٠٧] ويقول ﷺ عن هذه الرحمة

الإلهية: «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي» [بخ ٣١٩٤] . وشملت رحمته ﷺ الضعفاء حتى وهو في الصلاة. فقد أوصى الأئمة قائلاً: «إذا صلى أحدكم للناس فليخفف، فإن فيهم السقيم والضعيف والكبير، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء» ، وفي رواية: «إن منكم منفرين، فأيكم ما صلى بالناس فليتجوز، فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة» [بخ ٧٠٤-٤٦٨] .

وشملت رحمته الخدم والأرقاء. وأهل الذمة، وفي ذلك قال:

١- على المسلم أن يعامل خادمه أو مولاه كأخ له. فقد روى أبو ذر أن الرسول ﷺ قال: «هم إخوانكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبهم. فإن كلفتموهم فأعينوهم» [م ١٦٦٣] .

٢- روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا صنع لأحدكم خادمه طعامه ثم جاء به، وقد ولي حره وذخانه، فليقعد معه، فليأكل، فإن كان الطعام قليلاً فليصنع في يده منه أكلة أو أكلتين» أي لقمة أو لقمتين [م ١٦٦٣] .

وحث على كفالة الأيتام لضعفهم وحاجتهم للرعاية، فقال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة، هكذا» وقال أي أشار - بإصبعيه السبابة والوسطى [بخ ٦٠٠٥] .

وحث على إعالة الأرامل والمساكين، فقال: «الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو كالذي يصوم النهار، ويقوم الليل» [بخ ٦٠٠٦] . وقال: «اللهم إني أُحَرِّجُ ـ أي ألحق والحرج والأثم ـ بمن ضيع حق الضعيفين: اليتيم، والمرأة» [أحمد، حسن] . وقال: «أبغوني الضعفاء؛ فإنما تنصرون وترزقون بضعفائكم» [أحمد، صحيح، وأبو داود، ٢٥٩٤، صحيح، بخ بنحوه في الجهاد] .

وشملت رحمته حتى البهائم، قال: «ما من مسلم غرس غرساً فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان صدقة» [بخ ٦٠١٢]. وقال: «بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً، فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل

الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفه، ثم أمسكه بفيه، فسقى الكلب، فشكر الله له، فغفر له» قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم أجراً؟فقال: «في كل ذات كبد رطبة أجر» [بخ ٦٠٠٩].

١٦ - رحمته بالأعداء في الحرب والسلم:

كان الرسول ﷺ يصلي الفجر مع المسلمين في الحديبية، فنزل سبعون أو ثمانون رجلاً من التنعيم يريدون الفتك بالمسلمين، فأخذوا، فأعتقهم رسول الله ﷺ دون عوض، ولا عقاب [م ١٨٠٨، أحمد، صحيح].

وقد قبل الفداء من أسرى بدر، وعفا عن قريش وأهل مكة، يوم فتح مكة، وأطلق سراح أسرى حنين. [سبق ذكره].

وعفا عن غَورث بن الحارث مع محاولته قتل الرسول ﷺ، فجاء غورث إلى قومه بعد هذا، فقال لهم: جئتكم من عند خير الناس [سبق ذكره].

روى البخاري [١٣١٢] أنه مر عليه بجنازة، فقام لها، فقالوا يا رسول الله ﷺ: إنها جنازة يهودي!! فقال: «أليست نفساً منفوسة؟» ونهى ﷺ عن قتل النساء والصبيان والأجير، ماداموا غير ممشاركين في قتال المسلمين [سبق ذكره]. فكان بعثاً أو جيشاً أوصاهم قائلا: «لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً» [م ١٧٣١].

وكان له خادم يهودي، فكان إذا مرض عاده، فعاده مرة، فعرض عليه الإسلام، وأبوه حاضر، فقال له: أطع أبا القاسم، فأسلم، فقال الرسول ﷺ: «الحمد لله الذي أنقذه من النار» .[بخ ١٣٥٦، ٥٦٥٧].

١٧ - عدله ﷺ:

ذكرنا من قبل بمناسبة الكلام عن غزوة الفتح أن الرسول ﷺ رفض شفاعة أسامة بن زيد رضي الله عنه في المرأة المخزومية التي سِرقت، وأهم أمرَها قريشا، وقال: «والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها».

١٨- حثه ﷺ على صلة الأرحام:

لقد أخبر الرسول ﷺ أصحابه بأن من أحب الأعمال إلى الله ـ تعالى ـ بر الوالدين [بخ ٥٩٧٠] .

قال له رجل من الصحابة: «يا رسول الله: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: أمك، قال ثم من؟ قال أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أبوك» [بخ ٥٩٧١، ٢٥٤٨] .

وقال رجل للنبي ﷺ: «أجاهد؟ قال: ألك أبوان؟ قال: نعم، قال: ففيهما فجاهد» [بخ ٥٩٧١، م ٢٥٤٨] .

وجعل عقوق الوالدين من أكبر الكبائر، قال لأصحابه: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قالها ثلاثاً، فقال الصحابة: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين. . .» [بخ ٥٩٧٦] . وقال. «إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات . . . » [بخ ٥٩٧٥] . وحث على صلة الوالدين المشركين والأقارب المشركين [بخ ٥٩٧٨، ٥٩٧٩، ٥٩٨١] .

وجعل صلة الرحم من أسباب دخول الجنة [بخ ٥٩٨٢وغيره] [بخ ٥٩٨٥- ٥٩٨٦، م ٢٥٥٧] . وقطعها من أسباب دخول النار. قال: «لا يدخل الجنة، قاطع» أي قاطع رحم .[بخ ٥٩٨٤] .

وقال رجل للنبي ﷺ : يا رسول الله، إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ، وأحلم عنهم، ويجهلون عليَّ، فقال: «لئن كنت كما قلت، فإنما تسفهم المَلّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم مادمت على ذلك» [م ٢٥٥٨، والملّ: الرماد الحار] .

١٩ - إعراضه ﷺ عما يكرهه:

روي عن أنس أنه ﷺ كان عنده رجل به أثر صفرة ـ وكان ﷺ لا يكاد يواجه أحداً بشيء يكرهه ـ فلما قام الرجل، قال النبي ﷺ للقوم: «لو قلتم له يدع هذه الصفرة» [أحمد، حسن، تر، د، صحيح]؛ لأن الصفرة من أثر طيب النساء، ويكره للرجل أن يتطيب بما له لون، بل يتطيب بما له رائحة فقط.

وروي عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ ، فقال: «ائذنوا له، فبئس رجل العشير، أو بئس رجل العشيرة، فلما دخل ألان له القول. قالت عائشة: يا رسول الله، قلت له الذي قلت، فلما دخل ألنت له القول؟ قال: يا عائشة، إن شر الناس منزلة يوم القيامة من وَدَعَه ـ أو تركه ـ الناس اتقاء فحشه» [بخ ٦٠٦٢، م ٢٥٩١] .

وقالت عائشة رضي الله عنها: «كان النبي ﷺ إذا بلغه عن رجل شيء لم يقل ما بال يقول كذا وكذا، ولكن يقول: «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا» [أبو داود ٤٧٨٨، صحيح] .

٢٠- عدم ذكره عيب الطعام واستحبابه مدحه:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ما عاب رسول الله ﷺ طعاماً قط، إن اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه» [بخ ٥٤٠٩] .

وعن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ سأل أهله إداماً، فقالوا: ما عندنا إلا خل، فدعا به، فجعل يأكل، ويقول: «نعم الأدم الخل، نعم الأدم الخل» [م ٢٠٥٢] .

٢١ - من جامع صفاته وارشادته ﷺ :

روي عن عبد الله بن عمرو وعبد الله بن سلام رضي الله عنهم أنهما قالا: «والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥﴾ وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا سخّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه لله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويفتح بها أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا» [بخ ٢١٢٥] .

وكان ﷺ لا يحب أن يمدح بما فيه انتقاص لغيره من الأنبياء، ويقول: «لا تخيروا بين الأنبياء» [بخ ٦٩١٧، م ٢٣٧٣] .

وكان يحث على الصبر والشكر، وفي ذلك يقول: «إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق فلينظر إلى من هو أسفل منه» [بخ ٦٤٩٠] .

وجعل مقياس القوة تملك النفس عند الغضب [بخ ٦١١٤] . وكان ينهى عن سيء الخلق، وفي ذلك يقول: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا» [بخ ٦٧٢٤] .

وفي وصف جوامع خُلقه وَخَلقه نورد جزءاً من الحديث الذي رواه الترمذي في الشمائل[١] عن الحسن بن علي رضي الله عنه قال: «سألت خالي هند بن أبي هالة[٢]، وكان وصافاً، عن حلية النبي ﷺ، وأنا أشتهي أن يصف لي منها شيئاً أتعلق به، فقال: «كان رسول الله ﷺ فخماً مفخماً، يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر، أطول من المربوع، وأقصر من المشذب، عظيم الهامة، رَجْلَ الشعر، إن انفرقت عقيقته[٣] فَرَقَها، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره، أزهر اللون، واسع الجبين، أزج[٤] الحواجب سوابغ في غير قرن[٥]، بينهما عرق يُدرُّه الغضب[٦]، أقنى العِرْنَين[٧]، له نور

(١) ص ص ١٨-٢٦، وقال المحقق- الشيخ الألباني: تفرد به المؤلف، ورواه الطبراني في الكبير والبيهقي في الشعب إسناده ضعيف، وله علتان بينتهما في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (٢٠٥٣)، وقد أخرجت فيه شاهداً لطرفه الأول، وقد رواه البيهقي في الدلائل من طريق أخرى، ولكن فيه على بن جعفر بن محمد، سكت عنه في الكاشف، وقال في الميزان: ما رأيت أحداً لينه، نعم ولا وثقه: وساق له حديثا في فضل أهل البيت استنكره جداً، وكذلك خرجته في الضعيفة (٢١٢٢). قلت: رواه أبو نعيم في الدلائل مطولاً (٢٢٧) وابن سعد (١/ ٤٢٢) والبغوي في شرح السنة تاماً برقم (٣٧٠٥).

(٢) هند هو أخو فاطمة أم الحسن والحسين من أمها خديجة، كما مر بك. قتل مع علي يوم الجمل.

(٣) العقيقة: شعر رأسه الذي على ناصيته، أي جعلها فرقتين.

(٤) أزج: أي مقوس الحاجبين.

(٥) أي كاملات، والقرن: اقتران الحاجبين بحيث يلتقي طرفاهما.

(٦) يدره الغضب: أي يصيره الغضب ممتلئا دماً.

(٧) أقنى العرنين: أي طويل الأنف مع دقة أرنبته، والعرنين: ما صلب من الأنف وقيل الأنف كله.

يعلوه، يحسبه من لم يتأمله أشم، كث اللحية، سهل الخدين، ضليع الفم[١]، مفلج الأسنان[٢]. دقيق المسرُبة[٣]، كأن عنقه جيد دُمية، في صفاء الفضة[٤]، معتدل الخلق، بادن متماسك[٥]. سواء البطن والصدر، عريض الصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس[٦]، أنور المتجرد[٧]، موصول ما بين اللبة[٨] والسرة بشعر يجري كالخط، عاري الثديين والبطن ما سوى ذلك، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر، طويل الزندين، رحب الراحة، شثن الكفين والقدمين، سائل الأطراف، أو قال: شائل الأطراف[٩] خُمصان الأَخْمَصَين[١٠]، مسيح[١١] القدمين ينبو عنهما الماء، إذا زال زال قلعاً يخطو تكفيا[١٢] ويمشي هوناً، ذريع[١٣] المشية، إذا مشى كأنما ينحط من صبب، وإذا التفت التفت جميعاً، خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جل نظره الملاحظة، يسوق أصحابه[١٤]، ويبدر[١٥] من لقي بالسلام».

---

(١) ضليع الفم: أي واسع الفم، وهذا عند العرب يدل على الفصاحة.

(٢) الفلج: انفراج ما بين الأسنان.

(٣) دقيق المسربة: أي دقيق الشعر الذي من الصدر إلى السرة.

(٤) الجيد: العنق، والدمية: الصورة المتخذة من عاج أو غيره.

(٥) البادن: المعتدل السمنة: ومتماسك: أي قوي ومعتدل الجسم.

(٦) الكراديس: رؤوس الأعضاء كالكتف والركبة والمرفق.

(٧) أي نير العضو المتجرد عن الشعر أو عن الثوب.

(٨) اللبة: موضع الثغرة فوق الصدر.

(٩) شك من الرواي. والسائل: الطويل، والشائل: كذلك الطويل.

(١٠) الأخمص من القدم هو الموضع الذي لا يلصق بالأرض منها عند التوطء، والخمصان المبالغ منه، والمراد أن ذلك الموضع من أسفل قدميه شديد التجافي عن الأرض.

(١١) مسيح: أي ملساوان، ليس فيهما تكسر ولا شقاق: أي تشقق.

(١٢) تكفيا أو تكفُؤاً كما في رواية، أي يمشي تقلصاً يخطو تكفُؤاً: مائلاً قليلاً إلى الأمام.

(١٣) ذريع: واسع الخطا، والصبب، الأرض المنحدرة.

(١٤) أي يمشون أمامه ويمشي هو خلفهم.

(١٥) بدر: أي يسبق.

ومن الأحاديث الجامعة في وصفه ﷺ حديث أم معبد الخزاعية، الذي سبقت الإشارة إليه في أخبار الهجرة إلى المدينة المنورة. فعندما طلب أبو معبد من أم معبد أن تصف له الرسول ﷺ قالت: «رأيت رجلاً ظاهرَ الوَضاءة أبلجَ(١) الوجه لم تَعِبْه ثُجْلَة(٢)، ولم تُزْر به صُقْلَة(٣)، وسيم قسيم(٤)، في عينيه دعج(٥)، وفي أشفاره وطف(٦)، وفي صوته صَهَل(٧)، وفي عنقه سَطع(٨)، وفي لحيته كثاثة، أزجُّ أقرن(٩)، إن صمت فعليه الوقار، وإن تكلم سماه وعلاه البهاء. أجمل الناس وأبهاه من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب، حلو المنطق، فصلٌ لا نزر ولا هذر(١٠)، كأن منطقه خرزات نظم يَتَحَدَّرْنَ(١١). ربعة(١٢)، لا بأس(١٣) من طول، ولا تقتحمه عين من قصر. غصن بين غصنين. فهو أنضر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قدراً. له رفقاء يَحُفُّون به، إن قال أنصتوا، وإن أمر تبادروا لأمره. محشود(١٤) . . . .

---

(١) أبلج الوجه: يعني مشرق الوجه، يقال تبلج الصبح إذا أشرق.

(٢) لم تعبه ثجلة: الثجلة هي ضخامة البطن (النهاية).

(٣) لم تزر به صقله: أي لم يقصر، والصقل والصقلة: دقة ونحول (النهاية) والصقلة - أيضاً - جلدة الخاصرة. تريد أنه ناعم الجسم ضامر الخاصرة. وهو اسم للأوصاف الحسنة.

(٤) وسيم: أي حَسَن والوسامة: الحسن.

(٥) الدعج: شدة سواد العين.

(٦) والوطف: طول شعر أشفار العين.

(٧) وفي رواية صحل: تُريدُ أنه ليس بحاد الصوت.

(٨) سطع: أي إشراف وطول.

(٩) الكثاثة: دقة نبات شعر اللحية، مع استدارة فيها، وقولها: أزج أقرن: الزج، دقة شعر الحاجبين مع طولهما. والقرن أن يتصل ما بينهما بالشعر.

(١٠) وفصل لا نزر ولا هذر: الفصل هو الكلام البين، والنزر الكلام القليل. والهذر الكلام الكثير.

(١١) يتحدرن: يتساقطن من فمه.

(١٢) ربعة: أي الوسط وإلى الطول أقرب.

(١٣) لا يأس: لا يؤيس من طوله، لأنه كان إلى الطول أقرب.

(١٤) محشود: أي محفوف به.

محفود[١]، لا عابس، ولا مُفَنَّد.. »[٢]، وخلاصة القول: أن النبي ﷺ قد اتصف بصفات الكمال، ولا غرو فقد أدبه، ربه فأحسن تأديبه، وخاطبه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤]. وقالت عائشة رضي الله عنها: «كان خلقه القرآن» .[م ٧٤٦، وغيره].



(١) محفود: أي مخدوم، والحفد: الخدمة، ويقال الرجل إذا خدمته.

(٢) في رواية البغوي: مفند. وفي رواية ابن اسحاق: معتد: أي غير ظالم.
هذا الخبر أخرجه البغوي في شرح السنة، الحديث رقم (٣٧٠٤) وفي: الأنوار في شمائل النبي المختار- تحقيق إبراهيم اليقوبي، الجزء الاول، ص ٣٤٠، حديث رقم (٤٥٦٩، وابن سعد في الطبقات (١/ ٢٣٠)، والحاكم في المستدرك (٩١٣-١٠)، وأقره الذهبي. وأخرجه بعضه ابن هشام في السيرة عن ابن إسحاق (٢/ ١٤٦-١٤٨) إسناد حسن لذاته. وله شواهد والقصة مشهورة.

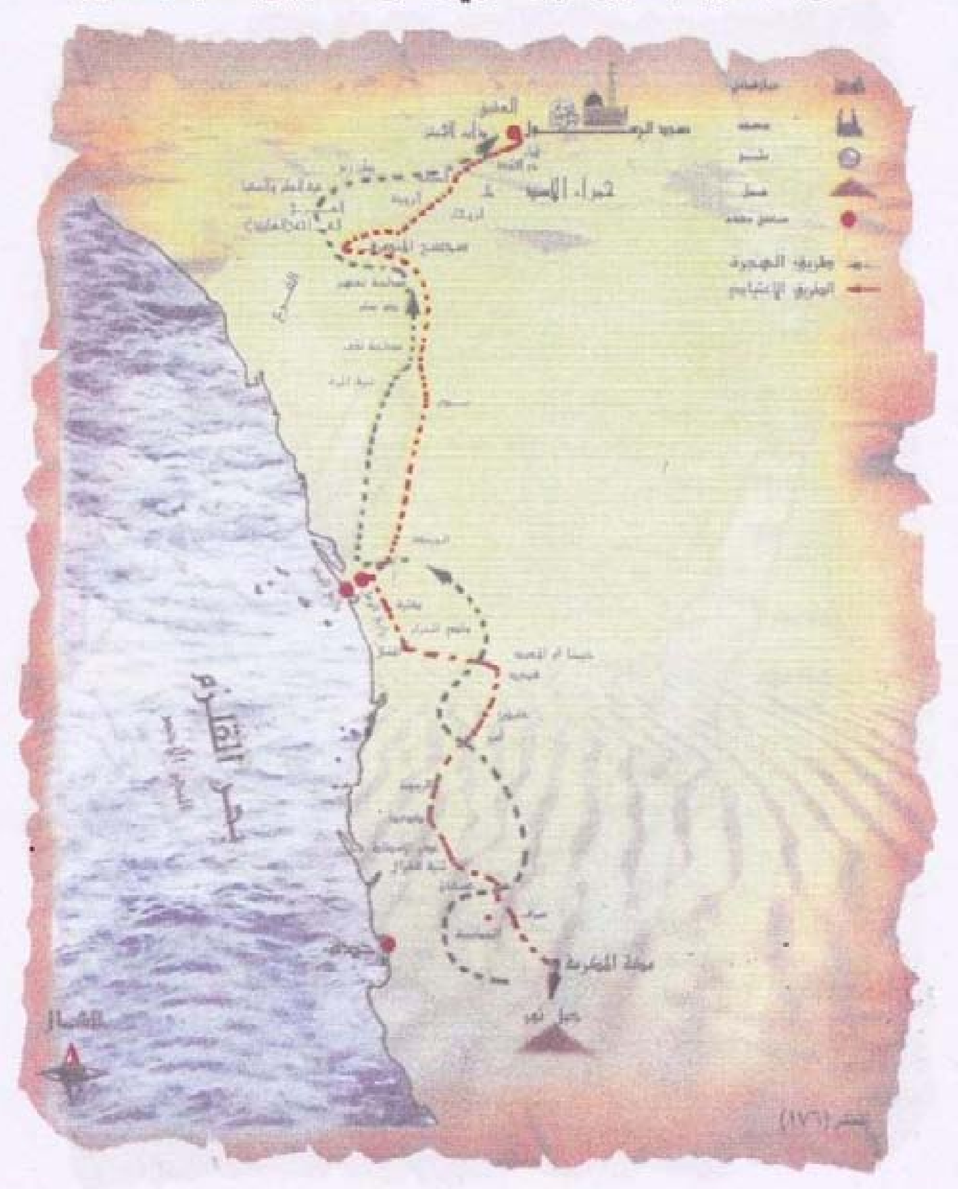


ملاحق الصور
للغزوات



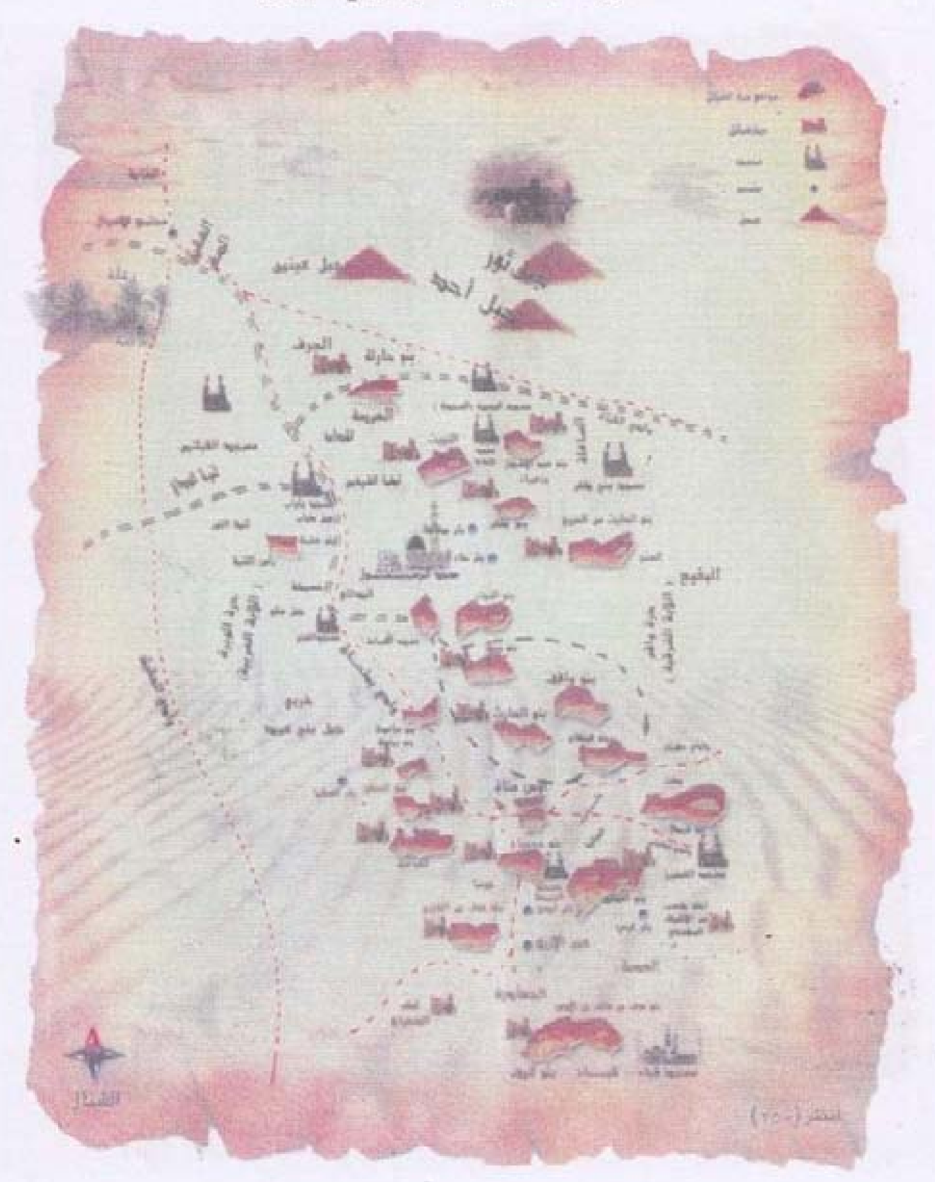
ملحق (١) خريطة منازل أهم قبائل الجزيرة العربية قبل البعثة النبوية

ملحق (٢) خريطة طريق هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة المنورة



ملحق (٢) خريطة غزوة بدر الكبرى

ملحق (٤) خريطة غزوة بني قنيقاع



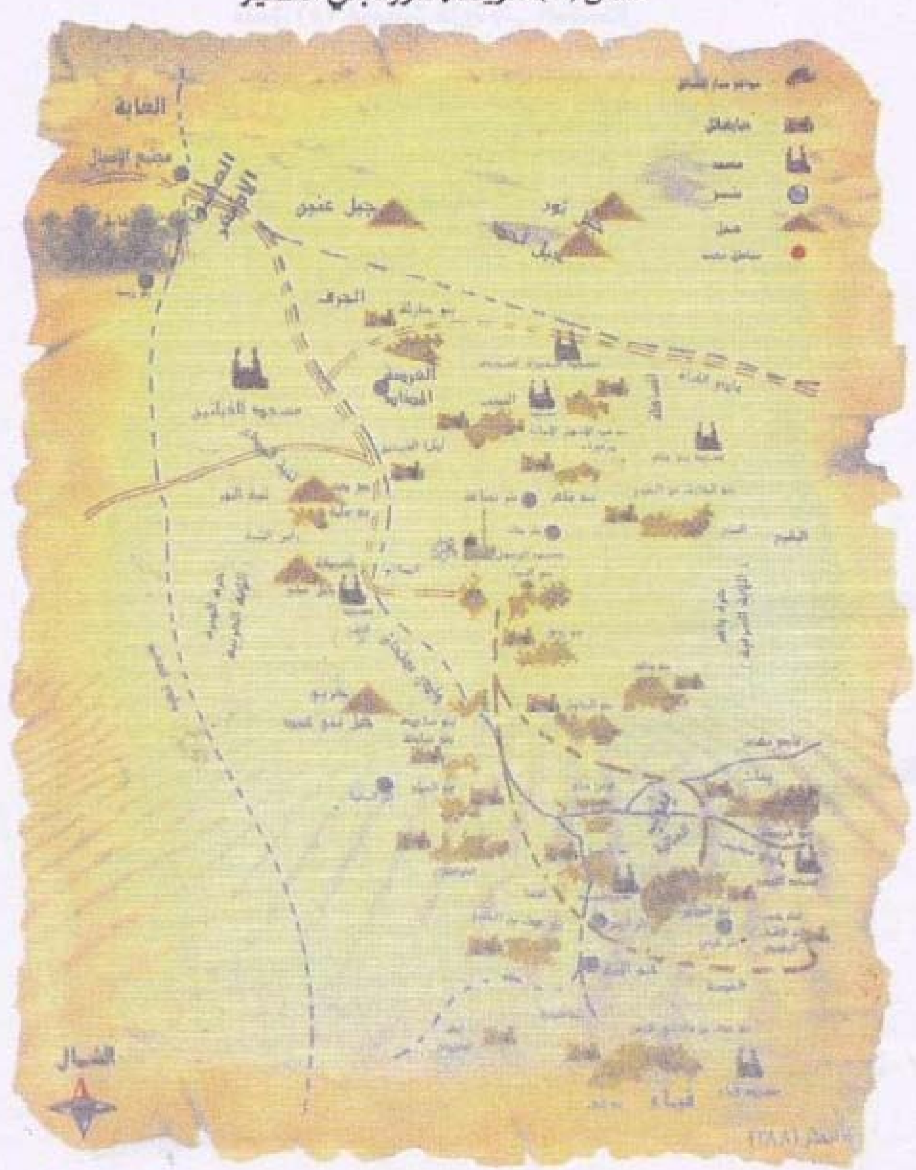
ملحق (٥) خريطة غزوة أحد



ملحق (٦) خريطة السرايا والغزوات بين أحد والخندق



ملحق (٧) خريطة غزوة بني النضير

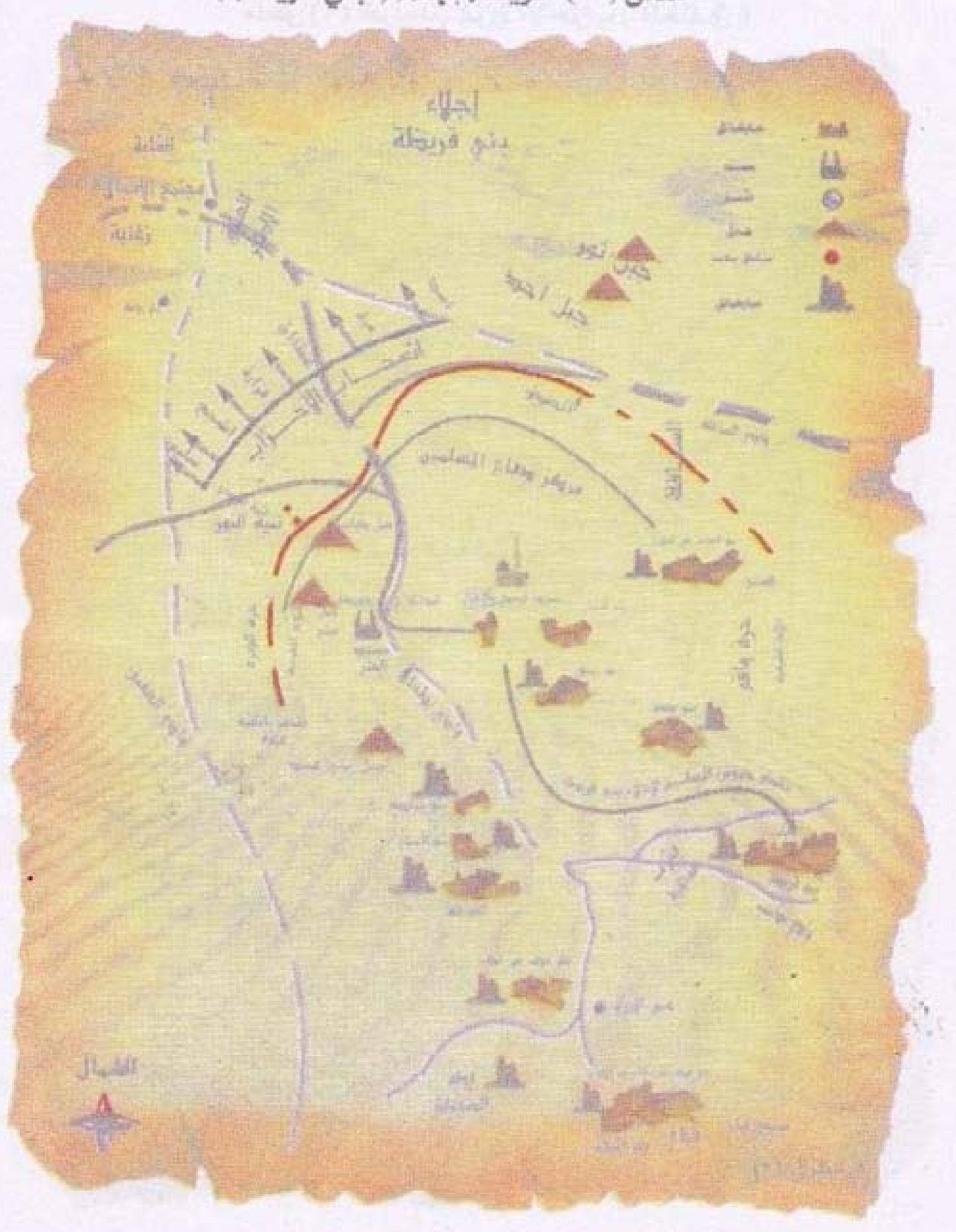


ملحق (٨) خريطة غزوة بني المصطلق

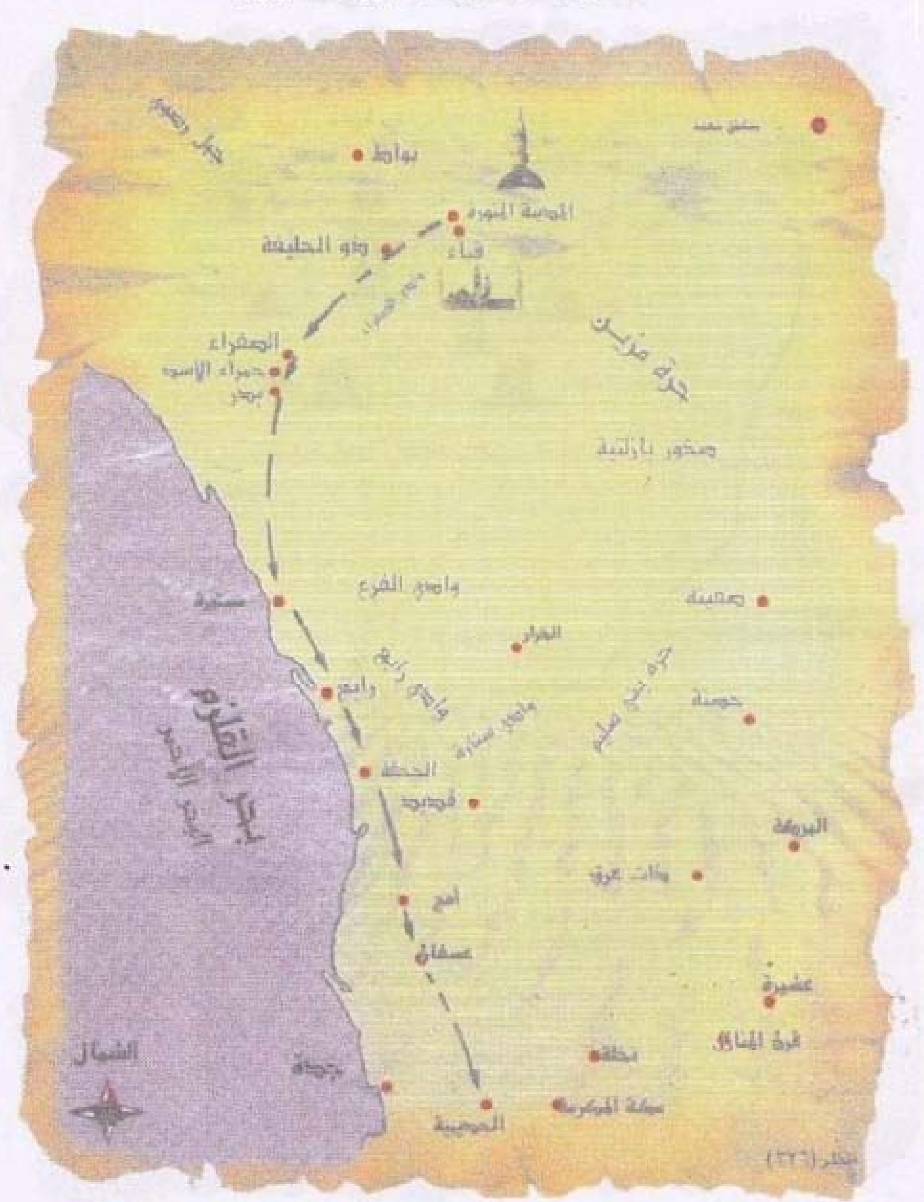


ملحق (٩) خريطة غزوة الأحزاب (الخندق)

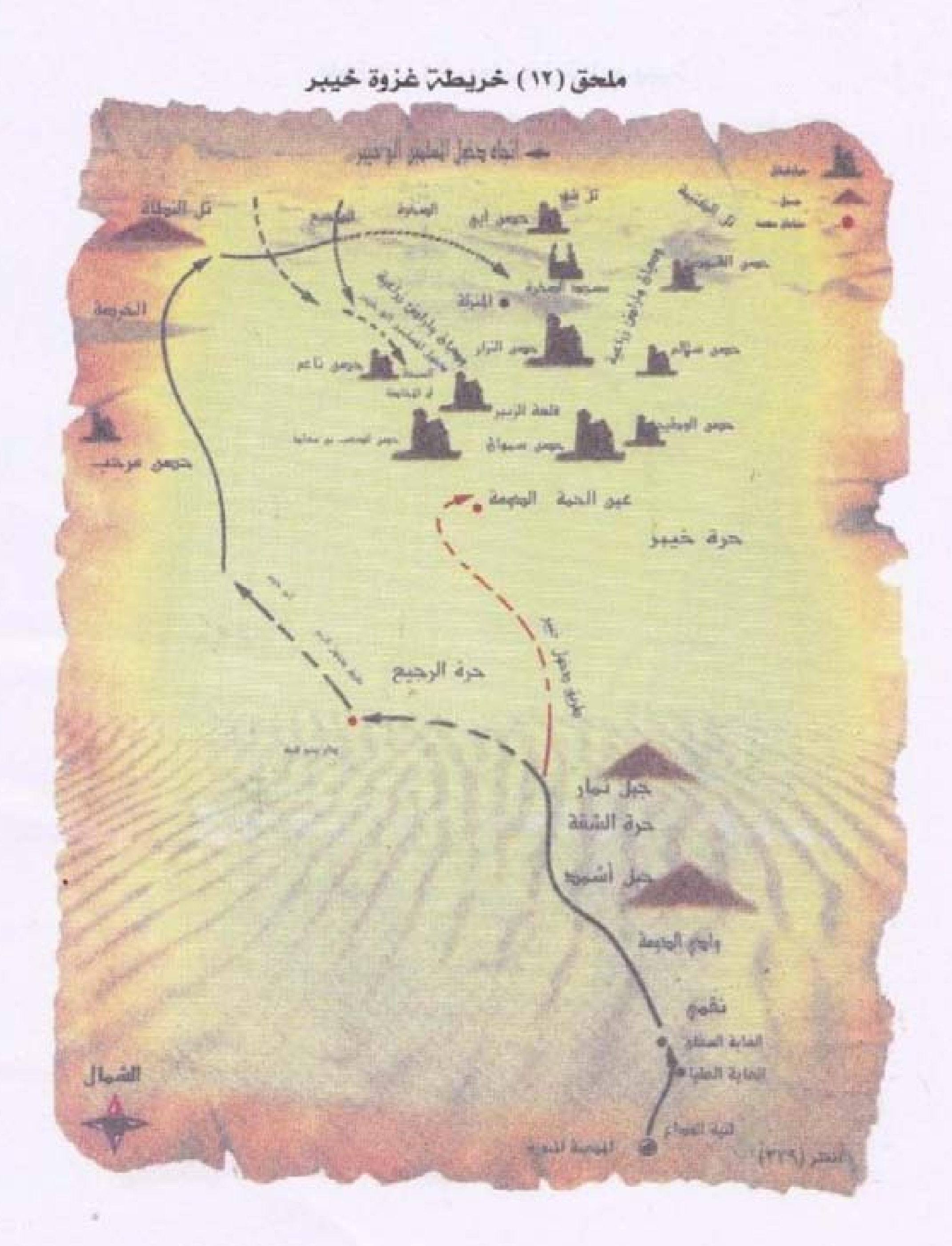
ملحق (١٠) خريطة إجلاء (بني قريظة)



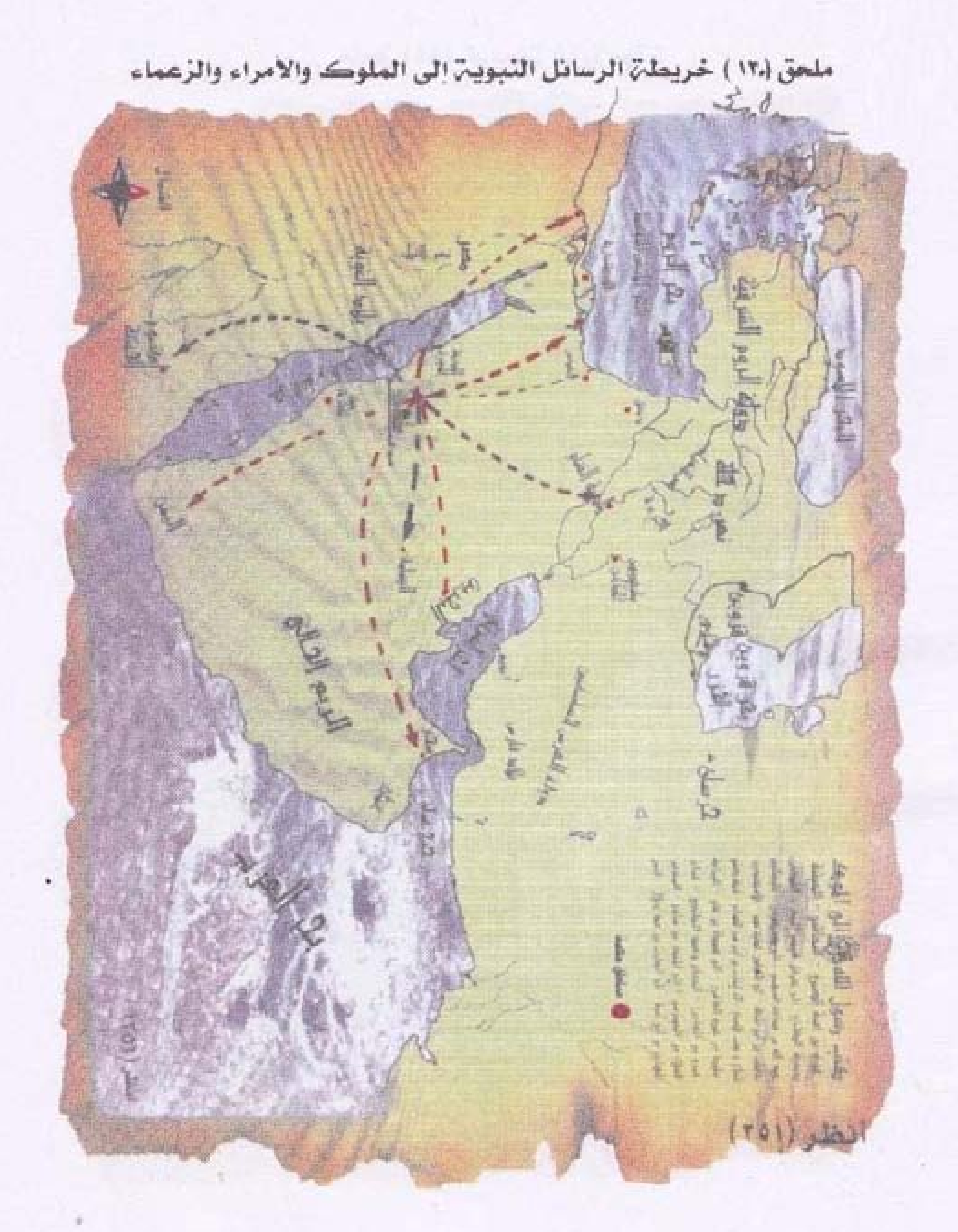
ملحق (١١) خريطة غزوة الحديبية



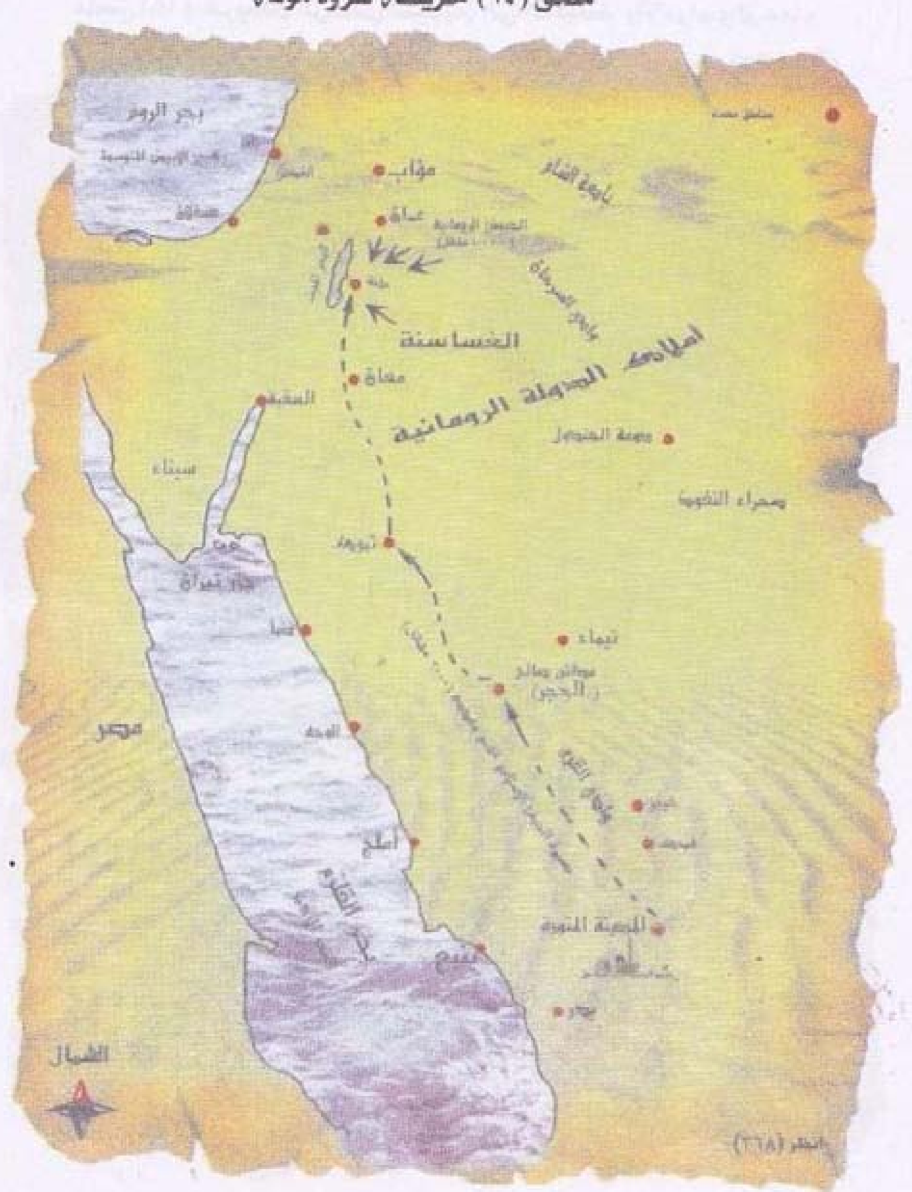
ملحق (١٢) خريطة غزوة خيبر



ملحق (١٣٠) خريطة الرسائل النبوية إلى الملوك والأمراء والزعماء



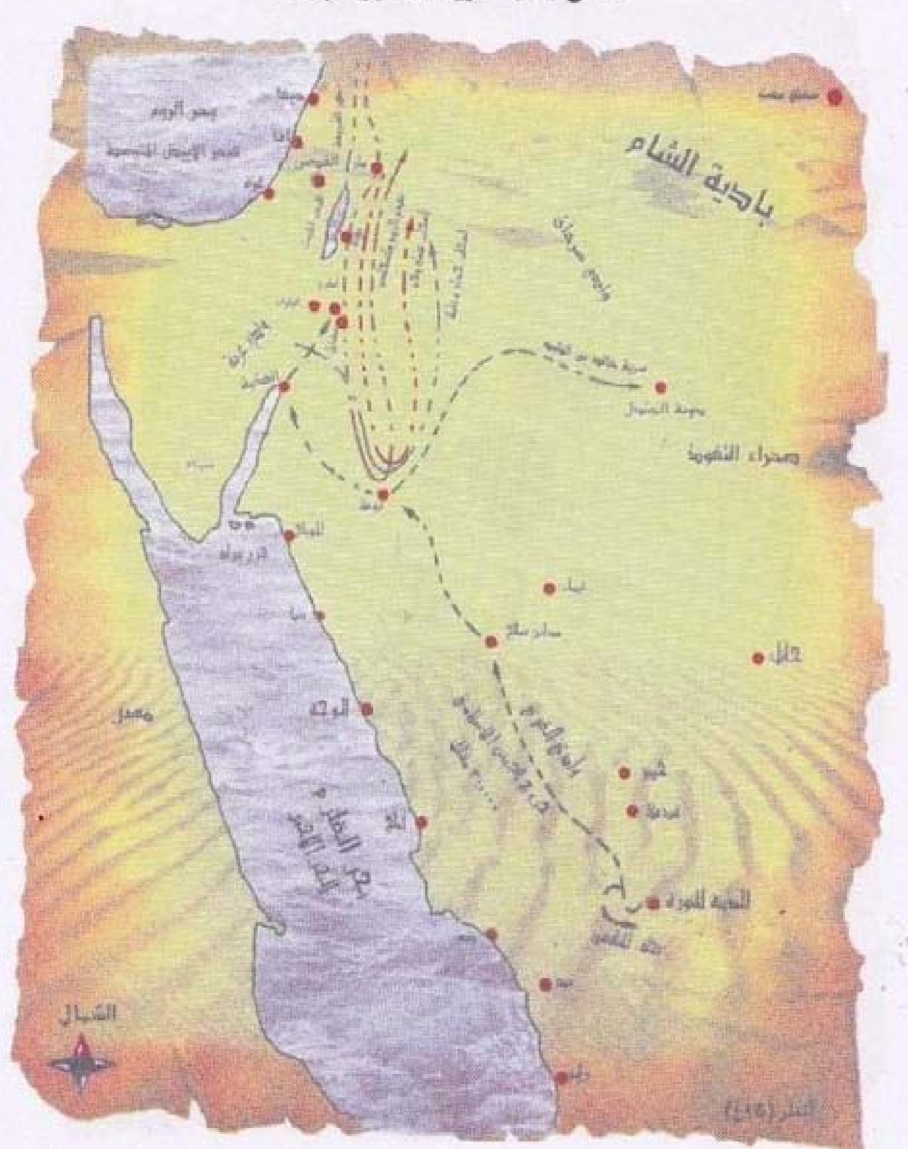
ملحق (١٤) خريطة غزوة مؤتة



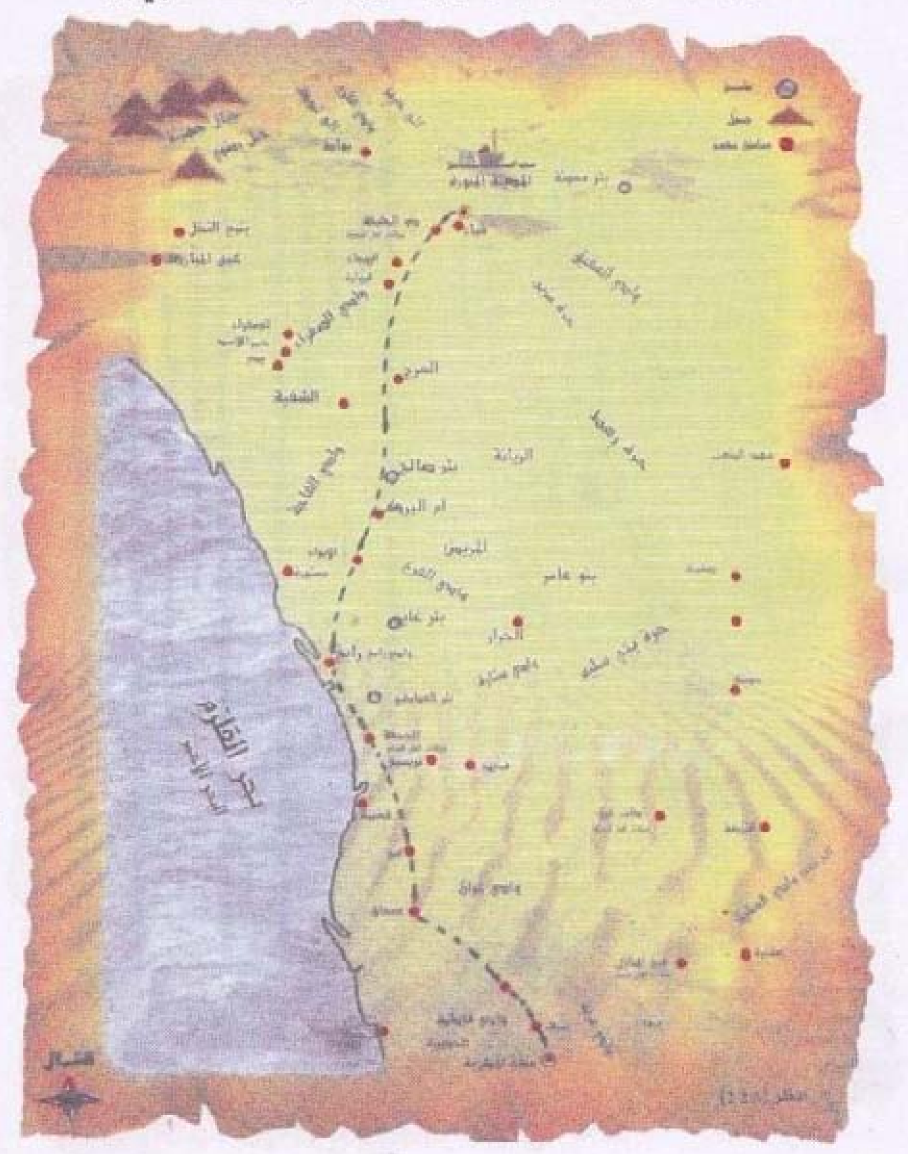


ملحق (١٥) خريطة فتح مكة المكرمة

ملحق (١٦) خريطة غزوة تبوك



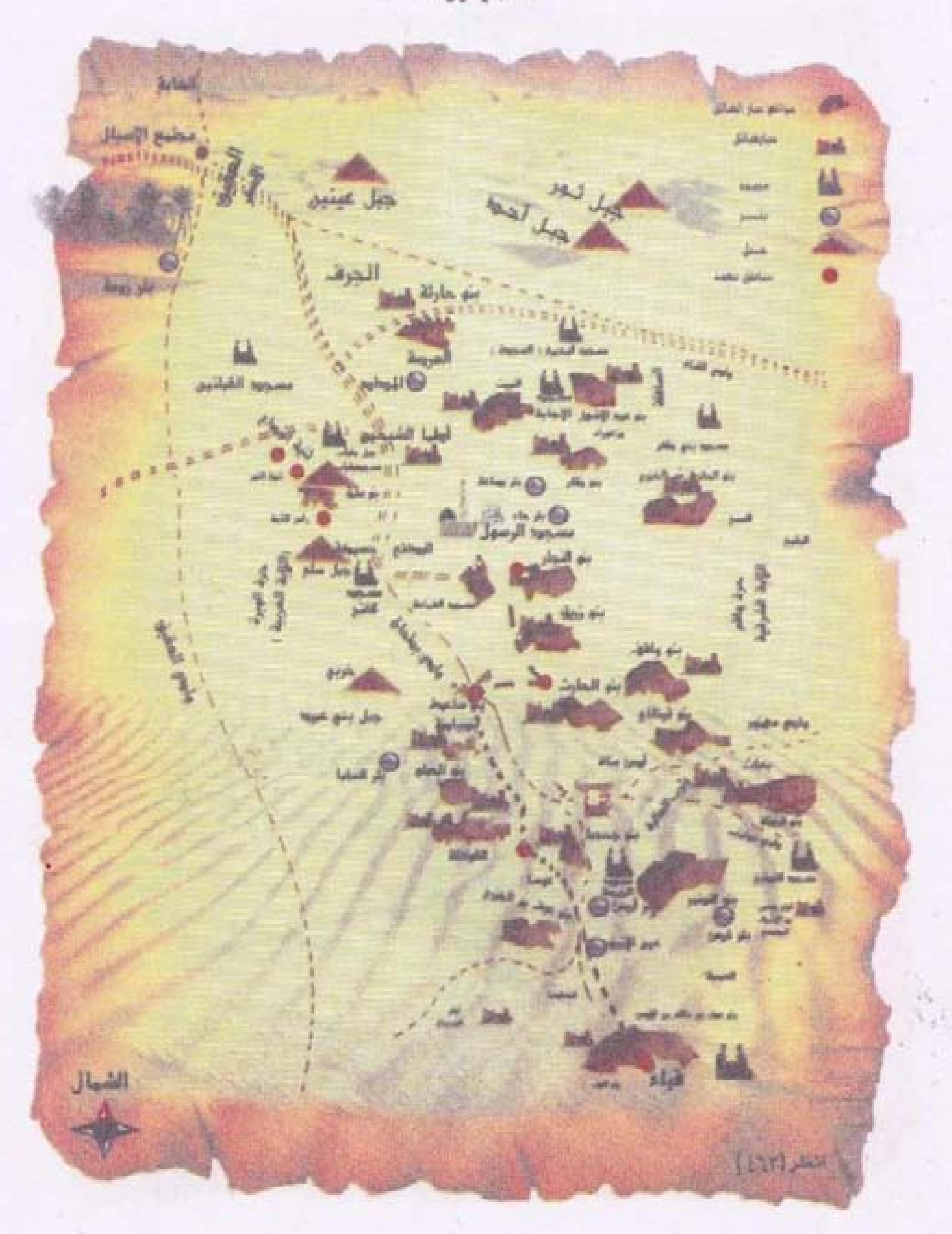
ملحق (١٧) خريطة حجة الوداع والطريق الذي سلكه النبي ﷺ

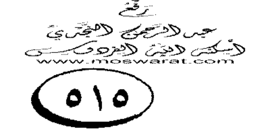


ملحق (١٨) خريطة مناسك الحج

ملحق (١٩) خريطة المواقيت وأعلام الحرم والطرق المؤدية لهما

ملحق (٢٠) خريطة منازل أهم قبائل المدينة المنورة ومساجدها وخط سير ناقة رسول الله ﷺ





ثبت المصادر والمراجع

أ ـ المصادر القديمة

القرآن الكريم.

* **ابن الأثير**: **علي بن محمد بن محمد الجزري (ت٦٣٠هـ).**

ـ **أسد الغابة في معرفة الصحابة**: دار الشعب، القاهرة، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م.

* **الأزرقي**: **أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي (ت٢٥٠هـ).**

ـ **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار**: تحقيق رشدي الصالح ملحس، دار الثقافة، بيروت ومكة المكرمة، ط٣، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

* **ابن إسحاق**: **محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي (ت١٥١هـ).**

ـ **السير والمغازي**: تحقيق الدكتور سهيل زكار، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

* **بحرق**: **محمد بن عمر بحرق الحضرمي الشافعي (ت٩٣٠هـ).**

ـ **حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار ﷺ، المنسوب خطأ إلى ابن الديبع**: اعتنى به محمد غسان نصوح عزقول، دار الحاوي، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

* **البخاري**: **أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (ت٢٥٦هـ).**

ـ **التاريخ الكبير**: جمعية دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن ـ الهند، ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م، ودار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

ـ **الأدب المفرد**: حققه وقابله على أصوله سمير بن أمين الزهيري، مستفيداً من تخريجات وتعليقات الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

ـ **الجامع الصحيح**: المكتب الإسلامي، إستانبول، تركيا، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

* **البكري**: **أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (ت٤٨٧هـ).**

ـ **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**: تحقيق مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط١، ١٣٦٤هـ ـ ١٩٤٥م.

* **البلاذري**: **أحمد بن يحيى بن جابر (ت٢٧٩هـ).**

- **أنساب الأشراف**: تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، مصر، د. ت.

* **البيهقي**: **أحمد بن الحسين بن علي (ت٤٥٨هـ).**

- **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**: تحقيق الدكتور عبد المعطي قلعه جي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

- **السنن الكبرى**: دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد، الدكن - الهند، ط١، ١٣٤٤هـ - ١٩٢٥م.

- **شعب الإيمان**: تحقيق البسيوني زغلول، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م، وتحقيق آخر لمحمد السعيد بسيوني، بيروت، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ.

* **الترمذي**: **محمد بن عيسى بن سورة (ت٢٧٩هـ).**

- **سنن الترمذي**: أشرف على التعليق والطبع عزت عبيد الدعاس، دار مكتبة دار الدعوة، حمص - سورية، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.

- **مختصر الشمائل المحمدية**: اختصار وتحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية بالأردن ومكتبة المعارف بالرياض، ط٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

- **شمائل النبي ﷺ**: حققه وخرّج أحاديثه الشيخ ماهر ياسين فحل، أشرف عليه وراجعه الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

* **ابن الجوزي**: **أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت٥٩٧هـ).**

- **زاد المسير في علم التفسير**: المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

- **الوفا بأحوال المصطفى**: تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

* **ابن أبي حاتم**: **أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي (ت٣٢٧هـ).**

- **الجرح والتعديل**: دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، ط١، ١٢٧٢هـ - ١٨٥٥م، ودائرة الكتب العلمية، بيروت.

* **الحاكم**: **أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد النيسابوري (ت٤٠٥هـ).**

- **المستدرك على الصحيحين**: مكتبة ومطابع النصر الحديثة، الرياض، د. ت.

* **ابن حبان**: **أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد البستي (ت٣٥٤هـ).**

- **السيرة النبوية وأخبار الخلفاء**: تصحيح وتعليق الحافظ السيد عزيز بك وجماعة من العلماء، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

- **صحيح ابن حبان**: المكتبة السلفية، المدينة المنورة، ط١، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م.

* **ابن حبيب**: **أبو جعفر محمد بن حبيب (ت٢٤٥هـ).**

- **المحبَّر**: رواية أبي سعيد الحسن بن الحسين السكري، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د. ت. وطبعة دائرة المعارف

الإسلامية، حيدر آباد، الدكن، سنة ١٣٦١هـ ـ ١٩٤٢م.

* **ابن حجر: أحمد بن علي بن محمد الكناني (ت٨٥٢هـ).**

ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**: مطبعة السعادة، مصر، ط١، ١٣٢٨هـ ـ ١٩١٠م.

ـ **فتح الباري شرح صحيح البخاري**: مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

* **ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعد (ت٤٥٦هـ).**

ـ **الفصل في الملل والأهواء والنحل**: المطبعة الأدبية، القاهرة، ١٣١٧هـ ـ ١٨٩٩م.

* **الحموي: ياقوت بن عبد الله الرومي البغدادي (ت٦٢٦هـ).**

ـ **معجم البلدان**: دار صادر، بيروت، ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٦م.

* **الحميدي: أبو بكر عبد الله بن الزبير (ت٢١٩هـ).**

ـ **مسند الحميدي**: تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، من سلسلة منشورات المجلس العلمي، كراتشي ـ باكستان، عالم الكتب، بيروت، د. ت.

* **ابن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل (ت٢٤١هـ).**

ـ **المسند**: المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

ـ **المسند**: تحقيق أحمد محمد شاكر، لم يذكر الناشر، مصر، ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦م.

ـ **المسند (الموسوعة الحديثية)**: تحقيق الشيخ شعيب الأرنؤوط وآخرين، إشراف الدكتور عبد الله التركي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

ـ **فضائل الصحابة**: تحقيق وصي الله بن محمد عباس، جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

* **ابن خياط: خليفة بن خياط العصفري (ت٤٦٣هـ).**

ـ **تاريخ خليفة بن خياط**: تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري، دار طيبة، الرياض، ط٢، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

* **الدارمي: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل (ت٢٥٥هـ).**

ـ **سنن الدارمي**: طبع بعناية محمد أحمد دهمان، دار إحياء السنة النبوية، القاهرة، د. ت.

* **أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٢٧٥هـ).**

ـ **سنن أبي داود مع معالم السنن للخطابي**: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبرهيم بن خطاب البستي الخطابي (ت٣٨٨هـ)، إعداد وتعليق عبيد الدعاس، نشر وتوزيع محمد علي السيد، سورية، ط١، ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٩م.

ـ **المراسيل**: تحقيق عبد العزيز السيرواني، دار القلم، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

* **أبو داود: سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي (ت٢٠٤هـ).**

ـ **مسند الطيالسي**: ترتيب أحمد بن عبد الرحمن البنا الساعاتي، المنيرية

بالأزهر، مصر، ط١، ١٣٧٢هـ - ١٩٥٢م.

* الديار بكري: حسين بن محمد بن الحسن (ت٩٦٦هـ).

- **تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس**: مؤسسة شعبان، بيروت، د.ت، والمطبعة الوهبية، مصر، رجب، ١٢٨٣هـ - ١٨٦٦م.

* الذهبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت٧٤٨هـ).

- **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**: مجلد قسم السيرة ومجلد قسم المغازي، تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

* ابن زبالة: محمد بن الحسن بن زبالة (ت١٩٩هـ).

- **المنتخب من كتاب أزواج النبي ﷺ، رواية الزبير بن بكار**: تحقيق الدكتور أكرم ضياء العمري، إحياء التراث الإسلامي، ط١، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

* الزرقاني: محمد بن عبد الباقي بن يوسف أبو عبد الله (ت١١٢٢هـ).

- **شرح المواهب اللدنية للقسطلاني**: أحمد بن محمد بن أبي بكر، شهاب الدين، أبو العباس (٩٣٢هـ)، دار الطباعة الأميرية، مصر، ١٢٧٨هـ - ١٨٦١م.

- **شرح موطأ الإمام مالك بن أنس**: مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٣٧٢هـ - ١٩٥٤م.

* الزركشي: محمد بن عبد الله (ت٧٩٤هـ).

- **إعلام الساجد بأحكام المساجد**: تحقيق أبو الوفا مصطفى المراغي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

* ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع البصري (ت٢٣٠هـ).

- **الطبقات الكبرى**: دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

* السمهودي: علي بن عبد الله بن أحمد الحسني (ت٩١١هـ).

- **وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى**: مطبعة الآداب والمؤيد، مصر، ١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م.

* السهيلي: أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الحسن الخثعمي (٥٨١هـ).

- **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية**: لابن هشام، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

* ابن سيد الناس: محمد بن محمد أبو الفتح اليعمري المصري (ت٧٣٤هـ).

- **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**: دار المعرفة، بيروت، د.ت.

* السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت٩١١هـ).

- **تهذيب الخصائص النبوية الكبرى**: هذّبه وخرّج أحاديثه وعلّق عليه الشيخ عبد الله التليدي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط٢، ١٤١٠هـ - ....

* ابن شبة: أبو زيد عمر بن شبة النميري البصري (ت٢٦٢هـ).

- **تاريخ المدينة المنورة**: تحقيق فهيم محمد شلتوت، نشر السيد حبيب محمود أحمد، دار الأصفهاني، جدة، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

* ابن أبي شيبة: أبو بكر عبد الله بن محمد (ت٢٣٥هـ).

- **كتاب المغازي**: تحقيق الدكتور عبد العزيز بن إبراهيم العمري، دار إشبيليا، السعودية، الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

- **المصنف في الأحاديث والآثار**: تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣م، وله طبعات أخرى.

* **أبو الشيخ: عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني (ت٣٦٩هـ).**

- **أخلاق النبي ﷺ وآدابه**: تحقيق السيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

- **أخلاق النبي ﷺ وآدابه**: دراسة وتحقيق عصام الدين سيد الصَّبابطي، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط٢، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

* **الصالحي: محمد بن يوسف الصالحي (ت٩٤٢هـ).**

- **سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد**: تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد وآخرين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م = ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

* **الطبراني: أبو القاسم سليمان بن أحمد (ت٣٦٠هـ).**

- **المعجم الكبير**: تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، وزارة الأوقاف العراقية، إحياء التراث الإسلامي، العراق، ط١، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

- **المعجم الكبير**: تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د.ت.

* **الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير بن زيد (ت٣١٠هـ).**

- **تاريخ الرسل والملوك**: دار المعارف، مصر، ط٤، د.ت.

- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**: تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، د.ت.

* **طرهوني: الشيخ محمد بن رزق بن طرهوني.**

- **صحيح السيرة النبوية المسماة: السيرة الذهبية**: دار ابن تيمية للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٤١٠هـ.

* **ابن طولون: محمد بن طولون الدمشقي (ت٩٥٣هـ).**

- **إعلام السائلين عن كتب سيد المرسلين**: تحقيق محمود الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

* **ابن أبي عاصم: أبو بكر أحمد بن عمرو بن أبي عاصم الشيباني (ت٢٨٧هـ).**

- **كتاب السنة، ومعه ظلال الجنة في تخريج السنة**: لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٥هـ.

* **ابن عبد البر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمري (ت٤٦٣هـ).**

- **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**: **بهامش الإصابة لابن حجر.**

- **الدرر في اختصار المغازي والسير**: تحقيق الدكتور شوقي ضيف، القاهرة، ١٣٨٦هـ - ١٩٦٦م.

* **عبد الرزاق**: بن همام بن نافع أبو بكر الصنعاني (ت٢١١هـ).

- **المصنف**: تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، منشورات المجلس العلمي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

* **أبو عبيد**: القاسم بن سلام البغدادي اللغوي (ت٢٢٤هـ).

- **الأموال**: تحقيق وتعليق محمد خليل هراس، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ودار الفكر، القاهرة، بيروت، ط٢، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

* **عروة**: بن الزبير بن العوام (ت٩٣هـ).

- **المغازي**: برواية أبي الأسود عنه، جمع وتحقيق الدكتور محمد مصطفى الأعظمي، مكتب التربية العربية لدول الخليج، الرياض، ط١، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

* **ابن عساكر**: علي بن الحسن بن هبة الله أبو القاسم الدمشقي (ت٥٧١هـ).

- **تاريخ مدينة دمشق**: قسم السيرة النبوية، تحقيق نشاط غزاوي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، دار الفكر، دمشق، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

* **ابن قتيبة**: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الكاتب الدينوري (ت٢٧٦هـ).

- **المعارف**: تحقيق ثروت عكاشة، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٩م.

* **ابن قيم الجوزية**: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت٧٥٢هـ).

- **زاد المعاد في هدي خير العباد**: تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٣، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

* **ابن كثير**: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت٧٧٤هـ).

- **البداية والنهاية**: تحقيق محمد عبد العزيز النجار، مطبعة الفجالة الجديدة، القاهرة، ويطلب من مكتبة الفلاح بالرياض، د.ت.

- **البداية والنهاية**: تحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

- **تفسير القرآن العظيم**: تحقيق محمد إبراهيم البنا وزميليه، كتاب الشعب، القاهرة، ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م.

* **ابن ماجه**: أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني (ت٢٧٥هـ).

- **سنن ابن ماجه**: تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر العربي، بيروت، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

* **مسلم**: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت٢٦١هـ).

- **صحيح مسلم**: تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

* **المنذري**: أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (ت٦٥٦هـ).

- **الترغيب والترهيب من الحديث الشريف**: تحقيق الشيخ مصطفى محمد عمارة، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

* **النسائي**: أبو عبد الرحمن بن شعيب

(ت٣٠٣هـ).
- **سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي**: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٣٤٨هـ - ١٩٣٠م.
- **عمل اليوم والليلة**: تحقيق د. فاروق حمادة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٥م.
* **النووي**: **أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف (ت٦٧٦هـ).**
- **شرح صحيح مسلم**: دار الفكر، بيروت، د. ت.
* **أبو نعيم**: **أحمد بن عبد الله الأصفهاني (ت٤٣٠هـ).**
- **دلائل النبوة**: تحقيق الدكتور محمد رواس قلعه جي، وعبد البر عباس، دار النفائس، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
* **ابن هشام**: **أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت٢١٨هـ).**
- **السيرة النبوية**: تحقيق الدكتور همام عبد الرحيم سعيد ومحمد عبد الله أبو صعيليك، مكتبة المنار، الأردن، ط١، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.
* **الهيثمي**: **أبو بكر نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان (ت٨٠٧هـ).**
- **كشف الأستار عن زوائد البزار**: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**: دار الكتاب، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م.
- **موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان**: تحقيق محمد بن عبد الرزاق حمزة، دار مكتبة الهلال، بيروت، د. ت.
* **الواحدي**: **أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري (ت٤٦٨هـ).**
- **أسباب النزول**: مطبعة هندية، مصر، ١٣١٥هـ - ١٨٩٧م.
* **الواقدي**: **محمد بن عمر بن واقد (ت٢٠٧هـ).**
- **كتاب المغازي**: تحقيق الدكتور مارسدن جونس، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.
* **اليعقوبي**: **أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت٢٨٢هـ).**
- **تاريخ اليعقوبي**: دار صادر، بيروت، ١٣٧٩هـ - ١٩٦٠م.

ب ـ المراجع الحديثة

* آرثر كريستنسن:
ـ **إيران في عهد الساسانيين**: ترجمة يحيى الخشاب، دار النهضة العربية، بيروت، د.ت.

* **الألباني**: **محمد ناصر الدين الألباني**.
ـ **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**: المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.
ـ **تخريج أحاديث فقه السيرة**: للغزالي، بحاشية فقه السيرة للغزالي.
ـ **حجة النبي ﷺ**: المكتب الإسلامي، بيروت، ط٧، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.
ـ **دفاع عن الحديث النبوي والسيرة والرد على جهالات الدكتور البوطي في كتابه «فقه السيرة»**: مؤسسة ومكتبة الخافقين، دمشق، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.
ـ **صحيح سنن الترمذي**: مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.
ـ **صحيح سنن ابن ماجه**: المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.

* **الآلوسي**: **محمود شكري**.
ـ **بلوغ الأرب في أحوال العرب**: تحقيق بهجت الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٣٤٢هـ ـ ١٩٢٤م.

* **الباكري**: **حسين أحمد الباكري**.
ـ **مرويات غزوة أحد**: رسالة غير منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للحصول على درجة الماجستير، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

* **باوزير**: **أحمد محمد العليمي باوزير**.
ـ **مرويات غزوة بدر**: رسالة منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للحصول على درجة الماجستير، مكتبة طيبة، ط١، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

* **أبو بكر الجزائري**:
ـ **هذا الحبيب محمد رسول الله ﷺ يا محب**: مكتبة لينة، دمنهور، مصر، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

* **البلادي**: **عاتق بن غيث**.
ـ **معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية**: دار مكة، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

* **البوطي**: **الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي**.
ـ **فقه السيرة النبوية**: دار الفكر، دمشق، ط٧، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

* **بوكاي**: **موريس**.
ـ **دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة**: دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م.

* حامد عبد القادر.
- **زرادشت الحكيم**: نبي قدامى الإيرانيين، حياته وفلسفته، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م.

* حسن شحاتة سلطان.
- **كونفوشيوس**: مكتبة نهضة مصر ومطبعتها، القاهرة، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م.

* ابن حُمَيْد: صالح بن عبد الله بن حميد.
- **موسوعة نصرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ**: إعداد مجموعة من المختصين بإشراف صالح بن حميد وعبد الرحمن بن ملوح، دار الوسيلة، جدة، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

* الحكمي: حافظ بن محمد عبد الله الحكمي.
- **مرويات غزوة الحديبية**: رسالة منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للحصول على درجة الماجستير، المجلس العلمي، إحياء التراث الإسلامي، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

* الدوم: محسن أحمد الدوم.
- **مرويات غزوة فتح مكة**: رسالة غير منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للحصول على درجة الماجستير، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

* رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي.
- **إظهار الحق**: إدارة إحياء التراث الإسلامي، الدوحة، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

* أبو زهرة: الشيخ محمد أبو زهرة.
- **الديانات القديمة**: دار الفكر العربي، مصر، ١٣٨٥هـ - ١٩٥٦م.

* زهير سالم.
- **عثرات وسقطات في كتاب المنهج الحركي للسيرة النبوية**: دار عمار، الأردن، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

* الساعاتي: أحمد بن عبد الرحمن البنا.
- **الفتح الرباني لترتيب مسند أحمد بن حنبل الشيباني مع بلوغ الأماني في أسرار الفتح الرباني**: دار الشهاب، القاهرة، د.ت.

* السامرائي: عبد الله سلوم.
- **الغلو والفرق الغالية في الحضارة الإسلامية**: رسالة ماجستير منشورة، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

* السعود: سليمان بن علي السعود.
- **أحاديث الهجرة**: رسالة غير منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للحصول على درجة الماجستير، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

* السندي: أكرم حسين علي السندي.
- **مرويات تاريخ يهود المدينة في عهد النبوة**: رسالة غير منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة للحصول على درجة الماجستير، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

* السندي: عبد القادر حبيب الله السندي.
- **الذهب المسبوك في تحقيق روايات غزوة تبوك**: رسالة منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للحصول على درجة الماجستير، مكتبة المعلا، الكويت، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

* الشامي: صالح أحمد الشامي.
- **من معين السيرة**: المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.

* أبو شهبة: محمد محمد.
- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة: دار القلم، دمشق، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

* الشهري: عوض أحمد سلطان الشهري.
- مرويات غزوة خيبر: رسالة غير منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للحصول على درجة الماجستير، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

* الصوري: الكاهن السامري أبو الحسن إسحاق (مترجم).
- التوراة السامرية: نشر وتعريف الدكتور حجازي السقا، دار الأنصار، القاهرة، ط١، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

* الصوياني: محمد.
- السيرة النبوية الصحيحة: قراءة جديدة -، مؤسسة الريان، ط١، الرياض، ١٤٢٠هـ.
- القصيمية: دراسة نقدية لنصوص السيرة النبوية، دار طيبة، ط١، الرياض، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

* عرجون: محمد الصادق إبراهيم عرجون.
- محمد رسول الله ﷺ - منهج رسالة -: دار القلم، دمشق، ط١، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

* العمري: الدكتور أكرم ضياء العمري.
- المجتمع المدني في عهد النبوة - الجهاد ضد المشركين -: لم يذكر الناشر ومكان النشر، ط١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- المجتمع المدني في عهد النبوة - خصائصه وتنظيماته الأولى -: المجلس العلمي للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، إحياء التراث الإسلامي، المدينة المنورة، ط١، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

* العودة: الدكتور سليمان فهد العودة.
- السيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحاق - دراسة مقارنة في العهد المكي -: رسالة غير منشورة، قدمت لجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض للحصول على درجة الدكتوراه، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

* الغزالي: محمد.
- فقه السيرة: عالم المعرفة، ط٧، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٦م.

* الغضبان: منير محمد.
- المنهج الحركي للسيرة النبوية: مكتبة المنار، الأردن، ط١، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

* عمير: إبراهيم بن محمد عمير.
- مرويات غزوة الخندق: رسالة غير منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للحصول على درجة الماجستير، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

* عون: الدكتور عون الشريف قاسم.
- دبلوماسية محمد ﷺ: رسالة دكتوراه منشورة، قسم التأليف والنشر، جامعة الخرطوم، د. ت.

* قريبي: الدكتور إبراهيم بن إبراهيم قريبي.
- مرويات غزوة حنين: رسالة غير منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للحصول على درجة الدكتوراه، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- مرويات غزوة بني المصطلق: رسالة منشورة، قدمت للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة للحصول على درجة الماجستير، المجلس العلمي، إحياء التراث الإسلامي، د. ت.

* **المباركفوري**: **الشيخ صفي الرحمن المباركفوري**.

ـ **الرحيق المختوم**: بحث في السيرة النبوية، دار الوفاء، المنصورة، مصر، ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م.

* **محمد رواس قلعه جي**: **الأستاذ الدكتور**.

ـ **دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ من خلال سيرته الشريفة**: دار النفائس، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

* **مهدي رزق الله أحمد**: **الأستاذ الدكتور**.

ـ **السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية**: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م. والطبعة الثانية: دار إمام الدعوة للنشر والتوزيع، الرياض، ربيع الأول ١٤٢٤هـ.

* **الندوي**: **أبو الحسن علي الحسني**.

ـ **السيرة النبوية**: دار الشروق، جدة، ط١، ١٣٩٧هـ ـ ١٩٧٧م، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، مطابع علي بن علي، الدوحة، ط١٠، ١٣٩٤هـ ـ ١٩٧٤م.

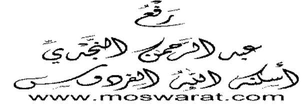
* **هارون رشيد محمد إسحاق**.

ـ **صحيفة المدينة**: دراسة حديثية وتحقيق، رسالة غير منشورة، قدمت لجامعة الملك سعود بالرياض للحصول على درجة الماجستير، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

* **الهندي**: **علي بن حسام الدين الهندي**.

ـ **كنز العمال من سنن الأقوال والأفعال**: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٥، ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

ملاحظة: المصادر والمراجع التي ورد ذكرها أقل من ثلاث مرات، أو كانت الاستفادة منها قليلة جداً لم نذكرها هنا، واكتفينا بذكرها في حواشي الكتاب.



الفهرس


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com